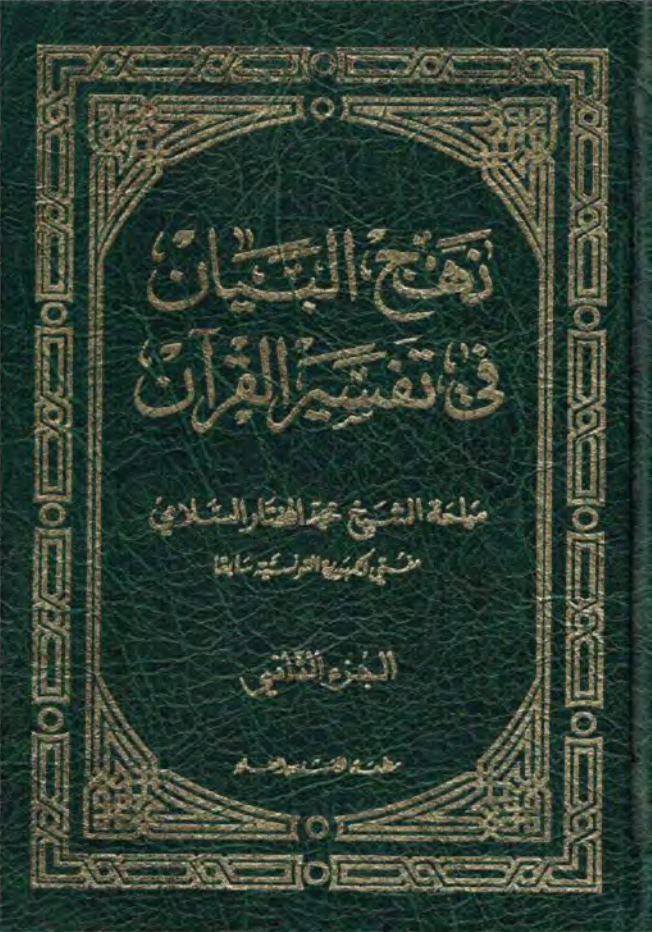

نهج البيان
في تفسير القرآن
سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا
الجزء الثاني

نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الثاني

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجهر : الإعلان، ضد الإخفاء

إن تبدوا : إن تظهروا

يريدون أن يفرقوا : يحاولون التفرقة.

أعتدنا: هيأنا بتقدير منا.

بيان المعنى الإجمالي :

تنبهوا أيها المؤمنون وراقبوا طرق خطابكم، فإن الله يبغض من يتوجه لغيره بالسيء من الكلام القبيح والجارح. ومن ظُلِمَ فلا إثم عليه إذا هو انتقم لنفسه بمثل ما وقع الاعتداء به عليه. ولا يحل أن يرد على القاذف بالقذف. والله لا يفوته شيء من أقوالكم ولا ما تنطوي عليه قلوبكم. والأولى بالمعتدى عليه أن يقابل الاعتداء بالعفو، فإن الله وهو القادر الذي لا يعجزه شيء يغفر للمتجاوزين.

ثم يتوعد القرآن الكافرين ويكشف عن فاسد عقيدتهم. إنهم يكفرون بالله، فيصفونه بما هو كفر كتحديد قدرته أو إثبات البنوة له أو الشح، أو غفلته عن سوء صنيعهم، ويفرقون بين الله ورسله بتكذيب بعضهم، وبقولهم يكفينا أن نؤمن ببعض الرسل. آمن اليهود بموسى وكفروا بعيسى وبمحمد ونفوا النبوة عن كثير من أنبيائهم، واتبع النصارى اليهود في نفي النبوة عن كثير من الأنبياء وكفروا بمحمد ﷺ. ويقولون نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعضهم، ويتوهمون أنهم ناجون باتخاذهم طريقا وسطا بين رفض النبوة وبين الإيمان بجميعهم. رد الله عليهم زعمهم بأنهم قد انطبقت عليهم حقيقة الكفر الصريح، وأن الله أعد للكافرين، الذين هم منهم، عذابا أليما.

وفي المقابل نوه القرآن بالمؤمنين الذين آمنوا بالله المتصف بجميع صفات الكمال، وآمنوا بجميع الرسل ولم يُكذبوا أي واحد منهم، ووعدهم بأنه سيوفر لهم أجورهم، وهو الغفور الرحيم، فمن كان كافرا ثم أسلم فإن الله يغفر له ما مضى.

بيان المعنى العام:

148- لا يحب الله الجهر بالسوء من القول....سميعا عليما

هذا هدي القرآن في تحديد الآداب الاجتماعية التي بمراعاتها يكون المسلمون بسلوكهم الإنساني الرفيع دعاة له. إنه المجتمع الذي تولى الله تأديبه فحوله من السلوك الجاهلي الذي كانت العواطف توجهه، لا يستحي من فحش الكلام، ولا من كلام السوء، حوّله إلى مجتمع منضبط في أخلاقه ولسانه وسلوكه بصفة عامة. إن تعويد اللسان على الانفلات من الرقابة، ينتهي بصاحبه إلى التطاول على الآخرين، ومعظم المشاحنات تتطور من قول السوء إلى البطش باليد، وقد تصل إلى القتل. وقديما تعرض ضبّة لأبي الطيب المتنبي وقتله لهجائه له هجاء أقذع فيه. إن الكلمة الجارحة يبقى أثرها مهتكا للعلاقات يتفاعل في نفس المعتدى عليه مثيرا للانتقام من ظالمه، فيتمزق شمل المجتمع. وانتشار قول السوء يغرس في المجتمع جرثومة الوقاحة، ويتبعه لوث السفاهة والنذالة.

وقد أبدع القرآن في أخصر لفظ: إذ جعل التقابل بين ما يسعى إليه المؤمن وبين ما يفضي إليه قول السوء. إن أعز شيء على من فتح قلبه للإيمان أن يكون قريبا من ربه متهيئا لنيل رضاه، وقول السوء يقصيه عن عناية الله ورضاه، إذ يكون موقعه موقع الذين يحرمهم الله من ألطافه ومن ثوابه. فشأن المبغض أن يكون قصيا عمن لا يحبه لا ينتظر منه كرامة ولا قربا. ويؤكد القرآن لاستئصال هذه الآفة بتنبيه المؤمنين إلى أن الله يسمع كل ما يحدث في الكون. فليستحي المتكلم من النطق بما لا يحبه الله، فإن الله يسمعه، وعطف على التذكير بصفته القديمة السميع، عطف العليم ليكون ما يبرز من المجاهرة بالسوء يستوي فيه الكلام والكتابة والإشارة، وليجد من انفلت من لسانه سوءا دون قصد في عفو الله على ما صدر منه فإن الله عليم بالنوايا ومقاصد الناس.

149-إن تبدوا خيرا...عفوا قديرا.

لكن المعتدى عليه بسيء القول هو بين أمرين: إما أن يعفو، ومن عفا وأصلح فأجره مدخر عند الله لا ينقص منه شيء، وإما أن يرد بما يساوي التطاول الذي

أوذي به. والعفو أولى لأنه من صفات الكمال الإلهي. أنه عفُوّ مع أن قدرته على المتجاوز عنه قدرة لا حد لها. فالعفو كمال، والرد حق.

ولكن مما ينبغي أن يعلمه المؤمن أنه يحرم عليه القذف وإن كان دفاعا عن النفس. فالقاذف الأول يجلد ثمانين جلدة وتسقط عدالته فلا تقبل شهادته، ومثله من رد القذف بالقذف.

150-151، إن الذين يكفرون بالله... وكان الله غفورا رحيما.

ثم يعود القرآن لوعيد الكافرين والمنافقين، بعد أن بين ما استحقوا به ذلك، مما ينطبق على كل من كان على شاكلتهم فيما يستقبل من الأزمان.

أولا: إنهم كفروا بالله، مع ادعائهم أنهم يؤمنون به، وذلك أنهم تصوروا الله وآمنوا به على نهج هو في حقيقته كفر به. إذ نسب بعضهم إليه أولادا، ورفع آخرون بعض مقدساتهم إلى مقام الألوهية، وقال بعضهم إنه شحيح وخلعوا عليه كثيرا من صفات البشر، وادعى آخرون أنه منحاز، وكل ذلك كفر بالحقيقة الإلهية التي هدى الله إليها أمة محمد ﷺ. قال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[1]

ثانيا: محاولاتهم المتكررة للتفريق بين الله وبين من أرسلهم. فهم بتكذيبهم لبعض الرسل ونفي الرسالة عنهم يكونون بذلك قد حاولوا عزل بعضهم عن مقام الائتمان على شرعه، ورموهم بأنهم لا صلة لهم بالله. ففرقوا بين الله ورسله وقطعوا صلتهم به.

ثالثا: إعلانهم أنهم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعضهم. فالنصارى كفروا بمحمد وآمنوا بعيسى وموسى، وأنكروا أيضا نبوة من أنكر اليهود نبوته من بعد موسى. واليهود وقفوا إيمانهم على موسى وكفروا بكثير من أنبيائهم وجعلوا بعضهم ملوكا ونسبوا لأنبيائهم من الكبائر ما ينفي نبوتهم، وكفروا بعيسى وبمحمد. وهؤلاء يبررون مواقفهم بأنهم قد اتخذوا طريقا وسطا ينجيهم عند الله، إذ هم لم يكونوا كافرين بجميع الرسل فيحق عليهم كلمة الكفر.

رد القرآن عليهم ردا صريحا ، فأشار إليهم كأنهم حاضرون محصورون مشاهدون (أولئك) ثم أصدر الحكم القاطع البات: إنهم بجميع طوائفهم ومختلف مقالاتهم، إنهم أولا، الكافرون الذين تنطبق عليهم مواصفات الكافرين جميعها. لم يحصل لهم أي نور من أنوار الإيمان كأن الكفر انحصر فيهم. وثانيا: إن مآلهم قد تقرر بسبب كفرهم فهيأ الله لهم عذابا مهينا كفاء كفرهم وفسادهم.

---

[1] سورة يوسف آية 106

ويصرح القرآن بمآل الفريق الناجي المقابل مفصلا ما جمعه من فضائل، أولا تحقق فيهم الإيمان الصافي، الشامل للإيمان بالله بما اختص به من الوحدانية وصفات الكمال، وآمنوا برسله جميعا من صرح القرآن بأسمائهم ومن ابتعثهم الله لأممهم ولم يذكرهم. فالمسلم يعتقد أن الله أوحى لرسله المختارين من بين البشر لكل أمة رسولها، مؤيدين بالمعجزات ومبلغين للتشريع الذي يرضى أن يكون عليه سلوكهم. وأن هؤلاء الرسل هم النخبة المختارة التي لا يرقى لمستواهم من لم يكلف بالرسالة، وأنهم باعتبار كونهم رسلا لله هم صادقون فيما بلغوه عن ربهم.

152-والذين آمنوا بالله ورسله...غفورا رحيما.

يشير القرآن أخيرا إلى أن الله سيمكنهم من الأجور التي تضاعفت بتضاعف الحقائق التي آمنوا بها وثبتوا عليها. وتختم الآية بأن الله كان غفورا رحيما، ليحقق لمن لم يكن من السابقين لاعتناق الإسلام ولمن سينضم إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة الواضحة في المستقبل، أن الله يغفر لهم ما سبق وهو الرحيم بعباده فيدخل من اهتدى بعد ضلاله فسيح رحمته.

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

البهتان : الكذب المختلق الذي يفاجأ به المكذوب عليه، فلا يجد جوابا.

صلبوه: الصلب ربط المحكوم عليه بوثاق على عمود لا يستطيع الحراك معه.

شبه لهم: وقع الشبه على غيره بما يظن أنه هو.

بيان المعنى الإجمالي :

قاوم اليهود الدعوة الإسلامية مقاومة شرسة، فمن ذلك أنهم خيلوا للناس أنهم يؤمنون إذا وجدوا ما يثبت أن محمدا ﷺ رسول من عند الله. ولذلك طلبوا منه أن ينزل عليهم من السماء كتابا، أوراقه وخطه، منزلة من السماء، ويشاهدون هذه المعجزة. ليذعنوا للإسلام. وقد يكون بعض الناس يروج عليه صدق نيتهم، ولذلك هوّن الله الأمر على نبيه، بأن هذه طريقتهم في التضليل والتجاوز، فهم قد سألوا موسى عليه السلام أكبر من ذلك، إذ سألوه أن ينظروا إلى الله فيدركونه كما يدركون جميع المبصرات، وأن الله أرسل عليهم صاعقة لتأديبهم كما سبق في سورة البقرة. ولم يفد ذلك التأديب فيهم، فاتخذوا العجل الذي صنعه لهم السامري إلها، وعفا الله عنهم، وأعطى الله موسى عليه السلام قوة أخضعتهم لشريعته. ولما طلبهم أن يعاهدوا على الالتزام بما جاءهم من عند الله تلددوا، فرفع الله فوقهم الطور، إما أن يعاهدوا وإما أن يسحقوا سحقا تحته فخضعوا، وأمرهم أن يحترموا السبت وأعطوا المواثيق على ذلك، فتحيلوا لانتهاك المنع.

ثم إن الله سلط عليهم أنواعا من العذاب لنقضهم الميثاق، ولكفرهم ولتعديهم بالقتل على بعض أنبيائهم. وهذه حقائق مثبتة في التوراة التي يؤمنون بها، وتعللوا بأن قلوبهم محجوبة بحجاب ليس من فعلهم فهم غير مسؤولين، فرد الله عليهم بأنهم ألفوا المعاصي حتى أصبحت قلوبهم مغشاة من ظلمهم فلا يؤمنون. وسلط الله عليهم أنواعا من العذاب بسبب كفرهم أيضا ورميهم مريم التقية الصالحة زورا، بالفساد والفجور، وتبجحهم بأنهم قتلوا بقصد الإهانة المسيح عيسى ابنها عليه السلام. وحقق الله أنهم كاذبون، فقد نجى الله عيسى من مكرهم، وإنما وقع الصلب ونفذ القتل في شبيه به. وهذا أمر مختلف فيه بين النصارى، فرواياتهم في هذا روايات غير موثقة، ولا يملكون اليقين في قتله، إذ الحقيقة أن الله نجاه من كيدهم ورفعه عنده، والله لا يغلبه شيء، يفعل ما يشاء وينفذه بحكمته. ثم يثبت القرآن حقيقة أخرى: هي أن جميع أهل الكتاب اليهود الزاعمين أنهم قتلوه، والنصارى الذين يؤمنون بالصلب، كل واحد منهم عند النزع تبرز له الحقيقة: أنه ما قُتل وما صُلب.

بيان المعنى العام:

153 -154، يسألك أهل الكتاب...ميثاقا غليظا.

واجه النبيﷺ في مكة المشركين بعنفهم واستكبارهم، ومتنوع إيذائهم المادي مما فصلته كتب السيرة.

وفي المدينة واجه نمطا آخر من المعاكسة للدعوة قام به يهود، عملوا على تشكيك أصحابه في صدق دعوته، والمغالطة بما يشيعونه في الأوساط بخبث ومكر. فتولى الله في هذه الآيات عرض ما مكروا به، وتولى أيضا الرد عليهم.وتعين من سياق الآية أن المقصود بالذين أوتوا الكتاب، اليهود.

طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآية تدل على أنه رسول من الله، طلبوا: أن ينزل عليه من السماء كتابا مخطوطا. وهذا الطلب قد يروج على صغار العقول ويجدون فيه طلبا معقولا. وتولى الله تبكيتهم من ناحية، وتأييد رسوله بالكشف عما سألوه من قبل لموسى الذي جمع كلمتهم وأخرجهم من الاضطهاد الفرعوني، ورأوا من الآيات الدالة على صدقه الشيء الكثير عند خروجهم من مصر، وفي عبورهم إلى سيناء، وفي مقامهم فيها، ومع ذلك سألوا موسى أن يمكنهم من رؤية الله عيانا، لا رغبة في السمو إلى هذه المنزلة، ولكن همهم أن ينظروا إلى شيء عجب مخالف لما يبصرون عادة. وأن الله صعقهم بسبب ظلمهم وتجاوزهم الحدود، وقد امتن الله عليهم بعد ذلك كما قدمنا بيانه في سورة البقرة. والعقوبة ثم المنة لم تُصلح نفوسهم، إذ هم بعد ذلك عبدوا عجل الذهب الذي صوره لهم موسى السامري، ثم إن الله عفا عنهم أيضا، وأخضعهم سيدنا موسى عليه السلام لقبول شريعته، وكان له سلطانه القوي والبين على تلكم النفوس التي تعودت على التمرد. وألزمهم أن يبذلوا عهدا موثقا بالتزام ما جاءهم عن الله، فترددوا وما طلّوا، فرفع فوقهم الطور، ووقعوا بين الإذعان للحق وبذل العهد وبين أن ينسحقوا تحته ولا يبقى لهم أي أثر. فطاعت نفوسهم عند ذلك ببذل العهد والتزام الميثاق.

وبعد كل ذلك كان من الطبعي أن تلين شكيمتهم ويسارعوا إلى الطاعة، وينفذوا ما يؤمرون به بدون تردد ولا تحريف. وفتح عليهم أن يدخلوا باب القرية التي كتبها لهم سجدا، فأبوا. وحرم عليهم يوم السبت فخرقوا حرمته. وكل ذلك سبق تفصيله في سورة البقرة وأن الله أخذ عليهم ميثاقا مؤكدا لا مثنوية فيه ولا يقبل استثناء.

ذكْر القرآن بتلكم المواقف لبني إسرائيل مع موسى ليهوّن على رسوله، بأن ما يلقاه منهم من تعنت لقيه الأنبياء السابقون منهم، وليسجل أن تربيتهم لأطفالهم تثبّت

ما كان عليه أسلافهم، فهم ماضون على نفس الطريقة، وأن اللجاج والدوران وطلب النزول إلى المجسم المحسوس رسخ فيهم رسوخا لا يجدون عنه حولاً.

155-فبما نقضهم ميثاقهم....فلا يؤمنون إلا قليلا.

صرح بعصيانهم وأنهم لا يؤمنون، من ناحية أخرى ليبني على فسادهم ما تأهلوا له من نقمة الله وغضبه عليهم،فلذا كان أول ما سجل عليهم نقضهم للميثاق، وهو ما أخذوا به وسلط عليهم بسببه من التنكيل ما سلط. واستمر شأنهم على هذا النحو كلما عاهدوا عهدا نبذوه.

وقد فصلت سورة البقرة بعض ما صدر منهم من كفر بآيات الله الواضحة، وجراءتهم على أنبيائهم بالإنكار لنبوتهم تارة، وبقتلهم، كما هو ثابت عندهم في التوراة، فقد قتلوا من الأنبياء، أرمياء، وحزقيال، وأشعياء، وزكرياء، ويحيى، والقتل للأنبياء شناعته لاصقة بهم لأنه من أنكر الباطل والظلم.

وكذلك تبريرهم للرفض بمبررات كاذبة، إذ هم في الحقيقة إنما يريدون التنصل من الإذعان للحق، كقولهم: قلوبنا عليها حجاب لا ينفذ ما تقوله إلى أفهامنا، فلا تنتظر منا أن نهتدي بدعوتك. ويكذبهم الله في دعواهم، وهو العليم بالقلوب وخلجاتها، وبالطبيعة التي خلقها عليها، فيقرر أن قلوبهم كقلوب البشر جميعا فطرت على قبول الخير أو الشر، وأن الإنسان بإرادته للخير ينمي قابلية الخير والحق، أو بإرادته للشر ينمي قابلية الشر والضلال، حتى يألف أحدهما إلفا ينسيه ما هو مُمكّن منه من أحدهما بأصل الخلقة. واليهود بتنمية الانحراف في مداركهم وأرجاعهم كونوا حجابا رافضا لأنوار الحق، فطبع الله على قلوبهم بما اختاروا لأنفسهم.

والطبع يتحقق بإحكام الغلق على الشيء، ثم وضع ختم عليه، فلا يمكن الوصول إلى ما يحويه إلا بإزالة السداد الذي يَظْهَرُ أيُّ تغيير عليه، بزوال أثر الختم. وبذلك فإنه لا يرجى أن ينفذ نور الإيمان إلى قلوبهم. ووصف إيمانهم بالقليل تأكيدا لنفي حصوله، لأن الإيمان مرتبة واحدة، هي اليقين الأيقن بما يحويه مما يرضى عنه الله، فهم إن آمنوا مثلا بموسى ﷺ فهم لا إيمان معتبرا لهم، لأن تخلف أي شعاع من أشعة الإيمان يفضي إلى الظلام الدامس الذي تذهب معه جميع الأشعة.

156-وبكفرهم وقولهم....بهتانا عظيما.

ثم أعاد القرآن التذكير بالسبب الأصلي لما سلط عليهم، وهو الكفر فقال تعالى: قرنوا الكفر بظلم آخر ثبتوا عليه، وبلغوه لذريتهم، فاستحق الذين كانوا حاضرين والذين من بعدهم جزاء إفكهم. اتهموا مريم التقية النقية العابدة المخلصة لله، رموها

بهتانا وإثما وكذبا بما لا يتصور أن ترمى به لعفافها وانصرافها بكليتها لعبادة ربها. فوصف ما اختلقوه بأنه بهتان عظيم.

157-158، وقولهم إنا قتلنا المسيح...عزيزا حكيما.

إمعانا منهم في الكفر ادعوا أنهم قتلوا النبي الصالح الذي بعث فيهم ليصفي ما علق بعقائدهم من انحراف، ويخفف عنهم بأمر ربه بعض ما كان محرما عليهم كما تقدم تفصيله في سورة آل عمران. فعزموا على إهانته وقتله، ثم رووا ما ظنوا أنهم فعلوه لأخلافهم، حتى أصبح معدودا عندهم مزية من مزاياهم. ويحقق الله في هذا الأمر الذي دخله كثير من اللبس: إن الله قد نجى عيسى ﷺ من الإهانة، وحماه من مكرهم، وأن الذي قُتل ليس عيسى الذي رفعه الله إليه، بل ألقي الشبه على أعظم تلاميذه فسادا وأخبثهم نفسا وأشدهم خيانة، فظنوه عيسى وقتلوه. وقد تقدم في سورة آل عمران تفصيلات أعمق في هذه القضية، ودعوى الرسول ﷺ نصارى نجران للمباهلة وامتناعهم. ويؤكد القرآن الحقيقة التي علمها لاتّباع هذه الأمة من أمر عيسى، التي مبناها أن الله عزيز لا يغلبه شيء، حكيم يحقق ما أراد مع إبرازه على أفضل الوجوه وأتمها تبعا لعلمه المحيط بجميع التفاصيل التي قد يغيب بعضها عن البشر.فخلق عيسى بدون أب لا استحالة فيه.

159 -وإن من أهل الكتاب..... يكون عليهم شهيدا.

ثم يتبع القرآن ما ذكره في أمر عيسى ﷺ، بحقيقة أخرى هي من علم الغيب، مفادها: أن ما من فرد من اليهود والنصارى إلا يؤمن بما ذكره الله في القرآن عنه. فاليهود عندما يحتضر كل فرد منهم تتكشف له الحقيقة بما ليس معه أي ريب أن عيسى لم يقتل ولم يصلب، وأنه رسول صادق. والنصارى كذلك عندما يحتضر أي فرد منهم يكشف الله له الحقيقة بأن عيسى عبد الله ورسوله لم يقتل ولم يصلب وأنه ليس إلها. ويتواصل قيام هذه الحقيقة يوم القيامة، فيكون عيسى شهيدا على الطائفتين، مصدقا من رب العزة عندما يعلن بأنه بلغ ما أوحي له به، وأن اليهود أعرضوا عنه، وأن النصارى الذين يدعون الإيمان به قد حرفوا رسالته، وأدخلوا فيها ما يتبرأ منه.

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا

لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

صدهم : منعُهم الناس

الراسخون في العلم : المتمكنون في العلم

بيان المعنى الإجمالي :

مما يؤكد افتراء اليهود على الله **(من أنهم شعب الله المختار)** ما ذكرته هذه الآيات. إنه تبعا لأنواع الظلم الصادر منهم ومنعهم الناس من اتّباع الطريق الذي يرضى الله عنه، عاقبهم الله بعقوبات تردعهم عن التمادي في ذلك. حرم عليهم تناول بعض الطيبات التي كانت حلالا، لتردعهم عن مواصلة أكل الربا المحرم أيضا، واحتيالهم على الناس والاستيلاء على أموالهم بالباطل. تلكم هي مناكر شاعت في المجتمع اليهودي وما تزال متواصلة إلى اليوم، رغم توبيخهم وحرمانهم. ثم حطم دعوى امتيازهم، بأنه أعد للكافرين منهم عذابا أليما. وعدلُ الله هو العدل الكامل فهو لا يشنع باليهود ولا يعد لهم العذاب الأليم لأنهم يهود، ولكن ذلك كان جزاء ما اقترفوه، والفساد الذي التزموه. ولذا نصت الآية على أن الذين جمعوا بين التمكن من العلم والإيمان الحق، هم غير متعصبين، فهم يؤمنون بما أنزل إليك يا محمد ويؤمنون بما جاء به الأنبياء السابقون، ويؤدون صلواتهم على أتم وجه، ويبذلون عن طواعية زكاة أموالهم، وقلوبهم عامرة بالإيمان بالله وبالجزاء يوم القيامة. وهؤلاء قد وعدهم الله ووعده الحق أنه سيؤتيهم أجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا هو.

بيان المعنى العام:

160 -فبظلم من الذين هادوا...كثيرا.

عاد القرآن ليكشف أمر اليهود وما عوقبوا به في زمن موسى عليه السلام. فزيادة عن العقوبات المفصلة سابقا، سلط عليهم عقوبة تؤدبهم حتى يرتدعوا عن صلابتهم، واسترسالهم في الغي. وهذا نوع من العقوبات التأديبية، فقد يمنع الفرد أشياء ليتحول من الاسترسال في إشباع شهواته إلى نوع من الانضباط، فتسلس قيادته إلى الخير. وقد سار على هذا المنهج بصفة خاصة القائمون على تمرين الجنود على

الطاعة. فهم يمنعونهم من بعض الأشياء التي لا ضرر فيها في الظاهر، ولكن ليؤدبوهم بواسطة الحرمان على قبول ما يؤمرون به، وحسن الانقياد. واليهود قد كان هذا الحرمان مسببا عن أمور:

1) ظلمهم في العقيدة والسلوك والعناد.

2)عملهم الدؤوب على الحيلولة بين الصالحين وبين الإخلاص لله، والقيام بما يشرعه

161- وأخذهم الربا وقد نهوا عنه...عذابا أليما.

3) شراهتهم على الربا، هذه الآفة التي نهوا عنها. وزعموا أن الله حرم الربا في تعامل اليهود فيما بينهم فقط. ولكن الربا ظلم وفساد يتبعه اختلال في الاقتصاد، فادعاؤهم قصر ذلك على المبادلات بين الإسرائيليين تحريف وكذب على الله.

4) أكلهم أموال الناس بالباطل. وفي التوراة يعترفون بانتشار الرشوة. ومن ذلك أنهم يستبيحون الاستحواذ على أموال غير اليهود. وفي استحواذهم على أموال الفلسطينيين وديارهم وأراضيهم ما يقوم شاهدا على صدق ما وصفهم به القرآن. وما تقدم في سورة آل عمران: (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل)[2] ويصرح القرآن بأن الله قد هيأ للذين كفروا منهم عذابا يبلغ ألمه كل جزء من أجزاء كيانهم المادي والنفسي.

162- لكن الراسخون في العلم...أجرا عظيما.

كشأن القرآن في الإنصاف وعدم التعميم، وقع التصريح باستثناء اليهود الذين تمكنوا من العلم، وكانوا لا يرتجُون لبعض الظواهر، وثباتهم على ما استقر في مداركهم لا تزلزله الأوهام والخيالات. هؤلاء العلماء الراسخون، يؤمنون برسالتك ،إذ تقوم لهم الشواهد على صدقك وأن ما أتيت به هو وحي الله، وإدراكهم للحق وتشبعهم به جعلهم أيضا يؤمنون بما أنزله الله على رسله السابقين، إذ الحق واحد ونوره لا يختلف. وكذلك تبعهم من لم تفسد فطرتهم فأدركوا حقيقة ما تدعوهم إليه، واستووا مع الراسخين في العلم وإن لم يكونوا منهم، استووا في الإيمان بك وبجميع رسالات الله. وعطف عليهم المقيمين الصلاة، وجاء العطف هكذا بالياء على خلاف ما يقتضيه الظاهر من الرفع، (المقيمون الصلاة) لأن المعطوف عليه (الراسخون) والتالي:(المؤتون الزكاة، والمؤمنون)- ووجهه أن المتعاطفات إذا توالت جاز اتباع بعضها لبعض وجاز قطع أحدها بإضمار : أمدح ـ مثلا، وهو ما

[2] سورة آل عمران ،آية 75

أرجحه لأن القطع يدل على الاهتمام بالمقطوع مع ما يدل عليه الفعل المقدر من معنى زائد. يتأيد ذلك بأن الصلاة في الدين الإسلامي لها الشأن المتفرد، إذ هي تابعة للتوحيد متكررة لإيقاظ المؤمن لما تضمنه الدين.

إن اليهود الذين جمعوا بين الإيمان بك وبما أنزل من قبلك، والذين أتوه بهم وأمدحهم لأنهم يقيمون الصلاة عمود الإسلام، ويؤتون الزكاة طواعية، تحت راية الإيمان بالله واليوم الآخر، سيؤتيهم الله من فضله أجرا عظيم القدر يتجاوز التصور.

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

بيان معاني الألفاظ

أوحينا: أوصلنا لك حقائق وعيتها متيقنا أنها من عند الله.

يشهد بما أنزل إليك :يثبت ويعلن صدقك وكذب المدعين أنه ليس من عند الله.

كفى بالله شهيدا: شهادة الله أقوى دليل على صدقك، فهي كافية.

بيان المعنى الإجمالي:

يُثْبِتُ الله أن سنته مع جميع رسله أنه يوحي إليهم بكيفية يسمو بهم إلى مجاوزة وصول المدارك عن طريق الحس إلى مستوى يحصل معه أبلغ أنواع اليقين وأتم مستويات الإدراك لما أراد الله أن يثبته في قلب الموحى إليه فيعيه وعيا ثابتا. وهذ الوحي مكن الله منه الأنبياء نوحا ومن تلاه من النبيين كما أوحى إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأبناء يعقوب وإلى عيسى وإلى أيوب وإلى يونس وهارون وإلى سليمان، وآتى داود كتابا هو الزبور. وكلهم ما قدموا كتابا جامعا مقروءا من عند الله كما اقترح اليهود تعنتا. وأرسل رسلا غير المذكورين، بعضهم قد سبق أن تحدث عنهم القرآن ورسلا لم يسبق لهم ذكر في القرآن.

والواجب الإيمان تفصيلا بالرسل المذكورين والإيمان الإجمالي بمن لم يذكر. على معنى أن كل رسول من عند الله يجب الإيمان برسالته وتقديره بأن ما جاء به حق وأنه معصوم.

وخص من بين الرسل موسى عليه السلام بأن أبلغه كلامه مباشرة بدون واسطة بدون حرف ولا تموج هواء.

إن مهمة هؤلاء الرسل تبشير المتبعين لما جاؤوا به، بأن لهم الطمأنينة في الحياة الدنيا، والفوز في الآخرة. وفي المقابل ينذرون من أعرض عما جاؤوا به بخسارة الدارين. ومن ناحية أخرى، رسالاتهم تقطع الاعتذار الذي يمكن أن يحتج به الكافرون ومرتكبو الشرور، يعتذرون بأنهم لو جاءتهم هداية الله ما وقعوا فيما وقعوا فيه.

والله عزيز لا يخرج شيء عن تنفيذ ما يريده فيه، وهو حكيم فيما رتب عليه أمر الكون في الحاضر والمآل.

ويكفي طمأنينة لصدق رسول الله ﷺ فيما جاء به أن الله يحقق صدقه ويعلن كذب الكافرين المشككين في صدقه. والملائكة الخيرةُ الصادقون المعصومون يعلنون أيضا أن القرآن حق، وكفى بالله شهيدا.

بيان المعنى العام:

163 – إنا أوحينا إليك ــ وآتينا داود زبورا.

وتولى القرآن الرد عليهم كما تبين في الآيات السابقة. ثم أضاف إلى ذلك ما يحطم شغبهم بدليل يدمغ تعنتهم، فذكر سبحانه بالحقيقة التي جرى عليها أمر المرسلين جميعا، هذه الحقيقة هي أن الله لم ينزل على كل رسول كتابا، مع أن اليهود يعترفون بنبوتهم. فالله سبحانه أوحى لنبيه محمد ﷺ وحيا مثل ما أوحى لبقية الأنبياء، فلا تلازم بين النبوة وإنزال كتاب من السماء. ولكن خصيصة الرسل ، هي الوحي. والوحي هو وضع تكون فيه حالة من اصطفاه الله قد بلغت من التجرد عن الإحساس المادي مستوى يستطيع فيه أن يتلقى ويعي ما يريد الله أن يمكنه منه من الهدى، متيقنا أن المعنى الذي وعاه هو من عند الله بصفة تساوي أو تفوق ما يسمعه عادة وهو في تمام الوعي والإدراك. إن إلقاء المعنى المتيقن أنه من عند الله، تارة يكون باللفظ، وتارة يكون بطريق آخر لا حرف فيه، ولكن وضوح معناه في قلب النبي كأشد ما يكون الوضوح.

هذه سنة الله مع الأنبياء ابتداء من أول نبي ورسول، وهو نوح عليه السلام. وتضافرت الأدلة على أن نوحا هو أول رسول من عند الله بعثه الله بشريعته. والظاهر أن بعثته كانت للعالمين كافة كرسالة النبي ﷺ، وأن الله بعث بعد نوح أنبياء كثيرين،

وصرحت هذه الآية بأسماء بعضهم، فأولهم ذكرا إبراهيم. وحقيق بأن يكون المقدم، فإنه ﷺ جاهد في سبيل نشر توحيد الله باليد واللسان والعقل، وأقام الأدلة على التوحيد وأبطل الشبه، وتعرض إلى مقاطعة أقرب الناس إليه، وابتلي بتسليط العذاب عليه، وهو الذي بنى أول بيت لله بمكة، وهدي إلى إبراز طريقة التعلق بالله بكيفية واضحة. ثم تابعت الآية ذكر الأنبياء فذكرت ابنيه إسماعيل جد النبي ﷺ وإسحاق جد موسى. والأنبياء من نسل إسحاق وهم: يعقوب (إسرائيل) وأولاد يعقوب وهم الأسباط. ولا أريد أن أتابع التوراة في تعيين أسمائهم، فأنا لا أثق بما جاء فيها، ليقيني أنها حرفت ولم تبق على صفائها الأول. وأكبر دليل على ضياع النص الأول: أنها كتبت، في وقت موسى ﷺ طبعا، باللغة العبرية القديمة التي كان موسى وبنو إسرائيل يتكلمون بها. ولا يوجد اليوم بين أيدينا أي نص باللغة العبرية القديمة التي هي لغة ميتة. لا هي موجودة، ولا يوجد من يفهمها. والموجود الآن هو بغير اللغة التي كان موسى ﷺ يخاطب بها قومه، فهي على أحسن الفروض ترجمة تعبر عن فهم مترجمها. وأيضا ما حل ببني إسرائيل وتشتتهم في العالم بعد السبي البابلي، وتفرقهم تفرقا كبيرا في أنحاء العالم، ينفي الوثوق بشيء مما يدعون أنه التوراة. خاصة ونحن إذا تجاوزنا سفر الخروج لا نجد في التوراة إلا تسجيلا لتاريخ بني إسرائيل وتيههم في العالم في أزمان بعيدة عن عصر موسى وهارون، ولاقداسة ولا ثقة في تاريخ كتبه وسطره مجهولون.

ومن نسل يعقوب أيضا سيدنا عيسى ﷺ، فهو يهودي بعثه الله لبني إسرائيل ليخفف عنهم بعض ما شدد الله به عليهم ليؤدبهم.

أما سيدنا أيوب ﷺ، فقد اختلف في نسبه وفي العهد الذي بعث فيه وسيتحدث عنه القرآن بصفة أوسع في سورتي الأنبياء وص. والذي نجزم به أنه رسول من رسل الله وما زاد على ذلك مما لم يُعْنَ القرآن بضبطه لا يتعلق به كبير فائدة. ومن المرسلين يونس بن متى، ويذكر أنه بعث إلى أهل نينوى في القرن الحادي عشر قبل الهجرة. وسيأتي مزيد تفصيل لبعض أحواله في سورتي يونس والصافات.

ومن أنبياء بني إسرائيل هارون أخو سيدنا موسى والنبي الملك سيدنا سليمان وكلاهما من نسل يعقوب، ولم يؤت أحد منهما كتابا. ومنهم أيضا سيدنا داود. وهو من نسل سيدنا يعقوب أيضا وآتاه الله الزبور كتاب مواعظ. ولم ينزل عليه من السماء، واليهود يعترفون بنبوته.

164-ورسلا قد قصصناهم عليك...تكليما.

ثم عصم القرآن فذكر: أن الرسل الذين بعثهم الله لهداية البشرية كثيرون، وأن بعضهم قد قص الله على رسوله منْ أمْرِهِمْ فيما أوحي إليه قبل نزول هذه الأيات، ومنهم من لم يخبر الله رسوله عن أنبائهم. وكل ذلك تابع لحكمة الله فيما أخبر به وفيما طواه.

ثم ذكرت الآية لتثبيت الواقع من جهة، وللرد على اليهود من جهة أخرى، فذكر القرآن أن الله كلم موسى تكليما، فأتى بالمفعول المطلق (تكليما) لتأكيد وقوع الكلام من الله لموسى.

وإثبات صفة الكلام لله أمر يقيني وإن قال المعتزلة: هو متكلم والكلام ليس صفة له، واستعانوا بالسلطة لفرض رأيهم، وامتحن كثير من أئمة الهدى فصبروا على التعذيب، وقتل عدد غير قليل منهم، حتى رفع الله الفتنة. والآية ترد مذهبهم إلا على ضرب من التأويل البعيد.

إنا نثبت لله كلاما منزها عن الأحرف والأصوات، وهو أمر من أمور الغيب تقصر أدوات إدراكنا عن تصوره تصورا دقيقا، فنؤمن به إجمالا على أن الله أبلغ موسى ما أراد إبلاغه بدون واسطة ملك ولا شجرة ولا أي واسطة أخرى، وبلا حرف ولاصوت، فأدرك موسى بسمعه ما تعلقت الإرادة الإلهية بإبلاغه إليه ووعاه عقله، وأصبح ما يمثله كلاما مستقرا في ذاكرته، فتسمية ما تقبله موسى كلاما، هو أقرب تعبير عن الحقيقة التي تلقاها موسى من ربه، وهو غير الكلام وأسمى منه، وتقصر اللغة، المعبرة عن المدارك البشرية للأشياء، أن تعبر عنه تعبيرا مساويا.

165 -رسلا مبشرين ومنذرين...عزيزا حكيما.

أبان القرآن عن حال أولئك المرسلين فقال: هم مبشرون لمن يؤمن بأساسيات العقيدة ويطيع أوامر ربه ويخلص له، يبشرونه برضوان الله وبطمأنينة يجدها في حياته الدنيا، وبالفوز بالتكريم والنعيم في الحياة الآخرة. كما أنهم في المقابل ينذرون المخالفين لهدايتهم من غضب الله وما سيلقونه في الدنيا من القلق والضياع واليأس، ومن المهانة والعذاب يوم القيامة.

وبهذه البشارة والنذارة ينقطع ما يمكن أن يعتذر به المقصرون، والذين سلكوا في حياتهم الدنيا ما يتناقض مع مقتضيات الخلافة في الأرض فأفسدوا ولم يصلحوا. إن هؤلاء الرسل الذين بعثهم الله في أقوامهم أو للبشرية عامة لمساعدتها على معرفة الخير والتزامه والبعد عن الشر، ينقطع بهدايتهم تصور أن يقول المسرفون على

أنفسهم، المقتحمون للمناهي والآثام والقبيح والظلم والشر، أن يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولو جاءنا رسول يهدينا لطريق الخير ما وقعنا فيما وقعنا فيه.
وهذا التصريح القرآني المفيد عدل الله في محاسبة البشر عن سلوكهم في الحياة نرجح به أن من لم تبلغه رسالة أي رسول، هو غير مسؤول عن أفعاله. قال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)[3].

166-لكن الله يشهد... شهيدا.

يطعن اليهود في صحة كون القرآن منزلا من عند الله، فتولى الله الرد عليهم ردا يسفه أقوالهم بطريقة لا أبلغ منها. فذكر سبحانه أنه يشهد، والشهادة هي إعلان من الشاهد بأن ما يقوله المشهود له حق، وأن ما يدعيه الطرف الآخر غير صحيح وكذب. والذي تولى الشهادة هو الله الذي لا يبلغ أحد من علم الحقيقة مبلغ ما عنده. وبماذا يشهد رب العزة؟ يحقق أن القرآن منزل إليك من عنده، وعطف على شهادته شهادة الملائكة بذلك، وهم الذين حسب طبيعة خلقتهم مسلوبون من الاختيار بين الصدق والكذب فلا يقولون إلا الحق. ثم بين أنه أنزله مرتبطا بعلم الله، فهو على أعلى مستويات الحقيقة ، الأمر الذي جعله معجزا في لفظه وفي معناه.
وإذا شهد الله بأمر فهو أعلى ما يمكن أن يتصور من التأييد، وتفنيد ما يخالف ما حققه، فلذلك لا يمكن أن يُطلب شيء آخر بعد ذلك. وكفى بالله شهيدا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

صدوا :منعوا الناس من الدخول في الإسلام.
ضلوا: ضل: لم يهتد للطريق فضاع.

[3] سورة الإسراء آية 15

بيان المعنى الإجمالي:

يحقق القرآن أن الكافرين الذين عملوا على منع الناس من الإيمان الطريق الهادي لبلوغ رضوان الله قد تاهوا وابتعدوا عن الطريق الذي ينجيهم. إن هؤلاء الكفرة الذين غشى على قلوبهم ظلام الكفر، فسمحوا لأنفسهم مع كفرهم بأن يظلموا الناس بالاستيلاء على حقوقهم، وتسليط العذاب عليهم، هم يائسون من رحمة الله فلا يطمعون في عفو الله عن ذنوبهم. ولا يلطف بهم ليمكنهم من الاهتداء. قصرهم عنادهم وظلمهم على السير في طريق جهنم، يصلون نارها ويفقدون كل أمل في الخروج منها. وتحقيق ذلك يسير على الله الذي ينصاع كل شيء لإرادته.

ودعوة كريمة من رب العزة للبشرية جميعا أن ينتبهوا لما في هذا الدين الذي يقدمه لهم أكمل الرسل، الدين الذي يمكنهم من الجمع بين ما هو خير لهم في الحياتين. وهم إن أعرضوا ولم يؤمنوا فإنهم لا يضرون إلا أنفسهم فإن الله غني عنهم، إذ كل ما في السماوات والأرض ملك له خاضع لإرادته وتصرفه.

بيان المعنى العام:

167–169: إن الذين كفروا وصدوا...وكان ذلك على الله يسيرا.

ناقشت الآيات السابقة اليهود فيما كانوا يقومون به من التشكيك في صدق الرسول ﷺ، وفيما اقترحوه من إنزال كتاب من السماء مقروء. وهمهم هو توقيف المد الإسلامي. وهم يشتركون في التشغيب مع المشركين، فجاءت هذه الآية منذرة لهم وكاشفة عن حقيقتهم، فهم قد جمعوا :

أولا: إلى الكفر بما أنزله الله من الهدى، منع من شرح الله صدره للإسلام من المبايعة على التزام عقيدته وأحكامه. إنهم بذلك قد ضلوا وولوا ظهورهم لما ينجيهم، وزادوا بعدا تائهين. كلما أوغلوا في منهجهم الفاسد ازدادوا ضياعا ينتهي بهم إلى الخسران والهلاك.

ثانيا: أنهم جمعوا إلى الكفر قساوة قلوبهم، القسوة التي تغشي على مشاعرهم فتنزع منها الرحمة والإنصاف، فتستسيغ تبعا لذلك غمط حقوق الآخرين والإيقاع بهم والتسلط الباغي عليهم.

إنهم بما جمعوه من الكفر والصد عن سبيل الله والظلم، قد جمعوا الأسباب التي تفضي بهم إلى نيل جزائهم العادل، وهو حرمانهم من رحمة الله فلا يغفر ذنوبهم، ولا ينزل عليهم ألطافه التي تسعد على الظفر بالطريق الهادي لما ينجي الإنسان في حياته الدنيا وفي معاده. ويستثني القرآن من الطرق طريقا واحدا سيهتدون

إليه، هو طريق الخسران الكامل في المعاد، طريق جهنم دار المهانة والعذاب الأبدي الذي لا مطمع من انتهائه. إن إفضاءهم إلى ما هيأوا أنفسهم إليه من العذاب والمهانة يتحقق لا محالة، لأن الله لا يصعب عليه أي شيء تتعلق إرادته بتحقيقه.

170-يا أيها الناس قد جاءكم....وكان الله عليما حكيما.

ثم توجه القرآن بالخطاب لجميع بني الإنسان، من كان موجودا عند نزول الآية ومن يأتي بعد ذلك، يدعوهم ليكونوا واعين غير غافلين عما في الإسلام من خير واضح، يقدمه لهم الرسول الكامل في صفاته وأخلاقه الذي ألف الحق والتزمه، فجميع الموازين الإنسانية العقلية والخلقية قد توفرت فيه، تخيره لكم ربكم الذي والى ويوالي عليكم عنايته ومدد فضله، فآمنوا، يكون الإيمان خيرا لكم حسب كل الوجوه والتقادير. فالإيمان يجعل حياتكم في الدنيا أسلم وأهنأ، وعاقبتكم يوم القيامة أفضل ما يرجوه البشر من الكرامة والنعيم. إياكم أن تظنوا أن الله ينتفع من إيمانكم أو يتضرر بكفركم. إنكم إن لم تستجيبوا لداعي ربكم فالخسران عليكم، ومن كفر هو شيء تافه لا قيمة له، فالله مالك السماوات والأرض، غني عنكم.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تغلوا في دينكم : الغلو : مجاوزة الحد في الدين الحق الذي أنتم مطالبون به.

وكيلا: حافظا.

لن يستنكف : الاستكبار مع مبالغة في الترفع.

يوفيهم أجورهم: يمكنهم من أجورهم مع الوفاء، وهو الزيادة التابعة، التي يتحقق بها عدم النقص.

برهان: الحجة الواضحة المُقْنِعة.

اعتصموا بالله : تمسكوا بدين الله.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد النداء الشامل لجميع البشر ليقبلوا على ما جاء به محمد ﷺ، توجه القرآن للنصارى الذين أهلكهم غلوهم في الدين، فوقعوا في الضلال الكبير. إنهم قدسوا عيسى﵇ بما هو خارج عن حدود الدين والعقل، فكذبوا على الله وقالوا: إنه ابن الله. وأعلن القرآن فساد مقالتهم لمخالفتها للواقع، فالمسيح هو ابن مريم ولدته كما تلد النساء بعد أن حملته في بطنها، وهو رسول كبقية الرسل وما كان واحد منهم إلها، وقد تكوّن في بطن مريم بدون أب ولكن بإرادة من الله الذي ينفّذ أحكامه في الكائنات فتستجيب للأمر بكلمة (كن) وبناء على ذلك تطور إلى نفخ الروح فيه الذي كان نعمة من الله كبقية النعم. وإذ تبين الحق فكُفُّوا عن ضلالاتكم وآمنوا بالله كما يحق له من التوحيد الذي هو الأصل الذي دعا إليه جميع الرسل. وآمنوا برسله الذين كلفهم بإبلاغ وحيه وعيسى واحد منهم؛ ودعوى أنه إله يخرجه عن الرسالة، فيكون ضلالكم قد جمع بين نفي الرسالة عنه ونفي وحدانية الله. ثم صرح بنهيهم عن دعوى التثليث بأي صورة من الصور التي أجهدوا أنفسهم لتحويلها إلى أمر مقبول بجملة من الالتواءات. إن توحيد الله يكون خيرا لكم في العقيدة وفي التصور وفي المآل. إن الله إله واحد تنزه أن يكون له ولد. وكيف يكون له ولد، والولد لا يكون إلا لحاجة، كإحساس الوالد بأن حياته محدودة بأجل فيرغب في النسل ليكون نسله امتدادا لوجوده، والله هو الباقي الأزلي الأبدي، وقد يكون طلبا للعون، والله مالك السماوات والأرض والقَيِّمُ عليها. وليس لعيسى ولا لغيره أي اشتراك في ذلك وكفى بالله حافظا، فانتفت ألوهية عيسى وثبتت بشريته الكاملة ورسالته.

إنه لا يتكبر المسيح ولا الملائكة فيأنفون من الاعتراف بكونهم عبيدا لله. ذلك أنهم لكمالهم يدركون أن من يستكبر ولا يرضى بكونه عبدا مآله أنه يحشر وحيدا فقيرا

بين يدي الله مع جميع البشر. وأن الذين طهروا أرواحهم بالإيمان وعملوا في حياتهم ما يرضى عنه الله من الأعمال الصالحة، فإن الله سيتفضل عليهم بإيصال أجرهم إليهم وافيا، ثم يضيف إلى أجورهم من كرمه ما لا يُعْلَمُ حده. وفي المقابل فإن المستكبرين الذي يأنفون من الخضوع لله سيجزيهم عن فساد طويتهم عذابا ينفذ ألمه إلى أرواحهم وأجسادهم، ومع ذلك ألم اليأس فلا يترقبون من يشفع فيهم ولا من ينصرهم.

أفيقوا أيها الناس فقد جاءكم من ربكم البرهان والحجة الواضحة في مضامين هذا الدين، وتأيد ذلك بالقرآن النور الذي يضيء لكم مسالك الحياة، ويبصركم بطريق النجاة. وعلى جميع الأحوال فإن الذين استقر الإيمان الصادق في قلوبهم، ووثقوا بربهم، فإنه سيفتح لهم آفاق رحمته وفضله لينعموا بها وفيها، وبالتالي يتبين لهم الطريق السالك الموصل لسعادة الدارين.

بيان المعنى العام.

171 -يا أهل الكتاب لا تغلوا...وكفى بالله وكيلا.

يدعو القرآن النصارى مذكرا لهم أنهم أهل كتاب منزل يقتضي أن يتبعوا ما جاء فيه بدون زيادة ولا نقصان. يدعوهم أن يعتقدوا مضامينه فلا يبالغون ولا يتجاوزون الحدود التي ضبطها لهم. ذلك أن التجاوز لا يكون إلا من دوافع الشيطان الذي يعمل على إضلال البشرية. وهو في هذا يتخذ طريقتين كلاهما شر :

إحداهما: أن يهون في عقل بعض الذين يستجيبون له ما جاء عن الله، فيتراخون عنه، ويفرطون فيه، بتخيلات يزرعها في نفوسهم فيسلسون له قيادهم حتى لا يبقى في مداركهم من شرع الله إلا انتساب، ضئيل تأثيره عليهم في الحياة. فقد أهلك مثلا من صور له أن الصلاة، هي للرعاع الذين ضعفت مداركهم وقواهم العقلية، أما الأذكياء فالعقيدة مستقرة في قلوبهم فلا حاجة لهم بالعبادة وهكذا...

ثانيهما: أن يخيل لمن يستولي عليهم أن يبالغوا في الأصول التي تلقوها عن الله، حتى يصل بهم إلى الاعتقاد بأن تجاوز الحدود فيه الخير كل الخير. وما دروا أن اختيارهم هذا مؤداه: أنهم يقررون أن الله وقف في إصلاح البشرية إلى مستوى ليس هو الخير، ولكن الخير في تجاوزه. وما ليسه عليهم الشيطان هو أفضل مما ضبطه الله للعالمين.

إذن نهت الآية النصارى عن المبالغة التي انحرف بها قساوستهم، ورجال الدين فيهم، فكرموا رسولهم تكريما تجاوزوا به الحد، فكذبوا على الله عندما أشاعوا أن

الله أمرهم أن يعتقدوا في رسولهم أنه إلـه، وبـذلك هشـموا الحـق الـذي جـاء عـن الله بإكرام رسولهم وطاعته، وأقاموا باطلا من عند أنفسهم أنه إلـه. ثـم بـين القـرآن الحـق الذي أنزله الله في شأن سـيدنا عيسـى ﷺ.هـذا الحـق قـرره فـي النـواحي الخمسـة التالية:

أولا: عيسى هو ابن مريم البتول : ولدته أمه مـريم كمـا تلـد النسـاء مـا يحملنـه فـي أرحامهن. وقد فصل القرآن فـي سـورة مـريم، المخـاض الـذي أحسـت بـه، وأيـن ولدته، وحالتها النفسية، وما شاهدته عند ولادته مـن الكرامـات، إلـى آخـر التفصـيلات التي عني بها القرآن ليثبت لعيسى إنسانيته التي لا يخالطها أي عنصر آخر.

ثانيا : أن عيسى كان آية من آيات الله، ظهـرت فيـه القـدرة الإلهيـة بإكمـال الصـور الأربع في التكوين البشري

1) خلق الله آدم من تراب بلا أب ولا أم.
2) خلق حواء من آدم من ذكر دون أنثى.
3) خلق عيسى من أنثى بدون ذكر.
4) خلق بقية البشر من ذكر وأنثى.

ثالثا: أن عيسى رسول الله، وقد ذكر القرآن قبل هـذه الآيـة أسـماء كثيـر مـن رسـله، وأنهم أمناء الله على وحيه وهم بشر، ولم يكـن أي مـنهم إلهـا أو ابنـا لله. فـدعوى أن عيسى ﷺيختلف عن جميعهم في طبيعتـه، قـول مختلـق لا أسـاس لـه مـن الصـحة مبناه الغلو.

رابعا : أن عيسى كلمة الله، وهذه فهمها النصارى علـى غيـر وجههـا. ذلـك أن تكـوّن البشر أخضعه الله لسنن متى توفرت، وجدت النطفـة ومـا يتلوهـا مـن الأطـوار. وفـي عيسى خروج عن السنن التي أحكمها. تكـون فـي بطـن أمـه لا عـن نطفـة ملقحـة، ولكن بإذن رباني يمثله أمره سبحانه تعالى التكويني الـذي أشـارت إليـه الآيـة : (إنمـا أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)[4].

خامسا : أنه روح من الله. وهذه مما أوقع الغلاة فـي الاشـتباه فضـلوا. ذلـك أن إسـناد الحوادث إلى الله كثيـر وروده علـى معنـى أن ذلـك مـن فضـله، وأن حصـوله فـي الحقيقة هو بغير الأسباب الظاهرة، كقولـه تعـالى: (ومـا بكـم مـن نعمـة فمـن الله)[5]. على معنى أن جميع النعم لولا فضـله وعنايتـه لمـا حصـلت ولتعطلـت عـن بلوغهـا

---

[4] سورة يـس آية 82
[5] سورة النحل آية 53

إليكم. فكذلك حلول الروح في جسم عيسى التي تبعها سلامة الإحساس والتفكير كانت بعناية من الله مباشرة. على خلاف حلول الروح في بقية البشر التي تحدث في طور من أطوار تكون الجنين، مرتبطة بالتكون الأول من عنصري اللقيحة البييضة واللقاح.

إن الفهم إذا لم يخضع لصارم القوانين العقلية يتيه ويضل. إن العقل يقوم شاهدا ومناديا أن الله ليس كمثله شيء، وأنه لا يعقل أن يكون إلها وله ولد، أوأن جزءا منه حل في عيسى. فهذه خيالات ما كان لها أن تنفذ فيعتقدها البشر لولا تعطيل العقل والتيه في صحاري العواطف، التي وإن كان منطلقها محبة في سيدنا عيسى، ولكنها لما داخلها تراكمات عاطفة الغلو انقلبت شرا وتنكرا لما يقتضيه العقل وتجسيدا مستحيلا على الله سبحانه.

وإذ تبينت الحقيقة وانفصلت عن الأوهام، تصدر الدعوة من الله إلى النصارى، بأن يؤمنوا بالله: الإيمان المنزه له عن كل نقص، وأن يقرنوا إيمانهم بإيمانهم بالرسل الذين أرسلهم، ولما كان عيسى رسولا ففي ذلك إيماء لبطلان ما اعتقدوه من بنوته لله. ثم تصرح الآية بهذا المفهوم فتنهى الآية نهيا جازما عن عقيدة التثليث وعن التصريح بها. ثم تبالغ الآية في منعهم من هذا المنكر فتأمرهم أن يتوقفوا عنه وأن يحذفوه من كلامهم وعقائدهم. وأمرهم بالالتزام بهذا الانفصال البات الذي هو خير لهم. إن في التعبير بقوله تعالى: {ولا تقولوا ثلاثة } ما يشمل كل التأويلات التي أجهد فيها علماء اللاهوت المسيحي عقولهم، هم متمسكون بالتصريح بالتثليث ويقولون : إن الله واحد. هم من ناحية ثانية يجدون عقيدتهم هذه غير معقولة ولا منطقية، فقاموا بتأويلات متناقضة، تثبت التثليث وتنفيه. فقالوا: إن كلمة الله اتحدت بعيسى وتقمصت في إنسانيته ومازجته امتزاج الخمر بالماء فصارت الكلمة ذاتا في بطن مريم وصارت تلك الذات ابنا لله. فالإله هو مجموع الثلاثة.: الأب ذو الوجود والثاني الابن ذو الكلمة وهي العلم والثالث روح القدس. وزعم بعضهم أنه بمجرد ما صلب وقتل عاد الناسوت إلى اللاهوت فامتزجا.

وادعى بعضهم أنه انقلبت الإلهية لحما ودما، فصار الإله هو المسيح، ولذا ظهرت على يديه ما لا يصدر إلا عن الله كإحياء الموتى.

وجرى المُنصّرون اليوم على مغالطة السذج من الناس فقالوا :إن الشمس كوكب تصدر عنه الحرارة والنور. وكذلك الله والمسيح. وهي مغالطة سخيفة فالحرارة ليست الشمس ولا النور عين الشمس وإلا لأصبح عندنا في الكون مليارات

الشموس. إن الله لا يعقل إلا أن يكون إلها واحدا، يتنزه عن النقص الذي ألحقتموه به؛ هذا النقص: كونه اتخذ ولدا. فكلمة (سبحانه) أصبحت بتكررها في التعبير العربي (اسما علما) على التنزيه الكامل. ويلحق هذا التنزيه بدليله :أن الله متفرد بملك السماوات والأرض. والمسيح هو واحد من هذا الملك العظيم فلا يعقل أن يكون ابنا لله، لا بالنظر إلى كونه مملوكا، ولا بالنظر إلى غناء الله عن محتويات الكون لأنه مالكها والمتصرف فيها.

والله هو الحافظ لهذا الكون كله، فإنه سبحانه هو الكافي والحافظ لكم ولا يقدر أحد أن يحقق لكم الحفظ، فلا تعتمدوا غيره. وكفى بالله وكيلا.

172- لن يستنكف المسيح....فسيحشرهم إليه جميعا.

بمقدار ما استقر التثليث وبنوة المسيح، في عقيدة النصارى، راعى القرآن هذا الوضع العقدي الذي هم عليه مع دعاتهم وتشبثهم به، وأضاف إلى ما سبق من إبطاله التصريح بالحقيقة التي غابت عنهم بما غطاها من تعظيم المسيح، فصرح القرآن أنه حاشا المسيح أن يدعى مستكبرا لأنفة فيه، أنه ليس عبدا من عباد الله. وأدمج مع النصارى من يعتقد من العرب وغيرهم أن الملائكة بنات الله. فلا أحد من الملائكة ولا المسيح يجد في نفسه من الأنفة ما يحمله على أن لا يكون عبدا لله.

ثم يأتي بيان سبب انتفاء تصور الأنفة ، هذا السبب هو العلم، فالمسيح والملائكة يعلمون أنهم سيحشرون إليه مع غيرهم يوم القيامة، في يوم يشعر فيه كل فرد شعورا كاملا لا غبش فيه، أنه لا يملك من أمره شيئا.فكيف يشعر بالأنفة مع هذا العلم اليقيني!

173-فأما الذين آمنوا....من دون الله وليا ولا نصيرا.

بين القرآن ما سيحصل في هذا اليوم الذي تجتمع فيه جميع الكائنات، وفصلت الجمع إلى فريقين معلنة جزاءهم :

أولا : الذين آمنوا الإيمان الصحيح، وعملوا الخير فراعوا الصلاح المترتب على أفعالهم، جزاؤهم : أن الله بعدله وفضله، يمكنهم مما كتب من جزاء أعمالهم ويحقق لهم أجرهم وافيا غير منقوص، ثم يضيف بفضله زيادة تتناسب من كرمه الذي لا يحد مقداره.

ثانيا : الذين حسبوا بأنفتهم وكبريائهم أنهم لا يخضعون لله، وحاشا المسيح والملائكة أن يكونوا من هؤلاء، إن الله يعذبهم عذابا يبلغ ألمه الكبير كل جزء من

أجزاء تركيبهم النفسي والجسمي. وهو العذاب الذي لا مفر منه ولا يجري على عذاب الدنيا، الذي يطمع معه المعذَّب، أن ينهض من يتولاه ليشفع فيه أو ينصره، فعذاب الآخرة يصحبه اليأس. أعاذنا الله منه بفضله وكرمه.

174-يا أيها الناس قد جاءكم برهان...نورا مبينا.

ويختم القرآن تلكم التفاصيل بإيقاظ الناس جميعا إلى ما يحقق لهم الفوز، فيناديهم جميعا ليقدروا فضل الله عليهم : إنه قد جاءهم من عنده، الأدلة الواضحة البينة التي تهدي من تأمل فيها إلى طريق النجاة وتنفي الشك والحيرة، وفوق ذلك فقد صحب تلكم الأدلة الواضحة، نور لا يخفى ضياؤه، هو القرآن الذي تنفذ أشعته فتأنس بها القلوب وتكسبها الطمأنينة والأمل.

وإنه على جميع التقادير ومهما يكن من أمر، فإن الذين ثبتوا

أ-على الإيمان بالله الواحد الأحد.

ب -ووثقوا بربهم فلاذوا به في الرخاء والشدة، وألقوة معهم وهم معه، هو الذي يتصرف فيهم وهو الذي يوالي عليهم نعمه، وهم يلجؤون إليه ويتوجهون إليه بالشكر عند الرخاء والنعمة، كما يتوجهون إليه بالدعاء والترقب عند الشدة والعسر. فلا فضل إلا منه ولا مغيث إلا هو، ولا معبود سواه.

حقق أنه سيمكنهم ويدخلهم في رحمته الواسعة، التي تشمل عقولهم وأرواحهم وأبدانهم وذريتهم وما رزقوه في هذه الدنيا، ويبارك لهم فيما آتاهم، فيكسبهم في قلوبهم قناعة ورضوانا. وفوق ذلك يصحبهم دائما نور الهداية فلا تختلط عليهم السبل، وتتناغم في ضمائرهم مكنونات هذا الكون فتنتفي الحيرة والتساؤل، في كنف الله وهدايته. فهم قد ساروا ويسيرون في طريق لا عوج فيه ولا منحنيات ولا متشابهات، ولا شبهات. هو الصراط المستقيم ظاهرا ومضمونا.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكلالة : الحالة التي يكون فيها الميت لم يخلف والدا ولا ولدا.

الولد : يطلق على الذكر والأنثى. ويختص الذكر بالابن وتختص الأنثى بلفظ البنت.

يبين لكم أن تضلوا : يبين لكم كيلا تقعوا في الضلال.

بيان المعنى الإجمالي :

استفتى بعض الصحابة رسول الله ﷺ في طريقة قسم التركة إذا كان الميت ذكرا أو أنثى، ولم يترك ولدا ولا أبا، وترك أختا أو أختين فأكثر، أو ترك إخوة ذكورا وإناثا.فالواحدة ترث النصف والأختان فأكثر، يُقسم الثلثان على الرؤوس. وعند اجتماع الإخوة ذكورا وإناثا تقسم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين. منة الله عليكم أيها المؤمنون ببيان وجه الصواب في هذه الأحوال حتى لا تعطوا الحق لغير من يستحقه. والله سبحانه وسع علمه كل شيء.

بيان المعنى العام :

175-يستفتونك قل الله يفتيكم....بكل شيء عليم.

تقدم في الآية (12) من هذه السورة حكم ما يستحقه الأخ للأم والأخت للأم أو الأخوة للأم من تركة الميت إذا لم يخلف أبا ولا ولدا. وتعرضت هذه الآية في صورة جواب عن سؤال طرحه بعض الصحابة على رسول ﷺ وتولى الله الإجابة عنه قرآنا يتلى. وهي صورة تشبه الصورة الأولى. وهي أن يترك الميت إخوة أشقاء أو لأب ذكورا أو إناثا أو مختلطين، ولم يترك بعده أبا ولا ولدا. وتشترك الصورتان في أن كل واحدة منهما يطلق عليها لفظ الكلالة. وذلك لأن المورث لم يترك ولدا ولا أبا.

وحاصل ما بينته الآية هو الصور التالية:

1) أن الميت الذكر إذا لم يكن له أب ولا ولد، وترك أختا شقيقة، أو لأب عند عدم وجود الشقيقة، فإنها ترث نصف المخلف.

2) بالمقابل إذا ماتت أنثى ولم يكن لها أب وارث ولا ولد، ولها أخ شقيق، أو لأب عند عدم وجود الشقيق، فإنه يرث المخلف جميعه.

3) أن الميت الذكر إذا لم يكن له أب ولا ولد وترك أختين شقيقتين فأكثر، أو لأب عند عدم وجود الشقيقتين، فالحكم هو تقاسم الثلثين.

4) إذا كان الورثة إخوة أشقاء ذكورا وإناثا، أو إخوة لأب عند عدم الأشقاء، ولم يترك الميت أبا ولا ولدا، فإن الإخوة يتقاسمون التركة للذكر مثل حظ الأنثيين.

وصرحت الآية بعناية الله بهذه الأمة، فهو يبين لها الحقوق حتى يكون الأمر عندها واضحا، فلا تقع في الحيرة فتتوقف، ولا في الضلال فتعطي نصيبا من التركة لغير مستحقه حسب ما أراد سبحانه أن يكون عليه قسمة التركات. وتختم السورة بتأكيد صدق وصلاح كل ما ورد فيها. ذلك أن منزلها، هو الواسع علمه، المحيط علمه بكل شيء جله ودقيقه.

سورة المائدة

أشهر أسمائها: سورة المائدة لاختصاصها بذكر قصة سؤال إنزال المائدة من السماء. كما تسمى سورة العقود، أخذا من الآية الأولى فيها. وروى ابن الفرس وابن عطية أنها تدعى في ملكوت السماوات (**المنقذة**) لأنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب.

أجمع أهل العلم على أن هذه السورة من السور المدنية، ابتدأ نزولها على رسول الله ﷺ عام صلح الحديبية. وتتابع نزول آياتها بعد ذلك. وهي السورة الخامسة حسب ترتيب المصحف. والحادية والتسعون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الأحزاب، وقبل سورة الممتحنة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

أوفوا : نفذوا عقودكم كاملة غير منقوصة.

العقود : جمع عقد وأصله عقد الحبل، ثم أطلق على الالتزامات الواقعة بين طرفين. كعقد البيع وعقد الزواج، والمعاهدات بين الدول وبين أفراد المجتمع الواحد كالعقد الاجتماعي.

بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم والصيد غير المفترس.

شعائر الله : كل ما حرمه الله.

الشهر الحرام: الأشهر الحرم أربعة ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب.

الهدي : ما عُين للذبح في النسك.

القلائد : الهدي الذي جعلت له قلادة تميزه.

لا يجرمنكم : لا يكسبنكم، أو لا يحملنكم.

شنآن: شدة البغض.

صدوكم : منعوكم.

بيان المعنى الإجمالي :

يأمر القرآن أمرا جازما المؤمنين ويحركهم مناديا بما استقرت عليه عقيدتهم، أن يحترموا ما عقدوه على أنفسهم ويوفوا بالتزاماتهم. والوفاء صفة تُقوّي الاقتصاد، وتؤكد الرابطة بين أفراد المجتمع وتعطي الصورة المثالية للمسلمين فترغب في الانتساب إليه. وتشمل العقود ما عاقد عليه المؤمن بإسلامه، من احترام شرع الله.

ومما شرعه الله أنه أحل لنا الأنعام الإبل والبقر والغنم والمعز، وكذلك ما كان من الأنعام غير إنسي، غير المفترس، يُتمَكَّنُ منه بالاصطياد. واستثنت الآية حالة الإحرام، فلا يحل للمحرم أن يصطاد.

ومن الوفاء بعقد الإسلام أن يخضع المسلم لما يريده الله منه. ونهت الآية عن انتهاك حدود ما حرمه الله (شعائر الله) هي العلامات التي أقامها محددة لما نهى عنه وحرّمه، وكذلك أن يحترموا الأشهر الحرم فلا يبادئوا فيها أعداءهم بالقتال إلا ما كان دفاعا عن النفس، وكذلك أن لا يتعرضوا للأنعام التي يسوقها الحجاج والمعتمرون ليتقربوا بها وهي الهدايا، وكذلك ما قلد للهدايا مما يعلق في رقابها وينتفع منه الفقراء بعد نحرها أو ذبحها، وهي القلائد. وكذلك التعرض للحجاج والعمار القاصدين لبيت الله الحرام يبتغون نوال فضل الله من الأرزاق ومن رضوانه، وإن كانوا غير مسلمين. وبينت الآية أنه بعد إحلال الحاج أو المعتمر فإنه يجوز له أن يصطاد وأن يأكل مما يصطاده.

ونهت الآية أن يكسب المسلم خطيئة بالاعتداء في الحرم على الذين سبق لهم أن اعتدوا على المسلمين، وإن كان بغضهم منطوية عليه القلوب، ومنعوهم من العمرة عام الحديبية سنة ست.

وختمت الآية بالتذكير بالمنهج الإسلامي العام: أن تقوى ظاهرة الخير والبر في المجتمع الإسلامي، وذلك بالتعاون على الخير والتقوى، وأن يكونوا حاجزا بين المجتمع وظهور الإثم والشر فيه، واقتحام العدوان على الآخرين. وأن يتذكروا دوما ما يحصنهم فيلزموا الفضيلة: هو تقوى الله والحذر من عقاب الله الشديد.

بيان المعنى العام :

1-يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود......ما يريد.

دعوة للمؤمنين بوصف الإيمان، تحرك ما انطوت عليه قلوبهم مما ربطوا به سلوكهم في الحياة، ليكون هذا التحريك أدعى لتطبيق ما يرد بعده. فماهو الأمر الذي اهتم به القرآن إلى هذا الحد فجعله فاتحة السورة؟

أمر جازم لكل مؤمن ومؤمنة وللقائمين على تصريف شؤونهم وتنظيمها، أن ينفذوا ما التزموه تنفيذا لا ينقض شيئا مما تعاهدوا عليه. فالبيع مثلا عقد، وكل طرف مأمور بأن يسلم للطرف الثاني كل ما التزم به بدون نقص، والمعاهدات بين الدول عقود يتحتم على أولي الأمر أن ينفذوا البنود التي وقعوا عليها، بدون إكراه، تنفيذا سليما. فالوفاء أمر ضروري لانتظام الحياة. ومن الغريب أني لم أجد من اعتبره من المقاصد الضرورية في التشريع الإسلامي.

فبالوفاء بالالتزامات يأمن كل طرف الطرف الآخر، ويكون الميزان دائما هو أن كل ما التزم به أي طرف ويرضاه لنفسه يمكن منه الطرف الآخر، ويطالب به. إن هذا الأمن له آثاره الإيجابية في مختلف أنواع الحياة، وهو مما يتحتم أن يراعى في التربية عمليا ونظريا فالنجاح الاقتصادي مرتبط أشد الارتباط بالوفاء بالعقود، وهناء الأسرة مرتبط بوفاء كل واحد من الزوجين بالتزاماته نحو الآخر. وكذلك الرابطة بين المؤجر والمستأجر. وبصفة عامة رابطة كل فرد في المجتمع ببقية الأفراد وبالمؤسسات المدنية، وهي بالأفراد.

وتلكم العهود داخلة كلها تحت مظلة العهد الذي ارتبط به كل مؤمن، هو عهده مع الله أن يطبق شرعه، ويخضع لأحكامه، وأن يسير في كل شأن من شؤون حياته الفردية والاجتماعية على الهدى الذي جاء به الإسلام.

إنه بهذا المفهوم ينحل إشكال في ارتباط قوله تعالى :(أحلت لكم بهيمة الأنعام) بقوله تعالى: (أوفوا بالعقود) لقد كان رسول الله عندما يأخذ العهد من الداخلين في الإسلام فيحرر عليهم أنهم لا يعصون رسول الله فيما يخبرهم به عن ربهم، كما جاء في سورة الممتحنة: (ولا يعصينك في معروف) وأنه لا تكون المبايعة معترفا بها وبآثارها إلا إذا طاع المبايع بهذا البند.

إن من مظاهر الشرك الفاشي في الجاهلية، قضية التحكم فيما هو حلال وما هو حرام، وربط ذلك بآلهة المشركين كما سيفصل في آخر هذه السورة (ما جعل الله من بحيرة...) وبناء على ذلك فالوفاء بالعقد الذي عقده كل مسلم على نفسه بدخوله في هذا الدين، يكون من مستلزمات ذلك العهد أن يخلع قضية التحليل والتحريم عما

كانت مرتبطة به من العادات والعقائد، ولأن يخضعها لحكم الله. ولما كان ما يتناوله الإنسان في معاشه، من ضرورات بقائه، ويتكرر، أتبع القرآن أمره بالوفاء بالعقود باستحضار المؤمن حكم قوته من أحكام الله، ما يحل له، وما يحرم عليه.

نصت الآية على ما هو حلال جريا على الأصل الذي يسّر الله به على عباده أمر حياتهم، وخاصة في دين الإسلام، فكان المبدأ الذي عليه ينتفع الإنسان من خيرات الكون، اعتماد أن الأصل في الأشياء الإباحة. أحل الله لنا نصًّا بهيمة الأنعام. والبهيمة هي ما كان غير ناطق من أنواع الحيوانات، وكلمة الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم والمعز شمولا أوليا، كما تشمل الحيوانات غير المفترسة. فأفادت الآية أن ما كان منها أهليا هو حلال مطلقا، وما كان غير أهلي يتمكن منه بواسطة الصيد، هو حل لنا.

واستثنت الآية ما سيبينه القرآن والسنة من المحرمات.

الصيد، إذا كان الصائد محرما بحج أو عمرة، وكذلك إذا وجد الصيد داخل حدود الحرم. وحدود الحرم: من الكعبة للمتجه إلى المدينة **(التنعيم)** على بعد أربعة أميال، وللمتجه إلى العراق إلى **(المقطع)** على بعد ثمانية أميال، ومن طريق الطائف تسعة أميال إلى **(الجعرانة)** والمتجه إلى اليمن سبعة أميال إلى **(أضاة لبن)** والمتجه إلى جُدة، عشرة أميال إلى آخر الحديبية. وزاد هذا المقطع **(أحلت لكم بهيمة...)** ارتباطا بفاتحة السورة، بقوله تعالى: **(إن الله يحكم ما يريد)** فهو المشرع الحكيم الذي لا راد لحكمه، فنفذوا ما عاهدتم عليه ربكم.

2-يا أيها الذين آمنو لاتحلوا...إن الله شديد العقاب.

انتقل القرآن للتذكير بالحدود التي حددها الله فحرم اقتحامها على المؤمنين، فقال تعالى: **يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله** وشعائر الله جمع شعيرة وهي الأمارة على الشيء، والمقصود الأمارات التي أعلم الله أنها حده وطاعته إما بوجوب الفعل أو تحتم الترك، فهي على هذا المعنى دين الله كله.

واقتحامها يقع على مستويين :أن يقدم على الحرام، بفعل ما نهى عنه، أوترك ما أمر به دون أن يتحرج من المخالفة مع اعتقاد الحرمة، وهذا هو المعصية والإثم، والمستوى الثاني أن يحلل الحرام، أو يعتقد أن ما تقـرر وجوبه شرعا ليس بواجب، أي رفضه لقبول ما حكم الله به، وهذا ربما يؤدي بصاحبه إلى الكفر والعياذ بالله .وترتبط أجزاء الآية بأن هذا تنصيص على ما تضمنه الأمر **(أوفوا بالعقود)** أي ما أخذه الله عليكم بمبايعتكم على الالتزام بالإسلام.

كما تحتمل الآية أن يكون المقصود بشعائر الله مناسك الحج، وما أقامه الله من معالمه، وهي ستة الصفا والمروة، والبدن أي الهدايا، والجمار، والمشعر الحرام، وعرفة، والركن. وعلى هذا فسرت الآية من بعض المفسرين. وبعد التعميم خصصت الآية، فنهت عن أمور :

1) الشهر الحرام : فحرم القتال، في الأشهر الحرم : وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب

-2) الهدي :فحرم التعرض للهدي وهو ما يساق من الأنعام ليذبح في المكان المخصص للذبح في الحج أو العمرة

-3) القلائد : فحرم التعرض للهدي الذي وضع في رقبته قلادة تميزه، أو حرم الاستيلاء على القلادات التي تقلد بها الهدايا والتي كان الفقراء ينتفعون بها بعد ذبحها

4) المحرمين ؛ من كان قاصدا البيت الحرام لأداء المناسك ولو كان غير مسلم، لأنهم خرجوا من ديارهم يبتغون مرضاة الله وينتفعون بما يتيسر في الموسم من وجوه الرزق بالتجارة.

بعد أن فصل المحرمات، وصله بأن بعض المحرمات مؤقت، فنصت الآية على أن المُحْرِم إذا أكمل نسكه وتحلل منه، عادت الإباحة الأصلية للاصطياد.

ثم دقق القرآن في حرمة القتال في الحرم، فربما يتوهم، أن للمسلمين أن يأخذوا بثأرهم من الكفار الذين صدوا رسول الله ﷺوصحابته عن إتمام عمرتهم عام صلح الحديبية، كما يحل الصيد بعد التحلل، وقد تمكنوا منهم عام الفتح، فبينت الآية أن حرمة الحرم باقية لا يحل القتال إلا دفاعا عن النفس، ويحرم بصفة دائمة انتهاك حرمة ذلكم المكان الآمن. ومن ناحية أخرى فإن الله رفع سيوف المؤمنين عن رقاب كفار قريش بعد الانتصار عليهم، لما ادخره لكثير منهم ومن أبنائهم أن يكونوا قوة للإسلام ومن خير المدافعين عنه، وهو ما تم فعلا.

وبعد أن أمر القرآن ونهى، أبرز المنهج العام في الصلاح الذي يرضى عنه الله، والذي يمكّن هذه الأمة من أن تقوم برسالتها المؤتمنة عليها. فحضهم على التعاون وأن يؤازر بعضهم بعضا على الخير والبر، فإن تَمكّن الخير من الظهور، كما يحتاج إلى عزيمة الفاعل، هو لا يستغني عن التأييد من الآخرين، بما يشمل معاونة فاعل الخير لتذليل بعض الصعوبات، حتى تكون النتيجة مشتركة بين البادئ وبين اللاحق، وبما يدفعه الرضا العام من دفع الناس إلى فعل البر، فيحصل في المجتمع فضيلة التسابق إليه.و تأكيدا لهذا المنهج الاجتماعي قرنت الآية الأمر بالنهي عن

ضده، فقال تعالى : (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) ومن ذلك الاعتداء على قصّاد الحرم، في وقت نزول الآية، من غير المسلمين، فإن مساعدة المسلمين لهم على فعل الخير تكسبهم ميلاً عن الانحراف والشر، فيقتربون من الإسلام.

ويتكرر في القرآن الأمر بتقوى الله التي هي جماع الخير، مقترنة بالتحذير من التهاون بعقاب الله، الذي لا يفلت من شدته الآثمون.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أهل لغير الله : الإهلال :الجهر بالصوت، ذكر عليها عند تذكيتها غير اسم الله.

المنخنقة : التي ماتت بحبس النفس عنها.

المتردية : الساقطة من مكان عال فماتت بذلك.

النطيحة: التي ماتت من نطح حيوان.

ما ذبح على النصب : ما ذبح على الأحجار التي كان يتخذها الوثنيون للذبح عليها.

الاستقسام بالأزلام :طلب معرفة النصيب في المستقبل، بواسطة القداح.

رضيت لكم الإسلام : اخترت لكم الإسلام.

مخمصة : جوع.

غير متجانف :اضطر إلى الحرام غير مائل له.

مكلبين : المكلب هو مُرَوّض الكلاب حتى تقدر على الصيد وتأتمر بأمر صاحبها، وتنتهي بنهيه.

بيان المعنى الإجمالي :

ما أحله الله لنا هو الأصل والكثير، وحرم على المسلمين أشياء لا يكونون في حرج إذا تركوها. بل إنها مستقذرة أو معرّضة متناولها لمخاطر صحية. فمن المحرمات: الميتة، والدم الخارج من بدن الحيوان، ولحم الخنزير، والحيوان الذي مات بقطع النفس عنه، والحيوان الذي سقط فمات، والحيوان الذي ضربه حيوان آخر فقتله سواء كان ذلك بقرون أو بحافر، وما أكله السبع فمات بافتراسه، فإذا تمكن المسلم من تذكية هذا الحيوان قبل موته، فأكله حلال. وما ذبح تقدمة أو تقربا لغير الله، ونهت الآية عن طلب معرفة المغيبات أو الأكل مما وقع التخاطر عليه الذي هو خروج عن شرع الله.

وقد حقق القرآن، ممتنا على الأمة، أن الله قد بلغ بالمسلمين إلى درجة :أنه قد استقر الإسلام استقرارا يئس معه الكفار من هزيمته. فاشكروا الله على ما بلغكم إياه بعد الضعف الذي كنتم عليه، وذلك باستحضاركم دوما خشية الله وحده، ولا تخشوا الكفار فقد خضدت شوكتهم وعلت راية الإسلام. وتقترن منة التفوق للإسلام، بمنة أخرى هي أن الله بلغ بهذا الدين الحد الذي أكمل به كل مقوماته في العقيدة والعبادة والتعامل والحقوق والواجبات والأخلاق وبناء الدولة.

والمنة الثالثة المتوّجة للنعمتين، أنه بجانب ما بينه وحققه، قد رضي لهذه الأمة التي ميزها على سائر الأمم، رضي لها الإسلام دينا، وليس بعد الرضا مرتبة أعلى منها، فكان دينكم الدين الخاتم.

ومنة رابعة: أنه أقام هذا الدين مع مزاياه وسموه، أقامه على التيسير وعدم الحرج، فمن ذلك أن المؤمن إذا حلت به المجاعة، فله أن يحفظ حياته ولو بما حرمه الله، إذا كان تناوله للمحرم من أجل الضرورة لا من أجل الميل إلى ارتكاب الإثم. والله من صفاته الأزلية المغفرة والرحمة. وأجاب القرآن عما تقدم به بعض الصحابة من السؤال عن ضابط ما أحل الله لهم فقال: إن ضابط ما هو حلال هو كونه طيبا. والطيب هو الذي لم يرد نص بتحريمه، ولم يكن مضرا بالجسم. ومن الحلال ما يصطاده المسلم بواسطة الكلاب المعلمة أو بواسطة البزاة ونحوها إذا ذكر اسم الله عليها عند إرسالها. فما أمسكته الحيوانات المُعلمة على ما وُصف حلال أكله. وللفقهاء تفصيلات يرجع فيها المسلم لأهل العلم.

وتوصي الآية في خاتمتها باليقظة للأصل الذي هو سبب السعادة، يعني تقوى الله، ويحدد القرآن أن حساب البشر عما قدموا يتم في سرعة كبيرة. وفيما وصل إليه

الحاسوب وما يعلنه من نتائج في سرعة عجيبة ما يقرب للأذهان سرعة الحساب الإلهي، الذي أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: كن فيكون.

بيان المعنى العام:

4-حرمت عليكم الميتة...فإن الله غفور رحيم.

نصت الآية السابقة على أن الله أحل لنا بهيمة الأنعام، وأنه استثنى من ذلك ما سينص عليه بالكتاب أو بالسنة، ليبقى ما سوى ذلك حلالا. فمما استثني، فيحرم أكله ما ورد في هذه الآية :

الميتة: وهي التي فقدت الحياة بدون تذكية. وفي تحريمها حفظ للصحة من ناحية وحفظ لكرامة الإنسان من تناول الأشياء المستقذرة طبعا.

الدم: حفاظا على الصحة لأنه يسرع إليه الفساد، ولأنه حمّال لأنواع من الجراثيم، ولأن تناوله تتبعه ضراوة.

لحم الخنزير: المحرم من الخنزير هو لحمه وما اتصل باللحم من شحم وعظم وغضاريف وأمعاء مما شأنه أن يؤكل أو يؤتدم به، وأما الجلد إذا دبغ والشعر إن جز ولم يعلق به شيء من منابته، فالظاهر عدم تحريم الانتفاع بذلك.

ما ذكر عند تذكيته غير اسم الله، وكان الجاهليون يذكرون عند التذكية أسماء أصنامهم. وينقلب المذكى بتقديمه إلى الأصنام رجسا يتحتم على المؤمن الابتعاد عنه. ومن ذلك ما يتقرب به الجهال لمن يظنون أنهم أولياء أصحاب مكانة ممتازة عند الله.

المنخنقة هي التي ماتت بحبس النفس، سواء أكان بفعل فاعل أو انخنقت بنفسها.

والموقوذة ما كان ذهاب حياتها بغير انهار الدم بالتذكية. كقتل بعض الأمم الحيوان بضربه على أم رأسه.

المتردية الساقطة من مكان عال وكان سقوطها سبب موتها.

النطيحة ما كان سبب موتها ضربها من حيوان آخر، بحافر أو بقرون.

ما كان موته من الحيوان بسبب حيوان مفترس.

واستثنت الآية ما تمكّن المؤمن من تذكيته قبل خروج روحه أو نفاذ أحد مقاتله، وذلك من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع. وقد ضبط الفقهاء أحكام ما يحل أكله في تلكم الحالات.

وألحقت الآية ما ذبح على ما اتخذه أهل الجاهلية من الذبح على أحجار أعدوها لذلك وهي النصب، واعتقدوا أن الذبح عليها يعطي مناعة للآكل، أو يطرد عنه مس الجن أو يحصنه، فهي مرتبطة بعقائد الشرك.

وتعرضت الآية لما كان شائعا عند العرب من أنهم ينحرون جزورا يشتركون في ثمنه، ويعدون قداحا، والقِدْحُ عود السهم بدون حديدة، ثم يعينون لكل قدح سهما، ثم يحركون السهام داخل خريطة ومن خرج له سهم أخذ النصيب المعين له. كما كانوا يعتمدون على تلكم الأزلام لمعرفة الغيب، إما بواسطة الكهان أو بدونهم. فنهت الآية عن النوعين. واعتبرته فسقا خروجا عن المنهج الشرعي لتطلبهم معرفة المستقبل من الأوهام ومن غير الوجوه التي مكن الله البشر منها. فالتأمل في الحاضر وما يترتب عنه حسب سنن الله في ارتباط المسببات بالأسباب، والتعرف على تقلبات الطقس مثلا بواسطة الأقمار الدائرة في الفضاء التي تلتقط الصور وتبعث بها إلى الأرض فتحلل على حسب القوانين الإلهية في تحركات تلكم المعطيات هو مما نصبه الله من العلامات.

بعد أن فصلت الآية حدود ما حرمه الله في نسق، جَمَعَ المأكول وغيره، ثبّتت تلكم الأحكام بأنها تعطي للمسلمين منهجا خاصا بهم، وطريقة تفصلهم عن الشرك وعن الكفر بجميع أنواعه، ومظهرا مميزا في حياتهم ؛ وإنه إلى اليوم تجد المسلمين الصادقين يتميزون بهذا التشريع، ويشمئزون مما يتناوله غيرهم من المحرمات في الإسلام بشراهة وإقبال. فناسب أن ينوه القرآن بهذا التشريع ويجعله حدا زمنيا فاصلا بين حياة المسلمين وغيرهم. فقوله تعالى (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم).هو تقرير يثبت أن الإسلام قد قوي واستقر وأصبح متمكنا في العقول والأرواح قضى على الآمال التي كان المشركون يعللون بها أنفسهم، منتظرين انطفاء نور الإسلام وانتهاء مده.

إن حصول اليأس في قلوب أعدائه، يبعث في الأمة الإسلامية الطمأنينة والعزة والتحدي، ولذا عقب هذه القضية التي حققها القرآن، بالتصريح بما يترتب عليها، وهو أن على المسلمين، وقد ذهب عنهم الخوف من أعدائهم، أن يتعمق في قلوبهم خشية الله التي بها يتمكن الدين الذي كان سبب عزتهم، يتمكن في قلوبهم ولا يغفلون عنه. لأنه بواسطة الخوف من الله بلغوا ما بلغوه، ولذلك قدم بنهيهم عن خشية الشرك الذي انهزم انهزاما لا قيام له بعدها.

إن هذه الآية بضخامة ما حوته لتمثل في تاريخ الإنسانية حدا فاصلا : أن الإسلام قد أعلن رب السماوات والأرض أنه هزم أعداءه هزيمة لا قيام لهم بعدها، يئسوا من أن يؤثروا فيه تحريفا أو تغييرا.

ومرت قافلة الزمن تتوالى على المسلمين وهم بين ضعف وقوة، ووحدة واختلاف، وتمسك بالدين وانحلال، ولكن الدين باق كما أراد الله أن يكون، لم تتحرف عقيدته

ولا اختلط تشريعه، ولا تبدل المنهج الذي يدعو إليه في الحياة معاملات وأخلاقا وآدابا. وإن كانت أوضاع المسلمين قد فسدت، ونأوا عن الإسلام وتعاليمه ، ولكن في أشد فترات الفتنة ما تزال طائفة يمدها رب العالمين بمدد منه تُبْقي على نقاء الدين وتحفظهُ. فكانت هذه الآية تصرخ في الدنيا أن هذا اليوم الذي نزلت فيه الآية هو يوم فاصل. ثم يرفع القرآن ثانية هذا اليوم ليكسوه ثوبا من الجلال والكمال فيعلن في يوم مشهود، وقد اجتمع المسلمون خلف سيدنا رسول الله ﷺ في حجة الوداع، يوم الجمعة، وكل الأسماع مصغية له، وكل الأنظار متجهة نحوه، وكل القلوب بلغت من الصفاء مبلغا كان فريدا في عمر الكون تتلقف كل حرف من رسولها، وتحفظه شاعرة بثقل المسؤولية : أنهم مؤتمنون على هذا الدين عليهم أن يبلغوه للبشرية، ولمن لم يحضر هذا المشهد، وللأجيال القادمة الضاربة في آماد الزمن.

روى الإمام البخاري بسنده في الصحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ: أن رجلا من اليهود قال له :يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال : أي آية ؟ قال: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة[1].

في هذا اليوم تم الإعلان على أن الله أكمل دين الإسلام. ودين الإسلام يشمل العقيدة التي والى النبي ﷺ بيانها كامل حياته ورد الشبه عنها، وتفصيل مضامينها من الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر؛ التي بها خرج الإنسان من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوسات ،إلى الأفق الفسيح الشامل لعالم الغيب والشهادة، والمادة وما وراء المادة. ويشمل ثانيا العبادات التي ختمت ببيان الحج عمليا، وأمْرُهُ المؤمنين أن يأخذوا عنه طريقة أدائه. وقد تم ذلك فعلا يوم عرفة في حجة الوداع. ويشمل ثالثا المعاملات التي ضبط فيها الحلال والحرام والحقوق لجميع الأطراف.

ويشمل رابعا نظام الأسرة وحقوق كل طرف وواجباته في الحياة وفي الموت. ويشمل خامسا الأصول الخلقية التي يتميز بها المسلم في سلوكه مع الآخرين ومع الكون بمختلف ما يحويه.

---

[1] فتح الباري ج9 ص113

ويشمل سادسا القرآن بما اشتمل عليه من صلاح الدنيا والأخرة. إنه بعد يوم الحج الأكبر لم ينزل على رسول الله ﷺ أي نص تشريعي جديد. فهذا هو معنى إكمال الدين، أي إن الدين أخذ ينمو وتتسع آفاقه حتى بلغ ما أراد الله له من شموله الحياة الإنسانية الراشدة، مما يضمن اعتقاده، وتطبيقه عمليا، ما يصل بملتزمه إلى سعادة الدنيا والأخرة. ثم أردف القرآن المنة الثانية التالية لإكمال الدين: إتمام النعمة. وإتمام النعمة ينظر إلى إيقاظ المسلمين لمنة إكمال الدين الذي به اطمأنت نفوسهم، وهدوا للتي هي أقوم، ويتصل بذلك ما تحقق في ذلك اليوم من ظهور الدين ظهورا طهّر الجزيرة العربية من كل سلطان للكفر وأهله، فتم الأمر للإسلام ولم يحج في ذلك العام ولا بعده أي مشرك، وقضي على الشرك فيها قضاء مبرما، والحمد لله رب العالمين.

وتتمازج المنتان ليعبر عنهما تعبيرا مؤكدا لمضمونهما من ناحية، ومتوجا لهما بالرضا الذي هو أكبر نعمة كما صرح به القرآن. قال تعالى : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيه ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)[1] فهذه الآية فصلت ما وعد الله به المؤمنين من الكرامة ليبلغ إلى أرفع درجة منها، وهي الرضا. فذلك مما يشير إلى سمو هذه الأمة في عناية ربها بها، مما جعلها شاهدة على جميع الأمم. فرضا الله لنا الإسلام دينا، يرشد إلى أن الله قد بلغ بهذه الأمة في هدايته المستوى الأرفع، لأنه ليس فوق الرضا مرتبة أعلى منه. وبذلك كان الإسلام خاتم الرسالات.

وختمت الآية بأن من تناول شيئا من المحرمات في حالات الاضطرار وكلب الجوع، فإنه لا إثم عليه في تناول ما حُرم إذا كان غير مائل إلى هتك حدود الحرام. فالمخمصة هي المجاعة التي تعم الموطن الذي ألمت به، وهذه الحالة العامة تبيح لمن خشي على حياته أن يسد رمقه بالمحرم، أي إذا كان الآكل في وضع فعلي مخوف، وليس متعنتا للترخيص العام. وأما إن كان الاضطرار غير متحقق فيه فإقدامه على تناول المحرم لا يعفيه من الإثم.وهو الظاهر من قوله تعالى: غير متجانف لإثم.

وقد تساءل معظم المفسرين عن صلة هذا المقطع بما قبله، وتأولوا تأويلات كثيرة.

والذي ظهر لي : أنه بعد أن صرح القرآن منوها بهذا الدين، وأنه قد اكتسبت هذه الأمة باتّباعه أرفع مقام، نبه القرآن بالتنصيص على حكم تناول المحرم عند

---

[1] سورة التوبة آية 72

المخمصة، بمنة أخرى في الإسلام أنه وإن بلغ بمعتنقيه إلى أعلى المراتب، فإنه مع ذلك قارنه تيسير الالتزام به، فمع الضرورة يبقى متبعه على منزلته وإن ترخص. وهو داخل تحت ما ثبت من الصفات الأزلية لله سبحانه، أنه يغفر مزيلا آثار التفريط، وهو الرحيم بعباده الرحمة الشاملة التي تفسح في الآمال.

ويتلو تحديد المحرمات بيان ما هو حلال. وصاغ القرآن هذا البيان على شكل سؤال وجواب عليه. وهو سؤال حسب ظاهر الآية قد تقدم به عدد غير قليل من الصحابة وتكرر ذلك. وفي السؤال عنه ما يفيد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على معرفة شرع الله رغبة في الالتزام به. وأجابهم القرآن بضابط يكشف لهم الحكم وعلته، إذ ربطه بالطيّب، فكل ما كان طيبا هو حلال أكله. وهذا الضابط يدرك المراد منه، حسب فهمي، بربطه بأصلين.

الأصل الأول: هو معرفة ما حرمته الشريعة، فكل ما نصت الشريعة على تحريمه ليس بطيب.

الأصل الثاني : أن كل ما يضر بالجسم ضررا سريعا أو بطيئا ليس بطيب.

وعلى ذلك فإن الطيبات هي كل ما خلقه الله في الأرض مما يمكن أن يتناوله الإنسان ولم يرد نص بتحريمه، وهو غير مضر بالبدن. أما أذواق الناس وما يستقذر عند بعض الناس ولا يستقذر عند قوم آخرين فلا رابط بينه وبين الحلية والحرمة. فالجراد محبوب عند أهل الجريد في تونس مثلا، وهو مستقذر في جهات عديدة أخرى، وكذلك الحلزون. ولقد شاهدت في جزيرة هونغ كونغ بالشرق الأقصى تجارا كبارا يختصون في بيع المجفف من الديدان والحيات والثعابين ونحو ذلك، واشمئزاز غير الآسيويين من تناوله لا يؤثر في الحلية. فالحلية ليست أمرا بالتناول، وإنما هي عدم منع الإنسان، وبهذا يتضح الحلال والمحرم أتم بيان.

5-وعطفت الآية على ما أحل، حكم ما يحصل عليه الإنسان من الحيوانات البرية بمساعدة الكلاب المعلمة ونحوها من الطيور كالبزاة. فحققت الآية أن ما أمسكه الحيوان المعلم الذي يرسله مالكه على الصيد فيسرع إليه ويدعوه فيأتيه، هو مما يحل أكله. ويدخل تحت هذا صور كثيرة اختلف الفقهاء في حكمها. فأما ما أمسكه المعلم بعد إرساله، وكان صاحبه قد ذكر اسم الله عليه عند إرساله، فلا خلاف في جواز أكله، تمكن منه صاحبه ميتا، أو حيا وذبحه. وأما إذا وجد الصيد قد أكل منه الحيوان المرسل فقد اختلف في جواز أكله والظاهر الجواز.

وتختم الآية بالتذكير بتقوى الله التي هي الحارس لحسن التطبيق. وتبرز حقيقة أخرى: وهي أن الله سريع حسابه للبشر، يعرف كل مسؤول حساب ما قدم في

أقصر وقت متصور. وقد شاهدنا في عصرنا أجهزة الحاسوب وهي تكشف لنا عن نتائج معقدة كانت تستدعي وقتا طويلا، تكشفها لنا بمجرد الضغط على زر.

ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

المحصنة : العفيفة.

أجورهن : صداقهن.

مسافحات : المسافحة هي الزانية التي لا تقصر علاقتها الجنسية مع رجل واحد.

متخذات أخدان : جمع خدن :وهي الخليلة التي ترتبط برجل واحد دون زواج.

حبط : ذهب ثواب عمله.

بيان المعنى الإجمالي :

كما أعلن القرآن أن الله يسر على المؤمنين تناول جميع الطيبات، فكذلك قرن هذا التيسير بحلية أكل ما أعده أهل الكتاب من المأكولات، مما لم يكن منصوصا على تحريمه في الإسلام. وكذلك لم يحرم الإسلام على المسلم أن يقدم من طعامه للكتابي اليهودي أو النصراني.

كما أحل الله للمسلم أن يتزوج بالمسلمة العفيفة فكذلك أحل له الزواج بالكتابية وأرشد إلى مراعاة العفة عند اختيار الزوجة مؤمنة كانت أو كتابية. وذكرت الآية بأن على زوج الكتابية أن يقدم لزوجته صداقا يعبر به عن تكريمها ورغبته فيها.

ورغم هذا التحليل، فإن القرآن ذكر المؤمنين بما أحاطه به من مراعاة الثوابت في العلاقات الجنسية. فلا يحل أن تنزل الرابطة إلى الزنا (الذي هم صاحبه سفح مائه أي الإشباع الجنسي) ولا إلى المخادنة بأن يرتبط بالمرأة وترتبط به دون عقد (المخادنة) وتزوج المؤمن بالكتابية لا يرفعها إلى ما تتميز به المؤمنة، ذلك أن عمل الكتابية وإن كان صالحا في مظهره إلا أنه هباء لا يترتب عليه أي ثواب عند الله.

بيان المعنى العام :

5-اليوم أحل لكم الطيبات...من الخاسرين.

تأكيدا لما تضمنته الآية السابقة ينضاف ما ذكر في هذه الآية، فإن منة الله على المؤمنين بتحليل جميع الطيبات مما يجعل الحياة ميسرة عليهم، قرنت إليه هذه الآية تيسير مخالطة أهل الكتاب (اليهود والنصارى) مخالطة تبيح لهم أن يتناولوا ما أعدوه من المأكل. والمراد من أطعمة أهل الكتاب ما كان لهم دور في إعداده. وهنا ينظر إلى المواد التي تكوّن منها طعامهم، فإن كان من النبات حل طعامهم إذا لم نتيقن احتواءه على محرم علينا كما طبخ بخمر أو أضيفت له مواد نجسة، وينسحب هذا الحكم على غير المتدينين بدين.وأما ما كان من أطعمتهم يحتوي على اللحم، فما ذكي ذكاة شرعية يحل تناوله، وأما ما ذكي بطريقة محرمة بشرعنا فلا يجوز تناوله. فالنصراني الذي أعد لحما ذكي بصعقة كهربائية أو بضرب رأسه يحرم على المسلم أكله. وغير المسلمين إذا كانوا ينتسبون إلى أمة نصرانية مثلا، ولكن الذي قام بتذكية الحيوان رافض لدينه ولبقية الأديان، فهو تبعا لذلك، ليس من أهل الكتاب في الواقع، فلا يحل أكل ما ذكاه. ومن التيسير أن الله لم يمنعنا من تقديم طعامنا لأهل الكتاب.

وفي الصورتين ما ينبئ عن عدم دعوة الإسلام لقطع الروابط مع أهل الكتاب، إذ في مخالطتهم ما يفتح باب التأثير في معتقداتهم، وتيسير دخولهم في الإسلام. ويمكن أن يعتبر ذلك في نظري دليلا على أن هذا الدين أنزل من عند الله، يوقظ الرافضين المستغربين إلى ما في الإسلام من ذخائر لهذه الأمة ومن طرق سالكة تمكن المسلمين من التطور الاقتصادي، معلنة التسامح قيمة أصيلة فيما يعود على المسلمين بالخير. إن ما أصاب المسلمين عبر القرون القليلة الماضية قد نزل بهم إلى دركات من الانحطاط والفقر والضعف، وتقدم العالم الغربي تقدما فسيح الأبعاد. إن تعامل المسلمين معه، مع الاحتفاظ بمقوماتهم الدينية، يفتح لهم مسالك لاقتباس المفيد منهم للنهوض. ومنهم من سار في هذا النهج، ولم يجدوا في ذلك حرجا، تبعا لثقافتهم الإسلامية غير المنغلقة.

وألحقت الآية في علاقتنا بأهل الكتاب حكم التزوج من نسائهم. عاطفا له على الزواج بالمحصنات من المؤمنات وورد النص هكذا : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وعمدة الجملة كلمة المحصنات، جمع محصنة. وهذه اللفظة تطلق بإزاء أربعة معان :

المحصنة : المتزوجة. ولا يمكن أن تحمل الآية على هذا المعنى إذ المتزوجة لا يحل العقد عليها.

والمحصنة :المسلمة، ولا يمكن حمل الآية على هذا المعنى لقوله تعالى : من الذين أوتوا الكتاب.

والمحصنة : العفيفة.

والمحصنة : الحرة. وقد حمل بعض المفسرين الآية على إرادة الحرة، وبنى عليه أنه لا يحل نكاح الأمة الكتابية. وأرجح أن المراد بالمحصنة العفيفة، باعتبار أن القرآن بين ما يحل وأدمج في الحكم، الإرشاد إلى ما ينبغي للمؤمن أن يتحوط في زواجه، فيراعي في اختياره العفة والاستقامة، وخاصة عند التزوج بالكتابيات لضعف الوازع الديني فيهن. فيكون المعنى: وأحل الله لكم نكاح الكتابيات من اليهوديات والنصرانيات، وتيقظوا إلى الناحية السلوكية، فأرْشِدُكُمْ إلى عدم الإقدام على الزواج ممن كانت مسترابة في سلوكها. ثم هل إن الزواج ممن لم تتحقق عفتها حرام، أو مكروه ؟ الراجح عندي الكراهة، وذلك بالنظر إلى عطف المحصنات من أهل الكتاب على المحصنات من المؤمنات. وربط حلية الزواج بالكتابيات بتمكينهن من مهورهن، فلا يظن المسلم أنه معفى من بذل الصداق للكتابية، وذلك لما في عدم بذل الصداق من ابتذال للزوجة وإن كانت كتابية. ومع الصداق المرتبط بالتكريم الذي لا يتسامح فيه وإن كان مع اختلاف الدين، يتحتم أن تكون العلاقة مبنية على الزواج الصريح، لا على قضاء الشهوة بالزنا الذي يهمل نتائج الاتصال الجنسي، ولا تقوم فيه العلاقة على وفاء كل من الزانيين للآخر، وهو المعبر عنه في الآية (غير مسافحين) ولا على الارتباط غير الملتزم والموثق بعقد وإن كانت العلاقة لا تشيع مع غير الخليل (ولا متخذي أخدان).

ونبهت الآية في ختامها إلى أن الزواج من نساء أهل الكتاب لا يرفعهن إلى مستوى المؤمنات، ذلك أنهن بكفرهن بما أنزل على سيدنا محمد ﷺ، قد امحت وبطلت كل أعمالهن الصالحة في ظاهرها. وأن صلة المؤمن بزوجته الكتابية قاصرة على الحياة الدنيا، لأن من لم يحصن نفسه بالإيمان هو خاسر عاقبته، محشور مع الخاسرين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ

وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

المرفق : المعقد بين الذراع والزند.

الكعبان: العظمان الناتئان في مجمع القدم والساق.

الجُنُبُ : الوضع الذي يكون فيه المؤمن ممنوعا من الصلاة حتى يغتسل.

الغائط : المقصود به : قضاء الحاجة البشرية من بول أو براز.

لا مستم : تطلق الملامسة على المس بشهوة وعلى الجماع.

صعيد طيب : جزء من الأرض طاهر.

الحرج : الشدة والضيق.

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة لكل مؤمن ومؤمنة أن يستعد بالطهارة لأداء الصلاة، بغسل كامل الوجه، والأيدي من أطراف الأصابع إلى المرفقين يغسلهما، وأن يمسح كامل رأسه بما علق بيديه من ماء، وأن يغسل رجليه يدخل الكعبين في الغسل.

هذا إذا كان قد نقض وضوءه، أما إذا تحول إلى حال الجنابة فالواجب عليه غسل جميع بدنه.

وخفف سبحانه على كل مؤمن إذا كان الماء يضره كحالة المرض، أو السفر في الشتاء، والماء البارد خطير عليه الاغتسال به ولا يجد الجنب ماء دافئا، أو انتقض وضوؤه بناقض من النواقض ولم يجد ماء لفقده أو خوف من الوصول إليه أو استعماله، أن يقصد إلى قطعة طاهرة من الأرض فيمسح بها يديه ثم يمسح بهما يديه ووجهه.

هذا فضل الله على المؤمنين لم يقصد في تشريعه أن يشدد عليهم بتكرر الطهارة، ولا أن يلزمهم بها على جميع الظروف والأحوال في العسر واليسر، ولا أن يحرمهم من مناجاته بالصلاة في أوقاتها، ولكن يريد الخير بهذه الأمة، يريد أن يطهركم ويتم نعمه عليكم بما جمعه في هذا الدين من كمالات وتيسير.

وتنبهوا فإن هذه النعم توجب عليكم اليقظة لمواصلة شكره بالجنان، والعمل واللسان.

بيان المعنى العام :

6-يأ ايها الذين آمنوا إذا قمتم....لعلكم تشكرون.

دعوة للمؤمنين أن يقبلوا على التأمل فيما يخاطبون به، ويلتزموا بمضمونه، وأن لا يغفلوا عنه. تفتتح الجملة الواردة بعد النداء بقوله تعالى (إذا قمتم) وفي هذا الاستفتاح إشارة لطيفة، إلى أن على المؤمن أن يجمع أمره ويقبل على الاستعداد للصلاة بحزم ودون تثاقل. فحتمت الآية بالتنصيص القرآني ما كان مفروضا قبل ذلك : أن المؤمن إذا عزم على الصلاة فلينهض إليها بكامل الاستعداد والشوق، والاستعداد الواجب هو أنه إذا كان محدثا (بأن انتقضت طهارته السابقة) فتقدير الآية إذا قمتم وأنتم غير متطهرين ،فالواجب التطهر.

وفصلت الآية أركان الطهارة وأقسامها.

أولا : الوضوء ويتحقق الوضوء الشرعي بالقيام بما يلي :

أ: النية : وأفهم وجوب القصد إلى الوضوء (النية) من قوله تعالى (إذا قمتم) فالاهتمام المدلول عليه ب :إذا قمتم، لا يتم إلا مع النية والعزم.

ب :غسل الوجه :وحد الوجه من منابت الشعر المعتاد أعلى الجبين إلى منتهى الذقن طولا، وعرضا من حد الأذن اليمنى إلى حد الأذن اليسرى.

ج:غسل اليدين من أطراف الأصابع إلى المرفقين. واختلف الفقهاء في وجوب غسلهما. وأرى وجوب غسلهما حتى يتحقق المتوضئ أنه غسل يديه، إذ التحديد في هذا متعسر. وشأن المصلي أن يدخل للصلاة بطهارة يغلب على ظنه كمالها، ولا يتحقق الكمال إلا بغسلهما. لكن إن تبين له بعد صلاته أنه لم يستوعبهما فصلاته صحيحة.

د : مسح الرأس. نص الآية: وامسحوا برؤوسكم. هذا النص يحتمل امسحوا الماء العالق باليدين برؤوسكم وهو يد ل على تعميم مسح جميع الرأس، على هذا بنى مالك ﷺوجوب تعميم المسح على كامل الرأس وكذلك أحمد بن حنبل. ورأى أبو حنيفة أنه يكتفي بمسح الربع وهو ما تلتصق به اليدان، وعند الشافعية بعض الرأس بدون تحديد، أي مقدار مسحه كفاه.

هـ :غسل الرجلين إلى الكعبين، وهو معطوف على قوله: وأيديكم، فكلاهما مغسول. والكعبان داخلان في الغسل.

ثانيا: الغسل للجنب وقد تقدم ما يتعلق به في الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء.

ثالثا: التيمم، وقد تقدم تفصيل القول فيه في نفس الآية من سورة النساء. ونبه المؤمنين في خاتمة الآية إلى عنايته بالمسلمين ورعايته لهم، فالقصد من جميع التكاليف الشرعية السمو بالمؤمنين، وعدم إرهاقهم. فإلزام المؤمن أن يكون متطهرا عند كل صلاة، فيه من ناحية تنشيط للإنسان، وتنظيف لأعضائه الظاهرة الملاقية للغبار والأوساخ بالوضوء، وتنظيف لكامل الجسم عند وجود موجبات الغسل، والنظافة تبعد بالإنسان عن الخسة والقذارة وما يصحبهما من مهانة نفسية. ومن ناحية أخرى يتأثر المتطهر بقصده لهذا الاستعداد للصلاة لتسمو روحه إلى مقامات المناجاة والقرب من رب العباد.

ومن ناحية ثالثة راعى التشريع الأوضاع الخاصة التي تجعل المسلم في ضيق وعسر، فنبه على بعض الأحوال التي خفف فيها الطهارة المائية وأبدلها بالطهارة الترابية، التي وإن لم تحقق جميع الآثار الطيبة للوضوء والغسل، ولكنها تحقق التهيؤ للصلاة وعودة المتيمم بالتأمل في عمله إلى أن أصل خلقه من طين (ماء وتراب) فإن فقد الماء رجع إلى التراب ليستحضر حكمة الباري سبحانه في ذلكم الصنع العجيب فيقترب من خالقه.

والتحول من الطهارة المائية إلى الطهارة الترابية يمثل مقصدا أصليا في التشريع الإسلامي، أنه كلما تعرض المكلف إلى العسر الشديد أسعفته الشريعة بالتيسير والتخفيف. ويجب أن لا يعتمد على هذا الأصل إلا العلماء المدركون لأسرار الشريعة العالمون بمواطن التيسير، ومواطن العزيمة. فليس كل ما بدا أنه عسير يوقف التكليف.

وتستنهض الآية المؤمنين ليتأملوا فضل الله عليهم، فقد أكمل عليهم النعمة بتكريمهم بجعلهم حملة شرعه للبشرية إلى يوم الدين، وبهدايتهم للإسلام، وبتيسير القيام بما كلفوا به، فهم لا يجدون صعوبة في الجمع بين مطالب الحياة الإنسانية، وبين مقتضيات تطبيق الشريعة.

وهذا التذكير ينبغي أن يجعل شكر ربهم على نعمه تلك حاضرا في ضمائرهم، منطلقا على لسانهم مدعاة للعمل الصالح.وفي الشكر كمال الصفاء الروحي.

وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

ميثاقه :العهد الذي التزموا به.

قوامين لله : تقومون قياما متكررا دائما لما يرضي الله.

لا يجرمنكم شنآن قوم : لا يحملنكم عداوة وبغض قوم.

يبسطوا إليكم أيديهم: يبطشوا بكم.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر الله المؤمنين أن يتذكروا نعم الله عليهم، إذ في تذكر النعمة ما يوجب الوفاء بالطاعة لمسديها، وأمرهم أن لا يغفلوا عن المواثيق التي عقدوها على أنفسهم، تلكم المواثيق التي أعلنوا عقب أخذها منهم، أنهم قد وَعَوا كل مضامينها وأنهم عازمون على العمل بها وعدم نقضها. وأمرهم بالتقوى الصادقة، فإن الله يعلم خفايا كل فرد وما تنطوي عليه الصدور.

كما أمرهم أن يقوموا مخلصين لله عاملين على تثبيت العدل ونشره، وأن يؤدوا الشهادة بما يثبت الحق لصاحبه، ولا يُحَابُوا في الشهادة قريبا، ولا يحرفوها بسبب عداوة أو بغض. فالعدل هو باب التقوى والله لا يحجب علمه شيء.

وألانَ نفوسهم للطاعة بالتذكير بوعده الكريم للذين آمنوا وطبقوا ما يقتضيه الإيمان من العمل الصالح، أن مآلهم ذهابُ آثار سيئاتهم، ومضاعفة عظيمة لثواب ما قدموه من الخير. ولتأكيد الحث ذكر المقابل وهو أن الذين كفروا الرافضين للحق المكذبين لآيات الله مآلهم الخلود في الجحيم.

ولتأكيد إقبالهم على الطاعة، ذكرهم بما أنعم عليهم من الأمن، بعد أن أعد أعداؤهم العدة للبطش بهم، فتولى الله بث الرعب في قلوبهم ونقضوا ما عزموا عليه، وكفاكم ربكم القتال. فواصلوا الحرص على تقوى الله، فإنه سبحانه هو الذي يتوكل عليه المؤمنون الصادقون فيكفيهم.

بيان المعنى العام :

7-واذكروا نعمة الله عليكم....الصدور.

فاتحة سورة المائدة تضمنت أصلا عظيما في صلاح المجتمع هو الوفاء بالالتزامات. وتتابع التنصيص على بعض تلكم الالتزامات. ومما يساعد المؤمنين على الوفاء بها أن يستحضروا نعم الله التي أنعم بها عليهم، حتى لا يُهَوِّنْ إلفها وتكررها قيمتها العظمى.

وهذه النعم تشمل ما ركزه الدين في قلوب المؤمنين به، فقد أخرجهم من الحيرة والتساؤل إلى برد اليقين، ورفعهم فعقد بينهم وبين الخالق صلة تنمو بالطاعة وتقوى بالتقوى، ومكن لهم في الأرض فأزال عنهم الخوف، ووحد بينهم توحيدا تحقق به معنى الأمة التي يرتبط حاضرها بماضيها ومستقبلها، وأقام لهم الحياة على منهج العدل والعزة والصلاح. وهذه النعم إن نُظِر إليها من جانب الفضل كانت مؤكدة للثبات على الدين، وإن نظر إليها من جانب أنها مرتبطة بالميثاق الذي يأخذه الرسول ﷺ عند المبايعة، فهي تزيد ذلك تأكيدا، وهو الذي ذكر في سورة الممتحنة: (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)[1] وهذه البيعة والميثاق كان ﷺ يأخذه من الرجال أيضا كما أخرجه البخاري من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: أتبايعونني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا ولا تسرقوا؟ وقرأ آية النساء [أي آية بيعة النساء] فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له[2] وإن كان قوله تعالى: ولا يعصينك في معروف شاملا لكل التشريع الذي بلغه النبي ﷺ وبينه قولا وعملا، إلا أنّ التنصيص والتفصيل يبرز زيادة اهتمام بما تم التنصيص عليه. والمهم هو الالتزام بشرع الله وفاء بحق النعمة، ووفاء بما يقتضيه العهد والميثاق. وذكرهم بأنهم عند ما أخذ عليهم الميثاق بالطاعة والتطبيق لشرع الله صرحوا بقولهم : سمعنا وأطعنا، أي إننا عاهدنا ونحن يقظون فكل كلمة من الميثاق الذي كان يعرضه علينا ﷺ، لم نغفل عنها، وقرعت أسماعنا واستقرت

---

[1] سورة الممتحنة آية 11

[2] فتح الباري ج10ص264

في أذهاننا، وإننا قبلنا هذا الميثاق والتزمنا به، وبالطاعة التامة والعزم على تنفيذ ما عاهدنا عليه من القيام بالواجبات والابتعاد عن المنهيات، والسلوك الذي بين منهاجه.

وتختم الآية بالتذكير بالأساس الذي بني عليه صلاح الإنسان في الدنيا والآخرة، وهو تقوى الله، التقوى التي يتطابق فيها الظاهر مع الباطن، فإن الله لا يغيب عنه ما حوته الصدور وما يجري في باطن الإنسان مما لا ينكشف للبشر.

8- يا أيها الذين آمنوا كونوا....خبير بما تعملون

ثم يذكر المؤمنين بالمنهج العام الذي خطه لهم، وعليهم أن لا يحيدوا عنه، وهو ما تقدم الأمر به في الآية 135 من سورة النساء :أن ينهضوا بما أوتوه من قوة إخلاصا لله، وأن يربطوا شهاداتهم بما يتحتم أن يستقر في قلوبهم، من أن الله مطلع على الحقيقة لا تخفاه خافية. ومعنى هذا أن يحرصوا على تحقيق العدل، فلا يحيدوا عنه، وأن لا يحملهم ما استقر في أنفسهم من بغض أو عداوة على المحاباة، فيسيروا مع أهوائهم ويميلوا عما يوجبه الحق والعدل. فالعدل هو الطريق الذي يبلغ به سالكه إلى الغاية المحققة للسعادة والرضا، وهي تقوى الله. ذلك أن الله يعلم دقائق ما تنطوي عليه النفس، ومقاصد كل إنسان من أعماله.

9-10، وعد الله الذين آمنوا...أصحاب الجحيم.

ثم يحثهم على الالتزام بالميثاق بما وعد الله به المؤمنين الذين قرنوا الإيمان الباطني بالعمل بمقتضياته، أن الله يمحو آثار النقائص والآثام التي ارتكبوها، ويضاعف لهم أجور حسناتهم. وفي المقابل فإن الذين كفروا بآيات الله وكذبوا بما قامت عليه شواهد الصدق والحق، سيحقق ما أوعدهم به من الخلود في الجحيم.

11-يا أيها الذين آمنوا اذكروا....ليتوكل المؤمنون.

يلفت نظر المؤمنين إلى نعمة أخرى عظيمة خصهم بها، وشاهدوا آثارها وأدركوها إدراكا بينا، تضمنت نصرا من الله وتأييدا لنبيه وللمسلمين. ذلك أن قوما من أشد أعدائكم ضراوة قد دبروا ما يهزمونكم به وأجمعوا أمرهم وأعدوا له، فتولاكم الله بتأييده وثبط أعداءكم، وكف عنكم أذاهم، دون أن تُبتَلُوا بقتالهم. فاثبتوا على التقوى التي تكسبون بها كل التأييد في الدنيا، وأحسنوا التوكل على ربكم فهو وحده الذي يتوكل عليه المؤمنون وهو كافيهم.

وما ذكرهم به كان واضحا بينا وقت التنزيل، ولكن الروايات التي عينته قد اختلفت في السبب والتاريخ. وإن الذي نعتمده هو أن القرآن يؤكد بتذكيره بهذه

النعمة :أن على المؤمنين أن يلزموا التقوى والصدق في دين الله، وأنه سبحانه سيجري سنته من نصر المؤمنين الصادقين، ويحبط مكر أعدائهم.

• وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

نقيبا: النقيب :الموكل بتدبير أمر الجماعة.

عزرتموهم :نصرتموهم ووقّرتموهم.

لعناهم : أبعدناهم عن رحمتنا.

قساوة القلب : القلب الذي لا يتأثر بالمواعظ.

يحرفون الكلم عن مواضعه : يقصدون إلى التأويل البعيد عن المراد، أو إخفاء بعض المنصوص، وتبديل المعاني الواضحة.

خائنة منهم : خيانة منهم.

بيان المعنى الإجمالي :

تكرر في القرآن التذكير بما أخذ ه الله على بني إسرائيل من المواثيق. وأقام على كل فرع من فروع القبائل اليهودية الاثني عشر نقيبا يتولى أمرهم ويحرض على وفائهم بما التزموا به. وخاطب الله بني إسرائيل بأنه سينصرهم ويتولاهم إذا هم أقاموا الصلاة، وأعانوا فقراءهم، وآمنوا برسل الله وأيدوهم ووقروهم، وقلعوا جرثومة الشح فقدموا طائعين ما يقبله الله لحسن القصد وزكاء الروح. وأنه سيحقق لهم حسن العاقبة، بمحو آثار الذنوب التي ارتكبوها ويدخلهم جنات النعيم. وحذرهم من أن الكفر بعد الاهتداء سيحبط أعمالهم ويرمي بهم في متاهات الضلال.

ولكن اليهود نقضوا الميثاق فاستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله، وتتابُعُ الوقوع في الخطيئة حجّر قلوبهم فلا يدخلها نور الوعظ ولا تتأثر به، وقسوة قلوبهم سهلت لهم تحريف ما بلغهم إياه رسلهم، وتمادوا على ترويج التحريف حتى نسوا كثيرا مما نزل عليهم. وتتابعوا على الخيانة، وبوجودهم في المجتمع المدني، سينكشف لك يا محمد كثيرا من خياناتهم. وقد تولى الله نبيه فرقّاهُ إلى أعلى مستويات الكمال الإنساني خلقا وأدبا. وجريا على هذه العناية أمره أن يعفو عن اليهود الخائنين وأن يصفح عنهم، فبذلك يرقى إلى درجة الإحسان والله يحب المحسنين.

بيان المعنى العام:

12-ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل...فقد ضل سواء السبيل.

من سنن الله في الأمم السابقة أنه يأخذ عليهم عهودا في الاستقامة والوفاء. وتكرر التذكير بما تم مع بني إسرائيل من أخذ المواثيق والتشديد عليهم في الالتزام بها، ومما أكد به سبحانه الميثاق المأخوذ على قوم موسى ﷺ، أن أقام لتحقيقه على كل سبط من أسباطهم الاثني عشر نقيبا منهم، أوكل إليه تدبير أمرهم وحراستهم من الانحراف، ومراقبة التزامهم به.

وخاطبهم الله معرفا لهم بأنه ناصرهم ومؤيدهم بشرط أن يوفوا بالميثاق، هذا الميثاق المتضمن:

1)أداء الصلاة على أتم وجوهها.

2)بذل العون من أموالهم للمحتاجين من الشعب، وهو المراد من إيتاء الزكاة، وليس المراد الزكاة بمقاديرها وشروطها المعروفة في الإسلام، فذلك من خصائص الدين الإسلامي الذي بلغ فيه إصلاح البشر بالتشريع غايته.

3) الإيمان برسل الله الذين سيبلغونهم ما يريده الله منهم في المستقبل، فشمل أنبياء بني إسرائيل وعيسى ﷺومحمدا ﷺ.

4) أن يقرنوا إلى لإيمان بهم توقيرهم ونصرهم والإخلاص لهم

5) أن تسمح نفوسهم بتقديم المعونات عن طواعية ودون انتظار جزاء عاجل، بل أن يكون ما يبذلونه مقدما لله.

وفي مقابل الوفاء بالميثاق، الجزاءُ الموعود به، وهو يشمل أولا تكفير السيئات بمعنى إزالة آثارها السيئة في النفس وفي الجزاء، ثم بعد التطهير من الآثام ودنسها يضمن لهم دخول الجنة التي تتخللها الأنهار الجارية بما يوجبه ذلك من نضارة وجمال يبهج النفس ويريحها. ويحذرهم من الكفر بالميثاق وخيانته فمن خانه

وفك ارتباطه به، يتيه في الضلال، ويكتب على نفسه باختياره الحرمان مما وعد الله به.

13- فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم....إن الله يحب المحسنين.

نقضوا الميثاق وتركوه وراءهم. فاستحقوا اللعن والحرمان من رحمة الله التي وإن وسعت كل شيء، فإنه لا ينالهم منها شيء لقبح ما اقترفوه.

و جرى عليهم سنة الله في الخلق: أن الانحراف عن الحق والإمعان في الضلال يفضي إلى قسوة في القلب، فينغلق على الباطل ويتكون عليه حجاب صفيق من الرفض، فتنسد منافذ نور الهداية ولا ترق قلوبهم للمواعظ.

لقد تتابعوا في الفساد فحرفوا كلام الله بالتأويلات الباطلة النابعة من قصد مخالفة مقاصد التشريع إلى ما يلائم هوى الاتّباع والرؤساء. وبلغ بهم ذلك الانحراف والإعراض عما أنزل إليهم، وتعلقهم بالتأويل وليّ عنق النصوص، بلغ بهم إلى نسيان نصيب مما بلغهم إياه رسل الله وذكروهم به. ولذا فإنك ستطلع يا محمد على مواطن كثيرة من خيانات عظيمة متتابعة منهم.

وإنصافا للحقيقة مع التدقيق للواقع الذي هو شأن القرآن، استثنى بعضا قليلا منهم، هم الذين ثبتوا على القيام بما أنزل إليهم ولم يتبعوا هوى النفس والشيطان. ومن عناية الله برسوله وإرشاده إلى التزام مكارم الأخلاق التي بلغ فيها النبي ﷺ الغاية، أرشده إلى العفو عن خياناتهم وعدم مؤاخذتهم، وهي درجة الإحسان التي يفوز فيها أصحابها بمحبة الله. إن في عرض نقض اليهود للمواثيق وما عطف عليه وما تبعه، ما يؤكد على المؤمنين وفاءهم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه يهود.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

أغرينا : من الإغراء أي تحسين الأمر ثم الحث على فعله حثا قويا.

يعفو : يعرض ولا يظهر.

سبل السلام : طرق السلامة، الآمن سالكُها.

بيان المعنى الإجمالي:

كما تعرض القرآن لليهود في نقضهم الميثاق، أبرز وضع الذين يدعون أنهم نصارى، باعتبار أنه الاسم الذي رضيه الحواريون لأنفسهم، أو لأنهم اتباع عيسى الناصري. نقضوا هم أيضا الميثاق الذي أخذ عليهم من نصرة الحق، وخاصة الانضمام إلى العمل بما يدعوهم إليه خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ. لم يحتفظوا بكلام عيسى عليه السلام فنسوا نصيبا من تعاليمه، وضاعت الحقيقة من بين أيديهم، وتعلقوا بوصايا مبتورة، عمّقت الخلاف بينهم والعداوة والبغضاء، وسيبكتهم الله يوم القيامة فيعلن ضلالاتهم، وينفذ فيهم ما أوعدهم به من النكال جزاء صنيعهم.

أفيقوا فقد جاءكم رسول من عندي يبين لكم الحقيقة التي خفيت عليكم بسبب ما حرفتم وضيعتم. ومن خلقه الكريم أنه يعفو عن كثير من أذاكم. انتبهوا فقد جاءكم من الله نور ينفذ ضياؤه إلى ما كان ظلاما، فيكشف الظلمة ويأخذ بأيديكم إلى منهج واضح مستقيم لا عوج فيه، يهدي به الذين اتبعوا رضوان الله إلى السلام الشامل في الحياة، ويحولهم من الظلام الذي خيم على العقل البشري إلى نور الحقيقة ووضاح المعرفة.

بيان المعنى العام:

14 - ومن الذين قالوا إنا نصارى....بما كانوا يصنعون.

تحقيقا لما قدمناه في الآية السابقة أن الله أخذ على الأمم المبعوث إليها الرسل المواثيق بالوفاء لما قرره لهم رسلهم. وكما أخذ العهد على اليهود أخذ على النصارى. والمراد بهم من يدعون أنهم اتّباع السيد المسيح عليه السلام، أخذا من دعوة رسولهم المسجلة في الآية (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من انصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله)[1] أخذ عيسى عليه السلام العهد على اتّباعه أن يكونوا أنصارا مؤيدين للحق وأن يؤمنوا بمحمد ﷺ. وبعد ذلك اختلطت عليهم السبل، وفقدوا تبعا لذلك المنهج الجامع بينهم بما أضافته كل فرقة من الإضافات التي لا

---

[1] سورة آل عمران آية 52

أصل لها، والتي تناقض الأصول التي رباهم عليها المسيح وفي طليعتها توحيد الله. ولما بلغ التحريف إلى العقيدة واختلطت على طوائفهم الحقيقة، والتبست بكثير من الباطل، اعتبرت كل فرقة الفرقة الأخرى ضالة خارجة عن تعاليم المسيح، وانطوت نفوس أتباعها على التصميم على معاداة الفرق الأخرى لردعها عن باطلها حسب تصورهم، وعمرت نفوسهم بالبغض لها.فالعداوة تحمل على الردع للآخر وبذل العون لقهره، والبغضاء كراهية باطنة منطلقة من الاشمئزاز، ويترتب عنها البعد عن المُبْغَض. وقد يجتمعان وقد يفترقان. واستمرت العداوة والبغضاء بين فرق النصارى وستستمر إلى يوم القيامة، ولا تذوب آثارهما إلا بالإقبال على الإسلام، وطرح الدين المسيحي من أن يكون مقوما من مقومات المجتمع.

وتوعدهم على عدم وفائهم بالميثاق، وعلى إغفال كثير من أصول الديانة التي جاء بها المسيح، وأنه سيعرفهم يوم القيامة بسوء صنيعهم، وما يرتبه على ذلك من عقاب، وهو تبكيت لهم وإذلال.

15-16، يا أهل الكتاب قد جاءكم....صراط مستقيم.

ثم جمع القرآن بين اليهود والنصارى باعتبار أنهم وقعوا في نفس الخطيئة : خطيئة نقض الميثاق، الذي عاهدوا عليه بنصرة رسل الله والإيمان بهم. وحقق أنه قد بلغهم بواسطة سيدنا محمد ﷺ نور واضح لا غبش فيه ولا خفاء، وهو ما أتاهم به من الهداية الشاملة للنجاح في الحياتين، يرفع عن بصائرهم ما كان يغشاها من ظلام التغيير الذي أدخلوه على معتقداتهم وتشريعهم. فالتوراة داخلها كثيرمن التحريف والتغيير، ولم تبق محفوظة، واليهود اليوم رغم ما وصلوا إليه من تأليب العالم لمناصرتهم على باطلهم، تجدهم لا يسوون بين اليهود، فالواردون من الغرب وهم: (الأشكناز) يقدمونهم على اليهود الواردين من الشرق الأوسط :(السفريد). واشتد الخلاف بين طوائف النصارى، فالكاثوليك لا يعترفون بالأرتودوكس والعكس، وحركة الإصلاح الديني ترفض الفريقين. وقامت حروب دينية استمرت قرونا وما تزال.

إن هذا النور الذي جاء به الإسلام يؤلف بين البشر ويوحد بينهم بالارتباط بالله العلي الكبير الذي خلق البشر كلهم، وهم عبيده. وتأيد ذلكم النور بكتاب مبين، يكشف عن الحق ولا يرمي بكم في مسالك التأويل المضلل والمناقض لمقتضيات العقل الراشد. دليله كامن في ذاته، إذ هو يهدي من اتبع رضوان الله الشائع فيه، يهدي إلى الطرق التي يضمن بها متبعها السلام الباطني والسلام مع الأسرة والسلام

مع المجتمع والسلام الإنساني عامة. ويخرجهم من ظلمات الشرك، وظلمات العصبية العمياء، ومن ظلمات الخرافة، ومن ظلمات الحيرة التي ما تزال تعصف بعقول المفكرين الذين ابتعدوا عن هدايته إلى اليوم. فهم ما يزالون يتساءلون من أين جئنا وإلى أين نصير وما هو المصير ؟ أسئلة عمّقت محاولات الإجابة الحيرة المحطمة. إن هذا الهدى وذلكم الدين يأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم الذي لا يجد فيه السالك عوجا ولا التواءات وتظهر غايته من بدايته، فلا يُحجب سالكه عن الغاية التي يوصله إليها هذا الطريق المستقيم.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

يملك من الله: يقدر على شيء.

فترة من الرسل: بعد انقطاع في المدة الفاصلة بين عيسى ومحمد.

بيان المعنى الإجمالي:

شنع القرآن على النصارى دعواهم امتزاج عيسى بالله حتى أصبحوا ثلاثة في واحد. وأبطل تصورهم :بإعلان أنه مما لا يشك فيه عاقل، أن الله قادر على إهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعا بناء على أنه مالك السماوات والأرض، وفعلا أهلك عيسى حسب اعتقادهم فصلب وقتل، وماتت أمه وماتت أجيال متلاحقة من البشر وما يزال الهلاك يترصد كل جيل لتنفذ فيه إرادة الله. وما كانت إرادة الله

متوقفة على وجود عيسى، فهي نافذة قبل وجود عيسى وفي زمنه وفي الأزمنة القادمة. والكل يصير إلى الله ليحاسبه.
وبدعة أخرى أضافوها للدين، فقال اليهود: نحن أبناء الله يحبنا، وقالت النصارى: نحن أبناء الله يحبنا، كحب الأب لأبنائه. وبين سفه مقالتهم، بأنه من المشاهد في الحياة الدنيا أن الله يجازي بعضهم بعقابه على ذنوبهم، وفي الآخرة أيضا لا يقبل أن يكون مآل الصالحين كمآل المذنبين، بل المذنبون يعذبون جزاء ما اقترفوه، ومن غير المعقول أن يعذب الأب ابنه ومن يحبه. فدعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه دعوى كاذبة. بل الحقيقة أن الكل ملكه والمآل إليه، يتصرف فيهم بمقتضى العدل والحكمة، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. وتختم الآيات بدعوة أهل الكتاب أن يتأملوا في دعوة الإسلام التي بلغتهم على لسان رسوله بعد مدة فاصلة بين نهاية المسيح وبين إعلان الإسلام، وقد اختلط الدين الذي جاء به الرسل السابقون. فالإسلام يزيل عذرهم ولا تقبل حجتهم في استمرارهم على ضلالهم، بأن يقولوا: جرينا على ما أخذناه من رجال الدين فينا ولم يأتنا رسول يبين الحق ؛ لقد جاءكم رسولنا يبشر الصالحين بالكرامة وينذر العاصين بالعذاب. وكل ذلك من قدرة الله وحكمته الشاملة.

بيان المعنى العام :

17- لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح....على كل شيء قدير.

نقض النصارى الميثاق الذي أخذه عيسى عليه السلام منهم، وأقبح ما وقعوا فيه تحريف عقيدة التوحيد، فصرحوا بأن الله قد امتزج بعيسى، وامتزج عيسى به فصارا شيئا واحدا أولوا تأويلا غير مقبول ولا معقول، فقسموا، في تقديرهم، الله إلى ثلاثة أصول سموها الأقانيم: أقنوم الذات، وأقنوم العلم، وأقنوم الحياة. وحل أقنوم منها في عيسى. شارتهم التثليث، على اختلاف طوائفهم، سرت مظاهرها في عبادتهم وفي التعبير عما تكنه ضمائرهم. صرح القرآن بأن ذلك التأويل مرفوض دينا وعقلا، وأن القائلين به المعتقدين له، كفرة: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم.)

وأضاف إلى التصريح بكفرهم تبعا لمقالتهم تلك، الاحتجاج عليهم، بما ينفي مقالتهم من أصلها. إن دعوى ألوهية عيسى وامتزاجه بالله دعوى تناقض مقتضيات العقل. فعيسى عليه السلام قد أهلكه الله حسب عقيدتهم وقتل وصلب، وأم عيسى مريم ماتت أيضا، وجميع الكائنات الأرضية، يزول كل جيل مر بهذه الحياة، وما جرى

على جيل يجري على بقية الأجيال، فهي قد زالت أو معرضة للزوال، فمن يقدر أن يحمي أي واحد من هذه الثلاث من الهلاك؟ فلا المسيح يقدر أن يحمي نفسه، ولا مريم، ولا سكان الأرض. فدعوى ألوهية من هو عاجز عن حماية نفسه من جريان التقدير الإلهي عليه دعوى باطلة منقوضة، فلا يتصور أن يكون متحدا مع الله.وقرن القرآن بين عيسى وأمه وبين من في الأرض جميعا للتنبيه على أنهم تجري عليهم سنن الله النافذة في الكون الذي خلقه على وزان واحد.

ثم عقبت الآية بدليل آخر على فساد عقيدة النصارى، بالتذكير بأن الله هو وحده المالك للسماوات والأرض وما بينهما، بما يشمل جميع الكائنات منذ بداية الخلق. وإذا كان سبحانه هو المالك لذلك منذ البداية باعتراف البشر قبل خلق المسيح، فكيف يكون المسيح مشاركا لله في ألوهيته، والكائنات موجودة قبل خلقه. وغاية ما وقع: أن الله خلقه من أم بدون أب، وكل المؤمنين بالله يشهدون أن الله قادر على كل شيء. فاعترافهم بأن قدرة الله غير محدودة، يفعل ما يشاء، ينفي العجب من أن يخلق إنسانا من أم دون أب.

18 -وقالت اليهود والنصارى...وإليه المصير.

ثم قرن القرآن بين اليهود والنصارى ليرد عليهم ما يروجونه من أباطيل، لا سند لها، تؤثر في الدهماء؛ وهي قول اليهود: إنهم أبناء الله يحبهم حب الآباء لأبنائهم، وقالت النصارى: إن المسيح ابن الله وبنوا على ذلك أن كل من يؤمن به مكتوب له أن يدخل في زمرة عيسى فله منزلة البنوة، وهو محبوب عند الله.

ورد عليهم ردا مفحما، أنهم يعترفون بأن الله يسلط عذابه على الفسقة والخارجين عن حدود شرع الله، وإن كانوا متمسكين باليهودية أو النصرانية في عقيدتهم. وإلا لما كان فرق بين عمل الصالحات وعمل الشر. إنهم لو كانوا بمجرد العقيدة ينقلبون أبناء لله وأحباء له لما سلط على أحد منهم العذاب في الدنيا وفي الآخرة، شأن المحب مع حبيبه والأب مع ابنه. فمشاهدة العذاب النازل في الدنيا، وما يقتضيه العدل والإنصاف من أنه لا يكون مآل المذنبين كمآل الصالحين المتقين، ينفي مقالتهم ويسقطها، ويثبت في المقابل : أنهم بشر مخلوقون لله تجري عليهم أحكامه العادلة وينال رحمته من قدر له أن يكون من أهلها، لا يستطيع أي كائن أن يُدلّ عليه. ولما كانت صلة البشر بالله تقوم أساسا على أنهم جميعهم مخلوقون لله، فإن ذلك يتبعه أن لا مزية لأحد منهم على غيره إلا بما يجري عليه في حياته من صلاح. وتقتضي الألوهية أن يكون الأمر بيده يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء

على أساس الحكمة والعدل والرحمة. فدعواهم أن الله يغفر لهم جميع ذنوبهم بمجرد الإيمان بتعذيب المسيح، أو بانتسابهم لإسرائيل، لا مدخل لذلك في الغفران. وهذا ما تقتضيه حقيقة أن الله مالك السماوات والأرض وما بينهما، وما تقتضيه الحقيقة : أن المصير إليه وحده يحكم في الكائنات ولا راد لحكمه.

19-يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا..شيء قدير.

ومن رحمة الله بعباده وفضله على جميع خلقه، ما ترتب على ذلك من تجديد الدعوة لليهود والنصارى دعوة لطيفة ب (يأهل الكتاب) يحركهم أن ينظروا في الواقع نظرة تفتح لهم منافذ الفهم للحق، فيذعنوا له ويتركوا المكابرة. طلب منهم أن ينظروا في مضمون ما جاء به محمد ﷺ، ليجدوا أنه رسول الله. واختار القرآن أن يعبر بإسناده إلى ضمير الحضور (رسولنا) تأكيدا على شدة الصلة بين الله وبين رسوله. ومضمون رسالته هو أن يزيل ما غشى الوحي السابق من ركام الزمن المتلاحق، فغير معالم الوحي الذي بلغه رسلهم. فالإسلام قد أوحي به بعد مدة، من الزمن الذي بعث فيه عيسى عليه السلام، طالت قرونا، أخذ فيها الاتّباع يضيفون ويؤولون ويحرفون، فاكتسبت تلكم الإضافات والتحريفات، بمرور الزمن، قوة فرضت به نفسها على التصورات عند اتّباع الديانتين. فانطلقوا سادرين على ما ورثوه، واختلط الخير بالشر، والحقيقة بالباطل. فبرحمة الله بهم بعث رسوله يبين الحق ويبشر من يعمل به بحسن الجزاء والفوز عند الله، ويكشف الزيف ويحذر منه. فانقطع ما يمكن أن يحتجوا به أنهم سلكوا المنهج الذي أخذوه عن العارفين بالدين، وما أيقظهم للحقيقة أحد. فقد جاءهم رسولنا يقطع حجتهم تلك، ويكشف مميزا بين ما يوجب الثواب والرضا، وما يوجب العقوبة والسخط. ومن قدرته الشاملة المرتبطة بالحكمة بَعثُهُ لرسوله، فأسرعوا باتّباعه تُحققوا النجاة.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ

ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

كتب الله لكم : قضى وقدر وأثبت.

قوما جبارين : قوما أقوياء أشداء.

يتيهون : يسيرون ضالين لا مقصد لهم يصلون إليه.

فلا تأس : لا تتأسف.

بيان المعنى الإجمالي:

تصور هذه الآيات أحداثا تمت بين موسى عليه السلام وقومه في المشاهد التالية:

المشهد الأول : سيدنا موسى ﷺ يعظ قومه مذكرا لهم بمنن الله عليهم: تحرروا من ذل استبداد الفراعنة، وأعيدت لهم عزتهم، واعتنى الله بهم فتوالى عليهم أنبياؤه يبينون لهم الحق، وتتابع عليهم من النعم ما لم يحصل لأي أمة من الأمم في عهدهم

المشهد الثاني : أمرهم الله بناء على ذلك، أن يستعدوا لدخول الأرض التي قدست ودفن فيها أبو الأنبياء إبراهيم.وناداهم :لا ترجعوا إلى ما كنتم عليه من الذل والتفرق فيلزمكم الخسران.

المشهد الثالث : يظهر بنو إسرائيل بعد ذلك، وقد تملكهم الخوف، وأعلنوا أنهم علموا أن سكان تلك الأرض قوم أقوياء أشداء. ولا طاقة لهم بمحاربتهم، وأنهم لا يستطيعون دخول تلك الأرض حتى يخرج منها ساكنوها، وعند ذلك يمكنهم أن يعمروها.

المشهد الرابع : يبرز رجلان إسرائيليان، من بين بني إسرائيل، قد أنعم الله عليهما بالثقة في الله ووضوح الإيمان، والاعتماد التام على عون الله. ويخاطبان القوم الخائفين الوجلين بقولهم: اعزموا وادخلوا عليهم من المنافذ، فإن الله لا يخلف وعده لكم، وستغلبونهم بمجرد ما تقتحمون عليهم أرضهم. وليكن حسن التوكل على الله

هو القوة التي تقتنعون معها أنكم لا تنهزمون إن كنتم صادقين فيما تدعونه من إيمان.

المشهد الخامس: بعد التذكير والأمر، والوضع الانهزامي لبني إسرائيل، ونداء الرجلين الصالحين لهم بالإقدام، يبرز مشهد بني إسرائيل: لم يتحرك فيهم نبض من الإيمان ولا الثقة، يبدون مرتبكين خائفين، مؤكدين لموسى أنهم عزموا عزما قاطعا أن لا يدخلوا الأرض ما دام فيها أهلها، وأن الحل الوحيد أن يقوم موسى وربه بهذه المهمة، وهم ينتظرون ما يتحقق في الواقع، قاعدون في مكانهم.

المشهد السادس : يظهر فيه موسى ﷺ وقد تملكه اليأس من قومه، وهو متوجه في ضراعه : رب إني قد فقدت كل سلطان عليهم، ولم يبق لي إلا نفسي وأخي، فلا تؤاخذنا بما تنزله من عقاب على المتخاذلين.

المشهد السابع: الإعلان عن الحكم العادل من رب السماوات والأرض : حرمت عليهم دخول هذه الأرض أربعين سنة يسيرون إلى غير غاية، ضالين، لا قرار لهم. يا موسى لا تتأسف على القوم الفاسقين ، فقد نالوا جزاءهم.

بيان المعنى العام :

20- وإذ قال موسى لقومه...أحدا من العالمين.

هذه حوادث تمت لبني إسرائيل في عهد موسى ﷺ. لم يُذكّر بها القرآن لمجرد التسلية وسرد التاريخ، ولكن ليكون في ذلك ما يقرِّع به اليهود باستحضار ما عوقبوا به جزاء تباطئهم عن الاستجابة، وليكون في ذلك الموعظة للمؤمنين حتى لا يسلكوا ما سلكه بنو إسرائيل.وليقوموا بالأمانة التي أوكلها الله لهذه الأمة من نشر هدايته في العالمين. ابتدأ العرض باستحضار الجو العام الذي كلّف فيه بنو إسرائيل بما كلفوا به. لم يباغتهم بالأوامر ولكنه سبحانه في لطفه بعباده هيأهم لقبول ما سيرد عليهم.

أولا :ذكرهم بنعمة الله عليهم وفضله الذي آتاهم، ففي ذلك إيماء لما توالى عليهم بعد دعوة سيدنا موسى، من النعم التي تتابعت ابتداء من خروجهم من ذل الاضطهاد الفرعوني وما لاقوه في طريقهم من عناية كما سبق التذكير به في آيات متعددة من القرآن، إلى نزول التشريع الذي يضمن لهم الوحدة والهداية إلى الطريق الأقوم.

ثانيا: أنهم تميزوا في الوقت الذي كانت البشرية تتلمس الطريق الحق فلم تهتد لمسلكه، أنهم في ذلكم الزمن بعث الله فيهم أنبياء منهم، يأخذون بعقولهم وأرواحهم إلى المنهج الرضيّ.

ثالثا: أن الله قد حررهم من ذل القهر الذي سلطه عليهم الفراعنة، فملكوا أنفسهم وتحرروا.وغاية ما يبلغه البشر من العزة أن يكونوا شاعرين بحريتهم وممارسين لها. كما أن هذا الوضع مؤذن بتكوين الأمة وتولي أبناءها السلطة. وهو ما يشير إليه قوله تعالى : **وجعلكم ملوكا.**

رابعا : يا قوم ادخلوا الأرض....خاسرين.

أن الآيات التي أيد الله بها موسى لم تجتمع لقوم قبلهم. فانشقاق البحر، وما نزل عليهم في التيه بالصحراء من المن والسلوى، ورعاية سيدنا موسى لهم بالتربية والإصلاح والتشريع وراشد السياسة، خصائص لهم لم يشاركهم غيرهم فيها من البشر

21- ياقوم ادخلوا....خاسرين.

استحضار هذه النعم يهيء السامعين لقبول ما سيأمرهم به. فجاء الأمر بالتهيؤ والاستعداد لدخول الأرض المقدسة، التي دفن فيها أبوهم وأبو الأنبياء: سيدنا إبراهيم عليه السلام. ولتأكيد الإقدام على ذلك نهاهم أن يتولوا عن تنفيذ ما أمروا به وأن يرجعوا إلى الوراء، إذ في ذلك خسرانهم.

22- قالوا يا موسى إنّ...فإنا داخلون.

ما تقدم مؤذن بأن المتوقع من بني إسرائيل، وقد خاطبهم مذكرا بنعمه، أن يسارعوا بالاستعداد للجهاد والعزم على تنفيذ ما طلب منهم. ولكنهم أجابوا : بأنهم قد علموا أن سكان هذه الأرض التي أمروا باقتحامها، رجال أقوياء أشداء ،وأنهم قد اتخذوا قرارا لا رجعة فيه، هو عدم خوض أي معركة، القوى فيها غير متكافئة. ولما كان الله قادرا على كل شيء فليمكنا من هذه الأرض بعد أن يُخرج ساكنيها، وعند ذلك ننفذ الأمر وندخل الأرض.

23-قال رجلان من الذين...إن كنتم مؤمنين.

ويبرز في المشهد رجلان، وإن كانا من بني إسرائيل الذين استولى عليهم الخوف، إلا أنهما تميزا بصفاء النظرة وبطهارة القلب، أنعم الله عليهما بالطمأنينة الدافعة إلى تنفيذ الأوامر الإلهية في ثقة تامة، فخاطبا قومهما بقولهما: تقدموا وادخلوا الأرض كما أمركم ربكم، وكونوا واثقين أنكم بمجرد ما تقتحمون عليهم المنافذ سينهارون وتغلبونهم ولا قدرة لهم على مقاومتكم، واستعينوا بالتوكل على الله حق التوكل إن كنتم صادقين في إيمانكم.

يشيران إلى أن الإيمان الصادق هو الذي يفرغ في القلب الثقة بالله فلا يتردد المؤمن في تنفيذ ما أمر به. وينكشف في المشهد إثر ذلك بنو إسرائيل الذين وُعظوا من

موسى ﷺ، ومن رجلين صالحين من قومهما لا يمكن أن يظن بهما غير النصح. بما ذا يظهرون؟

24-قالوا ياموسى إنا لن ندخلها...قاعدون.

يظهرون بمظهر التصميم على القعود، والخوف والحذر من كل المواقف التي فيها شرف وشجاعة. كرروا ما سبق أن أعلنوه لرسولهم وزادوه تأكيدا فقالوا : إنا لن ندخل هذه الأرض ما دام أهلها الأشداء الأقوياء فيها، ولا يوجد إلا حل واحد، أن تقوم بهذه المهمة أنت وربك فقوموا بمهمة القتال، ونحن هنا ننتظركم.

25 -قال رب إني لا أملك إلا نفسي....الفاسقين.

وينتقل المشهد لتصوير موسى إثر هذا الخذلان والوقاحة من قومه بني إسرائيل، وهو يبتهل إلى ربه في ضراعة، بعد أن استنفد كل الإمكانات لتحويل بني إسرائيل عن إصرارهم. يقول موسى مخاطبا ربه : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، وبنو إسرائيل قد قتل فيهم الخذلان والخوف كل حركة أو استجابة، ربنا لا تؤاخذنا بجرائم بني إسرائيل، ولا تجعلنا معهم إن قدرت إنزال العقاب بهم.

26-قال فإنها محرمة عليهم...الفاسقين.

وينتقل المشهد معلنا الحكم الرادع لبني إسرائيل، القاطع الذي لا مثنوية فيه: لقد حرمت عليهم هذه الأرض أربعين سنة، لا جامع لهم ولا مستقر، ولا يستطيعون تبعا لذلك أن يرتقوا في الحضارة التي لا تتحقق إلا بالإقامة. ويوجه ابن خلدون في المقدمة الحكم عليهم بالبقاء في صحراء التيه بسيناء أربعين سنة، أن الإسرائيليين فسدت تربيتهم تحت حكم الفراعنة الذين أذلوهم، وأن بقاءهم أربعين سنة ينشأ فيه جيل جديد مكون تكوينا يستطيع القيام بالرسالة التي أوكلت إلى رسولهم موسى عليه السلام. ويتوجه الخطاب إلى سيدنا موسى، لما يعلم فيه من رقة قلبه على قومه وحرصه على نجاحهم، فيقول له: لا تتأسف عليهم، فإنهم فاسقون خارجون عن حدود الله نالوا جزاءهم العادل.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

النبأ : الخبر.

ابني آدم : ولدي آدم.

بالحق : بالصدق.

القربان: ما يتقرب به الإنسان إلى ربه.

تبوء : ترجع.

طوعت : يسرت له نفسه الإقدام بعد تردد.

أصبح : صار.

فبعث : فألْهَمَ.

كتبنا: شرعنا.

السوأة : ما يسوء رؤيته.

يا ويلتا : صيغة استغاثة أشربت معنى التعجب.

أعجزت: هل أنا عاجز؟

الندم : أسف الفاعل على ما صدر منه دون تفطن لما يترتب عليه من مضار.

بيان المعنى الإجمالي:

اقرأ، يا محمد، خبر ولدي آدم وحقيقة ما تم فعلا من أمرهما. وذلك في الظرف الذي قرب فيه كل واحد منهما قربانا، فتقبل الله قربان الصالح، ورفض قربان أخيه الشرير. رفض الشرير حكم الله وحسد أخاه على ما له من منزلة وتوعده بالقتل. فكان موقف الصالح أن وعظ أخاه بأن رفض قربانه كان لعدم تقواه، إشارة منه أن الله يجزي الصالحين ويرفض الفاسقين. وأكد له عزمه أنه لا يسير في طريقه

الضال وأنه يتعفف عن القتل، لأن القاتل سيلقى سوء المصير، بتحمله لذنوب المقتول التي تطرح عليه، إضافة إلى ذنوبه وعظيم جريمة القتل الظالم.

وتطور الحسد في نفس المرفوض قربانه إلى أن استولى على تفكيره وعلى عواطفه، فقتل أخاه، وبذلك خسر الدنيا والآخرة.

وبعد أن أصبح القتيل طريح الأرض فاقدا لنبض الحياة عرضة للهوام، حرك المشهد نفس القاتل وتضاعفت حيرته، ما ذا عليه أن يفعل ؟ فألهم الله غرابا مات غراب مثله، أن حفر في الأرض أمام القاتل حفرة ردم فيها الغراب الميت. فتفطن القاتل البائس، وقلد الغراب ووارى جثة أخيه، واستولى عليه الندم.

إنه من أجل ما ذكر في القصة من فظاعة القتل شرع الله لبني إسرائيل : أنه من قتل نفسا بغير موجب من قصاص أو فساد كبير في الأرض فإثمه يساوي من قتل جميع الناس، ومن ساعد على إبقاء الحياة لشخص واحد فثوابه كثواب من ساعد على إحياء جميع الناس.

وقد جاءت رسل الله فبلغوا تشريعه هذا إلى بني إسرائيل، والعجب أن كثيرا منهم بعد كل ما وعظوا به ثابتون على التهاون بأرواح البشر، مسرفون في القتل.

بيان المعنى العام:

27- واتل عليه نبأ ابني آدم...من المتقين.

هذه واقعة حدثت في أزمنة بعيدة، نسج حولها الخيال ما أضاف إلى الحقيقة الأصلية إضافات لا أساس لها، ولذلك نبه القرآن في بدايتها إلى أن ما سيثبته قد تحرى فيه الحق والصدق، وأعرض عما نسجه الخيال. وفي هذه الحادثة عبرة متجددة، موقظة للناظرين، وماضية مع الزمن .

بطلا هذه القصة هما ولدان من أولاد آدم عليه السلام، رابطة الأخوة الجامعة بينهما محققة. يثير القرآن الانتباه بتحديد الإطار العام: أخوان قرّبَ كل واحد منهما لربه قربانا من ماله، ولم يفصل القرآن ما قربه كل واحد منهما لأن ذلك لا أثر له فيما يريد القرآن أن يلفت إليه الأنظار. وتبدأ المفارقات إثر ذلك :

المفارقة الأولى :أحد الأخوين تقبل الله قربانه فمضى هانئ البال. ويرفض قربان الآخر فيتغيظ. تنفجر العلاقة بينهما تبعا لذلك، فيهدد المرفوض قربانه أخاه بالقتل، بعد أن ثار في نفسه نار الحسد. وترتبط الحادثة بما بسطه القرآن في أول سورة البقرة حينما عرض المولى سبحانه على الملائكة أمر استخلاف البشر، فأثار

الملائكة ما في تركيب هذا الكائن من الاستهانة بالقتل، وما حصل بعد ذلك من حسد إبليس لآدم.

28-لئن بسطت إلي يدك لتقتلني....رب العالمين.

المفارقة الثانية: أن المُهَدَدَ بالقتل لا يقابل التهديد بالتهديد، ولا الثورة بالثورة، ولكنه يبدي من التعقل ما حاول به أن يكف أخاه عما تهيأ له، فينصحه بإبراز سبب رفض قربانه، وهو أن الله لا يتقبل من الأعمال إلا ما كان جاريا على سنن المتقين من الإخلاص، وعدم المباهاة وكسر النفس كسرا لا تُدلُ معه بما عملت من خير. ثم إنه لا يجاريه في التعدي ولا يضمر لأخيه شرا، ويثير في وضوح عاقبة الشر الذي هدده به، وأنه حصن نفسه من المعصية بعزمه عزما مؤكدا وبإرادة قوية، أنه لا يقابل الإقدام على القتل من أخيه بعزمه على القتل، وأفصح عما جرى في قلبه من حذر العاقبة السيئة التي يُجزى بها القاتل، مما تعلماه من أبيهما، أن جزاء القاتل النار لأنه ظالم والنار جزاء الظالمين فتسلسلت موعظته في حكمة وتعقل.

29-30، إني أريد أن تبوء بإثمي.....من الخاسرين.

المفارقة الثالثة :يوحي النص بأن المقبول منه قربانُه قد مضى هانئ البال، لم يأخذ لنفسه الحيطة. وأن المرفوض قربانه قد استقر في باطنه تغيظه، وحصر فكره وعواطفه بالمظهر الناقص الذي كشف عنه الرفض لقربانه، وتميُّزُ أخيه عليه. وهكذا هو الشأن، كلما لم يطرد المرء بالتقوى والنظر في العاقبة دواعي الشر، يقوى في ناظره دواعي الأنانية، حتى تضيق الدنيا على سعتها عن احتمالهما معا هو ومحسوده. وما يزال ترداد هذا التصور يضخم ذلك حتى ينساق إلى الإضرار بمن حسده. وهو معنى فطوعت له نفسه. وفي لحظة عنف الإحساس السيء بالمهانة التي ليس للمحسود يد فيها، يقدم على إلحاق الضرر. فقتل أخاه واستحق أن يحشر في زمرة الخاسرين لحياتهم في الحال والمآل.

31-فبعث الله غرابا يبحث....من النادمين.

المفارقة الرابعة : الرجل الصالح ملقىً على الأرض قد فارق الحياة، وأخوه ينظر إلى جثته لا حراك بها مستعدة لتقبل هوام الأرض، ولا يوجد ما يحميها من التعفن شيئا فشيئا. وعند ذلك يدخل في المشهد عنصر جديد : غراب، وقد مات قرينه، ألهمه الله أن يحضر أمام نظر القاتل، فيحفر في الأرض حفرة يواري فيها جثة قرينه الميت.

-المفارقة الخامسة :الأخ القاتل الذي كان متهيجا يعود إليه رشده بعد ذلك فيأكله الندم، ويحس أنه أقل فطنة من الغراب، وتقوم في نفسه رابطة الأخوة، فيتعلم من الغراب الطريقة التي يغطي بها ما حصل لأخيه مما يسوء، ويواريه في التراب. وينتهي المشهد وهو مطأطأ الرأس نادم على ما فعل.

*** وفي هذا المثل حكمة عالية ترشد الناظرين إلى أن مسالك المعرفة مفتوحة أمام الإنسان. عليه أن ينتفع بها، سواء أبلغته عمن هو أوسع منه علما وأحد ذكاء، أو تلقاها عمن هو أدنى منه منزلة. فابن آدم تعلم من الغراب، وسيأتينا إن شاء الله خطاب الهدهد لسيدنا سليمان (قال أحطت بما لم تحط به)[1]

32-من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل...لمسرفون.

استحضرْ أيها التالي لهذه الآيات، أنه بسبب ما فصل فيها من فظاعة الإقدام على قتل النفس البشرية كان مما شرعه الله لبني إسرائيل : أن إثم قاتل النفس البشرية بغير حق، أي في غير قصاص ولا في حالة ردع المفسد في الأرض، هو إثم عظيم، تزن شناعته شناعة من قتل الناس جميعا، وفي المقابل فإن من أحيى نفسا واحدة فَـنُبْـلُ فعله يساوي من أحيى الناس جميعا.

وهذا التشبيه المُسوّي بين الاعتداء على حياة فرد بالاعتداء على حياة جميع البشر، وأن من استنقذ نفسا واحدة من الهلاك فكأنما استنقذ حياة جميع الناس، قد استشكله الناظرون في كتاب الله وحاولوا الإجابة عنه، ولا شك أنه يتطلب توضيحا.

والذي ترجح عندي أن الحياة أمر واحد لا يملكها إلا الله، ولا يدرك سرها إلا هو، فقتل نفس واحدة هو تعد على الحياة التي هي قدر مشترك بين البشرية من آدم إلى أن تنتهي الحياة على وجه الأرض، ولا ميزة لحياة فرد على حياة فرد آخر، ولذلك سوى الإسلام في التعويض(الدية) المقدار الذي يستحقه ورثة القتيل بين الملك والسوقي، والعالم والجاهل لاستواء قيمة الحياة. فكان التهاون بحياة فرد لا يختلف عن التهاون بحياة الجميع. وفي هذا التشبيه ما يردع القاتل عن ارتكاب جريمته الفظيعة، كما تجد في المقابل ما يحمل البشر أمانة حفظ الحياة وجزاء المُسْهِم في ذلك.

وبنو إسرائيل رغم ما شرعه الله لهم في التوراة، وزجرهم عن قتل النفس البشرية، وما أكده الأنبياء على هذا التشريع، ما يزالون أكثر الناس إسرافا في القتل والتهاون بحياة الناس. إن الذين قُتِلوا من الفلسطينيين بترتيبات من الحكومات الإسرائيلية

[1] سورة النمل آية22

على اختلاف أحزابهم وانتماءاتهم لا يكادون يحصون عدا. بل اغتالوا أولياءهم من الانكليز الذين أدخلوهم أرض فلسطين بوعد بلفور رئيس حكومتهم. والمجازر التي ارتكبت في قانا وفي غزة وفي لبنان، والإبادة الجماعية للأسرى من الجيش المصري، كل ذلك يوضح واقعيا ما شهدت به الآية : ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون.

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

المحارب : الذي يحمل السلاح لإخضاع الناس لينفذ فيهم إرادته.

يقتلوا : يقتلون بشدة وبدون رحمة بهم.

يصلبوا : يشد الجاني على خشبة ثم يطعن في المقتل.

من خلاف : تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

بيان المعنى الإجمالي :

عقب القرآن مثل فساد القتل الأول في الوجود، الذي جرأ الخارجين عن حدود الله بعد ذلك لارتكاب تلكم الجريمة، عقب ذلك ببيان حكم جريمة أخرى شناعتها عظيمة في المجتمع الإنساني، وهي جريمة الحرابة. والحرابة هو خروج بعض الشطار عن النظام العام وتخويف الناس بالفتك بهم إذا هم لم ينقادوا لهم، فيقتلون ويسلبون الأموال ويتعدون على الأعراض، داخل المدن وخارجها، وبذلك تكون الحرابة معطلة لعمارة الأرض التي هي الغاية من استخلاف الإنسان في الأرض، ومناقضة للأمن الذي تكفل به النبي ﷺ إثر دخوله للمدينة وتكوين أول دولة إسلامية.ويسري هذا الحكم على الأمة الإسلامية بعد ذلك.

وجزاء المحارب إما التقتيل، أو التصليب، أو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو النفي مع التضييق عليه في مكان لا يقدر فيه على إيذاء الناس، وفسر بالسجن.وإن هذه العقوبة الرادعة يصحبها مهانة في الدنيا، فترتفع عن المحارب منازل التكريم الشرعي والاجتماعي. ولهم عذاب عظيم في الآخرة هو أكبر من أن يحده وصف.

ورفع الله عن المحاربين الذين يتوبون قبل القدرة عليهم فيأتون طائعين من قبل أنفسهم معلنين ندمهم وعزمهم على الانخراط في الحياة الاجتماعية، رفع عنهم عقوبة الحرابة دون جزاء التعدي على حقوق العباد التي انتهكوا حرمتها، كجريمة القتل أو الاستيلاء على الأموال.

بيان المعنى العام :

33- إنما جزاء الذين يحاربون الله....عذاب عظيم.

أعان الله البشر على القيام بمهام الاستخلاف في الأرض بما شرعه لهم في علاقتهم بخالقهم وفي علاقتهم ببعضهم وفي علاقتهم بالكون عامة.وقدر أن يكونوا مختارين غير مجبرين، ورتب على ذلك أنهم مسؤولون. إن من يحرم البشر من الاختيار، فيتسلط بقدراته القتالية ويهاجم الناس بسلاحه ويشل حركتهم ويخضعهم لإرادته إما لافتكاك أموالهم أو لينال من أعراضهم، ولا يتردد في قتل من لا ينصاع له ؛ هذا هو المحارب سواء أخاف الناس في الحضر أو في البادية لاستواء الشناعة فيهما.

وقد عبر القرآن عنهم بأنهم يحاربون الله ورسوله، وهم أبخس وأذل من أن يواجهوا القادر الذي خضعت كل الكائنات لسلطانه، ولكن غاية ما وصلوا إليه أنهم يحاربون النظام العام الذي بنى عليه عمران الكون، هذا العمران الذي لا ينطلق إلا في ظل الأمن الشامل. وباعتمادهم على نشر الخوف يتعطل السعي، وينكمش العاملون الضاربون في الأرض من الجنسين.

ولما قدم النبي ﷺ المجتمع المدني. فمن أخل بالنظام بشطارته يكون قد حارب رسول الله ﷺ في البناء الذي انطلق به لنشر كلمة الله في الآفاق.

إن نشر الخوف وفقد الأمن على الأنفس والأموال والأعراض، يتبعه انعزال الناس عن الإنتاج والجد، فلا فلاحة ولا صناعة ولا تجارة. وبالتالي هو الفساد في الأرض.

قررت الآية العقوبة الرادعة للمحاربين: التقتيل، الصلب، قطع اليد والرجل من خلاف، النفي من الأرض. والتقتيل من قتّل بالتشديد والتصليب من صلب بالتشديد إيماء إلى أنه ينفذ فيهم الحكم ولا يرحمون. ومعنى التقطيع من خلاف أن تبتر اليد اليمنى وتقطع الرجل اليسرى. والنفي من الأرض إبعاده إلى مكان يؤمن به من عودته إلى إجرامه. وهل ذلك على التخيير لنظر ولي الأمر، أو إن هذه الأحكام مرتبطة بالجناية التي ارتكبها المحارب عند حرابته؟ اختلف الفقهاء والمتأولون في

إن الذي يترجح عندي أن النظر فيه لولي الأمر، يقدر الأصلح للجماعة الإسلامية، ويراعي الظروف العامة، وليس له أن يخفف العقوبة إذا اقتضت المصلحة تشديدها، ولا العكس.

وضمانا لحسن التطبيق لمبدأ الاختيار هذا يتعين على ولي الأمر أن يستعين في تقدير العقوبة والمصلحة، بجماعة من الخبراء النزهاء الأتقياء، وينفذ ما يرونه محققا لانتظام أمر المجتمع.

إن عقوبة المحارب يجب أن تنفذ، وإن وضعه الاجتماعي سيكون وضع المهانة والخزي، وإنه سينال العذاب العادل يوم القيامة في نار جهنم.

34-إلا الذي تابوا....ان الله غفور رحيم.

إن من جاء تائبا باذلا للطاعة نادما على ما صدر منه قبل أن يقدر النظام العام عليه، فإنه يرتفع عنه إثم الحرابة وعقوبتها. وذلك من حسن السياسة الشرعية.

فإن المحارب إذا علم أنه سيجد من المجتمع وحكومته العفو إذا هو عاد إلى الاندماج في الحياة، وأنه إذا واصل شطارته فإنه لا يؤمن من أن يقبض عليه وينفذ فيه حكم الحرابة وليس لولي الأمر ولا لأي أحد أن يعفو عنه، فإن هذه السياسة الشرعية ستكون حافزا له على التوبة والرجوع إلى الصراط المستقيم.

وسكتت الآية عن حكم ما تعلق بذممهم أيام الحرابة من حقوق العباد كالقتل أو الاستيلاء على الأموال، والراجح أنهم مؤاخذون بذلك، لأن أثر التوبة خاص بحق الله لا بحقوق العباد في غير الحرابة إجماعا، فكذلك يتعين أن يكون الحكم في الحرابة

ولا تتحيروا في هذه السياسة الشرعية من العفو عن المحارب إذا جاء تائبا قبل أن يقدر عليه النظام العام، فإن ذلك جار على سنن الله سبحانه في معاملة عباده، فإنه سبحانه هو الغفور الرحيم للتائبين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوسيلة : كالوصيلة وزنا ومعنى وهو ما يتوصل به إلى مرضاة الله.

ليفتدوا به: يقدمونه عوضا.

تفلحون :تظفرون بما هو مرغوب لكم.

بيان المعنى الإجمالي :

يذكر القرآن المؤمنين دائما بأن تكون خشية الله وتقواه ملازمة لهم في فكرهم وسلوكهم، وأن يعزموا عزما فاعلا ليتقربوا من ربهم بالعبادات التي شرعها لهم، فذلك هو الموصل للفوز بالرضوان، وبالتالي بالسمو ليقتربوا منه قرب التكريم. وأرشدهم إلى أرفع تلك الوسائل وهو الجهاد في الطريق الذي يرضيه، بما يشمله من جهاد بالنفس وبالمال وبالعلم وبنشر الفضيلة ومقاومة الرذيلة. وأن ذلك هو الذي يجعلهم على رجاء تحقيق النجاح والفلاح.

وفي المقابل فإن الذين كفروا بالله، لا حظ لهم في الآخرة ولا يجدون طريقا للعفو عنهم، فهم لو تصور كما يتصور المحال أن تدخل خيرات الأرض ومثلها في ملكهم، ثم يحاولون أن يقدموها تعويضا عن كفرهم ليفتدوا من العذاب، فإن الله لا يتقبل منهم ذلك، وقد اختصوا بعذاب يحسون بشدة ألمه بالغ الإحساس. هم يريدون أن يخرجوا من النار، وهذه الإرادة تتبعها الخيبة ليذوقوا العذاب النفسي مع العذاب الجسدي.

بيان المعنى العام :

35-يا أيها الذين آمنوا اتقوا...تفلحون

هذه سنة القرآن في الهداية، يقرن النذارة بالبشارة والترهيب بالترغيب. فبعد أن بين خطر الحرابة وأحكامها وختمها بقبوله لتوبة التائبين، توجه للمؤمنين جميعا يحرضهم على التمسك بتقوى الله التي هي سبيل الفوز في الدارين. ثم عطف عليها ما يزيد التقوى تحققا، وهي أن يعمل كل مؤمن على القيام بالطاعات التي تزيد المؤمن قربا من الله، فإنه من المعلوم أن القرب من الله ليس قرب مسافة ومكان ولكنه قرب منزلة ومكانة، هذه المنزلة التي يرتقي فيها العابد مع الإخلاص إلى مراتب الرضا، وذلك بمختلف ضروب العبادة التي شرعها وعرف عباده بأنه يقبل أن يعبد بها. وتوج إرشاده فدلهم بالأمر بالجهاد وبذل الطاقة فيما يقيم أمر الدين بما يشمل الجهاد بالنفس، والجهاد بالمال، والجهاد بالتعليم، والجهاد بنشر الفضيلة

ومقاومة الرذيلة. إنه بذلك تكونون على رجاء أن يتقبل الله منكم، فيكتب لكم النجاح والفوز في الدنيا والآخرة.

36، 37: إن الذين كفروا لو أن لهم...ولهم عذاب مقيم.

وفي المقابل فإن اليأس للذين كفروا بالله ثابت لا محيد عنه. فلو أنهم ملكوا كل ما حوته الأرض من الخيرات، ومثل ذلك من المتخيل غير الموجود، لو تحقق لهم ذلك كما يفرض المحال، ثم حاولوا أن يقدموه فداء لما فرطوا فيه بإعراضهم عن الإذعان لربهم في حياتهم الدنيا، ومن فعل الخير، لو يتصور ذلك كما تتصور الفروض المستحيلة التي لا تتحقق، تجسيما لانتفائها، فإن ذلك لا ينفعهم ويرفض رفضا قاطعا. واختصوا بعذاب يتضاعف ألمه ولا يُلطّفُ منه تعود الجسم به. إنهم في هذا العذاب المؤلم لأجسامهم تتحرك أشواقهم وإرادتهم للخروج من النار، فتصيبهم الخيبة وتتبخر أمانيهم، فينضاف إلى عذابهم الجسمي عذابهم النفسي.

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

السارق: هو المستحوذ خفية بدون إذن المالك، على مال لا ملك له فيه، المحتفظ به في حرز، ثم يخرجه.

الجزاء: المكافأة على العمل بما يناسبه.

النكال: العقاب الشديد.

بيان المعنى الإجمالي:

حكم الله بأن كل من يعتدي بسرقة مال غيره يعاقبه القاضي المسلم بقطع يده. وهذا الحد ردع به الله، العزيزُ سلطانُه، الظالمَ المعتدي بالسرقة، فلا اعتراض على حكمه. وإن الله يقبل توبة التائب من السرقة. ولا غرابة في تحول المذنب المنكّل به إلى ساحة المغفرة لأن الله مالك للسموات والأرض، يتصرف فيهما تصرفا كاملا، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، لا راد لحكمه، وقدرته نافذة.

بيان المعنى العام :

38-والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما...حكيم.

حددت الآية عقوبة من يسرق مال غيره ذكرا كان أو أنثى. فأوجبت على ولي الأمر أن يقطع يده. وهنا لا بد من التدقيق في تفاصيل مفهوم السرقة التي بينتها السنة :

أولا :أن يكون المستحوذ على المال لا شبهة له فيه.

ثانيا : أن يكون المال محفوظا حسب العرف في حفظه.

ثالثا : أن يكون السارق قد دخل إلى المحل الموجود به المال بغير إذن من صاحبه.

رابعا : أن يخرجه من مكانه ويذهب به.

خامسا : أن يستولي عليه خفية.

سادسا : أن يتم ذلك بدون إذن صاحب المال.

سابعا: أن تكون قيمة المال 1,05 غ من الذهب فأكثر.

ولا يقوم بالعقوبة إلا ولي الأمر، فليس للمسروق منه أن ينفذ الحد، لأن الحدود لا تنفذ إلا بعد الحكم بها وذلك من اختصاص القضاء. ثم بررت الآية هذا الحد، بأنه جزاء عادل للفعل الساقط الذي قام به بقصد وتدبير، من هو ظالم، وهو محقق للردع الذي يمنعه من العود. وليس لأحد أن يعترض عليه أو أن يعجب من شدته فإنه تنكيل حكم به الله العزيز سلطانه الذي لا يتعقب حكمه فهو صادر عن الحكيم الحكمة الكاملة.

39-فمن تاب من بعد ظلمه...غفور رحيم.

ثم إن السارق إذا تاب بعد قطع يده فإن الإثم يسقط عنه، وإن لم يقم عليه الحد وستره الله، وتاب نادما عما صدر منه فهو إلى حكم ربه، إن شاء غفر له وإن شاء أخذه بإثمه. وربطت الآية التوبة بالإصلاح، وهو مطلق لم يفصل، وحمل على أن المراد منه: أنه أقلع عن جميع الذنوب، واستقام على الطريقة. وعللت الآية قبول توبته بأن هذا هو المتسق مع الفضل الإلهي والرحمة، فإن الله غفور رحيم.

40-ألم تعلم أن الله له ملك...كل شيء قدير.

وتأكد هذا المفهوم بالآية التالية التي تستنهض العقل ليتأمل بأن انقلاب وضع السارق من التنكيل إلى مغفرة ذنبه بالتوبة غير غريب، لأن الله سبحانه متفرد

بالتصرف في السماوات والأرض وما بينهما، يسلط عقوبته على من يشاء، ويغفر لمن يشاء، وكل ذلك مرتبط بحكمته وقدرته.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

يسارعون في الكفر : السبق إلى إظهار الكفر ونصرته، والعمل على خداع الناس بحججه.

سماعون للكذب: يكثر منهم سماع الكذب لانتشاره فيهم.

يحرفون الكلم :يحولون الكلام فيخرجونه عن إفادة مقاصده.

الخزي : الذلة والمسكنة.

السحت: المال الحرام بمختلف أسباب حصوله، الذي لا يبارك الله فيه.

بيان المعنى الاجمالي :

من عناية الله برسوله، أنه كلما اشتد عليه أمر القيام بنشر الدين، ومقاومة المعاندين، ينزل عليه ما يسليه ويقوي عزيمته ويثبته، ويخرجه من الوضع الحزين إلى الوضع الآمل في النصر. لقد أحزن رسول الله ﷺ أمرُ الذين يتسابقون إلى إعلان كفرهم، من المنافقين الذين اندسوا في صفوف المسلمين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ومن اليهود الذين يشيع في مجالسهم اختلاق الأكاذيب وترويجها

حتى لا تكاد تسمع منهم في مجالسهم إلا صورا متسلسلة من الأكاذيب والافتراءات، وهم سماعون لأكاذيب أقوام آخرين مثلهم لم يقدموا عليك، ولكنهم بلّغوا ما يريدون إبلاغه إلى أولئك اليهود. إن الصفة اللازمة لهم التي عليها يعولون وبها يتشبثون، هي تحريف الكلام عن المقاصد التي وضعت لها بالتأويل والتبديل، ثم يقولون: إن ما عندنا هو الحق وإذا وافق محمد ما عندنا، مما ركّبوه حسب هواهم، فاقبلوا كلامه، وإن خالفه فكونوا حذرين من اتّباعه. ومع تصميمهم على الباطل الذي نسجوا هم خيوطه، فلا تحزن من عنادهم لأن الله حرمهم ألطافه، وأوكلهم إلى ما ثبتوه في أنفسهم من الباطل، ولا تستطيع أن تخرجهم عنه إلى طريق الهداية.

إن الله لم يرد أن يعطيهم القوة التي تطهر قلوبهم من العناد والإصرار على الكفر. وقد كتب لهم الخزي والمهانة في الدنيا، وكتب لهم في الآخرة العذاب العظيم. هم سماعون للكذب ضموا إلى فسادهم ذلك أكلهم الحرام بمختلف أنواعه، ولذا فإذا قدموا يطلبون منك أن تحكم فيما يعرضونه من قضايا، فإنك مخير بين أن تحكم بينهم أو أن تعرض عنهم ولا تحكم فيه. وإذا اخترت الحكم بينهم فاثبت على الحكم بالعدل لأن الله يحب الحكام العادلين. ثم يظهرهم في مظهر المتناقضين الفاقدين للإيمان. أمرهم عجب ! أتوك يدعون أنهم يبحثون عن حكم ما حصل لهم، مع أن التوراة، التي يقولون بأفواههم أنها كتابهم الذي يلتزمون به، بينت لهم ما يسألون عنه. وهم من ناحية ثانية لو أيدت حكم التوراة أعرضوا عما تحكم به. فالحقيقة التي يعملون على تغطيتها : أنهم فقدوا الإيمان واتبعوا الهوى.

بيان المعنى العام:

41-يا أيها الرسول لا يحزنك الذين....عذاب عظيم.

إن مقام رسول الله ﷺ المقام الذي لا يدانيه فيه أي إنسان، رعاه ربه من بداية أمره فسما إلى المنزلة التي حمله بها رسالته الخاتمة للعالمين. وهدايته للبشرية قاطبة، وتَتَبُّعُ ذلك في القرآن جدير بأن يفرد له بحث خاص. وقد ذكر كثيرا من وجوهه القاضي عياض في الشفاء.

كان النبي ﷺ أكمل الناس شعورا بشرف مهمته، وكان تبعا لذلك يبذل كل ما آتاه الله من قوة لهداية الناس، يدفعه لذلك عوامل تمازجت فكونت منها قوة تُنَمّي حرصه، وبالتالي إحساسه بالغبطة كأشد ما تكون الغبطة عندما تنفذ كلمة الله إلى القلوب فتنقذها من الحيرة، وتضيء لها مسالك الفوز والرضوان، وبالمقابل كان يأسف أشد الأسف، ويحزن أشد الحزن إذا انكشف له أن الشيطان قد لف ضلالاته

على بعض العقول والأرواح وحجبها عن الإسلام فلم يؤثر فيها أي شعاع من نور الحق. ويعربد الكفر بالقوة تارة، وبالتمويه والمكر تارة فيضلل الناس. ويحزن النبي ﷺ وشأن الحزن أنه يجعل التفكير يدور في فلك موجبات الحزن ولا يتقدم، وعناية الله برسوله تسعفه فينبهه ربه، عناية به، فيقويه على مجابهة الكافرين وإصرارهم ومكرهم.

يسلي المولى سبحانه نبيه في ساعة حزنه، بما يفسحه له من الأمل، مما يجعل ثقته بانتصار الإسلام أمرا لا ريب فيه. يقول له ربه: كن واثقا من ظهور الإسلام، ولا يحزنك تعصب الكافرين الذين بلغ ضلالهم أنهم يسرعون لإظهار الكفر ونصره ومكافحة الحق، وخاصة أولئك المنافقين الذين عملوا على أن يخدعوا المسلمين فقالوا بألسنتهم: آمنا وأظهروا ما يفيد انتماءهم للإسلام واندسوا في صفوفكم، ليؤمنوا أن الجماعة تأمنهم، ولكن الظلام استبد بقلوبهم فتشبثت بضلالها.

ولا تحزن أيضا يا محمد من اليهود، الذين من خصائصهم أنهم يختلقون الأكاذيب ويروجونها ويكررونها فتمتلئ بها مجالسهم وأسماعهم حتى يكادون يقتنعون بها، فهم سماعون للكذب لكثرة ما يروج منه في مجالسهم .وهم سماعون أيضا لكذب قوم آخرين لم يأتوك ولم يستفتوك مباشرة. ولم تعين الآية القوم الآخرين، ولم تتفق الروايات على تعيينهم، ولكنهم على شاكلتهم في الكذب والكيد الذي أدخل الحزن على رسول الله. ولم يأتوا لمجلس رسول الله ﷺ ولكنهم حملوا أسئلتهم ليهود بلغوا ما أرادوا تبليغه. ووصفهم القرآن بوصف آخر وهو أنهم يُحوّلون الكلام فيصرفونه عن المعاني التي وضعت لها، ويغيرونه بالتالي عما يقتضيه من أحكام ثابتة يعلمونها، ولكنها لا توافق هواهم. ولذلك ضبطوا مهمة من أرسلوهم، بأنهم لا يقبلون ما يقوله لهم رسول الله ﷺ، ولكن عليهم أن يعودوا به للأحكام التي يرتضونها مما يوافق هواهم ، فقالوا لهم: إن أفادكم ما نرغب فيه فخذوه واحتجوا به في الدنيا والآخرة، وإن أخبركم بأحكام غير تلك فلا تتبعوه، واحذروا فإن اتّباعه فيما يخالف ما نحن عليه، فيه فضيحتكم وانتصاره عليكم. ثم يسلي النبي ﷺ بأن من حجب الله عنه ألطافه، وخلى بينه وبين هواه فاتبعه، ولم ينظر فيما بلغته، فإن الله يفعل ما يشاء لا شريك له في ملكه ولا تملك حيلة ولا أي شيء يؤثر فيه ولو كان قليلا لتدخل الهداية قلبه. ثم عرّاهم بالإشارة إليهم فقال: إن الذي كشفهم بما يصدر عنهم، لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فيجعلها مفتحة لقبول الهداية بإزالة معوقات قبول الإيمان من الكبر والتقليد واتّباع الهوى. وقد كتب الله جزاءهم في

الدنيا: مذلة وصغارا، وجزاءهم في الآخرة عذابا عظيما، لا يحد وصفه إلا بالعظمة، لتذهب النفس في تصوره كل مذهب.

42-سماعون للكذب أكالون للسحت.... يحب المقسطين.

ثم ذكر بما وثقه من صفاتهم أنهم سماعون للكذب، وأضاف إليه أنهم لا يتحرجون من أكل المال الحرام كالربا والرشوة والتحايل على الناس للاستيلاء ظلما على أموالهم، وهو المال الفاقد للبركة في ذاته وفيما يترتب عليه.

ثم رتب على ما كشفه من ملامحهم وصفاتهم وضلالهم، أنهم إن جاؤوا للنبي ﷺ يعرضون عليه قضاياهم، أنه مخير بين القضاء بينهم بشرع الله وبين الإعراض عنهم، وذلك لأن قدومهم إليه ليس بغرض فض النزاع والانصياع لما يحكم به، ولكن همهم أن يجدوا سندا لهواهم في حكمه إن وافقه، وأنهم سيزيدون طعنا في الإسلام إذا حكم بما يخالفه.

وانبنى على هذا التخيير تعميق النظر فيما يحدث من خصومات أهل الكتاب وتدخل القضاء الإسلامي إذا كانوا يعيشون في المجتمع الإسلامي باعتبارهم ذميين . ولنبين أقسام ذلك وأحكام كل قسم :

أولا : ما كان من الشؤون الخاصة بالذمي كعبادته، والأخذ بما يظنه أنه حلال أو حرام، وهذا مجمع على أن الحاكم الإسلامي لا يتعرض للذمي في شيء من ذلك.

ثانيا : ما يجري بينهم من المعاملات التي بيّن الإسلام أحكامها، كالزواج والطلاق، وتناول الخمور وترويجها بينهم، والحاكم المسلم لا يتعرض إليهم ولا يقيم الحد على من يجب عليه.

ثالثا: الأعمال التي تتجاوزهم إلى غيرهم، كسرقة الأموال أو القتل أو الاعتداء على الأعراض. واتفق الفقهاء على أن القضاء الإسلامي ينفذ فيهم أحكام الإسلام. ومن ذلك منعهم من ترويج الخمور والمخدرات.

رابعا: النزاعات التي تحدث بينهم فإن لم يتحاكموا إلينا لا نتعرض لهم، وإن طلب أحد المتخاصمين أن يفصل القضاء الإسلامي في خصامهم كان له ذلك.

43- وكيف يحكمونك وعندهم التوراة...بالمؤمنين.

والعجب كيف يتوجهون إليك طالبين أن تحكم بينهم، وهم يدعون أنهم يؤمنون بالتوراة التي بيّن الله فيها الحكم في القضية التي عرضوها عليك، ولكنها لما لم توافق هواهم أعرضوا عنها، وحاولوا أن يتنصلوا مما ألزمتْهمْ به، فتوجهوا إليك لعلهم يجدون عندك حكما يوافق هواهم، في فاسد ظنهم .فهم قد رفضوا حكم

التوراة، وهم أيضا بصدد أن يخالفوا ما تنبئهم به من أحكام، فهم ليسوا بمؤمنين بك ولا بالتوراة، وإنما همهم أن يبرروا شهواتهم وأهواءهم فما هم بمؤمنين، لا بك، ولا بنبيهم، ولا بالتوراة، فالإيمان منفي عنهم على أتم وجه وأكمله.

إِنَّا أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الهدى : الإرشاد في العقائد والشرائع.

الذين هادوا : اليهود.

الربانيون : العلماء الممكنون من الطرق المقنعة للناس.

الأحبار : جمع حبر وهو العالم في الملة الإسرائيلية.

استحفظوا : اؤتمنوا على إبلاغه وتوضيحه.

بيان المعنى الإجمالي:

تأكيد بأن التوراة وحي من الله مقامها رفيع، هي تهدي في الوقت الذي نزلت فيه إلى الحق، وهي واضحة بينة. قد أمر أنبياء بني إسرائيل الذين أسلموا أمرهم لله وخضعوا له، وكذلك العلماء الموكل إليهم تربية الناس، والأحبار كبار علماء اليهود، أمروا كلهم بأن يحكموا بما تضمنته من أحكام، وأن يبينوا على أساسها العقيدة وما يتصل بها للمجتمع اليهودي. إن ذلك مقتضى المهمة التي أوكلت إليهم من القيام على ما نزل إليهم حفظا عليه من التحريف والتبديل، وإبلاغا لهدايته بعيدا عن التأويل. إنهم شهداء على هذه الأمانة الموكلة إليهم. وأيقظهم حتى لا يخضعوا للمساومات والتأثيرات وإن بلغت حد التهديد. إن عليهم أن لا يخشوا في سبيل إقامة شرع التوراة عواطف الناس وعلاقاتهم بهم، وأن لا ينزلوا إلى قبول الرشاوى التي هي ثمن بخس مهما بلغت.وأن يثبتوا على خشية الله وما يقتضيه ذلك من الإصداع بالحق. وقرر ما يشمل ذلك الوضع ومثله على مر الدهور : أن من رفض الحكم بما أنزله الله استنقاصا له، فحكمه أنه دخل في زمرة الكافرين.

بيان المعنى العام :

44-إنا أنزلنا التوراة فيها هدى....هم الكافرون.

هذه الآية فيها تنويه بالتوراة الكتاب الرفيع الذي أنزله الله على سيدنا موسى، فأثبت لها أنها من عند الله، وأنها في المقام الرفيع منزلة لا مكانا، وأنها مشتملة على ما يوضح العقيدة والشريعة، وأنها واضحة في دلالاتها ترفع الشبهات. يطبق ما جاء فيها، على حياة الناس، أنبياءُ بني إسرائيل. فحكمها لم ينسخ بموت موسى ﷺ. هؤلاء الأنبياء الذين أسلموا وجههم لله وكانوا على سنة الإسلام التي وصى بها إبراهيم بنيه: (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[1] والتي بلغت كمالها في شريعة الإسلام.

والتوراة أمر النبيون أن يعتمدوها في إجراء أحكامها على اليهود إجراء يلزمهم، كانت الأحكام لهم أو عليهم. كما يعتمدها في الفتوى العلماء الربانيون المقتدرون على تعليم الناس ، وكذلك علماء بني إسرائيل الذين يتولون الحكم في فصل نزاعاتهم. أمروا أن يحكموا بما جاء فيها من غير تبديل ولا تحريف حسبما أوكل إليهم من الاستحفاظ على نصها وروحها. وقد أشهد الله الجميع على القيام بتلك الأمانة. وأكد عليهم ذلك، بنهيهم أولا عن الخضوع لشهوات الناس وأهوائهم ممن لهم تأثير اجتماعي، وأمروا أن يفردوا الله بالخشية والخوف منه، فيستحضروا في قيامهم بمهامهم رقابة الله عليهم. وبنهيهم ثانيا عن تبديل ما يتحققون أنه حكم الله مقابل ما يقدم إليهم من أموال، هي ثمن بخس، مهما بلغت، إذا قيس بخيانتهم للأمانة الدينية التي استُحفظوا عليها.

روى القاضي عياض في المدارك عن أبي الحسن بن المنتاب قال: كنت عند إسماعيل يوما فسئل : لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال : لأن الله تعالى قال في أهل التوراة :(بما استحفظوا من كتاب الله) فأوكل الحفظ إليهم. وقال في القرآن: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فتعهد الله بحفظه فلم يجز التبديل على أهل القرآن. قال : فذكرت ذلك للمحاملي. فقال: لا أحسن من هذا الكلام. فهذه من لطائف القاضي إسماعيل وحسن إدراكه للمعاني الثانوية في القرآن.

ثم أطلقه تهديدا يشملهم أولا، كما يشمل كل من عرف حكم الله واستهان به استهانة يتبعها رفضه، فاعتمد في الحكم ما يقرر أنه خير من حكم الله، فيطرح حكم الله

---

[1] سورة البقرة آية 132

على أنه غير صالح. ومن بلغت به الجراءة هذا الحد هو كافر، لأن مضمون ذلك أن حكم الله غير صالح، ناقص عن إصلاح الناس، وأن ما خيل له أصلح، هو خير من حكمه سبحانه.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

كتبنا: شرعنا لهم شرعا واجب تنفيذه.

النفس بالنفس :الذات بالذات.

قصاص: أن يجرح الجاني جرحا مساويا للجرح الذي أحدثه.

قفينا: أرسلنا عيسى تابعا للنبيين.

موعظة: الكلام الذي يؤثر في القلب والعواطف فتلينُ للطاعة، وتنزجر عن المنهيات.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلنت هذه الآية الأحكام التي جاءت في التوراة، سواء ما أخفاه أحبار اليهود أو بدلوه وحرفوه، وتتضمن أن حكم الله في التوراة أن المتعدي يقتص منه : من قتل يقتل، ومن أتلف عين غيره يقتص منه بإتلاف عينه ، ومن جدع أنفا يفعل به مثل ما فعل، ومن اصطلم أذنا تصطلم أذنه، ومن أتلف سنا يفعل به مثل ما فعل، ومن جرح يفعل به مثل ما فعل.

وأن من عفا عن المعتدي، أثابه الله بتكفير ذنوبه.

وأضاف إلى منزلة التوراة التي حكم بها الأنبياء والعلماء، أن الله بعث عيسى عليه السلام تابعا لآثارهم جاريا على سنتهم من إقامة أحكام التوراة. وأن الله آتاه كتابا منزلا من عنده هو الإنجيل، الذي من صفاته أنه يشترك مع التوراة في كونه كتاب هداية

يضيء للسالكين طريق النجاة. وهو كتاب يؤكد ما جاء في التوراة التي تقدمته ولا يناقضها، ودوره هو إكمال التوراة وخاصة بالتخفيف عن بني إسرائيل بعض الأحكام الشديدة التي فرضت عليهم لتأديبهم. والإنجيل يرقق القلوب لتلتزم بالطاعة وتبتعد عما نهى الله عنه. والواجب على أهل الإنجيل أن يحكموا بما جاء فيه، فإن من لم يحكم بما أنزل الله فاسق منحط لا تقبل شهادته ولا رأيه.

بيان المعنى العام :

45- وكتبنا عليه فيها أن النفس....هم الظالمون.

هذه الآية ترد على بني إسرائيل وتعرف بما حرفوه من التوراة، وبما أخفوه. فهي تنص على أن الله شرع في التوراة :أن القاتل للنفس البشرية يقتل بها ، وأن من فقأ عينا تفقأ عينه، ومن جدع أنفا يجدع أنفه، ومن اصطلم أذنا تصطلم أذنه، ومن أتلف سنا يقتص منه بإتلاف سن له. ومن تعدى فجرح غيره يجرح مثل الجرح الذي أحدثه. وهو معنى والجروح قصاص.

وكان اليهود قد غيروا أحكام التوراة ، ففي حرب بعاث، وقد هزمت قبيلة بني النضير قبيلة قريظة، ألزمت النضير قريظة أن تدفع لها عن كل قتيل منها دية رجلين، ومن قُتل من قريظة ديته دية رجل واحد ، ومن قتل نضير يا يقتل به ومن قتل قرظيا لا يقتل به . فشنع القرآن بتناقضهم، كيف يدعون أنهم يقيمون أحكام التوراة، وفي الواقع هم لا يحترمونها.

ومما حكم به الله في التوراة أن القصاص حق للمعتدى عليه، وأن من تصدق على الجاني بالعفو عنه، العفو الذي يؤلف القلوب ويذهب الإحن ويقوي الوحدة، فإن الله يجزيه بتكفير ذنوبه. والعفو غير تبديل الأحكام، فتبديل الأحكام فيه ظلم للمعتدى عليه وقهر له، وهو يبقي على تعلق إرادة المعتدى عليه بالانتصاف لنفسه، ويخلخل بالتالي العلاقات الاجتماعية وينذر بالفوضى.

ومن عرف الحكم الذي ينتظم به أمر المجتمع الإنساني، ثم أهمله وحكم بخلافه فقد ظلم المحكوم عليه واستنقصه حقه، فهو بذلك معدود في زمرة الظالمين. وبهذا ثبت أن معيار الحق هو في الالتزام بتطبيق شرع الله. ثم أعلن القرآن أن الله تعالى بعث عيسى ﷺ تابعا لمنهج النبيين من بني إسرائيل الذين كانوا يحكمون بالتوراة، وكان على طريقتهم وهديهم، فهو يقرر التوراة، ويصدق مؤيدا ما جاء فيها من أحكام باعتبار أنها تقدمته، وهو معنى: (بين يديه).

46-وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم....للمتقين.

ثم أضاف القرآن أن الله آتى عيسى الإنجيل كتابا منزلا من عنده، وهو يشترك مع التوراة باعتبار أنه يهدي للعقيدة السليمة ويبين الأحكام، وأنه كالتوراة يضيء للسالك طريقه مسارب النجاة والرضوان. وهو يصدق التوراة باشتماله على كثير من أحكامها، فلا تناقض بينهما في الأصول، وإن كان الإنجيل قد خفف بعض أحكام التوراة، التي كانت تناسب وضع عناد بني إسرائيل عند نزولها.

47- وليحكم أهل الإنجيل...هم الفاسقون.

أمر بنو إسرائيل عند نزول عيسى أن يعملوا بما جاء في الإنجيل، وأن يقبلوا ما نسخه من أحكامها. وختمت الآية بأن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن حدود العدالة. وقد ختمت الآيات السابقة بقواعد عامة.

(1) أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

(2) أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

(3) أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون.

ونظرا لربط الوصف بعدم الحكم بما أنزل الله في الثلاثة، واختلاف مقتضاه، مرة بالكفر، ومرة بالظلم، ومرة بالفسق، تعين التعمق في ذلك. فذهب بعضهم إلى أن من لم يحكم بما أنزل الله كافر ظالم فاسق. والآيات مرتبطة بأهل الكتاب وخاصة اليهود.

والذي ترجح عندي: أن من لم يحكم بما أنزل الله استخفافا به ورفضا له هو كافر. وأن من لم يحكم بما أنزل الله مع تيقنه بصدقه وصلاحه ولكن غلبه الهوى أو الرشوة فهو ظالم. ثم إن هذا النوع الأخير ينضم إلى الحكم بظلمه الحكم بفسقه، فهو أحط من أن تقبل شهادته، أو يعتمد رأيه.

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم

بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

المهيمن : الرقيب على غيره مع علو.

الشرعة : الأحكام التفصيلية لأعمال المكلفين.

المنهاج : الطريقة العامة في التفكير وفي التصور وفي مباشرة الحياة بصفة عامة.

أمة واحدة : كل البشر من أولهم إلى آخرهم، متفقون في الدين، والتصورات.

ليبلوكم : ليختبركم بالتكليف.

فاستبقوا : سارعوا إلى الخير كما يجتهد المتسابق ليفوز.

بيان المعنى الإجمالي:

تنويه بالقرآن بأنه كتاب رفيع المقام أنزله الله إليك يا محمد ممتزجا بالحق، مصدقا لما جاء في الكتب السابقة من أصول العقيدة، ومن أحكام الحقائق الثابتة غير المتغيرة بتغير الزمان والأوضاع الاجتماعية. وهو مع هذه الرابطة بالكتب السابقة، هو قائم عليها جميعا، يعدل ما تقتضي مصلحة البشرية تعديله، لتتمكن من أداء رسالة الاستخلاف في الكون التي أراد الله أن تتحملها. وبناء على ذلك فالرسول ﷺ مأمور أن يحكم بما ورد في القرآن، وأن يعرض عن رغبات اليهود والكافرين الذين يُحكِّمون أهواءهم وشهواتهم، وأن لا يقيم وزنا لما يتعللون به من الأحكام التي ألفوها، فشريعة الإسلام تختلف عن شريعتهم، ومنهاجه العام يختلف عن منهاجهم. ولو تعلقت إرادة الله أن يخلق البشرية كلها نمطا ثابتا لفعل، ولكنه خلقهم مختارين لا مجبرين، مكلفين، ومكنهم من السير في الطريق الذي يختارونه، ويحاسبون على ذلك. وأمَرَ الله إلى البشر أن يسارعوا إلى الخير ويتجنبوا الشر. وأنهم سيعودون إليه ليظهر لهم الحق الذي حادوا عنه اتّباعا لشهواتهم. ثم يؤكد القرآن على الحقيقة التي ذكرها في الآية الأولى من الحزم في تنفيذ أحكامه، والإعراض عن أهوائهم، وينبه رسوله لمكائد اليهود، وتلبيساتهم حتى يكون دائما يقظا لدسائسهم، التي يريدون من ورائها أن يحولوك عما أنزل الله إليك. ولا تهتم بهم إذا هم واصلوا إعراضهم، فإن ذلك بسبب تحجر قلوبهم تبعا لبعض الذنوب العظيمة التي غشت على بصائرهم. وهذا ما أصيب به كثير من الناس من الخروج عن حدود الله.

ما ذا يريد هؤلاء الذين يرغبون عن حكم الله؟ إنه لا يوجد إلا طريقان طريق الله الذي أخرج البشر من ظلمات الهوى إلى نور ميزان العدل، وطريق الجاهلية المحكمة للشهوات الظالمة. إنه لا أحسن ولا أكمل ولا أصلح من الحكم الإلهي الموجه للقوم الثابتين على اليقين.

بيان المعنى العام :

48-49، وأنزلنا إليك الكتاب بالحق...من الناس لفاسقون.

بعد أن نوّه القرآن بالتوراة والإنجيل، توجهت عنايته لبيان مقام القرآن بين الكتب السماوية، فأثبت له المزايا التالية سواء اشترك مع غيره في بعضها أو انفرد بها:

أولا : أن الله هو الذي تولى بنفسه إنزاله على قلب رسول الله، فأسند الإنزال لنفسه مع نون العظمة التي تشير إلى رفعة مقام ما تولى الله العناية به فبلغه.

ثانيا : إن القرآن قد أنزل، وليس معنى الإنزال التحول المكاني، ولكن الإنزال يشير إلى أنه قبل أن يتصل به رسول الله ﷺ كان محفوظا عند الله، فهو في أرفع مقام، فمراعاة لذلك عبر عن إبلاغه بالإنزال.

ثالثا: أن هذا الكتاب قد ارتبط بالحق ارتباطا عضويا، المعبر عنه بالملابسة، فكل ما جاء فيه من مختلف تصاريف معانيه، وأحكامه، وقصصه، وموضوعاته، كلها حق بعيدة عن الباطل.

رابعا: أن صلته بالكتب السابقة هي صلة موافقة وتكميل (مصدقا لما بين يديه من الكتاب)، فالقرآن يؤكد ثوابت العقيدة، وأحكام المصالح التي لا تتغير بتغير الأزمنة، ويحور أو ينسخ أحكاما أخرى تتبع تغير الأزمنة والمصالح.

خامسا: أنه مهيمن على الكتب السابقة جميعها، والمهيمن هو الذي يكون له من المقام والتأثير، ما يحله منزلة التأكيد أو التغيير لما سبقه. فكلمة الفصل هي ما يقرره مما جاء في آياته.

سادسا : بما أنه أثبت للقرآن أنه مُهيْمن على الكتب السابقة، والقول الفصل له في جميع القضايا التي تعرض على رسول الله ﷺ، فالرسول بناء على ذلك مأمور بأن يحكم بما ثبت عنده بالقرآن، وأن قوله تعالى : (بما أنزل الله)، أي عليك. ويلزم من هذا أن الرسول لا خيرة له في تقرير الأحكام. فليعلم كل من عرض عليه حكمٌ في قضية من القضايا، أنه لا يحكم إلا بما أنزله الله، وأن رضا المحكوم عليهم أو سخطهم لا يتأثر به النبي ﷺ، فحكمه مرتبط بالحق، والأهواء مشوبة بالباطل، ولو

توقع أنهم سيدخلون في الإسلام مبررين بما يجري عليه الأحكام بينهم، فالقرآن مهيمن.

وتأكيدا لكون القرآن مهيمنا لا تابعا، وقع التصريح بأن مجموع ما جاء قبل القرآن يختلف عن القرآن والرسالة المحمدية. فقال تعالى: **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**. هاتان الكلمتان لم يتبين لي، مما تقدم تفسيرهما به عند أئمة التفسير، معنى واضح في نفسي.

والذي ترجح عندي أن الله جعل لكل أمة من الأمم مجموعة من الأحكام بها ينتظم أمرها، فهي شرعة تفصيلية لفصل قضاياهم وبيان حكم الله في كل ما يقدم عليه المكلف. والمنهاج هو التصور العام للحياة الذي يحد ث في الفكر بعد اختلاطه بكل ما جاءت به الشريعة فيحصل منه طريق للتصور والسلوك. وبهذا يكون كل رسول تطور بقومه حسب أوضاعهم وأحوالهم، وأن النبي ﷺ بلغ بأمته ما يميِّزها عن كل ما سبق في التشريع وفي المنهج العام.

ثم يبين القرآن حقيقة من الحقائق التي بنى الله عليها أمر الحياة البشرية في الدنيا. بنى الإنسان على أنه ممكن من الاختيار فيما يتعرض له في حياته، فلم يُفْرَغْ في قالب واحد يسير عليه لا يختلف فرد عن فرد ولا جيل عن جيل كالحيوانات التي تسير على طريقة واحدة من أول الحياة، ولكن كل فرد ممكن بما آتاه الله من قوى الإدراك والتعقل، يختار ثم ينفذ، يتأثر بتجارب البشرية ويتفاعل معها. ويحصل من ذلك التفاعل البشري تطور حضاري شامل، به يختلف جيل عن جيل.لم يرد الله أن يجعل البشرية صورة نمطية لا يختلف حاضرها عن ماضيها ولا عن مستقبلها، دينهم من أولهم إلى آخرهم واحد لا خلاف فيه.

بل تعلقت إرادة الله أن يكون الإنسان مكلفا يتبع تكليفه الاختيار والجزاء عما يختاره، وذلك بتطويع عقله وما آتاه الله من قوى لتكون تصوراته العقدية مرتبطة بالحق، وليكون ملتزما في سلوكه حسب المنهج الذي يرضاه الله وإن خالف هواه وشهواته، وما تميل إليه نفسه. ويؤكد القرآن أن على البشر أن يستحضروا: أنه لا مفر لأي منهم من العودة في خاتمة أمرهم إلى الله، وأن مصيرهم إليه، وأنه ستنكشف الحقيقة في ذلك المشهد فيجد البشر ما كانوا يختلفون فيه، تبعا لشهواتهم وأهوائهم، واضحا بينا لا غبش فيه فترتفع الشبه التي كانت تستند إليها ضلالاتهم.

ثم تأكد أمر النبي ﷺ بالالتزام بما تلقاه من وحي الله، وفي هذا التأكيد توصل لبناء النهي والأمر عليه (ولاتتبع أهواءهم * واحذرهم)عناية الله بتثبيت رسوله مستمرة، ومكر اليهود من أشد أنواع المكر، فأمر رسوله أن يكون مستيقظا

لتلاعبهم ودسهم، فأيقظه بالنهي عن أن يلين لهم بما يعدونه إن هو سايرهم، وعمّق هذا النهي بتحذيره منهم، فإنهم أبعد ما يكون عن البحث عن الحق، ولا يبغون إلا فتنتك فتنساق إلى ممالأتهم في ضلالاتهم. وإن كان الله قد عصم نبيه من الضلال، لكن إذا كان التزامه بالحق نابعا من يقظة فكرية ومجاهدة كان له بذلك حظ من ارتفاع مقامه وزيادة ثوابه.

إن حصل ما هو متوقع من اليهود من الإعراض والثبات على الضلال، فلا تتأثر بذلك يا محمد، واعلم أن الله لم يمكنهم من ألطافه وحرمهم عونه فلا تتفتحْ بصائرهم على الهدى، وحقّ عليهم الشقاء، حُكْمًا عدلا من الله، أصابهم الله بتمكن الضلال منهم تبعا لبعض ذنوبهم .ولما كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان البشر واهتدائهم، هوّنَ الله عليه ما يحس به من ألم لاستمرارهم على الكفر ، بأن هذا غير خاص بهم ولكن كثيرا من الناس ثبتوا على الفسق، فاثْبتْ ولا تحزن.

50-أفحكم الجاهلية...حكما لقوم يوقنون.

ثم توجه القرآن في صيغة إنكار وتوبيخ للبشرية الضالة عن طريق الله، الراغبة في تحقيق أهوائها، فقال تعالى: أفحكم الجاهلية يبغون؟ إنهما طريقان لا ثالث لهما : إما الخضوع للحق والانسجام معه في الحياة وتقديمه على هوى النفس، حتى يكون وعي الإنسان في الحياة أنه عنصر مرتبط بالكون كله، سعادته في ذلكم التناغم والتوافق مع الكون. وإما التمرد على قوانين الكون التي كلها عدل، وتغليب حظوظ النفس، وقبول اختلال الميزان ليُرضيَ المتمرد شهواته وأهواءه. وهو الحكم الجاهلي. وهذا الحكم إن نجح في تقدم مادي محدود فهو مدمر للإنسان ولطمأنينته، وبالتالي سعادته.

وإذ تبين ما يوحي به قوله تعالى: أفحكم الجاهلية يبغون ؟ فكأنه انبثقت من هذا الإيحاء صورة فريدة جديرة أن ينظر إليها بإعجاب، بلغت من الحسن والكمال مبلغا ممتازا، انطبعت بالحسن والجمال، فلا أحسن منها للذين خرجوا من الأوهام وعمرت قلوبهم باليقين.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ

بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أولياء : جمع ولي : وهو النصير والودود.

الذين في قلوبهم مرض : المنافقون.

الدائرة : تغير الحال من خير إلى شر، ودوائر الدهر نوائبه.

جهد الأيمان : أغلظ الأيمان.

حبطت : تلفت وخسرت.

بيان المعنى الإجمالي:

انتبهوا أيها المؤمنون فإن إيمانكم يفرض عليكم أن تكون صلتكم باليهود والنصارى والكافرين، صلة تحقيق عمران الكون ولا ترتفع إلى مستوى الود والتناصر. فإن اليهودي لا يخلص إلا لليهودي مثله، وكذلك النصراني. ولذا فإنه لا يخلص لغير المسلم إخلاصا تاما يقدمه به على مصلحة المؤمنين إلا من كان واحدا منهم، ومن كان في باطنه مع اليهود والنصارى فقد حرم الهداية لأن الله لا يهدي القوم الظالمين ومن كفر بالإسلام ظالم .

تشاهد أمرا عجبا: أن المنافقين يضمرون في أنفسهم التحوط لتضمن لهم مصالحهم في المستقبل، فهم في ظاهرهم مع المؤمنين، وفي باطنهم يتولون غير المسلمين. فمن نجح من الفريقين يكونون معه غير خاسرين. إن المؤمنين على رجاء أن يفتح الله على المسلمين، أو يحدث من تصاريف قدره ما يعلي به كلمة الإسلام، والرجاء في الله يتحقق، وفي ذلك الظرف يفتضح المنافقون، يعلو وجوههم الكآبة وخزي الندامة. ويقول المؤمنون : عجبا من أمر هؤلاء، فقد كانوا يعيشون بيننا، ويقسمون الأيمان المغلظة على صدقهم، ويتيقن المؤمنون بشعور صادق يحل في قلبوهم مفاده : إن هؤلاء المنافقين قد ذهبت آثار كل ما قدموه مما ظاهره أنه خير وامحى كأن لم يوجد. لقد أصبحوا خاسرين.

بيان المعنى العام :

51-أيا أيها الذين آمنو لا تتخذوا...الظالمين.

وضحت الآيات السابقة حقائق بني عليها طبيعة التكوين البشري، وأمر المجتمع، نجملها فيما يأتي :

1: أن البشر بطبيعتهم ليسوا نمطا واحدا، ولا ينفرد العقل بتوجيههم في حياتهم، وتبعا لذلك تؤثر فيهم أهواؤهم وشهواتهم، والمحيط الذي يعيشون فيه، وموروثاتهم الحضارية والثقافية.

2:أن البشر تبعا لذلك لا بد أن يكونوا مختلفين، وأن اختلافاتهم تلك قد تعمقت بما اقترن بها من التعصب، فاعتصم كل فريق بمفاهيمه للكون، وبقيمه، ووضع الإنسان في هذا الوجود.

3 :أن الإرادة الإلهية قد قدرت أن الاختلاف ماض مع البشر، لا تتكشف الحقيقة لجميعهم إلا يوم يحشرون إليه يوم القيامة فترتفع الحجب، ويستوي الناس جميعا في إدراك الحقيقة.

4: أن الاختلاف بين الأمة الإسلامية وبقية الملل والنحل اختلاف جوهري، شمل التشريع والتصور العام للإنسان والكون وسلوك الإنسان فيه. وأن هذه إرادة الله فإنه سبحانه ما شاء أن يجعل البشرية أمة واحدة. وأن الأمة الإسلامية هي التي هداها الله الصراط المستقيم، وبالتالي فهي متميزة في عقيدتها وتشريعها ومنهجها في التصور والسلوك عن بقية البشر المتدينين منهم والكافرين.

هذه الحقائق قررها القرآن وذكر بها أكثر من مرة، وهذا ما يحتم على كل فرد من المسلمين أن يكون واعيا أتم الوعي لها، وأن يطوع علاقاته الاجتماعية على هداها.

لذا أُتبعت الآيات السابقة بهذا النداء للمؤمنين، الذي مضمونه أن يكون عامل الوحدة بينهم المنبثق من الدين يؤلف بينهم تأليفا يجعل كل فرد مسؤولا عن صفاء المجتمع الإسلامي وتماسكه، وأن لا يتهاون في صلاته بغير المسلمين إلى إمكان اعتبار من يخالفه في الدين وليا له يتناصران ويخلص له في الود.

ليس معنى هذا أن المسلمين يعادون غير المسلمين، ولا يعاملونهم، فهذا تصور خاطئ مناقض لإرادة الله أن يعمر البشر الكون الذي استخلفوا فيه، وكل إنسان يسهم في تنمية الخيرات أيا كان معتقده. ولكن الحد الفاصل بين التعاون في تطوير ما آتانا الله من خيرات، وبين ما نهينا عنه، هو أن المسلم يعامل غير المسلم معاملة أساسها العدل واحترام حقوق الإنسان وكرامته في دينه وحياته وماله وعرضه، ويتعاون معه في ميادين العمل والعلم المادي، ولكن لا يبلغ هذا التعاون إلى الود الذي يندمج به كل طرف في الطرف الآخر، فيفضي له بأسراره وأسرار

أمته، ويساعده في كل ما يطلبه منه دون نظر إلى صيانة الأمة الإسلامية وحقوق الدولة والأفراد.

ينبه الله المؤمنين إلى أن اليهود والنصارى اللذين كانا عنصرين هامين في المجتمع المدني، ويقومان بكثير من الأدوار الاجتماعية ويتعامل المسلمون معهم، قلب كل فريق منهم رافض لغيره، لا يخلص إلا لمن كان على دينه، وبناء على ذلك فإن كل من يرتبط باليهودي أو النصراني ارتباط ود وتناصر، ويتآلف معه إلى درجة الإخلاص له إخلاصا يقدم به مصالحه على مصالح المسلمين، في الشدة والرخاء والسلم والحرب، ويعتقد معتقداتهم إنه يكون قد خلع بذلك انتسابه للأمة الإسلامية وانقلب عضوا في اليهودية أو النصرانية. وحرم الهداية لأن الله لا يهدي القوم الظالمين، وهؤلاء اليهود والنصارى ظالمون بتحريفهم لما أنزل إليهم وعصيانهم للدعوة المحمدية. وأما الذين يوالون الكفار موالاة يخدعون بها المسلمين ويسندون أعداءهم، وتبقى قلوبهم غير مقطوعة عن الانتساب للمسلمين، وإن كان انتسابا ضعيفا، يفعلون هذا لتحقيق بعض أغراضهم الدنيوية الدنيئة، فإنه لا يحكم عليهم بالكفر، ولكن عظم الذنب الذي ارتكبوه يجعلهم من أشد أنواع الفسقة الآثمين، يعظم إثمهم بمقدار الضرر الحاصل للجماعة الإسلامية، حسب الخدمات التي انتفع بها الأعداء، وحسب وضع المسلمين من قوة أو ضعف.

52-فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون....نادمين.

إن مسارعة بعض الناس في مجتمع المدينة لموالاة اليهود أو النصارى، هو شارة نفاق، فإن مرض النفاق من أخبث ما تمرض به القلوب فتهتز شخصية المنافق وقيمه. لقد افتضح أمرهم، إذ تشاهد هؤلاء المنافقين تفتضح دخيلتهم بمسارعتهم للانتماء لغير المسلمين، إنهم فقدوا الثقة في انتصار الإسلام، ولذا هم يحدثون أنفسهم حديث المخذولين في كل زمان: أن عليهم أن يحتاطوا لتقلبات الزمان ونوائب الدهر. وذلك بأن يكونوا في ظاهرهم مع المسلمين وفي باطنهم مع اليهود أو النصارى ليضمنوا مصالحهم على جميع التقادير. إنهم على شك من نصر الله لدينه. ألم يعلموا أن الله مؤيِّد رسوله ناصر للإسلام. إنه بالإيمان تعمر القلوب بالرجاء، فالمؤمن على رجاء أن يفتح الله على المؤمنين بالنصر المبين، أو أن ينزل أمرا من عنده يشتت به الكفر وأهله، وعندها يصبح المنافقون نادمين على ما أخفوه في أنفسهم.

53-يقول الذين آمنوا...خاسرين.

وتبدو الحسرة والتذبذب والحيرة، يوم النصر، على المنافقين، فيفتضح أمرهم، ويقول المؤمنون، متعجبين منهم وقد كانوا مندسين في صفوفهم، يظنون بهم الخير، يقول المؤمنون: عجبا من هؤلاء الذين كانوا معنا يحلفون الأيمان المغلظة على أنهم مخلصون للدين وللجماعة الإسلامية! ثم ينتشر الحكم الإلهي في قلوب المؤمنين يدركونه بما في القلوب من صفاء : هذا الحكم : حبطت وذهبت وفسدت كل أعمال المنافقين وخسروا، فكأنهم باتوا مزودين بما قدموه من خير فأصبحوا وقد امحى من صحائفهم كل عمل يمكن أن يستحق عليه جزاء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الارتداد عن الدين : الكفر بعد الإسلام كان بالرجوع للدين السابق أو لغيره.

أذلة على المؤمنين : في شخصياتهم لين وحنو على المؤمنين.

لومة : واحد اللوم العتاب الشديد أو الخفيف.

بيان المعنى الإجمالي :

تثبت الآية أن الله كتب العزة لدينه، فمن يرتد عن الإسلام يكون هو الخاسر، ويمضي الإسلام مؤيدا بالذين يشرح الله صدورهم للإسلام، القوم الذين يحبهم الله فأكرمهم بهدايته، وهم يحبون ربهم ويعملون على ما يحقق مرضاته، لانت أخلاقهم للمؤمنين، وهم ذوو بأس وشدة على الكافرين، يبذلون أنفسهم وأموالهم في نشر الدين، ولا يتأثرون بعتاب من يعاتبهم في ذلك من المقربين لهم. إنه فضل الله يفوز به من يشاء الله له السعادة. والله واسع الفضل عليم بمن هو مؤهل لفضله.

إنه ليس للمؤمنين الصادقين من ولي إلا الله الذي تولاهم بعونه، وبتثبيتهم على الإيمان، ثم رسول الله الذي همه في سعادة المؤمنين في الدنيا والآخرة، ثم إخوانهم في الدين الحقيقيون الذين تهذبت عواطفهم ومشاعرهم فواظبوا على الصلاة وأشركوا المحاويج في أموالهم بالزكاة، وانسل من تركيبهم النفسي الكبر والأنانية

فلانت قلوبهم لله، وهو معنى (وهم راكعون) إن من يتولاه الله ورسوله ويتولاه المؤمنون الأبرار، لاشك أنه منتصر غالب. إنه من حزب الله. وحزب الله المؤيد بعنايته غالب منتصر.

بيان المعنى العام:

54-يا أيها الذين آمنوا من يرتدد...والله واسع عليم.

في هذه الآيات إبراز لعزة الإسلام، بأنه يكتسب قوته من ذاته، وأنه لا مزية لأحد على الأمة باعتناقه الإسلام أو بالثبات عليه. فنادى القرآن المؤمنين أن يستحضروا ذلك. ونبههم إلى أن من يخرج من هذا الدين ويرجع إلى الكفر، فإنه لا يضر الله شيئا، إذ الإسلام ماض يكثر معتنقوه وينتشر انتشار الضوء في العالم. إن في هذه الآيات كشف للغيب الدال على أنه أنزل ممن يستوي علم الحاضر والمستقبل عنده، فقد كفر كثير من العرب بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ولم يؤثر ذلك في الأمة، إذ سرعان ما نصر الله دينه بأقوام انشرحت قلوبهم له، وأخلصوا له، وبذلوا في سبيل نشره دماءهم وأموالهم. لا تسأل كيف انضموا إلى هذا الدين، ذلك أن الله هو الذي تولى فتح بصائرهم فأتى بهم منفتحين على الإسلام، قدموا الخدمات الجليلة لرفع أعلام حضارته، وفي الذود عنه. أحبهم ربهم فرضي عنهم ويسرهم لطاعته والتعمق في دينه، وحصل لهم من هذا التكريم أنهم انفعلوا له فأحبوا ربهم حبا حلت به في قلوبهم عظمته وكماله، وارتبط في تصورهم كل خير بفضله فساروا في هذا المسلك تتضاعف شواهد إحسانه في نفوسهم فيزدادون تعلقا به. صورهم القرآن بأنهم بترقيهم في ذلكم التصور، ارتبطوا بإخوانهم المؤمنين ارتباطا عضويا لانت به أخلاقهم، وتطهرت معاملاتهم وذهب التعالي. وفي المقابل فإن ما جبلوا عليه من القوة والبأس والشدة لم يزده الإسلام إلا مضاء ونفاذا على الكافرين. فكان هذان الوصفان المتقابلان يتشكل منهما وصف ثالث، هو الحكمة في التصرف، هم يلينون في مقام اللين مع إخوانهم مما يزيد الألفة تمكنا، ويقسون على أعداء الدين بما يزرع الخوف في قلوبهم. والوصف التالي لهؤلاء القوم الذين عز بهم الإسلام، هو إقدامهم على الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وقد أعز الله الإسلام بتلكم الأقوام فكان منهم الجيوش والقادة الذين اندفعوا في أرض الله يعرفون بالإسلام ويؤلفون عليه القلوب والمشاعر. ووصفهم أخيرا بأن عزماتهم ماضية، فانتفى التردد من أن يحل في نفوسهم، فلا يؤثر فيهم لومة اللائمين. ويأتي اللوم من

المشفقين المتوددين حذرا من أن يصيبهم في أنفسهم وأموالهم ما يتعرض له المجاهدون.

ويتألق من هذه الأوصاف تتويج يؤكد مضمون ما قررته الآية أن ذلك فضل الله يؤتيه سبحانه من يشاء من عباده. والله واسع فضلُه وإنعامُه تبعا لعلمه الدقيق بكل شيء.

55-إنما وليكم الله ورسوله... راكعون.

ويعود القرآن إلى تأكيد مضمون ما قرره في الآيات السابقة من النهي عن موالاة غير المؤمنين، بإبراز أن المسلمين ليسوا ضياعا في هذا الكون يبحثون عن التأييد البشري، كلا بل إنهم أعزاء بقصْرِ ولايتهمْ أولا على الله الذي يتولى المؤمنين كما تقرر ذلك في أول السورة: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)، ومن أعزه الله ورعاه لا يذل ولا يحتاج، وثانيا برسول الله الذي أحب المؤمنين حبا بلغ الغاية في حدبه على إسعادهم في الدنيا ويوم القيامة. وثالثا بما غرسه الإسلام في مشاعر المؤمنين من التضامن والتناصر حتى إن الواحد منهم ليقدم أخاه المؤمن على الكافر وإن كان تجمعه به رابطة البنوة أو الأبوة.

وينوه بإخوة الإيمان التي روضتهم بالصلاة فلانت طباعهم وتدفقت مشاعرهم بالخير، والعواطف النبيلة، الذين يبذلون زكاة أموالهم فيقاسمون بما آتاهم الله إخوانهم، وتختم أوصاف أوليائهم المؤمنين بأنهم قد صفت أخلاقهم من كل كبر وأنانية فهم راكعون متذللون لله تجري السماحة في عواطفهم وأخلاقهم.

56- ومن يتول الله ورسوله.....الغالبون.

إنه من ييسر الله له أن يكون الله وليَّه، ويتولاه الرسول الكريم، وتنعقد صلته بالمؤمنين الصالحين، يكون قد تأكد انتصاره وغلبته لأنه انضم إلى حزب الله. ويقتصر الفلاح على حزب الله فلا يفلح غيره.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ

وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

هزوًا : سخرية.

نداء الصلاة : الأذان.

نقم: نقَمَ ينقِم الشيء: أنكره وعابه.

المثوبة : ما يعود به المرء إلى بيته من حاصل الخير الذي جمعه.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن على المؤمنين أن لا يركنوا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا للكفار ولا يتخذوهم أولياء، إنهم يهزؤون بدينكم ويخرجون به عن الجد إلى اللهو والعبث، وفي ذلكم أعظم احتقار لكم. تمسكوا بتقوى الله فإنها التي تكسبكم الطمأنينة وتحصن بصائركم من أن يروج عليها الخداع. وأمر آخر إن أعداءكم من الكفار وأهل الكتاب قد بلغوا من الدناءة أنهم يسخرون من نداء المنادين للصلاة ويتخذون ذلك لعبا، هذا النداء الذي كله سمو ودعوة إلى الخير، ولكن لا عجب في ذلك فهم قد فسد عندهم ميزان العقل.

ثم ناداهم القرآن في صورة الإنكار المقرون بالعجب من مواقفهم فيعرض عرضا تفصيليا لأوجه الخلاف والوفاق، فيقول لهم ما الذي تنكرونه علينا ؟ فنحن نؤمن بالله فهل في هذا عيب ؟ ونحن نؤمن بما أنزل الله علينا ولستم ملزمين باتّباعنا، وأن أكثركم فاسقون غير ملتزمين بشريعة الله ونحن ملتزمون بتطبيق شرع الله. لم يبق إلا أنكم تحسدوننا على ما هدانا الله إليه.

ولكن اسمعوا وعوا، إن شر الناس هم الذين لعنهم الله، وقد لعن أسلافكم كما هو مثبت في كتبكم، وأن الله قد مسخ أسلافكم فحولهم إلى قردة وخنازير في الخلقة أو في المساوي السلوكية، وأن منهم من عبد الصنم كعبادتهم العجل لما تركهم موسى عليه السلام في رعاية هارون فأنتم شر الناس مكانة وأبعد عن الطريق المستقيم.

بيان المعنى العام :

57-يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا.....مؤمنين

تضمنت الآية تأكيدا للنهي عن موالاة أعداء الدين، حتى تكون الجامعة الدينية متفردة بالرباط الذي يؤلف بين المسلمين، وتنحل كل الروابط الأخرى، فلا يكون

لها أثر في المودة. وأبرزت الآية بتقديم الوصف الكاشف عن سوء صنيعهم ما يعمق اقتناع المؤمنين بعدم موالاتهم. إنهم قد أضافوا لمعاداة الإسلام سفاهة خلقية، فقد اتخذوا الإسلام ميدانا لسخريتهم، وللّعب بالمقدسات التي يقوم عليها. وهي طريقة هابطة تزيد الشقة بعدا بينهم وبينكم.إن اليهود والنصارى والكفار يستهزئون بعقيدتكم، والعقيدة تمثل جهد الإنسان ليسمو عن القريب المحسوس إلى ما ينتظم المحسوسات كلها الظاهرة والباطنة، ويشمل إدراكه لمنزلته في الوجود وما وراء ذلك من الغيب. فالسخرية بالدين في حقيقتها سخرية بعقل المتدين واحتقار له. فكيف يوالي الإنسان من يحتقره؟ إن الحصن الحامي للمؤمنين والذي يؤكد عليه القرآن دوما، هو التقوى: هي شارة الإيمان الصادق، ومن فقدها فذلك أمارة اهتزاز إيمانه.

58-59، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها...وأن أكثركم فاسقون.

ثم شنع بموقف من مواقفهم: أنهم إذا سمعوا نداء الصلاة سخروا من المنادي، وخرجوا بندائه من الجد في الإقبال على الله إلى اللعب واللهو. إنهم قوم فقدوا عقولهم تبعا لعمى بصائرهم.

ثم تفضح الآية خفة تفكيرهم إبرازا لقوله تعالى : بأنهم قوم لا يعقلون. وذلك بتوجيه هذا السؤال الإنكاري الذي لا يجدون له جوابا: ما الذي حملكم على الإنكار علينا، فلنفصل ما يجمع بيننا وما نختلف فيه. فديننا هدانا إلى الإيمان، الإيمان بالله، وهو قدر مشترك بيننا، وأنا نؤمن بما أنزله الله إلينا، وهذا أمر أنتم بين الإيمان به وبين رفضه لا نلزمكم باتّباعه، وأمر ثالث أنكم فسقة، سلوك أكثركم سلوك خارج عن حدود الله وأوامره، وذلك على خلاف ظاهرة مجتمعنا الملتزم بالطريق المستقيم. فنقمتكم هي إذن حسد على ما وُفّقنا إليه.

60-قل هل أنبئكم بشر من ذلك....سواء السبيل.

ثم يتوجه القرآن بمخاطبة أهل الكتاب ليحضرهم في مجلس التقريع والتوبيخ، ويسجل عليهم غفلتهم. فهو ينبئهم بما خفي عليهم. وبما ذا ينبئهم القرآن ؟ إن أكبر الناس شرا وفسادا في تقدير الله من كان محصله الذي يؤوب به يشمل :

أولا : تسليط الله عليه اللعنة، واليهود يعلمون من كتبهم أن كثيرا من أسلافهم كتبت عليه اللعنة وذكرت أسبابها.

ثانيا : مسخ كثير منهم، كما ذكر ذلك في سورة البقرة آية 65، وقد قدمنا اختلاف الناظرين في القرآن، فحمله بعضهم على المسخ الحقيقي. والذي ارتضيته أنه تشبيه لهم بالقردة والخنازير في التفكير الهابط والسلوك القبيح.

ثالثا: عبادة الصنم. إشارة لعبادتهم للعجل، مع أنه من أكثر ما شدد عليهم موسى عليه السلام هو التزامهم بعبادة الله وتوحيده. وفي كل ذلك كسر لما يُدلُ به اليهود من أنهم أهل كتاب لم ينسخ بإظهار أنهم سلالة هؤلاء المفضوح مناكرهم الشديدة سلوكا وعقيدة. فمكانتهم شر مكانة، وهم أشد الناس ضلالا، وبعدا عن الطريق الحق.

وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

يد الله مغلولة : الله بخيل أشد البخل.

مغلولة : مقيدة بقيد لا تستطيع حركة. تجسيم لشدة البخل.

لأكلوا : لرزقوا.

بين المعنى الإجمالي :

مما عاناه النبي ﷺ من أهل الكتاب ظاهرة النفاق، فكانوا يَغْشَوْنَ مجالس النبي ﷺ يقولون: آمنا. وهم كاذبون، فإن عقيدتهم واحدة هي الكفر عندما دخلوا وفي جلوسهم وفي خروجهم. واستبطانهم للكفر لا يخفى على الله فسيجازيهم به. إنك إذ تَراقب سلوكهم تراهم يسرعون إلى ارتكاب الآثام، وإلى الاعتداء والظلم والاستحواذ على المال الحرام. إن عملهم يستحق الذم.

أين علماؤهم(**الأحبار**) والموكل إليهم أمر تربيتهم (**الربانيون**) فلماذا لم ينهوهم عن الكذب وقول السوء، وعن أكل المال الحرام. هم مذمومون بصنيعهم هذا.

ومن فساد أقوال اليهود وعقائدهم أنهم قالوا: إن الله شحيح بخيل، يداه مقيدتان لا يسمح بالفضل. أذلهم الله وهزمهم حتى تكون أيديهم مقيدة، وصب عليهم لعناته. فالله لا يحد كرمه وفضله، ينفق ما يشاء تبعا لحكمته، وغناه الغنى المطلق. إن الذي أعمى بصيرة يهود وأجرى على لسانهم ما لا يقبل، لا قولا ولا عقيدة، هو اشتعال الحسد في نفوسهم بما أكرمك الله به من الوحي، فتضاعف كفرهم ومجاوزتهم للحدود. ونزع الله الإخلاص لبعضهم البعض، فهم متعادون إلى يوم القيامة. وفسد ما يجري في ضمائرهم، فهم يسعون دائما لإيقاد فتيل الحروب، والله يرد مكرهم ويحبط خططهم. وهم يدبرون ويقومون بما يفسد الحياة الاجتماعية في العالم. واستحقوا بذلك أن الله حرمهم تقريبه لأن الله لا يحب المفسدين، ويحب الصالحين.

كل ما سلط على أهل الكتاب من الذام والتهديد ليس بسبب كونهم يهودا أو نصارى، فإنهم لو آمنوا الإيمان الصحيح، وحلت التقوى قلوبهم، فإن الله يمحو ما ارتكبوه من السيئات ويكتب لهم الفوز في جنات النعيم.

كما أن أسلافهم لو أقاموا التوراة والإنجيل وطبقوا تشريعهما واقتنعوا بما بيّناه من عقائد، لبارك الله لهم في حياتهم وأفاض عليهم من واسع خيراته. إن ما سبق من وصفهم وتهديهم وذمهم، هو ليس شاملا لجميع اليهود والنصارى فمن بينهم جماعة غير مُفْرِطَة ولا مُفَرِّطَة، آمنوا بعيسى رسولا مكرما، فلا هو عندهم ابن زنا كذاب كما تقول اليهود، ولا هو إله ابن لله. ولكن الكثرة الكاثرة منهم، ساء عملهم فهم على غير طريق الهدى.

بيان المعنى العام :

61-وإذا جاؤوكم قالوا... بما كانوا يكتمون.

هذه الآيات تمثل صورا من معاناة الرسول ﷺ لعناد أهل الكتاب ومكائدهم، وخاصة اليهود الذين كان عددهم غير قليل في المدينة. ولما كانت هذه السورة من أواخر السور نزولا فإنها تكشف عن مواصلة اليهود للمكر والتلاعب، فلذا كان كشف مكائدهم وأخلاقهم والرد على أكاذيبهم، ضرورة لتثبيت المسلمين جميعا وخاصة الجدد الذين لم يتمكن الإسلام في قلوبهم.

62-وترى كثيرا منهم....يعملون.

والى اليهود اعتماد النفاق لخلخلة الصف الإسلامي. فضحتهم الآية، وأعلنت أن ما يظهرونه لا يروج على المؤمنين، إن الله يطلع رسوله على هذا النوع من الفساد. فمنهم من يأتي إلى مجالس المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ معلنين: أنهم آمنوا بالإسلام. والحقيقة التي كشفها الله لنبيه وسجلها في هذه الآية أنه لا فرق بين حالهم قبل مجيئهم ولا في حال جلوسهم ولا وقت انصرافهم، فالكفر متمكن منهم، والله لا تخفى عليه خافية فهو عليم بما انطوت عليه دخيلتهم فكتموه. إن ما تراه من سلوكهم يعلن عن كفرهم. فكثير منهم يقدمون على ارتكاب الآثام والمعاصي القولية والفعلية دون تردد ولا خوف، ويظلمون دون أن يتحرك لهم ضمير، ويستولون على الحرام من الأموال التي لا حق لهم فيها.

63-لولا ينهاهم الربانيون..يصنعون.

إن أحبارهم والربانيون المطلعون على فسادهم ساكتون مقرون لهم، فهم مشاركون لهم في انتشار الشر، لعدم قيامهم بالنكران عليهم لما ارتكبوه من مخاز وآثام. لقد استحقوا الذم بصنيعهم هذا من السكوت عن المناكر وإقرارهم للفساد. إذ سكوت العلماء ومن يتولون تربية الناس إعلان مُبطّن عن رضاهم، وحجة لمن يقدم على متابعة الفساد بأنه لو كان قبيحا لما سكت عنه العلماء والمربون.

64 – وقالت اليهود يد الله مغلولة....المفسدين.

ومنكر آخر في عقيدة اليهود الذين ثبتوا على إعلان يهوديتهم، قالوا: يد الله مغلولة. يعني هذا التركيب أن الله بخيل شحيح لا يتفضل. ذلك أن الكريم يوصف بأن يده مبسوطة، لا يمسك المال لنفسه وإنما يسيل المال من يديه سيلان الماء. ووصف يده بكونها مغلولة، أي فيها غل قيد، يمنعها من القبض والبسط. ومقالتهم هذه إما إلزام وقح للمسلمين، فهم في أول أمرهم غير ميسوري الحال في المدينة، إذ هم قد خرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين إلى المدينة، يقصدون بذلك الطعن في الإسلام، بأن ربكم قد ضيق عليكم ولم يوسع عليكم. ويحتمل أنها صدرت في حال

ثورة منهم في شدة من الشدائد التي يصاب بها سكان الجزيرة العربية زمن الجدب. وكان الرد سريعا بالدعاء عليهم أن تُقيّد أيديهم بغل الأسر ويهزموا، وباللعنة والطرد من رحمة الله والإبعاد من منازل الكرامة فلا يلقون إلا ذلا بسبب هذه الوقاحة التي طوعت لهم أن يقولوا هذه المقالة.

ثم أعلن القرآن الحقيقة التي تكذبهم في دعواهم: فيداه مبسوطتان، ولا يراد من ذلك أن لله يَدَيْن، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، بل المقصود أن الله كريم كأوسع ما يكون الكرم، ينفق ويعطي تبعا لإرادته العلية وحكمته.

ثم كشف الله لنبيه سبب صدور هذا القول الفظيع منهم، هو أنهم قد امتلأوا غيظا وحسدا مما أكرمك الله به من الوحي المنزل، فبلغ بهم الخروج عن الحدود والجهار بالقول الغليظ. وهذا شأن السفهاء من الناس فهم إذا تغيظوا تنفلت ألسنتهم بما لا يرضاه العقلاء من القول.

إن حسدهم هذا على ما أكرمك الله به من الرسالة وأنزله لك من الوحي يضاعف طغيانهم ويعمق كفرهم.

ولا تظُنَنّ أن أمرهم واحد فقد عاقبهم الله بأن ألقى العداوة والبغضاء بينهم، ومكنها في قلوبهم، فهي ملازمة لهم إلى يوم القيامة.

هذا ما ذكره القرآن. ولكن الدعاية اليهودية ضللت الرأي العام، وغطت حقيقة المجتمع اليهودي في إسرائيل. وصورته مجتمعا متآلفا متحدا. وذلك من الخداع والزيف وقلب الحقيقة. ذكرت جريدة لومند الفرنسية في عددها الصادر 2010/6/19:أن مظاهرة بالقدس ضمت أكثر من مائة ألف من اليهود، وبلغت أكثر من مائتي ألف حسب تقدير المنظمين لها، يوم 2010/6/17 وذلك للاحتجاج ضد قرار المحكمة العليا في إسرائيل الذي منع الفصل بين التلاميذ من الأشخناز وبين التلاميذ السيفراد. الأشخناز هم اليهود الذين التحقوا بإسرائيل من أوروبا الوسطى أو الشرقية والسيفراد هم الذين كانوا يعيشون في بلاد المغرب العربي والشرق.

إن الأشخناز لا يقبلون أن يذهب أولادهم إلى فصول تجمعهم مع التلاميذ المنتسبين إلى أسر من السيفراد، متعللين بأن السيفراد ربوا فيما يخص التمسك بالتوراة تربية متسامحة.

اجتمعوا وهم متحدون على أولوية أحكام التوراة على الأحكام المدنية، التي تمثلها المحكمة العليا. هذه المحكمة التي قضت بمنع مواصلة الفصل في مدرسة

بمستعمرة إيمانويل بالضفة الغربية. كما قضت بسجن 35 وليا من المتطرفين لمدة أسبوعين. وقرنت الخبر بصورة للمتظاهرين من وكالة رويتر.

ثم أعلم القرآن الرسول ﷺ، ونبه المسلمين إلى أن عداوة اليهود مستحكمة، فهم يدبرون ويعدون لحرب المسلمين المرة بعد المرة. والله يرد كيدهم ويخذلهم. فالنار التي يوقدونها للإجهاز على الإسلام يتولى الله إفساد مخططاتهم. ولا تظنوا أن الحرب الدائرة في أرض فلسطين هي حرب بيننا وبين اليهود، بل هي حرب بين الولايات المتحدة ومن يساندها، وبين سكان فلسطين والمسلمين قاطبة. انطوت نفوسهم على بغض للعالم أيضا، فهم يسعون في الأرض لإدخال الفساد المخلخل للمجتمعات في أخلاقهم وفي عقائدهم، همهم أن يمتصوا ما ينتجه الكادحون بعرق جبينهم وكشاف عقولهم. وبفسادهم هذا حرموا محبة الله التي يتبعها التأييد والرضا. فهم كاذبون في قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. إن ما توعد به اليهود ليس لأنهم يهودا، ولكن لفسقهم وجراءتهم وعنادهم ورفضهم للإسلام، وسيعاملون معاملة كلها فضل لو أقلعوا عن مناكرهم تلك، وآمنوا بمحمد ﷺ واستحضروا في قلوبهم وفي مداركهم ما تقتضيه التقوى. إنهم لو فعلوا ذلك لفازوا بالسعادة، والله يمحو سيئاتهم ويكتب لهم الجنة يوم القيامة.

65- ولو أن أهل الكتاب آمنوا .....جنات النعيم .

إن ما دعا إليه الإسلام اليهود والنصارى، هو تحقيق لما أنزله الله عليهم في التوراة والإنجيل، إنهم لو عملوا بهما ولم يهملوهما في دائرة عدم المبالاة، وقبلوا القرآن الذي أنزله الله للبشرية وهم منهم، لو فعلوا ذلك واستقاموا، لتفضل الله عليهم برعايته وتيسير أمر حياتهم في الدنيا فيغدق عليهم خيراته التي تكثر مباركة بين أيديهم.

66-ولو أنهم أقاموا التوراة....ساء ما يعملون.

وينصف الله اليهود والنصارى قبل الرسالة المحمدية بأنهم لم ينحرفوا جميعا، ولكن منهم جماعة سلكت سبيل التوسط بين الإفراط والتفريط، آمنوا بعيسى رسولا من عند الله، ليس ابنا لله، ولا هو ابن زنا. ولكن أكثر اليهود والنصارى انحرفوا عن هدي الله وكانت أعمالهم سيئة تبعا لفساد عقائدهم.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

التبليغ: إيصال الأمر إلى المقصود إيصاله إليه.

يعصمك من الناس : يحميك، ويمنعك من السوء الذي يدبر من الناس.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرم الله رسوله بدعائه بوصف الرسالة التي هي أشرف وصف، فيأمره: أن يبلغ جميع ما أنزل إليه، سواء أرضيه المبلّغ لهم أم سخطوه. وكتمان أي شيء من المنزل عليه أعظم ما يمكن أن يتصور من الفساد. ويطمئنه الله بأن أعداءه لا يستطيعون أن يضروه وهو يقوم بالتبليغ. فإن الله وهو المتصرف، وهو الذي لا يقع شيء في الكون إلا بإرادته، قدر أن الكافرين لا يهتدون لإيذائه.

بيان المعنى العام :

67- يا أيها الرسول بلغ ما أنزل...لا يهدي القوم الكافرين.

دعوة لسيدنا محمد ﷺ بأعز ما يحمله من الصفات، وهو وصف الرسالة، التي مؤداها أن الله تخيره ليكون واسطة يتحمل إيصال ما ينزله الله إليه من الوحي إلى الناس. إنه لا منزلة أعلى في البشرية من هذه المنزلة، ولا وصفا هو أسمى من هذا الوصف، ولذا كان هذا النداء موحيا بتشريف الرسول وتكريمه من ربه إذ دعاه بـ: يا أيها الرسول. وهو من ناحية أخرى فيه إيماء لما يترتب على الوصف من ثقيل التكليف الذي هو أعظم أنواع التشريف. والنداء فيه إيقاظ للمدعو ليقبل بكليته على ما يدعى إليه. دعاه ليبلغ ما أنزله الله إليه. وهذه السورة من أواخر ما أنزل عليه، وهو قد تولى القيام بشرف التبليغ كامل الفترة المكية وما سبق نزول هذا النداء عدة سنين، فلماذا أعيد الأمر لما قام به فعلا؟ في هذا التكرير تشريف لرسول الله بالخطاب، وفيه تنبيه للبشر جميعا مؤمنهم وكافرهم أنه مأمور بالتبليغ من ربه، وفيه تقوية لعزيمته على المضي على نفس النسق الذي كان يسير عليه، وإن جاءه من الوحي ما يصعب على بعض المعاندين قبوله، لأنه يواجههم مواجهة صريحة. وهذه طريقة القرآن، فقد تكرر الأمر بالتقوى والتذكير بها في القرآن كثيرا، وكذلك في الأمر بالإيمان، ونحو ذلك مما في التذكير به مزيد تثبيت لمضمونه في نفس من توجه له الخطاب.

وأبرز القرآن أن عدم القيام بالتبليغ هو أعظم ما يمكن أن يتصور من الفساد، إذ جعل عدم التبليغ لما أوحي إليه المفروض بقوله: وإن لم تفعل، هو الجزاء على عدم التبليغ لجميع الوحي. وقد يتوقف في هذا الربط بالنظرة الأولى. وبالتأمل يبدو

وجه ترتيب هذا الجزاء على الشرط المفترض. ذلك أن المخالفات يعظم الإنكار عليها بمقدار ما يترتب عليها من الفساد. وبالتعمق في الفرض المقدر يبدو لنا أنه كتمان بعض الوحي عن البشرية. وقد أراد الله أن يهدي البشرية قاطبة بما أنزله على رسول الله ﷺ، فكتمان شيء من الوحي تضليل للبشرية قاطبة، ولا يتصور فساد أعظم من ذلك، فلذلك جعل الجواب على صورة تكاد تكون مساوية للشرط المفترض، إذ لا جريمة أعظم منها. ثم أعلم الله نبيه أنه قد حماه مما يخططه له الكافرون للنيل منه، بما يقطعه عن تبليغ الرسالة، فجميع مخططاتهم ومكائدهم مفلولة لا تحقق أهدافها الخبيثة، لأن المدبر للكون يحجب عن الكافرين المسالك التي يصلون منها إلى قطع الرسول عن التبليغ الذي هو أعز شيء على نفسه ﷺ.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

لستم على شيء : ليس لكم أي حظ معتبر من الدين.

فلا تأس : فلا تحزن.

الصابئون :جمع صابئ، وهو الملتزم بدين الصابئة.

بيان المعنى الإجمالي:

قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: إنه ليس لما تدينتم به أي حظ ولا مكانة، إلا إذا راجعتم أمركم وحققتم في الحياة ما تأمركم به التوراة وما جاء في الإنجيل، وما يقتضيه ذلك من الإيمان بما أنزله الله لكم وللبشرية عامة بواسطة النبي الخاتم محمد ﷺ. إن ما أنزله ربك عليك يضاعف نفورهم بسبب بالغ حسدهم، فاستكبروا عن اتباعك وطغوا وكفروا. فلا تحزن على ضلالهم لأنهم قد اختاروا لأنفسهم الكفر.

إن سنة الله في الجزاء، أنه مرتبط بالإيمان بالله واحدا كاملا لا شريك له، ثم الإيمان بأن كل إنسان مجزي عن عمله يوم القيامة بعدل الله ورحمته، ثم بالعمل الصالح في الدنيا. وهذا ينطبق على المؤمنين من الأمم السابقة الذين انقرضت

ديانتهم وعلى قوم موسى الذين اهتدوا بما أنزل على موسى ﷺ، وعلى من خلفهم من الذين واصلوا التمسك بهدى التوراة، التي تبشر بمحمد ﷺ وتجعل حدا لتلك الديانة، بظهور الإسلام الديانة التي تجمع البشرية. ولذا جمعتهم الآية ؛ فالمبتدأ فيها **(إن الذين آمنوا والذين هادوا)** وخبرها **(لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).**

ثم عطفت مستأنفة النصارى والصابئون، والخبر مقدر **(كذلك)** فينطبق على النصارى الذين آتاهم الله الإنجيل، وعلى الصابئين الذين كانت أسلافهم على دين حق، فكل من كان متدينا بدين يوحد فيه الله ويؤمن باليوم الآخر ويلتزم في دنياه صالح العمل، هو آمن في مستقبله، ولا يحزن على شيء مما فاته في الدنيا.

بيان المعنى العام:

68- قل يا أهل الكتاب لستم على شيء...فلا تأس على القوم الكافرين.

أمر من الله لرسوله أن يواجه أهل الكتاب بكشف حقيقتهم، هذه الحقيقة هي أنهم لا يملكون أي حظ من الدين المعتد به عند الله، إلا إذا احترموا نص وروح ما أنزله الله على لسان رسله في التوراة والإنجيل، إن الإذعان والتطبيق لما جاء في الكتابين يفضي بهم إلى الإيمان بالقرآن. إن ما يدعيه اليهود من أنهم أصحاب التوراة الكتاب المنزل، يكون باطلا من القول ما لم يقيموا ما جاءت به التوراة من الهدى المتضمن الإيمان بعيسى ﷺ ثم الإيمان بمحمد، وبعدم تغيير أحكام التوراة تبعا لهواهم. وكذلك النصارى لا قيمة لما يظنون أن نجاتهم باعتقاد أن صلب المسيح وتعذيبه مكفر لخطاياهم. فإن هذا لا أصل له في الإنجيل، ومن ناحية أخرى فإنه بشّرهم بقدوم محمد ﷺ وطلب منهم أن يؤمنوا به ويعززوه، فدعواهم الإيمان بالإنجيل لا اعتبار له عند الله ما لم يطبقوا ما جاء فيه.

ثم كشفت الآية عن مرضهم الباطني الذي تولد منه رفضهم لما أنزل على الرسول من القرآن، فأعلنت أن ذلك بسبب حسدهم لما تميز به القرآن من هيمنته على الكتب السابقة، ولما شرّفك الله به لمّا اختارك لتبليغ هذه المهمة التي كان يتوقع اليهود أنها مقصورة عليهم.

إن مرض الحسد هذا حجبهم عن الخضوع للحق المنزل فطغوا وأداهم طغيانهم إلى الكفر به. ومعلوم أن النبي ﷺ كان يتألم أشد ما يكون التألم بسبب استحواذ الشيطان على العقول والأرواح فأضلها. ولذلك ختمت الآية بتسليته عن إعراضهم فقال له ربه: لا تتأسف على القوم الذين تمكن الكفر من عقولهم وأرواحهم، فإن ما

انغمسوا فيه كان نتيجة حسدهم وقرارهم إغلاق بصائرهم عن التأمل فما أنزل إليك.

بعد أن أُمرَ النبي ﷺ بمجابهة أهل الكتاب بالحقيقة : أن كل ما يدعيه كل فريق منهم لنفسه من تفرده بأنه على هدى من الله وأنه بمنجاة من العذاب لإصابته ما أراده الله من البشر، دعواهم تلك دعوى لا أساس لها وباطلة وليس لها أي قيمة، إلا إذا أقاموا ما أمروا به في التوراة والإنجيل وما أنزله الله للبشرية عامة باتّباع دين الإسلام. بعد ذلك سحب على كل ما تقدم من الآي بيان حقيقة عامة، لا تتأثر بالزمان ولا بالمكان ولا بالدين الذي ينتسب إليه المتدين الراغب في نيل رضوان الله والفوز في الخاتمة، فقال: إن الذين آمنوا برسالات الله التي سبقت اليهودية، والتي اندرست ولم يبق شيء من كتبها المنزلة على الرسل الذين تتابعوا على البشرية من عهد نوح إلى عهد موسى عليهما السلام، والذين آمنوا بموسى ولم يحرفوا شيئا من رسالته، هؤلاء الذين آمن كل فريق منهم بالرسول الذي دعاهم لدين الله، وتحقق منه الثبات على الركن الأعظم توحيد الله، وما يتبعه من الإيمان باليوم الآخر، واستقام في حياته فكان مطبقا للمنهج الذي بلغه، وكان عمله عملا صالحا مرضيا، جميعهم أجرهم ثابت عند الله لا يضيع منه شيء، ولا يخافون هوانا في مستقبلهم، ولا يحزنون على ما فات، لأن ما سيلقونه من كرامة ومن فضل إلهي ينسيهم كل ما فات.

وكذلك الصابئون والنصارى الذين آمنوا وعملوا صالحا لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

69- إن الذين آمنوا والذين هادوا...ولا هم يحزنون.

قسمت الآية إذن المهتدين إلى قسمين: القسم الأول من أول عهد البشرية إلى مجيء موسى وسحبت عليهم حكما واحدا هو النجاة والفوز لكل من آمن بالله واليوم الآخر واستقام في حياته.

والقسم الثاني الصابئون والنصارى الديانتان الباقيتان إلى عهد البعثة المحمدية، كل من آمن من أتباعهما بالله إيمانا لا يشوبه شرك، وآمن باليوم الآخر، واستقام، له أجره عند ربه لا يضيع منه شيء ولا يخاف من المستقبل ولا يحزن على ما فات، وضعهم كوضع القسم الأول المعطوف عليه. فالواو السابقة ل (الصابئون والنصارى) هي عاطفة هذه الجملة على الجملة السابقة (إن الذي آمنوا والذين هادوا)وخبر (الصابئون والنصارى) مقدر أي كذلك لا خوف......

وهذا الاستقلال بين الجملتين يبدو لي أنه معجزة من معجزات القرآن. ذلك أن الهداية الإلهية ابتدأت مع آدم وبرزت مع نوح عليهما السلام، ثم تتابعت الرسل ولم يبق لتلكم الرسالات من يحفظها، بل ما بقي منها، إلى عهد موسى، إلا صور باهتة لا جامع بينها. ثم أرسل الله موسى فأحيى به التصور الصحيح في العقيدة، وأقام الشريعة الصالحة لتقويم اليهود الذين فسدت طباعهم وأخلاقهم فأخذهم بما يقوم الاعوجاج الذي تمكن منهم. ثم أرسل الله عيسى ﷺ ليقيم بني إسرائيل على الشريعة التي تصلحهم وتخفف عنهم بعض الشدة التي أخذتهم بها التوراة، وليبشر ويذكر بمجيء النبيء الخاتم ﷺ. وفي هذا الظرف الذي نشأ فيه سيدنا عيسى ﷺ كان سيدنا يحيى النبي الذي اعتدى عليه اليهود فقتلوه، يدعو إلى الله، وبينه وبين عيسى صلة رحم وصلة نبوة. وهو الذي عمد السيد المسيح. آمن بنبوة سيدنا يحيى جماعة ، واعتبروه النبي الوارث للديانات السابقة جميعها، وأن شريعته هي الشريعة الخاتمة. وبذلك رفضوا نبوة عيسى، وما كانوا ينظرون إلى شريعة موسى إلا أنها شريعة منسوخة. هذه الطائفة هي طائفة الصابئة.

استقر الصابئون في فلسطين أولا ثم هاجر معظمهم إلى العراق. فهم قوم يؤمنون بالله الواحد الأحد، تواصل اضطهادهم من اليهود، ومن النصارى لتكذيبهم بعيسى، ومن الرومان الذين عاملوهم معاملة اليهود. وكذلك من معظم الساسانيين. ولذلك اعتمدوا في بقائهم على السرية الكاملة، وترابطوا فيما بينهم فمن مبادئهم الدينية أن الصابئ لا يتزوج إلا بصابئة وكذلك العكس. وورثوا منهج عدم البوح بأسرارهم إلى العهود الأخيرة. ولذا نجد الذين يتحدثون عنهم إنما ينطلقون من ظنون، وتوليدات للنزر القليل الذي تسرب من أخبارهم. إلا أنه في القرن العشرين وصلت الدراسات العلمية للكشف عن ديانتهم، فتبين أنها تقوم على الأركان التالية : 1)توحيد الله-2)التعميد وهو أهم الأركان العملية، ولذا كانت إقامتهم على نهر دجلة الذي يعتقدون فيه التقديس، وبمائه يعمدون رجال الدين، والمولودين، وعند الزواج وعند تكريم رجل الدين منهم. ويمكن أن يتكرر التعميد 3) الصلاة- 4)الصوم - 5) الصدقة - وهم يحرمون الخمر ويتمسكون بقيم خلقية صالحة.

ذكر كثير من المفسرين أنهم يعبدون الكواكب، ولا أقر ذلك، لأن الله يقول فيهم وفي النصارى: (من آمن بالله واليوم الآخر) وأفترض أنهم لما كانوا يعتقدون أن الجهة المقدسة المطهرة التي يأتي منها الخير هي الشمال، وكانوا في صلاتهم وتقربهم وابتهالاتهم يتوجهون إليه، واعتمدوا في معرفة الشمال على النجم القطبي، إنه بناء على ذلك ظن المتابعون لظاهر طريقتهم في الحياة : أنهم يعبدون الكواكب.

فسقط بذلك ما يدعيه اليهود من تفردهم بالهداية والنجاة يوم القيامة، لأنه لا فرق بينهم وبين من سبقهم من الأمم. ذلك أن معيار النجاة صفاء الإيمان والعمل الصالح.

وكذلك سقط ما يعتقده النصارى من تفردهم بالفوز تبعا لما يدعونه من أن كل من آمن بتعذيب المسيح لتكفير ذنوب المؤمنين به هو الفائز. وفتح الباب للصابئة ليدخلوا في الإسلام بإنصاف أسلافهم، فقد كانوا يُعتبرون على أنهم من المشركين وعبدة الكواكب. هذا الإنصاف الذي أظهره الإسلام والذي لم يظهر إلا أخيرا هو شاهد على أن القرآن من عند الله عالم الغيب والشهادة.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ

بيان معاني الألفاظ:

لا تهوى أنفسهم: لا تحبه أنفسهم.

حسبوا أن لا تكون فتنة: ظنوا أن الله لا يبتليهم بما تضطرب به أمورهم.

فعموا وصموا : تحجرت ضمائرهم ففقدت التأثر بما حذرهم الله منه، كالأعمى وفاقد السمع لا ينتفع بعين ولا بأذن.

بيان المعنى الإجمالي :

مرة أخرى يذكر القرآن بني إسرائيل بالميثاق المؤكد الذي أخذ عليهم، وبمِننِه التي خصهم بها، ومن أجلّها أنه بعث فيهم أنبياءه ورسله ليبصرونهم بما يرضي الله ويحقق لهم الفوز في العاجلة وفي الآخرة. ولكن بني إسرائيل قابلوا الأنبياء بالقتل أو التكذيب، والمرسلين بالرفض لرسالاتهم وما يدعونهم إليه مما يخالف هواهم.

لما استقرت لهم أمور الحياة الدنيا إلى حين، تمردوا عما شرعه الله لهم وظنوا أنهم أمنوا في مستقبلهم من اضطراب حياتهم ومن مكر الله، أطاعوا الله أو عصوه. فكان وضعهم في تركهم هداية الله والإعراض عن شرعه، كوضع السائر الأعمى الأصم، هو تائه لا يهتدي سبيلا يبتلعه الضلال. ثم استفاقوا من ضلالهم وتابوا فتاب الله عنهم ورفع البلايا التي سلطها عليهم. ثم تمردوا من جديد فسلط عليهم نقمه وخسروا صلاح دنياهم، وخسروا آخرتهم. ولم يكن هذا وضع جميع اليهود، فقد

استثنت الآية بعض الصالحين منهم الذين وفوا بالميثاق وراقبوا ما شرعه الله لهم. وهكذا يتميز في علم الله حقيقة أعمالهم فكما لا يختلط الصالحون بالمفسدين، فكذلك لا يخفى عليه المآلات التي يقصدونها من أعمالهم، فيجازيهم بها جزاءً وفاقا لما قصدوه من شر وضر.

بيان المعنى العام :

70-72، لقد أخذنا ميثاق...وما للظالمين من أنصار.

تكرر في القرآن التذكير بالميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، وأكده في هذه الآية بتقديم (لقد) إيماء إلى أن هذا الميثاق حاضر في نفوسهم، ولكن إهمالهم له وعدم مراعاته، نزلوا بذلك منزلة المنكرين له.

لتثبيت ذلكم الميثاق وتجديد مضامينه بما يتلاءم والتطور الحضاري والعمراني، أرسل الله لبني إسرائيل أنبياء ورسلا يشددون على احترام ثوابت الميثاق ويبينون لهم التشريع الذي يرضى عنه الله في وضعهم يوم مجيء الرسل والأنبياء إليهم.

هذه العناية من الله قابلها بنو إسرائيل في كل الأزمنة ومع جميع الأنبياء والمرسلين، قابلوها بتحكيم أهوائهم في التشريع الذي بلغوهم إياه من رب العالمين. وواصلوا مسيرتهم على ما يوافق أهواءهم ويحقق شهواتهم. وما كان التشريع الإلهي ليخضع لانحرافات بني إسرائيل ، وتمردهم على منهج الصلاح في الكون لأنهم كما وصفهم رب العزة الذي لا يخفى عليه شيء من أمرهم لما قال: (ويسعون في الأرض فسادا) فكان موقفهم : أنهم قتلوا بعض الأنبياء ، كما هو مثبت في نصوص التوراة، وقابلوا رسالات المرسلين، وتوضيحات الأنبياء الآخرين بالتكذيب. فكان التمرد والعناد سجية لهم. وخدعوا أنفسهم بإمهال الله لهم وعدم تعجيله بالعقوبة، فظنوا أن أمورهم تجري على استقامة، وأن حظوظهم الدنيوية تسير على أفضل الوجوه وأكثرها عائدة،. أمنوا مكر الله، وما يبتلي به القوم الفاسقين من اضطراب الأمور وفساد الأحوال، ليهزهم بذلك، فيقلعوا عن الفساد. كان وضعهم كوضع السائر الأعمى الذي لا يسمع، فإنه بالطبع، كلما أوغل في سيره يزداد تعرضا للضياع والتلف.

تابع بنو إسرائيل ضلالهم وأصيبوا باضطرابات في حياتهم وفقد للأمن، وزلزلوا ثم استفاقوا وفتحوا بصائرهم ورجعوا إلى الله تائبين. والله يقبل التوبة عن عباده إذا أخلصوا، فرفع الله عنهم ما ابتلاهم به. ثم نسوا ما أصاب آباءهم فعادوا للتمرد على

شريعة الله وتابعوا ما تمليه عليهم أهــواؤهم، هــم عمــيٌّ صــمٌّ. فسـلط الله علـيهم الفــتن واضطربت أمورهم وما زالوا على ذلك، إذ لم يذكر القرآن أنهم عادوا للتوبة.

وذكر القرآن أن الفساد لم يعمهم جميعا بــل كــان فــيهم الصــالحون، وهــذا هــو شــأن القرآن في الدقة، فقــال تعــالى : كثيــر مــنهم. وتخــتم الآيــة بــأن الله لا تخفــى عليــه بواطنهم وما يجري في عقولهم ممــا لــم يعلنــوه، وفــي هــذا إشــارة إلــى ســجية مــن السجايا التي طبع عليها اليهود من القيــام بأعمــال ظاهرهــا الفضــيلة والخيــر، ومآلاتهــا تابعة لمقاصدهم من الشر والإضــرار بالنــاس. ويــدل ذلــك علــى أن الله ســينزل بهــم عقابه عما فعلوه بقصد الشر والضر، وإن كان ظاهره الصلاح.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

المأوى : المكان الذي يعود إليه.

حرم : منع.

الظالمون: المشركون.

ليمسن : ليصيبن.

قد خلت : مضت.

صديقة : متصفة بالصدق على أتم ما يكون، مقبلة على التصديق بالحق فلا ترتاب فيه.

انظر : تأمل لتعلم.

الآية : العلامة، والمراد بها الحجة والبرهان.

أنى : كيف ؟

يؤفكون : يصرفون عن الإيمان إلى الكفر.

ما لا يملك : ما لا يقدر.

بيان المعنى الإجمالي :

إعلان أول من الله: أن كل من اعتقد أن المسيح ابن مريم إله، هو كافر يجري عليه أحكام الكفر في الدنيا والآخرة. واعتقادهم هذا عجيب لأن المسيح قال لبني إسرائيل: خصوا الله وحده، الذي هو ربي وربكم، بالعبادة وإن من يشرك بالله فإن الله حكم بمنعه من دخول الجنة وقرر له عاقبة واحدة هي النار، ولا يجد المشرك المرتكب لأعظم ظلم بشركه نصيرا ينصره.

الإعلان الثاني :النصارى الذين اعتقدوا فصرحوا بأن الله ثالث ثلاثة، الله والمسيح، وروح القدس، هم كفروا بمقالتهم وعقيدتهم تلك. إن الحقيقة الوحيدة الصحيحة، أن الله فرد واحد لا إله إلا هو.

لقد قالوا مقالة شنيعة، وإنهم إن لم يقلعوا عنها ويعلنوا ندمهم عما صدر منهم ويتوبوا إلى الله توبة لا رجعة بعدها للتثليث، فإنه سينالهم عذاب أليم. ثم دعاهم إلى التعجيل بالتوبة الصادقة إلى الله عما اعتقدوا وقالوا، وأن يصلوا توبتهم بطلب الله أن يغفر لهم ما سلف. والله سيتفضل عليهم، لو فعلوا ذلك، بالعفو عن ذنوبهم، ثم يتولاهم برحمته فينعم عليهم، إنه هو الغفور الذي تسع مغفرته ذنوب التائبين على كثرتها وعظمها، الواسع الرحمة التي تشمل جميع الكائنات.

وبعد أن نفى القرآن صحة عقيدة النصارى المؤلهين لعيسى والمثلثين، بيّن حقيقة عيسى فقال : إن المسيح هو ابن مريم وليس ابنا لله. وإنه رسول لا يختلف عن بقية الرسل الذين حمّلهم الله أمانة تبليغ هدايته. وأيده بالمعجزات كما أيد المرسلين قبله، وإحياؤه للموتى هو من جنس إحياء العصا لموسى وانقلابها حية بل معجزة موسى عليه السلام أكثر عجبا. وأم عيسى هي امرأة التزمت الصدق في حياتها التزاما كاملا وكانت تؤيد الصادقين. وعيسى وأمه كانا يأكلان الطعام كما هو مذكور في الأناجيل. وأكل الطعام لا يكون إلا لتعويض النقص الحاصل عن بذل مجهود، ثم يصرف البدن الفضلات. فكيف يكون إلها من يجري عليه جميع أعراض البشرية من نقص وتعويض وإفرازات. فأعجبْ من عقيدة النصارى وأعجبْ من ناحية أخرى كيف إن الله يقيم لهم الأدلة والحجج الواضحة البينة ثم هم ينصرفون عن الحق إلى الباطل والضلال.

ويختم القرآن تبكيت النصارى بدعوة النبي ﷺ ليواجههم بإنكار سذاجتهم ويقول لهم ما مؤداه : كيف تعبدون غير الله ، وتشركون بالله من هو عاجز عن دفع الضر عنكم كما هو عاجز عن جلب ما ينفعكم، ومن هو لا يسمع إلا في حدود قوانين السمع البشرية، ولا يعلم خفايا أموركم وحاجاتكم المغيبة، والله وحده هو السميع لكل ما يختلج في ضمائركم، عليم بظواهركم وخفاياكم؟

بيان المعنى العام :

72- لقد كفر الذين قالوا.....وما للظالمين من أنصار.

بعد أن شنع القرآن على اليهود تمردهم وانحرافهم عن هداية الله، سجل على النصارى ما وقعوا فيه من ضلال، واحتج عليهم وبين لهم ولمن يعملون على إضلاله الحقيقة التي يشهد بها العقل.

أول ما سجله القرآن أنهم أرادوا الفوز بالإيمان فوقعوا في صريح الكفر. وذلك باعتقادهم وتصريحهم : إن الله هو المسيح ابن مريم. ثم إنه لا شبهة لهم فيما وقعوا فيه من شرك وضلال، لأنهم قالوا ذلك في حال أن المسيح ابن مريم قال لهم : إن الله ربي، أي أنا مخلوق له ليس لي من المكانة إلا أنه تولاني بعنايته، مما تفيده كلمة ربي من التربية. وثنى بأنه هو ربكم الذي أنشأكم، ولا شريك له في ذلك. وذلك يقتضي إفراده بالعبادة والخضوع لأحكامه.

وقد صرح إثر ذلك بما يفيده نسج الكلام المحكي عنه، وهو قاعدة عامة جرت على لسان جميع المرسلين ومنهم عيسى عليه السلام : إن الذي يشرك بالله لا أمل له في دخول الجنة، وهي ممنوعة عليه منعا أبديا. وإن عاقبته التي ينتهي إليها نار جهنم لا محالة.

وتحقيق ذلك أن الله حرمَ المشركين من كل نصير، فلا شركهم يفتح لهم باب الأمل، ولا نصير يتوقع أن ينقذهم.

73- لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث...عذاب أليم.

ثم نفى القرآن التصور الآخر للنصارى. إذ التصور السابق يزعم أصحابه أن الله والمسيح شيء واحد. وطوائف كثيرة من النصارى يعتقدون ويصرحون بأن الله ثالث ثلاثة، عبروا عن هذا بأن الله ينقسم إلى ثلاثة أقانيم: أقنوم الوجود وهو الذات وسموه الأب، وأقنوم العلم وسموه الابن، وهو الذي اتحد بعيسى وصار بذلك عيسى إلها، وأقنوم الحياة وسموه روح القدس. ومنهم من يعتقد أنه حين اتحدت الكلمة بمريم عند حملها أصبحت مريم إلها أيضا. فثالث ثلاثة على زعمهم واحد من

الثلاثة. اعتقدوا ذلك وصرحوا به مع أنه لا يتصور ولا يعقل أن يكون الإله إلا إلها واحدا، وهو الله. إن هذا القول المنكر الفاسد، والعقيدة الضالة المنحرفة للنصارى، تقضي بهم حتما إن لم يقلعوا عنها ويتوبوا منها، إلى مآلهم، وهو أنهم سيعذبون عذابا أليما بسبب كفرهم.

أعقب القرآن التحذير والوعيد بعرض كريم من رب العالمين، فدعاهم إلى التوبة بالندم على ما ساروا عليه من الضلال في سابق الأماد، وأن يطلبوا منه مغفرة ذنوبهم التي تلوثوا بها باطنا وظاهرا. ويثبت الله مؤكدا أنه هو الغفور الرحيم، فيرفع عنهم العذاب بتوبتهم ويكرمهم برحمته.

ثم أضاف القرآن تأكيد ما سبق باقتلاع الشبه التي ضللتهم، ورفع الحجاب عن بصائرهم، الحجاب الذي ما كان ليصل بهم إلى التثليث والشرك لو تأملوا بعقولهم في أقوالهم، فبين :

أولا : لا يختلف المسيح عن بقية المرسلين الذين بعثهم الله للبشرية ليخرجوها من الكفر إلى الإيمان ومن الفساد إلى الصلاح. وليست له صفة يختص بها عن بقية رسل الله. فانتفت كل شبهة في ألوهيته إذ استوى مع بقية الرسل. ومعجزاته هي كالمعجزات التي تأيد بها رسل الله. فإحياؤه للموتى هو من جنس إحياء الله العصا لموسى وانقلابها حية، بل الملاحظ أن انقلاب العصا الجماد حية تسعى أشد غرابة.

ثانيا: مريم أمه امرأة صفت روحها واستقام خلقها، فكانت صادقة في أقوالها وأفعالها، تحب الصدق وتلتزمه، وكانت مع ذلك تتفتح للكلام الصادق وللحقيقة الثابتة فتقبلها قبولا لا يتبعه تردد ولا رفض. وكمال خلقها هذا لا يوجب لها أن تكون إلها، ومن ناحية أخرى فإن ما اتصفت به هو أمر لا تختص به، وإن كان عزيزا.

ثالثا: تتفق جميع طوائف النصارى على أن عيسى وأمه كانا يأكلان الطعام، وذلك مثبت في الأناجيل. وأكل الطعام يتم بداعية تعويض ما يُنقصه المجهود المبذول من الإنسان، والأجهزة تمتص من الأكل ما يُعوِّضُ وتنفي الباقي في صورة فضلات. فبذلك يكون أكل الطعام الملازم للنقص والتعويض والفضلات، من أوضح الأدلة على عدم ألوهية عيسى وأمه.

74- أفلا يتوبون إلى الله....والله غفور رحيم.

عَجَبٌ أمر النصارى كيف يدعون ألوهية عيسى، ويواصلون اعتقاد ذلك! هذا أمر عجب، ليتأمل كل عاقل ليعلم كيف تم منهم أن عرضت عليهم الأدلة الواضحة

المتقدمة الكاشفة لهم عن الحقيقة، ثم ليعجب بعد ذلك كيف يُصرفون عن الأخذ بها، مع أنه لا منفذ يتطرق منه ما يصرف عن الاعتقاد الحق.

إنه بعد أن تم تبكيت النصارى في باطل ما أقاموا عليه عقيدتهم بأتم بيان وأوضح حجة، أمر الله نبيه ﷺ أن يواجه النصارى بإنكار ما هم عليه من عبادة غير الله، التي يتساوون فيها مع مشركي العرب، أمره بقوله :

76- قل أتعبدون من دون الله.....وهو السميع العليم.

قل :كيف تعبدون شريكا لله عاجزا، لا يقدر أن يدفع عنكم ضرا يصيبكم، أو يجلب لكم نفعا ترغبون فيه. إن عجزه بَيِّنٌ لأنه لا يسمع أصوات ضمائركم وهي تتجه بالابتهالات دفعا للضر وطلبا للخير. فإن الذي يسمع خلجات الضمائر، والضراعة خلف الجدران في سكون الليل ووراء الأستار، ورعشات القلوب عند الشعور بالعجز، هو الله سبحانه، إنه وحده السميع لطلباتكم العليم بأحوالكم.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الغلو : مجاوزة الحدود في أي أمر.

غير الحق : الباطل.

سواء : المستقيم وهو الحق الواضح.

لا يتناهون : لا ينهى بعضهم بعضا عما يرتكبونه من مناكر.

كثير منهم فاسقون : الكثير المذكور في أول الآية كافرون.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر من الله لنبيه ﷺ أن يواجه أهل الكتاب بدعوتهم، أولا إلى ترك الغلو في الدين البعيد عن الحق والميزان، والمتلبس بالعاطفة. وثانيا أن يستقلوا رافضين التقليد الأعمى، فلا يتبعوا الذين حكموا أهواءهم فضلوا عن صراط الله، وأضلوا كثيرا من الناس، ولازم الضلال أخلافهم ممن كان في عهد الرسالة المحمدية فضلوا عن الصراط المستقيم : دين الإسلام.

ثم حقق القرآن أن داود وعيسى عليهما السلام قد لعنا الذين كفروا من بني إسرائيل، لا لكونهم يهودا ولكن لقساوتهم في عصيان الله، ولمواصلتهم الاعتداء على الأنبياء وعلى الناس.

خربَ مجتمعهم وظهرت فيه المفاسد واستحكمت، لأنهم كانوا يسكتون عن إنكار الفساد عند ظهوره، فتمكّن وأصبح مقبولا وتسارع إليه الرعاع. ما أسوأ فعلهم هذا من الرضا والسكوت!

ومن مظاهر الفساد المتمكن من كثير من بني إسرائيل في المدينة والشائع فيهم، أنهم يخلصون للمشركين بالتعاون والتناصر. هذا أمر سجل القرآن أن النبي ﷺ أبصره ورآه رأي العين، وما أسوأ ما قدمت لهم أنفسهم ! ما هو الأمر الذي هيأته لهم أنفسهم؟ هو سخط الله عليهم بما يصحب السخط من حرمانهم من جميع الألطاف الإلهية الكثيرة في الدنيا، وهم خالدون في العذاب يوم القيامة.

وما أيسر خروجهم من هذا الظلام والعقاب ! إنهم لو آمنوا بالله وبمحمد ﷺ، لو فعلوا ذلك لتم شفاؤهم من مرض النفاق وما يتبعه من الانتصار بالكافرين. ولكن تمكن الكفر من قلوب تلكم الكثرة ومن عقولهم، ذلك هو الذي حرمهم كل خير.

بيان المعنى العام :

77-قل يا أهل الكتاب لا تغلوا...سواء السبيل.

أمر الله نبيه أن يواصل دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويكشف لهم الشبهات التي حجبت بصائرهم عن الحقيقة وأضلتهم، فنهاهم.

أولا :عن الغلو في الدين الغلو المخالف للحق. والغلو إذا خرج عن الحد المأذون فيه مذموم. غلا اليهود بادعاء أن التوراة هي وحدها الحق ورفضوا ما جاء به عيسى وما أنزل على محمد عليهما السلام، وغلوا في تفضيل جنسهم على بقية الأجناس البشرية، وغلوا بزعمهم أنهم أقرب إلى الله من سائر الناس. وغلا النصارى في المسيح فجعلوه إلها وأنكروا نبوة محمد بعده. والغلو هو الحكم الذي

يتجاوز به المغالي الحد المعروف ثم يقتنع به ويكيف عليه عقيدته وسلوكه. ولما كان مبنى الغلو في أكثر الأحوال لا يستند إلى شرع ولا إلى عقل، ولكن يستند إلى جعل ما يشتهيه الإنسان حقا متبعا، كان مذموما منهيا عنه. ولذا كانت هذه القاعدة قاعدة كلية تبرز حقيقتها في مختلف أوجه نشاط الإنسان الروحي والعقلي والعادي. فوصل صيام النهار بالليل غلو، وترك الدنيا والعمل فيها وقصر النشاط في الحياة على العبادة غلو. والإقبال على العمل العقلي العلمي مع عدم ترويح العقل وإعطاء النشاط الذهني حظه من الراحة غلو يفضي إلى اختلال العقل نفسه، واعتماد العقل وحده وإنكار وسائل المعرفة الأخرى غلو يؤدي إلى الكفر. والغلو في الحياة بتحريم ما أحله الله من أنواع النعيم الحلال مذموم، كالغلو في الإقبال بشراهة على الحياة ومباهجها حتى تستولي على الروح والفكر.

وثانيا: نهاهم عن التقليد لمن سبقهم بغلوهم في تقدير عصمتهم دون ميز. فإن من بين هؤلاء السابقين من أحبارهم ورهبانهم من اتبعوا هواهم، فحرفوا ما أنزل عليهم وخالفوا ما يقتضيه الدليل فضلوا. وتجاوز فسادهم أنفسهم فأضلوا كثيرا من الناس. ونهاهم أيضا أن يقلدوا الذين ضلوا عن الطريق المستقيم من الأحبار والرهبان الذين حملهم هواهم أيضا على معاداة الإسلام.

78-لعن الذين كفروا من بني إسرائيل... يعتدون.

ثم أقرز القرآن الكافرين من بني إسرائيل، بأن اللعنة قد صبت عليهم بدعاء سيدنا داود كما جاء ذلك في المزامير، وعلى لسان سيدنا عيسى كما في نص الإنجيل. ولعنهم على لسان داود وعيسى عليهما السلام موجه للنهي السابق عن تقليد جميع السابقين من دون ميز. وليس لعن الكافرين من بني إسرائيل لكونهم يهودا، وإنما استحقوا اللعنة بسبب عصيانهم لأوامر الله وتمردهم على الحق، وبسبب ما تأصل فيهم واستمر إلى زمن نزول هذه الآية من الاعتداء على رسل الله والإضرار بالبشر. وقد أصبح قصد الإضرار بالبشر سجية في كثير من اليهود فمازالوا على هذه الحال إلى اليوم. وما فظائع اعتداءاتهم على الفلسطينيين وعلى مؤيدي حقهم إلا شواهد صدق على ما وصفهم الله به.

79-كانوا لا يتناهون....يفعلون.

وقد فشا فيهم ذلك إلى أن أصبح مظهرا عاما مسترسلا مع الزمن، بسبب أنهم كانوا يرون المنكر فيسكتون عن فاعله، ولا يبدون إنكارا. وعلى هذا النحو تفسد أخلاق الأمم. فإنه إذا لم يجد فاعل المنكر رفضا لفعله ممن يشاهده ومن الرأي العام، فإنه

يواصل فاسد عمله إلى أن ينتهي المجتمع إلى قبوله، ويسرع الرعاع إلى المتابعة إلى أن يصل الأمر إلى إلف المنكر. وعندها يستحقون غضب الله ولعنته. ومعنى قوله كانوا لا يتناهون: أن من فعل منكرا لا ينهاه غيره، وذلك الغير إذا فعل منكرا أيضا لا يجد من ينكر عليه فعله. إن السكوت عن المنكر قبول له. وهذا التمالؤ بالسكوت عن الفساد لهو اختيار سيء وفعل قبيح.

80-81، ترى كثيرا منهم يتولون....منهم فاسقون.

ومما عاناه الرسول ﷺ نفاق كثير من يهود المدينة، الذين أظهروا الإسلام، الأمر الذي مكنهم من الاندماج في المجتمع الإسلامي بالمدينة.

وإن كان النفاق أمرا باطنا يعمل المنافق على إخفائه، إلا أن مرض النفاق قد برز واضحا فاضحا، فقد وثّقوا صلاتهم بالكافرين، يفضون إليهم بالأسرار ويتعاونون معهم، ويعقدون في الخفاء التناصر بينهم. سجل الله هذا عليهم وأن الرسول اطلع على انتشار قبيح أفعالهم فقال: تشاهد كثيرا منهم وقد افتضح أمرهم بموالاة الكافرين. اختاروا ذلك وأرادوه لأنفسهم، وما أسوأ عاقبة ما أرادوا ! العاقبة سخط الله عليهم، والسخط مقابل الرضا، فإذا كان الرضا يتبعه الطمأنينة والتكريم، فإن السخط يتبعه القلق وسوء العاقبة، فهم مخلدون في النار لا يبرحونها.

إن تحولهم عن وضعهم السيء في الحاضر والمآل، أمر يسير. فلو تفتحت قلوبهم وعقولهم فآمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، لو فعلوا ذلك لشفوا من النفاق والتخفي للتقرب وتولي المشركين. ولكن الذي أعماهم ومكن الضلال في قلوبهم ، هو الكفر المتمكن منهم، كثير منهم فاسقون : كافرون.

• لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ

وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

القسيس: النصراني العالم بدين النصارى.

الرهبان : جمع راهب، وهو النصراني المنقطع عن العالم للعبادة.

لا يستكبرون : متواضعون منصفون.

تفيض من الدمع : يفيض منها الدمع.

فاكتبنا : فاجعلنا.

الشاهدين : الذين حضروا بعثة الرسول وصدقوه.

بيان المعنى الإجمالي :

يتولى الله ﷺ رسوله والمؤمنين، فيكشف لهم مقدما دخائل الطوائف التي تتصل بهم ويتعاملون معهم. فحذرهم أشد التحذير من اليهود مؤكدا أنهم متحالفون مع المشركين، تعمقت عداوتهم للإسلام وأهله يكيدون لهم بمختلف ما تفيض به نفوسهم الخبيثة من كراهية.

وأن طائفة، من النصارى قدمت عليك، مركبة من علماء بدين النصرانية (قساوسة) ومن رهبان انقطعوا لعبادة الله واستهانوا بمغريات الحياة الدنيا، معلنين في وضوح أنهم قدموا عليك وهم مازالوا على دين النصرانية. من صفاتهم أنهم طهروا أنفسهم من الكبر وعناد الحق، وكانت نفوسهم رقيقة تلين قلوبهم للقرآن بمجرد ما تطرقت بيناته أسماعهم، فلا يملكون أعينهم من البكاء المعبر عن عظيم التأثر بأنوار الوحي الحق. تنطلق ألسنتهم بما استقر في قلوبهم إثر ما سمعوه من القرآن، فيعلنون عن صادق إيمانهم، ويبتهلون إلى الله أن يجعلهم في عداد هذه الزمرة الخيرة الصالحة الشاهدة بصدق محمد ﷺ. ثم يلتفتون إلى أنفسهم فيخاطبونها مخاطبة من يحصن نفسه في المستقبل من كل تردد، يخاطبونها بقولهم: لايوجد ما يحول بيننا وبين الإيمان بالله وما جاء على لسان رسوله من آيات الصدق. وإنا نطمع أن يوثق بيننا وبين هذه الأمة بوشائج الالتحام والقيام بما يقتضيه الإيمان. أخبر الله نبيه أنه قبل هؤلاء النصارى الذين دخلوا في الإسلام، وأنه حقق لهم ثوابهم يوم القيامة جنات تتخللها الأنهار باقين فيها بقاء سرمديا، واعتبرهم من المحسنين، الدرجة العالية بعد الإيمان.

وفي المقابل فإن النصارى الذين ثبتوا على الكفر، وقابلوا الإسلام بالرفض والتكذيب لآياته البينات، لا يفلت منهم أحد من مصيره في الجحيم يلزمه ملازمة الصاحب لصاحبه وليس له محيد عنه.

بيان المعنى العام:

82.لتجدن أشد الناس عداوة...لا يستكبرون.

هذه حقيقة من الحقائق، التي أكد عليها القرآن أتم تأكيد وأكمله، كشفت للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين في وقت نزول الوحي، نظرة أهم الطوائف غير الإسلامية الذين كانوا بالمدينة، إلى الإسلام؛ وذلك ليؤسس عليها ﷺ طريقة التعامل معهم.

أولا : الطائفة التي استحكمت العداوة في قلوب أفرادها، وتشمل اليهود والمشركين. ذلك أنه بمجرد ما قدم النبي ﷺ المدينة كتب وثيقة التعايش السلمي بين سكان المدينة، وأمّن كل فريق على حقوقه، وسوى في القيمة الإنسانية بين جميع الطوائف. الأمر الذي يحقق ما كان يهدف إليه ﷺ من تمكين المجتمع المدني من أول سبب للتقدم الحضاري: الأمن. وحتى يمحض نشاطه لنشر دين الله من بيئة متعاونة لا متحاربة، استل البغض من صدور أفرادها. ولكن اليهود ناصبوا العداء للأمة الإسلامية، وتحالفوا مع مشركي مكة للكيد للإسلام. كانوا عيونا للمشركين يمدونهم بالأسرار، ويطلعونهم على الثغرات التي يستطيعون منها أن يجهزوا على المسلمين. كما كانوا يحيكون المكائد للتفريق والتشكيك، التي من أشدها خطر النفاق الذي عمل بواسطته اليهود على خلخلة المجتمع الإسلامي من الداخل. فكشف الله لرسوله وللمؤمنين بهذه الآية أن مقاومة يهود تتحد مع مقاومة المشركين، ليحذروهم حذرَ العدو لعدوه، وتكون لهم من اليقظة ما يحصن المسلمين من خطر اندساسهم. وليس معنى هذا مقاطعة اليهود مقاطعة اقتصادية واجتماعية، فإنه قد بقي التعامل بيعا وشراء وعملا، بعد نزول الآية، بين المسلمين واليهود في المدينة قائما. كما بقي التواصل الاجتماعي ساريا في مختلف المناسبات كالموت ومؤاكلتهم ودعوتهم والاستجابة لدعوتهم، كما تدل عليه الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

83-84: وإذا سمعوا ما أنزل.....مع القوم الصالحين.

ثانيا : طائفة النصارى من سكان المدينة والوافدين على النبي ﷺ من خارجها.

ولا يقصد القرآن هنا، والله أعلم، جميع النصارى الذين كانوا في زمن البعثة ولا فيما تلاها من الأعصار، وإنما يتحدث القرآن عن جماعة من النصارى حدد

ملامحهم وصفاتهم ومواقفهم المعلنة، حتى لا يفهم من النص القرآني حكم عام يشمل كل الطوائف النصرانية في الكون والتاريخ. ويتبين ذلك بما يلي :

أولا : أن تركيب هذه الطائفة تشمل بوضوح علماء بالنصرانية، وتشمل رهبانا تركوا مباهج الحياة الدنيا وأقبلوا في إخلاص على العبادة والتقرب إلى الله، وحسن السلوك. والطائفة بكمالها غسلت قلوبها من داء الكبر والتعالي، فهي جماعة تنساق إلى الحق برَغْبَةٍ، انسياق من صفت روحه فأصبحت مستعدة لاتّباعه أيا كان مأتاه.

ثانيا: أن هذه الطائفة كانت مرهفة الشعور تتأثر بدعوة الله، وتستجيب لندائه، وتسمو أشواقها عند سماع كلامه، فإذا خالط وحيه أسماعهم اندمجوا في ظلاله، وفاضت أعينهم بالدموع للوَجْد الحالّ في مشاعرهم تعبيرا عن التأثر بما سمعوا.

ثالثا: هم يصرحون بما استقر في نفوسهم، وما عزموا عليه تبعا لانصياعهم لدعوة الإسلام، فيقولون: ربنا آمنا فاجعلنا في الزمرة التي هديتها زمرة المؤمنين بمحمد الشاهدين بصدقه.

رابعا: هم يحركون كوامن مشاعرهم ومداركهم، فيخاطبون أنفسهم مجردين منها ما يزيدهم إيمانا ويرفع كل عوامل الشك والارتياب. فيتساءلون تساؤل المحقق الذي ينفي كل ما يمكن أن يدخل على ما اقتنع به من اهتزاز ؛ فيقولون: أي شيء يمنعنا من الإيمان بالله على الطريقة التي أتى بها محمد ﷺ وهي رافعة لكل لبس. وبكامل الأدب والتفويض لله، هم بهذا اليقين في صدق رسالة الإسلام، يطمعون أن يقبلهم الله فيدخلهم مع القوم الذين تحقق صلاحهم، العصابة الخيرة التي حول رسول الله ﷺ.

85-86، فأثابهم الله بما قالوا...أولئك أصحاب الجحيم.

هؤلاء النصارى الذين تابع القرآن تصويرهم تصويرا يميزهم عن غيرهم، تقبل الله منهم إيمانهم وكتب لهم ثواب إيمانهم وصدقهم فيه: جنات تتخللها الأنهار، ينعمون فيها نعيما لا يلحقه انقطاع. إن هذا الجزاء والتكريم هو جزاء المحسنين، والإحسان هي المرتبة التي يرتقي فيها المؤمن بعد مرتبة الإيمان في منازل الكرامة.

وفي المقابل فإن الذين كفروا بالإسلام، وثبتوا على رفضه، سيخسرون آخرتهم خسرانا يربط بينهم وبين جحيم النار.

<u>ملاحظة :</u> ما يحتج به بعض السطحيين من أن صلة النصارى بالمسلمين هي صلة ود، والله قد أثنى عليهم في القرآن، هو تحريف للكلم عن مواضعه. فالقرآن تحدث عن النصارى الذين حدد صفاتهم وملامحهم. فهل النصارى الذين قاموا بالحروب

الصليبية، ثم بالزحف الاستعماري على بلاد الإسلام، ثم بالتخطيط المحكم لمنع بلاد الإسلام من التطور، والاستحواذ على ما رزقهم الله من خيرات في أراضيهم، وتأييد إسرائيل على المضي في باطلها وظلمها وإخراج الفلسطينيين من ديارهم وأموالهم بغير حق، هل يوجد خيط واحد ولو ضئيل يجمع بين هؤلاء النصارى وبين النصارى المنوه بهم في الآية ؟ إن الذي ينطبق عليهم هو خاتمة الآية : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) فهم لا يحملون أي ود للمسلمين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تعتدوا: لا تتجاوزوا ما حده الشرع لكم من الحلال.

بيان المعنى الإجمالي:

نداء للمؤمنين أن يلتزموا بما حكم الله به ولا يتجاوزوا أحكامه، فما أحله الله يُقبلون عليه ولا يمتنعون منه، وما حرمه يمتنعون منه ويتحاشونه، فإن من يتجاوز ما حكم الله به يفقد، تبعا لذلك، تأييد الله له. وأذن لهم أن يأكلوا كل ما كان حكم تناوله حلالا، وكان طيبا ليست له آثار سيئة على سلامة أبدانهم وأرواحهم. وأمرهم أن تكون تقوى الله حاضرة في ضمائرهم، إن التقوى من مقتضيات الإيمان.

بيان المعنى العام:

87-88، يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا...أنتم به مؤمنون.

يربي القرآن الأمة الإسلامية تربية تأخذهم إلى التوسط فيما يقبلون عليه وفيما يدعونه. فكانت هذه الآية تجري في ذلكم المساق. فنهتهم أن يحرّموا على أنفسهم ما يسره الله لهم من الحلال، على معنى التقرب لله بالامتناع، كما كان الرهبان يُلزمون به أنفسهم. وضمّن النهي العلة، ذلك أن الله تعالى ما أحل لنا إلا الطيب، فتحريمه قلب لحقائق الأشياء، وإعراض عن النعمة، وكلاهما ينافي المنهج الإسلامي.

وفي المقابل نهاهم عن الاعتداء على ما حدده الإسلام من المحرمات. إن المتجاوزين للحدود لا يعاملهم الله معاملة من يرضى عنهم المكرمين المحبوبين عنده. فعلى المسلم أن يحرص على أن لا يكون منحلا تغلبه شهواته فيقبل على الطيب والخبيث، ولا أن يضيق على نفسه فيمتنع من بعض النعم لخيالات موهومة.

ثم أذن لهم القرآن في تناول الحلال الذي لا إثم فيه، الطيب الذي لا يتبع تناوله ضرر نفسي ولا روحي ولا بدني. وهو من فضل الله على الناس تولى رزقهم إياه. والمعيار الذي يجب أن يكون مراعى دائما حاضرا في ضمير المؤمن، هو تقوى الله، هذه التقوى التي هي من مقتضيات الإيمان. وفي التذكير بالتقوى في الانتفاع بخيرات الكون ما يثير رقابة المؤمن على أن يكون ما ينتفع به قد اتبع في كسبه طرق الحلال.

وإذا حرم الإنسان على نفسه ما أحله الله، سواء أكان باللفظ أو بالعزم، فإن تحريمه لا يؤثر، بل يبقى الحلال حلالا، لأن التحليل والتحريم لله وحده. ولا يستثنى من هذا إلا شيء واحد، وهو ما فوض الله فيه الحكم للإنسان، وهو العلاقة الزوجية، فإن للزوج أن يرفع ما كان له بعد عقد الصداق ويحرم زوجته فتحرم عليه.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89)

بيان معاني الألفاظ:

لغو اليمين: اليمين الجارية على اللسان دون قصد أو التي حلفها معتقدا لما حلف عليه فتبين خطؤه.

عقدتم الأيمان: قصدتم الحلف.

الكفارة: أصلها من الكفر بمعنى الستر، والمقصود به إزالة آثار الالتزام باليمين.

أوسط ما تطعمون: بين طعام المسرفين وطعام المقترين.

بيان المعنى الإجمالي:

من جرى على لسانه يمين أثناء كلامه دون قصد للحلف، فإنه لا إثم عليه ولا يلزمه شيء. وهي يمين اللغو. لكن الحالف القاصد لتوثيق كلامه باليمين هو مسؤول عن

يمينه آثم إن لم يحترمها.وتيسيرا من الله على عباده شرع لمن يحلف، ويجد نفسه في حرج من الوفاء بيمينه، أن يتحلل من يمينه فيرتفع عنه الإثم والالتزام، وهو أولا، مخير بين ثلاثة أمور تحقق له التحلل.

1) أن يطعم عشرة مساكين ما يكفيهم يومهم من الطعام الوسط في بيئة القسم

2) أو أن يكسوهم كسوة تصح بها الصلاة

3)أو أن يعتق رقبة ذكرا أو أنثى. ومن لم يتمكن من أحد هذه الثلاثة يتحلل من يمينه بصوم ثلاثة أيام. ولا كفارة لليمين إلا ما ذكرته الآية.

وعلى المؤمن أن يستحضر في ضميره قداسة الحلف بالله، فيوفي بيمينه إذا حلف، ولا يتهاون بالحلف تهاونا يجعله يقدم على الحلف بمناسبة وبدونها.

على هذا النحو الواضح شرع الله لكم وبين، فتأملوا في نعمه تأملا يفضي بكم إلى شكرها.

بيان المعنى العام :

89 -لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم....لعلكم تشكرون.

ربى القرآن المسلمين على مراقبة ألسنتهم، والوفاء بما التزموه. وتكون هذه المراقبة أشد تأكيدا إذا قوى المؤمن كلامه باليمين. وذلك لأنه قد جعل الله بقسمه كفيلا عليه بالوفاء. وبهذا يكون الحانث في يمينه آثما.

ولطفا من الله بعباده يسر لهم :

1) أن من حلف يمينا غير قاصد للحلف، وإنما جرى القسم على لسانه دون قصد لتوثيق ما أقسم عليه، فإن هذه يمين وصفت بأنها لغو لا تترتب عليها آثارها، ولا إثم على الحالف. وذلك كقول المتكلم غير الحافظ للسانه :لا، والله. أو نعم، والله.

2) كما أن من حلف على شيء يجزم بأنه صادق، ثم تبين خطؤه، فإنه لا إثم عليه.

وبالمقابل فإن من أقسم قاصدا لليمين موثقا كلامه بالحلف بالله، لتنفيذ أمر في المستقبل، أو عدم فعله، كقول الحالف : والله لأسافرن غدا، أو قوله :والله لا أسافر غدا ،ثم وجد نفسه في حرج من الالتزام بالوفاء، أو وجد ما هو خير له مما امتنع منه باليمين، وأراد أن يتحلل من يمينه، فقد شرع الله له ما يزيل الالتزام السابق، ويرفع الإثم بتحلله من يمينه، وهو المعبر عنه بكفارة اليمين.

والكفارة مخير فيها الحانث بين أمور ثلاثة :

أ-إطعام عشرة مساكين ما يكفيهم غداء وعشاء، ويكون الطعام وسطا بين ما اعتاده الأغنياء في طعامهم وبين طعام المقترين والفقراء.

ب -إكساء عشرة مساكين كسوة، ساترة تجزئ لإقامة الصلاة.

ج ـ–عتق رقبة : والمراد به تحرير عبد ذكر أو أنثى. ذلك أن أسرى الحرب قد يرى رئيس الدولة أن مصلحة الأمة في استرقاقهم فيسترقهم. فمن استُرِقّ يفقد حريته ويكون ملكا لصاحبه، في ذاته وفي ماله. وقد رغب الإسلام في تحرير العبيد، ومن ذلك جَعْلُهُ أحد ما يتم به تكفير اليمين.

من كان فقيرا وحنث في يمينه يكفيه للتحلل من الالتزام، ورفع الإثم عنه، أن يصوم ثلاثة أيام. يكفيه أن يصومها مفرقة، أو متتابعة.

وأما اليمين التي يقسم بها الحالف على خلاف الواقع، فهي يمين الغموس. تغمس صاحبها في النار، ولا كفارة لها إلا بالتوبة ورد ما استحوذ عليه، ظلما بواسطتها، لصاحبه. وبما أن السبق لليمين شارة من لا ثقة له بنفسه من ناحية، وأمارة ضعف التقديس الواجب لله تعالى بالتسرع في إدخاله في العلاقات، نبه القرآن : أن على المؤمن أن يحفظ لسانه عن الحلف، ولا يبادر بالقسم.

ويمتن الله على المؤمنين بأنه على هذا النحو من التوضيح والبيان يعلمهم ويربيهم، فلينتبهوا لنعمه ولا يغفلوا عنها، ويكون ذلك بشكر الله على نعمه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الميسر : نوع من القمار.

الأنصاب : حجارة تنصب للعبادة، أو لذبح القرابين عليها.

الأزلام : القداح التي يزعم المستقسم بها أنها تعرفه بحظه المستقبل.

الرجس : الخبيث المرفوض.

من عمل الشيطان : من تأثير الشيطان في النفوس.

يصدكم : يمنعكم.

توليتم : عصيتم.

بيان المعنى الإجمالي:

يفتح القرآن بصائر المؤمنين إلى ما في شرب الخمر، ولعب الميسر والقمار، من مفاسد، فهما من الخبث والقذارة بحيث ترفضهما العقول السليمة، وهما من نسيج الشيطان الذي يلف بهما على قلوب الماضين معه، إنهما مطية لتحقيق الشيطان ما عزم عليه من إهلاك الإنسان، وبهما يعمل على إغوائه ليخسر دنياه وآخرته، كما يتخذهما وسيلة لتمزيق وحدة المسلمين وإحلال البغضاء والعداوة محل الحب والأخوة. يحرك القرآن المؤمنين إلى الإقلاع عنهما إقلاعا لا عودة بعده، هو خط النهاية وقد تبين. فهل أنتم منتهون ؟ كما يذكرهم بالابتعاد عن آفتين كان لهما التأثير السيء الكبير في عقول أهل الجاهلية وهما: تقديس الحجارة المنصوبة بعبادتها أو التقرب بالذبح عندها. واستطلاع الغيب بأمارات وهمية لا صلة بينها وبين الغيب. ويأمر القرآن البشر جميعهم أن يطيعوا الله بفعل كل ما أمرهم بهم، والابتعاد عما نهاهم عنه، وأن يطيعوا رسوله كذلك، وأن يكونوا يقظين لصلتهم بالله فيما يفعلون ويتركون. وليعلموا أن من أعرض عن تنفيذ شرعه فإنه لا يضر إلا نفسه، وما كان الرسول إلا مبلغا لما أمر بتبليغه، وبيانه أتم بيان للبشر.

بيان المعنى العام:

90-يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر.....لعلكم تفلحون.

دعا الله المؤمنين بوصف الإيمان لينتبهوا إلى أن ما يلي النداء هو أمر هام محقق للإيمان، دعاهم ليتأملوا فيما نهاهم عنه.

نهاهم عن أربع :

1) شرب الخمر.
2) القمار بجميع صوره ومنها صورة الميسر التي كانت شائعة عند العرب.
3) تقديس الحجارة بالتقرب إليها أو جعلها وسيلة للعبادة كذبح الذبائح عندها.
4) طلب معرفة الغيب المحجوب عن الناس بما هو موهوم لا حقيقة له.

حرك القرآن في ثلاث مناسبات قلوب المسلمين وعُقولهم لتقويم ما في الخمر من مضار ستَرَها فتَعوّد الناس شربها، ومضى تحليلُها عند أهل الكتاب. ومراعاة لذلك، والله أعلم، تدرج في منعها. وكانت هذه الآية هي الآية القاطعة في الدلالة على تحريمها.

وقرن الميسر بشرب الخمر في آيتين من القرآن، وذلك لأن المجالس الخمرية كان يصحبها أكل اللحم المشوي، فإذا لم يكن ذلك حاضرا في المجلس الخمري، اشتروا

جزورا (واحدا من الإبل) يذبحونه ويشوون لحمه، ولا يأكل منه أهل الشهامة، ويُمكّنُ من لحمه الفقراء وأهل الحاجة. ويدفع ثمنه الذي خرج له السهم الخاسر كما بيناه في الآية -219- من سورة البقرة. وكان ذلك يعد من النبل والشهامة.

وحتى يقتلع القرآن ما طبعت به النفوس من عوائد في المجتمع الجاهلي، كان التحريم مؤكدا بالتصريح بأسبابه: أن الخمر والميسر رجس، أي خبيث ترفضه وتذمه وتكرهه النفوس الزكية. وما جرى عليه أمر الجاهلية هو أوهام لا حقيقة لها.

من عمل الشيطان : أي إن الشيطان يدبر، ويموه، ويستهوي النفس للإقبال على شرب الخمر وعلى لعب القمار، ليحقق ما يهلك به الإنسان.

91-إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم....منتهون.

إن أشد ما يفزع منه الشيطان أن يرى المسلمين متحدين متعاونين، تأكدت الأخوة في علاقاتهم. ولذا هو يعمل على أن يصل إلى تنفيذ شره بتمزيق تلكم الرابطة، فيحول الأخوة والتناصر إلى العداوة، والحب إلى البغضاء. والخمر يمكنه من ذلك عندما تغيب الرقابة على العقول والأرواح، والميسر يفتح له باب الحسرة في نفس الخاسر والنقمة على من قامره فغلبه واستولى على ماله.

إنه بالخمر والقمار يتمكن من إلهائكم عن ذكر الله فتَغلّف الغفلة قلوبكم وتستولي على مشاعركم، ولا تهتز أرواحكم لداعي الصلاة. فإن مجالس الخمر والقمار، يستغرق فيها الشاربون والمقامرون استغراقا يستولي على مشاعرهم، فإذا سمعوا دعاء الأذان لم يتحركوا. والغفلة عن الصلاة تمكين لشره من النفاذ إلى القلوب.

ويتوجه القرآن إلى المؤمنين يحركهم إلى الاستجابة بالإقلاع الكامل عن الخمر والميسر، مجسما لذلك بوضع حد النهاية الذي ليس بعده طريق.

والأنصاب هي الحجارة التي كان يعبدها بعض الوثنيين، ويتقرب عندها عدد غير قليل بالذبح عندها. والأزلام هي طريقة من طرق محاولة التعرف على الغيب المستور. وكلاهما هبوط بمنزلة الإنسان إما بتقديس حجارة لا تختلف عن بقية الأحجار إلا بوهم علق بالعقول فوهَن قدرتها على التمييز، وإما بجعل الصدفة المحضة دليلا على المستقبل الذي لا رابطة بينه وبين ما توسل به إلى معرفته. وكلاهما تمقته العقول المستقيمة وتذمه، وأيضا هما من مداخل الشيطان المضللة. وهذا التحذير مستمر إلى اليوم كالرجوع إلى العرافين الدّجّالة الكذابين، أو نذر القرابين وذبحها عند أضرحة من يظن صلاحه، تبعا لما نسجته الأخيلة وتداولته

الألسن أخبارا ترتفع في بعض الأحيان إلى مستوى أعلى مما أوتيه المرسلون من المعجزات.

92-وأطيعوا الله....البلاغ المبين.

قاعدة من القواعد التي يقتضيها الدين، ويؤكدها العقل، وقد يغفل عنها الغافلون، فيكرر القرآن التذكير بها، هي أن الله لما بعث رسله بشرعه فإن المقصود الأول هو أن يطيع الناس ربهم فيما أنزله إليهم، وأن يطيعوا رسوله المبلغ لرسالته.
والطاعة مستوى إنساني رفيع، إذ يلزم المطيعُ نفسه اتّباع الحق عن رضا يجد فيه لذته وينعم روحيا بجمال وجلال الطاعة. وتأكيدا للطاعة ينبه القرآن المؤمنين أن يكونوا على حذر من الغفلة عن التزامهم بالطاعة، هذه الغفلة التي هي أقوى منافذ الشيطان واستيلائه على النفوس.
ثم يعلن القرآن أن من عصى ربه ولم ينفذ أوامره ولم ينته عما نهاه عنه فهو الخاسر، ومهمة رسول الله ﷺ التبليغ، يبذل جهده ويتحمل ما يتحمل، لإيصال ما تلقاه من ربه إلى البشر مبينا واضحا لا شبهة فيه، وليس قاهرا للعباد على قبول ما يبلغه والطاعة لله.

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

جناح: إثم.
طعموا : أكلوا أو شربوا

بيان المعنى الإجمالي :

أثبتت الآية أن الذين ماتوا من صحابة رسول الله، وقد كانوا شربوا الخمر قبل البت في تحريمها، وأكلوا من لحوم الميسر، أثبت أنه لا إثم عليهم فيما تناولوه قبل التحريم، إذا تحقق فيهم الأركان الثلاثة التي هي عماد الفوز والنجاة: الإيمان الخالص، وتقوى الله بالابتعاد عما حرمه، وعمل الصالحات المأمور بها. وأن من كان منهم قد بلغ درجة الإحسان في عقيدته كما قال ﷺ : **(الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه)** فتوفر في قلوبهم هذا الاستحضار لجلال الله ورافقهم في عباداتهم،

وجوّدوا تنفيذ الخير عن محبة، هؤلاء المحسنون الذين ماتوا وهم على هذه الحالة يحبهم الله.

بيان المعنى العام:

93-ليس على الذين آمنوا جناح....يحب المحسنين.

الظاهر من هذه الآية أنها تؤكد ما أفاده قوله تعالى :(يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)[1] وقوله تعالى:(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم)[2].

فتكون الآية مفيدة لما تقرر من حل تناول الطيبات، وأنه لا إثم ولا لوم، ولا يتقرب إلى الله بالامتناع عن أكلها أو شربها، إذا كان المتناول قد حافظ على ما هو معتبر في الدين ومنوه به، وهو التقوى والإيمان وعمل الصالحات. فبهذه الثلاثة تقوّم منزلة الإنسان في صلاحه. الإيمان الذي هو اليقين وهو من متعلقات العقول، والتقوى التي تكون بالتوقّي والابتعاد عن ارتكاب المحرمات وبالقيام بالمأمورات. والتقوى تشمل عمل الصالحات، وعطف عمل الصالحات عليها لإبرازه اهتماما به، ثم أكدت الآية التقوى والإيمان، توجيها إلى إحياء الشعور بالإيمان ومقتضياته، والازدياد في التقوى التي لها مراتب، ثم أكدت الآية أمر التقوى وقرنته بالإحسان الذي هو مرتبة أعلى في فعل الخير، بالإتيان به على أكمل الوجوه وأحبها للنفس، ولذلك عقبه بقوله: (والله يحب المحسنين) ومحبة الله تعلق لعنايته بالمحسنين يتبعه حُظوة خاصة ينعم بها المحسنون.

ومعظم المفسرين حملوا الآية على أنه بعد أن حذر القرآن من شرب الخمر وما عطف عليه، وقبّحه وربطه بالانصياع إلى الشيطان، ثار سؤال في نفوس المؤمنين الصالحين، الذين كانوا حريصين على سعادة إخوانهم كحرصهم على سعادتهم، وهو ما هو وضع المؤمنين الذين ارتكبوا تلكم المنهيات قبل أن يموتوا، بل كان بعضهم توفي قبيل نزول الآية وما يزال الخمر ولحم الميسر في بطنه ؟ فنزلت الآية معرفة بأنه لا إثم عليهم فيما فعلوه قبل التحريم إذا تحقق منهم الأصول الثلاثة : الإيمان، والتقوى، وعمل الصالحات. وأن المحسنين منهم محبوبون عند الله.

---

[1] سورة البقرة آية 172

[2] سورة المائدة 87

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

ليبلونكم: يكلفكم ويلزمكم بأحكام الصيد، ولما كان في التكليف اختبار للمكلف عبر عنه بقوله :ليبلونكم.

بشيء من الصيد : أنواع مما يصاد.

تناله أيديكم ورماحكم : مصيد تتمكنون منه بأيديكم، أو برماحكم ، فعَمّ.

بالغيب: عندما لا يكون مشاهدا.

اعتدى: صاد غير عابئ بالنهي.

جزاء : عوض تأديبا وعقوبة.

ليذوق : ليحس ما يكدره.

وبال : السوء وما اشتد من المكروه.

متاع: ما ينتفع به مع لذة.

السيارة: المسافرون.

الحشر : الجمع يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي:

تحذر الآية المؤمنين وتنبهم إلى أن الله سيختبرهم بتعرضهم لفتنة، هي تكاثر الصيد حولهم، ما يمسك منه باليد وما يتم اصطياده بالرمح والسهم، عندما يكونون محرمين. وأن هذا الابتلاء سيظهر بعده في الوجود ما سبق علم الله به منذ الأزل. وحذر المتهاون المعتدي على الحرمة التي خص بها الحرمين بالعذاب الأليم.

ثم صرحت الآية بحرمة الصيد لمن كان محرما ولمن كان داخل الحرمين وإن لم يكن محرما.

من قتل صيدا عمدا آثم وعليه جزاء من النعم مثل الصيد يقدّر هذه المساواة خبيران عدلان.ومن قتله خطأ، عليه الجزاء ولا إثم عليه. ويساق هذا الجزاء إلى مكان الذبح بمكة. وللمتعدي أن يدفع بدل الجزاء من الأنعام طعاما، وصفة ذلك أن يقدر ثمن الجزاء بالمال، ثم يقدر المقدار الذي يشترى به من الطعام، ويتصدق به على الفقراء لكل واحد منهم مد. وكذلك حكم من قتل ما هو أحط من قيمة صغار الأنعام. كما له أن يصوم بدل جزاء النعم والإطعام، يوما عن كل مد.

والتأثيم وما صحبه من الجزاء، شرع ليحس المعتدي بسوء فعله. وتفضل الله على التائبين بقبول توبتهم، ثم حذرت الآية أشد التحذير من العود بما يترصد العائد من نقمة الله العزيز الذي ينفذ ما أراد، وليس ذلك لمطلق الانتقام بل إن ذلك هو ما تقتضيه الحكمة.

وفي المقابل بينت الآية التالية أن الله أحل صيد البحر للمحرم وغيره بيعا وشراء وأكلا، وامتن بأن طعام البحر فيه متعة للصائدين والمسافرين تجارا كانوا أو غيرهم. وأعادت التذكير بتحريم صيد البر للمُحْرم. وما يثبت المؤمن على ما يرضي الله هو استحضار التقوى في القلب، بما يصحب ذلك من اليقين بأن الجميع سيحشرون إليه، متساوين في الفقر في ذلك المشهد.

بيان المعنى العام :

94-95، يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم....والله عزيز ذو انتقام .

هذه الآية تفيد تكليف المؤمنين بأن لا يقتلوا صيدا في الحرم. فللحيوانات حصانة داخل حدود الحرم إلا ما استثني بالسنة.وذلك كالحية والغراب والحدأة والفأرة والعقرب والكلب العقور، وما يهدد الإنسان من الحيوانات المفترسة. وكذلك إذا أحرم المسلم بحج أو عمرة فإنه لا يقتل صيدا لا خارج الحرم ولا داخله.

إن هذا التكليف سيدخل به المؤمنون في حال الاختبار، وهو ما تحقق في عمرة الحديبية. ذلك أنهم وجدوا أنفسهم بالحديبية، والحيوانات التي من شأنها أن تصاد كثيرة حولهم، ما كان يمكن أخذه باليد مباشرة أو بما تعده اليد من شراك ونحوه، وما كان يتم أخذه برميه بالرمح أو السهم. وأن بعضهم كان محرما والبعض كان غير محرم، فكان هذا الوضع موقعا لهم في حال الاختبار. فالصادقون من المؤمنين تعففوا عن الصيد بما حل في قلوبهم من خشية الله المطلع على الخفايا (إن لم تكن

تراه فإنه يراك). وأما من تساهل واعتدى من بعد ما تقرر من تحريم الصيد على المحرم، فإنه عرض نفسه لعذاب أليم يلقاه يوم القيامة. وتحقق في الخارج ما كان الله يعلمه من الأزل، من اختلاف المبتلين، فهو يعلم من يتعفف ويخشى الله، ويعلم من يتساهل ويغريه تمكنه من الصيد فيصطاد. ولم يحدث شيء كان خفيا عن علمه سبحانه.

ثم أبرزت الآية التالية مع تفصيل ما أشارت إليه الآية السابقة (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) حكم الصيد للحرُم. والحرُم هو الذي دخل في الإحرام بحج أو عمرة كان داخل الحرم أو خارجه، ويطلق الحرُم أيضا على الموجود داخل الحرم المكي، وإن لم يكن محرما. وحكم كليهما واحد، وهو حرمة الصيد بما يشمله من أخذ بيض الصيد. والجزاء المترتب عليه. وأما الحرم المدني فإنه يحرم الصيد فيه ولا جزاء على الصائد. حكم من قتل الصيد فعلا، لا من جرحه أو قطع منه عضوا ولم يقتله: الحرمة وجزاء الصيد عقوبة عما فعل، ينتفع به ضعاف الحال، سواء أكل منه أو لم يأكل. فإن قتله خطأ فلا إثم عليه وعليه جزاء الصيد.

والجزاء، ما يماثل المقتول من النعم :الغنم والمعز والبقر والإبل. وقد اجتهد الفقهاء في تقدير المماثلة في الجزاء. وذلك مبسوط في كتب الخلاف وكتب التفسير. وقد رأيت أن لا أشغل القارئ بذلك تبعا للتحول البيئي والعمراني الذي حدث في الحرمين، إذ لا يكاد يوجد صيد داخل الحرم، ولا في طريق الحاج أو المعتمر. وما كان من بعض الحيوانات الصغيرة، فالمؤذي منه يقتل كالعقرب، وما كان لا يؤذي كالنمل والذباب والخنفساء، فهو محل خلاف، هل تجب فيه قبضة من الطعام أولا يجب فيه شيء ؟

ولنعد إلى الآية :(فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة) يعني والله أعلم أن من قتل ما يوجب الجزاء، فعليه أن يعود إلى أهل الخبرة في التّقدير، ممن اتّصف بالعدالة من المؤمنين، وعلى الحكمين أن يقوما بهذه المهمّة لكل من طلبها منهما . فيُقدّران أقرب شيء من الأنعام للصيد الذي قتل .

ما قُدّر بمثيله من الأنعام يذبح في الحرم. وبما أن التّنظيم العّام قد تكفّلت به أجهزة الدّولة، فالذّبح لا يكون إلاّ في مكّة في المكان المعدّ لذلك من الحكومة.

وللمعتدي بالقتل أن يطلب من الحكمين، تقدير ذلك بالطّعام. ومقياس تعديل الحيوان بالطّعام يكون بتقدير ثمن الجزاء من الأنعام، ويحوّل الثّمن إلى ما يشترى به من الطّعام ويعطي مدا لكل مسكين. كما له أن يطلب منهما، تقدير ذلك بالصيام. وهو مرتبط بتقدير الطعام، وقد

اختلف فيه : هل يصوم يوما عن كل مد أو عن كل مدين، وهل إن غاية الصوم عدد الأمداد، وإن تجاوزت الشهرين أو لا يتجاوز الشهرين ؟

فالجزاء على التخيير كما يقتضيه ظاهر الآية. ثم أبرزت الآية النقمة على قاتل الصيد وذلك : أن قاتل الصيد عوقب بما عوقب به وشدد عليه، ليحس بإثمه وسوء ما فعل. ثم هدد القرآن من لم يرتدع بالعقوبة المسطورة فعاد واعتدى في الحرم، أو بعد إحرامه قبل تحلله، أن الله سينتقم منه. وليحذر المؤمن من هذا التهديد، فقد وصله القرآن بأن الله عزيز ينفذ ما أراد وهو الغني عن المُعين، ينتقم حسب ما تقتضيه الحكمة من ردع المفسد على وفق ما قدم.

96-أحل لكم صيد البحر....إليه تحشرون.

ثم بين القرآن أن صيد البحر يختلف حكمه عن صيد البر، فافتتحت الآية بتعجيل الحكم (الحل). وما يصطاده الصيّادون من الحيوانات البحرية هو حلّ للصائدين، وحل للمسافرين الذين يشترونه منهم أو يتولّون اصطياده بأنفسهم فيتمتّعون بأكله، أو ينتفعون بنقله والاتجار فيه .

وأعيد التّنبيه على حرمة أكل الصّيد على المحرم. وفي حل أكل المحرم من الصّيد الذي لم يتول اصطياده خلاف وتفصيل. فبعض الفقهاء حرّم على المحرم أكل لحوم الصيد ما دام محرما مطلقا. ومنهم من رأى تحريم أكل ما اصطاده غير المحرم إذا كان قد قصد تقديمه إلى محرم، ومنهم من رأى أنه لا يحرم إلا ما اصطاده المحرم بنفسه، أما ما اصطاده غيره فلا يحرم عليه أكله سواء أهدي له أو اشتراه .

والأمر بالتقوى في خاتمة الآية مؤكد على المؤمنين تطبيق ما شرعه الله. ويزداد هذا التأكيد قوة بقوله تعالى : (الذي إليه تحشرون) فإبراز التذكير بالحشر مؤذن بأن البشر محاسبون يوم يجمعون لدى رب العالمين، فليكونوا يقظين مستعدين غير غافلين.

هذه إحدى معجزات التشريع الرباني، تبدو في أن الله شرع للبشرية قاطبة حمى للحياة في الحرمين، تحترم فيه حياة البشر والدواب والطير. وشدد على من تسول له نفسه انتهاك هذه الحرمة، وذلك لحكم يعلمها هو، ومنها أن الإنسان المستخلف في الأرض يجد صورة، إذا ما تأمل في عواقبها، اهتدى للنسج على منوالها وتعميمها، ليكون السلم عاما وشاملا لكل أجزاء المعمورة، ويستل من النفوس اندفاعاتها في حالي الغضب واللهو. إنه رواق الأمن يظلل الكائنات كلها حتى الشجر والنبات. ومن ناحية أخرى فإن انتشار الإسلام، بحمد الله في الأرض،

وتوافد المسلمين بأعداد كبيرة حجاجا وعمارا، يقتضي رعاية سلامتهم بالأمن الشامل، وفي قيام الصيادين باستعمال أسلحتهم ما يعرض حياة بعض قصاد الحرمين لخطر الخطأ.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكعبة : اسم علم على البيت الذي يطوف حوله الحجاج والمعتمرون.

البيت الحرام: البيت المعظم المهيب.

قياما: تقوم بها مصالح من كان حولها أو قصدها.

القلائد : ما يعلق على الهدايا في رقابها أو على ظهورها.

تبدون : أعمالكم الظاهرة التي لم تستروها.

تكتمون : الأعمال التي تخفونها عن أعين الناس.

الألباب : العقول السليمة العميقة.

بيان المعنى الإجمالي:

مكانة الكعبة مكانة متميزة، تم لها ذلك بجعل رباني. وهي البيت الحرام الذي لا تنتهك حرمته ولا يقع التعدي على ما حوله. وبها قام صلاح الناس الساكنين حولها أولا ثم صلاح البشرية بما أثرت في الساكنين حولها من أخلاق رفيعة بها انتشر الإسلام في العالم.

وبالهدايا التي تذبح للحجاج والعمار القاصدين الكعبة، يقوم أيضا أمر المساكين بما ينتفعون به من لحومها. وكذلك بما يعلّق عليها ويُقلّد في رقابها من ثياب وأحذية وأقمشة، التي تعطى للفقراء بعد ذبحها أو نحرها.

إن هذا الجعل العجيب يقوم دليلا على علم الله بالأمور في حاضرها وفي مآلاتها القريبة والبعيد ة،. فبهذا الجعل قام لكم دليل إضافي على علم الله الواسع الشامل.

ولتحذروا فإن الله شديد عقابه لمن يتعدى حدوده، واسع المغفرة لمن يخشاه ويسرع بالتوبة إليه.
ولا عذر لأي فرد في تجاوزه، فإن الرسول ﷺ قد بلغ، والله سبحانه يستوي في علمه ما تظهرونه وما تخفونه. ولتكن عقولكم موضوعية في نظرها، فإنه لا يستوي الخبيث والطيب، وإن كان الخبيث كثيرا، فالكثرة لا تقلب حقائق الأمور. وليتمسك بالتقوى أصحاب العقول الراجحة فالتقوى سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام :

97-جعل الله الكعبة البيت الحرام ....بكل شيء عليم.

إرادة ربانية وعناية إلهية خص بها الله الكعبة، فجعلها متميزة بما أثبته في القلوب والعقول والمشاعر من مهابتها وعظيم احترامها، واعتبارها ملاذا لا ينتهك. وقدر في هذا البيت ما يضمن للساكنين والمقيمين حوله ما يقوم به أمرهم وتتيسر حياتهم وإن كانوا في واد غير ذي زرع. لقد وقر في نفوس العرب احترام البيت وسكان الحرم، فكانت تجارتهم تذرع مسالك الجزيرة العربية آمنة لا يتعرض لها أحد.
وتجمع في أسواق مكة في القديم والحديث وفي كل الأزمان متنوع الثمار، ومختلف السلع حتى النفيسة والنادرة، وسجل القرآن النشاط التجاري لسكان الحرم في سورة قريش. وطبع النفوس على الشوق إلى الكعبة، فما زال الوافدون على البيت يتضاعفون مع الزمن، وينتفع مَنْ حولها بالأرزاق التي يصحبونها وينفقونها.
وحول الكعبة نشأ الرسول ﷺ ونشأ الصحابة الذين قاموا بنشر الإسلام في الخافقين، فكانوا بما استقر في نفوسهم من تعظيمها باعتبار أنها مؤسسة أقامها أبوهم إبراهيم الداعي للتوحيد، وسلمت فطرتهم فكانوا مؤهلين لقبول الإسلام والذود عنه وإبلاغه، فكانت قياما للبشرية جمعاء، بذلك الارتباط. ولم يقف كونها قياما للناس على ما تم من قبل، بل ما يزال ذلك يتضاعف مع الزمن، وإن الناس من كل أقطار الدنيا لتلتهب أشواقهم إلى هذا البيت، يجتمعون حوله حجاجا وعمارا، فتسمو أرواحهم، وتتقوى اللحمة الجامعة بينهم، ويتعمقون في كشف حاجاتهم ومشاكلهم. والبيت قيام للناس.

والله جعل بفضله ما هو من متعلقات البيت من الزمان، قياما للناس، في الأشهر الحرم، حيث يعم الأمن على الحياة وعلى الأرزاق. فالشهر الحرام، أشهر الحج : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وشهر العمرة : رجب. ومن توابع الحج الهدايا التي يسوقها الحجاج والمعتمرون ليذبحوها تقربا ينتفع بلحومها الفقراء. والهدايا يعلق

عليها القلائد من الثياب والنعال ونحوها، فتكون وهي تمر في مسالك المناسك معروفة لا يتعرض لها، وينتفع الفقراء بتلكم القلائد بعد ذبحها أو نحرها. إن ما ترتب على بناء البيت وجعله خالصا لعبادة الله الواحد الأحد وتخيره أن يكون في ذلكم المكان القفر، آية من الآيات الدالة على علم الله المحيط بكل شيء، يعلم ما في الأرض، ويعلم ما في السماء، وكلاهما مخلوق له يسيرهما حسب تقديره، ويجري فيهما من الأحداث ما يؤكد العلم الشامل الدقيق. فلو نظر الناظرون بقدراتهم العقلية وتجاربهم لما اهتدوا في زمن بنائه إلى الحكمة التي ترجح تخير الكعبة، لتكون البيت الحرام في ذلكم المكان، بل لكان حكمهم أن الساكنين حوله ينتهي بهم الأمر إلى الانقراض أو الفرار. فتطوّر الأوضاع من وقت البناء إلى اليوم الذي نعيش فيه وإلى المستقبل القريب والبعيد على النحو الذي تم ، وتحقّق كون البيت قياما للناس، ويزداد كل يوم به صلاح أمر الناس، كل ذلك قد أقام به الله سبحانه دليلا هاديا على علمه، وعلى أن علمه يشمل دقائق الأمور وعظيمها وتحولاتها منذ الأزل.

98-اعلموا أن الله شديد العقاب....غفور رحيم.

ختم ما لفت إليه الأنظار في الآيات السابقة من التشريع والتقدير المحكم والعلم الشامل، بأمر حرك فيه المخاطبين ليهتموا بمضمونه بقوله :(اعلموا) أنّ الله شديد العقاب لمن خالف أوامره، وأنه غفور رحيم لمن خشي الله فتاب بعد التقصير وطبق ما أمر به واتقى مولاه.

99-ما على الرسول إلا البلاغ....وما تكتمون.

ليس للمقصر أي عذر، فالرسول ﷺ مبلّغ عن ربه تقتصر مهمته على ذلك، وكل إنسان مسؤول بعد ذلك عما قدم. والله سبحانه مطلع على كل ما يفعله الإنسان من خير أو شر. يستوي في علمه ما يعلنه الإنسان وما يكتمه.

100- قل لا يستوي الخبيث والطيب....والله غفور رحيم.

ثم يعمد القرآن إلى تربية العقول على النظر بالاعتماد على الصفات المؤثرة في التقويم، وأن يسقط المؤمن من الاعتبار الصفات المبهرجة التي تذوب عند المراس وتسقط عند التأمل. فمن ذلك أن بعض العقول قد تتأثر بعامل الكثرة فترى الحق مع العدد الكبير من الناس. والكثرة أمر خارج عن المقومات التي تكون بها الأشياء حقيقية أو موهومة. فاعتقاد الكثرة الكاثرة قديما أن الأرض غير متحركة لا يعطي لهذا الاعتقاد أي مصداقية. وكون أغلب الناس ليسوا بمسلمين (وما أكثر الناس ولو

حرصت بمؤمنين) لا يعطي لعدم الإيمان أي قيمة من الحق. وقد حاول المشركون أن يؤثروا بكثرة العدد أنهم على حق، فجاءت الآية لافتة للأنظار، أن يتعمق الناظر في القضية التي يحكم عليها تبعا لما اشتملت عليه من خبث وفساد، أو ما تضمنته من حق وصلاح. وهما أمران يدرك الإنسان عدم مساواتهما بسليم فطرته. وإن الكثرة قد تلفت الأنظار في بعض الأحوال وتعجب الناظر، لكنها إذا كانت كثرة لا تمتد جذورها في الأعماق فهي كثرة زائفة زائلة.

وجماع الصلاح الذي يذكر به القرآن دائما ليكون نورا يضيء للمؤمن مسالك ودروب حياته، هي تقوى الله بما تشع في بصيرته من أنوار هادية، هذه التقوى التي يتمسك بها أصحاب العقول الراجحة السليمة، لأن بها يرجو المتقي أن يكون من الناجحين في حياته الدنيا والآخرة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

تسوؤكم : توقعكم في حرج.

البحيرة: هي الناقة التي ولدت عشرة أبطن، يشقون أذنها طولا، يكون ذلك علامة على كونها أصبحت مقدسة.

السائبة : هي الناقة أو البعير المنذور لحصول مرغوب أو دفع مكروه.

الوصيلة : الشاة التي ولدت سبعة أبطن، يجعلون السابع لطواغيتهم.

الحامي : الفحل من الإبل إذا نتجت من ظهره عشرة أبطن، يقدس كالبحيرة.

تعالوا : أقبلوا.

عليكم أنفسكم : احرصوا على صلاح أنفسكم.

بيان المعنى الإجمالي :

وثق المؤمنون بصدق رسول الله ﷺ، وبأنه يستمد من الوحي الحقائق الثابتة، فكان تبعا لذلك، أن بعضهم يسأله عن أمور الدين وعن أمور الدنيا، ما كان خاصا وما كان عاما. وفي ذلك إحراج له من ناحية، وإحراج حتى للسائل عندما يكون الجواب الحق يسوء السائل. فكان من عناية الله بالمؤمنين أن تولى تأديبهم في هذا الموضوع. فنهاهم أولا عن الإكثار من الأسئلة خاصة إذا كانت الإجابة تحتمل أن يتأذى منها السائل هو أو غيره. وثانيا أنه إذا كان موضوع السائل مما يعود إلى حسن إدراك للتشريع وللحقائق المتصلة به فإنهم إن سألوا ولم يكثروا فإن الله يجيبهم عند نزول القرآن، أو يتولى الرسول ﷺ الجواب. ونبههم إلى أن بعض التفصيلات عفا الله عنها ولم يذكرها توسعة على عباده وفضلا منه عليهم. وذكرهم بأن من الأمم السابقة من واصلوا التدقيق في الأسئلة حتى وقعوا في حرج ولم يستطيعوا تنفيذ ما وقع الجواب عنه وكفروا به.

وإذا كان الله قد حرّم مكة وميزها بجملة من التشريعات، وهو الذي جعلها كذلك، فإن المتنطعين من أهل الجاهلية حرموا أشياء، اتّباعا لخيالاتهم ولسوء عقيدتهم. فمن ذلك تحريم البحيرة، وهي الناقة التي ولدت عشرة أبطن، يشقون أذنها فتصبح بعد ذلك ترعى وتشرب من أي مكان، ولا تركب ولا تحلب إلا لضيوف الأصنام، ولا يجز وبرها، وإن ماتت أكل من لحمها الذكور لا الإناث. ومثلها السائبة : وهي التي وقع النذر بها على حصول محبوب أو زوال مكروه، فإذا تم للناذر ما أراد قطع قطعة من جلد فقار ظهرها وتأخذ أحكام البحيرة. وكذلك الوصيلة وهي الشاة التي ولدت سبعة أبطن فإن كان السابع ذكرا ذبحوه للطواغيت وإن كانت أنثى استبقوها للطواغيت. وكذلك الحامي، وهو الفحل الذي نُتج من ظهره عشرة أبطن، فيقدس كالبحيرة. فهذه كلها من افتراءات الجاهلية. ومعظم المطبقين لها من المقلدين الذين فسدت عندهم آلة التفكير. يدلك على ذلك أنهم إذا دعوا إلى التأمل في القرآن وإلى حضور مجالس الرسول ﷺ قالوا : كفانا المنهج الذي كان يسير عليه آباؤنا. عجبا لهم أيتعصبون فيتبعون آباءهم، ولو كان آباؤهم جهلة ضُلّالاً افلا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تتهموا أنفسكم بالتقصير لعنادهم وتعصبهم، والزموا رقابة صلاح أنفسكم، ولا يضركم تماديهم على الضلال إن اهتديتم بهداية الله التي منها الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر. كلكم، مؤمنكم وكافركم، ستعودون جميعا إلى حكم الله يوم القيامة فيكشف لكل عامل حقيقة عمله من صواب أو فساد.

بيان المعنى العام :

101-102، يا أيها الذين آمنو لا تسألوا....أصبحوا بها كافرين.

حضر الصحابة مشاهد الوحي، وتلقوا من آيات القرآن ما يبين الأحكام وما يطلعهم على ما أراد الله إطلاعهم عليه من المغيبات. وتحولوا إلى الطاعة، إلى قيادة أوتيت الحكمة ولها سند من الله العليم بكل شيء.ففتح لهم ذلك بابا لعرض أسئلتهم على رسول الله ﷺ، وتوسعوا توسعا تجاوز أمور الدين إلى قضايا الحياة، فالمسافر يسأل رسول الله عن نجاحه في سفره، ومن ضل له شيء من ماله قد يسأله وهكذا ، ودخل بسبب هذا الوضع كثير من المنافقين يلقون أسئلة لا يقصدون بها إلا إعناته. فنزل القرآن يوقف هذه الفوضى.

علمهم أن عليهم أن لا يكثروا من الأسئلة، فإن في إجابتهم عن بعض الأسئلة ما يوقعهم الجواب عنه في حرج. من ذلك ما روي في الصحيح أن عبد الله بن حذافة سأله : من أبوه؟ وكان بعض الناس يتهمونه في صحة نسبه فأجابه : بأن أباك حذافة. قد قالت له أمه بعد ذلك : ما سمعت بابن أعق منك. أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟[1] وسأله آخر عن منزلته يوم القيامة أو منزلة أبيه فقال له : في النار[2].

جاءت هذه الآية بعد التأكيد على أن النبي مبلغ عن ربه ما أمر بتبليغه، فهذه مهمته الشريفة التي يضطلع بها. وعرض قضايا خارجة، عن التشريع وعن العقيدة، وعن الأدب، وعن بيان سنن الله في الكون، ليس من مهماته. وإحراجُه ﷺ بإلقاء أسئلة عليه خارج دائرة الرسالة مناف لتوقيره من ناحية، وفيه خلط غير مقبول بين مقام الرسالة الهادية، وبين قضايا جزئية لا تفيد الجماعة ولا السائل إلا على نوع من الفضول، إن لم تَسُؤْه.

إنه من حكمة الله أن غيب على الإنسان كثيرا من جوانب حياته، بناء على أن قواه العقلية لا تتحمل أن ينكشف لها الغيب،، وذلك لأن معرفة الغيب تجعله تعيسا، فلو علم متى سيأتيه أجله، أو أن عزيزا عليه سيموت بعد شهر مثلا، أو أن حربا ستأتي على جميع مكتسباته، أو أنه سيفقد قواه العقلية في تاريخ كذا، هذا ومثله من

---

[1] فتح الباري ج18ص29

[2] نفس المصدر ص31

الغيب، الذي من لطف الله أنه لم يمكن الإنسان من معرفته قبل حدوثه. ومعرفته به قبل وقوعه مع عدم تمكنه من توقيه يجعله يقضي ما بين الأجلين في كرب شديد. فما ستره الله على الإنسان قد يكون فيه خير كثير في استقرار حياته. فإحراج الرسول ﷺ بالسؤال عن مثل ما ذكرناه لا يفيد السائل، بل قد يسوؤه. فلذلك نهوا عن مثل تلكم الأسئلة.

وتواصل الآية تفصيل ما يتعلق بالأسئلة. والمحور الذي يبدو لي أنه هو ما ينبغي ضبطه لإدراك نظم الآية، واستخراج معانيها، هو كلمة (أشياء) فكلمة أشياء وردت في صدر الآية منكرة (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوؤكم) وهذه قد بيّنتُ المقصود منها حسب ما ترجح عندي،

وأما ما ورد بعد ذلك من الضمائر فإنه لا يدل على موضوع الأسئلة التي وردت في صدر الآية، ولكن لكل موقع مدلوله حسبما تدل عليه موارد الشريعة ومبادئها، فإذا أبرزنا الضمائر يكون نسج الآية هكذا : وإن تسألوا عن أشياء حين ينزل القرآن تبد لكم، عفا الله عنكم في تلك الأشياء والله غفور حليم. قد سأل قوم من قبلكم أشياء ثم أصبحوا بالأشياء المسؤول عنها كافرين. إنه بحمل لفظ (أشياء) حسب هذه الخطة يكون معنى الآية هكذا والله أعلم:

أولا : نهت الآية عن الأسئلة التي فيها إعنات، أو تطلب معرفة الغيب، أو طلب كشف عما يسوء السائل الجواب عنه، وكذلك عن مختلف أنواع الفضول التي تحول مقام النبوة من الهداية العامة إلى إجابات عما يتعلق بأغراض دنيوية خاصة في أغلبها.

ثانيا: السؤال عن قضايا دينية وهي على نوعين :

بعضها فيه طلب للبيان عند حيرة المسلم في الموضوع المسؤول عنه، وقد تولى القرآن الإجابة عن بعض تلكم الأسئلة وتولت السنة بيان أسئلة أخرى. والرسول يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم. قال عبد الله بن عباس: ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن. وهذا ما يفيده قوله تعالى (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) تظهر لكم عند نزول القرآن بإجابته عنها. واعلموا أن ما سكت عنه الوحي ما كان عن نسيان ولكنه رحمة بكم وعفو من الله. روى الدار قطني بسنده إلى أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :إن الله فرض عليكم فرائض فلا

تضيعوها، وحدد لكم حدودا فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلفوها، رحمة بكم فاقبلوها[1].

والبعض الآخر فيه متابعة وتطلع لا تمس إليهما حاجة، وقد يترتب على الإجابة عن السؤال مشقة للمسلمين. روى البخاري بسنده إلى سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته[2].

إن مثل هذا التنقير والتتبع قد وقع في الأمم الماضية، وسلوكهم هذا تبعه التشديد عليهم، وانتهوا بكفر ما كانوا يتحرون أداءه على أكمل وجه تبعا لكثرة أسئلتهم.(قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) فإذا كان المأمور به واضحا، فلا تتنطّعوا وتنقروا عن الجزئيات المحددة التي كلما زادت ضاق مجال الاختيار على المكلفين، والله يريد بكم اليسر.

103-ما جعل الله من بحيرة...لا يعقلون.

إن ما ركز في نفوس العرب قبل البعثة من احترام الكعبة وما اتصل بذلك من الهدايا والقلائد، ليس من وضع الجاهلية، ولكنه من جعل الله كما بينته الآية السابقة. وهناك أمور أخرى كانت من وضع الجاهلية لا تمت للحق بسبب، نبه القرآن عليها، منها :

البحيرة: وهي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقّوا أذنها طولا، وقدست فلا تركب، وترعى وتشرب حيث شاءت لا تزجر. ولا يجز وبرها، ويختص بلبنها ضيوف الطواغيت. وإذا ماتت حتف أنفها حل لحمها للرجال دون النساء.

السائبة: البعير أو الناقة تجعل نذرا، فإذا تحقق ما نذر إليه قدس كالبحيرة. وكانت تقطع قطعة من جلدة فقار الظهر تكون علامة لها. وما تلده السائبة يكون مثلها.

الوصيلة: وهي الشاة تلد سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكرا ذبحوه للطواغيت، وإن كانت أنثى استحيوها للطواغيت، وإن أتأمت (ولدت اثنين) استحيوهما جميعا للطواغيت. ولقبائل العرب أعراف مختلفة في بيان المقصود من هذه المزاعم التي نفى القرآن أن يكون لها أصل من الحق.

الحامي: فحل الإبل الذي نُتِجَتْ من صلبه عشرة أبطن، فيقدس كما تقدس البحيرة.

بين القرآن بأوضح بيان أن هذه المذكورات من افتراءات وكذب الكفار لا أصل لها، ولا قداسة لها، كيف وهي تنتهي إلى التقرب للأصنام. وإن معظم الذين يقدسونها هم من المقلدين الذين لا يملكون العقل المميز.

---

[1] سنن الدار قطني ج 4 ص298

[2] فتح الباري ج18ص27

104 - وإذا قيل لهم تعالوا...لا يهتدون.

ومن عجيب أمر الكفرة، أنه إذا خوطبوا بدعوتهم إلى الإقبال بالاستماع والتدبر وإعمال الفكر في القرآن، وإلى حضور مجالس الهدي النبوي، أقبِلوا لتوازنوا بين ما أنتم عليه وما يدعوكم إليه الكتاب والرسول، كان جوابهم يدل على جمودهم وتعصبهم وصرحوا : بأنهم في غنى عن ذلك لأن ما ورثوه عن آبائهم كاف لهم في الاهتداء إلى الحق. عجيب أمرهم كيف وثقوا بآبائهم هذا الوثوق فانقادوا إلى سلوك مسالكهم، وإن كان آباؤهم منغمسين في الجهل، مغرقين في الضلال.

105-يا أيها الذين آمنوا عليكم....بما كنتم تعملون.

وإذْ بلغ العناد والجمود إلى هذا الحد، فإن الداعي لا إثم عليه إذا لم ينتصح المخاطب بنصحه وثبت على ضلاله، فقوله تعالى :(لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) يطمئن المؤمنين الذين ثبتوا على الحق وقاموا بما يمكنهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنهم وجدوا من مخاطبيهم آذانا صما، وعنادا مستحكما. وليس معنى ذلك أن المؤمنين غير مخاطبين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

و يتبع القرآن ذلك بتثبيت المؤمنين وتهديد المعاندين الضالين، بأنهم سيعودون إلى الله فيظهر لكل منهم القيمة الحقيقية لما كان يعمله في الدنيا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ (106) فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (107) ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (108)

بيان معاني الألفاظ :

ضربتم في الأرض : كنتم مسافرين.

أصابتكم مصيبة الموت : أشرفتم على الموت.
المصيبة: الحادثة التي تحل بالإنسان من شر أو ضر.
تحبسونهما : تمنعونهما من الانصراف.
إن ارتبتم: إن لم تقتنعوا.
لا نشتري به ثمنا: لا نستبدل بما شهدنا عليه عوضا.
عثر: اطلع.
الأوليان : الأحقّان.
أدنى : أقرب.
على وجهها :على الصفة الكاملة الواضحة.

بيان المعنى الإجمالي:

اعتنت الآية ببيان طريقة توثيق الوصية. وطريقة التوثيق تكون بإشهاد رجلين عدلين من المسلمين على الوصية، حسبما يمليه الموصي الذي أحس بدنو أجله، ويجب على الشاهد تحمل الشهادة وأداؤها عندما تطلب منه. وأنه إذا كان الموصي الذي دنا أجله على سفر ولم يجد من يُشهده على وصيته يسر الله عليه بتمكينه من إشهاد غير المسلمين.

وأن طريقة أداء الشهادة من غير المسلمين: أن يؤديا الشهادة في زمن قريب من الصلاة، وطريقة أدائها : أن يقولا: إن اتهمتمونا في الشهادة، فإنا نقسم بالله: أننا نؤدي الشهادة كما علمناها لا نحرفها ولا ننقص منها، ولا نستبدل بالأمانة التي حملناها أي ثمن مهما عظم، ولو كان الدافع مراعاة ذوي قرابتنا. وأننا نستشعر في بواطننا أننا نكون آثمين إن كذبنا.

إنه إذا تبين كذبهما واستحقا الإثم الذي ختما به شهادتَهُمَا، يقوم أولياء الموصي واحدا كان أو أكثر برد شهادة الشاهدين غير المسلين، ويكونوا الأحق بالوصية ويقسمون بالله: إن شهادتهم صدق حق، وأنهم ما اعتدوا على الشاهدين الأولين في تكذيبهما ورد شهادتهما، وإنهم يستشعرون الإثم الذي يرتكبونه لو لم يكونوا صادقين، إذ يكونون من الظالمين.

إن هذا التوثيق والتأكيد على الأولياء كما بينته الآية، يعتبر الطريقة الأقرب لضمان أداء الشهادة على الصفة الواضحة الصادقة البينة. ومن ناحية أخرى فإن خوف الأولياء من أن ترد شهادتهم فيفتضحوا، ويقوم غيرهم بالحلف ورد شهادتهم، عامل آخر يدفعهم للصدق. وتختم الآية بدعوة المخاطبين إلى التزام تقوى الله وأن

يطيعوا ربهم فيما يـأمرهم بـه. وليعلمـوا أن الله يحجـب هدايتـه عـن القـوم الفاسـقين الخارجين عن حدود الله.

بيان المعنى العام:

106 -يا أيها الذين آمنوا شهادة.....لمن الآثمين.

اعتنت هذه الآية بتوثيق الوصية. ذلك أن الإسـلام قـد راعـى فـي تشـريعه مـا يمكّـن صاحب الحق من الوصول إلى حقه، فشرع الإشهاد كمـا تقـدم فـي عقـود البيـع، وفـي عقود الدين في سورة البقرة. وإذا كان الطرفان في البيـع والـدين يمكنهمـا الـدفاع عـن حقوقهما وإظهار الحقيقة، فإن الوصية لا يوجد بعـد مـوت الموصـي إلا طـرف واحـد وهو الموصى له. ولذا كانت العناية والتفصيل لتوثيق الوصية في هذه الآية أتم.

وافتتحت الآية بدعوة المؤمنين علـى أن مـا سـيرد فيهـا مـن التشـريع يتحـتم علـيهم الحفاظ عليه وتطبيقه. وتركيب الآية وطولها يقتضـي مـن النـاظر فـي كتـاب الله أن لا يتعجل، وأن يتـابع تفصـيلاتها متـأملا. إذا ظهـرت علامـات قـرب المـوت، وأراد أن يوصي في ماله فعليه :

أولا : التوثق بالشهادة. الشهادة بينكم اثنـان متصـفان بالعدالـة مـن المسـلمين يشـهدان بما يملي عليهما المحتضر، ويجب عليهما تحمل الشـهادة وأداؤهـا عنـدما يطلـب منهمـا ذلك.

ثانيا : إذا كنتم مسافرين وحل بكم ما ينذر بقرب المـوت، وأردتـم الإيصـاء فـي مـالكم، فالحكم سواء. إلا أنه رخص في هذه الحالة أن تشـهدوا اثنـين مـن غيـر المسـلمين، إذا فقد العدول المسلمون. وأنهما عند أدائها يتخيـر الوقـت الـذي يـدليان فيـه بشـهادتهما، بأن يكون عقب الصلاة. وهل الصـلاة صـلاة الشـاهدين ؟ أي بعـد أن يقـوم الشـاهدان غير المسلمين بأداء صلاتهما علـى النحـو المشـروع فـي ديانتهمـا، ليكـون وضـعهما الروحي قد تهيأ للصدق، أو المراد بالصلاة إثـر صـلاة المسـلمين بقـرب، العصـر أو الظهر، وهو بعيد إن كـان الشـاهدان غيـر مسـلمين. يقسـمان علـى هـذا النحـو: إن ارتبتم في شهادتنا فإنا نؤكدها بالقسم بالله: لا نستبدل بـالحق الـذي نؤديـه كمـا سـمعناه، ولا نغيره، مقابل ثمن هو قليل مهما عظم، ولـو كـان الـثمن ولاء القرابـة (أي إنهمـا لا يقدمان صلة القرابة على الإدلاء بالشهادة كمـا تحملاهـا) ويضـمان أيضـا إلـى القسـم: ولا نكتم شهادة الله، أي لا نحذف شيئا مـن هـذه الشـهادة التـي نستشـعر أن الله شـهيد علينا يرقبنا في صدقنا، وإننا مستحضرون أيضا أنه لـو حرفنـا الشـهادة فـي أصـلها أو

بكتمان بعضها، فإننا نكون قد ارتكبنا إثما، على معنى أننا هيأنا أنفسنا للعقوبة من الله.

107-فإن عثر على أنهما استحقا.....لمن الظالمين.

إنه بعد هذا التشديد عليهما بتذكير أنفسهما بما ينتظرهما إن هما حرفا أو حذفا. بعد ذلك إن اطلع وتبين: أنهما لم يصدقا في شهادتهما وارتكبا إثم تزوير الشهادة، بأن استبدلا بالصدق ثمنا لأنفسهما، أو محاباة لقرابتهما، أو كتما بعض ما استشهدا عليه بطلت شهادتهما. والحل عند ذلك :

أنه يقوم رجلان اثنان، فيردان الشهادة التي تم أداؤها من ذينك اللذين تبين كذبهما ويعوضان تلك الشهادة الساقطة، ويكونان من الذين ذهب حقهما بالشهادة الباطلة، وهما الأجدران والأحقان بأن يقبل قولهما بعد تبين أن الشاهدين الأولين كذبا وحل عليهما الإثم. ويستحقان ما تم الاستحواذ عليه بالشهادة الأولى. وذلك بعد أن يقسما اليمين التالية :بالله إن شهادتنا التي ندلي بها هي الحق، وأننا ما اعتدينا على الشاهدين الأولين، يعني أننا رددنا شهادتهما وأقسمنا لأن شهادتهما كانت باطلا، ثم يؤكدان قسمهما بأنهما يشعران بثقل قسمهما هذا، وأنه لو لم يكونا صادقين في رد الشهادة الأولى لكانا ظالمين، بمعنى أنهما يستحضران في نفسيهما عقاب الظلم.

108-ذلك أدنى أن يأتوا الشهادة على وجهها....الفاسقين.

إن ما تقدم ضبطه وبسطه في صفة اليمين ومراعاة الزمان، ذلك أقرب وجه يترتب عنه أن يقدموا الشهادة بأدائها واضحة بينة صحيحة، بتحريك الوازع الباطني، وأمر آخر متوقع حاضر في نفوس الحالفين ثانية، وهو خوف الفضيحة، بأنهما لو كذبا فإنه ترد أيمان بعد أيمانهما ويفتضحان.

وختمت آيات الإشهاد على الوصية بالتذكير، كما هو شأن القرآن في تعقيب الأمر الهام الذي قد يلْوِيهْ بعضهم في التطبيق، التذكير بتقوى الله، التقوى التي هي الرقيب الداخلي على صدق المكلف في عمله، وقوّى مفاد التقوى بالأمر بالاستماع الذي معناه الطاعة. وقرن الأمر بالتقوى والطاعة بالتحذير من التهاون الذي يعقبه أن المتهاون يعتبر فاسقا، والله يحرم هدايته القوم الفاسقين الخارجين عن الحدود التي حددها.

<u>ملاحظة</u>: وَرَدَتْ صياغة الآية في قوله تعالى : (فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهما الأوليان فيقسمان....) في صورة التثنية آخران – يقومان – الأوليان – وهكذا...والظاهر، والله أعلم، أن مَردّ ذلك إلى الواقعة التي ارتبطت

بها الآيات، فقد كان وليا الموصي اثنين، فراعاهما القرآن في تسجيل التشريع في هذه القضية، التي تجري أحكامها في أمثالها لا على التثنية بل حسب قواعد الشريعة. فلو كان الولي واحدا حلف وحده، ولو كانوا جمعا حلفوا جميعهم.

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ

روح القدس : جبريل عليه السلام.

المهد : فراش الوليد إثر ولادته.

كهلا: الكهل من جاوز الثلاثين، وقيل الأربعين.

الأكمه : فاقد البصر منذ الولادة.

الأبرص : المريض بالبرص، داء جلدي كان علاجه صعبا.

تخرج الموتى : تحييهم بعد دفنهم في قبورهم.

كففت : حلت بينهم وبين الإضرار بك.

بيان المعنى الإجمالي :

مشهد من مشاهد يوم القيامة عرضه على الناس ليحذروا هول السؤال يوم القيامة. يسأل الله الرسل بما ذا أجابهم أقوامهم. ومع كامل الأدب يعترفون بأن علمهم قاصر، والله هو العليم العلم الكامل بما كان منهم. ويفرد القرآن عيسى من بين الرسل مصرحا بما خصه الله به في ذلك اليوم. يذكر عيسى بما أنعم به عليه في الدنيا. ويعدد من النعم : تأييده بجبريل منذ ولادته إلى أن بلغ سن الكهولة، وتعليم

الله إياه للكتابة والحكمة، والتوراة والإنجيل، وجمعه بين اليد الفنية القادرة على تصوير طائر من الطين، ثم يحيي بمجرد ما ينفخ فيه، وقدرته على رد البصر لمن ولد أعمى، وإبراء المصاب بالبرص، ويخرج من مات ودفن إلى الحياة من جديد، ورد مكر بني إسرائيل به عندما رموه بالسحر لما قدم لهم الآيات البينات على صدقه. وفتح قلوب الحواريين لرسالته فآمنوا بالله ربا وبالمسيح رسولا منه، بلغ بهم الإيمان من الوضوح والقوة أن أشهدوا الله الذي يعلم الظواهر والخفايا على حسن إسلامهم.

بيان المعنى العام :

109- يوم يجمع الله الرسل....علام الغيوب.

تتضمن الآية عرضا لمشهد من مشاهد يوم القيامة، ليكون عظة للناس، بتقرير موقف البشر في ذلك اليوم، وما سينكشف فيه. واذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل ليسألهم بقوله: ما ذا أجابتكم به الأمم التي بعثتكم إليها برسالاتي ؟ ويكون الجواب واحدا من جميعهم. قالوا : لا علم لنا إلا ما فتحت لنا من فضلك معرفته مبرزين قصر علمهم، وأن الله هو المتفرد بالجمع بين علم ما كان حاضرا وما غاب عن الناس. وهذا المشهد كما عرضته الآية يتضمن أمورا هامة:

أن هول هذا اليوم من مظاهره أن كل الناس مسؤولون عن أداء مهمتهم في الحياة، حتى المرسلون على علو منزلتهم عند الله. فليحذر كل مكلف من السؤال الذي يأتي على كل ما قدم الإنسان.

أن علم المرسلين باستجابة أممهم محدودة، لأنهم ما يعلمون إلا ما تصل إليه القدرة البشرية، وهي ظواهر. فمن أممهم من كان صادقا ومنهم من كان منافقا، ومنهم من بقي بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ومنهم من ولد بعد ذلك. وعلم كل ذلك لله وحده. وفي هذا الجواب إيماء إلى عدل الله في حسابه لأنه مبني على علمه الذي لا يغيب عنه شيء.

110-111، إذ قال الله يا عيسى ابن مريم.....بأننا مسلمون.

ثم تفرد الآية من المشهد العام محاورة بين الله وعيسى عليه السلام.

يفتتح الحوار بنوع من الاستئناس والتقريب، إذ يقول الله لعيسى عليه السلام : استحضر في نفسك نعمتي التي خصصتك بها :

1) لقد أيدتك بجبريل عليه السلام(روح القدس) صاحبك هذا التأييد من أول أمر. في بواكير صباك وأنت ما زلت في المهد فألقى الملك، روح القدس) على لسانك

الكلام الفصيح، فكان ذلك آية لك على ما أعددتك لـهُ مـن تبليـغ رسـالتي، وكـان ذلـك أيضا دحضا لما رماك به اليهود ورموا أمـك بـه. كمـا أيدتك عنـدما أصـبحت كهـلا فكان ما يجري على لسانك أرفع معنى وأكمل هداية من كلام الناس.

2) العلم الذي ملأ به عقله وروحه، فمكنه مـن معرفـة الكتابـة أو كتـاب مـن الكتـب التي نزلت قبل موسى.

3) الحكمة 4) التـوراة -5) الإنجيـل -6) إيتـاؤه القـدرة علـى صـنع تمثـال كأنـه الطير- 7) ثم نفخه في الطير فتسري فيـه الحيـاة -8) رد البصـر لمـن ولـد أعمـى -9)عودة السلامة لمن تمكن البرص من جلـده -10) رد الـروح للميـت فيخـرج مـن قبره حيا -11) حصنتك من بني إسرائيل وهـم يمكـرون بـك حتـى تمكنـت مـن أداء الرسالة وفزت ببقاء الدين الذي بشرت به، رغم رميهم لـك بالسـحر الـذي ينبنـي عليـه الحكم بالقتل حسب شريعة التوراة. وقـد تقـدم توضـيح ذلـك فـي سـورة آل عمـران (الآيات 12، 46 ، 50) ألقيـت فـي قلـوب الحـواريين الانفتـاح لاتباعـك وتأييـدك والإيمان بي وبك رسولا من عندي، إيمانا أسلموا بـه قلـوبهم وأرواحهـم لمـا يقتضـيه الوحي المنزل عليك، فاسـتقر هـذا المسـتوى فـي بـواطنهم فكـان مـا يجـري فـي مشاعرهم: أنهم رضوا بالإيمان وثبتوا عليه، وفـي خـواطرهم توجـه إلـى الله أن يشـهد سبحانه على هذا الإيمان والتأييد لعيسى عليه السلام.

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿112﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿113﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿114﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿115﴾

بيان معاني الألفاظ:

المائدة : هي الجهاز الخشبي عندما يوضع عليه الطعام مرتفعا على الأرض.

تطمئن قلوبنا : بالمعاينة الرافعة لكل حديث للنفس.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر طلب الحواريين من عيسى ﷺ : هل يستطيع الله سبحانه أن ينزل عليهم من السماء مائدة عليها الطعام؟ وما أجابهم به عيسى: أن عليهم أن يتقوا الله حق تقاته فذلك الذي تطمئن به القلوب، إن كانوا مؤمنين. رفعوا في إجابتهم كل ريب، وصرحوا بأن غايتهم من إنزال المائدة، أن يحصل لهم بركة وشرف الأكل من الطعام النازل من السماء، كما يحصل لهم بذلك طمأنينة المعاينة، ويجمعون إلى علم الاستدلال على صدقك علم المشاهدة، ويحظون من ناحية أخرى بشرف أن يكونوا على هذه المائدة من الشاهدين ، يبلغون ذلك لمن لم يحضر. أخبر الله عيسى بأنه سينزل هذه المائدة، وحذر الحواريين بأن من يكفر بعد نزولها فإن الله سيعذبه عذابا يفوق الوصف، ما عذب به في قسوته وألمه أحدا من العالمين.

بيان المعنى العام :

112-إذ قال الحواريون يا عيسى....مؤمنين.

بمناسبة تذكير عيسى ﷺ يوم القيامة بنعم الله عليه، التي منها أنه فتح بصائر الحواريين ليؤيدوه وينصروه ويعربوا عن صادق إيمانهم. بهذه المناسبة يقول الله لنبيه محمد ﷺ : اذكر ما جرى بين الحواريين وعيسى. طلب الحواريون من عيسى سائلين مع الأدب الكامل : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ وليس قولهم: هل يستطيع ربك ؟ شكا في قدرة الله، ذلك أنه قد تقرر إيمانهم في الآية السابقة، وشهد الله عليهم بذلك وسجل دعاءهم أن يجعلهم من الشاهدين. ولكن كمال الأدب مع القادر على الفعل أن يخاطب على هذا النحو. كما تقول للثري المعروف بالكرم: هل تستطيع أن تقرضني دينارا؟ وعبر القرآن عن طريقة في كلامهم تضاهي هذا الأدب في اللغة العربية.

وطلبوا أن تكون المائدة نازلة من السماء، وفيه إشارة إلى أنهم ما كانوا يسألون طعاما للشبع، وإنما سألوا معجزة ظاهرة للعيان.

تلقى عيسى ﷺ سؤالهم باستغراب. فأمرهم أن يلازموا تقوى الله، فتقواه سبحانه هي التي تفرغ الطمأنينة في قلوب المؤمنين، وأن لا يطلبوا خوارق العادة بعد ما تبين لهم صدقه بما رأوه من معجزاته ﷺ، وإذن فلا حاجة لطلب معجزة جديدة؛ لأن هذه سلسلة لا تنتهي.

113-قالوا نريد أن نأكل منها....من الشاهدين.

كان جواب الحواريين ما يأتي : قالوا :

أولا: نريد أن نأكل منها، فيدخل الطعام المبارك المطهر النازل من السماء في أحشائنا، وهو شرف عظيم يرجوه كل إنسان صالح.

وثانيا : تحصل في قلوبنا طمأنينة تطرد كل حديث للنفس، لما للمعاينة الحسية من ظهور وقوة.

وثالثا : لنَضُمَّ إلى علم الاستدلال علم المعاينة فنجمع بين العلمين.

ورابعا : لنكون على هذه المعجزة من الشاهدين عليها المبلغين لما حصل لمن لم يحضر.

114-قال عيسى ابن مريم....خير الرازقين.

إذ تبين لعيسى ما يمكن أن يترتب على استجابة طلبهم من خير، سأل ربه جامعا بين اسم الجلالة (اللهم) وبين اسم الرب (ربنا) بما يوحيه من عناية وفضل ورجاء للتكرم، فطلب منه أن ينزل على الحواريين المائدة التي طلبوها، ليكون ذلك اليوم يوما يذكرونه على أنه عيد الكرامة التي خصهم الله بها، يسير هذا العيد مع الزمن، يذكره من حضر ومن سيأتي. وألحق بدعاته أن يرزقهم من فضله، فإن رزقه سبحانه لا يصحبه منة ولا استرجاع ولا ينقص به من ملكه شيء، فهو خير الرازقين.

115- قال الله إني منزلها عليكم...أحدا من العالمين.

قال الله العظيم العلي : استجبت لطلبكم. وإني محذركم بأن من يكفر بَعْدُ منكم، فإنه يقدم على الحساب وقد ذهب كل عذر، فإني أنا الله سأسلط عليه عذابا يفوق كل عذاب سلطته على أي واحد من البشر.

طوى القرآن تفصيلات: هل نزلت المائدة أو لم تنزل؟ قال بعض المفسرين بأنها نزلت، وقال آخرون بأن الحواريين لما سمعوا التهديد خافوا وطلبوا من الله أن يعفيهم. وعلى أنها نزلت فما هو الطعام الذي كان عليها؟ عينه بعضهم بأنه خبز ولحم. والذي نجزم به أن ما طواه القرآن لا نتطلب كشفا وتعيينا له.

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا

تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الرقيب: الحافظ المراعي.

سبحانك : أنزهك عن ذلك.

ما في نفسك : ما في علمك.

الغيوب : جمع غيب، وهو المستور عن الناس.

بيان المعنى الإجمالي:

هذا هو المقصود الأعظم من المشهد العام الذي ألقي فيه الضوء بصفة خاصة على عيسى عليه السلام. سأله الله :أأنت قلت لمن بُعثت إليهم اتخذوني وأمي إلهين؟ وهو ما روج له النصارى حتى أصبح ركنا من عقيدتهم. كان جواب عيسى عليه السلام واضحا مرتبا على النحو التالي :نزه الله عن هذه المقالة، أنه لا يعقل أن يقول ما ليس له بحق. أكد النفي بأنه لو قال ما نسبوه إليه لتعلق علم الله به، وإذ لم يتعلق علم الله بتلك المقالة فذلك دليل على عدم صحة ما نسب إليه، إن الله لا يغيب عن علمه لا ظاهر ولا باطن.

أثبت أن ما بلّغه إليهم : هو ما أمره الله به: أن يعبدوا الله بصفته أنه رب عيسى وربهم.

وأنه كان شاهدا عليهم عندما كان حيا، ثم إنه بعد أن توفاه الله ورفعه إليه، فإن الله هو الرقيب على أقوالهم وعقائدِهِمْ وأفعالهم. شأنهم شأن بقية الخلائق. ثم أعلن عن تفويض الأمر إليه في جزائهم، فإن عاقبْتَهُم فهم عبادك خاضعون لعدلك، وإن تغفر لهم فإنك العزيز القدير على المغفرة، وأنت الحكيم فتنزل العقاب أو تغفر تبعا للحكمة البالغة.

بيان المعنى العام:

116- وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم...علام الغيوب.

يواصل القرآن الخطاب الذي خص به عيسى عليه السلام يوم القيامة. يوم يجمع الرسل. يقول الله: يا عيسى أأنت الذي قلت لأتّباعك: اتخذوني وأمي إلهين سوى الله. وفي هذا التقرير لعيسى تصريح بإبطال ما يزعمه رجال الدين النصارى من أن الله حل في عيسى وأمه، ذلك أنه إذا انتفت الوحدانية انتفت الألوهية، لأن الإله لا يكون إلا

واحدا، إذ الاشتراك في الألوهية نفي لها، لما يقتضيه من عجز كل شريك عن تحقيق مراده، فلا يكون إلها.

الإجابة التي ستكون من عيسى في ذلكم المشهد متضمنة :

أولا : أنه قبل أن ينفي عن نفسه هذه المقالة بادر بقوله : سبحانك، أنزهك عن هذا تنزيها تاما. فابتدأ بنفي هذا الزعم من النصارى المناقض لمفهوم الألوهية.

ثانيا: ثم نفى أن يكون قال هذه المقالة، بدليل أنه لا يتأتى منه أن يقول كلاما باطلا ليس بينه وبين الحق صلة.

ثالثا: أن ما اتهمتُ به محض افتراء، ودليلي على هذا أني لو قلته فقد علمت ذلك، لأن علمك يا ربي محيط بكل شيء، فلما لم يعلم الله أن عيسى قال هذه المقالة، كان ذلك دليلا على اختلاقها وأنه لا أصل لها.

رابعا : حقق علم الله بكل ما صدر منه، بأن الله محيط علمه بما يجري في نفس عيسى فضلا عما يقوله ويصرح به. على معنى أن هذه المقالة لا يتصور أن تجري في نفسه فضلا عن التصريح بها. وأدمج في كلامه عجزه عن الإحاطة بما في علم الله. وهو معنى(ما في نفسك) أي ما في علمك.

خامسا : أضاف دليلا آخر لنفي ما رمي به، أنه موقن بأن الله عليم العلم الكامل الشامل المحيط بكل غيب. وهذه المقالة من الظاهر فهي أولى بالنفي.

117 - ما قلت لهم إلا ما أمرتني.....على كل شيء شهيد.

بالغ عيسى في التبرؤ من هذه التهمة لأنها صدرت من محبيه ومتبعيه وزوّجَ لها حتى أصبحت الركن في العقيدة المسيحية.

والقاعدة في التبرؤ من أي تهمة أن يعمل المتهم أولا على نفيها، ثم يعقب بتثبيت الأمور التي تناقض التهمة، وتزيد في نفيها ونصاعة براءته منها. فصرح بأوضح بيان عما بلّغه لقومه وما أمرهم به. فقال : ما قلت لبني إسرائيل إلا النص الذي تلقيته منك [أن اعبدوا الله ربي وربكم] وهو نص واضح لا احتمال فيه، لا يقبل التبديل أو التغيير.

ثم ترقى عيسى في الجواب إلى إبراز حقيقة أخرى: إني كنت شاهدا على من بعثتني إليهم يوم كنت بين أظهرهم حيا، فلما توفيتني ورفعتني إليك، انقطع ما بيني وبينهم، وأصبحوا تحت رقابتك، لا يمكن لي أن أعرف ما بدلوا ولا أن أؤثر في صلاحهم، وهم غير محجوبين عن رقابتك، فأنت الشهيد على جميع الأشياء.

118 -إن تعذبهم فإنهم عبادك...العزيز الحكيم.

وبعد أن برأ عيسى نفسه من المقالة الباطلة، وقد مكنه الله في ذلك اليوم بأن يبين الحقيقة نفيا وإثباتا كما قدمناه، فوض الأمر إلى الله في جزاء الذين رموه بما رموه به. فقال: إن تعذبهم بما افتروا وكذبوا، فإنهم عبادك ماض فيهم حكمك ولا راد لما به تقضي، وإن تغفر لهم فإنك المتصف بالعزة تقدر على المغفرة كما تقدر على العذاب، وأنت الحكيم فيما تختاره، فما تنفذه هو الصواب.

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ

الصادقين : في عقيدتهم وأقوالهم وأفعالهم.

رضوا عنه : رضوا بما آتاهم من فضله، فلا يطمحون لأكثر مما أوتوه.

بيان المعنى الإجمالي :

يقول الحق وقوله الحق: هذا يوم متفرد، يوم ينفع الصادقين ما صدقوا الله عليه من العقيدة والفعل والقول. يكرمهم الله بجزائهم : جنات تتخللها الأنهار، لا يخشون انقطاع أي نعيم منها، ورضا من الله عليهم، ورضاهم بما آتاهم من فضله، فلا تطمح نفوسهم لشيء آخر. إنه الفوز الذي بلغ من العظمة ما ليس بعده من مزيد.

وذلك بالنسبة لعطاء الله يسير، لأن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض وما يعمرهن من تافه الأشياء وعظيمها، ولا غرابة في ذلك فقدرة الله لا تحدها حدود ولا يخرج أي شيء عن سلطانه.

بيان المعنى العام :

119-قال الله هذا يوم ينفع الصادقين...الفوز العظيم.

ينتهي المشهد بإعلان الله الحقيقة التي غابت عن كثير من الناس في الدنيا، في هذا اليوم يوم القيامة والرسل مسؤولون فضلا عن غيرهم يعلن الله هذه الحقيقة: إنه لا يفوز إلا الصادقون، بما يشمله الصدق من الصدق في العقيدة، باعتقاد ما هو حق يقتضيه العقل والوحي، والثبات عليه ثباتا لا يزعزعه شك ولا ارتياب. والصدق في العمل من العمل الصالح الذي لا يخفي منه العامل وجها غير مشرف، فلا غش ولا خديعة ولا تلبيس ولا تغرير. والصدق في القول فلا كذب ولا تلبيس ولا فحش.

في هذا اليوم يجد الصادقون جزاء صدقهم. يجدون سعادة مادية فيما أعده الله لهم من جنات تتخللها الأنهار، لا يخشون فراقها أو انقطاع نعيمها. ويجدون سعادة روحية متمثلة في إحساسهم بأنهم قد فازوا برضا الله عنهم، وأن نفوسهم قد امتلأت رضا وبهجة بما نالوا، فهم لا يرقبون وراء ما توفر لهم أي شيء. وكأن القرآن يطبع العرض بكلمة خاتمة هي جماع ما توفر لهم : ذلك الفوز العظيم.

120 - لله ملك السماوات...على كل شيء قدير.

هذا وقد آذنت السورة ببلوغ نهايتها، بإعلان الله أن هذا اليوم هو اليوم الذي يبلغ فيه الصالحون غايتهم. ختم القرآن السورة بأن الله متفرد بملك السماوات والأرض وما يشمله هذا الكون مما أدركه الإنسان ومما خفي عليه. ولا يهولنك عظم هذا الكون الذي تبلغ أبعاده السنوات الضوئية، فإن الله قدير لا تحد قدرته ولا يعجزه شيء. خضع الكون بما فيه لله رب العالمين. وإذا اعتمدنا أن هذه السورة هي آخر ما نزل من القرآن فقد عانقت هذه الخاتمة فاتحة الكتاب : الحمد لله رب العالمين.

سـورة الأنعـام

هذه هي السورة السادسة حسب ترتيب المصحف. نزلت بمكة على رسول الله ﷺ ، والسور الخمس السابقة: الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، تلقاها بعد الهجرة. وحسب تاريخ النزول العام للمصحف عدت السورة الخامسة والخمسون، نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات.

اسم هذه السورة: لها اسم واحد هو سورة الأنعام. وقد ذكر لفظ الأنعام فيها ست مرات. والراجح عند المفسرين، أنها نزلت على رسول الله ﷺ جملة واحدة، فانفردت بذلك بين طوال السور. روى الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة ، يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتّحميد [1].

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

يعدلون: يسوون بالله غيره.

قضى : وفّى كل إنسان عمره كاملا.

أجل مسمى عنده : يوم البعث.

تمترون : تشكون.

معرضين :منصرفين عنها، يرفضونها مقدما قبل النظر.

أنباء : جمع نبأ. وهو في الآية بمعنى: الخبر الهام المحقق مضمونه.

---

[1] الدر المنثور 3 ص4

بيان المعنى الإجمالي :

سجلت الآية أن الحمد الكامل لله وحده، فهو الحقيق بالثناء، هو الله الذي خلق السماوات والأرض فقدرها على أكمل تقدير في كل جزئية من جزئياتها، وفي علاقاتها فيما بينها، وهو وحده سبحانه الذي رتب الكون على نظام فمما رتبه، أن جعل الظلمات والنور، يخلف النور الظلمة في النواحي المادية، وفي الحاصل الإيماني. فالأنبياء ينيرون للبشرية طريق الهدى بعد ظلام الشرك والحيرة. ومن العجيب أنه رغم هذه الأدلة الواضحة على أنه لا شريك لله في هذا الخلق، فالذين كفروا يسوون بين الله وبين آلهتهم.

والله وحده هو الذي خلقكم من طين، ثم إنه وقّى لكل كائن أجله لا يزيد عنه لحظة ولا ينقص عنه لحظة، ثم إنه قدر أن جميع الخلائق ستحشر إليه، وبعد كل هذه الحقائق يشك من يشك في نفا ذ قدرة الله في الخلق كله ! هو الله في السماوات يصرفها بمحكم تقديره، وكذلك في الأرض. لا يخفى عنه شيء من أسراركم ولا أعمالكم، فهي مكشوفة عنده على حقيقتها سيجزيكم الجزاء العدل عنها.

إن المشركين قابلوا الآيات البينات التي جاءتهم من الله مؤيدة لرسوله، قابلوها بالإعراض عن التأمل فيها أو الإفادة منها، عنادا واستكبارا.

إن الله سيحاسبهم على تكذيبهم حسابا يعرفون به عاقبة ما اختاروه لأنفسهم، من أخذ آياته مأخذ الاستهزاء وعدم الجد.

بيان المعنى العام :

1-2: الحمد لله الذي خلق.....ما كانوا به يستهزئون.

واجهت الآيات الأولى من سورة الأنعام الذين كفروا.

1-أولا: افتتحت بهذه الجملة العظيمة (الحمد لله) وهي تفيد اختصاص الله بالثناء على كمالاته، فلا يستحق أحد الثناء الكامل إلا الله وحده. والحمد أشرف من المدح، لأن المدح يكون للعاقل وغيره كالطير والحيوان والمناظر الجميلة، فقد تمدح طائرا لجماله، وبقرة لغزارة لبنها، ونحو ذلك. والحمد أدل على العبودية من الشكر، لأن الشكر يكون كفاء النعم التي رزقها الشاكر، والله مستحق للحمد على كمالاته دون نظر لما يسّره للإنسان الحامد من فضله.

له الحمد وحده سبحانه وليس للآلهة التي تعلق بها المشركون أي استحقاق للحمد، فهي على اختلاف تصور عُبّادها عاجزة عن التدبير والفعل.

الله هو الذي خلق السماوات والأرض، بما يفيده الخلق من إيجاد أعيانها، وما أودع فيها من قوانين، بها تم الخلق واستمر على أكمل صورة وأفضلها. وخص الأرض بالذكر لأنها أقرب للإنسان الناظر تبعا لاستقراره وحياته فيها. فملاحظته للإبداع والنظام أقرب وأوضح. ولفت النظر لما رتبه على نظام الكون سماوات وأرضه، من الظلمات والنور. لأنك إن نظرت إلى عظم أجرام الكواكب والحكمة في خلقها، أو نظرت إلى ما يعرض لها من ظلمات ونور، في الحالتين تقر بأن الحمد لله وحده.

-وعجب أمر الكافرين الذين يسوون بالله غيره، فيتخذون لأنفسهم آلهة، مع أن أدنى نظر ينفي عنهم أن يكون لهم أي تأثير لا في أنفسهم ولا فيما حولهم.

ثانيا : أبرزت أمرا آخر عظيما يجري على كل إنسان، هو انتقال الإنسان في مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى: هي الخلق الأول الذي أبدع الله فيه الإنسان من الطين إلى أن بلغ بشرا سويا.

المرحلة الثانية :أنه وفّى لكل إنسان أجله فلا يستطيع أن يمد في عمره لحظة (ثم قضى أجلا). ثم إن هذه البشرية جميعها سيبعثون في لحظة معلومة عنده(وأجل مسمى عنده)

ثالثا: واجه المشركين بإظهار غباوتهم، إذ كيف يشكون في البعث الذي ينادي أصل الخلق بإنشائه من عدم على إمكانه، وكذلك إفناؤه في ذاته وفي الأعراض المتصلة به. والإنسان واحد من هذا الكون وجد ثم يفنى، وفي كل لحظة من وجوده تفنى أعراض متصلة به وتخلفها أخرى وهكذا. فالتأمل في هذا القانون العام يكشف للمتأمل تحقق ما أخبر الله به من أمر البعث.

3-وهو الله في السماوات...تكسبون.

رابعا: أكد تفرده بالألوهية في السموات وفي الأرض. إن ظاهرة جريان الخلق على سنن ثابتة في السماء والأرض، هو الذي مكن الباحثين من الوصول إلى القمر وإلى سبر غيره من الكواكب. ولو كان الخلق غير مستند إلى واحد في الجميع لما أمكن أن يحصل أي تقدم علمي خارج الأرض. وهذا النظام المحكم الواحد دليل على العلم الكامل والحكمة. إن هذا العلم كما نشأ عنه ذلكم النظام، فإنه من ناحية أخرى ينفذ إلى البشر، فالله يعلم سرهم كعلمه بعلانيتهم، أي إنه يستوي في علمه ما يكتمه الإنسان وما يظهره. ويعلم سبحانه مقاصد البشر من أعمالهم وما يكسبونه

بإرادتهم، وإن ستروها وغلفوها بما يضلل الناظرين من البشر إليها، ولكن علم الله نافذ إلى الحقيقة.

وفي التذكير بهذه الحقيقة إشارة إلى ما يرتبه الله بعدله على عمل الإنسان من ثواب أو عقاب.

4-وما تأتيهم من آية....معرضين.

خامسا: سجل القرآن عنادهم فكلما بلغتهم آية من آيات الله الدالة بوضوح على صدق الرسول، سواء أكانت من الأمور الخارقة للعادة التي أيده بها، أم كانت من آيات القرآن المعجزة، أم من أخبار الغيب التي تنادي بصدقه، كان موقفهم واحدا، هو عدم التأمل منها، ورفض أن ينظروا فيها، والإعراض الكامل عنها كأنها لم تبلغهم.

5- فقد كذبوا بالحق لما جاءهم...يستهزئون.

إن الحامل لهم على هذا الرفض هو تصميمهم على التكذيب، كذبوا بالحق البين عنادا، وقد جرت سنة الله في المكذبين عنادا أنه يجزيهم الجزاء الماحق، وهؤلاء سوف يسري عليهم ما سلطه الله على الذين يقابلون آيات الله بالاستهزاء. فينكشف لهم بجزائهم عن عنادهم ورفضهم، واستهزائهم به صدق ما سخروا منه.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرن: الأمة التي دامت طويلا.

مكناهم : ثبتناهم. ملكناهم ما تصرفوا به.

السماء : المطر

مدرارا : لا يخلف نزوله في أوقات الحاجة إليه.

الإهلاك : الإفناء.

القرطاس : ما يكتب عليه من جلد أورق أو كاغد، ونحو ذلك.

الإنشاء : الإيجاد المبتكر.

للبسنا :اللبس اختلاط يترتب عنه عدم التمييز.

الاستهزاء : السخرية.

حاق : أحاط.

العاقبة : المآل.

بيان المعنى الإجمالي:

تحض الآية على الاعتبار بما وقع للأمم السابقة التي علموا أخبارها ورأوا آثارها شاهدة على المستوى الحضاري الذي بلغوه. فقد أسعدهم الله بما ثبتهم في ما ملكوه من الأراضي، فأحسنوا القيام عليها إحسانا لم تبلغوا مثله، وسخر لهم الظروف المناسبة لنماء الزرع والغرس، وكانت الأنهار تتخلل أراضيهم تنشر البهاء وتضاعف الخصب، فتصرفوا في حياتهم بالفساد والخروج عن حدود الله، فأبادهم الله بسبب ما اقترفوه من آثام. ثم إن الله استبدلهم بأقوام آخرين يواصلون عمارة الأرض.

ثم صور القرآن عناد المشركين بأن الله لو نزل عليهم كتابا مسجلا على قرطاس، وتثبتوا فيه وجمعوا لحاسة البصر حاسة الاختبار باليد (اللمس) فانتفى كل أثر للريبة والشك، لاستمروا على الرفض، وقالوا: إن هذا إلا سحر واضح بين.

وطلبوا تعنتا من رسول الله ﷺ أن يصحبه ملك يؤكد أنه مرسل من الله. ومن غبائهم وضلالهم أنهم لم يقدروا ما يترتب على ذلك، فإنه لو أنزل ملك كان ذلك ملْجئا لهم فانتهى أمر التكليف. ومن ناحية أخرى إن ما رزقه الإنسان حسب تكوينه لا يمكنه من إدراك الملائكة، فلو أنزل الله ملكا ما استطاعوا إدراكه إلا إذا تشكل بشكل إنساني ، وعندها لا يتحقق إلا استمرار الاختلاط عليهم.

ثم هون الله على رسوله ما يلقاه من عناد وإصرار الكافرين، فذكره بأن ذلك هو سنة المتمردين من البشر مع رسلهم، أنهم لا يأخذون الهدى مأخذ الجد، ولكن مأخذ السخرية والاستهزاء، وأن سنة الله فيهم أنه يحيطهم بعاقبة سخريتهم، فيبيدهم إبادة ماحقة. قل لهؤلاء الكفار سيروا في أرض الله، وتأملوا في عاقبة الأمم السابقة التي كذبت رسلها. بذلك تستطيعون أن تقفوا على الآثار الكاشفة عن مصير المكذبين لرسلهم. فإن سنة الله واحدة في الإمهال وعدم الإهمال.

بيان المعنى العام:

6-ألم يروا كم أهلكنا..آخرين.

هذه الآيات تتابع فيها لفت الأنظار إلى الأدلة الشاهدة على تفرد الله بالتصرف في الكون، وإقامة الحجة على عناد الكافرين، وإعراضهم عن آيات الله.

تفتتح الآيات بتوجيه سؤال ينكر به القرآن على الكافرين، على معنى أنهم أبصروا بعيونهم، وعلموا علم اليقين من الأخبار التي شاعت واعتقدوها، عاقبة المفسدين الكافرين، لقد سلط الله عذابه على الأمم التي يسر الله لهم الأسباب، فأقدرهم على عمارة الأرض التي ملكوها، فعمروها وكانت لهم خبرات أرقى من خبراتكم فتصرفوا تصرفا أفضل مما تتصرفون به فيما بين أيديكم، ويسر لهم استخراج الخيرات المودعة فيها بما لم تبلغوا مثله، ورتب سبحانه بفضله ترتيبا جعل السحب تنهل عليهم بالغيث النافع بمقدار ما تدرك به زروعهم وتثمر أشجارهم، دون خوف من جدب يذهب بمحاصيلهم الزراعية.إن وفرة الري قد اختزنت منها طبقات الأرض ما درت به العيون وانسابت منها الأنهار الجارية. لقد كانت كل مظاهر الحياة الدنيا معلنة عن قوة تمكنهم وتواصل حياة الرفاه لهم. ولكن فسد سلوكهم وتراكمت آثامهم، فسلط عليهم ما أهلكهم وقطع دابرهم، وذهب بالنعيم الذي يسره لهم جزاء كفرهم وسوء أعمالهم. وذلك حسب سننه في الكون.

وتحقيقا لما قدره سبحانه من عمارة الأرض ببني الإنسان، فإنه لما أباد الآثمين أنشأ من يخلفهم ليواصلوا خلافة الإنسان في الأرض.

وفي هذه الآية تهديد للمشركين أن سنة الله في الخليقة، أنه كلما عتت أمة بعد ما مكنها الله منه من القوة وسعة الرزق، أنه سيفنيها ويذهب بحضارتها وتنقلب أثرا بعد عين.

وفي إنشاء الأمم الصالحة لتخلف الأمم الفاسدة بشارة للأمة الإسلامية، وهي ما تزال في مبدأ أمرها، أن الله سيمكن لها في الأرض ويعلي شأنها. وتنبيه إلى أن حصانة الأمم مرتبطة بصلاح سلوكها في الحياة.

7-ولو نزلنا عليهم كتابا.....سحر مبين.

ثم أكد القرآن تأصل العناد في الكافرين، فكما أنهم لم ينظروا في سنن الكون ولم يتعظوا بفناء الحضارات عندما يفسد أصحابها، فكذلك يحملهم عنادهم على إنكار المحسوس. والصورة التي عرضها القرآن تتمثل في أنه لو أنزل الله عليهم من السماء كتابا، مسجّلٌ كلماتُه على القرطاس، ثم اختبروه بأيديهم ليجمعوا بين الإحساس البصري واللمس، ذلك أن الأبصار قد تخدع، أما مع اجتماع الإدراكين النظري واللمسي فلا مجال للمغالطة. ولكنهم لفرط عنادهم يقولون إن هذا سحر وقلب للحقائق بين.

8- وقالوا لولا أنزل عليه ملك.....ثم لا ينظرون.

تتوالى الصور الفاضحة لعناد الكافرين. قالوا لمحمد ﷺ : لولا أنزل الله عليك ملكا يكون معك، حتى نستيقن أنك مبعوث منه. وظنوا أنهم أعجزوه، فرد القرآن عليهم كاشفا ضعف تفكيرهم، وعدم نباهتهم.

أولا :إن الله لو بعث ملكا فأول ما يترتب على ذلك أن ينقلب الاختيار الذي بنى الله عليه أمر الحياة الدنيا، إذ يكون الملك ملجئا لهم، وينتهي التكليف، وينتهي تبعا لذلك تمكين الإنسان من النظر فيعجل له جزاء إعراضه.

9-ولو جعلناه ملكا.....ما يلبسون.

ثانيا : أن إدراك البشر الحسي لا يتم إلا إذا كان المشاهد قد توفرت فيه قوانين الرؤية من الجسمية، وانعكاس الشعاع، وسلامة الحاسة الخ، فالبشر لا يقدرون على إدراك صورة الملائكة، ولذا فإن ما طلبوه من رؤية ملك مصاحب للرسول لا يمكن إلا إذا تشكل الملك في صورة رجل، ولو كان على شكل رجل لحصل الالتباس عليهم كما حصل في الأول فيشكون في صدقه، ومعنى هذا أن مجيء الملك لا يفضي إلى إقناعهم، وأن ما طلبوه لم يقصد به الرغبة في الاهتداء، وإنما للشغب والاستهزاء.

10- ولقد استهزئ برسل من قبلك.....يستهزئون.

ولذا رتب القرآن على ما طلبوه، أنه من نوع ما اقترحه الرافضون للتأمل فيما أنزله الله على رسله من الآيات، فتحولوا عن إعمال النظر إلى المواجهة الوقحة بالسخرية من رسل الله وبما جاؤوا به من الهدى، وأن الله أحاط بعذابه المستهزئين. وفي هذا تهديد للمتعنتين المستهزئين بما أكرم الله به رسوله من الحق، وأن مآلهم

هو مآل أمثالهم في الأمم السابقة، من المحق والعذاب الذي يحيط بهم من كل جانب فلا يجدون منه مخرجا.

11-قل سيروا في الأرض...المكذبين.

وبعد أن كشف القرآن عن خفايا مقاصدهم، ورد عليهم أكمل رد وأوضحه، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: هذه أرض الله أمامكم وكتابها مفتوح ناطق بعاقبة الذين رفضوا هداية المرسلين، فآثارهم في الجزيرة العربية شاهدة على مآل الكافرين المفسدين المتكبرين المستهزئين بالحق. ذهبوا فخربت ديارهم وتشتت شملهم ومزقوا كل ممزق بسبب تكذيبهم.

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

كتب : أنفذ رحمته فعمت جميع الكائنات.

خسروا أنفسهم : عطلوا قواهم العقلية فلم ينتفعوا بها.

الولي : الناصر المدبر.

الفاطر : المبدع الخالق.

صرفه عنه : أبعده.

بيان المعنى الإجمالي :

تضمنت هذه الآيات توجيه الرسول ﷺ في محاجة المشركين، فتأيد ﷺ بأمر الله له بأن يصرح بأن ما يخاطبهم به هو من عند رب العزة.

فأولا : اسألهم من المالك لجميع ما في السماوات والأرض ؟ وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد.

وثانيا قل لهم :هو الله، فلذا باغتهم به. إنه الله الذي عمت رحمته الخلائق كلهم، لا شك أنه سوف يجمعكم إلى يوم القيامة. والذين عطلوا عقولهم فقد خسروا نتائج إعمالهم لمواهبهم، فلا يمكن أن يحصل منهم الإيمان. إنه الله الذي يملك جميع الكائنات سواء أدخلت في الليل أو في النهار، لا تفلت من رقابته، إنه هو السميع لكل حركة، العليم بالسر والعلانية.

وثالثا: أعلمهم بأنك قد استقر إيمانك بأنه لا ناصر ولا معين إلا رب العزة، هو الذي أنشأ السموات والأرض، هو الرازق فلا خير إلا منه، وهو الغني الغنى المطلق لا تلحقه الحاجة .

ورابعا: قل لهم إني أمرت أن أكون أول المسلمين، فقد تمكن الإسلام في قلبي تمكنا بلغ التمام والكمال الذي لا مرقى فوقه. ونهيت أن تكون لي أي صلة بالمشركين لا في عقيدتهم ولا في الائتلاف معهم في شؤون الحياة.

وخامسا :عرفهم قائلا: إني أخاف عاقبة أمري إن عصيت ربي من عذاب يوم عظيم يفوق عذابه كل وصف، من يصرف عنه ذلك العذاب فقد دخل في رحمة الله، لا تسألوا عن الجزاء فهو الفوز العظيم الذي ليس فوقه فوز.

بيان المعنى العام :

12-قل لمن ما في السماوات والأرض...فهم لا يؤمنون.

تكرر في هذه الآيات الأمر ب (قل) خمس مرات، مما يوحي بأن الله يلقن نبيه حجته التي لا مرد لها، ويشجعه على مواجهة الكافرين بالحقائق التي بني عليه أمر هذا الدين.

أولا: أمر لرسوله أن يواجه المشركين بالسؤال المبكت، الملجئ لهم إلجاء يفرض عليهم الإقرار بالحق. هذا السؤال: من يملك ما في السماوات وما في الأرض ؟ من يملك مخزونات الكون كله؟ إن الذين اتخذوهم شركاء لله لا يستطيعون أن يدعوا بأن لهم أي شيء من التصرف في الأكوان الأرضية والسماوية.

ثانيا: أمره بأن يعاجلهم بالجواب وأن يسرع بدمغهم بالحقيقة التي كل ما عداها باطل لا أساس له. فكان نسج الآية مقررا لنفي الشرك وإثبات تفرد الله بالألوهية والتصرف، ورَدَ على طريقة السؤال، وعدم انتظار الجواب منهم إذ ليس لهم في هذا المقام جواب. وأدمج في الجواب حقيقة تفتح باب الأمل وتنادي في ضمائر البشر جميعهم بالقرب من الخالق الكريم سبحانه.هذه الحقيقة تثبت أن الله سبحانه قد تعلقت إرادته بأن يتصرف برحمته تصرفا عاما ينال منه الكافر والمؤمن على

درجات مختلفة، فالرزق عام لجميع البشر، والعافية الظاهرية والعلاقات الأسرية كذلك، وعدم معاجلته الكافرين والعاصين بالعقاب، وغير ذلك مما رحم الله به البشر جميعهم من محققات عموم رحمته، وقد خص المؤمنين بأنواع من الرحمة منها الهداية والرضوان، ومنها الطمأنينة القلبية، ومنها ما أعده من نعيم في الآخرة وغير ذلك مما لا يدخل تحت حصر.

ولما ثبت أن الله هو المتفرد بما يجري في السماوات والأرض، وأنه رحيم بخلقه فإن من مستتبعات الملك والتصرف، وعدم المعاجلة بالانتقام، أنه سيحاسب البشر على تصرفاتهم في ملكه الشامل، إذ هو المالك لقواهم الذاتية ولما يسره لهم في الأكوان. إنه سيجمعهم دون أن ينفلت واحد منهم، يوم القيامة، ليجزي كل فرد بما قدم من خير أو شر. إن كل واحد منكم صائر إلى هذا اليوم، ولا شك أنه سيجمع فيه كل جزء من أجزائكم أينما كانت ومهما تباعدت.

وفي هذا اليوم يفترق البشر فرقتان : ناج برحمة الله التي ابتدأت في الدنيا بالهداية إلى الحق والاستقامة على الطريق الذي يرضيه، وهالك خسر ما الشأن أن تمكنه منه مواهبه. ذلك أن الله مكن الإنسان من العقل والنظر ليدرك الحقيقة، ويدرك ما يترتب على أعماله من سعادة أو شقاء، إن هذه المنحة الإلهية هي أفضل ما أوتيه الإنسان، هي رأس ماله الحقيقي في الدنيا والآخرة. إنه إذا عطل فكره، واتبع شهواته وضلالاته، وكذب ما جاء به الرسول، يكون قد خسر أخص ما يتميز به وما يضمن له وضوح الاتجاه الذي يحميه من الضياع. وإذا ذهب من الإنسان ذلك يُحْجَبُ عن إدراك الحق ولا تنفتح له أبواب الإيمان. **(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون)**.

13 -وله ما سكن في الليل والنهار...السميع العليم.

ثم صرح القرآن بما تضمنه قوله :**(قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله)** فحقق أنه مالك لكل ما له وجود في أي زمن كان. فالكون بين ظلام ونهار، فما يحويه الزمان ملك لله، يستوي في ذلك الأجسام والأعراض، ينشئها بحكمته، ويفنيها بإرادته. ولا يخفى عليه شيء من أمرها في حال وجودها ولا في حال عدمها، فيسمع كل حركة فيها ومنها، ويعلم تقلباتها الجارية عليها وما يصدر منها. فهو السميع العليم. وفي ذلك تهديد للكافرين الذي يبيتون الكيد للإسلام، وفيه بشارة للمؤمنين أن الله لا يضيع شيئا مما قدموه قولا أو فعلا.

14-قل أغير الله أتخذ وليا فاطر...المشركين.

ثالثا: أمر رسوله أن يعلن بالقول البين الواضح نتيجة لما سبق، أنه لا يتصور أن يربط نفسه بالتبعية والإذعان لأحد إلا لله. ويبدع القرآن بإجراء الصفات على الذات الإلهية، فهو الذي أنشأ وأبدع السماوات والأرض، وهل أنا إلا جزء من هذا العالم الذي أنشأه وأبدعه، وهو الذي يجري الأرزاق التي بها بقاء البشر والحيوان ومنها الأطعمة (يطعم) وهو الغني عن كل أحد غيره، فلا يحتاج لمن يرزقه.

رابعا: أمر رسوله أن يقول للمشركين قولا يبعث اليأس في قلوبهم من رجوعه عن مواصلة الدعوة للإسلام، بالتأكيد على أنه أول مسلم، وشأن الأولية هذه أن تجعل الإسلام متمكنا في نفسه لا رجعة عنه. وفي هذا إيماء بأن المسلمين كما يأخذون عنه الدين من الوحي فكذلك يتبعون هداه العملي، لأن المسلمين يتبعونه وهو أولهم وإمامهم. وصرح بمقابل الثبات على الإسلام المبني على التوحيد، مؤكدا بالنهي عن ضده وهو الشرك فلا نسب بينه وبين المشركين في العقيدة، ولا في الموالاة.

15-16، قل إني أخاف إن عصيت ربي...الفوز المبين.

خامسا: هذه هو البيان الفاصل بينه ﷺ وبين المشركين، فقد رد عليهم بما يقتضيه العقل في قوله :(قل أغير الله أتخذ وليا...) ثم رد عليهم بما تقتضيه الاستجابة للأمر الجازم في قوله :(قل إني أمرت أن أكون..) ثم أعقب ذلك بالعامل المستقر في ضميره استقرارا جعله ملازما له ﷺ، يؤثر في مشاعره ويهديه، وهو قوله: (قل إني أخاف..) فالرسول ﷺ مأذون بأن يصرح بما استقر في مشاعره الشريفة من خوف عذاب يوم عظيم. واصفا اليوم الذي تجمع فيه الخلائق بأنه يوم عظيمٌ ما يقع فيه ، عظمة تفوق الوصف. هذا اليوم الذي يكون البشر فيه فريقين لا ثالث لهما: فريق أكرمه الله فصرف عنه عذاب ذلك اليوم، فحلت عليه الرحمة، يعلن فوزه ونجاحه العظيم في الامتحان الذي تم اختباره فيه كامل أيام حياته. وفي المقابل فريق يسلط عليه عذاب ذلك اليوم فيكون قد خسر الخسران الذي ليس بعده أمل، ذهب ما قدمه من عمل هباء منثورا. نسأل الله أن يفوزنا بفضله ويدخلنا في رحمته.

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ

لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معانى الألفاظ:

المس: وضع اليد على شيء، والمعنى إيصال شيء مؤثر.

الضر : ما يؤلم الإنسان.

القاهر : الغالب، المطوع كل شيء لإرادته.

العباد :جمع عبد والمراد بذلك البشر.

الخبير: العليم.

أكبر : أقوى، وأبلغ عدلا.

ومن بلغ: وكل فرد بلغه القرآن.

بيان المعنى الإجمالي:

تبين هذه الآيات الحقائق الضرورية التالية: كل ما يصيبك من ألم وضر وحرمان لا تستطيع أية قوة أن تحميك منه ولا أن ترفعه عنك، والله وحده هو الذي يكشف ضرك. وكذلك إذا أراد ربك أن يفيض عليك من خيره وصلك فضله، لأنه القادر على كل شيء. إن الله هو المتحكم في حياة البشر فلا يخرج عن سلطانه أي فرد منهم، تنفذ فيهم إرادته تبعا لحكمته وعلمه.

قل لهم: أي شهادة أكمل وأتم، ما هذه الشهادة التي لا تحتمل الخطأ؟ تولّ قطع طريق الإجابة عنهم وقل لهم : هي شهادة الله بيني وبينكم. هو يشهد بصدقي، وأنه أوحى إلي هذا القرآن الحاضر أمام أعينكم بإعجازه، الذي ينذركم سوء المصير إذا أنتم لم تقلعوا عن الكفر. ويتجاوزكم هذا القرآن لكل من بلغه من البشر بنفس الإنذار. ثم يسألهم سؤال إنكار لما اعتقدوه، أتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ ولا ينتظر منهم الجواب لينفي نفيا قاطعا ما استقر في نفوسهم من الشرك، فالله لا يمكن إلا أن يكون إلا واحدا متفردا بالألوهية. ثم يأمره بأن يصارحهم بأنه لا صلة بينه وبينهم وأنه رافض لهذا الباطل من الشرك بريء منه.

ودليل آخر: هو أن أهل الجاهلية كانوا يثقون بما عند أهل الكتاب من الأنباء، والمنصفون من أهل الكتاب يعلمون أن القرآن كتاب الله معرفة واضحة كأشد ما يكون من الوضوح، كما يعرفون أبناءهم ولا يشكون فيهم. ولكن المشركين عطلوا

قواهم العقلية فخسروا الفائدة المرتجاة منها، ولذا فهم لا يؤمنون تبعا لتعطيلهم قدراتهم الفكرية.

بيان المعنى العام :

17-وإن يمسسك الله بضر...على كل شيء قدير.

هذه الآيات تؤكد ما تقرر من تفرد الله سبحانه بالألوهية والتصرف المطلق. وقد تميزت بالسمة التي وردت عليها الآيات السابقة، من عناية الله برسوله وتأييده، وتشجيعه لإعلان ما يرد عليه، وذلك بتكرار كلمة (قل) أربع مرات.

تثبت الآية الأولى أن التصرف لله وحده، فيخاطب الله رسوله ومن ورائه البشرية جميعا، أن ما يصاب به الإنسان مما يؤلمه من أنواع الشرور، فيؤذيه لن تستطيع أية قوة حمايته من الضر، ولا تستطيع أيضا أن ترفعه عنه بعد وقوعه، وإنما الكاشف لذلك هو الذي بيده الأمر الذي تتحقق إرادته بإنزال الضر أو رفعه. وفي ذلك رد لما يعتقده المشركون أن آلهتهم تحميهم. وفي المقابل فإن ما يصل إلى الإنسان من خير مادي أو نفسي أو روحي هو من الله وحده. ودليله أن قدرة الله لا تحد فإيجاد الخيرات كلها مرتبط بتعلق القدرة بإنجاز ما أراده.

18-وهو القاهر فوق عباده...الخبير.

ظاهرتان تبرزان أن الإنسان واقع تحت سلطان الله الذي لا يغلب: النوم والموت. وما سواهما لا يختلف عنهما وإن غابت نصاعة الحقيقة عن الإنسان. أثبتت الآية أن كل إنسان في هذا الكون تحكمه حكما لا مثنوية فيه قدرة الله التي تخضعه وتنفذ فيه أحب أم كره. وعجزه عن رد المقدور، يفسره أن كل حدث يحدث هو مرتبط بأسباب ونظام صادر عن الحكمة البالغة لله العليم بكل دقيق وجليل في حياة الإنسان.

19-قل أي شيء أكبر شهادة...مما تشركون.

ثم ثبت القرآن الحقائق التي أقامها واستدل عليها بنوع آخر من التثبيت. فأمر رسوله أن يواجههم صراحة بهذا الكلام، فيسألهم: أي شيء أعظم شهادة وأصدق وأقوى تثبيتا؟ ويعاجلهم بالجواب، لأنه لا جواب غيره حسبما يقتضيه العقل والإيمان. إن شهادة الله بصدق نبوتي بما تطمئن إليه النفوس وينغرس في العقول. أي إني أشهد الله الذي تعلو شهادته على جميع الشهادات، أني قمت بإبلاغكم ما أمرني به، وأني صادق فيما أنذرتكم به. وأنه سبحانه أوحى إلي هذا القرآن المتلو عليكم الذي نفذ إلى مسامعكم، المنذر لكم سوء العاقبة والعذاب المقيم إن تماديتم

على المكابرة والرفض له. وإن نذارة القـرآن لا تقتصـر علـيكم فـإني رسـول الله إلـى البشر جميعا، فكل من بلغه هو مقصود بالخطاب منذر به.

ثم واصل تبكيتهم والإنكار عليهم بإلقاء السـؤال التـالي: هـل أنـتم تشـهدون وتقـرون أن مع الله شركاء آلهة أخرى تتعدد بها الآلهة ؟ ويعـاجلهم بـالجواب مبـرزا تبـرؤه مـن هذا الاعتقاد الشنيع، مأذونا له بالتصريح قل لهم مـا مفـاده: دعنـي مـن شـهادتكم التـي أتبرأ منها، وأعلن الحقيقة التي أواصل تركيزها فـي العقـول والضـمائر: إنـه لا يوجـد ولا يعقل إلا أن يكون الإله إلا واحـدا، وإننـي بـريء مـن هـذه اللوثـة القـذرة التـي التصقت بعقولكم وكانت عليهـا عقيـدتكم، مـن إشـراككم بـالله، ومـن الأصـنام التـي تشركونها في ألوهيته.

20-الذين آتيناهم الكتاب...فهم لا يؤمنون.

الذين آتيناهم الكتاب وكمـا أشـهد الله القـرآن، علـى صـدق الرسـول، أتبعـه بشـهادة المنصفين من أهل الكتاب. وقد كان أهل الكتاب من اليهـود والنصـارى محـل ثقـة مـن العرب في معرفتهم بما يجهلونه هـم مـن أخبـار الـدين. فأثبـت القـرآن أن الدارسـين للكتب السماوية يعرفون صدق القرآن كمـا يعـرف الأبـاء أبنـاءهم، معرفـة لا يـدخلها شك ولا ارتياب.

إنه بعد الدلائل والحجج والشهادات الصادقة، انكشف عنـادهم علـى أبشـع صـورة، ولـم يبقَ للمشركين ما يتعللون به لرفض التوحيد وتصـديق الرسـول، إنهـم حجبـوا عقـولهم عن النظر، وعطلوا قواهم العقلية فخسروها إذ لم يفيـدوا منهـا مـا تجليـه مـن الحـق، وبذلك حرموا من الإيمان في الحاضر والمستقبل.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (24)

بيان معاني الألفاظ:

افترى : كذب متعمدا للكذب.

تزعمون : الزعم :ميل ظن السامع إلى تكذيب القائل.

الفتنة : تطلق بمعنى الإعجاب ، وبمعنى الاختبار.

ضل: غاب.

يفترون: يختلقون.

بيان المعنى الإجمالي:

إن أشد الناس ظلما من كذب على الله فادعى أن له شريكا، وكذلك من كذب بالأدلة التي أيد بها رسله. وقد حكم الله على الفريقين بخسران الدنيا والآخرة. ثم فصل القرآن بعض ما سيلقونه يوم القيامة عندما يحشر المشركين مع آلهتهم، ثم يبكتهم موبخا سائلا: أين شركاؤكم الذين تزعمون أنهم ينصرونكم؟ يتحيرون فلا يجدون جوابا إلا ما يضاعف حيرتهم فيلتجئون إلى ما كانوا عليه في الدنيا من القسم الفاجر (والله ربنا) والكذب المفضوح (ما كنا مشركين) ويفضحون في الجمع الحاشد فيؤمر المحشورون بالنظر إليهم نظرة استنقاص وسخرية، لكذبهم، ولفقدهم سندهم الذي كانوا يعولون عليه.

بيان المعنى العام:

21-ومن أظلم ممن افترى...لا يفلح الظالمون.

إن أبلغ الناس ظلما من تعمد الكذب على الله، بادعاء شريك له، أو وصفه بما لا يليق به، وهذا ما كان عليه أمر الجاهلية قبل البعثة. ومثله في الظلم الشديد من كذب بآيات الله الدالة على صدق رسوله ﷺ. وقد حق عليهم بسبب ذلك أنهم خاسرون لا يفلحون لا في حياتهم الدنيا ولا في الآخرة.

22-ويوم نحشرهم جميعا...كنتم تزعمون.

ثم يستحضر القرآن في مداركهم هول ما سيلقونه يوم الحشر مُبْهَمًا لتذهب النفس فيه كل مذهب من الفظاعة والسوء. يوم يحشرهم جميعا، ولا ينفلت أي واحد لا من العابدين ولا من المعبودين.

23- ثم لم تكن فتنتهم...ما كنا مشركين.

وبعد أن يحشرهم ويتركهم زمنا منتظرين سوء جزائهم لتحل عليهم المذلة والصغار، بعد تلك المدة التي تطول على المجرمين فتزيد في عذابهم، يتوجه إليهم السؤال الموبخ عن زعمهم أن معبوداتهم تشفع لهم، المعبودات التي هي حاضرة معهم مهينة لا تدفع عن نفسها فضلا أن تدفع عن عابديها.يختبرون بهذا السؤال المحير الملقي بهم في الاضطراب، وتتحدد حيرتهم بهذا السؤال التوبيخي، فتلقي بهم في فتنة أخرى، فيقولون: (والله ربنا ما كنا مشركين) فتكون الفضيحة معلنة شديدة، متمثلة في قسمهم بالله الذي أنكروه في حياتهم الدنيا، ثم إضافة اسم الرب

اعترافا منهم بما يفيده لفظ الرب من توالي الرعاية والعون، وهم كانوا يطلبون العون من شركائهم، ثم الكذب الصريح: ما كنا مشركين. فتنوا فوقعوا في أخزى صورة وأشنعها أمام الجموع الحاشدة يوم الحشر.

24-انظر كيف كذبوا على أنفسهم...ما كانوا يفترون.

ويصورهم القرآن في أخزى صورة عندما يأمر الجبار كل من يصح منه النظر، أن ينظر إليهم نظرة الاحتقار والسخرية، كاذبين فاجرين ضاع ما كانوا ينتصرون به: كذبوا على أنفسهم، زادهم السؤال حيرة، وحشروا على ما كانوا عليه في الدنيا من الإسراع للكذب والقسم الفاجر والكذب المفضوح. والألسنة والجلود ناطقة بالحقيقة، وغاب عن نصرتهم الأرباب التي كانوا يبتغون عندها النصر في الدنيا.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأكنة : جمع كنان وهي الغطاء الساتر.

يفقهوه : يفهموه حق الفهم.

الوقر : الصمم الشديد.

الأساطير : جمع أسطورة وهي الخبر عن الماضين.

ينأون: يبتعدون.

يهلكون : يضرون أنفسهم أبلغ الضرر.

بدا: ظهر عيانا بما ينفي كل ريب.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن أن بعض الكافرين كانوا يستمعون إلى القرآن وقلوبهم منصرفة عن التدبر في مضامينه وفهم هدايته، لا يستفيدون حتى من جماله كأنهم أصيبوا بالصمم، معرضين عن كل الأدلة الناطقة بصدقه فلا يؤمنون بها. تلزمهم عوارض العناد حتى إنهم عندما يقدمون عليك يدفعهم حب مجادلتك ومخاصمتك، يخلصون إلى استنتاج واحد: إن ما في القرآن هو قصص الأمم الماضية. ومع ذلك هم ينهون أتباعهم عن استماعه، ويبتعدون عن هدايته، وهم بذلك لا يضرون إلا أنفسهم بخسارتهم للدنيا والآخرة دون أن يتفطنوا لما سيحيق بهم.

ثم صور القرآن مشهدين لهم يوم القيامة. كل واحد منهما معروض على جميع الناظرين :

المشهد الأول وهم على حافة جهنم موقنين بأن مصيرهم إليها متحسرين يقولون: يا ليت لنا أن نعود إلى الدنيا فنترك الكفر ونعتنق الإيمان. ويكذبهم الله فيما صرحوا به، فإنهم لتمكن الفساد منهم، لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم. وهم كاذبون في مقالتهم تلك، وقد كانوا مصممين على أن لا حياة إلا الحياة الدنيا وليس وراءها حياة أخرى ولا بعث.

والمشهد الثاني : مشهد الكافرين واقفين في ذلة موقف العبد الفار بعد القبض عليه، وقوا رع التأنيب موجهة إليهم: هل إن ما ترونه اليوم بأعينكم حق؟ ويجيبون في ذلة: ما كنا عليه باطل وربنا إن هذا هو يوم البعث. وينتهي المشهد بتنفيذ الحكم بقوله تعالى: هو ذا العذاب الذي ينفذ فيبلغ أعلى درجات الإحساس، ذوقوا آلامه بسبب كفركم السابق في الحياة الدنيا.

بيان المعنى العام :

25- ومنهم من يستمع إليك...أساطير الأولين.

سجل القرآن موقف بعض المشركين الذين كانوا يتظاهرون بالتعقل، فلم يعرضوا عن القرآن الإعراض التام، بل تظاهروا بالاستماع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتلو آياته. وقصدهم من هذا الاستماع أن يصرفوا الناس عنه ويرفضوا ما جاء به. فحق عليهم ما اختاروه لأنفسهم، وجعل الله قلوبهم كأنها محجوبة تحت ساتر صفيق فلا يفهمون ما تضمنه من هداية وبيان للحق. وتظاهرهم بالسماع مع أن قلوبهم مشغولة منصرفة عنه، منع أسماعهم من أن تنفذ إليها كلمات القرآن كأنها أصيبت بصمم. إنه قد يبلغ اهتمام الإنسان بموضوع حدا يستولي على جميع

مداركه، فيأتيه من يخبره بخبر وينصرف عنه، ثم لو سألته إثر ذلك هل سمعت بما أخبرك به فلان ؟ لكان جوابه أنه ما سمعه ولا شعر به.

وأبصارهم غافلة كذلك عن إدراك الأيات التي تتابع على أبصارهم، فهم لا ينتفعون بأي آية من الأيات مهما كانت شديدة الوضوح في إعلانها عن الحق، فحرموا الإيمان بها. إن إعراضهم الشديد وعزمهم على رفض ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان سببا في انحرافهم فقصدوا من المجيء إليك المجادلة لا التدبر وإعمال العقل لفهم الحقيقة. فأعلنوا عن كفرهم وقالوا: إن ما سمعناه من محمد هو من القصص عن الأمم الماضية. مع أن ما جاء في قصص القرآن المقصود منه هو التدبر في أحوال الماضين لينتفع من الاعتبار بها الناظرون، وهي بعيدة كل البعد عن نسج القصص المراد به التلهي.

26-وهم ينهون عنه . . وما يشعرون.

ثم سجل القرآن شناعة أخرى للمعاندين من الكفار: أنهم ينهون الناس عن استماع القرآن، ويغرقون في الابتعاد عما تضمنه من الهدى وفتح العقول وصقل الأرواح. ويعود الهلاك والضر عليهم، فلا يضرونك ولا يستطيعون إيقاف المد الإسلامي، وما ذلك إلا لأن عنادهم ضرب على عقولهم حجابا ففقدوا الشعور بالصالح لهم في حاضرهم ومعادهم.

27-ولو ترى إذ وقفوا على النار...من المؤمنين.

ثم رسم القرآن صورة من هلاكهم تتم يوم القيامة، فقال تعالى:(ولو ترى..) والمخاطب بها أولا النبي ﷺثم كل من يصح منه الرؤية، فالمشهد حاضر أمام الأبصار باعتبار أن المخبر به هو الله سبحانه الذي لا يختلف علمه بين الحاضر والمستقبل، ماذا يرى الراؤون؟ يرون جموع الكفار يلهثون في السير حتى بلغوا جهنم ووقفوا على لظاها المستعر، فانطلقت من أفواههم حسرة قائلين: يا ليتنا نرد إلى الدنيا، ولا نكذب بأيات الله التي بلغها رسل الله ولفتوا إليها أنظارنا فأعرضنا عنها، ونكون بذلك من الذين استقرت عقيدة الإيمان في قلوبهم. وسجل القرآن نفي التكذيب قبل تسجيل الإيمان لأن هول ما شاهدوه كان نتيجة فعلهم الذي هو التكذيب.

28-بل بدا لهم ما كانوا...وإنهم لكاذبون.

ويضرب القرآن عن أمانيهم وحسراتهم، بإبراز أمر كانوا يخفونه في الدنيا من خواطر الإيمان التي كانت تستيقظ بها فطرهم فيصدونها، ويطردونها تكبرا وعنادا.

29-وقالوا إن هي إلا حياتنا...بمبعوثين.

ويعلن القرآن فسادهم الذي تأصل في قلوبهم وانغرس فيها فلا ينخلعون منه ، إنه لو تحققت أمانيهم وردوا إلى الدنيا فإنهم سيعودون إلى الكفر والتكذيب والعناد. ويؤكد القرآن: أنهم كاذبون فيما يقولون. فقد ترسخ في ضمائرهم ما كانوا قالوه في حياتهم الدنيا: لا حياة إلا ما نعيشه على سطح الأرض، ولا بعث ولا نشور.

30-ولو ترى إذ وقفوا على النار...تكفرون.

ومشهد آخر يستحضره القرآن ليعرضه كأنه مرئي، هو مشهد الكافرين وهم واقفون في المحشر أذلاء خاضعين، يقرعهم ربهم كما يقرع السيد عبده وقد قبض عليه بعد إباقه وفراره، يسألهم : أهذا الذي تشهدونه في المحشر حق أم خيال وافتراء ؟ كان جوابهم لا صحة لما كنا ندعيه وأقسموا على ذلك.

يخاطبهم الله إثر ذلك خطاب التنكيل بهم: ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم في الدنيا.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الساعة : ساعة البعث.

بغتة : فجأة، دون توقع.

الحسرة : الندم الشديد.

فرط : أضاع لعدم العناية بحفظه.

الأوزار : جمع وزر وهو الحمل الثقيل.

يزرون : يحملون.

اللعب :عمل ليست له غاية مفيدة إلا تقصير الوقت والتخفيف على العقل من أثر تواصل الجد.

اللهو: ما يقوم به الإنسان مما لا يتعب عقله ويجلب له متعة لما فيه من لذة ملائمة للشهوة.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه صورة من صور البعث للذين رفضوا الدعوة المحمدية وأنكروا يوم القيامة. إنهم يمثلون صورة من الضياع والإفلاس، يأكلهم الندم على ما فرطوا فيه يوم كانوا

في الدنيا، يفاجئهم يوم البعث لأنهم ما كانوا يتصورون حصوله. يسيرون متقلين بالذنوب التي تضاعف كربهم، فهي أسوأ ما يُتَحَمَّلُ لأنه لا مطمع لهم في إنزالها بل تهوي بهم إلى أشأم مصير. تعلقوا بالحياة الدنيا فقطعوا أعمالهم ونياتهم عن النظر إلى المآل بين يدي رب العباد. فكانت الحياة تسير بهم لا إلى غاية شأن اللاعبين ينتهي اللعب بهم دون أن يحققوا مكسبا. أو تقدم لهم ملاهي تشحن شهواتهم فتهوي بهم في درك الحيوانية.

بيان المعنى العام:

31-قد خسر الذين كذبوا...ما يزرون.

يواصل القرآن عرض ما سيلقاه الكافرون يوم القيامة. وأول ما تعلنه الآية أن الذين كذبوا بالحقيقة التي أنذرهم إياها رسول الله: أن الله سيوقفهم أمام قضائه العاجل، وينفذ فيهم حكمه بدون إمهال، سيدركون ذهاب كل ما قدموه، ويدركون أيضا أنهم عطلوا عقولهم بتصميمهم على الكفر عنادا، فخسروا فعل هذه القوة التي منحهم الله إياها لينقذوا أنفسهم من الهلاك. وإنه بسبب هذه الخسارة التي دمرت عاقبتهم كانوا في هذا الوضع السيء الذي رسم القرآن بعض ملامحه التي منها: أن يوم القيامة يفزعهم أشد الفزع لأنهم بتكذيبه به ينزل عليهم نزول الصاعقة دون أن يكونوا مستعدين لملاقاته، ولا متوقعين له تبعا لتكذيبهم به، وحين يفْجَأهم بحقائقه المرعبة، لا يملكون إلا أن يعبروا عن شدة ندمهم لتفريطهم في الاستعداد لهذا اليوم، وهو رفضهم للإيمان، وتركهم لصالح الأعمال. ويظهرون في المشهد يحملون أثقالا من الذنوب تقصم الظهور وتزيد في الكرب. إن ما يحملونه هو أسوأ ما يمكن أن يحمل في ذلك اليوم.

تعلقوا بالحياة الدنيا وهمهم لا يعدو أن يحصلوا على ما تقدمه بطبيعتها، فلا يحصلون منها إلا ما يحصل عليه من صرف وقته للعب الذي يلتهم وقته ولا يحقق غاية ولا يفوز بنافع. أو تقدم لهم لهوا يستمتعون به متاع الشهوة الزائلة التي تهبط بأصحابها إلى مستوى الحيوانية.

32-وما الحياة الدنيا إلا لعب...أفلا تعقلون.

وفي المقابل ينبه القرآن البشر إلى ما يخرج بهم من الضياع إلى ما يزكي أعمالهم، ويرفع من مستواهم الإنساني فتستمر آثارهم، وذلك ليس إلا بالربط بين الدنيا والآخرة، بتقدير أن أعمالهم ونياتهم يلتحم فيها قصد حسن ثواب الآخرة بالمنافع الدنيوية. وهو معنى التقوى التي تجمع بين حسن استخلاف الإنسان في الكون

وتعمير الأرض، واستحضار الحياة الآخرة في كل عمل وقصد. وهو ما يعطي للمتقين طمأنينة راضية، وتقبلا لأعمالهم التي يجدونها حاضرة عند ربهم يجزون بها بفضله وكرمه. فأعمِلُوا عقولكم لتدركوا ما في التقوى من خير.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

يجحدون : لا يعترفون بما يعلمون ثبوته.

النبأ : الخبر عن أمر عظيم.

كبر : شق.

تبتغي : تطلب.

نفقا : منفذ عميق في الأرض.

بيان المعنى الإجمالي:

يخفف الله على رسوله ويطرد عنه الحزن الذي ألم به تبعا لرفضهم الإيمان، وما ينجر عنه من خسارتهم للدنيا والآخرة. فيبين له حقيقة خفية هي أن عدم إيمانهم لم يكن نتيجة تكذيبهم الصارم له، ولكن كان بعامل المكابرة من تطبيق القيم التي جاء بها من المساواة وكرامة الإنسان والجمود على عبادة الأوثان المقدسة من آبائهم. فرفضهم لاتّباعك من ظلمهم بجحد الحق.

ويضيف إلى هذه الحقيقة الكامنة أن إعلان تكذيبهم الظاهر لك هي سنة جرى عليها أمر المرسلين مع أقوامهم، فقد لاقوا من أممهم التكذيب ومختلف أنواع

الإذاية، فتحلوا بالصبر الإيجابي وواصلوا القيام بمهامهم إلى أن أيدهم الله بنصره. ونصره سبحانه ثابت بكلامه الذي لا يبدل. وقد بلغك في القرآن تفاصيل ذلك.

وإن كان قد شق عليك موقفهم هذا ورفضهم لجميع الآيات البينات، فإنه مما ينبغي أن تعلمه أنهم مصرون على الكفر، فلو ذهبت تبحث في أنفاق الأرض، أو اتخذت سلما لترقى به في السماوات باحثا عما يقنعهم ما قبلوا ما تدعوهم إلي.إنه لو شاء الله أن يخلقهم على غير النحو الذي هم عليه لفعل، ولكن إرادته أن يتركهم لاختياراتهم، يحاسبون عليها. فإياك، يا محمد، أن يكون تعلقك بالنجاح في مهمتك حاملا لك على بلوغها، مما ينسيك الوضع الذي خلق الله عليه الخلق، من مستعد للإيمان ومن معرض عنه. فالمستجيبون هم الذين يتلقفون الهداية فيلقون إليها أسماعهم ويقبلون عليها وقلوبهم متفتحة. والمقفلة قلوبهم هم كالموتى لا يسمعون ولا يعقلون إلى أن يبعثهم الله على ما هم عليه من الإعراض.

ومن عنادهم أنهم طلبوا من رسول الله معجزات محددة كما يريدون، ثم استدلوا بعدم الاستجابة لطلبهم على أن الرسول غير مؤيد من ربه، ورد الله عليهم بأن القدرة الإلهية لا يعجزها شيء، وأن طلبهم هذا قلب للأوضاع بجعل الرسول آلة في أيديهم يقترحون فيجيب. وهم جاهلون بمقام الألوهية التي تَحكم ولا تُحكم.

بيان المعنى العام:

33-قد نعلم إنه ليحزنك....بآيات الله يجحدون.

إنه وضع يضغط على النفس فيجلب لها الحزن والكمد، عندما يعيش النبيل بين قومه، وهو معروف بالصدق والأمانة، وعلو الأخلاق والشهامة، أمدا يتجاوز الصبا والشباب ويبلغ كمال الكهولة، ثم يتنكر له القوم وينكرون حديثه، ويرفضون ما يقول لهم. كان هذا وضع النبي ﷺ وهو في مكة. ومما زاده أسى حرصه ﷺ على إيمان قومه، وعلى النجاح في المهمة الشريفة التي أوكلت إليه من هداية الخلق للإسلام.

إن من عناية الله به أن يخفف عنه همه، فسلاه مفتتحا بأنه يرعاه ويعلم الجو الذي يعيش فيه حق العلم، وما أثر في نفسه الشريفة، ويدمج في هذا التقريب الذي يسكب في نفس النبي ﷺ أسمى ما يبهج الروح، يدمج حقيقة يعلمها سبحانه، هي ما استقر في قلوب المعاندين وأكنوهُ: يعلم نبيه بأنهم بين أمرين لم يتضح لهم السبيل، فهم من ناحية تبهرهم حجج القرآن، وثقتهم المبنية على التجربة الطويلة لرسول الله وكماله الخلقي، ومن ناحية أخرى وفاؤهم لمفاهيمهم وما تواصل عليه تصوُّرهم

المأخوذُ عن أسلافهم ؛ فكانوا بين الرفض الصريح والتساؤل في الباطن. فهم في حقيقة أمرهم لا يقرون بما لا يرفضونه رفضا قاطعا، وإنما يظهرون أنهم يردونه، وهو الجحود للحق الثابت والأدلة البينة القاطعة التي كانت مؤيدة لرسول الله ﷺ. فظلموا أنفسهم وظلموا الحق.

34.ولقد كذبت رسل من قبلك...من نبإ المرسلين.

ويواصل القرآن تسلية رسول الله ﷺ، فيؤكد له أن هذه هي سنة المرسلين مع الأقوام الذين يدعونهم لدين الله. فقد كذبوا رسلهم وتجاوزوا التكذيب إلى الإذاية فأساؤوا إليهم بمختلف أنواع الإساءات.وصبر رسل الله على مقابلة حرصهم على إنقاذهم، بالتكذيب والإذاية صبرا لازمهم إلى أن تحقق نصر الله لهم. ثم أكد القرآن تحقق هذا النصر لرسل الله ولمحمد خاتمهم ،بأن هذه السنة لا يوجد من يستطيع أن يغيرها عن مسارها. فكن واثقا من أن الله سينصر دعوتك ويعلو الإسلام على الشرك. وفيما سبق أن أنزل عليك في القرآن من أخبار الأمم السابقة، وما لاقوه من أممهم، وتدارك الله لهم بالنصر، ما يثبت قلبك ويذهب حزنك.

35- وإن كان كبر عليكم إعراضهم...من الجاهلين.

ثم عرض القرآن ما يفيد اليأس من اهتدائهم، فعرف رسوله أنه إن كان قد شق عليك ثباتهم على الكفر والعناد، فلم يبق بعد ما عرضته عليهم من الآيات إلا أن تنفذ إلى باطن الأرض لتخرج منها دليلا يخضعون إليه، أو تتخذ سلما ترقى به إلى السماء بحثا أيضا عما يقنعهم، فتأتيهم به. ومع ذلك فلا تطمع في إيمانهم، لأن الله طبع على قلوبهم فلا ينفذ إليها أي نور. والله سبحانه لو أراد أن يطبعهم على قبول الحق والاستجابة لمنطق العقل والحجة لفعل. لقد حرمهم الله ذلك فإياك يا محمد أن تكون من الجاهلين لهذه القضية الكبرى التي بني أمر البشر عليها في هذه الدنيا؛ من أن منهم من ينشرح صدره للإسلام، ومنهم من طبع على قلبه فلا ينفذ إليه أي شعاع من أشعة الإيمان.فلا يضق صدرك بإعراضهم.

36-إنما يستجيب الذين...يرجعون.

إنه من سنن الله في الاهتداء، أن بعض من تتوجه إليهم الدعوة يتلقون ما يلقى إليهم من الهدى بآذان واعية، يطرق أسماعهم الوحي فتتلقفه عقولهم وأرواحهم، ويستقر في مداركهم فتنطبع به حياتهم الروحية والعملية. والبعض الآخر أحياء كالأموات، تعطلت مداركهم كتعطل مدارك الأموات، فلا ينفذ إلى أسماعهم كلمات الوحي ولا

تحرك من مداركهم شيئا، وبالتالي هم ماضون على ما كانوا عليه قبل تلقي كلمات الله. ويبقون على هذه الحال إلى أن يبعثهم الله من قبورهم فيجازيهم.

37-وقالوا لولا نزل عليه آية.....لا يعلمون.

واصل القرآن إلزام الكافرين وإبراز عنادهم والرد عليهم، فكان مما قدموه من التشغيب أنهم طلبوا: أن ينزل الله على رسوله آية على المواصفات التي يقترحونها وفي قولهم (من ربه) إيماء إلى نفيهم للصلة الوثيقة بين الرسول والمُرْسِل، على معنى أنه إذا كانت الصلة مؤكدة على حسب ما تقتضيه كلمة الرب، لاستجاب ربه إلى ما اقترحوه. وذلك ليستنبطوا من عدم إسعافه بالآيات التي طلبوها: أنه ليس مرسلا منه.

كان الرد مفحما لهم بالشقين اللذين ينحل لهما الجواب:

الشق الأول: أن الله مكن رسوله من الآيات التي تقوم دليلا على صدقه، والتي بدلالتها على صدقه، أثرت في الفطر السليمة من العناد فآمن عليها من آمن من الناس. وبهذا يكون اقتراح أدلة على مقياس السائل، إلزاما وقحا لله بأن يؤيد رسوله على هوى كل مكابر، وهو أمر لا حد له، ولا يليق بمقام الألوهية الحاكمة أن تكون محكومة.

الشق الثاني: أن القدرة الإلهية لا تحد، فهو القادر على كل شيء. ولكن عدم إجابتهم لما يقترحونه من الآيات لا يثبت لهم ما يريدونه من الفصل بين الله ورسوله. فهم يستنبطون لجهلهم التشكيك في قدرة الله على تأييد رسوله تبعا لهواهم.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدابة: كل حيوان يتحرك في الأرض صغيرا كان أو كبيرا.

أتتكم : الإتيان، الحلول.

الساعة: يراد منه ساعة انقراض الدنيا.

تنسون : تتركون.

بيان المعنى الإجمالي :

كل الحيوانات التي عمرت بها الأرض على ظهرها أو في باطنها أو في جوها، يحكم كل نوع منها قوانين الخلق والخصائص التي تم عليها إيجادها. كشأن قوانين خلق الإنسان بما له من خصائص. وليس للصدفة من محل في ذلك، بل هي توجد حسب التقدير المحكم فلا يختلط نوع بنوع آخر، وهي تنتهي من الحياة بنفس الحكمة والتقدير. كل ذلك مسطور في علم الله الذي لا يتبدل.
إن المكذبين بآيات الله قد فقدوا الانتفاع من قوة السمع فلا ينفذ الحق إلى بواطنهم مما يسمعون فهم صم، وفقدوا الانتفاع من النطق المرتبط بالتفكير فهم بكم، ولف عليهم ظلام الكفر والعناد بحجب متراكمة فهم في ظلمات الكفر المطبق عليهم فلا يبصرون نور الهداية ولا يهتدون. إن الله هو المنفذ لما قدره، فمن حرمه ألطافه كان تائها في الضلال، ومن أسعفه بالتوفيق كان سائرا في طريق واضح مستقيم يصل بين أجزاء الكون ومبدعها، وينتهي به إلى بلوغ غايته..
ثم يهدد القرآن الكافرين ويثيرهم بالسؤال: ما تظنون أن تفعلوه إذا أخذت بوادر الانتقام منكم تتهددكم أو أخذ الكون في الانهيار لتنتهي الحياة ؟ أتدعون أحدا من آلهتكم؟ أتلجأون إلى أحد غير الله ؟ ويقطع عنهم الجواب فيبادرهم بالحقيقة التي لا حقيقة غيرها ؛ إنكم تدعون الله وحده ليكشف الهول الذي تيقنتم قرب حلوله. وهو سبحانه الفاعل المختار، يكشف ما شاء أن يكشفه من العذاب، ويحل بكم ما شاء أن ينفذه. وفي أهوال هذا اليوم ستنسون ما كنتم تتخذونه شركاء لله، تعالى الله عما يشركون.

بيان المعنى العام :

38-وما من دابة في الأرض...يحشرون.

توالت الآيات السابقة مؤكدة عقيدة البعث، وأن الله أيد رسوله بالمعجزات البينة، وأن كتاب الكون يؤيد ما جاء به. ثم أتبع القرآن ذلك بهذه الآية (وما من دابة...يحشرون) التي كانت مثيرة لأفهام عديدة، ومثار إشكال ندعو الله أن يلهمنا رشدنا ويسعدنا بالفهم الذي يرضيه. فأقول:
تفيد الآية أمرين :

الأول : جميع الحيوانات التي تدب والتي تطير، يجري على كل نوع منها قانون يربط بينها تسير عليه. يستوي في ذلك ما كان منها يدب في الأرض، وهي الحركة المرتبطة بالحياة، إذ كل حي من المخلوقات متحرك حركة إرادية، أو حركة فطرية. فإذا مات الكائن توقفت مختلف أنواع الحركات؛ وما كان يطير بأجنحته في الجو من البازي إلى الفراشة. هذه الحيوانات التي يلحظها الإنسان، وقد لا يتأمل في التقدير المبدع لها، فيلفت القرآن أنظار البشر إلى أن كل نوع منها له قانونه الخاص الذي يسير عليه من مبدأ حياته إلى نهايتها. فجينوم الأسود غير جينوم الفهود وجينوم المعز غير جينوم الضأن..وتجري هكذا تلكم القوانين التي تفوق قدرة الإنسان على حصرها لا يحصيها إلا خالقها. وكما أخضعها لحكمته وتدبيره في حياتها، فكذلك نبه إلى أنها ستحشر إليه يوم القيامة.

فالآية تتضمن أمرين هامين:

أولهما :أن كل نوع من أنواع الحيوانات الدابة والطائرة قد وضع له قانون خاص به، وهذا ما يؤكد من كتاب الكون، قدرة الله وحكمته وتفرده بالتسيير لها من بدايتها إلى نهايتها. وذلك ما يقوم عليه بناء الإسلام العقدي، فتكون الآية مؤيدا لرسول الله ﷺ في دعوته. وبهذا ظهر وجه الارتباط بين هذه الآية والآيات المتواصلة من بداية هذه السورة (**سورة الأنعام**).

ثانيهما : أن هذه الحيوانات بمختلف أنواعها ستحشر إلى ربها. وهذه القضية توقف عندها جميع المفسرين، وإشكالها واضح. ذلك أن الحساب بعد الحشر هو للمكلفين. وهذه الحيوانات لا عقل لها وبالتالي هي غير مكلفة فلا تحاسب على أعمالها.

ذهب بعضهم إلى أنها ستحشر متأيدين بقوله تعالى: **(وإذا الوحوش حشرت)**[1] واختلفوا هل إنها ستحاسب على أعمالها، أو إن حشرها لإبراز أن العدل الإلهي في أكمل صورة، فيكون حشرها مظهرا من مظاهر القدرة والعدل. ويتأول بعضهم الحشر على أنه الموت، وأن جميع الحيوانات سينتهي أمد حياتها حسب تقدير ربها لما خلقها، فليس هو أمرا أخرويا وإنما أمر يجري عليها في الدنيا. وذهب فريق آخر إلى أنها ستحاسب على تعديها ثم تنقلب ترابا يوم الحشر. ووجه بعض منهم ذلك بأنه مظهر لعموم العدالة الإلهية.

والذي ترجح عندي: أن الله سيحاسب المكلفين جميعهم على ما قدموه في حياتهم من خير أو شر. وقد جاء تصوير ذلك على أبين وجه في قوله تعالى: **(ونضع**

---

[1] سورة التكوير آية 5

الموازين القسط ليوم القيامة وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[1] . فالحساب للبشر، وإحياء الواقعة كما تمت في الدنيا من قدرة الله تبكت المذنبين، فيكون من عذب حيوانا من الحيوانات محاسبا على ذلك ويحشر الحيوان الذي وقع عليه التعدي ليحضر محاكمة من تعدى عليه وخالف ما نهى الله عنه من تعذيب الحيوان .وأما الجزاء الأخروي فهو للمكلفين من البشر فقط[2]. وفي ذلك زيادة تأكيد على البعث بصفة عامة ورد على منكريه، وإبراز حجة من سنن الكون على صدق الرسول وقدرة الله التي لاتحد وحكمته البالغة.وتخلل الآية التنبيه إلى أمر آخر له خطره ومقامه، هو محقق لما بيناه. حاصله أن كل ما يحدث في الكون ليس للصدفة فيه من مكان، فكل صغيرة وكبيرة من نظام الكون، وكل ما يحدث في الوجود مسجل في علم الله (ما فرطنا في الكتاب من شيء) فليس المراد من الكتاب كتاب له دفتان وأوراق، ولكن الكتاب هو العلم الأزلي الأبدي الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا يضيع منه شيء.

39-والذين كذبوا بآياتنا...مستقيم.

ترتبط الآية بما بعدها بأن من لم يؤمن بالآيات المنبثة في الكون والمنزلة على رسول الله ﷺ، هم فاقدون لحواسهم المغذية لمداركهم، لأنهم أصموا آذانهم عن قبول هداية الرسول ومواعظه، وأغمضوا أبصارهم عن التأمل في آيات الله في القرآن وفي الآفاق، والتفت على قلوبهم حجب متراكمة من ظلام الكفر فلا ينفذ إليها شعاع من أنوار الهداية.

ولا تعجبوا من تعطيلهم لحواسهم ولعقولهم حتى أطبق عليهم الكفر. فإن الله يحجب ألطافه عمن يشاء من العباد، فيبدأ المحجوب طريقه بالانصراف عن آيات الله، وعدم التأمل فيما يرد عليه من الهداية، ثم يوالي مسيره في هذا الطريق وكلما أوغل في طريقه ذلك باختياره وإرادته تتكاثف عليه ظلمات الكفر حتى ينطبع به. وهو معنى قوله تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)[3] مما سنزيده بيانا عند شرح هذه الآية إن شاء الله. وفي المقابل فإن من حفته ألطاف الباري سبحانه يسعده بتحبيب الحق لنفسه، فينبعث من عقله قوة تأنس بالحق ولا تهدأ إلا إذا لامست اليقين، تنفذ أبصارهم وأسماعهم إلى ما وراء الظواهر المادية إلى الوحدة التي تجمع بينها، فإذا الكون كله يسير عندهم في نظام متناسق مرتبط

---

[1] سورة الأنبياء آية47

[2] انظر إن شئت شرح الأبي إكمال الإكمال ج 7ص32/31 وشرح المعلم للمازري ج3 ص 166

بباريه، وهو الطريق الذي لا عوج له. فكل الكائنات سلسلة متناغمة لا نشاز فيها ولا تنافر بينها.

40-41: قل أرأيتكم إن أتاكم...وتنسون ما تشركون.

ثم يأمر نبيه بمواجهة الكفار وهزهم هزا إلى ما استحضرته الآية من التهديد بالعذاب أو انتهاء الكون. ما ذا تظنون أن يقع منكم إذا أنزل الله عليكم بواكير عذابه فخفتم الهلاك والعذاب، أو اختل نظام الكون مؤذنا بنهاية الحياة، أتدعون أصنامكم وما كنتم تعبدونه من دون الله وتتوسلون إليه، إن كنتم صادقين في عبادتكم له غير ضالين ؟ أتدعونهم لكشف ما تظنون أن حلوله قريب منكم وهم لا يملكون شيئا من القوة ولا من الفعل ؟ ويعاجلهم بالجواب لأنه لا جواب غيره ليظهر أن ضلالهم لا شبهة فيه، فيكون الجواب: إن ما كنا ندعوه من دون الله باطل ولا ندعو إلا الله فهو الذي يملك كشف ما ينذرنا من العذاب. ويعلن الحقيقة: أن ما يمكن أن يترتب على ذلك هو تحت سلطانه سبحانه وينفذ حسب إرادته، فيكشف ما شاء أن يكشفه، وينفذ ما شاء تنفيذه، وتعريهم الآية من كل سند، فهم في هذا الوضع يذهلون عمن كانوا يستمدون منهم العون ويتقربون إليهم من المعبودات الباطلة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

البأساء: الفقر.

الضراء : شدة الحال على الإنسان، ويقابلها السراء.

يتضرعون: التضرع التذلل والاستكانة.

قست : صلبت ولم تلن لتقبل التذكير.

بأسنا : الشدة في معاملتهم.

مبلسون: آيسون.

قطع دابر : تم استئصالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات تهديد للمشركين الطاغين بقوتهم، بتذكيرهم بسنة الله مع الطغاة المفسدين. فقد أرسل الله رسله لكثير من الأمم السابقة لهدايتهم، فأعرضوا وكذبوا، فسلط الله عليهم من المصائب في أرزاقهم وأبدانهم ما يوقظهم إلى أنهم تحت حكم الله، وأن عليهم أن يسارعوا إلى التضرع إليه والتقرب منه، ولكن قلوبهم فقدت اللين الذي ينفذ منه التذكير فكانت صلبة قاسية، بسبب إلفها لتأثير الشيطان الذي أقنعهم بسلم القيم المقلوب، حتى قطعهم كليا عن هداية الله. ثم فتحت لهم مختلف مسالك النعيم الدنيوي، فانغمسوا فيها معرضين عن الحق وما تقتضيه الأخلاق، وخيل إليهم أنه لا نعيم فوق ما وصلوا إليه، وعندها بلغوا القمة في الفساد، فأنزل الله عليهم عذابه الماحق دون سابق إنذار واستأصلهم فلم يبق لهم أثر. ولله الحمد رب العالمين المتصرف بحكمته في الكون المنقذ للبشرية بقضائه على الفساد عندما يستشري ويطغى.

بيان المعنى العام :

42 -ولقد أرسلنا إلى أمم...يتضرعون.

هذه الآية نوع آخر من تهديد المشركين الرافضين للاستجابة لدعوة النبي ﷺ.وذلك ببيان سنة الله في الذين يكفرون بما جاءهم من الحق.

أكد سبحانه أنه أرسل إلى أمم عديدة، مضت في التاريخ، رسلا مؤيدين بالمعجزات، ليخرجوهم من الكفر إلى الإيمان. فقابلوهم بالتكذيب والرفض لما جاءوهم به من عند الله. فسلط الله عليهم زواجر في أموالهم أذهبت البركة، فتبعها العسر، وأنزل الله عليهم مصائب في أبدانهم وفي مختلف شؤون حياتهم فتبعها الضيق والأسى، فعل بهم ذلك رجاء أن يتأثروا ويقلعوا عن كفرهم عندما ظهر لهم عجزهم عن حماية أنفسهم، قبل أن يستأصلهم العذاب الأكبر، وذلك من رحمة الله بهم.

واستحضر القرآن الحالة كأنها مشاهدة الآن فرتب على ذلك تحريضهم على التضرع إلى الله واللجأ إليه لمّا حلت بهم النقم الأولية من الشدة التي جسّمت لهم عيانا قدرة الله التي لا تغلب. وفي ذلك لطيف إشارة إلى مشركي مكة يدعوهم إلى الإيمان.

43-فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا...وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون.

أصابهم ما أصابهم لتلين قلوبهم وينقادوا للحق، ولكن قلوبهم كانت قاسية بتصميمها على الكفر لا ينفذ إليها أي شعاع من أنوار الإيمان، تلكم القسوة التي تسبب في

تمكنها منهم اتّباعهم لما يلقيه، في نفوسهم، الشيطان الذي خلط عليهم القِيَمَ بوسوسته.

44-فلما نسوا ما ذكروا...مبلسون.

تابع الشيطان تضليلهم، وهم قد واصلوا الإصغاء لما يزينه لهم من الإعراض، حتى أقفل على قلوبهم، فقطعت كل صلة لها بهداية الله، وفاتهم التنبه إلى ما ينتظرهم من النقمة الكبرى. واستدرجهم ما فتح عليهم من مختلف ضروب متاع الحياة الدنيا ونعيمها، فأمعنوا في اغترارهم بزخارف الحياة وزينتها. وبلغوا قمة الفساد عندما خيل إليهم أن لا نعيم وراء ما هم فيه، ولا قادر على الحيلولة بينهم وبين ما تمكنوا منه. وعبّوا صنوفا من اللذة لا يحكمها خُلُقٌ ولا قيم. إن وضعهم حسب سنن الكون، هو أنهم أصبحوا مهيئين للزوال، وفعلا أصابهم الله بالنقمة الماحقة التي نزلت عليهم فجأة، فإذا اليأس يحل محل عريض الآمال التي كانت تملي لهم، وتم استئصالهم فلم ينج منهم أحد بسبب ظلمهم للحق وتمردهم على الفضيلة والإيمان.

45-فقطع دابر القوم الذين كفروا...رب العالمين.

انتقمنا من المشركين ،استأصلناهم عن آخرهم، ولم نبق لهم أي أثر. ويعلمنا القرآن في خاتمة الآيات بأن موقف المؤمن من تقلبات أمور الحياة أن عليه أن يتوجه لله بالحمد والثناء على حكمته وكمال فضله في حسن تصرفه.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

أخذ الله : عطل الله.

الختم على القلوب : جعل القلوب مقفلة لا ينفذ إليها نور الإيمان.

يأتيكم به: يعيده إليكم

تصريف الآيات : تنوعها.

يصدفون: يعرضون إعراضا شديدا

بغتة : دون توقع لقدومه.

جهرة : يبدو لكم أوائله ثم يتتابع إلى أن ينزل.

يمسهم العذاب: يلتصق بهم التصاقا يجعلهم يحسون بألمه أشد ما يكون الإحساس.

خزائن الله : ما هو في ملك الله من الأرزاق أو العلم.

بيان المعنى الإجمالي:

يهدد القرآن المشركين ملحا لهم بأن ما يعبدونه من دون الله لا يستطيع أن يحميهم لو أراد الله أن يحرمهم من أسماعهم وأبصارهم، أو أن يجعل عقولهم محجوبة عن الإدراك. إنه من العجب إعراضهم، رغم أن القرآن ينوع الأدلة الحسية والعقلية. ثم ينبههم ليتأملوا في عجزهم، فلو أراد الله أن ينزل بهم عذابه في ضربة واحدة أو يتفاقم، فإن عذابه ينزل بهم لا محالة لأنهم ظالمون، ولا أشد ظلما من الشرك.

إن ما اقترحوه من المعجزات غير وارد، لأن مهمة المرسلين هي إبلاغ البشر ما أعد الله للمطيعين من ثواب، وتحذير المخالفين من نقمة الله وعذابه، وليست مهمتهم عرض المعجزات حسبما يصوره لهم عنادهم. فمن آمن بالله وما أنزله على رسوله يطمئن لسعادته في الدنيا والآخرة. ومن كذب يلصق به عذابا يعم كل جزء من أجزاء بدنه، وذلك بسبب الآثام التي ارتكبها.

وقل لهم، معرفا بمهمتك: إني لا أملك ما اختص الله به من ملك وليس لي علم شامل لما هو مخبأ عن البشر (الغيب) ولست ملَكًا. مهمتي مقصورة على اتِّباع ما يوحي به الله إلي. فمن تأمل فيما جئت به من عقيدة وشريعة فقد فتح عقله، وهو كمن سلم بصره سلامة ينقل له المرئيات كما هي، ومن أعرض عن الهداية فهو كالأعمى لا يهتدي إلى الطريق المأمون. ما لكم لا تتفكرون فتتركون الحق؟

بيان المعنى العام:

46-قل أرايتم إن أخذ الله...ثم هم يصدفون.

هدد القرآن المشركين بسلب الله إياهم نعمه التي أنعم بها عليهم وقابلوها بكفرانها. فقد مكنهم من وسائل الإدراك للمحسوسات والمعقولات: السمع والبصر والعقول، فيسألهم سؤال تبكيت: أي إله يستطيع أن يرد عليكم واحدا منها لو أراد الله تعطيله ؟ وهم يقرون بأنه لا يوجد واحد من آلهتهم التي يعبدونها يستطيع ذلك.

ثم يبرزهم القرآن في صورة الحيارى التائهين. المطلوب من الناس أن ينظروا إلى تناقضهم وغبائهم، فقد تنوعت الأدلة، من المحسوس في خلق السماوات والأرض، في مجموعها وفي جزئياتها، ومن المعقول بما عرضه من الأدلة والبراهين الواضحة. فسواء اعتبروا بما تنقله إليهم الحواس أو بالتفكر بواسطة عقولهم في الأدلة، مما ينفي كل شك ويرفع كل شبهة وريب، ومع ذلك هم يعرضون عما تفيده ويصممون على مواصلة الكفر بالله.

47-قل أرأيتكم إن أتاكم....إلا القوم الظالمون.

ثم هددهم بنوع آخر حاصلة ؛ أن عذاب الله يسلطه على من أراد تسليطه، قد يأتي ضربة قاصمة في سرعة وقوة ماحقة، وقد يأتي متطورا من مستوى إلى مستوى أعلى حتى يسحقهم العذاب. ويسألهم عقب إيقاظهم لما يمكن أن يسلط عليهم من العذاب سؤال إنكار في قوة النفي، بمعنى لا يهلك إلا القوم الظالمون، والشرك أشد أنواع الظلم. إن الشرك لظلم عظيم.

48-وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين...ولاهم يحزنون.

تابع الرد على المشركين، لما تكرر منهم مطالبة الرسول، بأن يؤيد الله الذي بعثه بمعجزات على وفق ما يقترحونه. فقرر القرآن أن سنة الله في بعث الرسل أن يمكنهم من التشريع الهادي للعقيدة البينة، ويقرنون دعوتهم بالبشارة بحسن الحاضر والعاقبة لمن اتبعهم، ويحذر الذين يرفضون اتّباع هداهم بالعذاب وخسارة الدنيا والآخرة. ويحقق القرآن في الواقع ما بشروا به وأنذروا منه. فمن سلمت عقيدته وصلحت أفعاله، تحقق جزاؤه باطمئنانه على وضعه فلا هو يخاف من المستقبل ولا يحزن على ما مضى. وفي المقابل فإن الذين رفضوا دعوة الرسل وكذبوا بما أنزله الله من المعجزات المؤيدة، وبشواهد العقل والدلائل الواضحة، يعذبون بسبب عصيانهم. ومس العذاب معناه أنه ينفذ إلى جميع حواسهم فيبلغ ألمه جميع المواطن. ذلك أنه لكل إدراك من المحسوسات جهاز في البدن يختص به، إلا الإحساس بالمس فإنه منتشر في جميع أجزاء البدن. ويتتابع أمر الله لرسوله بكلمة:[قل] وذلك لإبراز الاهتمام بما يرد بعد الأمر. فما هو الأمر المهم الذي أمر النبي ﷺ أن يقوله ويعلنه؟

50-قل لا أقول لكم عندي خزائن...أفلا تتفكرون.

أمر أن يصرح تصريحا ينفي كل شبهة وكل ادعاء: إن مهامه التي أوكلت إليه من ربه لا تتعدى ما يقترن بتثبيت مضامين الرسالة، ولذا فكل مقترحات المشركين لا مدخل لها في المهمة التي أوكلت إليه.

فما اقترحوه من بيت من زخرف أو كتاب في قرطاس، أو الإجابة عن المغيبات، أو أن يكون معه ملك يصحبه ينسجم وإياه انسجاما يجعل صلتهما دائمة لتوافق طبيعتهما، هذه المقترحات وأمثالها من الخوارق لا مدخل لها في مضامين الرسالة.

ولما نفى أن يكون لما اقترحوه أي صلة بتحقق مهمة الرسالة، أتبع ذلك بالتصريح بتحديد مضمون الرسالة التي يحرص عليها ﷺ أتم الحرص، ويتبعها دون أن يفرط في أي جزء منها. فمضمونها أنه ملتزم بما يأتيه من الوحي من الله لا يزيد عليه ولا ينقص منه، ولا يضيف إليه شيئا ولا يخفي منه أي شيء.

ثم أمر النبي ﷺ بـ(قل) ليواجههم محددا وضعهم الذي هم عليه، وذلك في صورة سؤال إنكاري ليكون أبلغ في الإثارة، هل يستوي الأعمى والبصير ؟ والإجابة عنه من الأمور البديهية، إلا أنه يشير إلى أن وضع الكافرين في الحياة كوضع العُمْي السائرين في الطريق، فهم إلى الضلال والضياع، لا ينتفعون بدلائل السَّيْر المنصوبة، ولا يدركون حتى الاتجاه الذي يبلغهم غايتهم. وأن وضع المؤمنين كوضع سالمي البصر ينتفعون بما بلغهم الرسول إياه من هدى الله فهم على الصراط المستقيم المنجي والمبلغ للغاية. ويسألهم سؤال إنكار يلحقه بالسؤال الأول، ما لكم لا تعملون عقولكم حتى تظهر لكم الحقيقة بينة مكشوفة.

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغداة : أول النهار .

العشي: من الزوال إلى الصباح.

من الله عليهم :هداهم بالسبق للإيمان.

سوءا: معصية.

بجهالة : بسبب حماقة، وغفلة عما تقتضيه صلته بالله.

التفصيل : التوضيح والتبيين.

بيان المعنى الإجمالي :

خص يا محمد بمزيد من العناية، الذين توثقت صلتهم بالله، فكانوا يخشون اليوم الذي يعرضون فيه على ربهم، إنهم يجتهدون في تطبيق شريعته ابتغاء مرضاته، ليقينهم أنهم ليس لهم نصير ولا شافع في ذلك اليوم إلا الله. فبعنايتك بهم يرجى لهم أن يكونوا من المتقين.

ولا تمنع من مجلسك أولئك المتعلقين بالله، الذين يبتهلون بالدعاء إليه كامل أوقات حياتهم، مخلصين له لا يبغون إلا مرضاته. إنك لا تحمل من حسابهم أي شيء وهم لا يحملون من حسابك شيئا، فكل امرئ يحاسب على ما قدم، ومهمتك أن توالي تذكيرهم، إنهم أهل لأن يعتني بهم فحرمانهم من مجلسك ظلم لهم، وحاشا رسول الله أن يظلم هؤلاء المخلصين، ولكن في هذه الصورة ما يوقظ المؤمنين لتوثيق ارتباطهم بالمستضعفين من المؤمنين والمؤمنات. لقد فتن الكافرون بسببهم، لأنهم ترفعوا عن اتّباع الحق الذي جاء به الإسلام لإسراع المستضعفين في التمسك به. إنهم ينظرون إليهم نظرة احتقار لهم لفقرهم وهوان منزلتهم الاجتماعية. وما سبقهم للإسلام إلا جزاء شكرهم لنعمة الله عليهم الذي لا يخفى عليه شكر الشاكرين، فيجزيهم بالهداية والتوفيق.

ثم يتوجه الخطاب القرآني لرسول الله ﷺ ليكرمهم عند قدومهم عليه فيبادرهم بالسلام، ويعلن لهم أن الله قد ألزم نفسه الرحمة الواسعة الشاملة، وأنه قد خصهم بأن من غفل منهم عن الطاعة الواجبة، ثم استيقظ فتاب، وتحول عن عمل السوء إلى عمل الخير، فإن الله يتوب عليه لأنه واسع المغفرة، عظيم الرحمة. إنه على تلك الطريقة الواضحة البينة تنزل عليك آيات الكتاب مفصلة لا لبس فيها، ونمكنك من الاطلاع على خفايا ما تنطوي عليه نفوس المجرمين.

بيان المعنى العام :

51- وأنذر به الذين يخافون...لعلهم يتقون.

تتواصل الأوامر الإلهية للرسول ﷺ تهديه للتي هي أقوم في أداء مهمته الشريفة. فأمر أن يخص بمزيد العناية الذين آمنوا وصحب أرواحهم وعقولهم الخشية من أن يكونوا يوم القيامة معدودين من المقصرين. إن هؤلاء الذين استقر الإيمان في قلوبهم فكانوا دوما على صلة بالله، يحذرون أن يلقوه يوم القيامة دون المستوى الذي هداهم إليه بواسطة رسوله، ولذا تجدهم حريصين أشد الحرص على مجالس النبي ﷺ ليعمقوا إيمانهم ومعرفتهم بأحكام الدين، وليقتبسوا من أنوار النبوة ما يضيء لهم مسارهم في الحياة. وهم على اقتناع كامل بأنهم لا يجدون يوم القيامة من يتولاهم ويدافع عنهم ولا من يشفع في تقصيرهم، وكل اعتمادهم على ربهم وعلى ربهم وحده. إن عنايتك بهم هي السبيل التي يرجى بها أن تحصل التقوى في قلوبهم.

52-ولا تطرد الذين يدعون ربهم....من الظالمين.

يتابع القرآن توجيه الرسول إلى الحرص على هؤلاء، فينهاه أن يعرض عنهم في مجلسه بتخصيص عنايته ببعض المستكبرين من المشركين الذين أبت عليهم كبرياؤهم وعنجهيتهم أن يستووا في مجالس التذكير النبوي مع الفقراء والمستضعفين، وطلبوا من الرسول أن يفصل بينهم، ويبعدهم عنه.فقابل القرآن ازدراء المشركين لهم بالتنويه بهم وإظهار مزاياهم. وأولها صفاء الإيمان الذي جعلهم يدعون ربهم ولا يدعون غيره في جميع حاجاتهم ، هم على هذه الحالة كامل أيام حياتهم في الليل والنهار في الصباح والمساء، هذا الصفاء الذي صاحبه الإخلاص. إن دعاءهم وابتهالاتهم خالصة لوجه الله لا يبغون بها إلا رضاه. فواصل عنايتك بهم، فتلك هي مهمتك الشريفة، ولا تتحمل حسابهم على ما قدموا كما لا يتحملون شيئا من حسابك، فكل فرد من البشر مسؤول عما قدم في حياته .وأن حساب الفرد مرتبط بسلامة عقيدته وصلاح عمله، وأن قيمته عند الله تكون تبعا لذلك على هذا النحو، وعلى المؤمنين أن يلتزموا بهذه القيمة في التعامل، ولا يدخلوا في مقاييسهم الغنى والفقر والمستوى الاجتماعي. ولتأكيد الالتزام بهذا الأدب وجه الخطاب إلى النبي ﷺ بقوله: (فتطردهم فتكون من الظالمين) مع أنه لا يتصور من علو أخلاقه ﷺ أن يطردهم، وهم يبغون تنوير بصائرهم مما أنزل

إليه. ففي ذلك أبلغ تأكيد على تنبيه المؤمنين معاملة الناس حسب قيمهم لا حسب ثرائهم.

53-وكذلك فتنا بعضهم ببعض...بأعلم بالشاكرين.

وعلى هذا النحو من التمييز بين المستكبرين الذين يرفضون قبول الهداية لأن المستضعفين الفقراء أكرمهم الله بالسبق للإيمان، وبين هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، كان هؤلاء المستضعفون فتنة للمستكبرين حالت بينهم وبين الدخول في دين الله. ثم كشف القرآن عن هذه الفتنة التي خدعوا أنفسهم بها دون أن يصرحوا بها وقد امتلأوا كبرا وعجبا، كيف يقبل حسب مقاييسهم أن يمن الله على هؤلاء الذين قيمتهم الاجتماعية منحطة لإحاطة الخصاصة بهم، ولا أثر لهم في مسار الحياة، كيف يمن الله عليهم بالسبق للإيمان؟ ويرد عليهم القرآن أبلغ رد بقوله: أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ إنما منّ الله به عليهم من الهداية، هو من آثار علمه الذي يصل إلى بواطن الأمور وصوله إلى الظواهر، فهو سبحانه يعلم الشاكرين لفضله المتعلقين به الراغبين في رضاه فيجازيهم بتأييده لهم بألطافه، وبذلك سبقوا إلى الإيمان.

54-وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا...فإنه غفور رحيم.

ووالى القرآن عنايته بالمؤمنين الصالحين الداعين ربهم بالغداة والعشي، فطلب من نبيه أن يكرمهم إذا قدموا عليه إبرازا لفضلهم، وذلك بابتدائهم بالسلام إخبارا لهم بأن الله كتب لهم الأمن وهم مع رسوله آمنون. ثم تأكيد نوالهم لفضل الله: بأنه سبحانه أثبت لنفسه الرحمة، وما أثبته لا يقبل الزوال ولا الضعف. فرحمته عامة شاملة لمن أراد أن يدخله فيها. ومن تفاصيل هذه الرّحمة أن منْ زلّ من المؤمنين، فوقع في الخطيئة وارتكب الإثم، ثم تيقظ بعد ذلك، وأصلح حاله بالتوبة والإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، فإن الله يتوب عليه ويمحو ذنبه، وذلك لأنه سبحانه متصف ببالغ المغفرة وعظيم الرحمة .

55-وكذلك نفصل الآيات...سبيل المجرمين.

إنه على هذا النحو من التوضيح والتبيين يكرمك ربك بالبيان القرآني الواضح، فيفصل آياته تفصيلاً لا يبقي فيها لبسا فيحصل لك الوضوح الكامل الذي تتبين به آياته، ويعرفك بالطريق الخبيثة التي يسير فيها المجرمون. فتتكشف لك دخائل نفوسهم، وما يبيتونه من مكر، وما امتلأت به صدورهم من حسد وكبر.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأهواء :جمع هوى، وهو ميل النفس تبعا لعاطفة لا لنظر عقلي.

البينة : الحجة المثبتة للحق بوضوح تام.

تستعجلون به : طلب تعجيل العذاب الذي أنذرهم به.

قضي الأمر: انتهى النزاع والخلاف.

بيان المعنى الإجمالي :

أدخل اليأس في قلوب المشركين من أن يستطيعوا صدك عن الدعوة، بإعلان أنك مطيع لربك الذي نهاك عن الشرك وعبادة غيره، فإن معبوداتكم لا تقوم عليها حجة ولا دليل، وإنما سندها الهوى المضلل، وأنا لست ضالا ولو اتبعتكم لفارقت الجماعة المهتدية، صارحْهم بأنك موقن اليقين الكامل من أنك سائر على منهج واضح بين، لا غموض فيه ولا ريب. هداني إليه ربي الذي يرعاني. ولما كذبتم بذلك فالقطيعة بيني وبينكم. إن ما تطلبون تعجيله من العذاب الذي أنذرتكم به ليس داخلا تحت قدرتي. إن ذلك من قضاء الله وحده، الله الذي لا يخبر إلا بالصدق ولا يقضي إلا بالحق، ولا أبلغ عدلا ولا أصدق حديثا من عدل الله وخبره. وما لكم لا تفهمون؟ إنه لو كان إنزال العذاب بيدي لتم الفصل بيني وبينكم، ولكنه من خصائص القدرة الإلهية. إن تأخيره ليس نتيجة غفلة عن ظلمكم، فالله لا يغيب عنه ظلم الظالمين، وسينزل عليكم عذابه فلا مفر لكم من ذلك.

بيان المعنى العام:

56-قل إني نهيت أن أعبد....من المهتدين.

تفيد هذه الآية نوعا آخر من نقض الشرك، فبعد دحض الشرك بالأدلة العقلية، وبالنظر في كتاب الكون، ينقض الشرك بأن الله مالك الكون كله نهى عن عبادة هذه الأصنام التي عبدت بغير حق. ويخاطبهم بقوله: إن عبادتكم لا سند لها إلا الهوى

ولم تقم على عقل ولا على منطق. وإن اتبعت أهواءكم أكون قد ضللت وفارقت المهتدين الذين أنا معهم على الصراط المستقيم. فلا مطمع لكم في الانحياز إلى ما تعبدون.

57-قل إني على بينة من ربي....خير الفاصلين.

بعد أن اجتهد المشركون في صده عن مواصلة الدعوة للإسلام بمختلف أنواع الإذاية القولية والنفسية والفعلية، رجاء أن يعود إلى دينهم، واجههم بما يقطع أطماعهم ويدخل اليأس الذي لا رجاء بعده في نفوسهم بتصريحه: إنه يسير في عقيدته وفكره على أدلة بينة واضحة، وصادقة لا شك فيها، وصلتني من ربي الذي أنا محل عنايته. هذا الذي جاءني من الحق من ربي قد كذبتم به، فالقطيعة بيننا ولا شيء يجمعنا. ويسرع بإجابتهم عما يوردونه من طلبهم تعجيل ما أنذرهم به من العذاب، بإيقاظهم إلى الحقيقة التي جلاها بما أوحي إليه وبما يقتضيه العقل : إن التصرف هو لله لا لي، ينزل عذابه في اللحظة التي تقتضيها حكمته.
والحكم لله لا يؤثر فيه استعجال المستعجلين ولا استبطاء المستبطئين. وهذه هي السنة التي يجري عليها قضاء الله وخبره. فالله لا يخبر إلا بالحق ولا يقضي إلا بالحق، وينفذه في الوقت الذي قدره وعلى الطريقة النابعة من حكمته البالغة.

58-قل لو أن عندي ما تستعجلون به...أعلم بالظالمين.

ويلقن رسوله آمرا له أن يقول لهم: إنه لو كان تعجيل العذاب الذي أنذرتكم به، والذي تطلبون أن يحل بكم، لو كان هذا العذاب بيدي لأنزلته عليكم وقضي الأمر وانتهى، فما لكم لا تفهمون؟ ولكن الماسك بالأمور العليم بها الذي يُصَرّفها حسب إرادته، هو الذي لا يخفى عليه ظلم الظالمين، فإذا أخر عذابهم فليس ذلك لغفلته، بل هو تابع لتقديره وحكمته.

۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (59) وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا

يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

مفاتيح : جمع مفتح، وهو المفتاح، ومفتح أفصح من مفتاح.

الغيب: ما لا سبيل إلى علمه.

كتاب مبين : موثق بوضوح.

التوفي :التوفي الأصل فيه الإماتة، وفي الآية الحالة التي يكون عليها الإنسان عند النوم، لا يدرك ما حوله.

جرحتم : كسبتم.

توفته رسلنا: قبضت روحه الملائكة الموكلون بذلك.

لا يفرطون : لا يقصرون.

التضرع : التذلل.

خفية : سرا بدون رفع صوت.

الشاكر : هو من يرعى نعمة المنعم معبرا بالمقال والحال عن ذلك الاعتراف.

يلبسكم شيعا : يخلط عليكم أموركم، فلا ينتظم لكم رأي بل تكونون أحزابا مختلفين.

تصريف الآيات : تنويعها.

بيان المعنى الإجمالي :

الغيب وهو ما لا طمع للإنسان في معرفته لخروجه عن دائرة الانكشاف بوسائل المعرفة التي مكن منها الإنسان. هذا الغيب تفرد الله بعلمه ولا يشاركه في ذلك أحد، وكأنه باب مقفل مفاتيحه بيده سبحانه. فعلم الله لا تفوته الدقائق الخفية في باطن الأرض أو على ظهرها، وكذلك ما برز فوق سطح أمواج البحار وما

احتضنته من كائنات في قعرها القريب والبعيد. وكل تحول، ولو يبدو حسب النظرة الأولى تافها، لا يغيب عن علمه، حتى إن أي ورقة تسقط، وأي حبة مخزونة داخل طبقات الأرض، وأي رطب أو يابس، وصلب أو رخو، الكل موثق في علم الله توثيقا لا يفلت منه شيء.

البشر كلهم تحت تصرفه. تنبه أيها الإنسان في تصرف الله فيك، فهو يسلبك كل يوم روحك، فيتعطل إدراكك لما حولك، عند نومك، ويقبض روحك قبضا نهائيا من الحياة الدنيا متى أراد، وهو الذي يبعث فيك اليقظة بعد النوم ليتعاقب التصرف فيك من العليم بكل ما تقوم به من نشاط في الكون علما كاشفا يتجاوز الظاهر إلى حقيقة الفعل وغاياته، منتهيا إلى رجوعك فريدا عنده، فينبئك عما قدمت ويجزيك عنه الجزاء العادل.

والعجب من الإنسان كيف يخرب فكره بالشك مع هذه الشواهد الحاضرة في نفسه كل يوم. إنه الله المتحكم فيكم يرضخكم لإرادته، وتصحبكم ملائكته يحصون عليكم أفعالكم، إلى أن يرسل من يقبض أرواحكم، ولا ينجو من ذلك أحد. ثم ترجعون إلى الله الذي يتولاكم ولا يتولاكم غيره، وهو الحاكم لا حاكم سواه، يحاسبكم في سرعة فوق ما تتصورون. إن الشواهد على ذلك في حياتكم الدنيا كثيرة. فعندما ترجف قلوبكم في الظلمات برا أو بحرا وتضطربون ضارعين لا تقدرون على رفع الصوت من شدة الخوف، مقدمين توبتكم: إنّهُ إذا تفضل عليكم فأنجاكم لتكونَنّ من المعترفين بالفضل العاملين بما تقتضيه المنة، من ينجيكم؟ ولا ينتظر منهم الجواب لأن الجواب واحد يدمغهم به، إن الله وحده هو القادر على إنجائكم، والغريب أنكم بعد ذلك تشركون به فتدعون معه آلهة ما أسعفكم واحد منها.

ويبرز هذا المقطع في خاتمته عجز الإنسان، وتفرد الله بالقدرة، فيهدد المشركين بأن الله قادر على سحقهم بتسليط العذاب عليهم، فيأتيهم من فوقهم كالصواعق والرياح العاتية، أو يهلكهم بعذاب من تحت أرجلهم كالزلازل وانفجار البراكين، أو يقضي على قوتهم الاجتماعية، فتتفرق كلمتهم ويعظم التعصب، وينقلب كل فريق خصما لغيره همه في إذايته والاعتداء على حياته ومكتسباته، وبذلك يتحلل المجتمع ويبتلعه أعداؤه.

بيان المعنى العام :

59-وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو...في كتاب مبين.

هذه الآيات توضح العقيدة الإسلامية في قدرة الله وعلمه. فصل للمؤمنين ما يوضح ويقرب منهم حقائق علمه وقدرته.

يقرر القرآن أن الله متفرد بعلم الغيب، وهو كل ما لا يستطيع البشر أن يدركوه بما أوتوه من وسائل. فبعض الأمور الخفية التي يدركها بعض البشر بذكائهم أو بواسطة الآلات الكاشفة ليست من الغيب.

ثم فصلت الآية بعض التفصيل سعة العلم الإلهي، فهو سبحانه يعلم ما حوته الأرض اليابسة، وما حوته البحار والأنهار، ولفت النظر إلى أن التحولات التي تطرأ على الكائنات لا تغيب عن علمه ، وإن كانت تافهة، فسقوط ورقة من الشجرة، معلومة له سبحانه في تاريخ سقوطها وفي المكان التي تنزل فيه، وفي التحولات التي تطرأ عليها بعد ذلك. وكذلك الحبة المندسة في الطبقات الخفية للأرض، وضعها وتحولاتها، وبصفة عامة كل رطب وكل يابس من أجزاء الكون، مضبوط أمره مقدما ضبطا دقيقا بينا لا غموض فيه. عبر عن ذلك بالكتاب المبين.

60- وهو الذي يتوفاكم بالليل...بما كنتم تعملون.

نبهت الآية إلى وضع من أوضاع الإنسان يمر عليه كل يوم، وهو مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، ومحدودية القدرة البشرية، وهي حالة نومه التي يغيب فيها عن إدراك ما حوله، ثم يستيقظ ويعود كما كان، وهو تنبيه إلى إمكان ومعقولية أمر البعث.

كما نصت على أن علم الله لا يغيب عنه أي عمل يقوم به الإنسان في حياته، وربطت الآية العلم بأعماله في النهار، لأن معظم ما ينجزه الإنسان من خير أو شر يتم في النهار. ومع العلم يبدو مظهر القدرة في تمكين الإنسان من الفعل. ذلك التقلب بين الليل والنهار تتحقق به النهاية المقدرة لكل فرد تقديرا يحدد أجله بتعاقبهما، لا يزيد لحظة على أجله المقدر له ولا ينقص منه لحظة. هذا التقدير والضبط ينتهي إلى غاية هي رجوع جميع البشر إلى خالقهم بعد أن ينتهي حظ كل واحد منهم في الدنيا.

61-وهو القاهر فوق عباده...لا يفرطون.

إن ما يجري على البشر ليس عبثا، بل هو ينتهي إلى توقيف كل فرد على ما عمل من خير أو شر باعتباره مسؤولا عن أعماله، وبالتالي هو مجزي عنها. ليستيقظ كل فرد من غفلته، وليعلم بما لفت إليه القرآن من حالتي النوم واليقظة، ومن جريان الموت، بإرادة الله وتقديره في كل ذلك، فلا قدرة للإنسان على مواصلة اليقظة إذا

أخذه النوم غلابـا، ولا يطيـل أجلـه إذا حضـر داعـي المـوت. إن المتصـرف ذلـك التصرف الذي يُخضع الإنسان أراد أو أبـى هـو الله، فظهـر أنـه هـو القـاهر فـوق عباده .

62-ثم ردوا إلى الله....أسرع الحاسبين.

يزيد تلكم الحقيقـة تفصـيلا : مـا مفـاده أن الله أوكـل بكـل إنسـان ملائكـة يرقبـون ويسجلون كل ما عمله من خير أو شر، يلازمونه فـي كـل حـال مـن أحوالـه لا يغيـب عنهم من أمره شيء. تتواصل تلكـم الرقابـة وتلكـم التسـجيل إلـى أن يبعـث الله مـن يقبض روحه. هم ملائكة أمناء لا تلحقهم الغفلة، فـلا ينفلـت أحـد تـم أجلـه مـن تنفيـذ أمر الله فيه. ثم يصير كل فرد إلـى حكـم الله مـن ثـواب أو عقـاب. والله هـو سـيدهم الحق الكامل السيادة والملك، انتبهوا ! فهو الحـاكم ولا حـاكم غيـره ولا يشـاركه أحـد في أحكامه (ألا له الحكم) وسيحاسـب كـل فـرد عمـا قـدم، ومقاييسـكم فـي سـرعة الحساب هي مقاييس بشرية، وحساب الله يفوق فـي سـرعته كـل تصـور. فمـا سـرعة الحاسوبات العملاقة في عصرنا هذا إلا كحركة قطرة في أمواج المحيطات.

63-64، قل من ينجيكم من ظلمات... ثم أنتم تشركون.

ثم يكشف حجاب الغفلة عـن الأنظـار، فيسـأل البشـر جمـيعهم، مـن الـذي يقـدر أن ينجيكم عندما تختلط عليكم مسالك البـراري فـي الظـلام الـدامس؟ وعنـدما تضـطرب الأمواج ويهيج البحر، وتحجـب السـحب السـماء فـلا نجـم يهـدي ولا القمـر ينيـر، وتطبق عليكم ظلماته، نعم فـي هـذه الظـروف يشـتد الإحسـاس بالضـعف والخـوف من الهلاك ؟ وقبل أن يتلقى منهم الإجابـة يسـرع إلـى بيـان الحقيقـة التـي لا حقيقـة غيرها : أنكم تلجؤون إلـى الله، وقـد ضـؤلت فـي أعيـنكم قـدراتكم شـاعرين بالـذل وجلين، تسرون بـدعواتكم وابتهـالاتكم، معاهـدين علـى الشـكر إذا قـدر لكـم النجـاة. ولكن أصحاب النفوس المريضة التي تمكن منهـا الانحـراف لا تسـتقيم إذا ذهـب عنهـا الخوف، ولذا يسجل القرآن عليهم أنهم إذا انكشف عنهم مـا كـانوا يخشـونه عـادوا إلـى ما كانوا عليه من التقرب لآلهتهم والإشراك بالله.

65-قل هو القادر على أن يبعث عليكم....لعلهم يفقهون.

يتوجه القرآن لهم بالتهديد المرعب: إن الله وحده هـو القـادر الـذي لا يعجـزه أن ينـتقم منكم بأنواع العذاب الـذي لا تسـتطيعون لـه ردا. فينـزل علـيكم العـذاب مـن فـوق رؤوسكم فلا ملجأ لكم منـه، أو يرسـل عذابـه علـيكم مـن تحـت أرجلكـم كـالزلازل والانفجارات النارية كما يشاهد في البراكين عنـد عـودة النشـاط إليهـا. وعـذاب آخـر

يكشف به القرآن عن أمر خطير يصيب المجتمعات، وذلك بأن تختلف كلمتهم، ويتعصب كل حزب لرأيه، تعصبا يدفع إلى البغضاء والقتال، فيتسلط كل فريق على الفريق الآخر بالقتل والتنكيل. وهو ما يتبعه الذوبان والاستعداد الذاتي لقبول التسلط المستبد، والذل المقيم. ثم يحرك كل من يملك القدرة على التأمل ليبدي عجبه من أمر هؤلاء المشركين:

كيف إن الله يوقظهم بمتنوع الآيات الجامعة بين البشارة والإنذار وبين التأمين والتخويف وبين الكشف عن بواطن الأمور ومآلاتها، وبين العرض الجامع لمظاهر التقدير المحكم في أنفسهم وفي الآفاق. كل ذلك من فضل الله من شأنه أن يقربهم من إدراك الحق والتزامه، ولكنهم لعنادهم وتشبثهم بالكفر لا ينتفعون به.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الوكيل : المدافع والناصر.

النبأ : الخبر المهم.

مستقر : وقت يحصل فيه.

يخوضون في آياتنا : يتكلمون فيها بالباطل.

أعرض عنهم : اترك الجلوس معهم.

الذكرى : التذكر.

ذر : اترك.

غرتهم : خدعتهم.

تبسل نفس : تحبس حبساً لا مفر منه.

بما كسبت : بما جنت من شر.

الولي : الناصر والشفيع.

تعدل : تفدي على قدر ما عوض عنه.

الحميم: الماء الشديد الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن تكذيب مشركي مكة لرسولهم الذي هو منهم، مع أن شواهد صدقه بينة واضحة. قل لهم إني لست قيما عليكم أمنعكم من الكفر. وكل ما أخبرتكم به سيظهر في الوقت الذي قدره الله لإظهاره، وتحققوا أنكم ستشاهدونه وتعلمون صدقي.

وفصل القرآن مواقف المشركين فمنهم :

1) هؤلاء الرافضون المكذبون.

2) ومنهم المبطلون المتكلفون للتشكيك والدس. وعلى كل مؤمن أن لا يجالسهم، فإن مجالستهم خطيرة وخاصة على من لم يكن له نظر ثاقب يكشف تلبيسهم. ولا يتحمل المؤمنون في ترك مجالستهم تقصيرا ولا لوما لأن الآية نزلت قبل الإذن في الدفاع، ولكنهم مطالبون بتذكيرهم عاقبة سوء منهجهم، رجاء أن تحلّ التقوى قلوبهم

3) ومنهم المغرورون بالدنيا وبخاصة حياة الاستمتاع باللعب واللهو.

ذكرّ بالقرآن كل نفس أنها ستحبس وتكون رهينة بما اكتسبته بفعلها وقصدها، وأنها لا تجد وليا ينصرها يخرجها من المأزق الذي وقعت فيه إذ الأمر يوم القيامة لله وحده، ولا تجد شفيعا يتوسط لها، ولا يقبل منها أي فدية، وأولئك المغرورون سيحبسون جزاء لما كسبوه في حياتهم الدنيا. أُعِدّ لهم ماء حميم كأشد ما يكون حرارة يلهب بواطنهم يستغيثون ولايغاثون. وفوق ذلك عذاب يبلغ ألمه كل جزء من كيانهم، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر.

بيان المعنى العام :

67-وكذّب به قومك... بوكيل.

سجل الله على مشركي مكة كفرهم وسوء معاملتهم، فرغم أنهم من قوم سيدنا محمد ﷺ، خبروه في صباه وشبابه وكهولته ولقبوه بالأمين، رغم ذلك، تنكروا لما يقتضيه كل ذلك من تصديقه، وعدم الإسراع إلى الرفض. فأعلنوا تكذيبه، وتكذيب أن يكون

القرآن الذي جاء به من عند الله. رغم أنه هو الحق الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الباطل، فما دعاهم إلا لما يوجبه العقل الراشد والفطرة السليمة.

وفي مواجهة عنادهم أمره الله أن يعلن استجابة لأمره تعالى: أني لست موكلا بمنعكم عن الاسترسال في الكفر، وإنما أبلغكم ما أرسلت به إليكم. ثم هددهم بأن كل ما أخبرتكم به سيتحقق لا محالة، واستعجالكم لا يقدم ولا يؤخر، فتحقق كل خبر أو نزول عذاب، قد قرر الله له في سابق علمه أجل ظهوره في الدنيا أو في الآخرة. وسوف تعلمونه علم اليقين بالمشاهدة.

68-69، وإذا رأيت الذين يخوضون....لعلهم يتقون.

انتقل القرآن لتحديد علاقة الرسول والمؤمنين بالمشركين، فيخاطبه القرآن مع أمته ليهديهم إلى أفضل طريقة في القيام بمهمة الدعوة إلى الله. إن بعض المشركين قد تدربوا على الباطل، وحذقوا الجدال وطوّعت لهم نفوسهم الخبيثة ألسنتهم، فتجدهم بارعين في تلبيس الحق وإكسائه ثوب الباطل والعكس. وقد كانوا معروفين عند رسول الله، فبمجرد ما يراهم مجتمعين يعلم حسبما خَبَرَهُمْ، أن كل همهم الذي يجتمعون عليه ويتساندون فيه، هو تزييف الحقائق وتضليل الناس، ولذلك وردت الآية بصيغة: وإذا رأيت، دون سمعت.

إن هؤلاء الذين أصبحوا رؤوس المروجين للباطل، الذين أقفلوا عقولهم فلا ينفذ إليها شيء مما أوحي إليك، إذا رأيتهم مجتمعين فلا تجالسهم، وأعرض عنهم، إنهم ميؤوس من اتّباعهم للهدى، يتقوّون بجلوس الناس إليهم واستماعهم لباطلهم، فالإعراض عنهم أشد نكاية لهم من محاجتهم. وكما يتوجه الخطاب حسب ظاهره لرسول الله ﷺ، فإنه موجه إلى كل مؤمن ومؤمنة، مبين للموقف الأرشد من هؤلاء الذين يظهرون في كل زمان ومكان، وخطرهم أعظم الخطر، تبعا لذلاقة لسانهم وقدرتهم على قلب الأمور.أكد القرآن على مقاطعتهم إلا إذا خاضوا فيما لا تعلق له بالدين، ونبه إلى أن مجالستهم في الحالة الأولى لم يبق لها مبرر بعد التنبيه الجازم بالمقاطعة. إن هذا المنهج في العلاقة معهم هو منهج بات. وبناء على ذلك فلا يتصور أن تجالسهم إلا أن يكون الشيطان قد أنساك هذا النهي، وليس المراد، والله أعلم، أن الشيطان يتسلط على رسول الله فينسيه، ولكنه مبالغة في بيان الابتعاد عنهم في مجالس خوضهم، مما يفيد أن مجالستهم لا تكون إلا من تأثير شيطاني بنسيان هذه الموعظة، وهو مما لا يتصور أن يحدث من رسول الله ﷺ . ولكن قد يتعرض بعض أمته لنسيان ذلك، فتنبه الآية جميع المؤمنين ليكونوا يقظين، ولا

يتركوا للشيطان سبيلا ينسيهم هذه المقاطعة ولا تدل الآية على نسيان الرسول، واحتمال وقوع ذلك لا يفيد أبدا وقوعه، وغاية ما يفيده (وإما ينسينك الشيطان) الإشارة إلى رفض القرآن أن يحدث ذلك كقوله تعالى، (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين)[1]. إن مجالسهم تلك مناقضة لما عليه المؤمنون، إنهم قوم تمالأوا على الظلم.

والإسلام يقتلع من نفوس اتّباعه كل ظلم. ثم أكد القرآن حقيقة مسؤولية كل إنسان عن أعماله فقط. فنفى مسؤولية المؤمنين المتقين عن خوض الكافرين في آيات الله، وعن حسابهم عنها، لما يمكن أن يتصور من مسؤوليتهم لعدم صدهم عن هذا المنكر العظيم، وذلك لأن الآية من الآيات المكية التي لم يؤذن وقت نزولها بمحاربة الشرك بما يقتلع جذوره. بل القصد من هذا التحذير هو قيام المتقين بوعظ المشركين وتخويفهم مما يترصد هم من عذاب الله، لعلهم يقلعون عن خوضهم.

70-وذر الذين اتخذوا دينهم هزؤوا ولعبا....كانوا يكفرون.

تعرضت الآية إلى نوع آخر من المشركين، وهم الذين جعلوا دينهم مجموعة من اللعب واللهو. وقد كان المشركون يتقربون حول الكعبة بالتصفيق والصفير، وكثير من فرق النصارى يُدخلون، إلى اليوم في عبادتهم، تحريك أوتار الآلات الموسيقية على أوزان خاصة يدمجونها في العبادة، وما يزال اليهود يعتمدون البوق الخاص في التقرب إلى الله. وكثير من الدعاة إلى عبادة الله بغير ما شرعه يحددون رقصات يوهمون الاتّباع الأغرار أنها نشوة القرب من الله. وإذا كان النوع السابق جماعة صمموا على معارضة الإسلام وإلصاق الأباطيل به، وجمعوا حولهم الناس ليصدوهم عن اتّباع الهدى، فإن هذا النوع يلهي الناس بطريقتهم الهابطة التي تبعد بهم عن الجد وتزين من اللعب والهوى ما يغري الرعاع باتّباعهم والانضمام إليهم. مستواهم الذهني هابط بعيد عن النضج يميل إليه ضعفاء العقول. وخوطب الرسول: لا تكترث باستهزائهم ولا تهتم بضلالهم.

ثم امض على ما أنت عليه من عموم تذكيرك بالقرآن كل نفس، لتوقظها للمآل الصعب حين تُحبس بما عملت في هذه الدنيا فلا تجد مخلصا لها :لا ناصر يرعاها ويقدر على تأييدها، ولا شفيع يشفع فيها، لتفرد الله سبحانه بالحكم في ذلك الموقف. ولو حاولتْ أن تفدي نفسها بأن تعطي عطاء أيا كان فإنه يرفض ولا يقبل. فهو اليأس من النجاة بجميع ما يتصور في الدنيا لا نصير ولا شافع ولا فدية.

---

[1] الزخرف آية 81

إن الذين اتخذوا دينهم هزؤا ولعبا محبوسون بما قدموه، يائسون لا منقذ لهم، ووضعهم أسوأ وضع، فهم إذا رغبوا في السقيا لا يقدم لهم إلا شراب يغلي في أفواههم وبطونهم ،وفوق ذلك عذاب، الإحساس بألمه شديد. وذلك هو الجزاء العدل بسبب إصرارهم على الكفر.

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر القدم، يقصد به الرجوع إلى المكان الأول.

استهوته :استولت عليه فأفقدته قوته العقلية فأصبح يسير حسبما توجهه.

حيران: متردد لا يقطع بأمر.

الحق: ضد الباطل ويطلق على القول الجاري على الحكمة والصواب. ويطلق على الفعل البالغ أقصى حد في الإتقان.

قول الله : كل ما يدل على مراده وقضائه في المحشر.

الصور : البوق الذي ينفخ فيه ليجتمع الجيش عند سماعه.

بيان المعنى الإجمالي:

محاولات المشركين لعودة المؤمنين إلى الكفر فاشلة، وأمر النبي ﷺ أن يصارحهم بذلك، لأن آلهتهم عاجزة لا تنفع ولا تضر. إن وضع العودة إلى الشرك كوضع المسافر الذي قطع المسافات ثم رجع إلى منطلقه دون أن يحصل مقصده. بل هو كالمسلوب العقل من الشياطين التائه في الأرض، الموغل في التوحش والفرار من الناس، حتى إن جماعته المشفقين عليه لا يستجيب لندائهم.

يوهم المشركون أنهم على هدى، والهدى واحد، هو دين الإسلام هدى الله ،ولذلك فقد أمرنا ربنا أن نسلم وجوهنا إليه، وأمرنا أن نكون دوما على صلة به بواسطة

الصلاة، وأن تكون قلوبنا عامرة دوما بالتقوى لجلاله. وأعلمنا أن الخلائق سيحشرون بعد البعث ليتم حسابهم. لأنه ما خلقهم عبثا، كشأنه سبحانه في خلق السماوات والأرض، تفرد بخلقها وما تحويه، وخلقه مقرون في كلياته وجزئياته بالحق، بالغا الحد الأعلى من الإتقان، والبشر جزء من هذا الخلق. إن قوله الحق عندما يقول للشيء كن فيكون. وهو المتفرد بالتصرف يوم يعيد الأرواح إلى أجسادها فتستجيب للحشر كما يستجيب أفراد الجيش إذا سمعوا بوق النداء. وحسابه حساب الذي يستوي علمه بالمغيبات عن البشر كعلمه بما ظهر، هو العلم المحيط لأنه بنى أمر الكون كله على الحكمة وهو الحكيم، وأجراه على ما يقتضيه العلم الشامل فهو الخبير به.

بيان المعنى العام :

71-72، قل أندعو من دون الله.... إليه تحشرون.

قل لهم قولا فصلا يجعلهم يائسين من التأثير على المؤمنين: إن انصراف من ينصرف عن الله، فيتوجه إلى صنم عاجز لا يؤثر نفعا، ولا يستطيع أن يضر بدليل أنه ما حقق لراجيه مطلبا، ولا انتقم ممن رفض عبادته، إن من يفعل ذلك خاسر مضيع للخير الذي حصل عليه من منة الله عليه بهدايته إلى الحق، مثله كمثل المسافر الذي خرج قاصدا قضاء مهم، فعاد إلى منطلقه دون أن يحقق ما قصد إليه، ولم يجن إلا التعب والعناء، وهذا لا يرضاه عاقل. ثم أردف ما يؤكد بشاعة الراجع على عقبيه بصورة أخرى ينفر منها كل إنسان، وهي صورة المختل عقله، الذي يعتقد أهل الجاهلية أن الشياطين قد تستولي على عقل بعضهم فتجعله يسير في الأرض على غير هدى ولا إلى غاية، لا يقبل نصحا ولا يدرك مصلحة. لهذا المسلوب عقله أصحاب كان معهم، فنفرهم وتاه، فإشفاقا عليه وحبا فيه يدعونه ليأتيهم، لأن من شأن المسلوبين تحولهم إلى توحش ونفرتهم من الناس ولو كانوا قبل ذلك مرتبطين بهم أوثق الارتباط. فقد شبهت الآية حال من ارتد عن الإسلام بعد أن أكرمه الله بالاهتداء إليه وتركه إخوانه المؤمنين، شبهته بحال من فسد عقله بتأثير الشياطين فيه، فتاه في الأرض وانفصل عن جماعته انفصالا جعله لا يستجيب لدعائهم له.

وواصل الرد عليهم والتأكيد على ضياع جهودهم في فتنة المؤمنين بإيهامهم أنهم على هدى، فقل لهم: إن الهدى الحق واحد هو هدى الله الوارد في وحيه على لسان رسوله، وما عداه مما تدعون إليه باطل وزور ولا يتضمن أي جانب من الهدى.

وقل لهم أيضا: إنا أمرنا لنسلم وجوهنا لرب العالمين الذي خلقنا في أكمل صورة ومكننا من هدايته على لسان رسله. وأنه أمرنا بقوله: أن أقيموا الصلاة، حتى تكون الصلة بيننا وبينه متجددة منقذة من الغفلة. وأمرنا بقوله: اتقوا الله، والتقوى تتكرر في القرآن بكثرة لتكون حية مشعة في قلوب المؤمنين ومداركهم. فجمع في الرد عليهم ثلاثة أركان أمر الله بها، الأمر الذي تتحتم طاعته وهي : إسلام الوجه لله وحده، وإقامة الصلاة، وتقوى الله.

إن هذا التوجيه الإلهي المعتمد على الأركان الثلاثة يفضي إلى الكشف عن الغاية التي هي مآل البشر جميعا، هي حشرهم لديه وحده يوم القيامة ليحاسبهم عن مقدار استجابتهم لتلكم الأركان.

73-وهو الذي خلق السماوات والأرض....الحكيم الخبير.

الفعل الإلهي خالص من كل شائبة عبث أو باطل، يقوم شاهدا على ذلك خلق السماوات والأرض، خلقها خلقا مقترنا بالإتقان الكامل والتقدير المحكم. ففي جزئيات الكواكب وفي مجموعها وفي علاقة كل كوكب منها بغيره من الكواكب يظهر بجلاء للناظرين الحكمة والإتقان، فهي ملتبسة بالحق.

ويستمر هذا الحق يوم البعث، فقوله الحق يوم يقول للمعدوم :كن فيكون، فيتم البعث بالحكمة، كما تمت النشأة الأولى بالحكمة. والمراد بالقول :كل ما يدل على مراده وقضائه من التكوين والبعث والحساب، والثواب والعقاب، والستر والفضح، والتكريم والإذلال.

ويواصل القرآن تفصيل حكمته تعالى في إعادة الخليقة وبعثها بقوله: تفردا لله بالملك يوم النفخ في الصور، يوم يصل النداء المحيي لكل من مر على ظهر الأرض ثم مات. ولا تذهب في تصور النفخ وطريقته وآلته واستجابة الكائنات له مسرعة، فإن ذلك من الغيب الذي استعملت فيه الألفاظ المقربة للتصور العام، لا للتصور الدقيق التفصيلي، لأن مدارك الإنسان في الحياة الفانية قاصرة عن إدراك حقائق الحياة السرمدية الباقية.

وإذ صرح القرآن بالبعث والمعاد والحساب، فإن الكمال المطلق لرب العالمين يقتضي أن يجري على المبعوثين حكمه العادل الذي يخضعون له مقتنعين بعدالته. فصرح بأن علمه بحقائق الأمور هو العلم الكامل الذي يستوي فيه ما هو مشاهد للبشر وما هو مغيب عنهم. فمقاصد البشر من أفعالهم التي قاموا بها في الحياة الدنيا مغيبة، وهي منكشفة لله. فيستوي علمه بما هو في مقدور البشر علمه، وما هو

مستور عنهم لا يصلون إليه. إنه قد أتقن صنع كل مخلوق، لأنه خبير بكل جزئية في وضعها الخاص وتحولاتها ومآلاتها.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝﴾

بيان معاني الألفاظ :

مبين : بين، ظاهر.

ملكوت :الملك العظيم، مملوكات الله في السماوات وفي الأرض.

الموقن : العالم علما لا يقبل الشك.

جن الليل : أظلم.

أفل: ذهب ضوءه لمغيبه في الأفق.

البازغ: المشرق في ابتداء شروقه.

بريء : لا صلة بيني وبين ما تشركون.

بيان المعنى الإجمالي :

أبرز القرآن التوحيد ونفي الشرك، من عرض قصة إبراهيم عليه السلام.ومن متابعة قصة إبراهيم عليه السلام يمكننا أن نوزعها إلى المشاهد التالية :

المشهد الأول : ينعي إبراهيم على أبيه أمرين:

1)اعتقاده بتعدد الآلهة،

2) وأن تكون حجارة جامدة. ويؤكد له : أنه قد أوغل في الضلال البين الذي لا شبهة فيه.

ويتبع القرآن هذا المشهد بأن الله امتن على إبراهيم فأنفذ بصيرته إلى ما وراء الظواهر الكونية في الأرض والسماء، فاقتنع بأنها مملوكة لله، وبلغ درجة اليقين في ذلك مع الصالحين من عباد الله.

المشهد الثاني : أنه كان في رفقة فبدا في ظلام الليل كوكب بين النجوم أشد ضياء، فالتفت لرفقته وقال لهم، وكأنه كان يبحث عن شيء، :هذا ربي يرغب في الوصول إليه : هذا ربي الذي يتولاني. وتابع مع رفاقه مسار الكوكب. ولكنه اختفى بعد زمن. فتوجه إلى رفاقه بقوله: إني لا أرضى لنفسي ربا يغيب عني، فسقط بكلمة واحدة أن يكون الكوكب إلها.

المشهد الثالث : واصل مع رفاقه التأمل في السماء، فصادف أنه بعد مغيب الكوكب المذكور، أشع القمر وظهر في الأفق متميزا، فقال إبراهيم لرفاقه كما قال سابقا: هذا ربي. وتابعُوا النظر. فجرى على القمر ما جرى على الكوكب، وعندها أعلن إبراهيم عن منهجه: إني متمسك بربي الذي يسعدني بالهداية وهو معي في كل لحظة.

ونلحظ أن إبراهيم ﷺ أدمج في المرحلة الثانية زيادة على رفض رضاه بالقمر إلها: أنه موقن بأن الرب الحقيق بالعبادة هو الذي يرقب عبيده ويتولاهم بهدايته.

المشهد الرابع : ما تزال رفقته تصحبه وتطلع عليهم الشمس متوهجةَ، فاستدرجهم إلى النظر في اتخاذ الشمس إلها لكبر حجمها وقوة إشعاعها؛ فقد أخفت جميع الكواكب. ثم تقضّى النهار وأفلت.

ويبدو إبراهيم ﷺ وقد كسب الجولة فيفصح مناديا قومه: لم يصلح أي كوكب ليكون إلها، ولذا فإني بريء من الشرك الذي تعتقدونه، وإني مقبل بعقلي وروحي نحو الذي خلق السماوات والأرض، مائلا عن جميع التصورات التي تعتقدونها، وبكلمة جامعة ليس بيني وبين المشركين صلة.

بيان المعنى العام :

74-وإذ قال إبراهيم لأبيه....مبين.

توالت الآيات في سورة الأنعام مبطلة للشرك محطمة للأوهام التي عششت في العقول فأفسدت تصوراتها بصور متنوعة من الإفصاح عن الحقيقة. وعطف القرآن على ذلك نماذج رزقوا فطرة نقية لم تلوثها العادات والتقاليد، فاهتدوا إلى إثبات الألوهية. يلفت القرآن النظر في هذه الآيات لقصة أبينا إبراهيم ﷺ، وهو يعيش في وسط عمّهُ الشرك وعبادة الأصنام فقادته فطرته السليمة إلى اليقين بأن الله واحد لا يعقل أن يكون له شريك. فلنتابع القصة:

المشهد الأول: إبراهيم ﷺ مع أبيه (آزر) يخاطبه منكرا عليه اتخاذه أصناما آلهة. فهو ينكر عليه أمرين : عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تؤثر.وكون المعبودات

كثيرة. فلم ينكر عليه اتخاذ صنم إلها، وإنما هي أصنام كثيرة وآلهة. وذكرت الآية أن اسم أبي إبراهيم (آزر) ولما كان المذكور في التوراة أن اسم أبيه هو (تارح) أخذ المفسرون في التأويل مسالك عديدة، على أن له اسمين: آزر وتارح، أو إنه عمه، أو إن آزر وصف، أو لقب، أو هو كلمة تدل على السباب، أو إن البلدة التي قدم منها اسمها آزر، الخ.... والذي اطمأننت إليه وجريت عليه في هذا التفسير : أن التوراة والإنجيل لا ثقة بنصوصهما، ليس معنى هذا أنهما كلهما باطل وزيف، ولا أنها حق وصدق، ولكن اختلط فيهما الحق بالباطل وكلام البشر بالوحي. فما يرد فيهما يقضي القرآن عليه باعتباره مهيمنا على جميع الشرائع والكتب السابقة.

75- وكذلك نري إبراهيم...من الموقنين.

يواجه إبراهيم عليه السلام أباه بالدقة الكاملة، فما ينتقده عليه ليس محل محاورة أو جدال، بل إن أباه مغرق في الضلال والابتعاد عن الحق، هو في ضلال واضح ظاهر، من العجب أن يكون قد ثبت عليه وقد مضى على هذا الضلال زمن كبير.

المشهد الثاني :إبراهيم عليه السلام يتأمل في الكون.

إن ذلك الموقف الذي اهتدى إليه وكان له من الشجاعة ما جعله يصرح به وينتقد فيه أباه أقرب الناس إليه في المجتمع، هو من توابع العناية الإلهية التي خص بها.

فالمشهد الثاني: هو أنه على ذلك النحو من التوفيق الذي هداه إليه ربه، كشف له من رؤيته للمُلك العظيم لله في السماوات والأرض ما وراء المحسوس، فنفذ إلى قلبه وروحه ما أزاح عنه كل ريب وشك، فامتلأ من اليقين بتفرد الله بالألوهية وانضم بذلك إلى موكب الموقنين من عباد الله الصالحين.

76-فلما جن عليه الليل رأى كوكبا...الآفلين

المشهد الثالث: إبراهيم عليه السلام يسير مع جماعة، فأظلم عليهم الليل، وسطعت النجوم التي كانت مغيبة في النهار. وينظر في قبة السماء وقد انتشرت في أرجائها النجوم، كما هو الحال قبل أن يغلب التلوث الذي تفاقم في عصرنا، ويتميز كوكب من بين النجوم يبدو أشد بريقا وضياء. التفت إلى الذين حوله مخاطبا: هذا الكوكب البراق المتألق في السماء بين النجوم هو ربي الذي تولاني بعنايته. وكان قومه يعبدون النجوم فاطمأنوا إليه. وواصل السير معهم في ظلام الليل والكوكب يسطع نوره لامعا. وبعد زمن غاب عن الأنظار، فالتفت إلى من كان حوله وقال لهم: لا أرضى أن أتخذ ربا يغيب عني. وفي هذا المشهد يظهر إبراهيم عليه السلام يحاول هداية قومه

بطريقة غير الطريقة التي خاطب بها أباه. فهو يستميلهم مظهرا أنه معهم، ثم يظهر لهم بما جرى على الكوكب، أن تصورهم أحقية عبادته مما يرفضه العقل.

77- فلما رأى القمر بازغا...الضالين.

المشهد الرابع: يواصل سيره مع قومه، وقد هدم خيالهم: أن يكون الكوكب اللامع إلها. وعند مغيب الكوكب يظهر في الأفق القمر عند أول طلوعه أشد إشراقا وأكبر من الكوكب المرفوض، فتوجه لرفقته كأنه وجد ما كان يبحث عنه قائلا : هذا ربي. ويمضون في سيرهم يرقبون القمر، ويأفل القمر فلا يُرى له أثر في السماء. ومن حكمة إبراهيم أنه ترقى في مخاطبة قومه عند أفول القمر فأدمج في كلامه : أنه يؤمن بإله هو الذي يواصل هدايته للحق، فإذا تخلى عنه وانقطع ما بينهما فهو إله لا ينفع في الهداية، ولاشك عنده أنه سيكون مع القوم الذي ضلوا طريق الهداية.

78-فلما رأى الشمس بازغة...بريء من المشركين.

المشهد الخامس :تشرق الشمس على القوم، وهي أشد لمعانا وأقوى ضوءا، ويخاطب قومه بأنه أخطأ مرتين، في اتخاذه الكوكب إلها، ثم في اتخاذه القمر إلها بدل الكوكب وقد أفلا، والشمس أكبر منهما فتكون مستحقة للألوهية أكثر منهما. وينتهي النهار وتغيب الشمس كما غاب قبلها الكوكب والقمر فيكون المشهد السادس.

79-إني وجهت وجهي للذي فطر...وما أنا من المشركين.

المشهد السادس : يصرح إبراهيم في قوة واقتناع متحديا :إن ما أنتم عليه من الشرك، هو لوثة أنا بريء منها. بعد أن تبين من تتبع أحوال الكواكب ليلا ونهارا أنه لا يصلح واحد منها ليكون إلهًا. وإذ انتفت الألوهية عن الكواكب الفائقة، فالكواكب الأضعف أجدر أن لا تكون آلهة. ويبدو في المشهد على أنه ليس سلبيا يعتمد النفي فقط، ولكنه الواثق برأيه الشجاع في إظهاره، فيعلن: إني أقبلت بقلبي وعقلي وبروحي على الذي خلق السماوات والأرض، فأنا منصرف إليه وحده متوجه إليه، منحرف عن جميع الاتجاهات الأخرى التي كانت الشائعة بينكم. وليس بيني وبين المشركين صلة ولا رابطة.

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ

مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

السلطان : الحجة.

يلبسوا : يخلطوا.

آتيناه : ألهمناه الحجة.

بيان المعنى الإجمالي:

المشهد الخامس: إبراهيم عليه السلام بعد إعلانه براءته من الشرك ومن المشركين، يواجه حملةً من عبدة الكواكب والأصنام يدافعون بها عن معبوداتهم. لم يفصل القرآن ما احتج به خصومه عليه، ويفهم من سياق الرد عليهم أنهم شنعوا عليه رفض عقيدة قومه، وخوفوه انتقام الآلهة منه. رد عليهم إبراهيم منكرا متعجبا: أي حجة لكم وقد تفضل الله عليّ فهداني، وكيف لي أن أخشى آلهتكم العاجزة حجارة كانت أو كواكب. إن ربي هو الذي يتصرف في أمري فإن أصابني بضر فبمشيئته، وهو العليم الذي يتحقق علمه في الكون. ما لكم لا تُعْمِلون عقولكم التي تهديكم إلى أن معبوداتكم لا تتصرف في نفسها فكيف تتصرف في غيرها.

إنكم أحق بالخوف مني، فإنكم أشركتم بالله ما لا تقوم عليه حجة. فأيُّنا أحق أن يشعر بالأمن؟ ولم ينتظر إجابتهم فأعلن عليه السلام : أن أحق الفريقين بالشعور بالطمأنينة والأمن، هم الذين آمنوا إيمانا صافيا بالله سبحانه إيمانا لا يشوبه ظلم الشرك، وفوق ذلك هم المفوزون بالهداية.

المشهد السادس: يبدو فيه إبراهيم عليه السلام منتصرا بعد أن تأيد بالحجة التي ألهمه الله إياها فأفحمهم. وأنه محل العناية التي أهلته لأن يكون في زمرة عباد الله الأخيار الذين رفع درجاتهم في مقامات القرب والسمو الإنساني. والله يضفي فضله على من يختاره من عباده تبعا لعلمه الدقيق وحكمته.

بيان المعنى العام:

80-81، وحاجه قومه...إن كنتم تعلمون .

المشهد السابع: أخذ قوم إبراهيم ﷺ يحاجونه إثر انفصاله عنهم وإعلانه عن عقيدته. يستمع لما يخالونه أدلة مقنعة، ثم يتولى رد شبههم أولا، ثم يحتج عليهم بساطع الحجج لإثبات ما آمن به.

طوى القرآن ما احتج به قومه عليه، ولكن يفهم من إجابته أن قومه أوردوا عليه الحجة التي يعتمدها المشركون في مواجهة أنبيائهم، أن عبادة الأصنام والكواكب هي دين الآباء التي عليها ساروا فانتظم أمرهم، وحاولوا التشكيك في الصفات التي تفرد بها الله بالتأثير في الكون والبشر. فكان رده عليهم أنه أحس إحساسا ملأ قلبه باليقين أن الله تولاه بالهداية. وحاجوه بالحجة الأخرى للمشركين، وهي أن الآلهة سيغضبون عليه وينتقمون منه. فرد عليهم أنه لا يخشى أحدا إلا الله وأصنامهم عجزة أبعد ما يكون عن التأثير فهم لا ينفعون أنفسهم، وهم لذلك لا يضرون، فكيف يخشى بأسهم عاقل. وإذا مسني ضر فليس للآلهة المزعومة أي دخل في الضر، إنه يمكن أن يصيبني ضر عندما يشاء ربي أن يسلط علي ضررا، وأنا واثق منه في حالتي العسر واليسر، لأن ربي عليم العلم الشامل بكل ما يقع في الكون، فلا يقع نفع أو ضر إلا بعلمه وإرادته. ثم تحداهم موبخا بقوله : ما لكم لا تتفكرون؟ لماذا عطلتم قواكم الفكرية التي تدركون بها الحقيقة النافية للشرك. ثم انقلب عليهم مهاجما : عجبا لكم تخوفونني بطش أصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك، وكواكب تظهر وتختفي لا تملك البقاء على حالة من الظهور، ولا تخافون بطش الله الذي يتحكم في الكواكب والحجارة التي تعبدونها، وخالق الأكوان لم يمكنكم من حجة توجب عبادة ما تعبدون. فنحن فريقان : أنتم كفرتم بالله واعتمدتم أخيلة لا حقيقة لها، وتنكرتم للخلاق العظيم الذي خلقكم فعصيتم وضللتم، ونحن موقنون بخالقنا الفعال الهادي، متصلون به ونرجو عونه، نجد في قلوبنا أنه معنا. فأينا هو آمن حقا ؟ أجيبوني.

82-الذين آمنوا ولم يلبسوا....وهم مهتدون.

يسرع إبراهيم بالجواب إشارة منه إلى أنه لا يمكن أن يقدم إلا جواب واحد، وهو إن الذين آمنوا إيمانا نقيا، من كل شائبة شرك أو تعطيل، ولم يظلموا الظلم العظيم بالشرك، هم وحدهم المفوزون بالأمن النفسي والعقلي والرّوحيّ. وهم الذين تحققت لهم الهداية إلى الصراط المستقيم، الناجي من يسلكه، الموصل إلى مرضاة الله وحسن ثوابه.

83-وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم....حكيم عليم.

المشهد الثامن: يبدو إبراهيم عليه السلام متألقا مؤيدا، محل الثناء والرضا من رب الأرباب على مر الأزمان.

يشهد الله وكفى بشهادته شهادة أنه ألهمَ إبراهيم الحجة التي يرضاها، فقد وصفت الحجة بأنها حجة الله لصدقها ووضوحها علا بها على قومه في ميدان المحاجة.

ثم أضاف لعنايته بإيتائه الحجة البالغة، أضاف تنويها آخر، بأن الله رفعه في مراتب الكرامة درجات ملحقا له بنظرائه من المهديين المرضيّ عنهم المتألقين في مراتب الكمال الإنساني.

ولا تسأل لم خص الله بعض البشر بهذه المكانة الرفيعة ؟ ارجع إلى ما اتصف به سبحانه من العلم الكامل بالظواهر والبواطن وبالقيم الحق للناس، وإلى حكمته في تسيير الكون وتصرفه فيه، تجد الجواب بأن ذلك مظهر للعلم والحكمة، وإن خفي على البشر تبعا لعلمهم المحدود وقصورهم عن الكمال الذي يستطيع الإحاطة.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الذرية : اسم يجمع نسل الإنسان.

اجتبيناهم : اخترناهم.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكر المقطع بعضا من الذين منّ الله عليهم بالتكريم فأضاف إلى تكريم إبراهيم بأن الله قد من عليه إذ جعل من نسله إسحاق ويعقوب نبيين مهديين، كما هدى من قبل إبراهيم نوحا، سلام الله عليهم جميعا. كما هدى من ذرية إبراهيم ببلوغهم مرتبة النبوة داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون مسجلا أيضا أنهم من المحسنين، نالوا ما نالوه بإحسانهم، ثم عطف عليهم زكرياء ويحيى وعيسى وإلياس وشهد الله لهم بأنهم من القوم الصالحين، وأضاف إسماعيل واليسع ويونس، وهم كالسابقين من ذرية إبراهيم، ولوطا المعاصر لإبراهيم، ذاكرا أنه فضلهم على

عالمي زمانهم. وألحق بهم آباءهم وما تناسل منهم وإخوانهم، الذين اختارهم بناء على علمه بنقاء دخيلتهم، وهداهم إلى الصراط المستقيم في العقيدة والقول والعمل. والمذكورون كلهم من الأنبياء على كل مسلم أن يعرف قدرهم ويحترمهم.

بيان المعنى العام:

84←86، ووهبنا له إسحق ويعقوب...فضلنا على العالمين.

لما ذكر القرآن المنن التي أكرم بها الله إبراهيم عليه السلام، وأدمج في ذلك أنه يرفع درجات من يشاء تبعا لحكمته وعلمه، ناسب أن يُفصّل بعض هذه المنن، فكان هذا المقطع محققا لذلك.

فمن ذلك أنه جعل في نسله النبوة، فابنه إسحق ويعقوب كانا نبيين ورزقا الهداية التي فتحت لهما باب الإصلاح للبشر. ونصت الآية على أن الله قد هدى نوحا عليه السلام قبل إبراهيم وولده وحفيده. كما هدى إلى الصراط المستقيم من ذرية إبراهيم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وآتاهم النبوة فخلد الله أسماءهم في تاريخ البشرية أعلام إصلاح ودعاة للخير. وعلى ذلك النحو من التكريم يجزي الله المحسنين بالفتح على بصائرهم لنقي الإيمان، وتفتح أرواحهم لقبول الوحي، وقوة شخصيتهم لإبلاغ شريعة رب العالمين للبشر. ثم عدد من المكرمين أمثالهم عاطفا على ما ذكر في الآية السابقة زكرياء ويحيى وإلياس وهؤلاء الثلاثة من أنبياء بني إسرائيل ونوهت الآية بصلاحهم، ثم أردفت الآية التالية، إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام واليسع ويونس بن متى، وهؤلاء الثلاثة أيضا هم من نسل إبراهيم. وآتى الله لوطا عليه السلام النبوة وكان يعيش في عهد إبراهيم، ونوهت الآية بهؤلاء الأربعة بأن الله فضلهم على عالمي زمانهم فأنزل عليهم وحيه. فتكون الآيات المفصلة لقوله نرفع درجات من نشاء قد ذكرت خمسة عشر نبيا كلهم من ذرية إبراهيم عليه السلام. وافتتح التعداد بإبراهيم وختم بلوط اللذين كانا يعيشان في زمن واحد وربط الجميع بنوح الذي نص على تقدمه الزمني إذ يعد أول رسول للبشرية. فجملة ما ذكر ثمانية عشر ما بين نبي ورسول.

87-ومن آبائهم وذرياتهم...صراط مستقيم.

بعد أن نوه القرآن بالثمانية عشر عطف عليهم من كان على منهجهم في العقيدة والسلوك ممن تجمعهم بهم رابطة النسب من الآباء والذرية والإخوان. فذكر أنه قرب بعضهم باختياره على غيره، وفتح بصيرته على الهداية الربانية الصراط المستقيم الذي يصل بسالكه إلى النجاة والفوز برضوان الله.

ولما كان الحق واحدا وهم جميعا على حق بشهادة رب العزة، فإنه يكون من المحتم على كل مسلم أن يحترمهم على التعيين فيمن عينه القرآن وعلى الإجمال بالنسبة لمن لم يعينه.

تنبيه : عُني كثير من المفسرين بضبط أسماء المنوه بهم وأنسابهم، والتوراة هي العمدة التي استقوا منها جل معلوماتهم، وبما أن التوراة لا ثقة بما ورد فيها عندي، ونظرا إلى أن ضبط ذلك لا يضيف شيئا، وإهماله لا ينقص من المقصود أمرا يمس جوهر الهداية، فلذلك رجحت عدم التعرض لذلك.

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

حبط : تلف وذهب لسوء عمله.

اقتده : اتبع آثارهم في القول والفعل.

الحكم : الحكمة وهي العلم بطرق الخير.

وكلنا بها : وفقنا للإيمان بها والقيام بحقها.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الهدى، وخاصة إلى الصراط المستقيم، الذي كان عليه المنوه بهم في الآيات السابقة هو هدى الله، يتفضل به سبحانه على من يشاء من عباده تبعا لحكمته وعلمه. ومن أهم موجبات الهداية نقاء الإيمان من لوثة الشرك، فلو أشرك هؤلاء المنوه بهم لحظة لحبط ما قاموا به من صالح الأعمال، فلا يجدون من ثوابهم شيئا.

ثم أضاف إلى مميزاتهم أن الله مكنهم من الكتاب وحيا أُنُفا، أو قياما على ما نزل على الرسل قبلهم، وأفرغ في عقولهم الحكمة. وبلغ ببعضهم رتبة النبوة.

فلا تتأسف يا محمد إن رفض مشركو مكة الإيمان بهم ، فقد وفّقنا للإيمان بهم وتقديرهم والاقتداء بهم قوما من خيار الناس ليسوا كافرين بآيات الله.

ثم ميزهم وأشار إليهم كأنهم مُشاهَدُون لصدق الإيمان بهم. أولئك الذين تميزوا بأن الله مكنهم من هداه، فاقتد بهم يا محمد، أي فكن الحلقة الخاتمة لهذا الموكب من عباد الله المفضلين.

ونبههُمْ إلى أنك لا ترغب في جزاء منهم. قل لهم: إن ما آتانيَ الله ليس خاصا بكم ولكنه هو هُداه للبشرية جميعا، فلا أطلب منكم عوضا وإن قلّ.

بيان المعنى العام:

88-ذلك هدى الله يهدي...ما كانوا يعملون.

إن الاهتداء ليكون الإنسان محسنا مفضلا على صراط مستقيم كما جاء في المقطع السابق، ذلك الهدى هو هدى الله وكفى به كمالا نسبتُه إليه، يلطف بمن يشاء من عباده فيمنحه هداه من الذين اصطفاهم عن علم وخبرة. وأخص خصائصهم نقاء إيمانهم من لوثة الشرك، ولفظاعة الشرك أدمج في الآية أن هؤلاء الذين بلغوا ما بلغوه من المكانة الرفيعة عند ربهم، سيذهب ثواب جميع ما قاموا به من خير لو تلوثوا بالشرك.

وفي هذا الافتراض أبلغ تحذير من جرثومة الشرك. ثم نوه بالمذكورين من أصحاب الأعلام والآباء والذرية والإخوان، بأن الله قد آتاهم الكتاب، على معنى أن بعضهم مكنه من وحيه بإنزاله عليهم وتكليفهم بتبليغه، وبعض مكنه من حسن فهمه وتطبيقه على الحياة المتطورة بما يحقق مقاصده وينفي عنه الشُبَه. كما أنزل الحكمة في قلوب جميعهم، وهي التي تضيء لهم في مسالك الحياة المسلك الذي يرضي الله ويحقق العدالة والخير. وشرف بعضهم بالنبوة دون الرسالة فسما به إلى تلقي الوحي غير مكلف بتبليغه للناس.

إن رفض مشركي مكة الاستجابة للدعوة المحمدية التي من مضموناتها الإيمان بما آتاه الله للرسل والأنبياء والملهمين من عباده الصالحين، وإن كفرهم بها، لا يقلل من قيمتها ولا يضعفها، فإن الله قد وكل بحفظها ورعايتها، قوما عندهم المنعةُ والقوة والقدرة على تثبيتها ونشرها في الآفاق، سارعوا بالاستجابة للحق الذي أطمأنوا إليه وخلعوا كل ما ينافي الدعوة أو يناقضها. وهم صحابة رسول الله ﷺ. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ من إصرار مشركي مكة على المقاومة، وتنويه بالسابقين الأولين من الصحابة رضوان عليهم، وبشارة بالذين سيتأيّد بهم من الأنصار.

89-أولئك الذين آتيناهم الكتاب...بها بكافرين.

يميز القرآن(الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) مبرزا لهم في إطار يخصهم فيشير إليهم بقوله: أولئك الذين هدى الله. فهم قد فازوا بتيسير من الله لبلوغ تلك المراتب، وتنتهي تلكم المقدمات جميعها ليخاطب رسول الله ﷺ، ليكون ختاما لكل ما آتاه الله الصالحين من قبله من الأنبياء والمرسلين والملهمين، جامعا لمزاياهم مقتفيا أثرهم. ويشمل هداهم أصول العقيدة وهي من الثوابت التي لا تختلف على مر العصور والأزمان، وتشمل تزكية النفس والسمو بها وسلم القيم الخلقية التي بها ينتظم أمر البشر في اجتماعهم لتحقيق مفهوم الخلافة، وهذه قد بلغت في الإسلام القمة العالية، وذلك لارتباطها في كثير من النواحي بالتشريع المفصل للحقوق والواجبات، وهذه في تفاصيلها تميز الإسلام بالهيمنة على ما جاء في التشريعات السابقة. وبهذا فإن أمر الرسول ﷺ باتباع هداهم الذي هو هدى الله ينسحب على الثوابت في العقيدة والسلوك، وعلى الجوانب المرتبطة بالعقيدة والسلوك في التشريع العام، وينفرد الإسلام بخصوصيات أوحاها الله لنبيه تمثل المستوى الذي أراد الله أن تبلغه البشرية في تعاملاتها وعلاقاتها، وهو معنى ختم الرسالة.

90-أولئك الذين هدى الله...للعالمين.

تختم الآية بأمر الله نبيه أن يبين للمشركين ناحية من النواحي التي تختلف فيها الدعوة المحمدية عما ألفوه من القيمين على دياناتهم، قل يا محمد: إن ما أدعوكم إليه والمنهج الذي أبينه لكم، والأحكام التي أعلمكم بها، وعملي على السمو بكم وإخراجكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الله، إن تبصيركم بكل ذلك لا أطلب ولا أنتظر منكم عليه جزاء ماديا، إن مهمتي ودوري في الحياة ليس على ما هو المعهود عندكم من علاقتكم بالكهان والقيمين على معابدكم الذين يعيشون مما تقدمونه لهم، إن ما أتيتكم به هو ذكرى للعالمين، هو الدين الذي يرضاه الله للبشرية جميعا، فأنتم إذا ما أسرعتم بقبول الإسلام، فهو سبق إلى الخير والكمال الذي سيعم ويهتدي به البشر جميعهم. فأنا ناصح أمين كأسمى ما يكون النصح. والناصح الطامع في نوال، نصيحته منقوصة وأثرها ضعيف.

وَمَاقَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ

يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما قدروا الله حق قدره: ما عرفوا الله حق معرفته.

النور : الوضوح.

قراطيس : جمع قرطاس، أوراق.

مبارك : كثير خيره.

مصدق الذي بين يديه : يؤكد صحة وسلامة ما تقدمه من الكتب.

أم القرى : مكة، وهي أول قرية في شبه الجزيرة العربية.

الافتراء : اختلاق الخبر الذي لا أصل له.

غمرات الموت : الشدائد العظيمة التي يعاني هولها الظالمون عند الموت.

تجزون : تعطون مقابل عملكم.

الهون : الذل.

الاستكبار : الإعراض مع قلة اكتراث.

بيان المعنى الإجمالي:

لقد فسدت عقول المشركين فما علموا الله حق العلم، إذ افتروا زاعمين أن الله لم يوح بأي شيء. ويسألهم القرآن سؤال إنكار وتبكيت: من أنزل التوراة ذلك الكتاب الذي جاء به موسى، أنوارُه كاشفة للحقيقة، وداع إلى طريق الهداية؟ ويدمج في هذا السؤال التعريض باليهود الذين جعلوا ذلك الكتاب تابعا لأغراضهم، فوَزّعوهُ بطائق يظهرون ما يوافق أهواءهم ويحجبون ما لا يرغبون فيه. ويباغتهم القرآن بأمر رسوله أن يقول: الله الذي أنزل ذلك. ولا تكترث بهم فدعهم، يا محمد، سادرين في خلطهم بعيدين عن الجد مستواهم مستوى الأطفال المأخوذين باللعب.

وهذا القرآن كتاب أنزلناه، وجعلنا فيه الخير الكثير، يصدق ما جاء من الحق في الكتب التي سبقته، ومع ذلك نتمكن بواسطته من إنذار أهل مكة ومن حولها، ولكن الذين آمنوا قد تحقق منهم الإيمان باليوم الآخر وسموّا فهم يحافظون على صلاتهم بحسن أدائها في أوقاتها.

إن أقبح أنواع الظلم وأشدها، هو ظلم من تجرأ على الله فكذب عليه، أو قال: تلقيت وحيا من الله، وهو لم يصله من أنوار الوحي شيء. ومثلهما من قال: إني أستطيع أن أنزل مثل القرآن.

ولو تنكشف لك الصورة الحقيقية لشاهدت أمرا بالغا الحد الأعلى من الفظاعة، صورة الظالمين الذين تجرؤوا على الله، وهم عند النزع والملائكة الموكلون بقبض أرواحهم يقسون عليهم، ويقولون لهم أخرجوا أرواحكم لتلقى جزاءها، إن جزاءكم اليوم العذاب الجامع بين الألم والمهانة، وهو جزاء عدل مسبب عن كذبكم على الله، واستكباركم عند سماع آياته.

بيان المعنى العام:

91-وما قدروا الله حق قدره....في خوضهم يلعبون.

تمضي هذه السورة تقيم الحجج على صدق رسالة الإسلام، وتهدم ما يحتج به المعاندون، وتبكتهم بإبراز تناقضاتهم وغفلتهم وعدم مسايرتهم لصرامة المنهج العقلي.

لما ضيق القرآن الخناق على المشركين، وحاجهم فأبكتهم، لجأوا إلى إنكار بعثة الرسل جميعا، وهذا مظهر من مظاهر تأصل العناد فيهم ونكرانهم للبديهيات وفساد تركيبهم العقلي. هم يدعون أنهم على دين إبراهيم ويعدون هذا الانتساب من مفاخرهم، ولكن مقاومتهم للإسلام سولت لهم أن ينكروا حتى وجود المرسلين قبل محمد ﷺ، لعل هذا الإنكار يحسم في تصورهم الدعوة التي جاء بها. وهذا من وقاحتهم وجهلهم بالله، ذلك أن حكمة الله الذي استخلف الإنسان في الكون، تقتضي أن يساعد المستخلَف في أداء مهمته، فرزقه العقل، وبعث رسله يهدونه في مسيرته ليؤدي دوره في الاستخلاف بما يحقق عمارة الأرض وإصلاحها. فإهمال الإنسان وتركه ينشط غير معان بوحي صادق، هو اختلال للميزان، لا يليق بالحكيم فما قدّر المشركون العليم الحكيم حق قدره.

شنع القرآن عليهم هذه المقالة، وأحالهم إلى أمر واقع في حياتهم، إن مشركي مكة لهم صلات مع اليهود في المدينة وغيرها، وكون اليهود هم أتباع الديانة التي جاء

بها موسى عليه السلام أمر بديهي يدركه العامة والخاصة ولا يستطيعون إنكار ذلك، فوجه لهم السؤال التالي : من أنزل التوراة التي جاء بها موسى؟ أجيبوا.

وأدمج القرآن عند ذكر التوراة كونها نورا أي حقا واضحا، وأنها مع ذلك هدى ترشد إلى الصراط المستقيم بني إسرائيل وهم الناس في الآية، لأن التوراة تشريع خاص ببني إسرائيل، ولم تكن دعوة موسى عامة للبشرية، إذ عموم الرسالة مزية رسالة محمد ﷺ.

وبمناسبة ذكر التوراة التي نوه بها، شنع بموقف اليهود من هذا النور والهدى، إذ حولوها بعد أن كانت مجموعة في كتاب إلى وحدات، كتبوها في قراطيس وفرقوها بطائق، قصد إخفاء بعضها الذي يخالف هواهم وإظهار البعض الذي يحقق لهم ما يرغبون في إظهاره .وذُمُّوا لهذا القصد السيء بالتفريق.

وظاهر النظم القرآني أن الخطاب موجه إلى بني إسرائيل، وقد قدح المفسرون عقولهم لجعل الخطاب موجها للمشركين، ووجدت فيه تعسفا. وتحير بعضهم في توجه الخطاب إلى اليهود بقوله :(تجعلونه قراطيس)لأن الإقحام ابتدأ مع المشركين والتحدي بمن أنزل التوراة مع المشركين أيضا.

وعندي أن الثابت أن النبي ﷺ كلما نزلت عليه آية من القرآن أمر كاتب الوحي أن يكتبها في مكانها: بعد كذا وقبل كذا. فلما انتقل إلى المدينة وكانت سورة الأنعام من آخر ما نزل عليه، وقاوم اليهود الدعوة بصنوف من المكر والدهاء والخبث حسبما تبين لنا فيما سبق عرضه من آيات، فلعلهم بتنويه القرآن بالتوراة ووصفها بالنور والهدى، قد اتخذوا ذلك ذريعة لرفض الإسلام بادعاء أن التوراة تكفي عن غيرها. فأنزل على رسول الله في وصف اليهود أنهم أخفوا بعض هذا النور والهدى، وخاصة ما يتعلق بالبشارة ببعثته وأخذ الميثاق على آبائهم بنصرته. ووضعت في مكانها من سورة الأنعام هذه. وما نقلناه من أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة لا يتنافى مع إلحاق آية بها. وقريب من هذا ما أخرجه البخاري والترمذي. وأحمد وابن حبان وغيرهم أن النبي ﷺ لما نزلت عليه آية (لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) وكتبها كاتب الوحي زيد بن ثابت رضي الله عنه. وكان ابن أم مكتوم حاضرا فقال : يا رسول لو أستطيع الجهاد لجاهدت، فأنزل الله على رسوله بواسطة جبريل (غير أولي الضرر) فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقها على النحو المثبت في المصحف (لا

يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله) والحديث يبلغ حد الشهرة[1].

وسؤال ثان مطوي دل عليه نسق الآية : أجيبوا من علمكم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم من سنن الله في الماضين، ورسالاته إلى البشر وما وقع لهم ؟

يثبت القرآن بهذا السؤال الذي تحدى به المشركين في مكة: أن القرآن دليله من ذاته، فما ورد فيه حجة قائمة على صدقه، إذ أن ما أخبر به ما كان يعلمه العرب ولا آباؤهم في جاهليتهم.

ولذا كان الجواب باتا وقاطعا ومنصرفا عن انتظار ما يقولونه ويجيبون به. ولا جواب غيره. قل: الله. فهو الذي أنزل التوراة على موسى وكذبوا في نفيهم عناية الله بالبشر وإرسال الرسل إليهم. وأن الله هو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون. فإنزال التوراة رد لقولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء.والتعليم الحاصل في مداركهم الذي حصل لهم بدون تسبب ولا تعليم ولا بحث، هو دليل آخر على أن القرآن منزل من عند الله. وبعد أن أفحمهم القرآن، توجه إلى الرسول ﷺ بقوله: اتركهم في تخليطهم وعبثهم، مبتعدين عن الجد منصرفين إلى اللهو، إن مستواهم الفكري هو مستوى الأطفال الذين لا هم لهم إلا اللعب.

92-وهذا كتاب أنزلناه....صلاتهم يحافظون.

لما كان العلم الحاصل بالقرآن شاملا للمؤمنين والكافرين، وتلك مزية من أعظم مزايا القرآن، ثنى على ذلك بإبراز بعض خاصيات القرآن الكتاب المنزل. فأشار إليه بقوله:[وهذا]واصفا له بأن موثق مكتوب لا يدخله الزيد ولا النقص، وأن ما يحصل به من الخيرات لتاليه والناظر فيه والعامل به يتضاعف مع الزمن (مبارك) وصلته بالكتب السابقة قوية، ذلك أنه جاء بالحق، والحق واحد لا يختلف، فهو يؤكد ما جاءت به من أصول العقيدة وطهارة السلوك، ويسمو بتلك القيم دون أن يناقضها، وباعتبار أنه الكتاب الخاتم والتشريع الرباني الأخير كان مناسبا للمرتبة التي بلغتها البشرية، فاتحا لها مسالك التطور الإيجابي.

ويحقق ما أوكل إليك من إنذار أهل مكة ومن حولها من القبائل الذين يفدون إليها فيسمعون آيات القرآن كما يسمعها أهلها. وإن كان القرآن منزلا لينذر به الرسول البشرية سوء العاقبة إن هم لم يستجيبوا، إلا أن قصر ذلك على أهل مكة ومن

[1] فتح الباري ج9 ص33/328. والدر المنثور ج 2 ص363/361

حولها في هذه الآية مراعاة لما سبق من مجادلة الرسول لهم، لأنهم هم الذين أنكروا أن الله أرسل رسلا.

ولما كان المؤمنون الأولون ما زالوا في مكة مختلطين بالمشركين، ميزتهم الآية بأن الله يعلم أنهم يؤمنون بالآخرة ويؤمنون بالقرآن، ونوه بمحافظتهم على الصلاة التي هي شارة صفاء العقيدة وعمق الإيمان.

93-ومن أظلم ممن افترى...عن آياته تستكبرون.

نوع آخر من الرد على مزاعم المشركين من عدم إنزال شيء من الوحي على أحد، ما صرحت به الآية :أن أشد أنواع الظلم أن يختلق الإنسان كلاما وينسبه إلى الله، أو قال أوحي إلي ولم يتلق أي وحي، ومثلهما من بلغت به الجراءة والادعاء، فزعم أنه سيخرج للناس كلاما في مستوى ما يدعيه محمد أنه أنزل من عند الله. ووجه الرد أن الرسول ﷺ موقن ومصرح أن ما ينكره المشركون ويتهمون من وراء إنكارهم رميه بالاختلاق والتزيد ونسبة أقوال من عنده إلى الله، إن ذلك لا يتصور أن يلتصق به لأنه يعتبره أعظم ظلم يصدر عن إنسان، وأنه المتهيب أن يقول عن الله ما لم يأذن له به.

وهذه الآية توقظ البشر حتى لا يقعوا في شراك بعض الدجاجلة المدعين أنهم تلقوا وحيا من الله، كما تروجه مثلا فرقة البهائية الضالة: أن البهاء تلقى عن الله وحيا يكمل به رسالة الإسلام.

لو ترى يا محمد، ومثله كل من تصح منه الرؤية، لرأيت أمرا فظيعا غاية الفظاعة تذهب النفس في تصوره كل مذهب لشدة هوله، هذا الأمر المهول هو وضع الظالمين، ويدخل فيهم دخولا أوليا، المتجرئون على الله الذين فضحت الآية السابقة جراءتهم، وضعهم عند نزع أرواحهم وهم يقاسون شدائد النزع، في هذه الحالة تكون ملائكة الموت يبسطون أيديهم لاقتلاع أرواحهم، ويصحبون فعلهم ذلك بمخاطبتهم :الفظوا أرواحكم وأخرجوها من أبدانكم. والظاهر أن المقصود ليس بسط أيد، ولكنه تمثيل لما يعانونه عند النزع من العذاب والغلظة، وليس أمرا بإخراج الأرواح ولكنه زجر وإرهاب، وإعلامهم من طرف الملائكة بما يزيد في كمدهم وعذابهم : أنهم سيجزون العذاب الجامع بين الآلام وبين المهانة والذل. يقولون لهم :هذا جزاؤكم عما قدمتموه من الكذب على الله بقولكم :ما أنزل الله على بشر من شيء، وتقديمكم لأصنامكم شركاء له، وجزاؤكم عن استكباركم لما كانت آياته تتلى عليكم فتعرضون ولا تكترثون بها وترون أنفسكم أرفع من قبول الهدى.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

بيان معاني الألفاظ:

فرادى: كل واحد منكم جاء منفردا.

ما خولناكم : ما أنعمنا به عليكم.

الزعم : القول الباطل بناء على تعمد للباطل، أو عن سوء تصور واعتقاد.

بيان المعنى الإجمالي :

يواجه المشركون يوم القيامة بإسماعهم ما يضاعف حسرتهم وندمهم مع اليأس من إصلاح وضعهم :ها أنتم قد قدمتم منزوعين من الصلات كحالتكم يوم خلقكم الأول. كل ما كسبتموه في حياتكم من مال وقرابة، وقبائلكم وجاهكم، قد تركتم كل ذلك خلفكم. وأين الشفعاء الذين كنتم تعتمدون عليهم وتصرحون بذلك؟ لا وجود لهم لا يرون، لقد تمزقت كل الروابط، وكل واحد منكم فرد يواجه مصيره.

بيان المعنى العام :

94- ولقد جئتمونا فرادى...ما كنتم تزعمون.

يعاقب المشركون جزاء استكبارهم المعتمد على ما كان لهم من أنصار ومن قوة، بمواجهتهم بذهاب ما كانوا يعتزون به، إمعانا في إهانتهم وتعذيبهم. يستمعون إلى تأكيد مفاده : أنكم قد بعثتم وقدمتم إلى الحساب ولا نصير لكم ولا مؤيد ولا رابطة بينكم وبين أي كان، كل واحد منكم فرد نزع منه ما كان يتقوى به من صلات، غريب كاليوم الذي خلقته فيه أول مرة. كنتم تتقوون بالمال والأولاد والقبيلة والصحة والشجاعة، تركتم كل ذلك في الماضي البعيد، لا تجدون أثرا منه في موقفكم هذا، وما زعمتموه من أن أصنامكم تشفع لكم، أين هم؟ ليس لهم أي حضور. تمزقت الروابط التي كنتم تتقون بها، والتي نفخت أوداجكم وعتوتم بها عتوا كبيرا. وضاع ما كنتم تدعونه من الآلهة، فلا علم لها بحالكم ولا يسمعون دعاءكم، ولو سمعوه ما استجابوا لكم. وفي هذه المواجهة بإعلان وضعهم، وإن كانوا يحسون به، ما يضاعف إهانتهم ويثير فيهم قوارع الندم غير المفيد.

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (96) وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

بيان معاني الألفاظ :

فالق : الفلق: الشق.

الحب : البذور التي تخلف بها الأصول.

النوى : جمع نواة الجسم اليابس داخل التمر.

أنى : لا يوجد موجب.

تؤفكون : تصرفون عن توحيده والإقرار بتفرده بالخلق.

فالق الإصباح : مظهر الصبح من ظلمة الليل كأنه يشقه.

سكنا: تحصل فيه الراحة من نصب النشاط.

حسبانا : منظم أمرها بحساب دقيق.

العزيز: النافذة قدرته، فكل شيء مذلل له.

النجوم : جمع نجم، وهو الكوكب المشع في الليل الذي يرى صغيرا.

أنشأكم : أوجدكم.

مستقر : من القرار والثبات.

مستودع : بقاء إلى أمد.

يفقهون : الفقه هو الإدراك الحاصل بعد التأمل والتدقيق.

الطلع: الوعاء الذي خرج منه.

قنوان : جمع قنو، وهو العرجون.

دانية : قريبة.

ينعه: طيبه، ونضجه.

بيان المعنى الإجمالي:

هذا المقطع يثبت أن الله هو المتصرف في الكون. هو الذي فلق الحب والنوى بعد أن انفصل عن أصله ومات وأصبح يابسا، أخرج منه ما هو حي من الزروع والنخيل، كما يخرج من النبات الحي وثمار النخل البذور الميتة اليابسة، إن الذي خلق وتصرف هو الله وحده لا شريك له، فهل يوجد ما يصرفكم عن توحيده وعبادته. وهو الله الذي يخرج الصباح المضيء من الظلام الدامس، وهو الذي جعل الليل لتسكنوا فيه وتستجموا ويعود لكم نشاطكم، ويرتبط النهار بالشمس ويبدو القمر في الليل على أقدار متفاوتة، وحركاتهما في الفلك تجري على حساب بالغ الدقة، قدر ذلك وأجراه الله الذي يخضع له كل شيء، وهو العليم بالظواهر والخفايا. تأملوا في السماء كيف انتشر فيها ما لا يعد من النجوم. وفتح عقولكم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر. آيات مؤكدة للتصور الإلهي في العقيدة الإسلامية لمن أوتي من العلم ما يستطيع به رصد ظواهر النجوم.و الله سبحانه هو الذي كون الإنسان من نفس واحدة فتكاثر نسله وعمر الأرض وقدر له ما هو كامن في ذاته ليتحول من وضع إلى وضع آخر، فما إن يستقر في وضع حتى يكون استقراره مهيئا له لينتقل إلى وضع آخر، كأنه كان في الوضع الأول وديعة غير ثابتة. وقد فصل سبحانه الأدلة ولم يجملها فبالتأمل في كل ما يتعلق بالإنسان في مختلف أوضاعه تقوم البراهين؛ لكل من يتعمق في النظر، على تفرد الله بالخلق والتقدير.

وهو الله وحده الذي أنزل من السحب الماء على الأرض، فتأملوا في هذا الترتيب العجيب الذي يحدث في الكون. يتخلل الماء في طبقات الأرض فيبرز كل نبات، وبعد الإنبات تذهب كل نبتة في اتجاهين متعاكسين، اتجاه ينفذ إلى باطن الأرض يُروّي ويُغذّي، واتجاه إلى ظاهرها يستمد من الشمس والهواء ما يبلغ به الغاية المقدرة له، وإذا الأرض بساط أخضر نضير، ثم هي سنابل وأشكال من الحبوب المتراكمة كسنابل القمح والشعير تُكوّن بحرا يموج مع حركات النسيم. وبجانب ذلك ترى النخل تخرج منه حاضنات الطلع تبدي منه ما يتم منه التلقيح وإذا هي العراجين المملوءة بالتمر الحلو الشهي القريب من الإنسان مهما طالت أشجار النخيل، فقد أودع في الصبيان فضلا عن الشباب والكهول قدرة على بلوغ أعاليها. وبجانب النخيل يُخرج بهذا الماء النازل جنات من الأعناب، ومن الزيتون والرمان.

الماء واحد والأرض واحدة والثمار متنوعة قد يكون بينها تشابه في اللون والشكل والمذاق، وقد يكون بينها اختلاف. تأملوا في الثمار في بداية أمرها، وعندما تنضج وتتهيأ للقطاف، في الشكل واللون وفي الطعم والتمكن من منابتها. كل ذلك يقوم شاهدا على حكمة الخالق وتفرده بالتقدير العجيب. والمؤمنون هم الذين يربطون بين تلكم المظاهر وبين مبدعها، فيتعمق إيمانهم ويزداد تألقا وينعمون بالطمأنينة لما يعتقدونه.

بيان المعنى العام:

95-إن الله فالق الحب والنوى...فأنى تؤفكون.

بعد أن أبطل القرآن جميع حجج المشركين وهددهم ووصف من سوء مصيرهم ما وصف، انتقل إلى الاستدلال على ما تضمنته العقيدة الإسلامية، وإلى تحريك العقول للنظر في كتاب الكون لتستفيد منه دلائل التوحيد، ولتتوجه لسبر ما أودع الله في هذا الكون من نظام ييسر لها القيام بتحقيق الخلافة في هذا العالم.

سرّ في البرية بعد أن لفحتها الهوا جر وجففتها أشعة الشمس المحرقة، وانظر إليها جرداء لا نبات ولا شجر، ثم انظر إليها بعد أن روتها الأمطار فتخللت المياه باطنها. انظر إليها وقارن بين ما كانت عليه وهي ميتة، والصورة النضرة التي تحولت إليها وقد كسيت ببساط أخضر يبهج النفس ويملأ العين من جمال الحياة، راقبها متأملا فستجد أنها في حركة مستمرة، تنمو كل يوم وتزداد فروعها طولا وامتلاء. يدعوك القرآن أن لا تمر على هذه التحولات غافلا، اعمل نظرك فيها. إن الأعشاب والزروع التي قتلها الحر تركت في الأرض قبل أن تيبس وتموت، حبوبا جفت معها وسقطت منها، هي خلفها وامتدادها في الوجود. فإذا تلكم الحبوب بعد أن رواها الغيث ودخلت مياه الأمطار في شعاب الأرض، تنفلق كل حبة يابسة ماتت مع أصلها فينزل منها إلى باطن الأرض ما تنغرس به فتثبت وتتغذى، وترفع رأسها إلى أشعة الشمس تتقوى منها وتخضر. فسبحان من أخرج من الحبة الميتة نسخة من الأصل عادت بها دورة الحياة بعد الموت. إن هذه الدورة الذاهبة في مسارها حسب قوانين مضبوطة سوف تأتي على تلكم الخضرة اليانعة بما هي عليه من نماء وحركة فيخرج منها الحب اليابس الميت قبل أن تموت. وكما تتولد من الحبة اليابسة أنواع لا يحدها الإحصاء من الزروع والزهور والبذور والثمار، فكذلك على نفس التقدير المحكم تنفلق نواة التمرة فتمد في حركة متقابلة، تمد أصلها

إلى باطن الأرض ورأسها إلى السماء، حتى تنضج من أعذاقها التمور، وكل واحدة منها تحتضن نواة تدور منها دورة الحياة من جديد.

96-فالق الإصباح.....العزيز العليم.

إن الفاعل المنظم لتلكم الدورات هو الله. فلا يبقى ما يضللكم لو تأملتم، ولا يوجد موجب يصرفكم عن توحيده والإقرار بربوبيته وتفرده بالخلق والتقدير. وإلى أين تذهبون بحثا عن الجواب ؟ لا جواب إلا جواب واحد.

إنه بجانب فلق الحبة والنواة، انفلاق يخرج به الصباح من الليل. ثم يغشي الليل بظلامه الكائنات فتنقلب الحركة التي كانت تضطرب بها الحياة في الإنسان والحيوان، تنقلب إلى سكون يشمل الكون كله فيخلف كل كائن ما أضاعه من نشاط في النهار بسكونه في الليل. وهكذا في دورة متجددة كل يوم، يتفاعل معها الإنسان والحيوان والنبات.

وظاهرة كونية عظيمة أخرى تتفاعل معها الكائنات أيضا وتؤثر فيها، الشمس بالنهار والقمر بالليل، لفت القرآن إلى ناحية من خصائصهما: أنهما يسيران بحساب دقيق بالغ الدقة. إن هذه الظواهر الكونية التي لفتت الآية أنظار المؤمنين إليها، لتحرك بصائرهم:

أولا :إلى ما يقوي الإيمان في قلوبهم. فمن الحبة الصغيرة وتحولاتها إلى الشمس والقمر وسيرهما المنتظم يؤكد ذلك قدرة الله وحكمته وأنه هو الخلاق العليم.

وثانيا: ليكتشفوا القوانين التي بنى الله عليها سبحانه الكون ورتب هذا النظام السائر من الحبة والذرة إلى الشمس والقمر. وفي ذلك ما يحتم على أمة الإسلام أن تمتلك المعرفة بالبحث والتدقيق، والكشف عن سنن الله الثابتة، وأن تبني على كل مرحلة وصلت إليها ما يليها من مستويات المعرفة.

تقرأ ما بين دفتي التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب الدينية فلا تجد ما يجمع بين العقيدة والعلم كما تجده في القرآن. ولكن المسلمين فرطوا وما زالوا مفرطين. فإذا ما طلع العلماء عليهم بكشف جديد وتدقيق ينفي التعميم، يبتهجون بأن القرآن راعى في تعبيره، أو لفت النظر ليستقصي المؤمنون مظاهر الوجود التي أشار إليها. وما يزال العلماء في الأمة الإسلامية عالة على ما تسمح لهم الأمم المتقدمة بمعرفته، لا يخرجون من دور التقليد المنحط إلى المستوى الذي يدعو له الإيمان من التأمل في خلق الله.

فإذا كان رواد الحضارة الحديثة قد أهدروا جهودا في تفسير هذا النظام، ورغم ما وصلوا إليه من كشوف علمية كان لها أثرها في سيادتهم الحضارية، فإنهم فرضوا

افتراضات لا تسمو عن الخيال في ميدان العلم الدقيق. فإن الإسلام يحل هذه المشكلة بلفت البصائر إلى حكمة الله في الكون، ويربط العلم بالإيمان ويخرج الإنسان من التيه إلى برد اليقين.

97-وهو الذي جعل لكم النجوم...لقوم يعلمون.

ثم يلفت القرآن أنظارنا إلى التأمل في هذه القبة التي تحيط بنا، وتلمع نجومها في الليل تتجاوز الحصر، لها مساراتها الثابتة وخصائصها المقدرة، وأول ما يستفيده منها الإنسان إذا تأمل، أنه يستطيع بمعرفة منازلها الاتجاه الذي يُؤَمِّنُ مساره ليصل إلى غايته المقصودة، سواء أكان سائرا في ظلمات البحر أم في مفاوز الصحراء المترامية الأطراف.

تحركت الدول المتقدمة لمعرفة أسرار بعض هذه النجوم فأرسلت مسابيرها مستكشفة، فأفادت تقدما علميا في الوسائل المبلغة وفي معرفة الكون، وتحكمت بذلك في فروع تطبيقية تقوي سيادتها وتمكن لها في الأرض. هي آيات ناطقة لمن يستمع، منادية بأن أسرارها غير محجوبة عن الجادين الذين لهم عقول متعطشة لتروى من نبع المعرفة، هي لا تقنع بالظواهر بل تتجاوزها إلى الأعماق كلما بلغت مستوى طمحت إلى ما وراءه. وهم القوم الذين عنتهم الآية : بأنها فصلت الآيات لقوم يعلمون.

98-وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة...لقوم يفقهون.

ثم ترقى القرآن في إيقاظ العقول لآياته فهزها لتتأمل فيما هو أعظم من كل ما لفت إليه القرآن الأنظار في الآيات السابقة، وهو خلق الإنسان.

أول ما يلفت إليه القرآن هو التكاثر البشري، أنشا الله الإنسان الأول فردا وحيدا، كما تقدم في سورة البقرة من خلق آدم ﷺ. ثم تناسل منه أولاده بعد أن خلق منه زوجه حواء. وأجرى على الجنس البشري قوانين التوالد والتكاثر كما أجرى على الحب والنوى. والتذكير بهذا الإنشاء للإنسان بما له من خصائص تميزه عن سائر الكائنات فيه إثارة للعقل البشري ليتجاوز الظواهر إلى ما وراءها من نظام دقيق في الخلق، ليتعمق في إدراك خلق الإنسان في جميع مراحل أطواره، وما يكون عليه من صحة أو ما ينتابه من أمراض، بما يشمل علوم الحياة والطب والصيدلة، والعلوم المساعدة. وهي علوم سار فيها المسلمون أشواطا لعدة قرون ثم تخلوا عن السبق العلمي وأصبحوا يأخذون عن الأمم المتقدمة المقادير التي تسمح لهم بمعرفتها. فالآية تحرك العقل ليزداد الناظر إيمانا ولينفذ إلى قوانين الخلق فيحسن بذلك الخلافة في الأرض.

وأضافت الآية إلى تفرد الله بإنشاء الإنسان قوله: (مستقر ومستودع) والمستقر مأخوذ من القرار حسب الأصل اللغوي، والمستودع مأخوذ الودع. والقرار ثبوت، والودع بقاء إلى أمد محدود، شأن الوديعة تبقى عند المودع إلى أن يطلبها صاحبها.فما المقصود بما أجراه الله على الإنشاء؟ اختلف المفسرون في المراد منه من أنه مودع في أصلاب الآباء، مستقر في أرحام الأمهات، مستقر في الدنيا مودع في القبر إلى يوم يدعى للحساب، إلى احتمالات أخرى. والذي ترجح عندي بسبب تأثير البساط الذي ورد فيه إنشاء الإنسان، والذي أبينه فيما يلي: إن هذا المقطع تضمن تحول إخراج الحي من الميت والعكس، فهو تحول تجري عليه دورة الحياة النباتية من الضد إلى الضد، وإخراج الصباح من ظلمة الليل، ثم انبساط ظلام الليل، والحركة الدائبة في النهار ثم السكون في الليل وهكذا دواليك، وظلام الليل المعمي على الإنسان وجهته إلى النجوم التي تلمع في السماء فتهديه إلى بلوغ مقصده. فلما عرض القرآن إنشاء الإنسان ألحق به أن هذا الإنسان يجمع بين حالتين : حالة يستقر فيها وحالة ينتقل منها، وهو في حال استقراره فيه استعداد كامن ليتحول عن تلك الحالة إلى حالة أخرى. فهو في بطن أمه مستقر استقرارا مؤذنا بانتقاله إلى الحياة على سطح الأرض، فهو مستقر ومودع. فإذا انتقل إلى الحياة فوق سطح الأرض فهو مستقر فيها مهيأ ليخرج من الحياة الدنيا إلى القبر أولا فيكون بالنظر إليه بعد ولادته مستقرا وبالنظر إلى الموت الذي يترصده فيأخذه مودع. وهو في قبره مستقر فيه إلى يوم بعثه فإن نظرت إليه بعد موته هو مستقر في قبره، وإن نظرت إليه باعتبار أنه سيحشر فهو في قبره مودع.

ومن دقة التعبير القرآني أنه ربط الحالتين بالواو(مستقر ومستودع). ولخفاء هذا التقدير عبر القرآن عن التفطن إليه بالفقه، الذي هو مختص بإدراك الأمر الخفي الذي يحتاج إدراكه إلى فطنة. وتكون تلكم التحولات الجارية على الإنسان دليلا على تفرده سبحانه بالخلق، لأن الإنسان رغم تميزه بالإرادة والمسؤولية إلا أن ما قدر ليجْري عليه ليس له فيه دخل، وفي ذلك دليل على تفرد الله بالخلق لا شريك له. وهو ما انساقت الأيات السابقة لإقامته وتحقيقه.

99-وهو الذي أنزل من السماء ماء....لقوم يؤمنون.

اية أخرى يلفت القرآن إليها الأنظار لتدعم ما تقدم من الأدلة. وهي إنزال الماء الواحد الذي لا اختلاف فيه ، فإذا هو مع ذلك يؤثر الإنبات أولا ثم الأثار المختلفة، فتخرج بسببه النباتات اللاصقة بالأرض بلونها الأخضر الجميل، ثم يتهيأ ذلك

النبات الخضرُ ليتولد منه حب منسق بعضه فوق بعض كما يشاهد في السنابل، ويجري في عروق النخل فيبدو الطلع، وهو الغلاف السميك الحافظ والحاوي لزهر النخل، فينشق عنها لتبرز داعيةً للتلقيح، فتتحول بعد ذلك إلى عراجين محملة بالتمر والرطب، ووصف العراجين بأنها دانية. وبما أن الدنو معناه القرب حمله معظم المفسرين على أن الله امتن بالنخيل في شبابها عندما يكون جني تمرها قريبا من الجاني. ولكن النص القرآني في معرض الامتنان لم يخصص بل ربط الدنو بالنخل مطلقا.

ولذا فالذي أرجحه أن المعنى على أن الله أقدر الإنسان على جني ثمارها، فهي قريبة منه مهما ارتفعت في السماء أعاليها. وفي جميع المناطق التي تنبت فيها النخيل يقوم حتى الصبيان بجني التمر والرطب بكل سهولة.

ويخرج بهذا الماء النازل جنات من أعناب، كما يخرج به الزيتون والرمان، والملحظ الذي عنيت به الآية هو التأمل في ثمار الكرم والزيتون، فأنت إذا نظرت إلى أشجارها تجدها تكاد تكون واحدة لا خلاف بينها في الجذوع والأغصان وشكل الورق، ومع ذلك فهي في مذاقها قد يشبه بعضها البعض وقد يختلف، مما يقوم دليلا على أنها مخلوقة لفاعل مختار هو الذي فضل بعضها على بعض في الشكل واللون والمذاق.

وتختم الآية بدعوة صريحة عالية للنظر والتدبر المسترسل بين حالتين لما ذكر، حالة ظهور الثمر وحالة النضج، تحول في الحجم، وتحول في اللون، وتحول في الطعم، وتحول في التعلق بالشجرة. إن تلكم الأحوال تقوم آيات شاهدة للمؤمنين على حكمة الله وتحكمه في الكون. وإنما خص المؤمنين لأنهم الذين يربطون الحوادث بالخلاق العليم، فالمؤمن كلما وقف على ظاهرة من ظواهر الكون العجيبة يربطها بخالقها ويتآلف معها، وتسكب في روحه السكينة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ

فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الجن : مخلوقات لله من طبيعة نارية، لا تدركها حواس البشر.

خرقوا: كذبوا.

أنى : كيف، من أين ؟

الصاحبة : الزوجة.

وكيل : حفيظ رقيب.

اللطيف : يحتمل أن يكون المراد به تنزيه الله عن الإحاطة به فهو صفة ذات، كما يحتمل أن يكون معنى اللطيف على أنه صفة مبالغة لما يجريه سبحانه على مخلوقاته من الرفق والإحسان فهو صفة فعله سبحانه. الذي أحاط علمه بكل دقيق وجليل.

بصائر : جمع بصيرة، وهو العقل الذي تظهر به المعاني والحقائق.

درست : تعلمت.

بيان المعنى الإجمالي :

من ضلالات المشركين أنهم ادعوا أن الله له شركاء من الملائكة ومن الجن يتصرفون معه، ومن غبائهم أنهم غفلوا عما يعترفون به من أن الله هو خالقهم، ولا يعقل أن يكون المخلوق شريكا للخالق. إن الله الكامل منزه عما يصفه به المشركون. هو الذي أنشأ السماوات والأرض وما حوته على غير مثال سابق فكيف ينسب له ولد أو زوجة، وهم يعترفون بذلك. وكل الكائنات مخلوقة له على ما سبق في علمه، ولا يغيب عن علمه شيء. إن الكامل في ذاته وصفاته هو ربكم الذي اعتنى بكم فأخرجكم من ظلمات الجهل والشرك إلى أنوار المعرفة والتوحيد. هو المتفرد بالألوهية والخلق، فأخلصوا له في العبادة فإنه الحافظ لكل ما رُزِقْتم من خير. تنزه عن المادة فلا يراه البشر بعيونهم، والله لا يخفى عليه شيء فهو يعلم ما يبصره الإنسان وما قارن رؤيته من قصد حسن وخير أو قصد خبيث وشر، ليلقى حسابه. لقد أنزل لكم بهدي رسوله ما يبصركم بالحق ويبعدكم عن الضلال، فمن اهتدى بما أُنزل إليه فلنفسه أبصر فاهتدى، ومن رفض فعمي عن الهدى فما أضر إلا نفسه. وليس رسول الله حارسا يحرسكم من الوقوع في الخطيئة. ويقول الله

تعالى: على هذا النسق أظهر الآيات المبينة لطريق الصلاح. وكان الأثر في الناس أن المشركين كابروا في الحق بعد ما تبين. وقالوا: علمتها من دراستك لما عند أهل الديانات السابقة، واقتنع بها المؤمنون فكانت بيانا للقوم العالمين بصدقك.

بيان المعنى العام:

100 - وجعلوا لله شركاء...عما يصفون.

الشرك يقوم على ضروب من الأوهام، وقد عمل رسول الله ﷺ على نقضه، ففتح بصائر الناس على ما فيه من ضلال، ومخالفة لمقتضيات العقل. فمن ضلالات بعض المشركين ادعاؤهم أن الجن شركاء لله في ملكه. وقد سار العرب في تخيلهم للجن فاثبتوا لهم سلطانا على بعض الناس، وأنها تتشكل وأن لها أصواتا، وتقربوا إليها ليتحصنوا من بطشها بهم، واعتبروهم شركاء لله في ملكه. وينقض كل هذه التخيلات التي وصلت بهم إلى الشرك، أن الله خلق العابدين للجن وهم يعترفون بذلك، فكيف يشركون به من لم يخلقهم ؟ ويحتمل عود الضمير على الجن، أي إن المشركين من العرب يعترفون بأن الجن مخلوقون لله، فكيف يعتقدون أنهم مخلوقون لله ويشركونهم في الألوهية؟

وكذبوا في أمر آخر، فادعوا أن الجن أبناء الله وأن الملائكة بنات الله، أو أن الملائكة بعضهم ذكور وبعضهم إناث. فكان اختلاقهم هذا منبثقا من جهل فاضح عبر عنه القرآن بـ (خرقوا) والله منزه عما يصفه به المشركون. وأفْهَمْ من كلمة (خرقوا) أنهم بنسبتهم البنات لله قد مزقوا النسيج العقلي فخرجوا من المعلوم إلى المجهول.

101 -بديع السماوات والأرض....بكل شيء عليم.

هو الذي أبدع السماوات والأرض وخلقهما على غير مثال سابق، وإذا كانت السماوات والأرض على ضخامتها مخلوقة لله والمشركون موقنون بذلك، فكيف يدعون أن الجن والملائكة شركاء لله لما لها من القوة في زعمهم، وأين قوتها من عظمة السماوات والأرض؟ وهم يدعون أن الملائكة في السماء والجن في الأرض والصحاري، فكيف تكون آلهة وهي محدثة بعدهما.

ثم طردت الآية ما نسبوه لله من ولد طردا يبعده عن التصور، فنفت أن تكون له زوجة مما يؤيد نفي الولد، لأن العرب وإن لم يدعوا لله زوجة، فإنه من المسلمات عندهم أن الولد لا يكون إلا بعد الزواج، فانتفاء الزوجة يتبعه انتفاء الولد. وبصفة عامة فكل شيء مخلوق لله، السماوات وما حوته والأرض وما يعمرها في الظاهر

والباطن. ويذكر القرآن في خواتم آياته بأن الخلق تحقق بعلم الله المحيط بالدقائق والتحولات.

102-ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو....وكيل.

الأوصاف التي جرت في الآيات السابقة أكدت تميز الذات الإلهية بأوصاف الكمال، فأشارت الآية إليه (ذلكم الله) هو ربكم الذي تولاكم بعنايته وألطافه. المتوحد بالألوهية، فما بكم من نعمة فمن خلقه، وما يحيط بكم من الكائنات فمن خلقه، وما مكنكم منه من الهداية والمعارف فمن خلقه، فكل شيء معنوي أو مادي من خلقه، وإذ شمل خلق الله كل مقوم من مقومات الإنسان في روحه وعقله وجسمه ورزقه، فحتم على كل إنسان أن يفرده بالعبادة وأن يجد في عبادته رضوانا واطمئنانا لعقله وروحه. وهو الحافظ لكم، لدينكم، ولعقولكم ولأجسامكم، ولعلاقاتكم الاجتماعية.

103-لا تدركه الأبصار وهو يدرك.... اللطيف الخبير.

لكل إنسان سليم خمس حواس يدرك بها العالم المادي الخارجي: السمع والذوق والشم واللمس والرؤية. والرؤية هي أقوى الحواس التي يتصل بها الإنسان بالعالم الخارجي وبه يعرفه. فنفى الله سبحانه أن تدركه عين باصرة، لأنه تعالى أن يكون ماديا، وتصفه الآية بأنه لطيف، ووصفه سبحانه باللطف يحتمل أن يكون وصفا لذاته العلية، منزهة له عن إحاطة العقول بذاته فضلا عن الحواس، ويحتمل وصفه باللطف بالنظر إلى ما يجريه على خلقه من الرفق والإحسان. والمعنى الأول أقرب لاتحاده في النهاية مع قوله : (لا تدركه الأبصار)

وإذا كانت عيون البشر غير مؤهلة لرؤيته وهو واجب الوجود، فإن الله لا يخفى عليه شيء من أبصار الناس وما يستعملون فيه أبصارهم من الحلال أو الحرام ومن العبادة أو الإثم، وفيما ينفعهم أو يضرهم. فكلما وجه الإنسان بصره ليدرك الموجودات حوله، فإن باعثه على الرؤية الخفي في نفسه معلوم لله، ومحاسب عليه. وختمت الآية بوصفه بالخبير أي الدقيق علمه بالكليات والجزئيات، يعلمها قبل حدوثها وبعد حدوثها ولا تغيب عنه مآلاتها.

104-قد جاءكم بصائر من ربكم....بحفيظ.

يخاطب القرآن المرسل إليهم على لسان رسول الله ﷺ، فينبههم إلى أنهم قد ورد عليهم ما ينير قلوبهم للحق ويحميهم من الباطل، وهي دلائل على الحق لا تحتمل الزيغ أو اللبس، لأنها من رب العالمين وردت. وإذ ضمن القرآن الاهتداء بها فإنه ترك للإنسان الاختيار في اتباع طريق الهدى أو طريق الضلالة، فمن قبل ما جاءه

واهتدى به فقد حصّل لنفسه الخير، ومن لم يلتفت لما جاءه من الهدى فإنما جنى على نفسه وأضر بها. ويقول الرسول: وذلك لأن مهمتي بوصفي رسول الله هي تبليغ ما أرسلت به ولست حفيظا عليكم أمنعكم من الوقوع في الخطيئة والإثم.

105-وكذلك نصرف الآيات...لقوم يعلمون.

ويظهر القرآن أنه على نفس السنن الذي أنزل به الآيات التي هي بصائر للناس، فكذلك يصرف الله الآيات التصريف الواضح الدلالة القوي التأثير، وقد أفضى هذا التصريف إلى التجاوب معه ولكن على نحوين:

الأول: قال المشركون لما بهتهم بيانه: هذا تعلمته من أصحاب الديانات القديمة.

الثاني: كان هذا التصريف والبيان هداية للقوم الذين استقر علمهم بصدقك، فكان جاريا على النسق الذي دل عليه قوله تعالى: (هذا بصائر للناس فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها)

ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أعرض : لا تهتم بعنادهم.

الحفيظ : الحامي لهم من كل مكروه.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل تبليغ ما أوحي إليك من ربك، هو الواحد الذي لا شريك له، ولا تهتم بعناد المشركين، ولا تحزن لشركهم ورفض الاستجابة لشرع الله، فإن الله خلق البشر على أساس أن كل فرد مختار لا مجبر، ومسؤول عن اختياراته، ولو شاء أن يجعل طبيعة الخلق البشري منساقة إلى الخير، لا تقدر على الشر والشرك لفعل، وعندها لا يستطيع أي منهم أن يشرك بالله. ومن ناحية أخرى فلا تحزن من عدم إيمانهم، فما أرسلتك مانعا لهم من الوقوع في الخطيئة، وما أنت وكيل عنهم تصرف أمورهم فتسأل عن شركهم.

بيان المعنى العام :

106-اتبع ما أوحي إليك.... المشركين.

هذا أمر من الله لرسوله أن يواصل الدعوة على النسق الذي سار عليه، فيتولى دوما إبلاغ ما أوحي إليه لمن آمن ولمن كفر. وفي ذلك تقوية لعزيمته للمضي في نشر

الدعوة وهداية الناس. وآنس القرآن الرسول ﷺ بإظهار صلته بالموحي إليه (ربك) وأدمج في هذه الوصية الحقيقة السرمدية أساس الدين الإسلامي (التوحيد). والإعراض عن المشركين، هو الإعراض المناسب للوضع العام الذي عليه المسلمون قبل الهجرة، يوم كان المشركون يبحثون عن التعلات للفتك بالمسلمين، فمهادنتهم بالإعراض عنهم هو الاختيار الأفضل في تلكم الظروف. وترفع النبي ﷺ والمؤمنون عن مجاراتهم في سفههم وقلة أدبهم هو نوع من الإعراض مأمور به في تلك الفترة.

107-ولوشاء الله ما أشركوا...عليهم بوكيل-

إن حب النبي ﷺ للناس وعمله تبعا لذلك على هدايتهم، وحرصه العظيم على بذل كل طاقاته للنجاح في مهمته الشريفة من القضاء على الشرك وإبلاغ شرع الله لهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ما لاقاه من مشركي مكة من العناد والرفض، كل ذلك ضاعف أساه وحز في نفسه الشريفة وسبب له كمدا، فسلاه ربه بتذكيره بالحقيقة التي بنى عليها سبحانه خلق الإنسان، أنه خلق الإنسان على أساس أنه مختار مسؤول عن اختياراته، غير مجبر على الإيمان ولا على الكفر، يواجه مصيره على ذلك، ولو شاء الله أن يخلق البشر بدون اختيار ومجبرين على التوحيد والخير لخلقهم كذلك، ولعجز أي واحد منهم أن يدعي لله شريكا. ويذكّره مخففا من آلامه، بأن الله ما جعلك حاميا لهم من الضلال والكفر، وما أنت موكّل عليهم تصرّف شؤونهم باختيارك حسبما تقدره من المصلحة شأن الوكيل مع موكله، هم أحرار يفعلون ما يختارون ثم يلقون جزاءهم تبعا لما اختاروه.

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ

بيان معاني الألفاظ:

السب: الشتم بتعيير المخاطب بنقيصة بحق أو بباطل.

عدوا :عدوانا وظلما.

الإنباء : الإعلام.

الإشعار: الإعلام بما من شأنه أن يخفى.

الطغيان : التخبط في الشر والكبر.

العمه : التردد والتحير.

بيان المعنى الإجمالي :

شأن المؤمن أن يكون سببا في الخير لا في الشر، وعليه أن يكون يقظا لما يترتب على أقواله وأفعاله في الوجود من نفع أضر. ولذا منع القرآن المؤمنين من سب معبودات المشركين، لأن سبهم مظنة رد المشركين على الإثارة بتعديهم عن جهل بسب الله. وعلى هذا النحو من حجب الألطاف عن الفسقة والجهلة يستقر الانحراف في نفوسهم حتى يخالونها حسنة، وهم سيعودون إلى ربهم فيعلمهم بحقيقة ما صدر منهم لينفذ فيهم ما قدر لهم من جزاء.

ويوالي القرآن عرض ما قدمه المشركون من تعلات، فأقسموا بالأيمان المغلظة أنهم يقبلون ما جاء به رسول الله ﷺ إذا ما جاءهم من عند الله بمعجزة من المعجزات التي اقترحوها. فكان جوابهم أن شد من ساعد رسوله وأمره أن يرد عليهم بأن ما طلبوه قلب للأوضاع فإن الآيات هي ملك لله يظهر منها ما يشاء، وليس الله بمنتظر مقترحاتهم ليحققها لهم، ثم توجه للمؤمنين أن لا ينخدعوا بما يروجونه، فمن الذي ينبئكم عما خفي في نفوسهم؟ وهو أنه إذا جاءتهم المعجزة لا يؤمنون بها. ولا تنتفي حيرتهم فتأخذ عقولهم في تقليب ما ورد عليها لمحاولة التشكيك فيه لرفضه، وتظهر الحيرة على أبصارهم، وهو الشأن الذي قابلوا به الدعوة أول ما جاءتهم.

بيان المعنى العام :

108-ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله....بما كانوا يعملون.

أدبُ القرآن وتربيةُ السنة والمثال النبوي في الحياة، كل ذلك سما بأخلاق المؤمنين وعمل على نظافة ألسنتهم كعمله على نظافة ضمائرهم وأرواحهم. قال تعالى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم)[1]. وتراعى هذه القيمة الخلقية في علاقات المؤمن بأخيه المؤمن وفي علاقته بغير المؤمن. أخرج الإمام مسلم بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من الكبائر شتم

---

[1] سورة النساء آية148 (راجع ما قدمناه)

الرجل والديه، قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال : نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه[1]. ومن يسب أخاه المسلم فاسق. روى الإمام مسلم بسنده إلى عبد الله بن مسعود ﷺ عنه. قال ﷺ : سباب المسلم فسوق. قال مالك: من آذى مسلما أدب. والمُحكَمُ فيما هو سبٌ: العُرْفُ. وفي المدونة ومن قال لرجل: يا شارب الخمر، أو يا آكل الربا، أو يا خائن، أو يا حمار، أو يا ثور، أو يا خنزير، أو يا فاسق، نكل به. وجعل الشيخ ابن عرفة الهجاء من السب[2]. وقد يبرر بعضهم التطاول على غير أهل دينه، وسب أصنامهم ومقدساتهم بأن ذلك دليل على قوة إيمانه واحتقاره للكفر، وفي معظم الأحوال يثير الشتم حفيظة المشتوم، ويرد الفعل بسب الله فتكون النتيجة أن الساب كان سببا في التطاول على الله. فنهت الآية عن سب المعبودات الأخرى لا تكريما لها، ولكن لتحقيق أمرين:

أولهما أن يكون المؤمن عفّ اللسان غير فاحش ولا متفحش كما كان النبيﷺ.

وثانيهما :أن لا يكون سببا في التعدي على الذات الإلهية، وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من الخصومة التي لا يتحكم في تطوراتها، دون أن يترتب على ذلك مصلحة دينية ولا اجتماعية. وقد نص الفقهاء على أنه إذا كان الكافر في منعة ويعلم الساب أن الكافر لا يمتنع من رد الفعل فإن السب حرام.

ثم إن جراءتهم على سب الله، هو اعتداء، ناشئ عن جهل بمعنى أن فعلهم ذلك خروج عن الحق والصواب وتجاوز للحدود، وشاهد على جهلهم وفراغهم من العلم، وشأن الجهال أنهم يقتحمون المهالك دون أن يتفطنوا. فمن يجهل عاقبة عضة الأفعى مثلا ربما يعجب بشكلها فيأخذها ليلعب بها فيكون في ذلك موته.

ويذكرنا القرآن دوما بأن الله خلق الإنسان وقدر أن يكون حرا في تصرفاته مسؤولا عنها، يبني قراراته وأعماله إما على هدي من الشريعة والعقل، وإما انطلاقا من هواه وشهواته، وهو في الأول يتعلق بالجوهر والمآل، وفي الثاني يتعلق بالمظاهر والعاجل، فقد انحرفت أمم على رسلهم، وعارضوهم واختاروا مباهج الحياة وزينتها على الاستقامة والجد. وحبل الحياة الدنيا قصير وأيامها معدودة، فهم سيصيرون إلى ربهم الذي لا يغيب عنه أي شأن من شؤونهم ولا أي عمل من أعمالهم، فيعلمهم بما استقر في علمه مما قدموه. وفي ذلك إشارة إلى الجزاء الذي سيلقونه.

---

[1] إكمال الإكمال ج 1 ص191

[2] إكمال الإكمال ج 1 ص177

109-وأقسموا بالله جهد أيمانهم...لا يؤمنون.

يواصل القرآن في هذه السورة رد تعلات المشركين ولجاجتهم، فكان مما قدموه، شرطا لإيمانهم برسول الله ﷺ، : أنهم لا يؤمنون برسالته حتى يأتيهم بدليل قاطع من الخوارق يثبت به أنه جاء من عند الله. وأقسموا على ذلك الأيمان المغلظة. وكان الجواب قاطعا لحجتهم شجع فيه القرآن النبي ﷺ ليبكتهم بقوله : قل، ومضمون ما أمر بقوله :بيان أن الآيات المعجزات هي من ملك الله وقدره يبرز منها ما شاء كيف شاء في الوقت الذي يشاء، فهو سبحانه وحده الحاكم في الآيات، وليس لكم أن تقترحوا عليه أن يظهر لكم الآية التي اقترحتموها.

وكما ردت الآية على المشركين ببيان فساد مقترحهم، اعتنت بالمؤمنين فخاطبتهم خطابا ينفي رواج ما اقترحه المشركون، فقال تعالى :(وما يشعركم) أيّ :أيّ شيء ينبئكم ويعلمكم أن المعجزات التي اقترحوها لو تحققت لما كان لها أي أثر في اهتدائهم وقبولهم للإيمان، لأن اقتراحهم كان القصد منه التعنت لا الرغبة في حصول دليل يهديهم. فتوقع الإيمان منهم، ولو جاءتهم المعجزات التي طلبوها، بعيد منفي.

110-ونقلب أفئدتهم...في طغيانهم يعمهون.

نمنعهم الألطاف التي تفتح العقل والروح لاتّباع الهدى، فنجعل الآيات لو جاءتهم لا يسرعون لتقبلها، بل تسبق عقولهم إلى فرض الاحتمالات وفروض التشكيك، فيغرقون في تقليب وجوه الرفض، وتظهر تلكم الحيرة على أبصارهم، وهو شأن المتحيرين، أنك تجد أبصارهم متقلبة غير ثابتة، كأنهم يستمدون جوابا منْ مأتى لا يعرفونه. وهذا كوضعهم عندما جاءهم الهدى أول مرة، فقد واجهوه بالرفض والبحث عما يدفعه، وتحيروا بين أمرين :

الأول : نصاعة الحجة وقوة الدليل وموافقة الدعوة للفطرة. وما في القرآن من إعجاز.

الثاني : جمودهم على ما هم عليه من الشرك وعبادة الأوثان، والوفاء للعادات التي عليها آباؤهم. فكانوا متحيرين، ولم يسعفهم الله بالتأييد، ولم يحطهم بألطافه، وتركهم تسير بهم عواطفهم في الضلال، التي من أشدها تأثيرا فيهم إفراطهم في الكبر، وإلْفهمْ للشر حتى صار الشر طبيعة ثانية لهم وجعلوه منهج حياتهم، وتركهم الله فيما اختاروه لأنفسهم يتحملون عواقبه.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

بيان معاني الألفاظ

قبلا: المقابلة والمواجهة.

يوحي : الوحي الكلام الخفي النافذ إلى العقل.

الزخرف : المزين من الكلام لتضليل السامع عما فيه من باطل.

الغرور : الخداع.

تصغي : تميل فتقبل القول.

يقترفوا: يكتسبوا الإثم.

بيان المعنى الإجمالي :

إن صلابة المشركين في رفض الإسلام بلغت درجة قوية في العناد، فإنه لو عاينوا إنزال الملائكة، أو أحيى الله لهم موتاهم فأخبروهم، أو تجمّع حاضرًا أمامهم جميع ما طلبوه من المعجزات، لو تم كل ذلك فإنهم مواصلون الثبات على شركهم، ولن يخرجوا منه إلا إذا أسعفهم الله بألطافه وأزاح عن عقولهم الثبات على العناد. ولكن أكثر المشركين جهلة بقدرة الله على تيسير الخير لهم. وعلى هذا النحو جعلنا للأنبياء قبلك أعداء من الفسقة الفجار من البشر ومن المردة الكفار من الجن، يتعاونون فيما بينهم ويسر بعضهم إلى بعض ما يمضون به في فسادهم من القول المضلل الذي يغرون به، ولو أراد الله منعهم لمنعهم. فلا تهتم بهم واتركهم يتخبطون في أكاذيبهم وافتراءاتهم.

وقد تمكنوا من تغرير الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ولا يخشون الحساب فاستمعوا إليهم، وجاروهم فيما يدعون إليه، وتمكنوا من عقولهم فرضوا بوسوستهم، وانغمسوا في الفساد الذي أصبح سجية لهم.

بيان المعنى العام :

111 -ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة...أكثرهم يجهلون.

يواصل القرآن دحض تعلة المشركين بأن إيمانهم متوقف على ظهور المعجزات التي اقترحوها، فيكشف عن عنادهم الذي هو الداء الدفين في عقولهم الذي حرمهم الإيمان. ويؤكد أنه لو تهيأ لهم حضور ما طلبوه، وشاهدوه بأعينهم فإنهم لا يؤمنون. وعددت الآية بعض مقترحاتهم التي منها: أن ينزل الله مع رسوله ملائكة يخاطبونهم، أو أن يحيي الله بعض الموتى فيشهدون بصدق الرسول، وحتى لو جمع الله لهم كل شيء سألوه من خوارق العادة، فرأوه عيانا وكان حاضرا أمامهم، ما انصاعوا للإيمان ولا دخلت الهداية قلوبهم، لقساوتها وتمردهم، ولكن عندما تتعلق مشيئة الله بهدايتهم فإنه سبحانه يسعدهم بالألطاف التي تفتح بصائرهم على الحق فيتركوا العناد. والواقع أن أكثر المشركين غارقون في الجهل الذي حجبهم عن إدراك أن الأمر كله بيد الله. وفي تعليق ذلك بالأكثر إنصاف من ناحية لأن بعضهم مهيأ للإيمان من ناحية أخرى، وفعلا فإن الإسلام قد كان ينتشر كل يوم بين المشركين إلى أن كان فتح مكة فدخل الناس في دين الله أفواجا.

112-وكذلك جعلنا لكل نبي....فذرهم وما يفترون.

وأعلم الله نبيه أن هذا النسق مضى عليه من سبقه من الأنبياء برفض الإيمان والتصلب في الكفر، وعداوة المرسلين والأنبياء. فكل نبي بعث قوبل من خبثاء الإنس ومن مردة الجن المفسدين بالعداء ومحاولة صده عن تحقيق ما أوكل إليه من هداية البشر إلى الخير. إنها عصابة سوء يتساندون على الشر ويوسوس بعضهم بالقول أو بالفعل ما يضيف إلى مكر كل فريق صورا في الإفساد والتضليل، يلبسون الباطل بزينة جانبية خادعة إمعانا في التغرير.

لا تبتئس يا محمد فهذه سنة الله في الخليقة تكررت على مر العصور، ولو شاء الله أن يخلق الناس مهتدين يسرعون إلى قبول الحكمة والخير لما أعجزه ذلك، وما استطاعوا أن يفعلوا ما فعلوه من التضليل والعناد. فاتركهم يتخبطون في أكاذيبهم فإنهم لن يضروك شيئا.

113-ولتصغى إليه....مقترفون.

وكشف القرآن عن قوتهم في التغرير والتلبيس بما يزينون به أقوالهم من زيف، فقد استطاعوا أن يؤثروا في المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة الذين ليس عندهم رقيب على ما يصدر عنهم من خير أو شر، فهؤلاء يستمعون إليهم استماع المنقاد لوسوستهم الراضين بها، فيقعون في الإثم ويتتابعون في السيئات والفساد.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحكم : الحاكم المتخصص الذي لا ينقض حكمه.

مفصلا : مبينا.

تمت : التمام بلوغ الشيء كماله، ويقدر ذلك في كل مقام بما يناسبه.

مبدل : التبديل جعل شيء مكان شيء آخر.

إن تطع: تفعل ما يأمرك به بدون رفض.

يخرصون : الخرص القول بالتخمين الذي لم يسنده دليل ولا حجة.

بيان المعنى الإجمالي:

يرشد القرآن رسول الله ﷺ أن يقول للمشركين عندما دعوه ليحتكموا إلى غير الله، أن يقول لهم : كيف يتصور أن أطلب حكما غير الله، وهو الذي أنزل إليكم القرآن مفصلا، فيه جميع القضايا التي تهم الإنسان في حياته الدنيا وفي معاده. واليهود الذين آتاهم الله الكتاب، التوراة، المنزل على موسى يعترفون بهذه الحقيقة، وأنه مرتبط بالحق ارتباطا جذريا. وكن واثقا أنهم يعترفون بذلك في باطنهم وإن أحجموا عن إعلانه ولا تشك في ذلك. كيف لا وقد بلغت كلمات الله (القرآن) الكمال الذي ليس فوقه كمال مما ينفع الناس، ويعلن الحقيقة في كل موضوع من المواضيع التي تناولها. والحق الذي نزل به لا يقبل التبديل ، فكل مبدل ينكشف سقطه وضلاله. والله يسمع ما يدبر به المناوئون للقرآن ويعلم ما تكنه صدورهم، وسوف يجازيهم بما مكروا.

علّم المؤمنين أن يعتمدوا على حجج العقل أو صادق الوحي، وأن الكثرة العددية للكافرين لا تكسب آراءهم صدقا، فلا تتبعوا ما يدعونكم إليه لأنهم لا يبغون إلا إبعادكم عن الطريق الموصل لمرضاة ربكم. وإن ما يلقونه إليكم مستند إلى التخمين ويتخيلون أنهم على حق. فلا يخدعونكم، إنه بيدكم ميزان عادل لا يضللكم، فإن الله

هو وحده العليم العلم الكامل بخفايا النفوس، فلا يستطيع ضال أن يخفي ضلاله، وهو العليم بالذين اهتدوا فسلكوا الطريق المؤدي لمرضاته، فلا تهمكم الكثرة ولكن زنوا البشر بانقيادهم لربهم.

بيان المعنى العام :

114 -أفغير الله أبتغي حكما....من الممترين.

من اعتناء الله برسوله أنه يلقنه الحجج القاطعة للمراء والجدل فنظم الآية على معنى : قل للمشركين الذين يريدون منك أن تتحاكم إلى من يعتمدونهم عادة في التحكيم :كيف أطلب حكما غير الله؟ منكرا مستقظعا طلبهم أن يرجع إلى غير الله في الحكم. والله جل جلاله قد قطع كل شك فيما يحكم به، بما أنزله إليكم في القرآن من أدلة شاهدة على صدقه وعدله. إنه الكتاب الذي أوضح الحق فيه بلا إجمال وبينه تبيينا بلا غموض. إن الذين آتاهم الله الكتاب من اليهود يعلمون يقينا أنه كتاب منزل إليك من ربك لا دخل لك فيه، وأنه ربطه بالحق وربط الحق به في كل ما تضمنه من أخبار وأحكام ووعد ووعيد من أمور الدنيا والآخرة. ويحتمل النص (يعلمون) اليهود الذين آمنوا بمحمد ﷺ، والظاهر شمول من آمن، وهو واضح، ومن لم يؤمن، بشهادة الله في أنهم يعلمون ويكتمون.

ولا تكن يا محمد من الشاكين في أنهم يعلمون مزايا القرآن. ويحتمل أنه خطاب لجميع البشر: أن لا يكونوا من الشاكين مما ورد في هذه الآية.

115 -وتمت كلمة ربك صدقا....وهو السميع العليم.

يخاطب القرآن البشر جميعهم بالحقيقة التالية: لقد بلغ القرآن الكمال الذي ما بعده كمال، فجميع ما فصلته آياته من حكم ومواعظ وتقرير للعقيدة وتوضيح لطرق العبادة وبيان للأحكام بين البشر، في سلمهم وحربهم وفي دنياهم وآخرتهم، وما اعتنى به من إرشاد، بلغ كل ذلك الكمال مع كونها صادقة لا يلحقها كذب ولا انتقاض، عادلة لا يتبعها ظلم. وسيستمر القرآن على هذه الصفة من الكمال ولن يحدث أن يرد ما يناقضه أو يبطله مما تقبله العقول. ومحاولات الفسقة لا تروج وتتهافت. وفي الآية تنبيه للمؤمنين أن لا يتراخوا في تطبيق ما جاء به بالتأويل، أو ترك العمل به، فإنهم يكونون بذلك على غير الصدق والعدل، ومن غيّر سبيل الهدى ضل في النهاية وباء بالخسران. وتختم الآية بالتذكير بصفتين من صفاته (وهو السميع العليم) وفي ذلك تهديد ووعيد لمن يحاول تبديل كلمات الله، بأن الله يسمع ما يجري في السر من المكر لتبديل كلماته والخروج عن حدوده، وهو العليم

بما هو مستقر في الضمائر، فمبررات بعض المبدلين بألسنتهم لا تنفعهم عند الحساب، فالله عليم بما تخفيه الصدور.

116-وإن تطع أكثر من في الأرض...وإن هم إلا يخرصون.

ثم عرض القرآن حقائق في الواقع مضللة. فمنها أن أكثر أهل الأرض على غير هدى، وأن حاصل ما استقر في عقولهم ناشئ عن ظن لا عن يقين مستند إلى صارم حجج العقل أو إلى صادق الوحي، وأن سلامة البشر في حياتهم الأولى والأخرى باتّباع القيمة الحقيقية للرأي دون الاعتماد على الكثرة العددية، وأن من يتبعهم يضل الطريق وينتهي إلى عدم الوصول إلى ما كان يبحث عنه.

وأنهم لفساد طريقتهم في تحصيل المعارف يظنون ظنا، لا عن بحث، ولكن عما يسبق لأذهانهم التي هي مكونة من الحق المختلط بالضلال.

فينبه القرآن الرسول والمؤمنين أن لا ينخدعوا بالرأي المستند إلى الكثرة، فإن أكثر أهل الأرض على غير هدى، فإنه إذا راجت عليكم ظنونهم فإنهم ينتهون بكم إلى الضلال والبعد عن الطريق الموصل إلى مرضاة الله. إن ما يلقون به ناتج من ظنونهم التي انخدعوا بها ولم يمحّصوها، وآراؤهم تخمين وظنون كاذبة. من ذلك ما ورد أن المشركين حاولوا تشكيك بعض المؤمنين فيما تبين لهم من الوحي، فقالوا لهم: أنأكل ما نقتله ولا نأكل ما يقتله الله (الميتة)؟ ونحو ذلك من الشبهات التي يقصدون منها خلخلة الاقتناع الراسخ في قلوب المؤمنين.

117-إن ربك هو أعلم....وهو أعلم بالمهتدين.

تختم الآيات بما يمكّن الطمأنينة بعناية الله برسوله وبالمؤمنين، وذلك أنهم يستندون إلى الله الذي لا تخفاه خافية، فهو الوحيد الذي شمل علمه خفايا جميع القلوب من كان على ضلال ويعمل على تضليل البشر، ومن هو متمكن من الهدى ويسير في الطريق الذي يرضي الله. والقائد إلى الهدى الضامن لمرضاة الله في اتباعه هو الرسول ﷺ.

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا

مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

بيان معاني الألفاظ:

المعتدون : المجاوزون للحدود المخولة لهم.

ظاهر الإثم : الذنب الذي يطلع عليه الناس.

باطن الإثم : ما لا يطلع عليه الناس.

أولياء الشياطين : المشركون.

المجادلة : المنازعة بالقول للإقناع.

بيان المعنى الإجمالي :

إذن من الله للمؤمنين أن يأكلوا مما ذكر عند تذكيته اسم الله، ومعنى ذلك أن لا يأكلوا مما ذكر عليه غير اسم الله ولا مما قصد عدم ذكر اسم الله عليه. وأن هذا الالتزام مرتبط بالإيمان. ولا تمتنعوا من الأكل مما ذكر اسم الله عليه، لا تتوهموا أن الامتناع عن أكل اللحوم المأذون في أكلها، مما يتقرب به إلى الله. فإن كثيرا من الناس يوهمون غيرهم بذلك فيضلونهم، إذ التحليل والتحريم للخالق وحده. ومن يبدل حكم الله هو معتد لا يفلت من رقابة الله في الدنيا ومن عذابه يوم القيامة. وتجنبوا الآثام ما كان منها ظاهرا للناس وما كان مستورا لا يَطّلِعُ عليه. إن من يرتكب الإثم ينال جزاءه. ثم أكد القرآن النهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ليرتب على انتهاك ذلك، أنه فسق وخروج عن المنهج الإلهي. وإن الشياطين مهتمون بإغوائكم وذلك بتسليط الذين يوسوسون إليهم ليجادلوكم في صحة ما نهاكم ربكم عنه. واعلموا أن من ينقاد لوسوستهم فيصل به الأمر إلى الشك في فساد ما نهى الله عنه يكون مساويا للمشركين.

بيان المعنى العام :

118 119 : فكلوا مما ذكر اسم الله....وهو أعلم بالمهتدين.

لما كان المشركون يعملون على إضلال المؤمنين عن سبيل الله، ويسوون بين ما حرمه الله وبين ما أباحه، ولا يدخلون في القيم إلا المظاهر المادية الصرف، فإذا تساوى الأمران في المظهر المادي سووا في الحكم، كما ورد في قوله تعالى: (ذلك

بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا)[1] وكذلك فيما يحل للإنسان أكله وما يحرم، فبينت هذه الآية أن كل حيوان غير محرم أكله لا يجوز تناول لحمه إلا إذا ذكر اسم الله عليه عند تذكيته. وأن على المؤمنين أن لا يتساهلوا في تناول اللحوم التي لم يذكر اسم الله عليها، وأن تميز المؤمنين بمأكلهم أمر هام مَعْنِيّ به. وتفيد الآية أن ما ذكر غير اسم الله عليه لا يحل أكله، ومثله ما قصد ترك التسمية عليه. وهذا الحكم من الثوابت التي لا تقبل التأويل ولا التعطيل.

وأما إذا نسي المذكي التسمية، فالصحيح أنه يؤكل. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا.

تنبيه : ما جرت عليه عادة بعض الناس من نذر ذبح حيوان عند ضريح من يعتقد فيه الصلاح، ويذكر عند الذبح اسم الموعود بالذبح عنده، فالذبيحة أهلت لغير الله، والأكل منها حرام. كما أن المتقرب في ظنه كتبت عليه خطيئة كبيرة إن لم يصل إلى الشرك بالله.

إنه إذا أحل الله شيئا فمعنى ذلك أن المؤمن مخير بين الإقدام على ما أحله الله وبين الامتناع. لكن على أساس أن العامل في تفضيل أحد الشقين، هو حامل غير مرتبط بتبديل الحكم المقرر، فمن أقدم على الحلال لا يزعم أنه واجب، ومن تركه لا يُحرّمُه. فالآية تبين أنه لا مبرر للامتناع من أكل اللحوم المذكاة التي ذكر اسم الله عليها عند التذكية. وتكون هذه قاعدة عامة في تشريع الحلال. وتحير المفسرون في علة التذكير بهذا التوجيه، ويمكن توجيهه بما ذكرته من تأسيس قاعدة ارتبطت صياغتها بما سبقها وما لحقها. واحتمال أنه توجيه لمن ظن أن التنزه عن أكل اللحوم يعتبر قربة، فنفت الآية من ظن أنه يكون التقرب بترك ما أحل الله. وما ذكر بعد ذلك من التشديد على أن الله فصل ما حرمه، وأنه حتى المحرم إنما هو محرم في غير حالة الضرورة، قد يكون مساعدا على هذا التخريج.

ويزداد هذا التخريج قربا عندي بما جاء في الآية التالية: أن كثيرا من الناس يضلون غيرهم بغير علم، أي استنادا إلى أوهام غير صادرة لا عن نص إلهي ولا عن نظر عقلي منهجي. وقد توعدت الآية في ختامها هؤلاء الذين يغيرون الأحكام الإلهية، بوصفهم أنهم معتدون مجاوزون للحدود المخولة لهم، وأن الله يعلم ما صنعوا وما بدلوا وحرفوا مما يشير إلى تعرضهم للعقاب.

120 -وذروا ظاهر الإثم وباطنه...يقترفون.

[1] سورة البقرة آية 275

واتركوا أيها المؤمنون الإثم سواء أظهر للناس، أم كان في السر. والمعنى الابتعاد عن جميع الآثام. فإن الرقابة الإلهية تقتضي أن تكون حاضرة في قلب المؤمن سواء أكان خاليا أم في ملأ من الناس. وذلك لأن الذين يتوجهون للإثم ويرتكبونه سيجزيهم الله بما قدموا من عمل.

121-ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله....إنكم لمشركون.

ولما كان تعليل الامتناع عن الأكل مما لم يذكر اسم الله فيه بعض الخفاء، إذ التذكية ليست قربة من القرب، وإنما هي وسيلة للانتفاع بأكل اللحم الحلال، كرر القرآن النهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه. ولم أجد تعليلا لذلك عند المفسرين، والذي يظهر لي أن التذكية فيها إزهاق روح والقضاء على حياة مخلوق لله، فشرع الإسلام ذكر الله عند الذكاة ليتذكر المؤمن أنه أقدم على ما أقدم عليه باسم الخالق الآذن. ولهذا كانت تسمية غير الله على الذبيحة خروجا عن الإذن، وفيه منفذ للشرك، على أن المذكور هو المالك لحياة المذكى أو المتقرب له بحياته. ونبه القرآن إلى أن الشياطين العاملين على إضلال الناس، يوسوسون إلى من يتولونهم ليتمكنوا من إضلالكم وترك ما أمركم به ربكم، بإلقاء الشبهة، على أنه لا فرق بين لحم ذكر اسم الله عليه ولحم لم يذكر اسم الله عليه. ليستدرجوكم إلى الأكل مما ذكر عليه غير اسم الله. واحذروا فإنكم إن تراخيتم فتأثرتم بما يحبكون للوصول إليه، من قبولكم الطعن في أحكام الإسلام، فإن من ينحدر إلى هذا المستوى يكون مساويا لمن أشرك.

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

بيان معانى الألفاظ :

مثله :حالته.

الناس : الأحياء من البشر.

المكر : العمل على الإضرار بالغير خفية وتحيلا.

وما يمكرون إلا بأنفسهم : ما يضرون إلا أنفسهم.

الصغار : الذل.

بيان المعنى الإجمالي :

ضرب القرآن مثلين يجسم أحدهما من كان كافرا فأسلم، ومن استمر على كفره. فالأول يشبه الميت الذي كان مسجى في ظلمات القبر فأحياه الله وأرسل له نورا بدد الظلام المحيط به فاستبان له مساره واندمج في الناس.

وشبه الثاني بالذي لفّت عليه ظلمات القبر فلا يجد منفذا يخرج به من الظلمات. والنور هو الإسلام والظلمات هي الكفر. وإنما لم يخرجوا من الكفر، مع ما في النور من وهج ووضوح لأن الشيطان زين لهم ما هم فيه فأعماهم عن إدراك الإسلام. ومشركو مكة السادرون في الظلام، هم سائرون على ما قدره الله من أن كل رسول يلاقي من أكابر المجرمين ما يمنعون دعوته من الانتشار الكامل، يضعون في طريقه المعوقات ظنا منهم أنهم يضرونه بذلك. والحقيقة أنهم أعجز من أن يضروا رسل الله ولكن الضرر واقع بهم.

وسجل القرآن من وقاحتهم واستكبارهم أنهم قالوا: لن نؤمن حتى ينزل الله علينا من وحيه مثل ما آتاه الله للرسل. ورد عليهم القرآن مشهرا بضعف تفكيرهم، إن الرسالة تكليف من الله لمن يبلغ عنه وحيه للناس، والله العليم العلم الكامل بحقائق البشر وقيمهم، هو وحده الذي يختار من يستطيع القيام بهذه المهمة. وإن هؤلاء المستكبرين سيصيبهم الذل وينزل عليه العذاب بسبب ما كانوا يبيتون للطعن في الإسلام وصد الناس عنه.

بيان المعنى العام :

122-أومن كان ميتا فأحييناه....ما كانوا يعملون.

عُنيت الآية الأولى في هذا المقطع بالتنويه بالذين اهتدوا للإسلام والتقبيح لمن استمروا على الشرك. وذلك بضرب مثل لكل فريق يجسم حالة الإنسان بعد خروجه من الكفر إلى الإيمان، وفي المقابل حالة من واصل إقامته على الكفر. مثل القرآن وضعية الكافر الذي فتح بصيرته وآمن بالدين الإسلامي، بمن كان ميتا مسجى في ظلمات قبره، فدبت فيه الحياة ونفذ النور إليه يهتك أستار الظلام الدامس الذي يحول

بينه وبين إدراك ما حوله، وزالت الوحشة الرهيبة المخيمة عليه، فأخذ يمشي بين الأحياء يتأكد شعوره بارتفاع غربته ووحدته، بفضل انتسابه للجماعة المؤمنة.

وفي المقابل من استمر على كفره، فمثّله كمثل شخص ميت في ظلمات قبره، مقطوع الصلات لا يحس الإحساس الكاشف بما حوله، فهو منبتٌ من الوجود. ولا تعجبوا كيف يرضى عاقل أن يستمر على البقاء في الظلمة والغربة، وقد مدت خيوط النور إلى البشر تناديهم: أقبلوا إلى مركز النور تسعدوا.

الجواب: هو ما تقرر في الآيات السابقة قريبا من أن شياطين الإنس والجن يزينون لهم ما هم عليه من كفر وما هم فيه من ظلام وغربة.

123-وكذلك جعلنا في كل قرية...وما يشعرون.

بينت الآية سنة من سنن الله في الخليقة استمرت مع دعاة الهدى، فكان من سننه أنه جعل في القرى التي يرسل إليها رسله، رؤوس ضلال يهيمنون على الأتباع بطرق شيطانية ويخضعونهم لتوجيهاتهم، هذه التوجيهات المبنية على الإضرار والتشويه بالافتراء والتلبيس، فيقفون سدا يحجب أنوار الهداية عن أولئك الأتّباع ظنا منهم أنهم يضرون بذلك الرسل. والحقيقة أنهم لا يضرون إلا أنفسهم، بتحملهم لأوزارهم وأوزار الذين يضلونهم. وهم سادرون في عماهم غافلون عن المآل غير شاعرين بما خسروا وبما يترصدهم من عذاب. وأكابر مجرمي مكة مقصودون قصدا أوّليًا محشورون في أولئك الضُّلّال المجرمين.

124-وإذا جاءتهم آية...بما كانوا يمكرون.

بعد أن حشر القرآن رؤوس الكفر بمكة في زمرة المشركين من الأمم الماضية، سجل نوعا آخر من كبريائهم وتمردهم، ومطالبتهم بما يظنون أنه يعجز رسول الله ﷺ. وقد بلغ عتوهم مبلغا جاوز المجرمين الذين قبلهم، فإذا جاءتهم آية من آيات القرآن تشهد لرسول الله بالصدق، فعوض أن يتأملوا فيها ويتعظوا بها ويهتدوا، طلبوا ليؤمنوا بالإسلام: أن ينزل الله عليهم وحيه كما أنزله على الرسل الذين جاؤوا مبلغين لرسالات الله. فرد القرآن عليهم بإظهار ضلالهم وعدم فهمهم لأسرار الوحي وقيمته، فبين أن بعثة الرسل ليست أمرا سهلا يتأتى لكل إنسان بوصف الإنسانية، ولكن الرسالة مقام رفيع يتخير فيه رب العزة من بين خلقه من جمع مواصفات خاصة من التعلق بالله، وصفاء النفس وجودة الرأي وسمو الأخلاق وتفتح الروح وحب البشر، والتضحية في سبيل إسعادهم، ونحو ذلك من الصفات التي لا تجتمع إلا للمتميزين من البشر الذين اختارهم الله لتحمل رسالاته، ثم واصل عنايته بهم

حتى بلغوا مرتبة الكمال الإنساني الذي تتفتح عندها قلوبهم لتلقي ما ينزل عليهم من الوحي، فيكونون في مرتبة بين الملائكة وبين البشر. هم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وهم أقرب ما يكون إلى الملائكة من امتزاج الخير والحق بتكوينهم الفكري والعاطفي.

ويهدد القرآن هؤلاء المستكبرين، بأنه سيصيبهم ذل من عند الله، لا يستطيعون حماية أنفسهم منه، ويصحبه عذاب، وذلك بسبب إجرامهم وبما كانوا يدبرون لوقف انتشار الإسلام وإعداد الإذاية لأهله.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الهدى : الطريق الموصل للغاية، ويقصد به كثيرا رشاد العقل.

يشرح: يزيل الانقباض من الدعوة الجديدة، ويجعل بينه وبينها تناسبا فيستعد لقبولها وتستقر في قوى إدراكه.

الصدر : العقل والروح.

الضيق: الشديد الضيق.

الحرج : تحقيق لمستوى الضيق العالي الذي عليه الصدر.

الرجس : الخبث والفساد.

دار : مكان الحلول.

السلام : الأمان.

بيان المعنى الإجمالي:

يُسيِّر الله سبحانه شؤون العالم وسكانه حسب حكمته، فمن يرد الله أن يهديه يسعفه بالهداية والتأييد، ويمنع عنه المعوقات ويرزقه الألطاف، ومن يرد أن يبقيه في ضلاله، يحرمه من تلكم الألطاف، ويجعل صدره غير قابل لأنوار الهداية يضيق عن قبولها، يبلغ ضيق صدره الشديد، أن حاله كحال من يصعد في السماء فكلما

ارتفع علوا زاد صدره ضيقا وتقطعت أنفاسه، وكذلك يمكن الله الفساد في قلوب الذين رفضوا الإيمان.

وإذا كان طريق الكفر يزداد ضيقا وحرجا كلما أوغل فيه أصحابه، فإنه في المقابل جعل الصراط الذي يسلكه المؤمنون مُبلّغا لرضوان الله في يسر. وقد فصّل الآيات النازلة من السماء للمؤمنين الذين يتدبرون في آيات الله.

وعجّل البشرى للمؤمنين الذي أراد الله هدايتهم بأنه أعد لهم دار الأمن **(الجنة)** ينعمون فيها، ترعاهم عناية الله، وهو وليهم يمتعهم بكل ما يرغبون فيه.وذلك جزاء ما قاموا به من صالح الأعمال.

بيان المعنى العام :

125-فمن يرد الله أن يهديه...على الذين لا يؤمنون.

إن الاستكبار والعناد الذي ظهر من رؤوس الكفر حتى أوقفوا إيمانهم على أن يوحي الله إليهم كما أوحى لرسله، إن هذا الموقف الغريب منهم وغير المعقول يثير في النفس سؤالا : لما ذا بلغ بهم العناد للإسلام إلى هذا الحد؟

فجاءت الآية الأولى في هذا المقطع تشرح ذلك وتبينه.

إن الاهتداء وإدراك الحق ثم انقياد العقل والمشاعر له وأنس الروح به، مرتبط ذلك بعون من الله، فييسر للإنسان الألطاف ويمنع عنه المعوقات، ويفتح على قلبه فيلين لذكر الله، فإذا تجمعت هذه المساعدات التي هي من التصرف الإلهي المالك لشؤون الحياة كلها وما يجري في هذا الكون، تحققت الاستعدادات التي بها ينظر الإنسان فينشرح عقله للتأمل فيما يعرض عليه ويتابعه إلى أن يحصل اليقين في نفسه فإذا هو مقتنع مؤمن.

وبالمقابل فإن من يرد الله إضلاله، أي عدم إسعافه بما يمكنه من قبول الإيمان، فإنه يتركه لنفسه، ويمنعه ألطافه فيكون صدره تبعا لذلك ضيقا لا يجد نورُ الإيمان منفذا إلى باطنه. ثم أردفت الآية تشبيها يجسم شدة ضيق صدره فمثلته بمن يصّعّدُ يعالج الصعود في السماء.

وقد فهم السابقون هذا التجسيم بمقارنة الذي يصعد الجبل فإنه يضيق تنفسه ويلهث، كلما أمعن في صعوده. واليوم قامت شواهد العلم التجريبي مثبتة أن الطبقات العليا تكون العلاقة بينها وبين وجود الأكسجين علاقة عكسية، فكلما زادت المسافة بين الأرض وبين الإنسان ضعفت نسبة الأكسجين وضاق تنفسه إلى أن يختنق. كذلك

الضيق والحرج يجعل الله الفساد واستشراء الفساد في صدور الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم.

وتأكيدا لمصداقية الوصف الذي وُصِفَ به المشركون، ذكر في المقابل وصفَ وضع المسلم. فإذا كان المشرك يسلك طريقا صعبا يعاني منه وتضييق أنفاسه، فإن الذي انفتحت روحه على الإيمان يكون سالكا طريقا لا عوج فيه ولا منعرجات، فبلوغ السالك للغاية التي يقصدها ميسور لا عنتَ فيه، كأن الغاية مشاهدة من بداية الطرق.

126-127، وهذا صراط ربك مستقيما...بما كانوا يعملون.

من نعم الله أنه عُني بالمؤمنين ففصل لهم آيات القرآن تفصيلا جامعا بين وضوح المحتوى، وبين كونها دلائل على الحق، ومعجزات تزيد المؤمنين طمأنينة، وسعة في مداركهم بتأملهم فيها وتفكرهم في مضامينها.

وإذ أثنى عليهم بما وصفهم به وبالمثل الذي ضربه لهم، صرح القرآن بما أعد لهم من جزاء فقال : خصوا باستحقاق دار الأمن والسلامة، يعني الجنة فوصفها بأن أصحابها حصلوا على الأمن، ففقدوا الخوف من انقطاع نعيمها أو اختلاطه بما يكدره، وزاد هذه الإقامة سموا أنها عند ربهم، قريبة من رحماته وعنايته، وهو النصير لهم المتولي توفير كل ما يسعدهم في إقامتهم السرمدية. وثبت لهم ذلك جزاءً، بسبب ما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

معشر: الجماعة الذين أمرهم واحد.

الاستكثار : المبالغة في الإكثار.

أولياؤهم : المتعلقون بالجن.

استمتع : انتفع.

المثوى : مكان الإقامة.

يقصون : يخبرون.

الإنذار : الإخبار بما يخيف.

إهلاك القرى : إبادتها مع سكانها.

بيان المعنى الإجمالي :

يوقف الله المشركين من الإنس والجن يوم القيامة، ويقرر الجنّ على تضليلهم للإنس ومبالغتهم في ذلك. ويأتي الجواب من الإنس الذين كانوا يوالون الجن قائلين: نعم ربنا قد استفاد كل فريق منا من الفريق الآخر، استمتع الجن بالرئاسة وقبول الإنس إغواءهم المخرب لمصيرهم، واستمتع الإنس بالإقبال على الشهوات، والظلم، والعب من متع الدنيا بدون حساب. والآن قد تفطنا إلى أنا قد انتهينا إلى الأجل الذي حددته لنا فانتهى كل شيء. يعلمهم الله بحكمه البات فيقول لهم : النار هي الدار التي خصصت لإقامتكم وأنتم خالدون فيها. ولكن الله قد يهدي بعض المشركين ممن كانوا في زمن نزول الآية، فهم مستثنَوْن من ذلك المصير. إن ما قدره الله من الجزاء لكل إنسان هو نابع من حكمته وعدله. وعلى ذلكم النحو من تسليط الجن على الإنس وانتهاء أمرهما معا إلى الهلاك يسلط الله بعض الظالمين على بعض.

ويتوجه الخطاب ثانية إلى المشركين من الإنس والجن يقررهم مع توبيخ، ألم يصلكم مع المبلغين هداياتي من القرآن المفصل وينذروكم مصيركم في هذا اليوم ؟ وكان جوابهم استسلاما كاملا: شهدنا على أنفسنا أنا سمعنا وعصينا، وذلك بسبب افتتانهم بالحياة الدنيا التي غرهم متاعها، وبذلك شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، على معنى اليأس الذي لا أمل معه. والله لا يظلم القرى وساكنيها فيبيدهم وهم غافلون. ولكنه يوقظهم وينبههم، فإذا اختاروا الكفر على الإيمان كان جزاؤهم الجزاء العادل.

بيان المعنى العام:

128-129، ويوم نحشرهم جميعا....إن ربك حكيم عليم.

قدم القرآن في الآيات السابقة جزاء الصالحين الذي بلغ أنهم اختُصوا بدار السلام. وعقب ذلك في هذه الآيات بتفصيل جزاء القسم المقابل. فافتتحه بأن الله سيجمعهم

يوم القيامة ويشدد عليهم الحساب، ويواجههم بالفساد الذي عملوه في الدنيا ويقررهم عن ذلك. ولما تألف المشركون من الجن والإنس على الضلال، وكان التكامل بينهم. بينت الآية حشرهم جميعا ثم مواجهة كل فريق منهم. ويبدأ العرض بمحاسبة الجن الذين كانوا متبوعين في الدنيا يأمرون فيطاع أمرهم، وفي ذلك إهانة إضافية لهم فيواجههم سبحانه بقوله: يا معشر الجن، والمعشر الجمع الذين أمرهم واحد، أيها الجن قد استشرى فسادكم وكثر إضلالكم للإنس، ونوعتم طرق تأثيركم عليهم فانقادوا لكم. فأوقفهم السؤال الأول على مسؤوليتهم عن الفساد الذي انتشر بين البشر.

وقال التابعون المخلصون لهم من الإنس: ربنا، نعترف أن كل واحد منا أخذ حظه مما كان يبتغيه، فالجن بلغوا غرضهم من نشر الفساد في الكون وإغواء البشر، وتعطيل نشر الفضيلة والحق، وخضوع الإنس لهم، وعملهم بما يشيرون به ويهيئونه. والإنس استمتعوا بالشهوات ومتنوع طرائق الفساد وفتحت لهم أبواب الملذات الهابطة. ثم يعلن الإنس عن استسلامهم، وأن الإمهال وما كانوا يعللون به أنفسهم من رفض البعث قد ذهب هباء واصطدموا بالحقيقة التي لا مفر منها، وانقطع الأمل فقد بلغنا الأجل الذي حددته لنا.

يباغتهم الجبار بحكمه الصارم : النار مستقركم ودار إقامتكم، وأنتم خالدون فيها خلودا أبديا سرمديا. يأتي عقب هذا الحكم قوله :(إلا ما شاء الله) مما يفيد ظاهره الاستثناء من الخلود. وفي هذا الاستثناء ما يعارض أمرا مجمعا عليه استقاه الناظرون من عديد النصوص يكاد يبلغ درجة العلم الضروري.

ويمكن تخريج ذلك على أن المخاطب به ﷺ والمؤمنون، على معنى أن ما حررته الآية يفيد جزاء المتعاونين من الإنس مع الجن على الفساد والشرك، وذلك يشمل جميع المشركين السابقين قبل البعثة، والمشركين الحاضرين وقت نزولها، والذين سيوجدون ، وسبق في علم الله أن بعض المشركين الحاضرين سيؤمنون ، فيكون المعنى إلا من شاء الله إيمانهم فلا يدخلون في قوله : النار مثواكم. وختمت الآية بالتأكيد على صفتين من صفات الله. الأولى أنه حكيم يضع كل شيء موضعه المناسب، عليم بما يبطنه البشر تنكشف عنده سرائرهم. وهو ما يحقق العدل الإلهي في الجزاء الذي بسطته الآيات السابقة.

وبما أن من أهم أغراض القرآن إثارة النفوس للاعتبار، عقب مآل الظالمين بأن من سنن الله في الاجتماع البشري، أنه يحدث في نفوس الظالمين ميلا للظلم وأهله فيتعاونون عليه، على أن بينهم موالاة لتقارب قيمهم ومفاهيمهم في الحياة. كما يمكن

أن تفهم الآية على أن من سنن الله في الحياة أن كل ظالم سيبلى بظالم يتولى تسليط الظلم عليه كما ظلم.

130-يا معشر الجن والإنس.... كانوا كافرين.

ثم يعاد النداء للمشركين من الجن والإنس، نداء يعقبه استفهام يجمع بين التقرير والتوبيخ مضمونه: أتقرون بأنه قد جاءتكم رسل منكم ؟ أي أتقرون أن الله قد اعتنى بكم ومكنكم بواسطة رسل تفهمون كلامهم، بلغوكم آياته وأبانوا لكم ما يرضاه منكم في العقيدة والعمل، وحذروكم من مشهد هذا اليوم يوم القيامة؟

كما يبدو في السؤال أن الله حقق أن الرسل منهم. واستشكل كثير من المفسرين أن يكون الله بعث رسلا من الجن. وتأولوا النص تأويلات بعيدة فيها تمحل تكون بها غير جارية على ما يقتضيه ظاهر السؤال من إفحامهم وتقريعهم.

والذي تبين لي أن النص ورد فيه لفظ (رسل) منكرا فلم يقل رسلي معرفا بالإضافة التي تفيد أن المستفهم عنهم هم رسل الله، وكذلك لم يرد بلفظ (الرسل) حتى تكون للعهد المقصود به الموحى لهم. ورسل منكر، باق على مدلوله اللغوي يفيد (مبلغون)، أي ألم يصلكم من يبلغكم؟

والإنس قد بلغهم المرسلون الموحى لهم شريعة الله، ثم تم تبليغهم بواسطة من حملوا الرسالة وعهد إليهم بنشر دين الله كما قال تعالى :(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)[1] وبهم استمرت الدعوة عبر الأجيال المتلاحقة. وتقوم الحجة على الكافرين الذين بلغتهم الدعوة واستمروا على كفرهم. وبالنسبة للجن فقد أثبت القرآن أن نفرا من الجن أنذروا قومهم بتقدير الهي، وقارنوا بين ما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على موسى: وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين*29*قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم (30) يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم (31) ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه من أولياء أولئك في ضلال مبين (32).

ومن الحكم التي لقنها القرآن للمؤمنين أن الرسول لا بد أن يكون محسنا للسان المخاطبين. قال تعالى:(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)[2]

---

[1] سورة التوبة آية 122

[2] سورة إبراهيم آية 4

فالمرسل إلى الجن لا بدأن يكون عليما بلسانهم وبطرق خطابهم وإقناعهم. وطريقة ذلك من الغيبيات التي لم يخلق فينا الباري سبحانه القدرة على إدراكها. ذلك أن الإدراك ليس مرتبطا بوجود الشيء، ولكن بتوفر شروط الإدراك بين المدرك والمدرك، فمن الضلال نفي ما لا يدركه الإنسان بحواسه، والحقائق تثبت بالحواس أو بالعقل أو بالخبر الصادق. قررهم القرآن مع تقريع، بسؤالهم عن إتيان مبلغين لهم بينوا ما أراد الله تبليغه إليهم ؟ فذكر من ذلك: إخبارهم عما أنزله الله إليهم، فأطلق يقصون: على ما يفيده يخبرون، يخبرونهم بآيات القرآن وما أنزله الله من الأحكام، ثم إنذارهم وقوفهم بين يدي ربهم في هذا اليوم.

أجابوا: إننا نعترف ونشهد، بأنهم قد بلغونا ما أمروا بتبليغه.ولكن رفضهم وعنادهم كان بسبب تعلقهم بالدنيا ومتاعها تعلقا حجب نظرهم عما أُخْبِروا به. وهكذا تكون المغريات الدنيوية حائلا دون التأثر بالحق، وتدفع إلى المفاسد وتنكب عن الصراط المستقيم.

واستسلموا استسلام الفاقد لكل أمل، فصرحوا بأنهم كانوا كافرين. واستوى في استحقاق العقاب الكافرون من الجن والإنس. وفي هذا تحذير للمشركين الذين يُدِلُّونَ بما جمعوا من الدنيا.

131-ذلك أن لم يكن ربك...وأهلها غافلون.

ثم إن إرسال الرسل إلى البشر وإبلاغ الدعوة إليهم، يهدف إلى قطع معاذير الكافرين المعرضين عن الله، بقولهم: نحن غافلون عن نتائج أفعالنا ولو وقع تنبيهنا لأقلعنا، فقيام الرسل بمهمتهم تقطع حجتهم فيلقون مصيرهم. وبذلك كان استمرار المفسدين على فسادهم، وإعراضهم عن الهدى الواضح البين المعروض عليهم، يترتب عليه إهلاك القرى وساكنيها. وفي ذلك إيقاظ للكافرين والمشركين والمعاندين لشريعة الله من التمادي على الكفر الذي يعرضهم للإبادة.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ (133) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (134) قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (135)

بيان معاني الألفاظ :

درجات : منازل.

الغني : الذي لا يحتاج لغيره.

يذهبكم : يفنيكم.

يستخلف :يعوض.

لآت : حاصل لا محالة.

معجز: جعله عاجزا عن تنفيذ مراده.

العاقبة : النتيجة التي ينكشف عنها الفعل، من حسن أو سوء.

بيان المعنى الإجمالي :

كل فرد ينال الدرجة التي يستحقها بعملــه، إمــا إلــى الكرامــة فــي حــدودها المختلفــة، وإما إلى الهوان في العذاب بدركاته المختلفة أيضا.والله مطلع علــى مــا فــي كــل عمــل من الصدق والصلاح، أو ما فيه من الضرر والفســاد، ولا يغيــب عنــه عمــل العــاملين. وإن ربك، يا محمد، غني لا يتصور أنه محتــاج، ورحــيم بعبــاده رحمــة قويــة شــاملة للعباد حتى الكفار، فهو يرحمهم ببعثة الرســل إلــيهم، وتســخير مــا حــولهم لهــم. وهــو القادر الذي لا يخرج شيء عن إرادته. إنه لو أراد إفنــاءكم وتعميــر الكــون بغيــركم مــا أعجزه ذلك. والظاهرة المؤيدة في أنفســكم، فقــد جئــتم إلــى هــذا الكــون لتخلفــوا مــن ســبقكم. إن مــا أعلمــتكم بــه مــن أنــواع الانتقــام آت لا محالــة، ولا تســتطيعون أن تعجزوني عن إنزاله بكم فإن قدرتي لا تحد.

ويوجه القرآن النبي ﷺ ليلح على إنذار المشركين حتى يقلعوا عمــا هــم فيــه مهــددا. قــل لهم: واصلوا العمل على الطريقة التي أنتم عليهــا، وإنــي مواصــل عملــي علــى نقــيض ما أنتم عليه، وستعلمون غدا من يفوز منا بحسن المــآل، والفــائز معلــوم، لأنــه لا يفلــح ولا ينجح من اعتمد الظلم في تصوره وعقيدته وعمله.

بيان المعنى العام :

132 - ولكل درجات مما عملوا.....يعملون.

كل فرد من أفراد القرى له درجته، المناسبة لما عملــه مــن خيــر أو شــر، عنــد ربــه. فإهلاك القرى بسبب تفشي الظلم فيهم، ثم عقابهم يــوم القيامــة، لا ينســحب هــذا الحكــم على جميع سكانها الصالحين والمفسدين، بل لكــل مقامــه وجــزاؤه الــذي يختلــف بــين الكرامة والثواب، وبين المهانة وسواء الجحيم. والله لا يغيــب عنــه عمــل أي فــرد، فــلا يختلط الصالح بالفاسد، ولا الحســن بــالقبيح. وحتــى العــذاب لــو ســلط علــى القريــة

بصالحيها فأبيدت، فإن المؤمنين ينتقلون إلى حياة الكرامة عند ربهم. فكل عمل هو مثبت عند الله.

133←134، وربك الغني ذو الرحمة....وما أنتم بمعجزين.

ثم التفت الخطاب للنبي ﷺ ليثبت قاعدة من قواعد التصور الإيماني، مفادها : إن ربك يا محمد الذي تولاك برعايته، هو المتفرد بالغنى الذي لا يحتاج، إذ الحاجة نتيجة نقص، والله كامل الكمال المطلق. وهو صاحب الرحمة الواسعة التي شملت كل شيء والتي لا تحدها حدود.

وحتى لا يفهم من ذلك بذل أمل للمشركين، توجه القرآن بالتهديد لهم : أن ربك الغفور صاحب الرحمة قادر أن يفنيكم جميعا أيها المشركون، وأن يعوض عنكم ما تتعلق به إرادته من البشر سواء أكانوا عربا أم عجما، وعلى هذا جرت سنته فهو سبحانه جعل كل جيل خلفا للجيل الذي قبله، وإذا نظرتم في شأنكم فستتبينون أنكم خلفتم من سبقكم.

وحذر الكافرين من استهزائهم بالوعيد الموجه إليهم، الذي تظهر صورته القبيحة في طلبهم تعجيل العذاب المهدد به. فقال تعالى : إن ما أوعدتكم من الانتقام منكم آت لا ريب فيه، ومن أنتم حتى تظنّوا أنني عاجز عن تنفيذ ما هددتكم به؟ إنكم لا تنفلتون من بطشي بكم.

135- قل يا قوم اعملوا على مكانتكم....لا يفلح الظالمون.

ثم طلب من النبي ﷺ أن يخاطبهم وهم على هذه الحالة من التكذيب والاستهزاء فيؤمر أن يقول لهم : يا قوم واصلوا على الحالة التي أنتم عليها من العناد ومن الرفض، ومن ربط قيمكم بمتع الحياة والانغماس في الشهوات، والتكذيب بالحساب. وهذا على سبيل التهديد بالنظر إلى أنه سيكشف لهم عن النهاية التي هم صائرون إليها.وفي دعوة النبي ﷺ لهم بـ (يا قومي) ما يشعر بشدة إشفاقه عليهم، فليس هو المتشفي منهم ولكنه الحريص على جلب الخير والسعادة لهم، ويحزنه المآل الذي هم صائرون إليه.

ثم صرح بأن منهجه واتجاهه وقيمه ﷺ على نقيض ما هم عليه، فقال: إني عامل، أي إني ماض على منهجي وطريقتي ومتمسك بقيمي. وإذا كنتم اليوم جاهلين بعاقبتي وعاقبتكم، فإنه ستنكشف لكم انكشافا ينفي الجهل وينير الحقيقة فتصبحون بعد ذلك عالمين بمن يفوز بالعاقبة الحسنة، فيحل في دار النعيم وحسن الجزاء والرضا والطمأنينة.

ومما يؤكد فوزنا بالمقامات الرفيعة وخسرانكم لحياتكم باعتبـار أنهـا تفضـي بكـم إلـى المهانة والعذاب، أن القاعدة التي يجـري عليهـا الكـون والتـي يعـود إليهـا الإنسـان ليقوم عمله :أن مآل الظالمين، الخسران المبين.

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجعل : قدروا النصيب الذي يصرف.

ذرأ: أنشأ ونمى.

الحرث : الزروع والثمار.

الزعم : الاعتقاد الفاسد.

ليردوهم: ليضروهم أشد الضرر.

ليلبسوا : يخلطوا عليهم دينهم بضلالات.

الافتراء: الكذب المتعمد.

حجر: ممنوع.

خالصة : مباحة.

وصفهم : التحديدات التي بنوا عليها أحكامهم.

السفه : خفة العقل.

ضلوا : الضلال : الخطأ في الطريق الموصل إلى المقصود.

بيان المعنى الإجمالي :

قدمت هذه الآيات نماذج من الفساد الذي يلحق الفكر البشري إذا أصيب بالإلحاد أو الشرك. فمن ذلك أن المشركين حكموا في محاصيلهم الحيوانية والزراعية فقسموها ثلاثة أقسام. قسم خالص للشركاء يستحقونه كاملا غير منقوص، وقسم لله يصرف إليه، وما ذهب منه إلى نصيب الآلهة يبقى للآلهة دون العكس. وفي سنة الجدب يكونون بالخيار في النسبة المحددة لله. وقسم ثالث يتصرفون فيه تصرف المالكين وطبع الله على أحكامهم هذه بأنها أحكام سيئة.

ومن ذلك أيضا: أن شركاءهم الذين يعتمدون ما يوسوسون به إليهم، أخفوا عليهم القبائح المنكرة، وزينوا لهم الإقدام على قتل البنات خوف العار أو الفاقة، وقتل ما ينذرونهم من أولادهم عندما يتحقق ما نذروا له إرضاء للصنم الموعود. فدمروا تركيبهم النفسي وخرجوا عن الفطرة المبنية على حب الأباء لأولادهم ورحمتهم بهم، ولبسوا عليهم دينهم فأدخلوا فيه ما لا ينسجم مع الطبيعة البشرية ولا مع الحق الذي يرضى الله عنه. ولو شاء الله لقسرهم على اعتقاد ما هو صالح وعلى فعله، ولكن الله قدر أن يكون الإنسان مختارا مسؤولا. فلا تهتم بهم فهم قد طبعوا على العناد.

ومن ذلك، أنهم نشروا الأفكار الخاطئة والفاسدة، كقولهم فيما بين أيديهم من الأنعام والحرث :بعضها حكمنا عليه بأن تناوله محرم حتى نأذن فيه، وأن بعض الأنعام حرام أن تركب، وأن بعض الأنعام التي تقدم قربانا لآلهتهم، ولا يذكرون اسم الله عليها، تحقيقا لما أمر الله به لتكون خالصة للصنم. وهذا افتراء وكذب على الله، وإنهم لا يفلتون من نيل العقاب الذي يكون كفاء لافتراءاتهم.

ومن ذلك قولهم: أن ما تحمله بطون بعض الأنعام، كالتي ذكرت في سورة المائدة، من أجنة تولد حية ومن ألبان، حلالٌ تناولُه للذكور، حرام على الإناث؛ وما ولد ميتا حلال للجنسين. وعقب هذا التحكم بأن الله سيعاقبهم عليه بمقتضى الحكمة والعلم.
وخاتمة القول: انهم يمثلون التاجر الذي خسر رأس ماله وأصبح مفلسا. وبيان ذلك أنهم أولا عمدوا إلى ما أنعم الله به عليهم من ذرية فقتلوهم وهم ما زالوا في المهد. ولم يقدموا على ذلك تحقيقا لمصلحة أو استجابة لدليل، ولكن هو السفه وخفة العقل.

وثانيا إلى ما رزقهم الله من نعم فحرموها على أنفسهم وعلى غيرهم فأهدروا الغاية التي يُسِّرت بها إليهم. فهم ضالون مغرقون في الضلالة بعيدون عن أي خيط من الهدى.

بيان المعنى العام :

136- وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث...ساء ما يحكمون.

يمثل الإلحاد والشرك أعظم كارثة تحل بالعقل البشري فتفسد عليه أحكامه وتصوراته، وعلاقاته الاجتماعية، وتشوش نظرته للكون ولدوره فيه. ومن رحمة الله بالإنسان بعثة الرسل كلما عم الضلال وتمرد الإلحاد وانتشر، وغابت الحقيقة. فكانت الرسالة الخاتمة على لسان رسول الله سيدنا محمد ﷺ، كاشفة عن المنهج الصحيح في العقيدة والتصور، وضمن سبحانه بقاءها نقية بنقاء الكتاب الكريم القرآن محفوظا بحفظ الله.

قدم القرآن نماذج للوضع الذي ينحدر إليه الإنسان عندما يحجب عنه النور الهادي، نور الوحي. وكشف كيف يفسد عقله وتفكيره، ويفقد حتى الشعور بسموه الإنساني.

كانت هذه النماذج تمثل المعتقدات المتمكنة في العقل العربي الجاهلي وقت البعثة المحمدية. تقرأ الشعر العربي فيتملكك الإعجاب بالدقة في التصوير، وبتطويع اللغة لأداء تلكم المعاني المتخيلة والمشاهدة، وتقريبها من السامع ليستمتع بما وصل إليه الشاعر من ملاحظات بلغت مبلغا ساميا في النفاذ إلى ما وراء الظاهر.وأقاموا لشعرائهم مناسبات تعتبر عيدا اجتماعيا سنويا للأدب والبيان، وكان لكثير منهم فراهة. وتوفيق في تنمية المال بالتجارة. ولكن لم يحمهم ذلك لما فسدت العقيدة من النزول إلى المستوى الذي رسمته الآيات القرآنية في هذا المقطع.

أولا: أخذوا المحاصيل من الزروع والثمار، و الأنعام، التي يقرون أن الله هو الذي أنشأها ونماها فقسموها أقساما :

القسم الأول: خصصوا هذا النصيب لله، يصرفونه للضيوف والمساكين، ولا يأكلون منه شيئا.

القسم الثاني :هو نصيب آلهتهم يصرفونه لسدنتهم، ينفقونه عليها. وللسدنة حظ منه.

القسم الثالث : هو نصيبهم.

ثم تصرفوا في هذا الذي وزعوه توزيعا لا سند له، فما كان مخصصا لله سمحوا بأن يذهب نصيب منه إلى ما جعل للآلهة، فإذا حولت الريح شيئا من المحاصيل المخصصة لله فحملته إلى الذي لشركائهم أقروها. وإذا كانت السنة سنة مجاعة

قالوا: إن الله غني عنا. وإذا أخصب ما جعلوه لله وهلك ما جعلوه لشركائهم، قالوا: ليس لآلهتنا بد من نفقة، وأخذوا ما جعل لله وحولوه إلى آلهتهم.

وفي المقابل إذا حولت الريح شيئا مما جعلوه لآلهتهم أبقوه لها. وإذا أجدب ما جعلوه لله وكثر ما جعلوه لآلهتهم، قالوا : لو شاء لأزكى الذي له.وإذا تسرب الماء لشيء مما جعلوه لله تركوه، ولا يفعلون ذلك في صورة العكس.

137-وكذلك زين لكثير.....وما يفترون.

هذا التعسف في أحكامهم وتطبيقاتها يكشف عن الضلال الذي استحكم فيهم نتيجة الشرك المتأصل فيهم، بالإعراض عن النظر في البراهين المنادية بفساده.

ثانيا: زين لهم شركاؤهم ما هو من أقبح الأمور ومن أشدها فظاعة ومناقضة للفطرة، فاستساغ بعضهم قتل أولادهم وفلذات أكبادهم. أوهمهم الشياطين أن قتل البنت فيه حفظ لعرض القبيلة، وتقليل لحمل الأب في الإنفاق، وهو معظم ما كان يقوم به بعض قبائل العرب، كما زينوا لبعضهم نذر أحد الأولاد للصنم إذا حصل للناذر أمر مرغوب فيه، وهكذا أفسدوا ما غرس في الفطرة من حب الأولاد والدفاع عنهم بتخيلات من خوف العار أو الفقر أو رضا الصنم. ضاعفوا الوسوسة، ليقدموا على ما يضرهم أبلغ الضرر بقتل عاطفة الأبوة الراحمة في أشد أوقات حاجة الولد إلى الحنان والعطف. وليلبسوا عليهم دينهم فيخلطون عليهم ويدخلون ما هو فاسد في ما يعتقدونه، ففقدوا بذلك الميزان، إذ تساوى الفساد الصريح بالصالح.

ثم بين القرآن أنه لو شاء الله أن يحصنهم من هذه الضلالات، في قسرهم على الخير، ويكوّن فيهم مناعة من قبول وسوسة الشياطين، لفعل، إذ لا يعجزه شيء. ولكن هذا خلاف ما بني عليه أمر البشر في الأرض، إذا قدر أن يكونوا مسؤولين عن أعمالهم مختارين لا مجبرين.

ولبّسوا عليهم بجعلهم يقبلون أن ما نسبوه إلى الله كذبا هو حق. فهوّن القرآن أمرهم على رسول الله فقال: اتركهم فيما صدّقوا به من الكذب، وما جزموا به جزما لا يقبلون معه أي مراجعة، فقد قمت بأمانة التبليغ على أتم وجه وأكمله.

138-وقالوا هذه أنعام وحرث حجر...بما كانوا يفترون.

ثالثا :نظروا في محاصيلهم فقسموها ثلاثة أقسام أيضا، معتقدين أن ذلك من الدين، تبعا لما وسوست به الشياطين.

الصنف الأول: قالوا هذا الصنف من الأنعام ومن الزروع والثمار حكمنا بحرمة الانتفاع به إلا لمن نُعيّنه، فهو محرم على جميع الناس حتى على أنفسهم، ولا يتغير هذا الحكم إلا إذا اختاروا رفع الحظر عمن يشاء لهم خيالهم.

الصنف الثاني: أنعام حرموا ركوبها. وقد تقدم في سورة المائدة تفصيل تلك الأنعام المحرمة.

139- وقالوا ما في بطون...حكيم عليم.

الصنف الثالث: أنعام نذروها تقربا لآلهتهم، وزعموا أن الله أمرهم أن لا يذكروا اسم الله عليها لتكون خالصة للصنم المتقرب إليه. فكذبوا بقولهم: إن الله أمرهم بعدم ذكر اسمه، وكذبوا لما نسبوا الرضا لله عنهم بالتقرب لآلهتهم، ولذا عقب القرآن كذبهم هذا بقوله: (افتراء على الله) ومن أشنع وأقبح الانحرافات الافتراء على الله. فلذلك عقب ما سجله عليهم من الافتراء، بأنه سيجزيهم بسبب ما كانوا يفترون عليه سبحانه، ولم يعين الجزاء لتذهب النفس في تصور العقاب كل مذهب.

رابعا: تجاوزوا سحب الأحكام على ما هو موجود إلى ما سيوجد في المستقبل، فعينوا بعض أنواع من الأنعام، منها ما ذكر في سورة المائدة، ثم حكموا على ما ستنتجه من نسل ولبن، وأصدروا حكمهم التشريعي عليها على النحو التالي:

ما ولد حيا مما تحمله الإناث وكذلك ألبانهن، يحل الانتفاع به للذكور دون الإناث من زوجات وبنات. ما ولد ميتا، يشترك في حل تناوله الإناث والذكور.

وهذ اتعسف آخر، فيه أحكام استندوا فيها إلى ما وسوس به إليهم شياطينهم، وفيه احتقار للإناث الذين سوى الله بينهم وبين الذكور في كل ما يعود للقيمة الإنسانية، ولذا عقب بنظير ما عقبت به الآية السابقة، أن الله سينزل بهم الجزاء الوفاق والعادل عن مفترياتهم. والله حكيم في ما يقدره ويفعله، فيكون جزاؤهم مناسبا للمفاسد التي اخترعوها ونشروها، وأنه سبحانه عليم بما حكموا وبما فعلوا.

140-قد خسر الذين قتلوا...وما كانوا مهتدين.

ثم يصدر الحكم التقديري لنتائج ما حكموا به وما فعلوه. وهذا الحكم الكاشف عن معيار ما صدر عنهم أجمله القرآن في كلمة تجسم نهايتهم وتعرف بالحقيقة على أخصر طريق: باؤوا بالخسارة الكاملة .هم كالتاجر يسعى ويكد، ويلقى في النهاية ذهاب رأس المال والإفلاس. ثم يوضح القرآن معنى خسرانهم :فالله رزقهم الأولاد، وهم زينة الحياة الدنيا، ومطلب عزيز يستبشر كل والد بهذه النعمة ويُهنأ بها، ومن حظهم منهم أنهم إذا قاموا عليهم بحسن التربية أن يجدوهم ذخرا عند الكبر والحاجة، فيقابلون هذه النعمة بسلوك سفيه، سلوك من ضعف عقله واختلت

مواهبه، إذ يعمد إلى قتل نسله بيده تبعا لأوهام أوحت بها شياطين الإنس والجن، لا تستند إلى علم بل إلى أوهام واحتمالات لا دليل على أنها ستحدث كما توهموه. فمن أين لهم أن الإناث يجلبن لهم العار، أو أن يكونوا في ضائقة من العيش عندما يرعونهن. والسفه الثاني أنهم عمدوا إلى ما مكنهم الله من رزق لينتفعوا به ويقبلوا به على الحياة في سعة، حرّموا هذا الرزق على أنفسهم وعلى غيرهم فأهدروا نفعه مفترين على الله أنه هو الذي أرشدهم إلى ذلك. وتنكشف النتيجة بينة : قد ضلوا فسلكوا الطريق الذي يعاكس ما قصدوا إليه، وأكد ضلالهم بأنهم لم يصحبهم شيء من الهداية.

۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنشأ: أوجد.

جنات: جمع جنة وهي القطعة من الأرض التي زكا شجرها.

معروشات : مرفوعات فوق أعمدة.

الأكل : ما يؤكل.

الأنعام : الغنم والمعز والبقر والإبل.

حمولة: يحمل عليها البشر بالركوب والمتاع.

فرش: ما يفرش من جلود الأنعام، وما ينسج من الصوف والوبر.

أزواج : جمع زوج. اسم لذات لازمت الانضمام إلى أخرى. فالرجل والمرأة كل منهما زوج بالنسبة للآخر.

الضأن : الشاء.

شهداء: حاضرون.

بيان المعنى الإجمالي :

الله وحده هو الذي أوجد جنات قد التف شجرها بعضها قائم على سوقه وبعضها مرتفع على أعمدة. وأنشأ لكم النخيل والزروع لكل منها مذاقه وفوائده الغذائية، وكذلك الزيتون والرمان التي قد يكون بين ثمارها تشابه وقد تختلف. هذه نعمي فكلوا من ثمارها عندما تستطيبونها، وخصصوا، عند جنيها للادخار أو البيع، نصيب المحاويج الذي هو حق لهم، وإياكم أن تسرفوا في الأكل أو الإنفاق، فإن الله لا يحب المسرفين، لأن الإسراف مجلبة لتحكم الشهوة في سلوككم. والله أنشأ لكم من الأنعام ما تستعينون به على السفر، وما يمكنكم من فُرُش تريح أجسامكم، تتخذونها من جلودها ومن أوبارها وأصوافها. وأنا الذي خلقتها أبحت لكم أن تأكلوا من لحومها، فلا تبدلوا ما حكمت به، ولا تستجيبوا لما يسوله لكم الشيطان من تحريم لبعضها، فإنه عازم على إغوائكم وإنه لكم عدو واضح العداوة فاحذروا الانزلاق لما يلبس به ويوسوس.

وتثبيتا لهذه الوصايا ناقش ما يذيعه أعلام الشرك من أحكام اخترعوها وضللوا بها الناس. إن الأنعام التي امتن بها الله ثمانية أزواج: كبش ونعجة، ومعزى وتيس، وبقرة وثور، وناقة وجمل. هي متساوية في النوع. فهل حرم الله الكبش والتيس أو حرم النعجة والمعزى، هل حرم ما تحمله الإناث ؟ أخبروني بكلام مبني على العلم لا على الوهم. وكذلك البقرة والثور، والناقة والجمل، هل حرم الله الذكر أو الأنثى، أو حرم ما تحمله بطون الإناث ؟ هل كنتم حاضرين عندما حرم الله ما تدعون أنه أوصاكم بتحريمه؟ لا حجة لهم ولا جواب لأنه كله افتراء وكذب وأوهام اختلقوها وروجوها. إنه لا يوجد ظلم أشد سوءا من الكذب على الله بتحريم ما أحله وتحليل ما حرمه، إنه إيقاع للناس في الضلال، وتربية عقولهم على التصديق بالأوهام. وسيكون جزاء هؤلاء مناسبا لما اقترفوه. إن الله يمنعهم عونه على الاهتداء فيستمرون في ضلالهم إلى أن يفارقوا الحياة.

بيان المعنى العام:

141- وهو الذي أنشأ جنات معرشات....إنه لا يحب المسرفين.

تذكير بالنعم مسندة لله، فهو وحده الذي أنبتها ومكنها من النمو بتيسير أسبابه والحماية من الآفات. ذكر من هذه النعم الجنات، تلكم القطع من الأرض التي نما شجرها والتف فلا يرى ما خلفها، منها ما هدى الإنسان لرفعه عن الأرض ليكون وقاية لما يحمله من ثمار، ومنها ما قامت على سوقها مرتفعة أيضا. وكلاهما بهجة للنظر وخير محمول للإنسان. وهو وحده الذي أنبت النخل والزروع، فنماها إلى أن آتت ثمارها وحبوبها، والأرض واحدة والماء واحد، وكل صنف له مذاقه وخصائصه . وكذلك الزيتون والرمان، قد تجد التشابه بينها وقد لا تجده.

ثم أصدر الإذن المُحِلّ للانتفاع بتلكم المنن على خلاف ما اخترعه الجاهليون من التحريم والتقسيم. ومبدأ الإذن من تاريخ الإثمار قبل الحصاد لكل المحصول الذي لا يتم إلا بعد كمال النضج. فهو إذْنٌ لهم في الأكل من ثمار جناتهم عندما يستطيبون ذلك. ثم أمرهم بأن يؤدوا الحق الواجب فيه يوم حصاده وإعداده للخزن أو البيع. وهذا حق قرنه الله بالصلاة، فكان من الواجب على المسلمين من الأول أن يسمحوا بمساعدة المحاويج من محاصيلهم الزراعية في العهد المكي الذي تسلط فيه المشركون على أرزاق المستضعفين من المسلمين. وهي الزكاة الواجبة التي سماها الله حقا في القرآن ليرفع بذلك المنة على الآخذين لها، وليرفع الاختيار عن المالكين في دفعها لهم. ثم إن تشريع الزكاة قد نزل ما يفصله في العهد المدني.

ولما كان هذا التوجيه معرفا للمؤمنين للمنهج الذي يرضاه الله في محاصيلهم الزراعية، أدمج في ذلك ما يكمل به هذا التوجيه، فنهاهم عن الاستجابة لدواعي الشهوة، بالإسراف في الأكل أو الإنفاق.

وحذرهم مما يفضي إليه الإسراف، باعتبار أن المسرف يكون بإسرافه مجانبا للمنهج الذي يحبه الله. يوضح ذلك أن الإسراف في المأكل يتبعه ثقل يضعف النشاط، وزيادة في الوزن يصحبه استعداد لاختلال في التوازن الجسمي، والإسراف في الإنفاق قرين الاستجابة لدواعي الشهوة، وإذا أفرط المنفق في الاستجابة لشهواته فقد التحكم فيها وتصبح له خلقا، هو انحلال للإرادة واتّباع لنوازع النفس، وقد لا يسلم من الوقوع في المكروه أو المحرم. والقرآن حريص على استقامة المؤمن وإكسابه مناعة تحفظه في خلُقه وجسمه.

142-ومن الأنعام حمولة وفرشا....إنه لكم عدو مبين.

الله وحده هو الذي أنشأ لكم الأنعام التي تساعدكم على حمل الأثقال ونقلها، وتعينكم بركوبها على قطع المسافات، وتمكنكم من وطاء يريح أجسامكم تتخذونه من جلودها أو مما تنسجونه من أشعارها أو من أوبارها.ويضاف إلى تلكم النعم أن تأكلوا من لحومها، فهي رزق لكم من عند الله، إياكم أن تتبعوا ما يأمر به الشيطان وأن تتبعوا خطاه وطرقه التي يزينها لكم، وما يوسوس به من تحريم بعضها، فالكلام إذن في الانتفاع ونهي عن تبديل حكم الله الذي يتخذه الشيطان سبيلا إلى العبث بالنظام الإسلامي في الحياة. وتذكروا أن الشيطان مصمم على عداوتكم ومواصلة تنفيذها بإقصائكم عما يرضاه الله لكم، عداوته بينة، فاحذروا ما يوسوس به.

143←144: ثمانية أزواج من الضأن...لا يهدي القوم الظالمين.

ثم واصل القرآن محاجة المشركين فيما قرروه من أحكام اعتباطية لا أساس لها فأتبع ما امتن به من الأنعام حمولة وفرشا وتحليلا للأكل منها، أتبع ذلك بتحويل المشركين هذه النعمة إلى التدخل في التحليل والتحريم. ناقشهم في الأحكام التي زعموا أن الله حكم بها. واتبع معهم طريقة متأنية في هدم ما افتروه.

فالأنعام ثمانية أزواج لا غير، والمراد من الأزواج أن كل جنس من الضأن ومن المعز ومن البقر ومن الإبل، إما ذكر أو أنثى، والزوج هو ما يكون مع الآخر الملازم له وحدة. فالرجل مع المرأة كل منهما يمثل زوجا بالنسبة للآخر، وذكر الضأن مع النعجة كل منهما زوج للآخر، وكذلك المعز والبقر والإبل. فلا فرق بين كل وحدتي الزوج، إلا بالذكورة أو الأنوثة.فالأنعام كلها ثمانية أزواج. ومن هنا تبدأ المحاجة بإلقاء السؤال الإنكاري عن سر التفرقة التي عمموا اعتقادها على اتباعهم. فالغنم ذكورها وإناثها، أحرم الله الذكور أو الإناث ؟ بل أحرم الله ما تحمله بطون الإناث؟ وكذلك المعز سواء بسواء، أخبروني مستندين فيما تقولون إلى العلم لا إلى الأوهام إن كنتم صادقين فيما تزعمون أن الله أمركم. والأزواج الأربعة الأخرى على وزانها. البقر مثلها، وكذلك الإبل.

لقد حرم المشركون ما حرموا مما ذُكر في سورة المائدة، وما ذكر في هذه السورة الآيات [137- 139] فبعد أن فصل في هدوء أصناف الأنعام زوجا زوجا، توجه بالسؤال التالي : نسبتم التحريم لله فهل كنتم حاضرين عندما حرم ما تدعونه، أو بلغتكم وصيته بالتحريم وعلى لسان من؟ إعلان من الله أن من أشد أنواع الظلم فسادا، وأعظمها هدما للحق، وأبلغها نُكْرا، التقحم على أحكام الله بتغييرها ثم

الافتراء بنسبتها إلى الله بغير علم، فهو فساد في التشريع بوضع له مسوغ ليشتد الإقبال عليه والرضا به واستمراره، ويغفل الناس عن التثبت فيه بعد أن كسي ثوب القبول. هذا المسوغ هو ادعاءان الله أمر به.

إن الغاية التي بَعثتْ على ذلك هي إضلال الناس وتحويلهم عن الحق إلى الزيغ ليمضوا غافلين عن الضلال الذي هم فيه. وهدد القرآن في خاتمة الآية الفاعلين للتضليل الثابتين عليه بأن الله يسلبهم هدايته، فهم وإن عرضت عليهم كل الأدلة الكاشفة عن الحقيقة، لا ينتفعون بها ولا يهتدون إلى الطريق المستقيم.وبذلك هم خاسرون في الدنيا بما أفسدوه من الميزان في التفكير، وهم خاسرون آخرتهم بافترائهم على الله وتضليلهم لمتبعيهم. لقد رأينا في الآيات السابقة عناية شديدة ببيان الحق في التحريم والتحليل، وبسط القرآن القول في ذلك البسط الوافي. وقد يثور سؤال لما ذا كل هذه العناية بهذا الموضوع؟ الذي اعتقده أن القضية من أخطر القضايا، هي قضية منزلة الإنسان في الكون، هل هو الحاكم الذي يعطي لكل شيء قيمته، ويعين له تبعا لذلك حكمه التشريعي، أو إن الإنسان عبد لله عليه أن يطبق ما جاء عنه ولا يفتات عليه بإعطاء أحكام يتبع فيها هواه وما يتراءى له ؟ ولذا فإن محاجة المشركين فيما قرروه من أحكام للأنعام ينسحب على كل ما قرروه من أحكام لما يباشره الإنسان في حياته الخاصة والاجتماعية وعلاقته بالكون.

قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطاعم : آكل الطعام.

المسفوح : السائل من المذبح أو من المنحر أو من العروق بالفصد.

الرجس : الخبيث، المستقذر.

الفسق: الخروج، والمراد به الخروج من الدين أو من الطاعة إلى الإثم.
الحوايا : جمع حاوية، والمقصود به الرداء الشحمي الجامع للأمعاء.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن رد القرآن على المشركين صحة ما حرموه أعقبه ببيان المحرمات على البشر. فأمر رسوله أن يعلن ما وصله بطريق الوحي من المحرمات عند نزول الآية. وعدد: الميتة، والدم، ولحم الخنزير لأنه مستقذر، وما ذبح لغير الله الذي هو خروج عن الدين شرعا أو عقيدة ، وأن المضطر له أن يرفع الوضع الحرج الذي هو فيه بالأكل مما حرم في حدود الضرورة.
وأن الله حرم فيما حرم على اليهود كل ذي ظفر من الحيوان كالإبل والأرانب وحرم عليهم الشحوم إلا ما التصق بالعظام من السمن، أو ما كان على الظهر، أو الأردية الجامعة للأمعاء. كان ذلك التحريم عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم وعصيانهم لرسلهم. وإنهم لكاذبون فيما يدعونه أن الله لم يحرم عليهم شيئا، وما أخبر به الله هو الصدق من العليم الخبير.
إنه إذا استمر المشركون على ما هم عليه مكذبين لك، أو إذا كذبك اليهود فيما أخبرتهم به، فأعلن ما تؤمن به من أن الله إذا لم يعاجلهم بالعقوبة، وأمهلهم فلم يمحقهم بمجرد اقترانهم، فلأنه صاحب الرحمة الواسعة. ولكن بأسه، وبطشه إذا حل فإنه لا مرد له، يلحق القوم المجرمين بسبب إجرامهم.

بيان المعنى العام :

145- قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما....فإن ربك غفور رحيم.

إذ تتبّعَ مفتريات المشركين فيما هو محرم، وحاجَهُم وبين سفههم في تحريم ما حرموا، كان من تمام البيان توضيح ما هو حرام فعلا في شريعة الإسلام. والنبي ﷺ هو معلمهم، فأمره ربه أن يعلن ما هو حرام في دين الله. فذكرت الآية أنه إلى حد نزولها لا يوجد في الوحي ما هو محرم أكله إلا أربعة أشياء –
1)الميتة.
2) الدم المسفوح. وهو الدم الخارج من الحيوان عند تذكيته بالذبح في الرقبة، أو النحر في اللبة بالنسبة للإبل أو البقر، أو الدم السائل من العقر بالنسبة للصيد.
3) لحم الخنزير، وبما أن الخنزير كان مما يعرض للصائدين وكان أكله مستساغا في عوائدهم، فليقتلع منهم ما ألفوه، أتبع التحريم بوصف لحمه بأنه خبيث مستقذر.
4) ما ذبح وقصد به غير الله.

وبما أن هذه الآية مكية فإن المحرم أكله قد تتابع بالوحي بيانــه. فــلا تفيــد الآيــة القصــر على هذه الأربعة إلا وقت نزولها. ثم إن إبراز حكمة تحــريم مــا حــرم قــد سـبق بيانــه في سورة البقرة آية -173- وفــي ســورة المائــدة آيــة - 3- وقــرن التحــريم بــالعفو عن المضطر إذا دفعته الحاجة حالة كونه غيــر بــاغ ولا عــاد. راجــع الآيــة 173 مــن سورة البقرة.

146-وعلى الذين هادوا حرمنا....وإنا لصادقون.

ثم إن القرآن أتبع ما حرم على المسلمين بما كان حرمــه علــى اليهــود، وفــي ذلــك مــا يشير إلى الرد على المشركين، أن ما حرموه لا يستند إلــى تشــريع إلهــي لا فــي الحــال ولا فيما مضى. حرم الله علــى اليهــود مــا يلــي : كــل حيــوان لــه ظفــر. كالإبــل والأرنب. الشحوم من الشاء والمعز والبقر إلا مــا كــان فــي الظهــر. أو كــان ملتصــقا بالعظم تبعا للسمن، وكذلك الأكياس الشحمية الحاوية للأمعاء.

وعلل القرآن تحريم ما حرمه عليهم بأنه عقوبة لهــم علــى بغــيهم. وقــد أنكــر اليهــود أن الله حرم عليهم ما تلاه القرآن، لظنهم أن ذلك مناقض لمــا يزعمونــه مــن أنهــم أبنــاء الله وأحباؤه وأن الله اختارهم على العالمين اختيارا دائمــا ســرمديا ممــا لا ينســجم مــع تخصيصهم بتحريم الطيبات، وقالوا :إنهم حرموا ذلك اقتداء بيعقوب.

وقد كذبوا فإن التوراة التي يعتمدونها تنص على تحريم ذلك.

147-فإن كذبوك فقل....عن القوم المجرمين.

إنه بعد هذا البيان إن واصل المشــركون عنــادهم مكــذبين لــك، فــذكرهم بــأن ربكــم الذي والى عليكم الكثير من ألطافه ومــن نعمــه، وأعلِمْهُــم أنــه فعــل ذلــك بكــم، لأنــه صاحب الرحمة التي لا تحد، فلا تغتروا بتــأخير العــذاب وإمهــالكم مــن تعجيــل مقتــه، فالله لا راد لبطشه الذي ينزله على القوم المجرمين، فلا يجــدون ملجــأ منــه. وفــي قولــه تعالى : عن القوم المجرمين، ما يثبت إجرامهم.

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ

حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

حتى ذاقوا بأسنا: إلى غاية وجودهم باستئصالهم بالعذاب الذي لا مرد له.

إخراج العلم : التصريح به وعدم كتمانه.

تخرصون : تكذبون.

الحجة البالغة: الحجة الموصلة لإفحام الخصم.

هلم :أحضروا.

الأهواء : جمع هوى، وهو اتّباع الملائم في العاجل، ولكن عاقبته ضرر.

يعدلون : يسوون بالله غيره.

بيان المعنى الإجمالي:

يُفنّد القرآن وهما من أوهام المشركين، ومن تعلات المتقاعسين عن تطبيق ما التزموا به بمقتضى إيمانهم. يتمثل ذلك في دعواهم وقولهم :إن الله لم يشأ لنا الإيمان، وأنه لم يشأ أن يمنعنا من تحريم ما حرمناه، كما يبرر المتراخون عن القيام بالفرائض والواجبات الدينية والمقتحمين لحدود الله بأن الله لم يهدهم ولو هداهم لكانوا صالحين. فكان الرد ناقضا لحجتهم هذه، بأن بين القرآن،

أولا: أن هذه التعلة هي نفس التعلة التي استند إليها الأقوام المكذبون الذين لم يقروا بالحقيقة إلا بعد أن سلط الله عليهم ما تحققوا أنهم هالكون لا محالة.

وثانيا :من أنبأكم أن الله لم يشأ لكم الهداية بعدم الإشراك أو عدم تحريم ما حرمه، أو أنه لم يقدر هدايتكم، فما ذكرتموه ظنون كاذبة. لا أساس لها وليس لكم عليها أي دليل، وما أنتم إلا كذبة. وهذه الحجة المعروضة من الله على البشرية هي الحجة التي تنتهي إلى غايتها وهي بيان الحق وإعلان زيف ما تدعون. نعم إن الله لو شاء أن يقسركم جميعا على الهدى لفعل، ولكنه أراد أن يمكنكم من حرية الاختيار ثم محاسبتكم على تنفيذ ما تختارونه. وآخر ما يمكن أن يستندوا إليه أن يكون لهم شهداء يؤيدون دعواهم. ولذا طلب منهم على وجه التحدي أن يأتوا بشهدائهم أن الله حرم ما حرموه. وهم لا يجدون أي شاهد صادق، فإن أتوا بشهداء كذبة، فقاطعْهم وكذّبهم، وافضحهم بأنهم شهود زور لا يستحقون أن تشهد معهم، أتوا بهم لأنهم

متحدون معهم في التكذيب بآيات الله وفي عدم الإيمان باليوم الآخر، يسوون بين الله وبين أصنامهم.

بيان المعنى العام :

148 -سيقول الذين أشركوا...وإن أنتم إلا تخرصون.

إعلام من عالم الغيب كشف به لرسوله ما سيحتج به المشركون، والله مطلع على خفايا صدورهم، وما يهيئونه فيما بينهم ليواجهوا القوة التي حيرتهم، قوة انتشار الإسلام وتوسعه في اكتساب ضمائر أهل مكة. إن هذا النوع من المجادلة والاستعداد لإفحامهم، واجتهادهم في الطعن فيما جاء به الرسول ﷺ، يقوم شاهدا في نظري على أن هذه السورة نزلت في أواخر العهد المكي، كما ذكره بعض المحققين. لقد تحول المشركون في رفضهم للإسلام، من عدم المبالاة أولا، ثم من السخرية والاستهزاء لاحقا، ثم من الاعتماد على البطش المادي لكبح امتداد الإسلام ثالثا؛ وقد انتهت المقاطعة الاقتصادية إلى خيبة ولم تحقق ما كان يرجى منها. تحولوا إلى فرض الفروض العقلية التي هي في تصورهم وفهمهم ينهار بها البناء الإسلامي العقلي والعقدي. الذي أعلم الله به رسوله أن ما سيقدمونه يقوم على أساس: أن بعثة الرسول لا حاجة إليها. وأن ما تقوم عليه الدعوة من المسؤولية والحساب غير معقول.

كيف صاغوا وبسطوا تصورهم هذا ؟ قالوا: إنه على حسب ما تثبته يا محمد: إن الله هو المتصرف في كل أمر من أمور هذا الكون؛ وإذا كان ما تقوله حقا فلماذا لم يمنعنا من الشرك ؟ وإذا كان ما نعتقده أو نفعله هو لا يخرج عن حكمه، فلماذا لم يمنعنا من تحريم ما حرمناه لو كان ما حرمناه باطلا، مما جادلتنا فيه فأكثرت جدالنا ؟ إن هذه الشبهة يزينها الشيطان للضالين عبر التاريخ، ويقذفها حتى في عقول كثير ممن ينتسبون للإسلام، ويظن الجميع أنها تنجيهم من ضلالهم وكفرهم، أو من تقصيرهم وعدم قيامهم بالواجبات. فكثير من المتراخين عن أداء ما أوجبه الله عليهم من الصلاة أو من الزكاة، إذا ذكرتهم أو عاتبتهم على إهمالهم لما هو مفروض عليهم، أجابوك هكذا قدر الله، ادع لنا بالهداية، ويظنون أنهم بذلك يتنصلون من المساءلة.

الحجة التي رد بها القرآن على البهرج الذي قدموه هي :ما هو مستند دعواكم أن الله منعكم من التوحيد أو لم يحل بينكم وبين ما قررتم تحريمه مما هو حلال ؟ هل استندتم إلى علم ؟ إن العلم لا يكون إلا ما ينبثق عن الدليل، ولا يكون العلم علما

أبدا، إذا ما استند إلى تخيلات، أو دعاو لا سند لها. تحداهم أن يقدموا سند هذا العلم، وفي هذا التحدي إبراز لجهلهم وتعنتهم وضيق أفقهم العقلي.

إن الله خلق البشر ومكن المسؤولين (المكلفين) منهم من قوة تُدرك الخير والشر، وتوازن بين الحق والباطل، وإرادة تُرجِّح جانب الإقدام أو الإحجام، ومن قدرة تنفذ ما رجحته واختارته من الفعل أو الترك.هذه حقيقة ضرورية يجدها كل فرد في نفسه وهو يباشر شؤون الحياة الفكرية والروحية والعملية. خذ لذلك مثلا : من يملك قطعة أرض رواها الغيث، وهو ممكن من حرثها وزرعها بما له من معدات وقوة، وعلى إنتاجها يتوقف استمرار حياته، ورغد عيشه.

هذا المالك بين خيارين : إما أن يفلح أرضه ويعتني بزرعه ويوالي القيام عليه بما يصلحه، وإما أن يترك أرضه بوارا. والموعد للاختيارين يوم الحصاد. فهل لمن آثر ترك أرضه بوارا من حجة على ما سيلقاه من حرمان؟

الإنسان يحرث، ثم يزرع، ثم يرعى زرعه وينقيه من الأعشاب الضارة، ويقوم برشه بما يحفظه من تسلط الطفيليات والجراثيم. هذا هو مسؤولية مالك الأرض، ثم إن إنبات الزريعة ونموها وبلوغها حد النضج ليس مسؤولا عن شيء من ذلك، ذلك من قدر الله. فالإنسان أوتي العقل الذي ينظر به في كون الله، ويسعده الوحي ببيان طريق الهدى ومسالك الضياع والخسران، ذلكم الوحي الذي يحتضن العقل ويبعده عن المتاهات ويطرد عنه الحيرة، فهذا من قدر الله الذي لا يد للإنسان فيه، قد وفره رب العالمين. وإذا لم يوفره انتفت المسؤولية، فالمجنون غير مؤاخذ بما يجري في دماغه من إيمان أو كفر، والبشر إذا لم يسعفهم الوحي لا يؤاخذون:(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فإذا توفرت القدرة البشرية وبلغ الوحي، فمن لم ينظر في الأدلة البينة من العقل والوحي، ولم يستجب لمقتضياتهما سئل واستحق العقوبة. كصاحب الأرض الذي قعد في بيته ولم تحركه الأمطار ولا داعي الأرض التي يملكها للعمل والجد. وهكذا المتراخي عن أداء الفروض الواجبة عليه. فمثلا: إن وجود الماء أو ما يقوم مقامه، وكونه عاقلا مدركا لحضور وقت الصلاة ووجوبها، لم تعوقه قوة قاهرة عن القيام بها. ثم يدعي أن الله لم يهده هو كذب على الله، لأنه من أين له أن يعلم أنه لم يشأ له أن يقوم بصلاته. بل إنه هو الذي لم يشأ أن يتحرك إلى الماء وما يتبعه للقيام بالفريضة. وهذا هو المحقق فإن إرادته لم تتحرك، فتبعها عدم تحرك القدرة للتنفيذ. ثم إن الآية كشفت عن العلة التي بها ضلوا، وهي أنهم تحولوا من العلم الذي هو ما يملكونه من قدرات محققة، إلى ظن كاذب غير مستند إلى ما

يدعمه، فهو منهار لا ينفعهم في مآلهم، ولا يبلغ بهم في المحاجة مبلغ أصحاب العقول الواضحة، والصادقة الرؤية.

149-قل هلم شهداءكم...لهداكم أجمعين.

ثم أعلنت الآية عن تهافت حجتهم وأنها وهم لا يحقق لهم ما رغبوا فيه من هدم الأساس الذي قام عليه، وإن الحجة التي تأتي على ما قدموه فتهدمه من القواعد هي حجة الله التي ذكرت في الآية. فهي حجة تبلغ الغاية من إيرادها.

والكلمة الجامعة: هي أن الله لو شاء أن يخلقكم خلقا آخر، فتكونون كالملائكة فاقدين للاختيار ممحضين للخير، كما قال تعالى فيهم: (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) لو شاء ذلك، لكنتم كذلك.ولكن إرادته سبحانه قد تعلقت بتحميلكم للمسؤولية، وهي شرف الإنسان إذا عرف كيف يؤديها على وجه الخير.

150-قل هلم شهداءكم....بربهم يعدلون.

وتحقيقا لإبراز سفههم، وإظهارا لفقدانهم أي حجة، تابع القرآن عرض ما بقي مما يمكن أن يحتجوا به لينقضه ويسقطه، ويعريهم من كل سند عقلي أو من وحي السماء، فتحداهم أن يحضروا من يشهد بأن الله حرم عليهم ما ادعوا تحريمه، تحداهم أن يأتوا بهؤلاء الشهداء ليؤدوا شهادتهم على ملأ من الناس. وإن فُرض أنهم أتوا بشهداء فاعلم أنهم شهداء كذبة يزورون الحقيقة ويفترون بشهادتهم بما يتيقنون خلافه. إنهم لا يجدون شهداء إلا من الذين هم مثلهم يُكذّبون بآياتنا، ويكفرون بالبعث والجزاء. وإنهم إنما يتبعون ما يمليه عليه هواهم المريض الذي إن عجل لهم ما يرضون عنه، فسينتهي إلى فضحهم وتدميرهم. والطامة الكبرى في تفكيرهم أنهم يسوون بين الله وبين أصنامهم.

۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

تعالوا : أقبلوا.

الإملاق : الفقر.

الفواحش : جمع فاحشة، وهي الفعل الشديد القبح الموجب للإثم الكبير.

أشده : المستوى الذي يكون فيه قادرا على حفظ ماله، بالحزم وحسن النظر في الأمور.

القسط : العدل.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر من الله لرسوله أن يدعو البشرية للتأمل في المنهج الإسلامي العام. وصرفهم بذلك عن الاشتغال بأمور ليس لهم فيها سند من تشريع أو من عقل.

أمر أن يقول :أقبلوا فاسمعوا مني ما أتلوه عليكم من المحرمات التي بلغتني عن طريق الوحي. الآية الأولى تتضمن :

1) وحدوا الله ولا تشركوا به

2) أحسنوا إلى والديكم

3) وأحسنوا إلى ما يسره الله لكم من الذرية ،فلا تقتلوا أولادكم خشية الفقر فإني ضامن لرزقهم كما رزقتكم، ولا تقوموا بإجهاض الحوامل

4) ابتعدوا عن الآثام الظاهرة للعيان والآثام التي لا يظهرها الآثم للناس، واطردوا فكرة الإثم بمجرد ما يوسوس بها لكم الشيطان

5) احترموا الحياة ولا تقتلوا إنسانا إلا بالعدل المبني على حكم حاكم، أو دفاعا عن النفس. أوصيتكم بهذه الوصايا رجاء أن تستيقظ عقولكم لتدركوا تحتّمها فلا تضيعوها.

الآية الثانية تتضمن :

1)حافظوا على أموال اليتامى ولا تسوّل لكم نفوسكم الاستحواذ على شيء منها لفقدان اليتيم لوالده الذي كان يدافع عنه وتستّر الناظر في أمواله بسائر القرابة فلا تحركوا أموالهم إلا على الوجه الأفضل لهم.

2) كلما كان التعامل بالكيل أو الميزان فأعطوا لكل صاحب حق حقه، ولا تنقصوا منه شيئا ولو كان طفيفا. ولا حرج عليكم فيما وقع من تطفيف بدون قصد منكم فالتكليف ساقط مع العجز.

3) إذا تكلمتم فاحرصوا على العدل في أقوالكم ولو كان ما تصرحون به من الحق يتضرر منه قريب لكم.

4) حافظوا على الوفاء بعهودكم فإن الله رقيب على ما أخذ عليكم من عهود.

تأملوا في هذه الوصايا واعملوا بما أوصيتكم به رجاء أن تكون على ذُكر منكم دائما.

وبالجملة، فمجموع ما أنزلته عليكم على لسان رسولي يمثل المنهج القويم الذي لا عوج فيه، يصل بكم إلى السعادة التي ترغبون فيها بأيسر ما يكون، ومن أقرب طريق وبما لا يتناقض مع فطرتكم ومع عقولكم. وإياكم أن تتبعوا سبلا أخرى فتتفرق بكم الطرق وتبعدون عن سبيل الله.

إن سبيلي هو وحده الذي تحل معه التقوى في قلوبكم فتمنح أرواحكم شفافية واستقامة

بيان المعنى العام

151-قل تعالوا أتل....لعلكم تعقلون.

بعد أن جادل المشركون أشد الجدال، وتولى القرآن إفحامهم وتقويض ما بنوا عليه مقالاتهم الفاسدة، حولهم القرآن إلى ما يحفظ على البشر الحياة التي تتناسب مع المستوى الإنساني، وكشف لهم بذلك أن ما كدوا فيه عقولهم، زيادة على كونه باطلا، ليس هو من الأسس التي يحق للبشر أن يُعْنَوْا بها، ويجعلوها المقدمة في سلم اهتماماتهم. ولذلك أمر رسوله أن يدعوهم فيقول لهم: أقبلوا على لتسمعوا المنهج الإلهي الذي يحفظ لكم مقامكم الإنساني، ويُمتّنُ رابطتكم الاجتماعية ويساعدكم بالتالي على الفوز بالحياة الآمنة المطمئنة البالغة بكم السعادة في الدارين.

وذلك يتضمن النظام الاجتماعي. ومما نصت عليه الآية:

أولا: العناية بصلاح العقيدة، فإنه لا قيمة للبشر، ولا يتحقق الأمن بينهم، إذا لم يطهروا قلوبهم وعقولهم من لوثة الشرك.

ثانيا : التضامن العائلي وذلك :

بأن يحرصوا على ما يقتضيه من السمو بالعلاقة بين أعضاء الأسرة من النفع المادي الحاصل أو المترقب، إلى الإحساس بالواجب والوفاء له.

علاقة الأولاد بوالديهم عند الحاجة : إنه إذا كان الكبار يستجيبون في القيام على ذريتهم بعامل الفطرة السليمة التي غرسها الله في قلوب الوالدين، وبالأمل في أنهم

سيجدون من ذريتهم عونا عند الحاجة، وأنهم يخلفونهم في أنسابهم وأموالهم فيحققون لهم استمرارهم في الوجود، إذا كان قيام الوالدين على الذرية يقوم على الدوافع التي بيناها، فإن قيام الأولاد على الوالدين لا يقوم به الأولاد إلا بعامل خلقي رفيع، هو خلق الوفاء. ومن ركائز التربية الإسلامية إحياء الأخلاق العالية في قلوب معتنقيه، فدعا أن تكون العلاقة بين الأصول والفروع، تُعَيِّرُ بضابط الإحسان. إنه لما أمر القرآن بالإحسان للوالدين، فمعنى ذلك أن على الذرية أن يكون ضابط معاملتهم ليس أداء الواجب فقط، ولكن أن يقدروا تعاملهم على أساس الإحسان أي إنهم لا يُعتبرون مستجيبين لأمر الله إلا إذا كان التعامل على أفضل وجه وأسماه. خذ لذلك مثلا :تمكين والديك مما يحفظ عليهما حياتهما، من المسكن والملبس والغذاء بقدر حاجتهما، هو الواجب. ولكن المطلوب من المؤمن بحكم إيمانه هو شيء فوق هذا، هو أن يصحب ذلك حسن المعاملة في القول والطريقة، وتخير ما يرضيهما في حدود طوقه.

علاقة الوالدين بأولادهم: إن الفطرة حسبما قدمناه تدفع الإنسان دفعا للعناية بما أنجبه وانتسب إليه، ولكن هذه الفطرة قد تنحرف بعوامل تناقضها وتضعف سلطانها. وبناء على رعاية القرآن للفطرة، وهو دين الفطرة، حذر في هذه الآية وفي كثير من الآيات من الوأد. ولئن كان الوأد قد قضى عليه القرآن، إلا أنه تفشت في عصرنا ظاهرة الإجهاض المتعمد. والإجهاض وأد، لأن اللقيحة عندما تعلق بالرحم هي من يوم علوقها تحمل جينومها الخاص بها. إن عدد الشعرات مثلا في كل جزء من أجزاء البدن ولونها وكونها سبطة أو جعدة ومتى تسقط ومتى يتغير لونها، ولون العينين من حور أو زرقة، ولون البشرة إلى آخر الخصائص التي تميز كل فرد عن غيره، كل ذلك عبأته القدرة الإلهية في رأس اللقيحة من اليوم الذي تم فيه التخصيب، ومع الزمن يظهر ما هو كامن موجود. فالاعتداء على اللقيحة بالإجهاض في الأيام الأربعين الأولى أو قبل ذلك أو بعده، هو اعتداء على الحياة وعلى النسل. لقد كان من أسباب قتل الآباء لبناتهم في العصر الجاهلي خوف الفقر. وتقدير المغفل الفقير أن الخصاصة ستلزمه طول حياته، وأيقظ القرآن إلى أن الله ما خلق نسمة إلا وقدر لها رزقها، وخاطب البشر في جميع الأعصار خطابا مباشرا من الله : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ فكما رزقتكم حتى بلغتم مستوى الإنجاب فكذلك نرزق ذريتكم، فعليكم أن تأخذوا بأسباب الرزق.

ثالثا :طهارة السلوك ويتضمن :

الابتعاد عن الآثام وبخاصة الكبائر التي يصحبها فساد يتبعه الآثار السيئة في نفس الفاعل وفي المجتمع، وأنت إذا تتبعت الآثام فعلا وتركا، تجدها لا تخرج عن الانحراف عن السلوك الصالح في الالتزام بالأخلاق الفاضلة والاستقامة في علاقة الإنسان بربه وبإخوانه في الإنسانية وفي علاقته بالكون. وتبدو التربية الإسلامية في النهي عن **القربان** وذلك لأن من شأن اقتحام الآثام أن لا يكون دفعة واحدة، بل تجد الآثم يدخل الشيطان فكرة الإثم في نفسه، ثم يتابع التفكير فيها إلى أن يصل إلى العزم والتنفيذ، فإذا كان يقظا فطرد الوسوسة من أول الأمر نجا. ونهى عن الفواحش ما ظهر وما بطن لتعميم النهي عن الآثام التي يقترفها الإنسان، فبعض الآثام يظهرها الآثم كالكذب والنميمة والغيبة وبعضها يخفيها الآثم كالسرقة والزنا. وخص من الآثام الكبيرة قتل النفس، مع أنه من أعظم الفواحش، عناية من القرآن ليحذر منه، إنه إذا وقع التهاون بحرمة الحياة أسرع الفساد للمجتمع في جميع شؤونه. واستثنى القرآن من ذلك أن يكون القتل بالحق، كالدفاع عن النفس أو عن الدين، أو القتل القصاص بالحكم العادل من الحاكم. ومما يتأكد التنبيه إليه أنه لا تقتل النفس إلا بعد إحضار المتهم، وتمكينه من الدفاع عن نفسه ليظهر ما يمكن أن يكون خفيا من الملابسات التي بها يحرم قتله، ولا بد أن يكون الحكم من القضاء العادل. وقد ضبط التشريع الإسلامي القتل بضوابط تحترم النفس الإنسانية ولا يحل تجاوز أي جزئية من تلكم الضوابط.

ويختم هذا التوجيه الوارد في الآية بالإشارة إليه (ذلكم) ويعبر عنه بأنه توصية من الله. فاحذروا أن تتراخوا في الالتزام بها. وربطها برجاء أن يكون الالتزام بها والتأمل فيها مما يوقظ العقل إلى إدراك الحكمة فيها.

152 -ولا تقربوا مال اليتيم....لعلكم تذكرون.

ثم انتقل القرآن إلى بيان أصول التعامل بين أعضاء المجتمع الإسلامي فبين:

أولا: اليتيم الفاقد للوالد والذي يتولى أحد أقاربه النظر في شؤونه المالية، أوصى الله الناظرين عليه المتولين للتصرف في أمواله أن يتصرفوا فيها التصرف الذي يراقبون الله فيه ، وليعلموا أن الله سيحاسبهم على ذلك، فعليهم أن يبتعدوا عن كل ما من شأنه أن يعود بالنفع على الولي والضرر على اليتيم. وأن يتوخوا الطريقة الأحسن والأكمل في كل تصرف صغيرا كان أو كبيرا. وعليهم أن يوالوا رعاية ذلك إلى أن يبلغ الصبي السن والمستوى الاجتماعي الذي يستطيع أن يتصرف في ماله تصرف الرشداء.

ثانيا : في العلاقة بين البائع والمشتري. إنه إذا كان التبايع في ذات معينة، كشراء خبز أو سيارة أو قميص، فإن الأمر واضح، بالنسبة للمتعاملين، وأما إذا كان موضوع المبادلة ما يوزن أو يكال، فالمأمور به أن يحرص البائع على إعطاء المشتري حقه كاملا لا ينقص منه شيئا ولو قليلا. والمشتري كذلك مطالب بالعدل، إذا كان ما يسلمه يقدر بالكيل أو الميزان. وكل تكليف في الإسلام هو مرتبط بما هو في الإمكان ولا يقع معه المكلف في حرج. ولا يوجد تكليف خارج عن طاقة الإنسان في العادة فإذا سقطت حبات من المكيال بدون تعمد فلا حرج، وكذلك إذا وضع عن خطأ مثلا معيار عشرة غرامات عوض عشرين كان بائعا أو مشتريا فالآية تصرح في مثل هذه الحالات، أنه غير مكلف وبالتالي غير محاسب.

ثالثا: دور اللسان في المعاملات بين البشر دور كبير جدا كما هو معلوم. كالوعود والنصيحة والحكم والشهادة والنصح والأخبار، وتكاد تكون العقود لا تتبرم بين الناس إلا بالأقوال بما يسبقها من مراوضة إلى العقد نفسه، وكذلك المزاح والشتم، وبصفة عامة كل ما ينطق به الإنسان وله أثر في الطرف المقابل، كل ذلك داخل تحت ميزان العدل، وإدراك العدل من الظلم يكاد يكون فطريا في الإنسان، ولذلك كثيرا ما يحيل عليه القرآن لوضوحه في العقل السوي. وقد يعمر شعور المتكلم بتأثيرات خارجية تحيف به عن العدل، فلذلك أيقظت الآية من يترتب على كلامه ظلم أن يلتزم العدل ولو كان المتضرر بكلامه قريبا له.

رابعا : الوفاء بالالتزامات الموثقة باستنادها إلى الله في الأمر بالوفاء بها، سواء أكانت من عهود الفرد مع ربه، أم مع الجماعة، أم مع فرد آخر يتعامل معه.

ثم جمعت الآية هذه الوصايا وأحضرت في ذهن المخاطبين على أنها وصايا تتحتم رعايتها صادرة من الله، رجاء أن تتذكروها ولا تغفلوا عنها.

153 -وأن هذا صراطي مستقيما...لعلكم تتقون.

ختم هذا المقطع بإبراز صفة جامعة للدعوة الإسلامية تتمثل فيما يلي:

إن جميع ما وجهته إليكم وأرشدتكم إليه، وما أمرتكم به وما نهيتكم عنه، إن كل ذلك يمثل وحدة مترابطة حاضرة أمامكم بواسطة ما أنزلته على رسولي، إن جميع ذلك يمثل طريقا مستقيما لا عوج فيه، يصل بكل فرد يسلكه، وبكل جماعة تلتزم بالسير على هداه، يصل بهم إلى تحقيق السعادة التي يجهد الإنسان لبلوغها من أخصر طريق وأوضحه.

اتبعوا الطريق السالكة التي بينها لكم الوحي، وإياكم أن تتبعوا الطرق الأخرى، إنكم إن سلكتموها تضيعون في متاهاتها ولا تصلون إلى قصدكم. إنها السبيل التي تحفظ لكم التوازن بين الروح والعقل والجسم، وتحفظ لكم العدل في الفكر وفي التعامل، إنها الطريق التي تضمن لكم الطمأنينة الراضية التي تمكن قواكم من النشاط على المنهج الواضح بدون قلق ولا غموض.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : التوراة.

تمام: مكملة للصلاح الموروث عن الأنبياء السابقين لموسى.

على الذي أحسن : المحسن.

الطائفتان : اليهود والنصارى.

صدف : حاد وأعرض.

بيان المعنى الإجمالي :

إنه فوق ذلك قد أنزلنا الكتاب على موسى إتماما وإكمالا لما نزل من قبله من هدايات الله، مفصلا لكل ما يتعلق بصلاح الدنيا والآخرة، ويشرح القلوب للأخذ بهداية الله، ينشر فيها الرحمة والسكينة، لعلهم بذلك يبلغون درجة اليقين بالبعث والحساب. إنه فوق ذلك وأعلى منه درجة هذا الكتاب (القرآن) منزل من عند الله كثيرةٌ خَيْرَاتُهُ، فاتبعوا هداه، ولتكن تقوى الله تهديكم في جميع أعمالكم، رجاء أن تفوزوا برحمة الله. هو كتاب يقطع المعاذير التي يمكن أن تقدموها، بأن تقولوا : إن الكتب السماوية السابقة لم تصل إلينا ولا عنيت بنا وإنما خوطب بها اليهود

والنصارى، ونحن لم ندرس كتبهم فلا نلام عن عدم الإيمـان، أو تقولـوا: لـو أنـه أنـزل علينا كتاب يوضح لنا العقيدة والتشريع لكنـا أشـد هدايـة مـنهم. فقـد قطعنـا معـاذيركم وأنزلنا عليكم (القرآن) واضح الدلالة معجزته من ذاتـه لمـا اشـتمل عليـه مـن الهـدى وتفصيل الأحكام مع التيسير والشـمول، وهـو رحمـة لقلـوبكم مـن الحيـرة ولعقـولكم بإخراجها من الضلال. إنه لا يمكن أن يكون فريق أشد ظلمـا مـن الـذين كـذبوا بآيـات الله وأعرضوا عنها. هم ظلموا أنفسهم، ظلمـوا رسـول الله وظلمـوا البشـر بمـا كـانوا يقيمونه من سدود فـي طريـق الإسـلام. وعيـد لا مفـر منـه : إن الله سـيجزيهم أشـد العذاب وأقساه وأسوأه بسبب إعراضهم وصدهم عن سبيل الله وبما فعلوه.

بيان المعنى العام :

154 -ثم آتينا موسى الكتاب....بلقاء ربهم يؤمنون.

الآية الأولى في هذا المقطع تثبت مرتبة أعلى فـي الـدعوة إلـى اتّبـاع ديـن الإسـلام. فإن الله الذي أنزل على موسى ﷺ التوراة، الكتاب الـذي يعتبـر كمـالا لمـا تلقـاه بنـو إسرائيل عن رسلهم وأنبيائهم من عهد إبراهيم إلـى مجيئـه، والـذي فصـل وبـين بيانـا شافيا ما يتطلع بنو إسرائيل إلى معرفته من الشـريعة التـي يرضـى الله عنهـا، والـذي يملأ قلوب المتلقّين له بالهداية إلى الطريق *المستقيم*، ويـرحمهم مـن الحيـرة التـي كـانوا عليها وينقذهم من الذل المسلط عليهم رجـاء أن يسـتقر الإيمـان فـي قلـوبهم اسـتقرارا يقربهم من اليقين بيوم البعث والحساب.

155←157: وهذا كتاب أنزلناه مبارك...كانوا يصدفون.

تأتي الآية الثانية التي هي الهدف من التنويه بمـا جـاء بـه موسـى، فتقـدم فـي إطـار متميز حاضر الكتاب (القرآن) الذي تلقاه محمد من ربـه، فأثبتـت أنـه منـزل مـن عنـد الله ردا لما اعترض به المشركون من أنـه مـن عنـد محمـد، وأن خيراتـه مـن جمـع الكلمة وإحياء شرع الله وتكميلـه ، خيـرات لاتحـد ، إنـه مبـارك. إن هـذه الصـفات تحتم عليكم أن تتبعوا ما جاء فيـه مـن الهـدى، وأن تلازمـوا التقـوى بتفـتح أرواحكـم لتكون متصلة بالله في جميـع أحـوالكم، إنـه باتّباعـه والتـزامكم التقـوى يرجـى لكـم الفوز بالرحمة الربانية.

لقد أنزلنا عليكم القرآن قاطعا للمعـاذير التـي يمكـن أن تتعللـوا بهـا. فممـا يمكـن أن تتعللوا به عن عـدم إيمـانكم أن تقولـوا :لـم ينـزل الكتـاب مـن الله إلا علـى اليهـود والنصارى الذين جاؤوا من قبلنا، ونحن لم نـدرس مـا نـزل علـيهم، ولـم نـتعلم مـن أحبارهم ورهبانهم ما تلزمنـا بـه الحجـة. أو تقولـوا متعـالين: لـو أنـزل الله علينـا

الكتاب لكنا أسرع إلى الاهتداء والعمل الصالح من اليهود والنصارى. إنه إن كنتم تعتذرون بما ذكر في الصورتين قبله، فقد سقطت جميع المعاذير إذ قد بلغكم ما يظهر الحق، ويدفع الباطل، بأتم بيان وأبلغه. إنه مع وضوحه في تفصيل كل ما يتعلق بالدنيا والآخرة، هو في طريقته يساعد على تقبل ما جاء به، والاهتداء بهداه العام والخاص. وهو كله رحمة، فقد تفرد بالتشريع الجامع بين ما يحقق السعادة في الدنيا والآخرة، وبين ما ينمي العقل، ويفتح للروح منافذ للسمو، ويعلو بالخصائص الإنسانية إلى مقام رفيع، ومع ذلك فأحكامه ميسرة لا حرج فيها. إنه مع هذه العناية ،وهذه المزايا التي خصكم بها رب العالمين، عليكم أن تحذروا. فإنه لا أشد ظلما ممن جاءته الآيات البينات من الله، فقابلها بالتكذيب وأعرض عنها. إن هؤلاء ظلموا أنفسهم بعدم السير بها في الطريق الواضح وعرضوها للمساءلة والعذاب. وإن ظلمهم تجاوز ظلم أنفسهم إلى عدم توقير رسول ﷺ ، وظلموا الناس بصدهم عن الإسلام بالقول والفعل.

إن الذين بلغ ظلمهم هذا الحد بالتكذيب، ونشر الأراجيف والأباطيل لمنع الناس من الاهتداء، سيكون جزاؤهم أسوأ العذاب، بسبب صدودهم وإعراضهم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

هل ينظرون : هل ينتظرون.

لا ينفع نفسا إيمانها : لا ينفعها في الآخرة.

أو كسبت في إيمانها خيرا : عملت عملا صالحا.

شيعا: فرقا مختلفة.

لست منهم في شيء: لا صلة بينك وبينهم.

بيان المعنى الإجمالي :

وأصل الكافرون عنادهم رغم ما جاءهم من الأيات البينة الدالة على صدق رسول الله ﷺ، وقد أزال القرآن كل شبهاتهم وأحبط ما ثار في نفوسهم من اعتراضات، فما لهم لم يستجيبوا؟ هل ينتظرون أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم رب العالمين ليقتنعوا؟ لقد نص القرآن على أن هذا المقترح مناف للعقل. أو هل ينتظرون أن تأتيهم آية من آيات الله تخضعهم وتجبرهم على الإذعان للحق ؟ وليعلموا أن هذه الآيات عندما تأتي على ذلك النحو، فإنه لا يقبل الإيمان من أي نفس لم تؤمن قبل مجيء الآية. ومثلهم الذين آمنوا وتهاونوا بالواجبات واقتحموا حدود الله، فعند مجيء الآيات الملجئة لا تقبل توبتهم.

انتظروا ما سيحل بكم من العذاب، وإني منتظر كرامة ربي ورضوانه.

وتوجه القرآن للرسول ﷺ ليبين له أن منهجه متفرد لا صلة بينه وبين ما يسير عليه غيره من أصحاب الديانات الأخرى. إنهم جعلوا الدين سببا للفرقة والاختلاف لربطه بمصالحهم الدنيوية، وسيحاسبهم الله عما حرفوا وبدلوا وفرقوا بين البشر بعد أن يقررهم ويظهر لهم سوء أعمالهم. إن ما يقدمه الإنسان من خير أو شر مثبت في صحائفه، ولكن الله أمر ملائكته في تقدير الخير بأن يكتبوا لفاعله ما يساوي ما ترتب على فعله من صلاح عشر مرات على الأقل إلى سبعمائة ضعف، وذلك من فضل الله، وأن من ارتكب سيئة ولم يتب منها تكتب له سيئة واحدة وذلك من عدل الله، ولا يظلم ربك أحدا.

بيان المعنى العام:

158-هل ينظرون إلا أن تأتيهم...انتظروا إنا منتظرون.

قطع القرآن على المشركين ما يحتجون به في الآية السابقة بقوله تعالى :(فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها...) ثم واصلت الآية الأولى في هذا المقطع إظهار ما يمكن أن يخفوه في صدورهم مما وسوس به الشيطان ليثبتوا على كفرهم، فافتتحت بسؤال يجمع بين الإنكار والتعجب : ما الذي ينتظرون لتلين قلوبهم للإيمان؟ هل ينتظرون أن تنزل عليهم الملائكة كما سجل القرآن عليهم ذلك، أو يأتي ربك ؟ وفعلا قد سألوا أن يتم هذا ليؤمنوا. وقد رد الله عليهم ذلك بأنهم ما فطنوا إلى أنهم طلبوا المحال، إذ أن طبيعة خلقهم تجعلهم غير مؤهلين بما أوتوه من قوى لإدراك الملائكة. وأعظم من ذلك بعدا طلبهم مجيء الله ليقنعهم. فالمقترحان من المحال عقلا تحققهما.ومن طلب

المحال فإنما أعلن عن فساد عقله. أوهل ينتظرون أن تأتيهم بعض الآيات التي اقترحوها مما هو غير مستحيل عقلا؟ ونبههم لما يترتب عن تحقيق طلبهم هذا: إنها القاضية عليهم. وفصلها بأنه عندما تأتي الآيات التي طلبوها ليؤمنوا، والتي لا تكون إلا عذابا، ينتهي الأمر ولا تنتفع أي نفس بإعلان إيمانها إذا كانت لم تؤمن قبل مجيء الآيات. ومن الآيات المنتظرة التي أخبر بها النبي ﷺ طلوع الشمس من مغربها، لأن الإيمان المعتد به ما كان عن اختيار لا اضطرار، وطلوع الشمس من مغربها آية ملجئة. وأدمج في الحديث عن المشركين وعدم نجاتهم إذا حصل من الآيات ما هو ملجئ؛ أدمج وضع المؤمنين المقارفين للمعاصي المهملين لفعل الصالحات والخير، فهم أيضا لا ينتفعون من توبتهم إذا حضرت أشراط الساعة. ثم هددهم القرآن بدعائهم إلى الانتظار الذي سيعقبه حلول نقمة الله بهم ونزول العذاب الأليم الذي لا مفر منه، فهذا ما ينتظركم وتنتظرونه، ونحن ننتظر النصر من ربنا والتكريم.

159-إن الذين فرقوا دينهم وكانوا....بما كانوا يفعلون.

ثم يخاطب الله نبيه ليؤكد له أنه هو وحده الذي يسير على الصراط المستقيم، ولينفي أي صلة بينه وبين المتدينين في عصره، من المشركين واليهود والنصارى وسائر الطوائف، التي اتخذت من الدين منطلقا لتحقيق مصالحها. وإذا انبنى الدين على المطامع الدنيوية كان مجلبة للنزاع والاختلاف فكل طائفة تكيف عقائدها وتشريعاتها حسب ما تتوقع من تحصيل للمنافع بذلك. فيقول له: إن الذين تفرقوا بسبب الدين من المشركين الذين اتخذوا آلهة متعددة، كل أتباع إله يتعصبون لإلههم، أومن اليهود الذين نفوا كل هداية غير ما خوطبوا به، ثم تفرقوا شيعا وما يزالون متفرقين، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم. ومن النصارى وهم أشد تفرقا وتعصبا على بعضهم. إن هؤلاء جميعا ليس بينك وبينهم أي صلة. إن الدين الحق هو الإيمان بإله واحد الله رب العالمين، وإذا كان النبع الذي يجري منه الإيمان واحدا، فكل من يحول الإيمان إلى اختلاف هو ليس منك يا محمد ولست منه. إنهم سيُعْرَضُون على ربهم بما زيفوه وحرفوه وفرقوا به بين البشر، وفي ذلك اليوم سوف يُعلمهم الله بنتائج ما كانوا يفعلونه، فضحا لأمرهم، وخزيا لنفوسهم، وتيئيسا من مغفرة ذنوبهم. وفي ذلك تحذير للمسلمين من أن ينساقوا إلى هذا المنحى الذي وقعت فيه الأمم السابقة، وأن يكونوا محافظين أشد الحفاظ على وحدتهم.

160-من جاء بالحسنة فله عشر...وهم لا يظلمون.

لما ورد ذكر قبول الإيمان والأعمال، أوعدم الانتفاع بها عندما تأتي آيات ربك، أكمل القرآن مقدار الجزاء في هذه الآية. فمن فعل أمرا حسنا في ميزان الشرع فإن جزاءه يكون ضعف ما قدم عشر مرات. ومعنى هذا أن الفعل الحسن هو ما يترتب عن القيام به خير. تقدير هذا الخير والمساواة بين الفعل وأثره، هو من الأمور التي يحصيها الملائكة الموكلون بذلك حسبما تلقوه عن رب العزة. إن المقارنة بين الحسنة وجزائها أمر الله ملائكته أن لا يقل عن عشر أمثالها، وقد يبلغ سبعمائة ضعف.فالعشر يمثل الحد الأدنى. وفي المقابل، فإن من فعل سيئة مما نهى الله عنه فإنه يكتب له في ميزان أعماله ما يساوي الضرر الذي أحدثه دون زيادة. وإذا كان الفضل الإلهي قد ضاعف حسنات المحسنين، فذلك ما يدعو البشر لفعل الخير حتى يألفوه ويتسابقوا لفعله. وقصر العقوبة على ما يساوي السيئة فذلك مثال للعدل الإلهي، والله لا يظلم أحدا.

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٖۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدين القيم : الدين الذي يكفي الإنسان لتحقيق صلاحه في جميع شؤونه.

الملة : الدين. والملة لا تضاف إلا إلى النبي، ولا تستعمل إلا في مجموع الشريعة، فلا يقال: الصلاة ملة الله ويقال دين الله.

النسك : العبادة.

الوزر : الحمل الثقيل.

تزر: تحمل.

بيان المعنى الإجمالي:

هذه الآيات الثلاث افتتحت بـ[قُل] اهتماما بمضمونها وتأييدا لرسوله في التصريح بها وهي:

1) قل لهم : إن ما أنا عليه هو من فضل ربي الذي هداني إلى هذا المنهج الجاري على استقامة لا عوج فيه، فسالكه يدرك من البداية الغاية التي سيصل إليها، وهو شامل لكل ما يقيم حياة الإنسان على أفضل الوجوه، أجتَمعَ في هذه الملة مع إبراهيم الذي لم يرض بأي دين من الأديان التي كانت سائدة في عصره، فمال إلى طريق التوحيد الواضح، وخلّص عقيدته وأعماله من الشرك.

2) قل لهم إني مخلص في جميع أعمالي لله وحده، في صلاتي وفي عبادتي وإن جميع كياني في حياتي أو في موتي كل ذلك خالص لرب العالمين الذي لا شريك له. وبهذا الإخلاص وإفراد الله أمرني ربي فأطعته، وإني أول السائرين في هذا الموكب الساعي نحو الله باعتبار أن مفهوم الإخلاص الواضح الكامل لا يفارقني.

3) قل لهم إني مقتنع الاقتناع الكامل أن الله هو ربي، فكيف أتطلب ربا غيره، وكل الكائنات استمدت من تقديره وحكمته وجودها وخصائصها ومسارها إلى أن تبلغ نهايتها. وهو العادل الذي لا يظلم أحدا، فكل ما يكتسبه الإنسان بعمله من خير أو شر ينال جزاءه. ولا يتحمل أي فرد الإثم الذي ارتكبه غيره. ثم إنكم جميعا ستقفون بين يدي ربكم يوم القيامة ليحاسبكم مبينا لكم ما اقترفتم ويجزيكم.

بيان المعنى العام :

161-162، قل إنني هداني ربي....وأنا أول المسلمين.

هذا المقطع متكون من ثلاث آيات كل واحدة منها افتتحت بكلمة :(قل)إبرازا للاهتمام بمضامينها، وأنها من الأصول التي بني عليها الإسلام.

الآية الأولى : أعلنْ بكامل الوضوح يا محمد فقل : إني مطمئن على أن الله تولاني بهدايته فيسر لي اتّباع المنهج الواسع الذي لا ضيق فيه ولا عوج، ولا انحرافات تترك السالك في حيرة أو خوف مما هو آت. هو الدين والمنهج الجامع والكافي للسالك، فيه الهداية التامة والأمن الباطني. هو ملة إبراهيم التي كان عليها، مما يشير إلى أنه ﷺ مجدد للتوحيد الذي جاهد في سبيل إقراره سيدنا إبراهيم عليه السلام جهادا بالغا، حتى استقام له الطريق الموحد المختلف عن كل ما كان سائدا في عصره من التصورات، هذا الرسول الكريم الذي قاوم الشرك مقاومة لا هوادة فيها، والذي علم من ربه أن النبي الذي ينجح من ذريته نجاحا يهزم فيه الشرك، ويرفع راية التوحيد في الأرض، هو محمد ﷺ، واستحضر في نفسه عليه السلام هذه الصلة الرفيعة بينهما. فدعا ربه أن يبعث في العرب محمدا، كما جاء في الآية 129 من سورة البقرة، والتي أمر بعدها النبي ﷺ بأن يقول مع المؤمنين في إعلان واحد: (قولوا آمنا بالله

وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم) الآية 136- إبراهيم ﷺ الذي كان مؤمنا موحدا وما كان من المشركين، فلذا كانت صلته بدين التوحيد الخالص (الدين الإسلامي)أتم صلة.

164- قل أغير الله أبغي ربا وهو رب....كنتم فيه تختلفون.

هذا موقف الشاكر الشاعر بالنعم الكبرى التي أفرغت في قلبه أسمى ما يمكن أن ينعم به قلب، ويأنس به ضمير، وتستنير به روح فتشف وتعلو في مقامات الوجد والحب إلى أعلى مقام. يعلمُ الله ما عمرت به نفس محمد ﷺ من الطهر والصفاء والإخلاص، فلقنه التعبير عن ذلك في هذه الآيات. ونرافقه ﷺ وهو يعلن ما أمره به ربه في تسبيحة لربه تعرج بها الروح إلى الإخلاص الكامل، وإسلام كل شيء فيه إلى رب العالمين، فالصلاة التي كانت قرة عينه ﷺ وراحة نفسه تتسامى إلى مرتبة تتصل فيها برب العالمين، وليست الصلاة وحدها التي يندمج فيها ﷺ في اتصاله بربه بل معها كل عبادة يقوم بها(نسكي) بل يستوي في هذه الصورة المتصلة بربه حياته وموته، فهو معه حامد شاكر مُنعَم بما أفرغه في قلبه من معاني القرب والحضور، وصفاء الإخلاص. كل ذلك لله وحده لا أملك منه شيئا، ويضيء التوحيد إضاءة يمتزج فيها اللفظ بالمعنى (لا شريك له) ويبرز مقام العابد من المعبود ومقام السيد الكريم من العبد المطيع، وبذلك أمرت فاستجبت حبا، وسعيت فرحا وقربا، فأنا بذلك أول المسلمين. ليست الأولية في التاريخ الزمني، ولكنها الأولية في مقام الإخلاص، وفي مقام إدراك النعمة الكبرى بما آتاه الله منها، وفي ربط كل لحظة من لحظات حياته بربه كما جاء في ابتهاله وقد تنكر له قومه، وآذاه من ظن أنهم يعينونه على أداء الرسالة وهداية العالمين (إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي). ثم بعد أن بلغ الإعلان هذا المستوى الرفيع يندمج ﷺ في الكون كله فيعبر عن ذلك مأمورا أن يقول :(قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء) هو الكون بما يحويه من جماد وحيوان وبشر، الشمس والقمر والكواكب والمجرات، كل ما يبلغه الإدراك الحسي أو العقلي من المحدثات، كلها تولاها ربي بالعناية وأودع فيها ما أودعه من الحكمة في الخلق وحسن التقدير والتحكم في الحاضر والمصير، مما يفهم من كلمة ربي ورب كل شيء. فإذا كانت جميع الخلائق قد أخذت وجودها وخصائصها ومنهج تطورها وأجلها الذي أجل لها، من ربها، فكيف تتصورون أيها المشركون أن أبحث عن رب غيره !

ثم يصرح الإعلان، الذي أمر بخطاب الناس به، بأمر أعلى من ذلك هو جوهر النبوة: هو تنبيه البشر إلى أنهم مسؤولون عما يصدر منهم، فكل عمل يصدر عن الإنسان باختياره يحاسب عليه ويجزى به، فما كسبه من خير ينال ثوابه، وما كسب من شر لا يستطيع التنصل من عقوبته. أي ما تكسب أي نفس من عمل إلا هو لها أو عليها، فلا تتحمل نفس ثقل الذنوب التي قام بها غيرها. والمقام الذي هو فوق ذلك هو ما يعتري البشرية من اختلاط الميزان، وقلب سلم القيم، واعتبار الخير شرا والشر خيرا. لقد اختلفت الفرق اختلافا كبيرا بلغ درجة التعصب بما يقارنه من ثبات كل فرقة على ما رأت أنه الصلاح، وقامت بالاحتجاج له والدفاع عنه، وما الحجج التي حطمها القرآن في الآيات السابقة والتي حاجوا بها رسول الله إلا نتيجة الزيغ الذي أصيبوا به وجمدوا عليه. لهذا بعث المرسلون لإرجاع سلم القيم لنصابه، ورغم ذلك ثبت الزائغون على ما هم عليه. فقل لهم إنكم ستقفون بين يدي ربكم في يوم الحساب.

إنكم عند وقوفكم بين يدي ربكم سيعرّفكم عندها بالقيم الحقيقية لمعتقداتكم وأعمالكم، وما هي عليه من باطل وضلال مما يفضي بكم إلى إدراك مسؤوليتكم وتحمل نتائج فسادكم، فيتبين الحق يومئذ ويضل عنكم ما كنتم تعتقدون فلا تجدون منه أي نفع.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

خلائف الأرض: تخلفون في الأرض من سبقكم.

ليبلوكم: ليكلفكم فيظهر التكليف نتيجة اختباركم.

درجات: مستويات النعم.

سريع العقاب: ينفذ عقابه بدون تردد.

بيان المعنى الإجمالي:

تختم سورة الأنعام بهذه الآية الجامعة الشاملة. تذكر بأن الله قدر بحكمته أن يجعل البشر أجيالا يخلف بعضها بعضا ليواصل كل جيل تحقيق دوره في استخلاف الإنسان في الأرض. وأنه لم يخلق البشر نمطا واحدا بل فضل بعضهم على بعض في العلم والعقل والمال والوسامة والقوة والجاه والسلطة إلى آخر أنواع التفضيل. وما رُزِقَهُ الإنسان من نعمة هو مختبر فيها؛ أصرفها حسب ما أمره خالقه وخالقها

أم تجاوز الحدود المخولة له؟ وليكن كل إنسان متذكرا أن الله هو العادل القاهر الغفور الرحيم، فمن ظلم طغى وأفسد وتجاوز الحدود فإنه سينزل به عذابه بسرعة وبدون تردد ؛ ومن أصلح واتقى فإن الله يتجاوز له عما كان منه من تقصير.

بيان المعنى العام :

165-وهو الذي جعلكم خلائف...وإنه لغفور رحيم.

ختمت سورة الأنعام بهذه الآية التي بالتأمل في مضمونها يتبين أنها متصلة اتصالا مكملا لفاتحة السورة. كانت فاتحة السورة **(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض...هو الذي خلقكم من طين)** فهي متضمنة لخلق الله السماوات والأرض، وخلق الإنسان من بعض أجزاء الأرض. وتفيد هذه الآية أن الله قدر أن يجعل النسل الإنساني يخلف بعضه بعضا في عمارة الأرض. وهذا من حكمة التقدير، وهي نعمة شاملة لكل فرد من البشر.

يزداد ذلك وضوحا ببيان، أنه لو قدر للبشر أن يكون كل فرد منهم باقيا ما بقيت الأرض التي خلقوا منها، لجمد التأثير الحضاري في المستوى الذي كان عليه الموجودون الأولون. ولتعطل الإنسان عن التقدم بالمعرفة والقدرة عن التطوير في شعب الحياة المختلفة. فكان من الحكمة أن يخلف كل جيل الجيل السابق ويبني على ما وجده فيضيف إليه ما يحقق إرادة الله من استخلاف الإنسان في الأرض لعمارتها وإبراز ما حوته من خيرات.

ومن ناحية أخرى فإن من أعظم النعم نعمة الحياة، فبناء النظام البشري على أن كل جيل يخلف غيره هو الذي جعل كل إنسان وُجِدَ ينعم بهذه النعمة. إنه سبحانه قدر فأحسن التقدير، لما ربط الإنسان بالأرض برابطة عضوية جعلته يسعى إلى البحث، وإلى بذل كل ما أوتيه من ذكاء لينمي عطاءها وليكون سلوكه معمرا لا مخربا ومضيفا لا منقصا، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان عمله في الكون في المنهج المحدد من خالقه وخالق الكون.

إن هذه الآية الخاتمة لسورة الأنعام تُذَكِّرُ في إعجاز بجميع المعاني التي تحكم نجاح الإنسان في مهمته الاستخلافية، وأنه محاسب عنها. وأن استبداده المخرب تظهر آثاره المدمرة إذا نسي أولم يعتبر في حسابه حدوده التي خولها له خالق الكل. فالإنسان ليس سيد الكون ولا قاهر الطبيعة، لكنه عبد لله، ومعمر منسجم مع الطبيعة، تطاوعه كلما ازداد معرفة بها.

والله الحكيم لم يقدر أن يكون البشر نمطا واحدا تحكمهم قاعدة المساواة المطلقة في المواهب والإمكانات بلا اختلاف بينهم في ذلك، بل إنه قدر أن يكون بعضهم أرفع

من بعض في صلاح السلوك، وفي درجات الذكاء، وفي حب الخير أو الانجذاب نحو الشر، بله الوسامة والقوة العضلية وبسطة الجسم.

وفي ذلك اختبار للإنسان في مقدار طاعته لربه. هل ينسى خالقه وينصرف في الحياة بادعاء كاذب أنه لا حاجز يحجزه عن تحقيق أغراضه، أو هو ذاكر لمهمته في الحياة في الإطار العادل الذي شرعه له رب العالمين ؟ إن ما أودعه الله في الكون من خيرات، وما آتاه لكل فرد من الظروف والقدرات، وما حفه به من ألطاف، هو تكليف تبرز نتائج اختباره يوم العرض عليه.

ويختم هذا التذكير الخاطف العام الشامل بتقرير قاعدة يقينية عليها يجري لقاء البشر لحصاد ما قدموه في الحياة فليحذروا وليكونوا على ذُكر منها ليسعدوا: إن ربك يا محمد ورب كل إنسان، هو العادل القاهر الغفور الرحيم، فمن كانت نتيجة اختباره شرا فتسلُّط العقاب عليه يتم في سرعة بلا تردد، ولا يستطيع أي كائن أن يغير ما حكم به. ومن كانت نتائج اختباره خيرا فإن الله يغفر له ما شاء من تقصيره ويرحمه برحمته الواسعة التي يفيض بها من النعم مالا يحصى.

كمل بحمد الله وحسن عونه، وله المنة والفضل بتفسير الربع الأول من القرآن الكريم. وذلك يوم الثلاثاء 25 من شهر ذي القعدة 1431 الثاني من نوفمبر 2010-

أسأله سبحانه وهو ولي التوفيق وبيده الخير وهو على كل شيء قدير أن ييسر لي إكماله، وأن يرزقني الإخلاص والقبول، فهو الولي الحميد لا إله غيره ولا رب سواه.

سورة الأعراف

هذه هي السورة الأولى في الربـع الثـاني مـن القـرآن العظـيم. عـدد آياتهـا-206 - فتكون في طولها تالية لسورة البقرة في عدد الآيات. هـي مـن السـور المكيـة. سـميت بسورة الأعراف، وهو اسمها الوحيد في المصـاحف، أخـذا مـن اختصاصـها بـذكر الأعراف. اللفظ الذي لم يذكر في بقيـة سـور القـرآن. هـي الثامنـة والثلاثـون حسـب ترتيب النزول عند ابن النديم. نزلت بعد سورة يس وقبـل سـورة الفرقـان. وعـن جـابر بن زيد أنها نزلت بعد سورة ص وقبـل سـورة الجـن، وهـي السّـابعة حسـب ترتيـب المصحف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

حرج: ضيق في صدرك.

تنذر به : تحذر به سوء العاقبة.

بيان المعنى الإجمالي:

يراجع ما يتعلق بالأحرف المفتتح بها: ألف - لام - ميم - صـاد- مـا ذكـر فـي فاتحـة سورة البقرة. هذا كتاب أنزل إليك تتحمل وحدك ثقـل إبلاغـه. فكـن مسـتعدا لـذلك ولا تضق بما ستلاقيه من متاعب فـي سـبيل نشـره فـي العـالمين. اعلـم أنـك مطالـب بمواجهة الكافرين لتحذرهم سوء العاقبة إذا هم أعرضـوا عنـه، ومطالـب بـأن توضـحه وتعمق الشعور بمضامينه للمؤمنين ليكون حاضرا في نفوسهم دائما.

بيان المعنى العام :

1-2: المص...وذكرى للمؤمنين.

افتتحت السورة بالأحرف التالية: ألف – لام – ميم – صاد– وقد تقدم في تفسير سورة البقرة بعض ما يتعلق بهذه الطريقة التي اختص بها القرآن. وعدت هذه الحروف الأربعة الآية الأولى فيها.

تبع هذه الأحرف الآية[2] : **كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين.**

أيقظت الأحرف المقطعة العقل للتأمل والروح لقبول تجليات ما سيرد بعدها.

ومن خصائص هذه الآية الثانية أن الحضور فيها سمة واضحة . فكتاب خبر لمبتدأ مقدر : هذا كتاب.

وترجح عندي ذلك لما تلاه من الخطاب المباشر للرسول خطابا متتابعا (إليكَ) (صدركَ) (لتنذر) فيكاد قصد الحضور والقرب قد عين المبتدأ:(هـذا) وخبره كتاب مبارك مقدس . يسمو عن الكتب لأنه منزل إليك. وإنك لتتحمل ثقل مسؤولية القيام بما يفرضه عليك؛ هذا الدور الذي تخيرتُك له واصطفيتك للقيام به. إنها مهمة ثقيلة وشاقة تواجه بها البشرية قاطبة وما ترسخ في عقولها وضمائرها قرونا متطاولة . وتواجه بها أصحاب المصالح الخاصة الذين يدافعون عن مصالحهم بكل شراسة. فلتكن يا محمد مستعدا لكل ذلك. لا يضق صدرك بالتكذيب . ولا تيأس من مواصلة مهمتك رغم العناد .وتحمل الأذى في بدنك وفي نفسك . واصبر على المؤامرات التي يحيكها لك المشركون والكافرون والملحدون. إني أستروح من قوله تعالى : **(فلا يكن في صدرك حرج منه)** السمة العامة لهذه السورة التي فيما عرضته من مواقف الأمم مع أنبيائهم وما تتخللها من مواعظ . ما يقوي قلب رسول الله على مواصلة الدعوة وتمكين الثقة في نفسه وهو يواجه العالم كله.

فالقرآن يتحمله رسول الله ﷺ ليحذر به الرافضين من العواقب التي ستحل بهم ومن العقاب الذي سينزل بهم. بما يشمل فساد أحوالهم الاجتماعية في الدنيا. والتنكيل بهم يوم القيامة. ومن ناحية أخرى هو يذكر المؤمنين ليُحيي أرواحهم. ويعمر عقولهم بالخير ويشرع لهم مسلكا واضحا في الحياة يألفونه. حتى ترتبط عقيدتهم وسلم قيمهم بسلوكهم. فلا يغفلون عنه.

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝ ﴾

بيان معاني الألفاظ:

اتبعوا: اعملوا بما أمرتكم به.

أولياء : جمع ولي وهو الناصر والصديق المخلص، والمراد به في الآية: المعبود

التذكر : من الذكر وهو حصول الصورة في الذهن ضد الذهول والنسيان.

الإهلاك : الإفناء

بأسنا: عذاب الدنيا.

بياتا : ليلا.

قائلون : في وقت راحة القائلة، ما بين الزوال والعصر.

فلنقصن : فلنخبرنهم.

المفلحون :النجاح بتحصيل المطلوب.

بيان المعنى الإجمالي:

دعوة من رب العباد للبشر جميعا، يأمرهم أن يتبعوا ما تفضل به عليهم فأنزله على لسان رسوله ليساعدهم على ما يمكنهم من السعادة في الدارين. ويؤكد عليهم أن لا يتهاونوا بذلك، بنهيهم عن الانحراف إلى اتباع ما يأمرهم به الأصنام والسدنة. وينعي عليهم غفلتهم وعدم يقظتهم ليكونوا ذاكرين تعلقهم بالله دون غيره.

تنبهوا فلا تلقوا بأيديكم إلى الهلاك، فإن قرى كثيرة أهلكناها مع ساكنيها في الوقت الذي ظنوا فيه أمنهم، فجاءهم عذابنا ليلا أو عند إخلادهم لراحة ما بعد الزوال.

وكان عذابا ساحقا أبدوا معه يأسهم، لما ظهرت لهم الحقيقة التي عملوا على عدم التنبه إليها، فأعلنوا: أن ما حل بهم هو نتيجة ظلمهم لرسل الله وللحقيقة التي جاؤوا بها. إن الله سيوقفهم فيسأل المرسلين: هل بلغوا؟ فتقطع معاذير المكذبين وينكشف

ما قابلوهم به. ثم يسألهم سؤال التبكيت والتقريع، ولا ينتظر جوابهم، إذا يخبر الله كل فرد بما قدمه إخبارا مستندا إلى علمه المطلع على ظاهر ما يعمله كل إنسان كعلمه بباطنه. وإثر ذلك توزن الأعمال. فأما أعمال الصالحين الموحدين فلكل عمل وزنه، ويثقل ميزان خيرهم فيعلن عن فلاحهم، وأما أعمال المشركين فلا يوجد ما له ثقل حتى يوزن، فيكون كل سعيهم في الدنيا ذهب هباء ويجدون أنفسهم وقد خسروا كل شيء نتيجة ظلمهم للآيات التي جاءتهم من ربهم لتنقذهم من الضلال، فقابلوها بالرفض.

بيان المعنى العام:

3-اتبعوا ما أنزل...ما تذكرون.

يتوجه الخطاب إلى كل من يصح أن يخاطب في عهد الرسالة وفيما يأتي بعد ذلك إلى يوم القيامة، يأمرهم ربهم أن يطبقوا في حياتهم المنهج الذي قدمه القرآن والأحكام التي حددها، والعقيدة التي وضحها، والأخلاق التي رسمها. لتعلموا أن كل ذلك أنزل عليكم من ربكم الذي تولاكم بعنايته، فرزقكم عقولا تدركون بها الحق، وأعانكم على تلقي الهداية بالوحي الصادق الطاهر المنزل، ولذلك اختار كلمة (ربكم) ولتثبيت ذلك صرح بالنهي عن اتّباع ما يدعوكم إليه أولياء منحرفون عن منهج الله من الآلهة أو سدنتهم أو زعماء ملحدون ورؤساء مضلون مضللون. فلا يختلط عليكم ما أتاكم من ربكم وألزمكم اتّباعه، بما يزينه لكم الخارجون عن حدوده.

وتختم الآية بتحريكهم لإعمال عقولهم ، وإيقاظها وتحصينها من دسائس المضللين الذين يعملون على إلهائهم عن منهج الله، وينسونهم هداه بتقريبهم من الشهوات، وتقريب الشهوات إليهم حتى يتعلقوا بها وتكون حجابا على بصائرهم. فكانت هذه الآية محللة لما جاء في الآية التي سبقتها من الإنذار والتذكير. غفلتُكم الغالبة عن تذكر ما أنزل إليكم من الهدى، توقعكم في اتّباع ما يزينه لكم من اتخذتموهم أولياء من دون الله.

4-5: وكم من قرية...إنا كنا ظالمين.

ثم أظهر القرآن ما ينذر به المنحرفين عن اتّباع ما جاءهم من عند الله، بما سلطه الله من عذابه على قرى كثيرة فدمرها ودمر ساكنيها. إنه بمجرد ما تعلقت إرادتنا بتدميرها أتاهم عذابنا بغتة في الوقت الذي خيل لهم أنهم مطمئنون، أتاهم في الليل الذي عادة ما يسكن فيه الناس ويرتاحون ثم ينامون، أو في فترة القائلة التي يتطلب

فيها البشر الإخلاد للراحة من عناء الكسب. وفي ذلك تهديد للمشركين الذين اغتروا بما عندهم من قوة، فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب تِلْكُمْ القرى.

-ثم وصف حالهم عندما أخذهم البأس وحل عليهم العذاب، أيقظهم العذاب إلى ضعفهم، واستحضروا في تلك اللحظة تمردهم وعنادهم، وما كانوا يسلطونه على دعاة الحق من ظلم، وما كانوا يقيمون أمام الهداية من حواجز ليوقفوا مدها عدوانا واستكبارا. فما كان دعاؤهم، وقد أخذوا من كل مكان وانهارت قواهم، إلا أنهم اعترفوا بظلمهم للصالحين وبظلمهم لأنفسهم، بالشرك الذي هو أعظم الظلم، توهما منهم أن ذلك ينقذهم من العذاب. ولكن عذاب الله إذا جاء لا يؤخر.

6-فلنسألن الذين...ولنسألن المرسلين.

ثم انتقل القرآن لعرض ما سيلاقونه يوم القيامة، فذكر أن الله سيسأل في ذلك اليوم الرسل: هل بلغوا ما أوحي إليهم إلى أقوامهم ؟ لتبكيت المجرمين ونزع كل عذر يمكن أن يتنصلوا به من المسؤولية. وأن الله سيسأل أيضا المكذبين الضالين الذين أرسل الله إليهم الرسل ليقلعوا عن الضلال، سيسألهم بما ذا أجابوا المرسلين؟ ما كان موقفهم منهم؟ وهو فضح آخر وعذاب عندما يستعرض المكذب شريط أعماله وسلسلة فساده. هو كالمجرم الذي أقر، وكتب إقراره بنفسه، ودل على جميع الظروف المحيطة، وضبط في حالة تلبس، ولم يبق أي شك في تحمله للمسؤولية، ثم يسأله القاضي عن فعله، في الظرف الذي هو مأخوذ فيه لا يستطيع الإنكار ولا المراوغة، فيكون إقراره بذنبه عذابا آخر وانهيارا لنفسيته.

ولا ينتظر الله منهم الجواب، فإن علم الله بما قدموه أعمق وأتم، إذ يخبرهم بكل تفاصيل ما فعلوه من شر في الدنيا، شريط يمر أمامهم، وتقوى ذاكرتهم فلا يشكوا في شيء منه. فهو علم الله الذي ما كان يغيب عنه شيء من أفعال عباده.

6←9، فلنسألن....بما كانوا بآياتنا يظلمون.

ثم إن القرآن عُنِيَ بتفصيل ما يترتب على سؤال الرسل والمرسل إليهم، وذلك أن البشر جميعا تُعرض أعمالهم التي لم يغب منها شيء عن علم الله، ويظهرها للبشر يوم القيامة. وفصل طريقة إظهارها مرتبطة بجزائها. فقال تعالى : إنه في هذا اليوم يبرز الله سبحانه للخلائق قيمة أعمالهم في الدنيا، هذه القيمة يظهر الله الأعمال الخيرة في صورة يكون لها وزن، فتوزن بميزان صادق لا يهمل أي حسنة من الحسنات ولو كانت صغيرة، فإذا كانت هذه الأعمال خالصة لوجه الله أداها صاحبها حسبما أمر به ولم ينقص منها، تجمع منها في الميزان ثقل معنوي يقابل

بما يوازيه من جزاء فضلا من عند الله. ويكون أصحابها ناجحين فائزين بالرضا والنعيم. وأما إذا فقدت الأعمال قيمتها ولو كانت في ظاهرها صالحة، لكن الأساس الذي يعطيها الوزن وهو الإيمان، حل محله الشرك المحطم لقيمة العمل كما قال تعالى :(وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)[32] يعرض المشركون يوم الحساب وليس في ميزانهم أي حسنة، فمعنى: خفت، فقدت أي ثقل يوضع فيها. وهم الخاسرون. شأنهم شأن التاجر الذي سافر وتنقل واخترق المفاوز وكد فكره، فإذا النتيجة إفلاس وخسران، ذهبت حياتهم سدى وليس لهم من أعمالهم إلا النصب والتعب. إنهم ساقوا أنفسهم إلى ذلكم الخسران لموقفهم الظالم من الآيات المنزلة عليهم، لرفضهم النظر فيها، ثم العمل بهديها.

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ

بيان معاني الألفاظ:

مكناكم :جعلنا لكم القدرة على التصرف.

معايش :جمع معيشة وهو ما يمكن الإنسان من استمراره في الحياة، من الطعام والشراب.

الخلق : الإيجاد.

التصوير: إعطاء الشيء شكلا يميز الذات عن غيرها.

الطين : التراب المخلوط بالماء.

---

[32] سورة الفرقان آية 23

الصاغر: الذليل الحقير.

أغويتني : أضللتني.

لأقعدن : لألْزمَنّهُمْ .

مذؤوما: معيبا.

مدحورا : مقصيا.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الله مكن الإنسان من الانتفاع بما أودعه في الأرض ليجد فيها طعامه وشرابه، ولكن مع هذا الفضل الواضح يغفل كثير من البشر عن شكر المنعم سبحانه. ولقد أنعمنا عليكم بالإيجاد، ثم صورناكم في أحسن صورة وأكمل وضع بما يمكنكم من أداء رسالتكم في الأرض. وأكرمناكم بأن أمرنا الملائكة بالسجود لأبيكم آدم، وأن الملائكة سجدوا له اعترافا بفضل العلم الذي علمه ربه. وإن إبليس امتنع من السجود وعصى ربه. وأن الله لم يُعجل بعقوبته، بل استفسره عن سبب تخلفه عن السجود بعد أن بلغه الأمر. فأعلن أنه يرى نفسه أفضل من آدم، لأن المادة التي خلق منها هي النار، وأن أصل آدم من طين.

والنار مزاياها أعظم من مزايا الطين. فجمع بين العصيان والاستكبار. ولذا أمره سبحانه أن يهبط من المقام الذي عاش فيه زمنا طويلا، ذلك أن المحيط الذي كان يعيش فيه محيط مقدس لا يقبل أن يسكنه عاص مستكبر عن تنفيذ أوامر الله مهين ذليل حقير. قال إبليس : رب لا تُعجّل باستئصالي وأطل في حياتي إلى آخر الدنيا. فأعلم المولى سبحانه أن هذا ما قدره منذ الأزل، وأنه سيبقى إلى ذلكم الأجل.

ثم كشف إبليس عن عدائه المتأصل لبني آدم ومخططه لإغوائهم، فقال : إنه تبعا لما أغويتني لأحول بينهم وبين اتّباع شرعك، ولألزم المسالك التي ترضيك فأصرفهم عنها. وسوف أبذل لإضلالهم ما وسعني الجهد، فأحاول تنفيذ ما أريده منهم لا أجد طريقا لذلك إلا سلكته، ولا أيأس فكلما تفطنوا لمكري حاولت من طريق آخر التأثير عليهم حتى تنهار مناعتهم ويقعوا في حبائلي.

ولا تجد أكثر الناس شاكرين لك، بل يحجبهم الكفر عن الاعتراف بفضلك. وصدر الأمر الإلهي بإخراجه مما كان فيه، مقرونا بالذم مبعدا، مصيره ومصير من اتبعه جهنم يملؤون جنباتها.

بيان المعنى العام :

10- ولقد مكناكم...تشكرون.

يؤكد القرآن أن الله أعطى القدرة للإنسان ليعمر الأرض ويسخر ما فيها لمنفعته، ومن تمكين الله له فيها، أن جعل طعامه مما تنبته وشرابه مما تختزنه في باطنها من المياه المتدفقة من العيون في الأنهار والمخزونة في الآبار. ثم نعى على المشركين كفرهم بنعمة الله الكفر الذي جعلهم لا يلتفتون إلى أن جميع النعم التي نالتهم منه سبحانه، وبالتالي لا يشكرون الله على ذلك إلا قليلا.

11- ولقد خلقناكم...لم يكن من الساجدين.

ثم ذكر القرآن البشر بنعمة الإيجاد، وهي من النعم التي يغفل عنها كثير من الناس. إنه إذا كانت الفطرة تدرك عزة الحياة، فإن أول مراحل الحياة هو الإيجاد بعد العدم. وهذا الإيجاد قارنه مزيتان هما محل المنة والتذكير بالنعمة أيضا:

المزية الأولى أن هذا الخلق تم بعناية الله وفيه تشريف للنوع، كما يتبين ذلك من قصة خلق آدم.

والمزية الثانية: أن الله صور الإنسان في أجمل صورة، وأعطاه من الخصائص ما به سما عن بقية ما حوته الأرض من الكائنات، فاستطاع أن يسخرها لما يُمكّنه من حسن الخلافة في الأرض.

والمنة الأرفع: هو أن الله لما خلق آدم أبا البشر جميعا أكرمه بأن أمر ملائكته بالسجود له. وقد فصلنا القول في ذلك وفي قيمة العلم عند تفسير قصة سجود الملائكة لآدم (الآية 34 من سورة البقرة).وسجل القرآن أن الملائكة سجدوا كلهم لآدم إثر الأمر تحقيقا للطاعة التي فطروا عليها، واستثنى من المشهد كائنا واحدا لم يستجب للأمر فلم يسجد وهو إبليس. ثم تأتي المحاورة بين إبليس وبين الله، وفي ذلك ما يعطي منهجا في الحكم والمؤاخذة، هذا المنهج هو أنه لا تبنى المؤاخذة على ما عند الحاكم من يقين بمسؤولية المخالف، بل لا غنى عن تقرير المخالف وإيقافه للسؤال، وتمكينه من بيان ما عنده.

تمت هذه المحاورة حسب المراحل التالية:

12-قال ما منعك أن تسجد...من طين.

أولا : يسأل الله إبليس: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ يسأله معرفا له بعصيانه، لماذا لم تمتثل لأمري بالسجود. ثم، هل كان إبليس ملكا أو كان داخلا في زمرة الملائكة وليس منهم ؟

ما أطمئن إليه أن إبليس فهم أنه مأمور ومطالب بالسجود لآدم، وما سوى ذلك محل اجتهاد لا يقين فيه. والراجح أنه من الجن أدمجته القدرة الإلهية في الملائكة.

قال تعالى:(إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ولذا نجده في المحاورة، لم يعتذر بأنه غير مأمور.

ثانيا: أجاب إبليس جوابا واضحا وقحا، شأن المستكبرين يواجهون ما يصدر عنهم بصلف وكبرياء قال: أنا خير من آدم. ثم استدل على علوه على آدم باختلاف أصل الخلقة. فآدم عليه السلام مخلوق من طين، وإبليس مخلوق من نار. ولما كان في النار من الخصائص ما توهم به ما يوجب فضلا له على آدم، اعتبر ذلك مبررا لعصيان الأمر الإلهي، إذ النار فاعلة والطين منفعل، والنار تُطهّر ولا تحمل الخبث بخلاف الطين،، والنار تضيء وتشع بخلاف الطين. وهذا شأن الكبر يضلل صاحبه، فيظن أن ما له من المزايا موجب لتقدمه وتفوقه، ولولا الكبر لظهرت له المزايا الحقيقية التي فضل بها آدم، فالعنصر الذي منه الخلق، هو كالوسامة والصفات الجسمية عنصر غير مؤثر في تحمل المهام الثقيلة.

إن اختيار آدم لتعمير الأرض كان لخصائص فضلته على كل الذين أمروا بالسجود له، التي منها ما رزقه من عقل ومن مواهب تستحثه للمعرفة، ومن طموح إلى ما هو أفضل عائدة، ومن قابلية للسمو في معارج الكمال الروحي، ومن إدراك الإنسان الذي لم تفسد فطرته، إلى الفارق بين المعبود والعابد، فالمعبود الخالق يأمر وينْهىَ، والعابد يطيع من دون توقف ولا مجادلة.

13-قال فاهبط منها...من الصاغرين.

ثالثا: أمام صلافة إبليس وعصيانه وتمسكه بموقفه الضال حسم الأمر، وقال الله له قول من لا راد لقوله: اهبط منها، أي اهبط من المنزلة الرفيعة التي أنت فيها. وهل هي السماء أو مكان رفيع آخر ؟ لم يحدد القرآن أيا من الاحتمالين. وعلى كل فإنها عقوبة تناسب ما صدر عنه.

ثم أعقبه بالتعنيف لتجاوزه الحد، وأن المكان الذي كان حالا فيه من فضل الله، لا يليق به أن يبقى فيه حفاظا على قداسته من أن تدنس بالكبرياء والعصيان. ثم أضاف إلى سحبه من المنزلة التي كان فيها إلى أسفل، صدور الأمر المفيد لإذلاله(اخرج منها) مصرحا بإهانته: (إنك من الصاغرين) إنك واحد من الحقيرين الأذلاء.

14-15، قال أنظرني...من المنظرين.

رابعا: طلب إبليس من الله أن يطيل بقاءه إلى يوم البعث، ولا يعجل بإفنائه.

خامسا : أعلم الله إبليس بما سبق في تقديره قبل أن يسأله: أنه واحد من الذين قدر الله لهم طول البقاء إلى يوم البعث. فإبليس أحقر وأهون على الله من أن يستجيب دعاءه ويكرمه بذلك، وهو الذي ألزمه منزلة الذل. ولذلك لم يقل له أجبت سؤلك أو أنظرتك.

16-17، قال فبما أغويتني...شاكرين.

سادسا :أحس إبليس من نفسه قدرة على التأثير السيء في عقول البشر وأرواحهم، وشعر بما له من إمكانات وقدرات على تحويل البشر من الخير إلى الشر، ومن الاستقامة إلى الضلال. وذلك بسبب إضلال الله له جزاء استكباره وصلفه. وبناء على ذلك أعلن: أني سألازم البشر ملازمة غير منقطعة، فأمنعهم من اتّباع صراطك المستقيم، وأحول بينهم وبين الاهتداء إلى ما يرضيك، ولأصُدّنهم عن منهج النجاة. ثم ارتقى في الإفصاح عن عداوته لبني آدم وكيده لهم، فذكر أنه يواصل تحبيب الفساد إليهم وإضلالهم، فلا يترك طريقا لبلوغ ذلك إلا سلكه، فعبر عن جميع الطرق التي يمكن أن يتأثر بها الإنسان بالجهات الأربع المحيطة به، عن اليمين وعن الشمال، ومن الأمام ومن الخلف، فكلما تفطن الإنسان لإغوائه حاول إبليس إغواءه من ناحية أخرى حتى يُوهَن قوة مدافعته، ويسلس له قياده. وهذا شأن العدو مع عدوه إذا عزم على الانتصار عليه، فتجده يبحث في كل الجهات عن ثغرة ضعيفة ينفذ منها.

ويعترف في النهاية أنه عارف بأنه لا يستطيع أن يتسلط على جميع البشر تسلط الإغواء والبعد عن الله، ولكن الأكثرية سيؤثر فيها، فتنقطع عن الله ولا تكون شاكرة له، والمقابل للشكر هو الكفر لقوله تعالى:(فاشكروا لي ولا تكفرون).

18 - قال فاخرج منها...أجمعين.

سابعا : يتكرر الأمر بخروج إبليس مقترنا بالذم والنقص ومبعدا مطرودا. ثم يؤكد سبحانه أن من تبعه وسار في الطريق الذي يزينه له فإن مآله مآل متبعيه في جهنم التي أملؤها منكم جميعا، وإن كثر عددكم.

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا

مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

وسوس : تكلم بكلام خفي لا يستوعبه إلا المستمع له.

ليبدي : ليكشف ما كان خفيا.

ما ووري : ما ستر .

سوءاتهما: السوأة ما يسوء، وتطلق على العورة.

قاسمهما : حلف لهما.

دلاهما بغرور : فعل بهما ما يفعله من أخذ إنسانا ودلاه في بئر بحبل مهرى يعلم أنه سينقطع به ويهوي فيه بتغريره.

يخصفان عليهما: يلزقان الورق على بدنهما.

بيان المعنى الإجمالي:

صدر الإذن الكريم من الله لآدم وزوجه بأن يتخذا الجنة سكنا لهما ، ومع السكنى أذن لهما في الأكل ما شاءا من ثمار أشجارها، وأحضر أمام أعينهما شجرة عيّنها حتى لا تشتبه بغيرها ونهاهما نهيا جازما من الاقتراب منها فضلا عن الأكل من ثمرها، وحذرهما بأنهما يعتبران من القوم الظالمين لو عصيا وارتكبا النهي. ولم تمض مدة طويلة على تنعمها بهذه التكرمة حتى أخذ إبليس يدبر ما يوقعهما به في المعصية. وأخذ يزين لهما الأكل من ثمر الشجرة المنهي عن الاقتراب منها، وحرضهما بما في تلكم الشجرة من أسرار، وأن الله ما نهاهما عنها إلا ليبقيا على وضعهما ولا يتحولان إلى ملكين أو يكتب لهما الخلود.

وأخذ يغريهما بأنهما لو أكلا منها لانقلبا إلى ملكين ينعمان بالاستغراق في العبادة كما تنعم الملائكة، أو أن يخلدا فلا يذهب عنهما شيء من النعيم الذي هما فيه. ولما وجد منهما نوعا من التردد حلف لهما: أنه ناصح لهما يدبر لهما ما يعود عليهما بالخير الكبير. فغرر بهما ورمى بهما في مهواة لا يمسكان إلا بحبل واه من غش الشيطان وفسقه، فتقطع بهما ووقعا في الخطيئة لما تهاوت مقاومتها لوسوسته

وتناولا من ثمر الشجرة. وبمجرد ما ذاقا طعمه تحولا من وضع المأذون له، إلى وضع العاصي المجترئ على ما ليس له عليه سلطان. وتعريا من الستر الإلهي الذي كان يشملهما، وبرزت عورة كل منهما ظاهرة لصاحبه، فاشمأزا من ذلك وأسرعا إلى ورق من الجنة يغطيان به عورتهما.

يتلو هذا الوضع: أن الله ناداهما نداء الموبخ لهما المقرع لهما، مذكرا بنهيه الجازم، ومذكرا بما نصحهما به من التحصن من الشيطان الذي هو عدو لهما عداوة شديدة واضحة. فعصيا ربهما واتبعا نصيحة عدوهما الشيطان.

وحُصِراً في بركة العصيان، وأُلْهِمَا أنه لم يبق لهما إلا الاعتراف بالذنب واللجوء إلى الله. فتوجها إليه معترفين بما ارتكباه من ذنب عادت آثاره عليهما فقد ظلما أنفسهما بالخروج من إشراق الطاعة إلى ظلام المعصية، وابتهلا إلى ربهما :أنه إن لم يغفر لهما تقصيرهما ويتفضل عليهما برحمته، فإنهما سيكونان حتما من القوم الخاسرين الذين لا أمل لهم. وهل يبقى أمل مع غضب الله ؟

بيان المعنى العام :

19 - ويا آدم.....من الظالمين.

ينتقل القرآن مواصلا قصة آدم ﷺ. فبعد أن رفع الله قدره في ملأ من الملائكة وسجدوا له ،وأذل إبليس وطرده وأهانه وأعلمه بسوء مصيره ومصير من اتبعه، واصل القرآن ذكر قصة آدم حسب الترتيب الزمني. فبعد طرد إبليس يأذن الله لآدم أن يسكن الجنة مع زوجه ويجتمع في هذا الإذن تحقيق لرفعة منزلته، وإذلال لإبليس عندما يرى إكرام الله لآدم.

ويأذن الله لهما وقد أصبحت الجنة سكنا لهما، أن يتمتّعا بما تنتجه أشجارها من ثمار على اختلاف أنواعها ومذاقاتها، ويعين شجرة من بين الأشجار ويحضرها لهما ويشير إليها، فتميزت تمام التميز، وينهاهما عن قربانها أو أن يحوما حولها، حتى لا يغفلا عن النهي، فضلا عن الأكل منها، وحتى لا تقوى داعية حب الاطلاع فتدفعهما لاقتحام ما نهيا عنه. عرفهما بما تؤول إليه منزلتهما إذا أكلا منها: أنهما يكونان من الفئة الظالمة. ظالمان لأنفسهما، وظالمان بالتعدي على حدود الله، وظالمان لدار الكرامة بتدنيسها بالمعصية.

20-21: فوسوس إليه...لمن الناصحين.

ولم تطل بهما الإقامة في الجنة حتى أخذ إبليس يعد خططه لتنفيذ ما توجبه العداوة التي صرح بها: إن طرق الشيطان في الإفساد تعتمد الدخول على قوى البشر من

الناحية التي يضعف الإنسان عن مقاومتها. وشأنه أنه يلقي بالفكرة في عقل الإنسان، ويحببها له بإبراز ملاءمتها له، ويضخم من موجبات الإقبال، وكلما ثار في نفسه خاطر يصرفه عن الفعل، عمل على توهين الصارف حتى ينساه ولا يأخذ به في الاعتبار، وما يزال يردد ما يوسوس به، ويدخل على من يوسوس له من جميع المنافذ، حتى يألفه، ثم يقوى ميله إلى أن تتحرك إرادته، ويعقبها التنفيذ لما يريد.

وما أظن إبليس إلا أنه اتخذ هذه الخطة الخبيثة في حمل آدم على الأكل من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها. هو من البداية حدد هدفه الخبيث، وهو أن يعريهما فينكشف آدم وزوجه وتظهر سوآتهما. هل المراد بذلك أن يفعلا المحرم ويأتيا المنهي عنه في المكان المقدس الذي لا يقبل أن يكون ساكنه لا يرعى ما هو محرم؟ فسوآتهما على هذا عصيانهما وارتكابهما للمنهي عنه. أو هل إن المراد من سوآتهما انكشاف ما كان مستورا عن الأعين من عورتيهما. السوأة تطلق على العورة. وكان إبليس عالما بأن الأكل من الشجرة يفضي بهما إلى وضع سيء يكشف نقصهما وأنهما لا يستحقان سكنى الجنة. وهكذا شأن الحاسدين ينشرحون ويبتهجون إذا زالت النعمة عن صاحبها، ولا يهمهم أنالوا منها أم لم ينالوا.

ذكر القرآن من الوسوسة التي هونت على آدم وزوجه الأكل من الشجرة: أنه أقنعهما بأن في هذه الشجرة أسرارا عجيبة. من أكل منها تحول إلى ملَكٍ أو حقق لنفسه الخلود وعدم الفناء. وأن الله ما نهاهما عن الأكل منها إلا لمنعهما من الوصول إلى أحد الهدفين العزيزين. أي إلا كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

فثغرة الضعف الأولى :هو ما هو معلوم عند إبليس من بناء التركيب النفسي عند آدم، وقد ورثه منه ذريته، هو الطموح. وبالطموح تمكنت البشرية من بلوغ ما بلغته من الاكتشافات، وانفتح لها النفاذ إلى المجهول وإقامة البناء المعرفي الذي ما بلغت فيه الإنسانية مرتبة إلا كانت فاتحة لما وراءها، وهذا ما مكن الجنس البشري من الخلافة في الأرض وتعميرها. فآدم حسب تركيبه النفسي يطمح لمنازل أسمى وأرقى من المنزلة التي هو فيها.

وشعر بأن الملائكة يتميزون بالطاعة الجبلية بصفة لا تخطر معها ببالهم المعصية. فتاق آدم حسب طبعه أن يصل إلى تلك المرتبة، مرتبة الملائكة في هذه الميزة.

و ثغرة الضعف الثانية : هي ما يعلمه إبليس من التركيب النفسي لآدم، وهو ما طبع عليه البشر وورثوهُ ممّا طبع عليه أبوهم أيضا، هو خوف الإنسان على

مكتسباته أن تضيع منه، وأعز شيء هو الحياة. فالبقاء في الحياة مغروس في فطرة آدم وفي ذريته من بعده. فلوّح لهم إبليس بالخلد الذي لا يلحقه زوال.

وقد يكون مع ذلك أن آدم وزوجه، وجدا في الجنة ما ملأ نفسيهما ابتهاجا وغبطة، فكانت حساسيتهما للبقاء في هذا النعيم بالغة مستوى استولى عليهما، الأمر الذي مكن إبليس من التأثير عليهما من هذه الناحية.

-وثغرة الضعف الثالثة: أنهما لم يتمرسا على المعاملة مع المخادعين. فإبليس لما وجد منهما نوعا من التردد، أقسم لهما بأنه ناصح أمين، وأن الأكل من الشجرة فيه الخير كل الخير ولا ضرر منه. وما كان يدور بخلدهما أن أحدا يقدم على الحلف كاذبا. فانقادا لوسوسته وهوى بتغريره بهما في الخطيئة. والصورة في الآية مجسمة حية، رمى بهما في مهواة سحيقة بعيد قعرها، وربطهما فتمسكا بحبل خداعه وأكاذيبه وفجوره، الذي انقطع بهما فوجدا أنفسهما في القاع الذي لا مخرج منه.

22- فلما ذاقا الشجرة...مبين.

بمجرد ما ذاقا من ثمر الشجرة، والذوق أول ما يحس به الآكل، تعرّيا مما كان يلفهما، وبدت عورتهما. وبالفطرة كان منظرهما في شعورهما منظرا قبيحا اشمأزا منه، وأسرعا إلى ستره بما اتفق لهما في ذلكم الموطن. ولا يوجد إلا ورق الشجر، فأخذا يلصقان من أوراق الأشجار ما يغطي عورتيهما.

-المرحلة التالية :بعد انهزامهما وعصيانهما باتّباع وسوسة إبليس، وتعجيل عقوبتهما، فتعريا ولا ساتر إلا أوراق الشجر، يناديهما ربهما ليسمعهما ما تأهلا له من توبيخ على عصيانهما وفعلهما ما نهيا عنه، وعلى تقصيرهما في اتخاذ الحيطة مما نبههما إليه. فقد عين لهما الشجرة التي نهاهما عن قربانها فضلا عن الأكل منها، ونبههما إلى أن إبليس مصمم على عدائهما وعداؤه واضح بين.

23-قالا ربنا ظلمنا...من الخاسرين.

المرحلة التالية : جللهما الندم، وأحسا إحساسا بالغا بالخطيئة التي وقعا فيها. وكان خطاب الله بتوبيخهما وتقريعهما، ضاعف خوفهما من المصير الذي بدت بوادره في عرائهما وظهور سوآتهما وفقدان ما يستتران به إلا ورق الشجر. وشتان ما بين وضعهما السابق، وهما مستوران بستر الله، وبين وضعهما بعد ذلك. فألهمهما ربهما من رحمته وفضله فالتجأ إليه التجاء من انسدت في وجهه جميع الأبواب إلا باب الرحمة والمغفرة، فقدما بين يدي خطابهما الاعتراف بالذنب، هذا الذنب الذي

كانت آثاره المدمرة واقعة عليهما، ربنا ظلمنا أنفسنا. ثم ترقيا بإبراز أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وقدما ما عمر به قلبيهما من اعتماد رحمته وغفرانه.

من حكم هذا المقطع:

أولا: أن يكون المؤمن يقظا للخواطر التي يلقيها الشيطان، فيطردها ولا يتابعها، فإن متابعتها توهن المناعة التي يغرسها الإيمان في القلوب. وسيأتي مزيد بيان لهذا في هذه السورة عند قوله تعالى : **(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون)**.

ثانيا: أن يسارع إلى التوبة والابتهال إلى الله إذا قارف الخطيئة.

ثالثا: أن لا يكون الطموح مبررا لاقتحام حدود الله.

قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

مستقر : مكث، تابع لوجودهم في الأرض.

متاع : الملذات غير الدائمة.

ريشا: زينة.

لا يفتننكم : لا يغلبنكم على أنفسكم.

أولياء : صحابة مقربين.

قبيله : ذريته وصنفه.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن التجأ آدم وزوجه إلى ربهما ليغفر لهما تقصيرهما بما ألهمه إياهما من كلمات تقبلها منهما، أمرهما وأمر إبليس أيضا، بأن ينزلوا إلى حياة أخرى فيها عناء وتكليف، وأنه كتب سبحانه أن العلاقة بين الشيطان وذريته من ناحية وبين

آدم وذريته من ناحية أخرى هي علاقة عداء. وأن بقاءهم في الأرض التي هيأها لقبولهم واستقرارهم فيها هي إلى أمد معلوم عنده. كما أعلمهم أنه قدر أن الأرض تتوفر لهم فيها مقومات الحياة، وأن نهايتهم فيها وأن خروجهم يوم البعث يكون منها أيضا.

ثم ذكرهم بمنة طبعهم على حب اللباس الساتر لعوراتهم، والتجمل به. وأن العفة وتقوى الله هي أفضل لباس لأنه ساتر مزين للنفس والروح. فانتبهوا لهذه النعم رجاء أن تكونوا متذكرين لها دائما.

ودعا البشر جميعا إلى الحذر من الشيطان وما يفتن به الإنسان لإفساد فطرته، إنه عدو لكم فقد تسبب في إخراج أبويكم من الجنة، وحرمتم منها تبعا لفتنته، التي تعريا بعدها وانكشفت عورتاهما. احذروا الشيطان فإنه يراكم هو وذريته وأتباعه، ولكنكم لم تُمكنوا من رؤيته، إن حصانتكم من فتنته وتضليله بالإيمان. إن الشياطين أصدقاء موالون للذين فقدوا الإيمان.

بيان المعنى العام:

24-25: قال اهبطوا ...ومنها تخرجون.

انتقل القرآن لعرض ما أحكمه الله في تصريف الأمور إثر إعلان آدم وزوجه عن توبتهما وابتهالهما كما ذكر. وجاءت صياغة النص على نحو يقيد الاهتمام بالمضمون. إذ تكرر لفظ (قال اهبطوا... قال فيها تحيون)

مضمون القول الأول:

أ: أمر لمن كان حاضرا بالهبوط إلى الأرض، فشمل ذلك آدم وزوجه، وإبليس. حرمان من الجنة وإبعاد منها ومن المنازل العالية التي كانوا فيها.

ب :كشف عما استقر في طبع كل منهما: كل واحد من الجنسين عدو للآخر. وعلى هذا الوضع اقترن تحولهما إلى الأرض. يعمل إبليس بكل ما أوتيه من إمكانات ليضل ما تناسل من آدم، نجاحه وكل همه أن يفسد على الإنسان حياته الروحية ويفقده الطمأنينة ولذة الطاعة وجمال الاستقامة. وغرس في بني آدم شعورهم بعداوة إبليس لهم، فكلما استيقظوا ولم يستطع أن يخدرهم، ابتعدوا عنه وحاربوه في الضلالات التي ينشرها، وبهذا كان للعلماء المصلحين المرتبة العالية عند الله لأنهم هم الذين يقيمون البشر على سواء السبيل، ويساعدونهم بالتالي على تحقيق الخلافة الصالحة في الأرض، ويكشفون لهم عن مداخل الشيطان.

ج :تمكينهم من العيش في الأرض، يستقرون فيها فلا تضطرب بهم، ولا يكون بينهم وبينها تنافر.

ويستمتعون بما فيها من خيرات بما يشمل بالنسبة لآدم وذريته السكن والطعام والشراب واللباس، والزينة.

د :بقاؤهم في الأرض، واستمتاعهم بخيراتها ليس بقاء دائما سرمديا، بل هو إلى أجل مقدر عند الله.

<u>مضمون القول الثاني :</u> كشف عن صلة الإنسان بالأرض، فخاطب آدم، ومن ورائه ذريته، أن حياتهم على وجه الأرض، وأن موتهم في الأرض التي تتقبل أجسادهم فتحتضنها إلى الوقت المقدر لخروجهم منها عند البعث.

26- يا بني...لعلهم يذكرون.

انتقل القرآن بعد ذلك، فخاطب ذرية آدم، مظهرا تفضلا آخر، فبعد أن مهد لهم الأرض لحياتهم ولموتهم، ثم بعثهم منها، ذكرهم بمنة أخرى هي هدايتهم لاتخاذ اللباس الساتر لأجسامهم، بخلق المواد الأولية التي منها يكون اللباس، ثم بهدايتهم إلى تصنيع تلكم المواد حتى تكون صالحة للستر. فقد سبق في الآية قبلها: أن آدم لما تعرى هو وزوجه أسرعا إلى شيء من ورق الجنة يستر هما بعض الستر. وغرس في طباعهم الميل إلى ذلك.

المنة الثانية في اللباس: أنه مع حفظه للبدن من تقلبات الطقس، يرتفع بالإنسان عن الصورة التي عليها الحيوانات، وذلك بفطرهم على الاشمئزاز من بُدُوّ العورة.

المنة الثالثة في اللباس: أنه يضيف إلى جمال اللابس جمالا(وريشا). ومراعاة الجمال ترتفع بالذوق، وتساعد على السمو في كثير من النواحي الحضارية. وما امتن الله علينا به هو دعوة إلينا لمراعاته.

وقد ورد في السنة ما كان يتجمل به رسول الله ﷺ من جيد الثياب. وكل نعمة يكون الإعراض عنها مخالفا للمنهج الذي جاء به الإسلام، كما أن المغالاة فيها تعتبر حيادا عن المنهج أيضا. وقد ضبطت السنة ما يحل للرجال لبسه وما يحرم عليهم، وهو الوسط الخيار.

27- يا بني آدم لا يفتننكم...لا يؤمنون.

وأدمج القرآن الوصاية بالحرص على تقوى الله، حتى تكون لباسا ساترا من الخطيئة ومن النزول إلى دركات الإثم والفسق. إنه لا قيمة للثياب إذا كانت النفس ملوثة بالخطيئة، أو إذا كان الخلق ممزقا بالرذائل. وفي ذلك ما يكون باعثا للتذكر،

تذكرا يقي المؤمن من حجاب الغفلة عن القيم الحق، ومن الاهتمام بالأعراض السريعة التحول والزوال.

وإذ ظهرت المنة بغرس الله في الفطرة الميل إلى ستر العورة والبدن باللباس. والتجمل به ؛ توجه القرآن للبشر جميعا بالتصريح بالنهي عن الانحراف عن الفطرة بطاعة الشيطان فيما يُلبِّس به عليهم من قبول العري.

وهذا كما وقع في الجاهلية بعد محق أبرهة وجيشه لما أراد هدم الكعبة، فكان من جملة ما ترتب على ذلك، أن قريشا سنت سننا لتعظيم حرمتهم في أعين القبائل، منها أنه لا يطوف أحد بالبيت من غير القرشيين ومن تبعهم، إلا عريانا أو أن يعيره قرشي ثيابا يطوف فيها. وتقرر في عقيدتهم أن ذلك قربة يتقربون بها إلى الله. وتقول العرب لتبرير ذلك: لا نطوف في ثياب تدنسنا فيها بالذنوب، ونطوف عراة كما خرجنا من بطون أمهاتنا. كما ظهر في العصر الحاضر العري الكامل في بعض النوادي. وانحرف عدد غير قليل من الإناث فكشفن الصدر، والزند، والفخذ. وشاع لباس الشواطئ الذي لا يغطي إلا السوأتين مع ضغط وقح مصور.

يحذر القرآن من هذا الانحراف بأنه انقياد للشيطان الذي كان سببا في إخراجكم من الجنة بإخراج أبويكم منها (آدم وحواء) وأول ما ابتليا به هو العري وانكشاف عورتيهما مما ارتاعا له وحاولا ستره بأوراق الشجر. وينبه البشر ليكونوا يقظين لما طبع عليه الشيطان من القدرة على التخفي، والتأثير في الإنسان دون أن يراه فالشيطان وذريته وصنفه (قبيله) يتابعونكم ولا يغيبون عن رؤيتهم لكم، وأنتم لا تشعرون بوجودهم.

والتحصن من كيدهم يتم بالإيمان الواضح الحاضر في القلب. إذ الإيمان يطردهم، ومن فقد الإيمان تكون الشياطين له أصحابا، مرافقين مقبولين في الفكر والضمير.

وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفاحشة : الفعل الشنيع القبيح المرفوض.

وادعوه : اعبدوه.

مخلصين : لا يشركون به أحدا.

الدين : الطاعة.

يحسبون : يظنون ظنا غير مستند لدليل.

بيان المعنى الإجمالي :

من فساد تفكير المشركين، أنهم إذا فعلوا أمرا منكرا يرفضه العقل والذوق برروا ذلك بأنه من سنن آبائهم، فاكتسب عندهم بقدمه هذا صدقا وأحقية. ثم زادوا في الضلال فقال: ما سلك آباؤنا هذا المسلك إلا لأنهم تلقوه عن الله، وهذا أشنع من سابقه. ولذا اهتم القرآن بالرد عليهم في افتراءاتهم وأمر رسوله أن يصارحهم بالقول الحاسم : إن الله الكامل الكمال المطلق لا يعقل أن يأمر بما هو منكر قبيح. بلغت بكم الوقاحة أن تقولوا على الله قولا غير مستندين فيه إلى علم يقيني.

ما أمر الله إلا بالعدل المطلق في العقيدة والعبادة والسلوك والتعامل والخلق. أمر أن تتوجهوا له وحده في كل مكان وزمان، وأن تعبدوه مخلصين في عبادته وطاعته، ثم إنكم ستعودون إليه على النحو الذي أنشأكم به أول مرة في حياتكم الدنيا. والحال أنكم فريقان: فريق سمعوا الهدى فأقبلوا عليه والتزموه فثبتهم الله على الهدى؛ وفريق أعرضوا واستمروا ثابتين على ضلالهم، فلم يسعفهم بألطافه، لأنهم اعتمدوا ما يزين لهم الشياطين، وضلالهم مركب، لأنهم يظنون أنهم مهتدون. فهم جاهلون بالحق، وجاهلون بأنهم جاهلون.

بيان المعنى العام :

28- وإذا فعلوا فاحشة...ما لا تعلمون.

هذا المقطع يشنع على المشركين ما يَتَقَوَّلُون به على الله، وينقض ما نسجوه من باطل. فالمشركون إذا صدر عنهم ما هو مرفوض عقلا وذوقا ، مما هو منكر أشد النكارة (فاحشة) أضافوا إلى سوء أعمالهم اعتذارات غير معقولة وفاسدة اختلقوها من أوهامهم؛ وركبوا عليها ما ركبوه. فكان مما برروا به طوافهم بالبيت عراة مثلا، أو تحريم ما حرموه من الحلال، أو تحليل ما أحلوه من الحرام ؛ قالوا معتذرين لمن ينكر عليهم : إن ما نفعله سنده أنه مما ورثناه عن آبائنا، وآباؤنا لا يفعلون إلا ما هو حق وخير، ولا بد أن يكونوا قد أخذوه من وحي بلغهم عن الله.

إنها سلسلة لا تستند للعقل ولا للحواس، ولكنها متخيلة، تخيلوا أن آباءهم منزهون عن الفساد والباطل، ويكفي في أحقيتها قدم عهدها. وأنه لا بد أن يكون الله قد عرف آباءهم برضاه عنها.

29-30، قل أمر ربي...أنهم مهتدون.

وأبطل القرآن كل ما بنوه ؛ بأمره لنبيه ﷺ أن ينقض ادعاءاتهم وأن يواجههم بالتصريح الواضح فيقول لهم: إن الله الكامل الكمال المطلق لا يعقل أن يأمر بما كان ساقطا مذموما من الأقوال والأفعال. وإنكم وقحون وقاحة مرفوضة بقولكم على الله ونسبتكم إليه أشياء لا علم لكم بها وإنما هي من نسج خيالكم، وكفى بالمرء كذبا واختلالا في التفكير أن يقيم تصوراته الموهومة مقام الحقائق الثابتة. إن ما يأمر الله به عباده له سمات تعرف به، وعليه من أنوار الحق ما يجعله لا يلتبس بالباطل. فما هي هذه السمات ؟

السمة الأولى: أن كل ما جاء عن الله يمثل العدل الذي يأخذ بالبشرية في المنهج الوسط الذي لا يميل بسالكه عن الحق. وقد فصلنا بعض ما يكشف عن هذا المنهج في قوله تعالى:(وكذلك جعلناكم أمة وسطا)[33] فكل ما شأنه أن ينحرف بالإنسان عن ذلكم المنهج هو ليس من الإسلام في شيء.

السمة الثانية: أن التوجه في الإسلام لا يكون إلا لله، وأنه دين يتمكن فيه المؤمن من التقرب إلى الله في كل مكان طاهر، والله قريب من العابد أينما كان.

السمة الثالثة: أن من دخل في الإسلام فعليه أن يخلص لله في عبادته، ولا يقصد بأعماله غير خالقه. فالدين في الآية بمعنى الطاعة.

السمة الرابعة: الربط بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة، فالأعمال والنوايا تمتد لتكون حاضرة يوم القيامة لصيقة أصحابها، ومؤذنة بالجزاء العدل عنها. وتصور أن البعث هيّنٌ لأنه لا فارق بين الخلق الأول وبين إعادته.

ثم يصرح القرآن بأن الناس فريقان: فريق اهتدوا، فثبتهم الله على الهدى إلى صراطه المستقيم؛ وفريق ثبتوا على الضلالة التي كانوا عليها من قبل ولزموها ولم يقلعوا عنها. وأعرضوا عن التدبر فيما خوطبوا به. وذلك لجمودهم على ما هم عليه من سلوك المسالك التي ثبتها الشيطان في ضمائرهم، ومن غبائهم أنهم يظنون أنفسهم على هدى.

---

[33] سورة البقرة آية143

• يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

مسجد : مكان سجود وفي المقام الأول بيوت الله التي أذن الله أن ترفع.

نفصل : نقسم ونبين.

البغي : الاعتداء على الغير في بدنه أو عرضه، أو ماله.

السلطان : الحجة والمبرر الحق.

الأمة : الجماعة التي اشتركت في عقيدة.

أجل : إمهال مضبوط أمد حلوله.

جاء أجلهم : حل أجلهم.

يستأخرون، يستقدمون : يتأخرون، يتقدمون.

بيان المعنى الإجمالي :

نداء من خالق الأكوان لجميع البشر من أبناء آدم، يأذن لهم بواسطته أن يلبسوا ما مكنهم منه من لباس يزين ظواهرهم ويستر عوراتهم وأن يكونوا في أماكن العبادة على أتم وضع خلافا لما كان عليه المشركون في وقت البعثة من الطواف بالبيت وأداء كثير من المناسك وهم عراة. وأذن سبحانه لبني آدم أن يأكلوا ويشربوا من الطيبات التي هيأها لهم في الأرض في قصد ودون إسراف، فإن الله لا يحب الذين استولت عليهم شهواتهم فدفعتهم للإقبال على الملذات دون حدود.

وأمر الله نبيه أن يوبخ المشركين سائلا منكرا عليهم تحريم ما أعده الله لعباده من الزينة ومن الطيبات. وأمره أن يجهر بالحقيقة أن ما مكن الله منه عباده يستمتع به المؤمنون في الدنيا دون أن تترتب عليهم أية مسؤولية في الآخرة، وأن صنوف الترفيه ستتوفر لهم يوم القيامة خالصة لهم لا يشاركهم فيها الكافرون. على هذا

النحو من التفصيل والتدقيق يجري البيان الإلهي لعباده الذين ينتفعون بما يعلمونه.
ثم رد القرآن على المشركين تدخلهم في التحريم والتحليل ونسبتهم إلى الله ما وضعوه من عندهم، وذلك ببيان ما حرمه الله. فالله لم يحرم إلا خمسة أمور:
1)الفواحش أي الأمور الشديدة القبح المرفوضة خلقيا وعقليا سواء أكانت ظاهرة أو يعمل الفاحش على سترها.
2) فعل ما يترتب عليه عقوبة. وهي الآثام التي نهى الشارع عنها.
3)التعدي على الناس وظلمهم في أجسامهم أو أموالهم أو أعراضهم.
4)الإشراك بالله في ذاته وصفاته وأفعاله، أو اتخاذ وسائط بين المخلوق والخالق.
5) الكذب على الله بنسبة ما لم يثبت بدليل صادق أن الله أمر به. لا يذهب الأمل طويلا بهؤلاء المكذبين، فإن الله كتب على كل جماعة تساندت على الباطل والضلال أنها منتهية إلى الاستئصال في الوقت المحدد لها، لاتتقدم عنه ولا تتأخر عنه.

بيان المعنى العام :

31 -يا بني آدم...لا يحب المسرفين.

هذا خطاب لجميع البشر، يأمرهم خالقهم وخالق ما في الأرض جميعا أن ينتفعوا بما أودع الله في أرضه من ضروب الزينة عندما يقصدون أماكن العبادة، وفي ذلك إبطال لما رسمته الجاهلية من العري في الطواف بالبيت، وفيه أيضا دعوة للمسلمين أن يتطيبوا ويلبسوا ما يظهروا به في مظهر محترم في كل موضع سجود، إن في العناية بحسن اللباس ما ينمي شعور الشخص بعزته وكرامته، الأمر الذي ينأى به عن النزول إلى الحطة ومراتب الهوان.
وكما أمر القرآن بالستر وأخذ الزينة في المساجد، فكذلك دعا الناس إلى الاستمتاع بما مكنهم من طيبات المآكل والمشارب. فالمنهج الإسلامي ليس في الحرمان من تلكم الطيبات وحسن اللباس، لكن في الإقبال عليها دون إسراف وتجاوز للحد المقبول دينا وصحة. ويشمل الإسراف تناول ما حرمه الله، والمبالغة في الإقبال على الأكل وما يقترن به من تخمة وما يتبعه من سمنة تبلد الذهن، وتثقل الجسم، وتدعو إلى الكسل والنوم. وقد قدمنا شيئا مما يتعلق بالإسراف في شرح قوله تعالى: (إنه لا يحب المسرفين)[34] وفي التوجيه الذي تضمنته الآية ما يلفت نظر

---

[34] سورة الأنعام آية141

البشر إلى ما تميز به الإسلام من قرن ما ينفع الإنسان في دنياه بما ينفعه في أخراه، فالتزاوج بين الدنيا والآخرة في نظر الإسلام طابع يتميز به عن جميع الديانات الأخرى، فهو يدخل تنظيم أمور الحياة الدنيا في صميم الدين.

32- قل من حرم...لقوم يعلمون.

وبخ القرآن المشركين فاضحا ما التزموه من فساد، وما أدخلوه في عقائدهم من ضلالات حرفوا فيها الحق، فحرموا أنفسهم من كثير من الخيرات كالستر، وأكل طيبات لا ضرر فيها لا على الجسم ولا على الروح، كتحريمهم أكل الدسم في أيام الحج، وتحريم البحيرة وما عطف عليها. فوجه القرآن سؤالا إنكاريا مضمونه أنه لا دليل ولا سند لمن حرم زينة الله التي أخرجها لعباده لتسمو أذواقهم وتتفتح لهم أبواب وطرق يرقون فيها إلى مستويات رفيعة من الحضارة، وأدمج في السؤال ما ينفي وجود جواب عما أحدثوه، وذلك بإسناد هذه الزينة إلى الخالق الذي أوجدها لينعم بها عباده. فالمشركون بتحريمهم ما حرموا كأنهم وقفوا بين الخالق وبين خلقه، وبوصف الرزق بالطيب الذي لا ضرر في تناوله ما ينفي أي سند لما أحدثوه. فالسؤال المنكر يشرح تعسفهم واقتحامهم ما لا دخل لهم فيه بأي وجه من الوجوه. ولذلك كان هذا السؤال لا يقتضي جوابا لفقدان الجواب، فعقبه القرآن بإعلان الحقيقة : إن تلكم الزينة والطيبات من الرزق ينتفع بها المؤمنون ولا يجدون في ذلكم الانتفاع حرجا لأنهم يقبلون عليها وفي ضمائرهم أنهم يتناولونها بإذن من خالقها يطيعونه فيما أذن فيه ولا يرفضون الإقبال على ما امتن به.

وأنهم سيلقون ربهم دون أن تعلق بهم مؤاخذة عما تنعموا به منها، وأن الله سيخصهم وحدهم يوم القيامة بأنواع من الفضل لا يشاركهم الكافرون فيها. ويفهم من الكلام أن المشركين حرموا أنفسهم بغير وجه من بعض ما أذن الله فيه، وأنهم لا نصيب لهم منها في الآخرة.

تأملوا فيما تحرر في هذه الآيات من الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام وعدم التداخل بينها وسد الثغرات التي ينحرف فيها الفكر الإنساني فيحل الحرام أو يحرم الحلال. إنه على هذا النحو سنتابع التوضيح والتبيين للقوم العالمين المنتفعين بعلمهم، لا الذين يعلمون ويخالفون مقتضيات ما يعلمونه.

33- قل إنما حرم ربي الفواحش...مالا تعلمون.

ويتوجه القرآن للنبي ﷺ فيأمره بإعلان ما حرمه الله، ذلك من متتبعات قوله في نهاية الآية السابقة : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) عددت الآية من المحرمات.

1) الفواحش : جمع فاحشة وهي الفعل الشنيع في قبحه والخلق الدنيء الذي يستحيي منه أصحاب المروءة، واللفظ البذيء الذي يستحي من النطق به أو من سماعه المؤدّبون من الناس.

والفواحش نوعان: فواحش تعلن وخاصة إذا انحط الرباط الاجتماعي وانهزمت القيم الخلقية في المجتمع. وفواحش يقوم بها الفاحش دون أن يعلن أنه هو صاحبها، كالزنا والحسد.

2) الإثم : وهو ما نص الشارع على تحريمه من الأقوال والأفعال التي يعتبر فاعلها عاصيا. ويشمل هذا جميع المحرمات بالشرع.

3) البغي : وهو التعدي على الآخر، وألحق بالبغي وصفا كاشفا (بغير الحق) تشنيعا على البغاة. لأن البغي لا يكون إلا بغير حق، وما كان بحق لا يعد بغيا فمن البغي الاستحواذ على المال أو السب والتعريض أو التكبر.

4) الإشراك بالله: وهو أصل الفساد وسبب قوي لاختلال بوصلة التوجيه في الحياة. وكشف عن الإشراك، بإلحاق أنه لا يستند إلى حجة ولا إلى عقل ولا إلى مشاهدة.

5) التجاوز المرفوض بالقول على الله بدون علم، بنسبة تشريع إليه لم ينزله على لسان رسله ولا في كتاب من كتبه.

يختم هذا المقطع بعرض قاعدة تجري مجرى الأمثال، صالحة لتأكيد مضامين ما تقدم، وللاحتجاج بها فيما يعرض للمؤمن في حياته.

34- ولكل أمة أجل...يستقدمون.

قدر محتوم أجراه الله على كل فريق ضل الطريق فكذب على الله، وغير أحكامه وعقد عقد ولاء مع الشيطان يأتمر بما يوحيه إليه مما سجله القرآن في الآيات السابقة، أن الله يمهله ولا يهمله، وأن مآله مقدر أجله فينفذ عنده الحكم الإلهي. وهكذا تم في عصابة السوء من مشركي مكة، فهم لم يمضوا بعيدا حتى تم استئصالهم عند الأجل الذي قدر لهم، وسطع نور الإسلام في مكة وخلصت العبادة فيها لله وحده. ولم يستطيعوا أن يتقدموا أو يتأخروا عن الأجل المحدد.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (35) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (36) فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ

بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

يقصون : يتلون، يسردون ويوردون.

آياتي : من الكتب المنزلة، وما أيد الله به رسله من العلامات الدالة على صدقهم.

ينالهم : يصيبهم.

نصيبهم : حظهم.

الكتاب : يحتمل أن يراد به القرآن، أو ما قدره الله.

رسلنا : ملائكتنا.

يتوفونهم :ينزعون أرواحهم من أجسادهم.

قد خلت : مضت وانقرضت.

اداركوا : تلاحقوا واجتمعوا في النار.

أولاهم : السادة المتبوعون.

أخراهم : التابعون.

ضعفا: أشد وأكثر.

بيان المعنى الإجمالي :

خطاب تكرر على ألسنة الرسل، وتعاقب التنبيه إليه، مضمونه : دعوة من الله إلى جميع البشر أنه تكفل سبحانه بمساعدتهم على اتّباع طريق الهدى بإرسال رسل غير مجهولين لديهم، هم منهم يعرفونهم، مهمتهم أنهم يقيمون لكم الأدلة البينة التي توضح العقيدة وتحدد المنهج السلوكي الذي يرضى الله عنه، وينبهونكم إلى أنه من لبس ثوب التقوى وعمل صالحا يظفر بالأمن السابغ، فلا هو يخاف من المستقبل

ولا هو يحزن عما مضى. وأما الذين كذبوا بالآيات التي لفت المرسلون إليها أنظارهم، ورفضوا الانتفاع بها استكبارا، فقد عقدوا بينهم وبين النار عقدا لا ينفك.

إن هذا الجزاء هو جزاء عدل يطابق ظلمهم، لأن الذين ينسبون إلى الله كذبا وافتراء، التشريع الذي اختلقوه، والذين كذبوا بآيات الله، هم حسب المعايير للخير والشر يعتبرون أشد الناس ظلما لجراءتهم على ربهم. إنهم سيلحقهم النصيب الذي قدر لهم من العذاب، وعندما يأتيهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم يقرعونهم، ويعرضون عليهم منازلهم من العذاب ويقولون لهم: أين الآلهة التي اعتمدتم عليها تدعونها في كل أمر عسير لقضاء حوائجكم ؟ يكون جوابهم بكل حسرة بعد انكشاف الأمر: لم نجدهم كأنهم تاهوا فذابوا، وأعلنوا الحقيقة المرة: أنهم كانوا كافرين.

وإذ شهدوا على أنفسهم بالكفر ولم يبق لهم مقال بعد ذلك، ينادي رب العزة إذلالا لهم وتنفيذا لما كان كتب لهم: انضموا إلى الجماعات الكافرة التي مضت قبلكم من الجن والإنس ليكون منكم جميعا ركام، تحية القادمين الجدد لمن سبقهم الدعاء إلى الله أن يلعنهم ولا يمكنهم من أي قبس من رحمته. ثم يرتفع ضجيج في جهنم بين الذين كانوا مقدمين في الدنيا وأثروا في غيرهم فاتبعوهم، وبين التابعين، يسجل القرآن ما يجري فيه. يرفع التابعون حناجرهم بالشكوى والدعاء.

هؤلاء الرؤساء في الدنيا أضلونا فأنزل بهم ربنا عذابا شديدا مضاعفا. ظنا منهم أن عذابهم بذلك يكون أخف منهم. نقض الله ظنهم بأنه قدر أن يكون للتابعين والمتبوعين عذاب شديد، ولكنكم لا تعلمون. إن العذاب ينزل بكم لأنكم رضيتم بالكفر ومكنتم لرؤسائكم من توجيهكم لأنكم بطاعتكم إياهم أغريتموهم وعارضتم الرسل بمحض اختياركم فأنتم مسؤولون عما قمتم به لا يتحمل عنكم من أطعتموهم شيئا. وقال المتبوعون (أولاهم) عذابنا وعذابكم سواء لاستوائنا في الكفر والتكذيب فليست لكم أي مزية يتبعها تخفيف العذاب عنكم وحدكم، فذوقوا العذاب بسبب ما اكتسبتموه من شرٍّ في الدنيا.

بيان المعنى العام:

35-36: يا بني آدم إما يأتينكم...خالدون.

هذا خطاب رب العزة توجه به إلى جميع البشر بفضل عنايته بهم وإرادة الخير لهم. نعَمْ إن الله خلق البشر مزودين بالإدراك والاختيار، وقدر أن يتحملوا المسؤولية عما يفعلونه ويختارونه. ولما كانت الشهوات والغرائز لها دورها في توجيه الإنسان، وأن الشيطان انتصب عدوا له، يسعى لإغوائه وإبعاده عن طريق

الهدى، كان من لطف الله بالبشر أن وجه لهم الرسل الذين يحملون الهداية الربانية، يوضحونها ويحببونها لهم ويقنعونهم بانسجامها مع فطرهم ومع العقل الذي به تم استخلافهم في الأرض. فخاطبهم في هذه الآية خطابا وكل به جميع الرسل من عهد آدم واستمر التذكير به إلى الزمن الذي ختمت فيه الرسالة بإمام المرسلين وخاتمهم محمد ﷺ .يقول الله لكل رسول: بلّغْ البشر أن الله يأمركم أنه كلما جاءكم رسل بشر تعرفونهم، جاءهم الوحي من عند الله يروون لكم الآيات التي تلقوها من ربهم، فأطيعوهم واعملوا بما جاؤوكم به من عندنا. وطوى جواب الشرط(أطيعوهم) ليصرح بمعناه بواسطة تقسيمهم قسمين شاملين لجميعهم:

القسم الأول: من وجه عزمه ليقي نفسه غضب الله وعقابه، فاتقى ذلك بالطاعة وصادق العقيدة، ووجه إرادته إلى الإصلاح في عمله وفي علاقاته بالناس وبالكون. وتقرر الآية الجواب الذي هو الجزاء، أنه آمن فلا يلحقه أي من أنواع مكاره النفس وأنكارها. وتفيد الصياغة أنه آمن من مفاجآت المستقبل، ولا يجد فيما فاته من عمله وسلوكه ما يدخل الحزن على قلبه.

القسم الثاني :الذين كذبوا بآيات الله وأقاموا من عنادهم سدا يحجب عنهم التأمل في آيات الرسل، وأصيبوا بما أصيب به إبليس من الاستكبار وابتلوا بجرثومة جنون العظمة، الصلة بينهم وبين النار مؤكدة، لا يفارقونها ولا تفارقهم، شأن الصاحب مع صاحبه، وأن هذا المصير في النار لا ينفك عنهم إلى أبد الأبدين.

37-فمن أظلم ممن افترى...أنهم كانوا كافرين.

مفهوم الظلم الاعتداء على الحقوق، ويكون ذلك إما إنكارا للحق، وإما نابعا من الكبر وتخيل المستكبر أن له أن يفعل ما يشاء. فارتبطت الآية بالقسم الثاني من الآية السابقة. وعندما تبلغ جراءة الظالم أن يكون متعديا على ما يجب لله سبحانه من التقديس، فيكذب على الله ويرى أن ما زينه له هواه هو الحق الذي حكم الله به. أو يكذب ما بلغه من هداية رسله، عندما تبلغ جراءته هذا الحد يكون بلا شك أظلم الناس، وأشدهم وقاحة. إن هؤلاء الظلمة، وقد أجرى عليهم ما يعزلهم عن الصالحين فتميزوا، سينال كل واحد منهم نصيبه من الوعيد الذي أنذرهم به القرآن، أو المعنى: ينالهم النصيب من العذاب الذي قدره الله لكل واحد منهم تبعا للفساد الذي ترتب على أعماله وسعيه المخرّب. كما يمكن حمل الآية على بلوغ ما قدره الله من الرزق ومن الإمهال وعدم معاجلتهم بالعذاب.

وإذ قد صرحت الآية على أن الظالمين بالكذب على الله وتكذيب آياته سينالهم نصيبهم مما قدر لهم ومنه ما وصفه القرآن، وفي هذا الظرف يأتيهم ملائكة الله فيقتلعون أرواحهم من أجسادهم. وعند ذلك يواجه كل ملك الذين أوكل إليه نزع أرواحهم بالاحتقار والتقريع، ويري كل واحد منهم مقعده الخاسر في العذاب قائلين: أين شركاؤكم الذين كنتم تدعون أنهم ينصرونكم عند الشدائد ويدافعون عنكم ؟

كان جوابهم: ما وجدناهم فلا نعرف مواقعهم ولا يعرفون مواقعنا، وهو تجسيم لشعورهم بضلالهم، وأعلنوا تبعا لذلك مقرين شاهدين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين بالحقائق التي بلّغتها إياهم رسلهم.

38-39، قال ادخلوا...بما كنتم تكسبون.

إنه إثر هذه الشهادة وهذا الإقرار يبلغ أسماعهم صوت الحق يُنفّذ فيهم حكمه فيوقنون بمصيرهم الخاسر، يقول لهم: انضموا ممتزجين بالجماعات التي انقرضت وسبقتكم، بعضهم من الجن وبعضهم من الإنس، فادخلوا جميعا مستقرين فيما أعد لكم من النار.

ثم تعرضت الآية لنوع من أنواع المهانة التي تنالهم، بنقض ما كانوا عليه في الدنيا. لقد كان الكافرون في الدنيا يتناصرون ويؤيد بعضهم بعضا، ويتقاسمون الأدوار ليكيدوا الرسل وأتباعهم؛ فبمجرد ما يدخلون النار تنقلب المودة والموالاة إلى أشد ما يكون من البغض والعداوة وحب التشفي. كلما دخلت جماعة فألقيت في لهب النار حياها من سبقها في النار بلعنة مجلجلة. ويستهزئ النص القرآني بهم فيطلق عليهم لفظ الأخوة (أختها)، أخوة التبرؤ والتشفي والابتهال بإبعادهم، فلا يقسم لهم شيء من الرحمة. وبعد وصف بعض ما تلقاه وفود النار من اللعنة والتباغض وذهاب كل الروابط التي كانت تربطهم في دنياهم، يصفهم إثر ذلك وقد تتابعوا في النار فحوتهم جميعا، يكشف القرآن عن بعض من علاقاتهم في النار وكيف ينظر الأتّباع للرؤساء الذين كانوا يدينون لهم بالطاعة المقرونة بالإكبار، وبماذا يواجهونهم؛ وفي المقابل ماذا يقول المتبوعون لتابعيهم وقد تمزقت كل الصلات وانقلبت إلى ضد ما كانت.

يقول الأتّباع [أخراهم]،الذين كانوا في الدنيا يسارعون لتنفيذ ما يمليه عليهم متبوعوهم، ويحتمُون بهم، يقولون :ربنا إن الوزر يتحمله هؤلاء المستكبرون الذين أضلونا وحالوا بيننا وبين الإيمان، فأنزلْ عليهم ربنا أشد العذاب وأقساه من النار. فهم قد امتلأوا من الحقد والبغض والشماتة بالذين كانوا يلوذون بهم ويتبعونهم. ويعلن الله: أن التابعين والمتبوعين لكل منهم العذاب الشديد. ولكن جهلكم هو الذي

حملكم على تقديم هذا الطلب، إن مسؤوليتكم عن ضلالكم تتحملونها بإعراضكم عن الرسل، وقد رزقتم العقل المدرك، وعرض عليكم الرسل الحقائق مجلوة واضحة، واخترتم بأنفسكم اتباع رؤسائكم، بل إن في طاعتكم لهم إغراء لهم في التمادي على الكفر واستكبارهم، ولكنكم لا تعلمون أنه لا يتحمل أحد وزر غيره. وينطلق من جهنم صوت الرؤساء [أولاهم] قائلين : كذبتم ليس لكم علينا أي مزية ولا فضل، فنحن سواء في ظلام الكفر، كذبتم الرسل كما كذبنا، وتابعتم شهواتكم كما استمتعنا، وانزلقتم في الفساد معرضين عن الآيات كما انزلقنا، اكتسبتم مختارين جميع أفعالكم ، فذوقوا عذاب النار اليوم بسبب ما كسبتم من الآثام.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ (40) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (41) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (42) وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (43)

بيان معاني الألفاظ:

لا تفتح لهم أبواب السماء : كلمة جامعة تدل على حرمانهم من جميع الخيرات والألطاف الإلهية.

الجمل : حبل غليظ تشد به السفينة، والحيوان المعروف، وهو أضخم الحيوانات الأهلية.

سم الخياط: ثقب إبرة الخياطة.

مهاد: فراش.

غواش: جمع غاشية، وهي الغطاء.

المجرمين : المرتكبين للجرم: الذنب.

نزعنا: أزلنا.

غل : حقد.

بيان المعنى الإجمالي:

تبين الآيات جزاء المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن عبادته في جميع الظروف والأزمان. فالعقوبة الأولى أن أعمالهم لا يكتب لها القبول ولا ترتفع إلى الصالحات المقدر لها المثوبة عند الله، ولو ترتب عليها نفع للناس. والعقوبة الثانية أنه يتبع إحباط أعمالهم أن دخولهم للجنة دار الكرامة مستحيل كاستحالة دخول الحبل الغليظ الذي تربط به السفن في ثقب إبرة الخياط. إن جزاءهم هذا هو جزاء المجرمين، وهم مجرمون. ويفصل القرآن وضعهم في جهنم بأن تحتهم نار تلهب، وفوقهم طبقات من النار. وعلى هذا النحو يجزى جميع الظالمين. وهم بتكذيبهم واستكبارهم قد ظلموا.

وأما الذين استقر الإيمان في قلوبهم، وفاض على أعمالهم فكانت صالحة حسب المعيار الشرعي، يتميزون بأنه بينهم وبين الجنة رابطة قوية كأنها صحبة، هم مخلدون في نعيمها. لقد فازوا بدون مشقة لأن الله لا يكلف البشر إلا ما يطيقونه فضلا منه. وتعرضت الآية لوضعهم وهم يتقلبون في النعيم، فقلوبهم عمرت بالمحبة والود بعد أن نزع الله منها الحقد والبغض، وأنهم يسكنون الجنة التي تتخللها الأنهار الجارية بما يصحب ذلك من جمال أخاذ للطبيعة وهدوء. وقد امتلأت أرواحهم من الرضوان فعبروا عن ذلك بالتوجه إلى الله حامدين مثنين على فضله الذي ابتدأ في الدنيا بهدايتهم إلى طريق النجاح والفوز، معترفين أنه لولا ألطافه سبحانه ما كان لهم أن يبلغوا هذا المقام، وصرحوا بما تقرر عندهم في الدنيا وانكشف لهم عيانا في الجنة فقالوا: لقد صدق الرسل فيما بلغونا.

ويبلغ النعيم ذروته عندما يخاطبهم الله بقوله : إن تلكم الجنة التي وعدكم بها رسلكم، قد أصبحت ملكا لكم كما يملك الوارث مال مورثه، بسبب ما قدمتموه من أعمال نالت مرضاتي.

بيان المعنى العام:

40-41: إن الذين كذبوا بآياتنا... نجزي الظالمين.

خلاصة لما بسط وقرّر في الآيات السابقة مما كتبه الله للمستكبرين والمكذبين، وتأكيد له، وإعلام بما يفيد ملازمة السخط لهم ويأسهم من رحمة الله أو الخروج من العذاب. فجسّم هذه المعاني بأن أبواب السماء لا تفتح لهم.

ويراد بأبواب السماء والله أعلم، المسالك التي يؤذن للمقبولين المرضي عنهم من البشر أن ينفذوا منها والتي ترفع منها قرباتهم وأعمالهم الصالحة إلى مراتب

القبول. فهي ليست أبوابا من خشب أو حديد، أو ذات مصاريع، وليست لها أي سمة من سمات المادية. ونظيره أن يقول القائل: ذهبت للتجارة في تونس فوجدت جميع الأبواب مفتوحة، هو يقصد التيسير الذي صحبه في سعيه. وبالمقابل قد يذكر أنه سعى لتوظيف ابنه مثلا فوجد جميع الأبواب مغلقة، يعني أنه باء بالخيبة ولم يتمكن من تحقيق ما أراده، وكان الرفض الحصيلة التي انتهى إليها. فيكون المعنى والله أعلم: إن الذين كذبوا بآيات الله واعتبروا أنفسهم أعظم من أن يطيعوا ما جاءتهم به الرسل، لا يطمعون أن يقبل منهم أي عمل قاموا به، والرحمة الإلهية مقطوع أملهم منها، ومقامات السمو لا يصلون إلى مرتبة من مراتبها. مما يفيد حرمانهم من جميع الخيرات المدخرة من فضل الله لعباده يوم القيامة. ولا ينافي هذا أن ينالوا من رزق الله في حياتهم الدنيا المتاع القليل، والآئل إلى الزوال السريع. ثم علق القرآن دخولهم للجنة على أمر اجتمعت فيه الاستحالتان العادية والعقلية، مما يفيد نفيه على أبلغ صورة بتعليقه على دخول الحبل الغليظ في ثقب إبرة الخياط.

أما الاستحالة العادية فمعلوم أن ثقب الإبرة لا يمكن أن يدخل فيه الحبل الغليظ الذي تشد به السفن عادة. وأما الاستحالة العقلية فإن احتواء الأصغر للأكبر مناقض لمقتضيات الحكم العقلي. وإذ استحال دخول الجمل في ثقب الإبرة عاديا وعقليا فكذلك يستحيل دخولهم إلى الجنة. وعلى هذا النحو من العدل في الجزاء، واستحالة أن يجدوا روْحا من رحمة الله، على هذه الطريقة نجزي الآثمين المجرمين الذين حُددت لهم في حياتهم الحدود، فاقتحموها ولم يذعنوا.

إذ استحال دخولهم إلى الجنة عاديا وعقليا كما أفاده الأمر المعلق عليه، فإلى أين يصيرون؟ مصيرهم إلى جهنم تحتويهم احتواء كاملا، فتكون لهم فراشا من تحتهم وغطاء من فوقهم. وعلى هذا النحو يجزي الله الظالمين يصلوْن نار جهنم التي استحقوها بسبب ظلمهم، من التكذيب والاستكبار.

42-والذين آمنوا...هم فيها خالدون.

وفي المقابل فإن من صفَتْ سرائرهم بحلول اليقين الإيماني فيها، ثم انسجمت أفعالهم مع ما تقتضيه العقيدة فصلحت وخلصت مما يفسدها أو يشوهها، تميزوا بأن الله هيأ لهم الجنة ينفردون فيها بالنعيم الذي لا ينفد. وأدمج فيما خصهم به من نعيم منة أخرى؛ أن فوزهم بتلكم المرتبة تم لهم بلوغه مع التيسير عليهم وعدم الحرج إذ لم يكلفوا فوق ما يطيقون.

43- ونزعنا ما في صدورهم...بما كنتم تعملون.

ثم اعتنى القرآن بتفصيل ما ينعمون به يوم القيامة. فمن النعم التي ذكرها:

صفاء قلوبهم فقد نزع الله من قلوبهم الغل، اقتلعه من جذوره فلم يبق له أي أثر. والغل هو الحقد الذي يملأ نفس من بلغه سوء من غيره، فإذا هو يتحرق للانتقام ويهنأ بالشماتة، وبصفة عامة تكون سعادته في شقاء الطرف الآخر وغمّه في سعادته. ووصْف أهل الجنة بهذا الوصف يفيد تمام التآخي والود بين ساكنيها، هو على الضد من وضع أهل النار كما تبين لنا في الخصام المحتدم بين التابعين والمتبوعين في الآية السابقة؛ وهذا نعيم نفسي. وقد أبدع شوقي لما وصف هذا المستوى في مناجاته لربه:

وتشهد ما آذيت نفسا ولم أضر *** ولم أبغ في جهري ولا خطراتي

ولا غلبتني شقوة أو سعادة *** على حكمة آتيتني وأناة

ولا جال إلا الخير بين سرائري *** لدى سدة خيرية الرغبات

ولا بت إلا كابن مريم مشفقا *** على حسدي مستغفرا لعداتي

نعيم مادي ذكر منه أن الجنة يتخللها الأنهار الجارية، بما يصحب ذلك من الخضرة والجمال ورونق الحياة

نعيم روحي ذكر منه: ابتهالاتهم إلى الله بحمده على نعمه التي حباهم بها، فالحمد تعبير عما امتلأت به المشاعر من إحساس بفضل الله عليهم، اعترافا منهمْ بأن ما نالوه ما كان ليتحقق لولا أن الله تفضل عليهم فهداهم، وجنبهم مواقع الفتنة والوقوع في شراك إبليس وأعوانه، ونوازع النفس الأمارة. ويتمثل لهم ما قام به المرسلون من تبليغ هدايات الله، وأن ما حُظوا به هو من جملة ما أخبروهم به، فارتفع من حناجرهم ما يفيد هذا الاعتراف: لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

بعد أن يعم النعيم السابغ مشاعرهم وأرواحهم وأجسامهم بما يمثل السعادة في قمتها، يتفضل رب العزة على أصحاب الجنة فيناديهم بما يفهمون منه ما تعلقت الإرادة الإلهية بتبليغه إليهم وهم في هذه النشوة :إن الجنة التي كنتم تعتقدون أنها صدق وحق، قد مُكنتم منها كما يتمكن الوارث من مخلف مورثه بلا منة، بفضل صالح أعمالكم. وفي التنويه برضا الله عنهم وعن أعمالهم في الدنيا نعمة عظيمة تفوق ما سبق من النعم.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (45) وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ (46) ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (47) وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ (48) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ (49)

بيان معاني الألفاظ:

وجد: ألفى، ولقي.

وعد: يطلق الوعد على الوعد بالخير، وعلى الوعيد بالشر.

أذن: رفع صوته بالنداء ليسمعه البعيد فضلا عن القريب.

لعنة الله: الإبعاد من فضل الله وتكريمه.

صد: صرفهم الناس عن الهدى بإذايتهم.

سبيل الله: الطريق الموصل إلى مرضاته.

يبغونها عوجا: يعملون على إظهار طريق الله محرفا معوجا.

حجاب: حاجز مانع من الاتصال.

الأعراف: جمع عرف وهي أعالي الشيء كعرف الفرس والديك.

صرفت: تم لفت أبصارهم.

سيماهم: العلامة المميزة.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن استقر أصحاب الجنة في منازلهم منها، وشرفهم ربهم بخطابه أنما أفاء به عليهم من نعمة هو جزاء ما قاموا به من صالح الأعمال ،يفصل القرآن مشاهد من العلاقات بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.

المشهد الأول : نداء أصحاب الجنة أصحاب النار نكاية فيهم، يقولون لهم: قد مكننا ربنا مما وعدنا، فهل مكنكم أنتم أيضا، ويجيبون: نعم ! ويرتفع صوت يملأ

الأسماع: صب الله لعنته على الظالمين الذين منعوا الهداية من أن تنطلق إلى جميع القلوب ، وحرفوها لصرفها عن حقيقتها إلى صورة معوجة، وأنكروا البعث.

المشهد الثاني: حاجز عظيم بين أهل الجنة وأهل النار، يقوم على أعاليه رجال (أصحاب الأعراف) ولم تحدد الآية من هم أصحاب الأعراف إلا بالمكان الذي هم فيه، مكان مرتفع بين الجنة والنار. وبناء على ذلك اختلف الناظرون في تعريفهم، فحملهم البعض على أنهم من الكمل من المؤمنين استنادا إلى أنهم في مكان عال فوق الحاجز، ورأى آخرون أنهم ملائكة سموا رجالا لقوله تعالى ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا، وعند مجاهد والحسن هم فضلاء المؤمنين، وقيل هم الشهداء، وذهب بعضهم إلى أنهم ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا لم يفوزوا بدخول الجنة مع السابقين ولم تغلب سيئاتهم فيكونوا من الداخلين إلى النار، وأرجح الرأي الثاني استئناسا بقوله تعالى : {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم}[35] ولأنه هو الذي ينسجم مع سياق الآية ولا يحتاج إلى كثير من التأويل لما يرد بعد. ينظر أهل الأعراف إلى أهل الجنة فيحيونهم بالسلام، ويعظم شوقهم إلى الالتحاق بهم، وهم آملون في فضل الله أن يحقق لهم ذلك.

المشهد الثالث: تُوجّه أبصارهم بقدرة خارجة عن إرادتهم إلى جهة أصحاب النار، فيشتد خوفهم ويبتهلون إلى الله أن لا يجعل نهايتهم معهم.

المشهد الرابع : ينادي أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار عرفوهم في حياتهم الدنيا، وبقيت سماتهم ومشخصاتهم غير مختلطة بغيرهم، فيخاطبونهم بما يزيد في إهانتهم وتحريك ما يؤنبهم قائلين : لم يغذكم ما جمعتم من مال وما كثر حولكم من عصبية، ويضيفون : تذكروا ضعفة المؤمنين الذين كنتم تحتقرونهم وأقسمتم أنه حتى لو فرض أن الجنة حق فإن هؤلاء لا يدخلونها. انظروا إليهم وقد سبقوا إلى منازلهم العلية في الجنة. وهذا من العذاب النفسي الشديد عندما يرى المستبدون المستكبرون من كانوا يحتقرونهم في أعلى درجات النعيم، وهم في أحط دركات العذاب والمهانة.

المشهد الخامس : يؤذن لأصحاب الأعراف أن يلتحقوا بأماكنهم في الجنة لا خوف عليهم من زوال النعيم، ولا يبقى في نفوسهم حزن يكدر عليهم نعيمهم

---

[35] سورة التوبة آية 102

بيان المعنى العام :

سجلت الآيات السابقة ما يجري على ألسنة الأبرار في الجنة، وما يجري على ألسنة الأشرار في جهنم. وتناول النص القرآني بعد ذلك بعض ما يجري بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.

44-45: ونادى أصحاب الجنة...بالآخرة كافرون.

المشهد الأول : ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار وبينهما مساحات شاسعة، ولكن حال الآخرة غير حال الحياة الدنيا، فالصوت وإن كان من بعيد يسمعه من توجه إليه الخطاب؛ ينادونهم مع التبجح عليهم وإظهارا للنكاية بهم، ومضاعفة كروبهم، معلنين أنهم قد سعدوا بما أفاء الله عليهم مما وعدهم به من الكرامة والنعيم؛ وهذا الإخبار يضاعف ألمهم النفسي، وهم على أسوأ حالة من المهانة والعذاب. ثم يُلقون على أصحاب النار السؤال التالي: هل ألفيتم ما وعدكم ربكم من الجزاء، فلقيتم ما وصفه لكم المرسلون؟ ويجيبونهم في انكسار : نعم ! وليس القصد من السؤال تلقي الجواب، وإنما يلهم الله أهل الجنة أن يتوجهوا بهذا السؤال المعلوم جوابه، تكريما لهم، ونكالا وإهانة لأصحاب جهنم، وإيقافهم على استحقاقهم العذاب بما قدموا. كقولك لمن يلعب بالبارود وكنت نبهته، فانفجر عليه وتشوه؛ هل لقيت نتائج اللعب بالبارود؟

المشهد الثاني: يرتفع صوت مُدوّ يخترق الأبعاد ينادي: لعن الله لعنة مجلجلة تحجب الكافرين الظالمين عن نوال أي نصيب من رحمة الله. الذين فسدوا في الدنيا وأفسدوا، الذين كانوا يقفون حاجزا لمنع الناس من الاهتداء بما بعث به الرسل، ويحولون بينهم وبين اتّباع المسالك المبلغة لمرضاة ربهم، ويجهدون أنفسهم لتحريفها وإظهارها في مظهر غير مستقيم تنفيرا منها، ويرفضون الإيمان بيوم البعث.

46-وبينهما حجاب...وهم يطمعون.

المشهد الثالث: يصور حاجزا بين الجنة والنار؛ ولا يذهب بك التصور إلى تجسيمه حسب العرف الدنيوي، فهو أمر من أمور الآخرة قربته الآية بما تسمح به اللغة. يقوم على أعاليه قوم لم يدخلوا الجنة بعد، وهم يطمعون راجين أن يسعفهم الله برحمته فيأذن لهم بدخولها. يخاطب هؤلاء القائمون على الأعراف، وقد انكشف لهم أصحاب الجنة وأصحاب النار ويجري بينهم وبين الفريقين الحوار التالي : يتوجهون أولا إلى أصحاب الجنة فيبادرونهم بتحية الإسلام (سلام عليكم) نالكم من

ربكم الأمن والإكرام، فهنيئا لكم ما أنتم عليه من النعيم. وتصف الآية ما يجري في باطن أهل الأعراف وهم يخاطبون أهل الجنة، وقد اطلعوا على حياتهم فيها، أنه تضاعف شوقهم إليها إذ هم لم يدخلوها بعد، وهم طامعون في شمول رحمة الله لهم ليأذن لهم باللحاق بأهلها.

47-وإذا صرفت أبصارهم...القوم الظالمين.

ثم يُوَجّهون فتقع أبصارهم على أهل النار، فيسارعون بالدعاء أن يبعدهم عن القوم الذي ظلموا فاستحقوا العذاب، وأن لا يجعل بينهم وبينهم أي صلة. وفي إسناد الفعل للمجهول(صُرِفَتْ) ولم يعبر بصرَفوا، إشارة إلى الفرق بين نظرهم إلى أصحاب الجنة الذي تبعه مبادرتهم بندائهم وبالسلام وشعورهم بأن بينهم وبين أهل الجنة سبب وصلة؛ بينما نظرهم إلى أهل النار ليس بداع ذاتي وإنما هو أمر حصل لهم دون رغبة منهم أو شوق.

48-49، ونادى أصحاب الأعراف...ولا أنتم تحزنون.

المشهد الرابع: أصحاب الأعراف وقد حل في قلوبهم الخوف من إلحاقهم بأهل النار فابتهلوا إلى ربهم بأن لا يجعلهم معهم، أخذوا يقرّعون بعض أهل النار الذين يعرفونهم بمشخصاتهم المميزة لهم قائلين :ما نفعكم ولا دفع عنكم ما جمعتموه من أموال ولا كثرتكم التي كنتم تكاثرون بها المؤمنين وتعتزون بها وتقدمون ذلك على أنه حماية لكم فلا يستطيع أي كان أن يطولكم. ذهب كل ذلك كذهاب الأوهام عندما تصدمها الحقائق. ثم إنّ هؤلاء المستضعفين من المؤمنين الذين احتقرتموهم حتى أقسمتم أنه حتى لو كانت الجنة حقا فإنه يستحيل أن يكون هؤلاء من أهلها، وذلك تبعا لمقومات السمو البشري عندهم، فهم لغلظهم وانحراف سلم القيم عندهم، جعلوا قيمة الإنسان مرتبطة بثرائه، وما له من جاه وما حوله من الأتْباع وما رزق من أولاد وعصبية. يقول أصحاب الأعراف : انظروا إلى المقامات العلية لهؤلاء المستضعفين في جنان الخلد وما أغدق الله عليهم من فضله، فقد جعلهم سابقين إلى تلك المكانات. وفي هذا الخطاب نكاية برؤساء الكفر في الدنيا ؛ إنه من أشد ما يلقاه القوي العنيد من الإذلال أن يرى من كان يحتقره في أسمى مقام، وهو يتمرغ في الهوان والمذلة والعذاب.

المشهد الخامس : هؤلاء الواقفون على الأعراف وقد أبطأ بهم عملهم عن الدخول مع السابقين إلى الجنة، وكتب لهم أن ينظروا إلى أهل الجنة ويسلموا عليهم ويطمعون في الالتحاق بهم، وتصرف أبصارهم إلى جهة أصحاب النار فقرّعوهم

وذكّروهم بمواقف استكبارهم في الدنيا، وضياع كل ما تعلقوا به، وهم بين الخوف والأمل في رحمة الله، يناديهم مناد : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم من مفارقتها، ولا يبقى في صدوركم حزن على ما فاتكم طيلة وقت الترقب.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ

بيان معاني الألفاظ:

أفيضوا: ادفعوا لنا الماء بقوة وكثرة.

رزقكم الله : المتبادر منه هو الطعام.

حرمهما: منعهما.

ننساهم : نهملهم ونتركهم.

هل ينظرون : ما ذا يترقبون ؟

تأويل : تحقيق ما جاء به في الواقع المشاهد.

نسوه من قبل : صدوا وأعرضوا عنه في الدنيا.

بيان المعنى الإجمالي :

يتناول هذا المقطع أولا: شيئا مما كان يدور بين أهل الجنة وأهل النار. طمع أهل النار لوفرة الخيرات عند أهل الجنة أن يفيضوا عليهم الماء والطعام. أجيبوا بأن الله قد منع الكافرين من خيرات الجنة. إن حكمه عدل فيكم فذكرُوا من أوصافهم ما يؤكد ذلك، فالدين الذي يحمل الإنسان على تناوله بالجد باعتبار أنه يجمع بين الحاضر والمصير، قد اتخذوه لهوا ولعبا، واغتروا بما تهيأ لهم من نعيم في الدنيا.

ثانيا: ما أقره الله في مداركهم، أنه قرر إهمالهم بسبب تركهم ونسيانهم ليوم القيامة فيهملهم كما يهمل الشيء المنسي، لأنهم جحدوا ما تدل عليه آياتنا البينة الواضحة.

إنهم حقيقون بالجزاء الذي سلط عليهم لأنا قد أبلغناهم الكتاب الذي بينا ما فيه بيانا لا يحتمل الخطأ ولا التغيير، يتضمن الهدى على أتم وجه، والرحمة كلها، ينتفع به من آمن.

يوقظهم بهذا السؤال: ما الذي أبطأ بهم عن الاستجابة فهل يترقبون يوم القيامة يوم يتحقق ما أخبر به ؟إن كان هذا فموقفهم يوم القيامة هو التالي ؛ يقول الذين أعرضوا عن اعتقاد ما جاء به وتركوا العمل به :نعترف الآن أن ما جاء به رسل الله حق. ثم يبحثون عن مخلص، يتوهمون أن يجدوا من يشفع لهم عن تجاوزاتهم، ولا شفيع. ويتمنون أن يعودوا إلى الحياة الدنيا ليغيروا عقائدهم وأعمالهم.

يعلن الباري حكمه: خسروا أنفسهم ولن يجدوا شيئا من أوهامهم التي تعلقوا بها في الدنيا يمكن أن ينفعهم.

بيان المعنى العام :

50- ونادى أصحاب.....على الكافرين.

المشهد السادس : حوار بين أهل الجنة وأهل النار مضمون هذا الحوار: أن أهل النار وقد حرموا من كل خير تحرقهم نار جهنم فيجدون آلام الاحتراق دون أن يقضى عليهم، ويحسون بالظمأ كأشد ما يكون الإحساس، وتلهب بواطنهم من حر جهنم، ويحسون بالجوع ؛ فيحملهم ما هم عليه أن يناشدوا أصحاب الجنة ليتفضلوا عليهم بفيض من الماء ومن القوت، هم لا يطلبون بلالا لريقهم بل حاجتهم إلى الماء الكثير(فيض غزير) جلودهم تتلهف للماء ليطفئ اللهب، وحناجرهم جفت ولم تَرْوَ منذ أُدخلوا النار. والجوع على أشده وأقساه. وهم يظنون أن أهل الجنة لما كانت الأنهار تجري من تحتهم وعطاء الجنة وثمارها مما لا ينفد، فبناء على ذلك لا يثقل عليهم ولا يحرجهم ولا ينقص شيئا مما يتمتعون به إسعافهم، فهم آملون في استجابة طلبهم.

يجيبهم أهل الجنة بجواب قاطع لآمالهم مخيب لتوقعاتهم: إن الله حرمهما منعهما على الكافرين، ثم يعرفونهم بعدل الله فيهم. ذلك أنهم عوض أن يأخذوا الدين الذي يعتقده الناس ويصلحون به حياتهم بجد، حولوه إلى لهو ولعب، وقد قدمنا في تفسير الآية 70 من سورة الأنعام تفصيل ما يدل عليه ذلك. وأنهم اغتروا بما حصلوه في الحياة الدنيا فظنوا أنها النهاية فلا نعيم بعد ذلك ولا عذاب.

51-52: فاليوم ننساهم...يؤمنون.

المشهد السابع: أيد الله كلام أهل الجنة فحصل في مدارك أهل النار الحقيقة التالية واردة من عند الله: إن جزاءهم هو الجزاء العدل، لما كان موقفهم من الآيات التي أنزلتها والهداية التي بلغها رسلي موقف من لم يأبه بها، أهملوها كما يترك الإنسان الشيء الذي لا يهمه؛ فالجزاء من جنس العمل. يُتْركون: حالتهم حالة المنسي المهمل الذي لا يمر على بال. ويضيف لتقريعهم وإظهار النكال بهم التذكير بإعراضهم عن التأمل في القرآن الذي جاءهم من عندنا، القرآن الذي بيناه بيانا تاما، الصادر عن علمنا العلم الكامل الذي لا يأتيه ما ينقضه أو يضيف إليه، الذي لا يحتمل الخطأ ولا التغير، مضامينه مساعدة البشر على متابعة الطريق الموصل للسعادة في الدارين، من الذي علم ضعفهم وقدراتهم المحدودة فلم يكلفهم ما يشق عليهم، وعلم قصورهم عن ولوج الغيب فرحمهم بما فتحه عليهم من علم أحوال الآخرة، ولطّف من غرائزهم، وأعطاهم الميزان في شؤون الحياة جميعها. فهو رحمة عامة شاملة، في مضامينه، وفي نصه.

53-هل ينظرون إلا تأويله...كانوا يفترون.

يتلو تلكم المشاهد إيقاظ المعاندين الصادين، فيسألهم سؤال إنكار لبطئهم عن الاستجابة للقرآن إيمانا وعملا به، يقول لهم الحق تعالى : أي عذر لهم في التأخر عن الإيمان بذلكم الكتاب؟ إن دلائل صدقه من نفسه في نصه ومحتواه، فهل يترقبون للإيمان به تحقق ما أخبر به عن يوم القيامة والجزاء؟ إنه يوم يتحقق ما أوعدهم به وما فصله عن مآلهم، في ذلك اليوم يقول الذين أعرضوا عنه وتركوه وراءهم وأقبلوا على الحياة الدنيا كحال الناسي لما أمر به، يقولون في حسرة، وقد برز للعيان ما كانوا يكذبون به: تيقنا الآن أن كل ما أخبرنا به الرسل هو حق صدق. ثم يعودون لأنفسهم بحثا عن مخلص مما هم فيه، وما يجري في عقولهم هو نظير ما كان يجري فيها يوم كانوا في الدنيا، أنهم كلما وقعوا في ورطة يبحثون عن الشفعاء الذين يتوسلون بهم لانتشالهم من المضيق الذي أحسوا بانحصارهم فيه. هل لنا من شفعاء ؟ أو هل نعود إلى الدنيا فنتحول عن طريقتنا التي كنا عليها فنحسن الاعتقاد والعمل مقلعين عما كنا نعتقده ونعمله ؟

ويعلن الحكم العدل فيهم : فلا يخاطبهم ولكن يصدر الحكم البات : لقد خسروا ذواتهم كلها لا بعض المتعلقات، إن الخسارة التي كانوا يخشونها : أن يذهب ما جمعوه كلا أو بعضا، أما الخسارة المسلطة عليهم يوم القيامة فهي خسارتهم ذواتهم، ولم يجدوا أي أثر لما كانوا يتصورونه من نجاتهم، فكانت خيالات كاذبة.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

ربكم : أصله في اللغة المصلح، وهو الله مع الإشارة لعنايته بإصلاح البشر.

يغشي: يغطي.

حثيث : سريع.

تبارك الله : ظهرت بركته، ظهر علوه. والبركة قوة الخير.

ادعوا : اطلبوا من ربكم ما تريدون أن يحققه لكم.

تضرعا: بخشوع واستكانة، جهرا.

يرسل: يبعثها فتهب.

نشرا : جمع نشور كرسل ورسول، وهي الريح الحية الطيبة.

بين يدي رحمته : سابقة للمطر.

أقلت : حملت.

ثقالا: مملوءة بالرطوبة

ميت : لا نبات يعلو أرضه.

البلد الطيب : الأرض التي تجمع فيها العناصر الميسرة للإنبات والتغذية.

إذن ربه : عناية به بتقدير سلامته من الآفات وما يعاكس تطوره.

النكد : غير الصالح.

تصرف الآيات : تنوعها.

بيان المعنى الإجمالي :

من أهم ما توجهت إليه عناية القرآن توضيح العقيدة توضيحا ينفي كل تصور مضلل. فاعلموا أن ربكم الذي دعيتم لعبادته وتصديق رسوله محمد ﷺ ، هو الله الذي خلق السماوات والأرض خلقا متدرجا في ستة أيام لا يعرف إلا الله حقيقة هذه الأيام والآماد التي تدل عليها. وليست هي أيام الأسبوع التي ما حدثت إلا بعد خلق السماوات والأرض وانتظام السير العام للكون. ثم استوى على العرش وهو مخلوق أعظم من السماوات والأرض لا يعلم كنهه إلا الله ؛ فهو كالأيام، من المغيبات التي أمرنا بالإيمان بها كما وردت في كتاب ربنا ولا نتجاوز ذلك إلى تصويرها بمقاييسنا الدنيوية. ثم إنه أجرى أمر الكون بتدبيره، فمن ذلك جعله سبحانه الليل والنهار، يسرع كل واحد منهما إلى تغطية الآخر ثم ينسلخ المغطى ويغطي الآخر. وهكذا في دورة منتظمة أحكمها الخلاق العظيم.

والشمس والقمر وسائر الكواكب، كلها خاضعة لحكمه يجريها حسب تقديره المحكم. انتبهوا فربكم له وحده الخلق وله وحده التدبير بعد الخلق، يُسيِّر المخلوقات حسبما قدره لها إلى آجالها. وإذ تبين لكم أن ربكم هو المتصرف وحده في كل كبيرة وصغيرة في الكون فإذا اهتديتم إلى طلب العون والدعاء، فادعوا ربكم جهرا وسرا، والزموا في دعائكم الحدود التي سمح لكم بطلبها فلا تطلبوا محرما ولا محالا ولا ما ينافي الأدب. إن المتجاوزين لحدوده لا يحبهم فلا يستجيب لهم، وقد خلق لكم ربكم الأرض صالحة لتكون حياتكم فيها ميسورة، ووفر لكم فيها ما يمكنكم من الانتفاع بها وتطوير ذخائرها، فلا تفسدوا النظام الذي بنيت عليه الأرض لتتمكنوا من تحقيق ما أوكل إليكم من مهمة الاستخلاف الصالح فيها. وادعوا ربكم ليساعدكم مستشعرين الحاجة لعونه وأنتم بين الخوف بسبب ما فرط منكم، والرجاء في فضله وكريم عونه، وأحسنوا فإن المحسنين في عبادتهم وفي أعمالهم وفي تعمير الأرض، يفوزون بأن رحمة الله تسعفهم عن قرب ولا تخطئهم وذلك بتحقيق المدعو به أو الثواب أو كليهما. ومن رحمته سبحانه وقدرته وتنظيمه للكون، أنه يرسل الرياح في الاتجاه الذي يأتي الخصب بعده، فتكون مقدمة لنزول الغيث، وتجمع السحب وتمر بها على المراكز التي تشحنها بالرطوبة، فيسوقها بتقديره إلى البلد الذي كان قاحلا أجرد لا نبات فيه، فينزل الله من السحاب الماء الذي يحيى به البلد فيخرج به متنوع الثمار وتسري الحياة في كل جزء منه.

وانتبهوا ! فكما أحيى سبحانه الأرض بعد موتها فكذلك سوف يبعث البشر من قبورهم فيحيون بعد الموت.
والبلد الطيب تربته المحتوية على عناصر التغذية كاملة، يخرج ربه نباته بعنايته فيؤتي الثمرات الطيبة. والبلد الفاقد لمقومات النمو لا يخرج إلا نباتا خبيثا كالسباخ. وكذلك تكون آثار ما أنزله الله من الهدى يتلقاه من طابت دواخلهم بالقبول والاعتقاد والعمل فيسعدون به في حياتهم الدنيا والآخرة، ويتلقاه الكافرون بالرفض والعناد فلا ينتفعون منه بشيء بل يندفعون إلى مناوأته ومعاكسته فيتعمق ما هم عليهم من ضلال وتسوء آثارهم.

بيان المعنى العام:

عني هذا المقطع بإجراء صفات الكمال على الله، وما انفرد به من التقدير والإنجاز الذي لا يمكن أن يدعي أحد المشاركة فيه، وأنه قريب من الداعين يستجيب لهم، وأن تصرفه بالخلق المتجدد في الكون يقوم دليلا على البعث، وفي كل ما يحدثه ما يدعو الإنسان لشكره على نعمه. أكد الله الحقيقة التي ينبني عليها استقامة الفكر البشري، هذه الحقيقة هي أن الله هو المتصف وحده بالربوبية، فهو ربنا بما تشير إليه لفظة الرب من العناية الموصولة التي شملت الإنسان في ذاته وفي موقعه من هذا الكون. فما كان للإنسان أن يتصرف ويحيى فيه لولا العناية الإلهية في ربطه به ربطا يتلاءم مع تركيبه الجسمي والعقلي. هذا الكون المشاهد تولى هو وحده خلقه بما يحويه من السماوات والأرض.

54-إن ربكم...رب العالمين.

يعلمنا سبحانه أنه خلق السموات والأرض خلقا متدرجا حصل في ستة أيام، ولم يحصل دفعة واحدة، مع أنه القادر على ذلك. ولكن حكمة هذا التدرج في الخلق لم يفتح لنا باب الوصول إليها، وإن كنا نجزم أن ذلك ما كان على ذلكم النحو إلا لحكمة. والأيام الستة من الحقائق التي وردت في كتب الله التي أوحى بها لرسله. والحق أنها تقدير لا نعلم كنهه، وأنها ليست أيام الأسبوع المقدرة بطلوع الشمس وغروبها ثم طلوعها من جديد. ولكن اليهود جعلوا الخلق ابتدأ يوم الأحد وانتهى يوم الجمعة وأن يوم السبت يوم راحة. وهذا من خيالاتهم الباطلة لأن التقدير بأيام الأسبوع لا يصح إلا بعد خلق السموات والأرض وتحريك الأرض حركة دائرية حول نفسها، فجعل وقت الخلق أيام الأسبوع التي لا يمكن أن تظهر إلا بعد خلق السماوات والأرض تأويل فاسد وغير صحيح، وإن كان بعض المفسرين تأثر به.

وتثبيت الآية : ثم استوى على العرش، وهذه الكلمات الثلاث جدير بنا أن نرفع عنها ما يمكن أن يصوره الخيال عند سماعها دون يقظة عقلية.

ثم : تدل على التراخي؛ أي إن ما عطف بها حصل بعد المعطوف بها متراخيا بزمن وليس إثره مباشرة. فإذا قلت: جاء محمد ثم صالح، أفاد الكلام أن الفاصل بين زمني مجيئهما ملحوظ واضح. وإذا قلت جاء محمد فصالح، مدلوله قدوم صالح بعده بدون فارق زمني يُلْحظ. ولا يعقل أن يكون الزمان من متعلقات الذات الإلهية لأن مبنى الزمن على التغير، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. فتعين أن يكون التراخي هاهنا في الرتبة تراخيا معنويا؛ أي إن رتبة استوائه على العرش هي فوق رتبة خلقه للسماوات والأرض. كما تقول محمد تلميذ مجتهد، ثم إنه هو الأول في فصله. فتصوركم لخلق السماوات والأرض على عظمتها، استواؤه على العرش أعظم.

استوى " أصل معناه الاعتدال، ثم تم التصرف في هذا اللفظ فأصبح يدل على الاعتلاء وما يتصل به معنويا. وإذ أسند الاستواء إلى الذات العلية تعين أن يكون المراد منه ليس ماديا، ولا يمكن للعقل أن يحدده، وقد سأل رجل مالكا رضي الله عنه فقال : الرحمن على العرش استوى كيف استوى يا أبا عبد الله ؟ فسكت مالك مليا حتى علاه الرحضاء(عرق كثير يغسل الجلد) ثم سُرِّيَ عنه فقال : الاستواء معلوم والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب، وإني لأظنك ضالا، أخرجوه عني. فكل ما يتعلق بالذات الإلهية مما أخبرنا عنه القرآن نجزم بصدقه وأنه حق، وكل تكييف لمفاده حسب التصور العقلي البشري المنتزع من مشاهد الحياة ضلال، ومخالف للحقيقة.

العرش :العرش ينسب إلى أصحاب السلطان على أنه الكرسي المرتفع الذي يجلس عليه الملك، وهو مفهوم مادي محدد مهما أضيف إليه من فن وفخامة. وعرش الرحمن كائن أوسع وأعظم من السماوات والأرض، نؤمن به لإخبار القرآن به ولا نكيفه كما قلنا في الاستواء. فيكون القرآن قد حقق أن ما أنجزته القدرة الإلهية السماوات والأرض، وأبعادها تقدر بالسنوات الضوئية، ولا يعلم مقاديرها ولا حدودها ولا تفاصيل المواد المركبة منها إلا الله سبحانه. وأنه خلق العرش وهو مخلوق أعظم من السماوات والأرض، واستوى عليه بدون مماسة ولا علو مكاني. والله أعلم بمراده من هذه الحقيقة التي تهز الإنسان المؤمن هزا، ليدرك قيمته الحق في هذا الوجود ؛ فلولا أن الله أكرمه بالعقل وبهداية رسله لكان شيئا تافها

ضئيلا جدا بالنسبة لعظمة ما أبدعه الخالق سبحانه. والفاعل هو الله ربكم. وهو المؤثر في تغيرات الكون هو الذي جعل كلا من الليل والنهار يطلب أحدهما الآخر طلبا سريعا مجدا في طلبه، ليحل مكانه ويذهبه. وهو سبحانه المتصرف في الشمس والقمر والنجوم خلقها أولا، ثم نظم تحولاتها بنظام دقيق لا تخرج عنه ولا يختل، مع أن عظم أجرامها مما لا يمكن لغيره أن يخضعه لما يريده لها من نظام. ونذكر بالساعة الضابطة للوقت، فجودتها وإتقان صنعها، هو بموافقة سيرها للحركة التي نظم عليها سبحانه سير الكواكب. وهذه الموافقة لا تثْبُتُ إلا لمدة محدودة ثم تختل وتضطرب وتبعد عن الدقة. والشمس والقمر والكواكب تسير في نظام منذ خلقها الله. كل ذلك من تقدير الله ربكم.

الله ربكم هو المتصرف وحده لا شريك له في خلق الكون جليله وحقيره، وهو وحده المسخر لها، لتجري على النظام الذي قدره لها في تناسق مع بقية أجزاء الكون. ألا له الخلق والأمر. فالله وحده هو الخالق والمنظم. وقد جرى على ألسنة كثير من الناس التعبير بالفكر الخلاق، والنظام الخلاق، ونحو هذه التعبيرات التي ألقاها الشيطان في لهوات البشر دون أن يتفطنوا لما فيها من تجن وعدم صدق فعلى المؤمنين أن يتفطنوا ويقلعوا عنها لما فيها من ادعاء كاذب.

وإذ تم عرض التصور الذي ينبغي أن يستقر في قلوب المؤمنين؛ من انفراده بالخلق والتصرف المحكم في الكون، في دقة بالغة حد الكمال، وفي نظام يجري بدون اختلال، شمل السماوات والأرض والكواكب والليل والنهار والشمس والقمر، فإن كل ذلك مما يملأ النفس إيمانا وإعجابا وتقديسا لله الخلاق العليم، فوقع التصريح بهذا المعنى في قوله تعالى : تبارك الله رب العالمين – كثرت خيراته فكل جزء من أجزاء العالمين شملته رعايته وحسن تقديره ولسانُ حاله شاهد. وما كان ليكون على النحو الذي هو عليه لو لم يكن مربوبا له.

55-56، ادعوا ربكم تضرعا...المحسنين.

استقر فعلاً في نفوس المؤمنين الاقتناع برعاية الله وفضله وبأنه ربهم الحق، مما أكد ارتباط المؤمن به عندما يستحضر كل ما حوله في الكون وعنايته به. فناسب أن يذكره بأن يتوجه إليه بالدعاء ليحقق له ما تكون به حياته أفضل وأحسن، ويبعد عنه الأكدار. ومن أدب الدعاء أن يكون معبرا عما يجب أن يكون في نفس الداعي من شعور بالحاجة وعجز عن تحقيق ما يبغيه، وأن ربه هو وحده الذي بيده الخلق والأمر، وأنه رحيم قادر لا يعجزه شيء. يدعو جهرا أو سرا فقد دعا النبي ﷺ

وجهر، ودعا خفية وأسر، كما أذنت بـه الآيـة. ومـن أدب الـدعاء أن لا يتجـاوز فـي دعائه ما أذن فيه الشرع، فلا يدعو بمـا ينـافي الأدب، ولا بمحـال ولا بمعصـية ؛ فـإن الله لا يحب المعتدين في الـدعاء وفـي غيـره. ونفـي الحـب عـن الله مـؤداه أنـه لا يساعدهم ولا ييسر لهم أمورهم ولا يستجيب لما طلبوه منه.

قرن القرآن بين آداب الدعاء، وبين أمـر آخـر يسـاعد علـى قبـول الـدعاء، وهـو أن يكون عمل الإنسان في الأرض التي اسـتخلف فيهـا، عمـلا ينمـي مـا أودعـه الله فـي الأرض من خيرات، ويؤثر فيها تـأثيرا يحـول ظاهرهـا وباطنهـا إلـى منـابع عطـاء متواصل يتواصل حياة الإنسان على سطحها. لعـل مـن أول مـا يفسـد العمـران الظلـم والاستبداد، والشرك ظلم عظيم. نهت الآية الإنسـان عـن الإفسـاد بطريقـة تجعـل مـن يتأملها يستحيي من فعله الضـار بمكوناتهـا؛ فقـد حقـق القـرآن أن الله أصـلح الأرض لما خلقها. صلاحها بمكوناتها وصلاحها بموقعها في الكـون، وصـلاحها بمـا تتـأثر بـه من أشعة تنفذ إليها، وصلاحها بالماء الذي ينزل عليها، إلـى آخـر مـا نظمـه سـبحانه ؛ فقبيح بالإنسان الذي ترتبط حياتـه وحيـاة الجـنس البشـري فـي الحاضـر والمسـتقبل بهـذه الأرض التـي أصـلحها الله، قبـيح بـه أن يفسـدها ويعطـل عطاءهـا. وطغيـان المذاهب المادية في عصرنا هذا قد أخل بـالتوازن الـذي بنـى الله عليـه الأرض، أخـل به إخلالا يعرض الأرض ومن عليها إلى حياة الضنك إن لـم نقـل الـزوال. ويبـدو لـي أن في اقتـران الإذن بالـدعاء بـالنهي عـن الإفسـاد فـي الأرض حكمـة بالغـة، إذ أن الدعاء يكون إما بتوفير محبـوب أو بـدفع مكـروه، والإفسـاد فـي الأرض عمـل علـى رفع للمحبوب، وتثبيت للمكروه، فكيف يدعو بمـا يعمـل هـو علـى نقضـه ! وواصـل القرآن بعد أن أدمـج هـذه التوصـية التـي تتعلـق بالـدعاء، وتشـمل سـلوك الإنسـان وتعامله مع الأرض، واصل إرشاد المؤمنين إلى مـا علـيهم مراعاتـه فـي الـدعاء مـع التضرع الجهير في أدب، أو الخفية في ابتهـال خاشـع، والوقـوف عنـد الحـدود التـي يرضاها الله وعدم الاعتداء، والتزام السـلوك الـذي يصـلح الأرض ولا يفسـدها، علـيهم أن يعمر قلوبهم ومشاعرهم الخـوف والطمـع. إن الخـوف مدرجـة للكمـال ولمحاسـبة النفس، وللنقد الذاتي. ذلـك أن العبـد الخـائف فـي علاقتـه بربـه يعتبـر نفسـه دومـا مقصرا، لا يدري ما يبلغ به تقصيره وما يتطور إليـه، فـإذا حـل الخـوف قلبـه فمعنـى ذلك أن شعوره بالخطأ شعور حاد، وأن نفسه تشمئز مـن صـورة الـنقص التـي ظهـر عليها أمام الله الذي لا تخفاه خافية وأن حـوافز تنقيـة ذاتـه أخـذت فـي العمـل، وأول نتائجه الاحتياط في المستقبل.

إن التوازن الذي يربي عليه الإسلام المؤمنين يجعلهم لا يميلون إلى جهة واحدة كما بسطناه في تفسير قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) فالخوف إذا استولى على النفس كان مرضا؛ ولذا قرنه القرآن بالطمع في رحمة الله وعفوه وكرمه، فيكون الخوف والرجاء كما عبر به بعضهم كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة، فلا يستبد به الخوف ليرميه في مهلكة اليأس، ولا يستبد به الطمع حتى يُدل بما عمله مع أنه غير موقن بأنه بلغ درجة القبول. وفي الحقيقة فإن الإنسان لا يدعو ربه وهو واع بمعنى الدعاء إلا إذا كان خائفا أن يرد دعاءه، وأملا في قبوله. ثم تستحث الآية المؤمنين أن يتساموا إلى مرتبة أعلى من أداء الواجب إلى مرتبة الإحسان. والإحسان يتكيف بحسب موضوعه، يكون في العبادة بعمق استحضار العابد للمعبود، ويكون في العمل بتجويد العامل ما يؤديه من عمل بحيث ينتقل في ذلك من مرتبة إلى مرتبة أسمى في الإتقان، ويتم بلوغ ذلك باستحضار أن المولى مطلع على ما يقوم به مع رغبة في أن ينال رضاه. ويبشر المؤمنين الذين يحسنون أعمالهم، ومنها الدعاء، بأن باب الرحمة الإلهية قريب منهم، كأنه تتم الاستجابة بفور الدعاء ثوابا أو تحقيقا. وفي اختصاص القرب بالمحسنين ما يفيد أن غير المحسنين لا يطمعون في رحمته، والمشركون أولى من يتحقق فيهم عدم الإحسان.

57-58، وهو الذي يرسل الرياح...يشكرون.

والله ربكم هو وحده الذي أقام ورتب ناموس التفاعل بين الأرض والسماء في إخراج النبات، ونماء الشجر وبروز الثمر. يعرض قانونه العام فيكشف أنه سبحانه يبعث الرياح فتهب موزونة، تنتشر في الآفاق التي تعلقت الإرادة الإلهية بالتأثير فيها، وتتقدم سابقة للرحمة الأمطار التي كتب أن تروي الأرض والبشر والحيوان. حتى إذا حملت تلك الرياح سحبا ثقيلة بما تعلق بها من رطوبة، وهي تتهادى تزداد ثقلا، تسيرها تلك الرياح بقدرٍ خاص تسوقها كما يسوق الفارس فرسه. لا ينصرف السحاب بمائه حيث شاء، بل كل حركة مضبوطة مقدما في سيره ذلك، فقد قدر لها ربكم غايتها في المساحات من الأرض التي أراد أن تُنزل بها ماءها، الذي لا ينزل إلا عندما يأذن له، وبعد زمن غير طويل تبدأ حركة أخرى تتفاعل فيها الجذور مع الماء والأرض، حركة خفية عن الأنظار في كل لحظة وبدايات تتبعها تطورات متلاحقة منتظمة، فإذا هي الأغصان مثقلة بالثمار المتنوعة الأحجام والأشكال والمذاق. الماء واحد والأرض واحدة ولكل ثمر وقت قطافه وخصائصه في تقدير

عجيب هو من صنع ربكم. ومع نقلة سريعة من هذه المظاهر الكونية يلفت العقول البشرية مقربا لها ما خفي على كثير من الناس من أمر البعث، فكما تحولت الأرض الجرداء الميتة التي لا حياة فيها إلى صورة من النمو البالغ غايته ومداه، كذلك يتم بعث الناس من قبورهم بعد الموت.

فيما بسطه القرآن من رياح تتحرك إلى أرض ميتة تسقيها السحب فتحولها إلى حركة نماء وخروج ما كان كامنا، في ذلكم ما يعين الإنسان على التذكر والتدبر وقبول حقيقة البعث على أنها قريبة معقولة. ثم واصل القرآن عرض توابع هذه الصورة العجيبة في السحب المسيّرة حسب التقدير المحكم، أنها وإن كان مُسَيِّرُهَا واحدا هو ربكم، والماء الذي تحمله ماء طيب كريم حملته نقيا، بعضها ينزل ماؤه على أراض طيبة، توفر فيها جميع عناصر الإنبات، ثم إمداد الأشجار والنبات بمختلف ما يحتاجه كل نوع من الحاجات للنمو والإزهار والإثمار، وتتطور مرعية بإذن ربها في كل طور من الأطوار، فتبرز الثمار نقية صالحة تنفع الأحياء.

إن ذلك نظير ما أنزله الله من الهدى على لسان رسله، تلقاه أصحاب الأرواح الطاهرة فانتفعوا به وأثمر صلاحا في حياتهم وحسن اتصال بربهم وطهارة في سلوكهم. ونفس الأمطار تصيب أراض سبخة سيئة عجفاء لا تنبت إلا النبات الخبيث الذي لا ينتفع به الإنسان ولا الحيوان. وكذلك وضع من أصم أذنيه عن وحي الله وأعمى بصره عن النظر في آياته فلا يترتب على الوحي إلا قساوة في قلبه، ومضاعفة عناد.

وعلى هذا النحو ننوع الآيات، التي تنفذ أنوارها إلى العقول فتتفطن للحقائق، وينتفع بها الذين يدركون قدرها فتنطلق ألسنتهم وقلوبهم بشكر ربهم على ما بينه وأحكمه، وتزيد الكافرين ضلالا.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (60) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (62) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (63) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ (64)

بيان معاني الألفاظ :

الملأ: أشراف القوم وقادة الرأي فيه.

ضلال مبين : سرت في طريق خاطئ لا شك فيه.

عمين : جمع عَم، فاقد البصر، يقصد به من فقد الرأي.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله نوحا إلى قومه فقال لهم مرشدا لهم عطوفا بهم: يا قومي اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره ولا تشركوا به أحدا إنه لا إله إلا هو، وكل ما عداه لا يستحق أن يعبد.

إني أشفق عليكم وأخاف أن تعذبوا عذابا عظيما إذا واصلتم ما أنتم عليه. أجابه أكابر القوم وقادة الرأي فيهم: إنك يا نوح مغرق في الضلال. تلطف بهم وزادهم بيانا ليقنعهم، فذكر: أنه بعيد عن الضلالة، وكيف يكون ضالا وهو مؤيد برسالة من رب الأكوان كلها، الذي أوكل إليّ أن أبلغكم كل ما يأتيني من وحيه، وأن أعاملكم معاملة النصوح الراغب في خيركم، وما أخبركم به إنما تلقيته من ربي الذي علمني ما لا تعلمونه، إذ حياتكم سائرة على التقليد لا على النظر. يا قومي ما الذي جعلكم تعجبون فترفضون ما جئتكم به ؟ تأملوا فإن ما دعوتكم إليه هو ذكر من ربكم يحرك عقولكم وضمائركم، جاءكم به رجل منكم تعرفون صدقه وليس غريبا عنكم. يحقق هذا الذكر ثلاثة أشياء:

أ- يحذركم سوء العاقبة التي ستحل بكم إن لم تتبعوه

ب- أن تتحلى قلوبكم بتقوى الله التي تفتح بصائركم.

جـ- أن تشملكم رحمته في الحاضر والمصير إذا أنتم استجبتم.

ما كان منهم بعد هذا البيان المقنع اللين إلا أن أجمع كبراؤهم ودهماؤهم على تكذيبه. فتحققت العاقبة التي كان أنذرهم بها : سجل القرآن أولا نجاة نوح ومن آمن به، وتنفيذ حكمه في المكذبين فأغرقهم، أوقعوا أنفسهم في النكال لأنهم أقفلوا عقولهم فأعرضوا إعراضا كاملا، شأنهم شأن العمي الذين لا يبصرون فهم إلى العطب في مسارهم أقرب.

بيان المعنى العام :

تبين لنا في الآية السابقة ما ترمز إليه من انتفاع المؤمنين بالوحي المنزل إليهم، فيصدر عنهم كل خير، وبالعكس تكون حالة الكافرين الرافضين. فأتبع القرآن ذلك بما قصه علينا من أنماط المجتمعات البشرية السابقة، وما جاءهم من الهدى

ومواقفهم منه، وعاقبة أمرهم ؛ لينتظم من ذلك ما يدعو المؤمنين لمزيد من التمسك بما جاءهم من الهدى، ويكون موقظا للكافرين إلى أن ما بثه الشيطان في عقولهم هو على نفس الطريقة التي أضل بها السابقين. فليحذروا مكره وليسارعوا بالدخول في دين الله.

59 ←64، لقد أرسلنا نوحا إلى قومه...قوما عمين.

القصة الأولى التي عرضها هي قصة نوح مع قومه. وهو أول رسول إلى الأرض. كما يشير إليه قوله في سورة النساء: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده)[36] أحل الله في قلبه الوحي وأمره بتبليغه، فأسرع إلى القيام بالمهمة الموكلة إليه، خاطب المرسل إليهم بقوله: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

إن تحليل هذا النص يفيدنا:

أ – أن القرآن لم يعن ببيان من هم المرسل إليهم؛ إذ ما عرفهم إلا بأنهم قومه. فما ضبط منازلهم من القارات، ولا جنسهم الجامع لهم.

ب – أن أول ما عني به هو أن يعبدوا الله وأن لا يعبدوا غيره مما تقيمه الأوهام على أنه حقيق بالتقرب إليه، وأن لا يشركوا به أحدا فيخلصون له وحده في العبادة. ومضمون ذلك الاعتراف بأنه هو الخالق وحده.

جـ – أنذرهم بعد ذلك العذاب الذي أعلم الله أنه سيسلطه على الرافضين للدعوة، وأنهم إن لم يفردوا الله بالعبادة فلا منجاة لهم من عذاب يوم عظيم. ووصف اليوم بأنه عظيم ولم يفصل، لتسرح النفس في تصوره كل مذهب.

د – أن نوحا ﷺ لان لهم وخاطبهم خطاب المتودد المشفق عليهم، فنسبهم لنفسه باعتبار أنهم يمثلون عنده جزءا منه: يا قومي، وأنه يحبهم ويخاف عليهم أن يلحقهم العذاب: إني أخاف عليكم.

هـ – أجابه أكابر القوم المتولين زمام القيادة عما عرضه عليهم قائلين: إننا نعتقد اعتقادا جازما أنك غارق في الضلالة البينة. فهو رفض تام لكل ما قاله. مما يدل على أنهم يرفضون توحيد الله ويرفضون أنه مرسل، ويرفضون البعث.

و– أجابهم في هدوء الكمّل من البشر : يا قومي أنا أبعد ما يكون عن الضلال، طريقي واضح، ما أدعوكم إليه يتلخص في أني رسول من رب الكون كله، أنا مكلف بتبليغكم ما أوحى إلي ربي، وكلما تجدد الوحي أقوم بتبيينه وتوضيحه وهو

[36] سورة النساء آية 163

معنى رسالات أي كلما تجدد وحي أبلغه، وأسعى جهدي لتقريبكم من المنهج الذي تكون به حياتكم أسلم في الحال والمآل .فأنصحكم بتوجيهكم إلى الخير وكشف ما يمكن أن يخفى عنكم مما يضر بكم. وجماع ذلك وسنده أن ربي علمني فأصبحت أوضح إدراكا وأعمق للكون ولمنزلة الإنسان فيه، ولما يصل به إلى الفوز أو الخسران. وهذه أمور خفيت عنكم، فظننكم أنني مغرق في الضلال كان. نتيجة محدودية عِلْمكم القاصر. ما الذي جعلكم تعجبون من أمري ؟ وبما أن العجب شعور باطني يحصل عند أمر مستغرب، أخذ نوح عليه السلام يتابع ما يمكن أنه أثر في نفوسهم واحدا واحدا.

أولا: أعجبتم من قيام رجل منكم تعرفونه، خبرتم أخلاقه وسلوكه، فلو كان من غير جنس البشر أو هتف بكم هاتف لم تتبينوا صاحبه، أو كان الرسول غريبا عنكم لم تعرفوا سلوكه وأخلاقه لربما كان لكم عذر في إنكار ما جاءكم به.

ثانيا: أن مهمته هي إبلاغكم ذكر من ربكم الذي تولاكم بعنايته فأحاطكم بألطافه حتى بلغتم ما بلغتم إليه، ينبهكم إلى ما يترصد كم من سوء إذا أعرضتم عنه، ولتحصل لكم وقاية من الشر ومن العذاب. مع رجاء أن تحل عليكم رحمته التي تكسبكم الطمأنينة وصلاح الأمر.

إنكم إذا حلّلْتم ما كان مثار عجب منكم تجدونه موجبا لسرعة الإقبال والابتهال به.

بعد هذا البيان الرفيق المبعد لكل شبهة، ما كان من قادة الرأي وأتْبَاعهمْ من الدهماء إلا التمادي على ما هم عليه من عبادة الأوثان وتكذيب رسول الرحمن.

أيس نوح من اهتداء قومه بناء على ما أخبره به ربه كما سيأتينا في سورة هود. وتظهر العاقبة التي كان أنذرهم إياها. أن الله أنجى نوحا ومن آمن معه، وأغرق الكافرين به بسبب تكذيبهم. وذلك لأنهم كانوا قوما تمسكوا بالعناد والرفض الذي عطل عقولهم فأصبحت حالتهم كحالة الأعمى لا يدري إلى أن يتجه، ولا يحمي نفسه من العطب.

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ

عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (69) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (71) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (72)

بيان معاني الألفاظ:

نراك : نعلم.

سفاهة : سخافة العقل.

بصطة : الكمال، والوفرة والسعة.

نذر : نترك.

رجس : عذاب، وقد يراد منه فساد وخبث

غضب: ما يترتب على الغضب عادة من إنزال العقوبة بالمغضوب عليه.

المجادلة : المحاجة.

أسماء : ما لا حقيقة له إلا في إطلاق الاسم عليه.

السلطان : الحجة.

بيان المعنى الإجمالي :

في موكب الرسل الذين سجلت سورة الأعراف قصصهم، تأتي قصة هود تالية لقصة نوح وعاد قوم هود خلفوا قوم نوح وتابعوا القيام بالدور الحضاري الذي عهد للجنس البشري أن يقوم به. ولكنهم انحرفوا انحرافا كبيرا واتخذوا آلهة من دون الله. بعث الله إليهم رجلا منهم هود ﷺ، فأمرهم أن يفردوا الله بالعبادة فإنه لا إله إلا الله، وحرضهم أن يتقوا الله فيكون حاضرا في قلوبهم دائما. تقدم رؤساؤهم الذين تمكن الكفر من عقولهم فردوا عليه ردا وقحا قالوا: إنا نعتقد أنه قد خف عقلك إذ تأمرنا بترك آلهتنا، والراجح أنك غير صادق في دعواك أن الله أرسلك. تلطف معهم وواصل تبصيرهم قائلا : يا قومي إن عقلي سليم صحيح نافذ إلى الصواب،

وإني رسول حق من رب الكون كله، كلفت بمهمة منه علي أن أبلغكم كل ما يرد عليَّ من وحيه، ويهمني جدا أن أنصحكم حتى لا تهلكوا، ومن خلقي الأمانة، والأمين لا يكون كاذبا. ما الذي جعلكم تعجبون فتكذّبون ؟ هل مثار العجبِ أن الله بلغكم بواسطتي ما يذكركم؟ فأنا رجل منكم عرفتموني قبل هذا وتشهدون بمقامي الخلقي واستقامتي. ياقومي لا تغفلوا عن النعم التي حباكم الله بها، فقد مكنكم من مواصلة عمران الكون بعد أن أهلك المكذبين من قوم نوح، ورزقكم كمالا في أجسامكم. يا قوم لا تغفلوا عن النعم التي خصكم الله بها، إن تذكركم لنعم ربكم يفتح باب الرجاء لنجاحكم.

بعد هذا البيان اللين المقنع المتودد لهم ليسرعوا إلى لإيمان، أجابوه في صلافة : هل جئتنا لنعبد الله ولا نعبد أي إله آخر، ونترك ما درج عليه آباؤنا الذين هم وحدهم قُدوتُنا، فاعلم أنا نرفض ما جئتنا به، وإن كنت صادقا فيما أنذرتنا به فعجّل به. وعند بلوغهم هذا الحد من العناد أعلمه ربه بأنه قد تم القضاء، وأنه سيسلط عليهم جزما العذاب المقدر، وأن الله قد غضب عليهم فلا يتوقعون منهم رحمة أو تأجيلا. ثم واجههم منكرا عليهم ما وصلوا إليه فقال أتحتجون علي بأشياء لا حقيقة لها ولا تعدو أن تكون أسماء لموهومات ما جعل الله فيها حجة ولابرهانا.

وإذ قد بلغتم من العناد والكفر هذا الحد فترقبوا العذاب الذي سيحل بكم، وإني مترقب حلوله عليكم. ووقع العذاب وأنجى الله هودا والذي آمنوا معه لما شملتهم رحمته تعالى. وتم استئصال القوم المكذبين، فلم يبق لهم أثر من بعدهم. ولم يحلّل الإيمان في قلوبهم.

بيان المعنى العام :

تتابع موكب المرسلين بعد نوح ﷺ، ويفصل القرآن ما وقع لهم مع أقوامهم. وأول قصة هي قصة سيدنا هود ﷺ، الذي أثبت القرآن أنه من قبيلة عاد، عُطفت على قصة نوح وقد أوقفنا القران على الأمور الأساسية فيها.

65←69، وإلى عاد أخاهم هودا... تفلحون.

أرسل الله هودا إلى قبيلة عاد، وهو واحد من أفرادها، بما يفيده معنى الأخ من القرب النسبي. دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة، حسبما يوجبه العقل، لأن العبادة بمعنى الطاعة والتقرب لا تكون إلا للإله، ولا إله إلا الله. وحذرهم العقاب الذي سوف يحل بهم بسبب ما هم عليه من الشرك، وأمرهم أن يحصنوا أنفسهم بتقوى الله التي بها يسلمون.

كان جواب رؤساء القوم المقدمين فيهم بعد أن دعاهم إلى عبادة الله وحده: إنا على يقين من أنك مصاب بخفة العقل وضعف التفكير، إذ تأمرنا بترك عبادة آلهتنا. ودعواك أنك مرسل تضمك إلى صف الكاذبين الذين لا تروج علينا أباطيلهم.

رد هود على قومه بلطف قائلا: يا قومي ملكاتي العقلية سليمة صادقة منتظمة، واختياري من رب الكائنات كلها، بتكليفي بتحمل مهمة إبلاغكم رسالاته، التي تأخذ بعقولكم وأرواحكم إلى المنهج السوي الآمن.

إن تكليفي بشرف تلكم المهام ينادي بما تفضل الله به عليّ من رجاحة العقل. وبناء على ذلك فإني باذل جهدي لأقدم لكم النصح الذي يؤمنكم في الحياة، وإني أمين، والأمانة وصف يوجب نظافة صاحبه في السر والعلن، ولا يتصور أن تجتمع الأمانة مع الكذب. هل تملككم العجب بسبب مجيء رجل منكم تعرفونه وقد خبرتموه وهو يعيش بين أظهركم ؟أتعجبون لأني قد جئت لأنذركم ما سيحيق بكم من السوء إن لم تصدقوني وواصلتم حياتكم على النحو الذي أنتم عليه ؟على معنى أنكم لو كنتم أصحاب عقول تنظر فتهتدي بنظرها لكان ما أنكرتموه موجبا لإسراعكم بقبول ما جئتكم به.

تذكروا ما أنعم الله به عليكم وخصكم به من الفضل، هلك قوم نوح فيسر لكم أن كنتم أول أمة بعدهم تواصلون التقدم بالحضارة البشرية. وتذكيرهم هذا فيه إشارة إلى ما حاق بقوم نوح لما أشركوا بالله، وإنذار إلى أن مآلهم سيكون كمآل من قبلهم. وذكرهم بنعمة ثانية أن الله أكمل عليكم نعمه فجعل أجسامكم كاملة، فكان خلقهم تاما، قاماتهم طويلة، وقدراتهم الجسمية وافية، مميزين بذلك بين الناس.

70-قالوا أجئتنا...من الصادقين.

-بعد تلكم التوضيح واللطف بهم في كشف ما خفي عنهم وتقديم شواهد النصح لهم والحذر أن يحل بهم العذاب، وشأنه كشأن الرسل أنهم يودون لو يبلغوا إنقاذ قومهم من الفساد الفكري والعقدي وما يتبع ذلك من تأهلهم لنزول العذاب ؛ كان جواب قومه ما يأتي : قالوا منكرين ما أفاده خطابه ﷺ : ما بذلته من جهد وقدمته لنا، مضمونه : أن نفرد الله بالعبادة ونطرح ما استمر عليه آباؤنا من تقديس آلهتنا التي بلغوا بها ما بلغوه من العزة والسيادة في الأرض.

إذا كان هذا هو ما تبغي أن تصل إليه وتنذرنا بعذاب إن لم نقلع عن عبادة ما يعبد آباؤنا، فإنا نتحداك أن تنزل علينا العذاب الذي خوّفتنا به. يتضمن كلامهم تكذيبه في دعواه الرسالة وفي مضمون ما أوعدهم به.

71-72، قال قد وقع عليكم.... وما كانوا مؤمنين.

كان جواب سيدنا هود معتمدا على ما أوحى الله له به. مضمون ذلكم الوحي: أن الله قد حكم عليه بحكمه الذي لا يرد، فهو لتحققه كأنه (وقع) وتم في الخارج (رجس وغضب).أما الرجس فيحتمل أنه سينزل بهم عذابا لم يحدد نوعه ولا زمانه، ويحتمل أن يكون معنى الرجس تمكن الخبث من نفوسهم والضلال من عقولهم، ومع الرجس غضب، بما يفيده من مقت الله لهم فلا يتوقعون منه رحمة ولا لطفا. ثم قرّعهم مبرزا خراب عقولهم، بأنهم ما قدموا لمحاجته دليلا يسند معتقدهم. لم يقدموا إلا أمرا واحدا أسماء بدون مسمى، تخيلوا في بعض الأصنام، أو في بعض المتوهمات قوة مؤثرة، فأطلقوا عليها أسماء، وكل أمرهم وهم في وهم، لم يؤيِّد بقوة من حجة من الحجج التي يكون لها سلطان يخضع لها الفكر وينصاع لها. وأنهى كلامه بتحديهم بما أنذرهم من عذاب، فقال لهم : انتظروا ما سيحل بكم مما تكذبون به، وأنا معكم منتظر أن العذاب سيحل بكم لا محالة. نفذ الله ما أنذر به هود قومه.

وقدم بين يدي ذلك إنجاءه ﷺ ومن معه من المؤمنين بما قدره سبحانه من إنزال رحمته بهم التي صانتهم من العذاب ومن الغضب فرافقتهم بذلك ألطافه إلى الأجل المقدر لهم. واستأصل قومه المكذبين فلم يُبق لهم أثرا وقطع نسلهم ومضوا في الهالكين لتكذيبهم بآيات الله وشركهم.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ

وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

بيان معاني الألفاظ

ثمود : قبيلة من قبائل العرب البائدة.

البيّنة : الحجة الواضحة

تمسوها بسوء : تلحقون بها أي أذى.

بوأكم : أنزلكم.

السهول : المستوي من الأرض.

تنحتون. النحت بري الحجر بآلة.

عثا: أفسد فسادا شديدا.

عقروا : جرحوا الناقة جرحا تبعه موتها.

عتوا :تجاوزوا الحد في الكبر.

أخذتهم : أهلكتهم.

الرجفة : اضطراب الأرض بحركة من تحتها أو بصواعق من فوقها.

جاثمين : منكبين على صدورهم كهيئة الأرنب، ميتين لا حراك لهم.

تولى : انصرف عن فراق وغضب.

بيان المعنى الإجمالي :

بعث الله إلى ثمود الأمة التي خلفت قوم عاد، رسولا منهم هو سيدنا صالح. أمرهم بعبادة الله وعدم الإشراك به. وقدم لهم معجزة دالة على صدقه هي ناقة مملوكة لله وحده، لم يكلفهم علفها ولا القيام عليها، وغاية ما كلفوا به نحوها أن لا يتعرضوا لها بسوء ويخلوا بينها وبين أرض الله تسرح فيها. وحذرهم من حلول العذاب الأليم بهم إذا هم مسوها بأذى. وليقربهم من الهدى الذي جاءهم به ذكرهم بما آتاهم الله من فضل، فقد جعلهم القائمين على الحضارة الإنسانية بعد عاد، ومكنهم من الأرض التي كانوا يسكنونها فيسر لهم بناء قصور في سهولها، وأن ينقروا في الجبال بيوتا لسكنهم أيضا. حرك ضمائرهم ليشكروا الله على النعم التي أنعم بها عليهم شكرا يصرفهم عن الإفساد في الأرض. كان موقف الزعماء المستكبرين أن رفضوا الدعوة وحاولوا أن يصرفوا عنه الذين آمنوا به من المستضعفين، ولكنهم خابوا في

ذلك وثبت المستضعفون على إيمانهم. أعلن الزعماء المستكبرون عن رفضهم الإيمان بما آمن به المستضعفون. ثم عزموا على حسم الأمر مع صالح، وذلك بأن دبروا إظهار كونه غير مرسل بقتل الناقة التي هي معجزته.
وفعلا دبروا طريقة لقتلها، ثم تحدوا صالحا بقولهم: قد قتلنا الناقة فسلط علينا العذاب الذي هددتنا به إن كنت فعلاً واحدا من المرسلين. لم يمهلهم الله إلا ثلاثة أيام، ثم أخذتهم رجفة قتلتهم جميعا وتركتهم جثثا منكبين على وجوههم.
أسف صالح لما انتهى إليه أمرهم وقال أسفا معبرا عن ذلك: يا قوم لقد أبلغتكم ما ستكون عليه عاقبتكم، وبذلت جهدي لأساعدكم على سلوك طريق الهدى والصلاح، ولكن عنادكم جعلكم تعرضون عني ولا تحبون متابعة نصحي.

بيان المعنى العام :

قبيلة ثمود من القبائل العربية البائدة، خلفت في الحضارة عادا قوم هود. أتبع القرآن قصة هود بقصة ثمود. ولما وردت تفصيلات في القصة لم تذكر في هذه السورة، أرجأت بيانها إلى مكانها من القرآن. أذكّر بما قدمته في المقدمة من حرصي على قرن ما أكتبه بالنص في مكانه الذي ورد فيه.
فأنا غير معني بالقصة كما وقعت في التاريخ ولا بجمع تفاصيلها في مكان واحد، بل أقتصر على توضيح النص القرآني كما ورد في موضعه حتى يكون أقرب إلى أفهام إخواني المؤمنين عند تلاوته. فإذن أتابع قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام كما وردت في هذه السورة:

73-74، وإلى ثمود...ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

افتتح دعوته كما افتتحها الرسل من قبله بقوله : أفردوا الله بالعبادة، إنه لا يوجد إله غير الله حقيق بأن يعبد. أنا مؤيد بحجة واضحة من ربكم الذي تولاكم بعنايته. هذه الحجة البينة حاضرة أمامكم تشاهدونها: ناقة يملكها الله وحده. ولذا فإنه لا يحل لأحد منكم أن يتسلط عليها. اتركوها ترعى في أرض الله، وكونوا على حذر من الاعتداء عليها، إنكم مهددون بعذاب أليم ينتزعكم انتزاعا لو مسها أحد بسوء. أحيوا في نفوسكم مِنن الله عليكم التي منها : أن الله بارك فيكم فجعلكم تواصلون بناء الحضارة بعد عاد، ومكنكم من الأرض تمكينا تقيمون قصورا في السهول تنعمون بسكناها، وهداكم إلى النحت في الجبال فتتخذون منها بيوتا، اذكروا هذه النعم ولا تغفلوا عنها، ولا تفسدوا في الأرض الفساد الذي يحولها عن النظام الذي خلقها الله عليه.

75-76، قال الملأ الذين ـــبه كافرون.

بعد هذا التذكير والتوجيه الذي تألفه النفس الطيبة، حاول الذين أفسد الكبر فطرتهم تأليب المستضعفين من الدهماء ضد صالح ﷺ، فتوجهوا إليهم بالسؤال التالي: هل عندكم يقين بأن صالحا مرسل من ربه ؟ كان جواب المستضعفين واضحا: إنا على يقين من صدقه في جميع ما أخبر به ومؤمنون به. فكانت صفعة للمستكبرين.

إن استكبارهم أثر فيهم ما هو شأن مرض الكبر أن يؤثره في النفوس، فتصلبوا في عنادهم، فجمعوا بين دعوة صالح وانفتاح المؤمنين لتصديقه وقالوا: نؤكد تأكيدا قاطعا أنا كافرون بما آمنتم به. على معنى أن إيمانكم لا يقوّي صالحا.

ثم دفعهم تصلبهم في الكفر والعناد إلى الاستخفاف بما أوعدهم به إذا لم يحترموا الآية :عدم التعرض للناقة. وقد صمموا على إظهار عدم صدقه بالتعرض للناقة، فإنه ما دامت الناقة ترعى في أرض الله سالمة يكون ذلك طعنا في قرارهم وتكثيرا للمؤمنين به. فنفذوا ما تصوروه أنه الحل الحاسم بينهم وبين دعوة صالح ﷺ، وتجاوزوا الحد **(كما يعبر عنه في العرف تجاوزوا الخط الأحمر)** وقتلوا الناقة. ليس معنى قتلهم للناقة أنهم تولوا جميعا قتلها، ولكن على أنهم دبروا ورضوا بقتلها معتبرين ذلك نصرا لهم. ثم أظهروا التحدي لصالح بعد ذلك فقالوا له: إن كان ما ادعيته حقا، وأن الله الذي هددنا بالاستئصال هو الذي أرسلك إذا قتلنا الناقة فها نحن قتلناها، ولينفذ فينا وعيده.

77 -78، فعقروا الناقة...جاثمين.

لم يمض على اعتدائهم وقت طويل، ثلاثة أيام كما سيأتينا في سورة هود، فارتجفت بهم الأرض رجفة قضت على حياتهم، تحولوا إلى جثث هامدة منكبين على وجوههم.

تركهم صالح في وضعهم وانصرف عنهم متحسرا على ما أصابهم، مظهرا لذلك بقوله: يا قوم قد اجتهدت في إنقاذكم من هذا المصير، لقد أبلغتكم ما أوحاه إلي ربي، وبذلت جهدي لأبين لكم ونصحتكم نصح المشفق عليكم من حلول ما حل بكم، ولكن عنادكم وإصراركم انتهى بكم إلى الإعراض عني إعراض من لا يحب الصلاح ويكرهه.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفاحشة : الفعلة الشديدة القبح.

ما سبقكم :لم يفعلها أحد قبلكم.

مسرفون :مبالغون مبالغة مرفوضة في الشهوات.

يتطهرون : يتكلفون الظهور بمظهر المتعففين.

الغابرين : الهالكين.

بيان المعنى الإجمالي:

قصة لوط في هذه السورة مفادها: أنه أصبح الشذوذ الجنسي ظاهرة استساغها الرأي العام في القرية التي كان يسكنها سيدنا لوط. بعثه الله إليهم ليقلعوا عن فعل الفاحشة. عرفهم بما في عملهم من الفساد الشنيع الذي لم يفعله أحد من المجتمعات التي قبلهم. عجب لكم أتتركون النساء وما حباهن الله به من مميزات خِلْقية تشبع الرجل جنسيا والمرأة في آن واحد. إنكم قوم أسرفتم في الشهوة واللذة فوقعتم فيما وقعتم فيه من مناكر! لم يجدوا جوابا، فكان ردهم أن قرروا إخراج لوط وأهله من القرية. وفي سخرية برروا إخراجهم لهم، بأنهم قوم يتكلفون الطهارة فليذهبوا إلى حيث يجدون الطهر. أنجى الله لوطا وأهله إلا امرأته، وأنزل على المفسدين المسرفين الشذاذ مطرا من السماء أبادهم ولم يفلت منه أحد منهم. إنهم أصبحوا مثارا للعبرة فانظروا إلى عاقبة المجرمين وحصنوا أنفسكم من الإجرام حتى لا يأخذكم العذاب.

بيان المعنى العام:

أُتبعت قصة صالح بقصة لوط عليهما السلام. وكان بين قصة صالح وما سبقها من القصص تشابه، أما قصة لوط فهي تتميز بميزات خاصة.

80-81: ولوطا إذ قال لقومه...قوم مسرفون.

تبدأ هذه القصة بأن أول ما اهتم به هو نهي قومه وتشديد النكير عليهم بسبب ما انتشر فيهم من فعل الفاحشة. هذه الفعلة التي بلغت أقبح الدرجات في السفالة. أن

يقضي الذكر شهوته الجنسية من ذكر مثله، هو قلب لقانون الحياة وفساد في الطبع وقطع للتكاثر، وتعريض للفاعل والمفعول إلى أمراض عصبية (الإيدز - السيدا)فقد أثبتت ملاحظة أهل الاختصاص من الأطباء أن هذا المرض القاتل قوي الانتشار بين الشواذ جنسيا. وتأثيره في اختلال الشخصية يقيني، حمل بعض الدول الكبرى على منع الشواذ جنسيا من الخدمة العسكرية.

والإطلاق القرآني(فاحشة) - القبيح الشديد القبح، خير تعبير وأصدقه عن هذه الفعلة المخربة. انتشرت هذه الفعلة في قوم لوط انتشارا جعل الرأي العام يستسيغها ولا يرفضها، وهو مؤذن ببلوغ عدواها إلى الأمم المجاورة. ولو استساغت البشرية ذلك فإنه يكون إيذانا بانقطاع الجنس البشري، وذهاب الأسرة وما يتبع ذلك من النظام الاجتماعي بصفة عامة. فأنقذ الباري سبحانه البشرية بإرسال سيدنا لوط لينهاهم نهيا باتا ليقلعوا عما ألفوه. وذكّرهم بأنهم قد أحدثوا في العلاقات الجنسية حدثا منافيا للفطرة، إذ أن البشر من عهد آدم إلى زمنهم لم يقع منهم ذلك. وأكد نهيه بتجسيم مع تصريح لفسادهم : أنهم يقضون شهوتهم الجنسية من الرجال ويتركون النساء اللاتي أودع الله في تركيبهن الجسمي ما يثير الشهوة، ورزقهن وسامة ورقة لا توجد في الذكور، وفي جهازهن التناسلي ما يتكامل به مع الذكور ليتم الإنجاب. النعمة الجليلة التي من الله بها على الجنس البشري.

وقد سمعتُ من الأسر العقيمة ما يقاسونه من الحياة الرتيبة، عندما تأخذ العاطفة في الهدوء. إن ما يرزق الله به الزوجين من الأولاد يجدد حياتهما فتقوى الألفة بينهما. وأنهى دعوته لقومه بإيقاظهم ومخاطبتهم بقوله : لقد فسدتم تبعا لإسرافكم في الشهوة، نبههم إلى أن قضاء الشهوة في أصله أمر مشروع ؛ لكن الشهوة إذا عرمت وخضع الإنسان لتلبية ما تدعو إليه، فإنها تهوي بصاحبها إلى الرذيلة والفساد.

لم يذكر القرآن أنه أمرهم بعبادة الله مما يفهم منه أنهم ما كانوا مشركين. وأفهمُ من هذا ما يدل على عناية الله بصلاح العقيدة أولا، وبصلاح العمل المحقق لحسن الخلافة في الأرض ثانيا. فقد ورد نمط العناية بالعقيدة في قصص نوح وثمود وصالح، وجاءت هذه القصة لبيان النمط الثاني من هداية الله للبشر ليستقيموا في سلوكهم، ولا يخضعوا للشهوات.

82←84، وما كان جواب... عاقبة المجرمين.

بما ذا أجابه قومه؟ أجابوه بعزمهم على إخراجه ومن كان على شاكلته من القرية، بل أصدروا أمرهم بتنفيذ ما خططوا. وقرنوا إبعادهم من القرية بسخرية لاذعة، بما

أن لوطا وأهله أناس يتكلفون الطهارة الخلقية، وينفرون مما قبله المجتمع وينكرونه، فيكون إخراجهم لا ضرر منه عليهم. أنجى الله لوطا وأهله من العذاب الذي حكم بإنزاله عليهم، فخرجوا من القرية قبل حلول العذاب بأهلها. واستثنى الله امرأة لوط فهلكت مع الهالكين. وصورت الآية العذاب: أن الله أنزل عليهم من السماء مطرا قاتلا لم ينج منه أحد من القوم المسرفين.

وبعد أن تم المشهد يأمر القرآن كل من يتمكن من التدبر أن يتأمل في عاقبة الذين يعبدون شهواتهم ويقتحمون المناكر، ليكون ما وقع لقوم لوط عبرة سارية مع الزمن. ويمكن أن يكون الخطاب لمحمد ﷺ، أن ينظر في عاقبة المفسدين ليتسلى عما يلاقيه من ضلال قومه.

على أولياء الأمر أن يعملوا على استئصال الشذوذ الجنسي من المجتمعات، وأن تتجه العناية في التربية المدرسية والاجتماعية بغرس الاشمئزاز من الفاحشة، وأن يعاقب الفاعل والمفعول به عقوبة رادعة. والعقوبة على اللواط عقوبة تأديبية لم يرد نص من الكتاب ولا من السنة يحدد مقدارها. وبناء على ذلك فعقاب مرتكبها عقابا رادعا لا بد منه، ويجتهد الحكام في تقديره شأن التعزير. وقد عُزر الشذاذ بعقوبات مختلفة حسب الاجتهاد في تاريخ القضاء الإسلامي، من الحرق والرجم إلى الجلد والسجن.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أوفوا : أعطوه وافيا غير ناقص.

البخس : احتيال أحد طرفي التعامل ليحط من قيمة المشترى.

الصراط : الطريق الموصل للقاء شعيب ﷺ.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه قصة شعيب مع أهل مدين. فقد أرسل الله إليهم شعيبا واحدا منهم فأمرهم بإفراد الله بالعبادة، إذ لا يوجد إله حقيق بأن يعبد سواه. وهذا دليل واضح من ربكم. وبعد أن وثق من إبلاغهم العنصرين الأساسيين: عبادة الله وحده، وأنه رسول. أمرهم أن يقيموا علاقاتهم الاقتصادية على الحق والعدل، وذلك بأن يعطوا لكل متعامل حقه من الكيل أو الوزن، ونهاهم أن يتحايلوا ببخس أصحاب السلع قيمتها الحقيقية ليستولوا عليها بثمن أقل. ونهاهم أن يعملوا في الأرض عملا يفسد القوانين التي خلقها الله عليها. وأجمل بعد التفصيل فحرضهم على تطبيق ما أمروا به لأنه خير لهم في الحاضر والمصير إن كانوا حقا مؤمنين. ونهاهم عن التعرض لمن يريد أن يتصل بشعيب بالوعيد لمن آمن والتشكيك لمن لم يشتد عزمه، وعن قلب الحقائق بإظهار ما جاء به على غير الوجه الذي بشر به.

ثم حرضهم على ترك العناد بتذكر نعم الله عليهم، فإنهم يعلمون حق العلم أنهم كانوا جمعا قليل العدد فبارك الله فيهم ومنعهم من الأوبئة، فكثروا حتى صاروا أمة. وهددهم بما آل إليه أمر المفسدين. وختم دعوته وقد انقسموا قسمين: مؤمن وكافر. فنادى فيهم جميعا :اصبروا حتى يحكم الله بين المؤمنين والكافرين الحكم الحاسم العادل، فإنه سبحانه لا أعدل من حكمه.

بيان المعنى العام :

85-86، وإلى مدين أخاهم شعيبا...عاقبة المفسدين.

أرسل الله إلى مدين، وهي أمة سميت باسم جدها مدين. وما ذكره النسابون في سلسلة نسبه لا توجد عليه حجة مقبولة. كان أول اهتماماته أن يفرد قومُه الله بالعبادة، فدعاهم إلى عبادة الله وحده مؤكدا أنهم لا بد لهم أن يعبدوا خالقهم ولا خالق إلا الله، فهو وحده المستحق بأن يعبد. وأعلمهم أنه مرسل من الله إليهم، وأن الله أيده بحجة واضحة تصدقه جاءتهم من عند الله ولا يمكن أن تأتي من غيره. بعد أن غرس هذين المبدأين عبادة الله وحده، والتسليم بأنه رسول الله إليهم اعتنى بإصلاح الخلل الاجتماعي في التعامل، فأمرهم: بأن يلزموا العدل في المبادلات التي تقع بينهم، فمن كال فالواجب عليه أن يمكن الطرف الآخر من حقه كاملا، وكذلك من قام على الميزان، حتى يطمئن كل واحد منهم لغيره، وتنقطع أسباب الخصومات ويشعر بالتكامل مع الآخر.

أن يبتعدوا عن الاحتيال الذي يمكن الأكثر دهاء من الاستيلاء على شيء من مال صاحبه بإيهامه أن سلعته بائرة لا تساوي شيئا، أو يصور له السوق على أنه نازل، أو أن يظهر لغيره من المشترين أنه من ذوي الخبرة ويعطي فيها ثمنا أقل من قيمتها ليصرف الناس عنها ويفوز بها بالثمن الدون .

وبالجملة فالبخس المنهي عنه أن يتحايل على صاحب السلعة ليستولي عليها بثمن قليل، ومثله من يحسد الجالب فيخيل إليه أن قيمة سلعته دون الحقيقة، أو لا يرغب فيها الناس. والبخس هدم للأمانة التي بضياعها يضعف رواج السلع ويثبط الجالبين الذين يحدثون الرواج الذي ينبني عليه الازدهار الاقتصادي. أن لا يفسدوا الأرض بما أنهم مؤتمنون عليها، الأرض التي سخرها الله لكم وطوعها لنشاطكم، وبناها على قواعد تمكنكم من استثمار خيراتها والتقدم بمنتجاتها كما ونوعا. حافظوا على ذلك، إياكم أن تفسدوا أرض الله بسوء الاستعمال، أو إدخال عناصر مخربة تقضي على خصوبتها ووفر عطائها.

وبالجملة فإن كل ما أمرتكم به من إفراد الله بالعبادة، وتصديقي فيما أخبركم به عن ربكم، والعدالة في التعامل، وتشجيع العاملين في الاقتصاد على بذل مزيد من النشاط، والحفاظ على الأرض لتواصل إنتاجها، هو هدى من خالق الكون فيه خير لكم فأنتم المنتفعون به في الدنيا والآخرة. فإن كنتم مؤمنين يكون ما أمرتكم به خيرا لكم، ولا يتحقق أي خير لكم إن لم تؤمنوا. ذلك أن جرثومة الشرك تهتك كل صلاح للفرد والجماعة في الدنيا. إذ الشرك منزلق للفساد ولمخالفة كل ما أمرتكم به، وأما في الأخرة فخسارتكم إن لم تؤمنوا تكون أبين وأوضح. وبعد أن رغبهم في الإيمان وما يقترن به من خير كثير اهتم بقضية خطيرة من قضايا تمرد أهل مدين نهاهم عنها، فإنهم حسب نص القرآن كانوا يرقبون المسالك والطرق المؤدية إلى لقاء شعيب، فيهددون من تفتح قلبه للإيمان به، ويصدون من عزم على لقائه، ويقفون سدا عن وصولهم لدين الله الذي يرضاه الله (**عن سبيل الله**) ويحرقون تحريفا باطلا ما جاء على لسان شعيب، يبغون من ذلك أن يظهروه بمظهر يكون به بعيدا عن الاستقامة حتى ينفروا منه الساعين لقبوله. ثم ذكرهم بنعم الله التي خصهم بها والتي يتقلبون في فضلها، فأمرهم أن يتذكروا تاريخ أمتهم، فقد كانوا جماعة قليلة العدد ليس لها تأثير، فقدر الله ما بارك به في نسلهم، وحماهم من الأوبئة، فكثر عددهم وأصبحوا أمة لها وزنها. وذكرهم أيضا بما فعل الله بالأمم التي خرجت عن حدوده وأفسدوا، ومن أعظم الفساد الشرك ومنع الناس من الدخول في دين الله،

انظروا كيف كانت عاقبتهم. هددهم شعيب بأن سنة الله في القوم المكذبين واحدة وأنه سيستأصلهم كما استأصل المفسدين من الأمم السابقة.

87- وإن كان طائفة...وهو خير الحاكمين.

ختم شعيب مواجهتهم بعد ما تبين انقسامهم إلى طائفتين: طائفة آمنت به وعملت بوصاياه بعد أن اعتقدت أنه رسول موحى إليه من رب الناس. وطائفة واصلت ما هي عليه من الكفر والتكذيب. واجه الطائفتين معا بأن على المؤمنين أن يصبروا حتى يأتي نصر الله وينفذ وعيده في الكافرين، وهدد الكافرين أن عليهم أن ينتظروا فإن ما أوعدهم آت لا محالة. وهو ما سيحكم به رب العباد، الذي يصدر حكمه عن العدل المطلق. فلا أعدل ولا أفضل من حكمه.

• قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

العود : الرجوع.

الملة : الدين.

افتح : احكم.

خاسرون : معرضون للأضرار.

بيان المعنى الإجمالي :

ما إن أتم شعيب رده القاطع لحججهم، الواضح البين، حتى حزموا أمرهم فخيره كبراؤهم بين أمرين :إما أن يخرجوه ومن آمن معه من القرية، وإما أن يعلنوا رجوعهم عن دينهم ويعبدوا آلهتهم. رد عليهم شعيب هل أنتم مصممون على إكراهنا على ذلك ؟اعلموا أن ما ندعوكم إليه هو من عند ربنا ولا نستطيع أن نعبد ما تعبدون بعد أن نجانا الله من الشرك، إلا إذا تعلقت إرادته بإضلالنا، فإنه لا راد لحكمه، فإنه الحكيم العليم بكل شيء. إنا متوكلون عليه فهو كافينا، ثم توجه بالدعاء إلى ربه أن يحكم بينهم وبين الكافرين، إن حكمك الحق فأنت خير الحاكمين لا يغيب عن علمك شيء وعدلك هو العدل الكامل.

أفحمهم بمنطقية كلامه وبصدق لهجته فخشي رؤساء الكفر أن يتأثر أتّباعهم به فقالوا لهم : إنكم إن اتبعتم شعيبا فستغضب عليكم الآلهة وتخسرون حياتكم. بعد ظهور صلابتهم في الكفر أخذتهم رجة قضت عليهم وتركتهم جثثا هامدة منكبين على صدورهم على هيئة الأرانب. وأعلن القرآن: أنّ الذين كذبوا شعيبا استؤصلوا ولم يبق لهم أي أثر، وكانوا هم الخاسرين لا المؤمنين بشعيب. تركهم شعيب على وضعهم وقال : يا قومي لقد أبلغتكم ما أوحى الله به إلي، لم أحجب عنكم شيئا منه، واجتهدت لتسلكوا ما يوجب مرضاته ولا تتعرضوا لنقمته شأن الناصحين. إن خراب مدينتهم وذهاب قومها الكافرين عن آخرهم لمنظر يثير الأسى ولكن كفرهم وعنادهم جعلهم أحقاء بالنهاية التي اختاروها لأنفسهم فلا حزن عليهم.

بيان المعنى العام :

88. قال الملأ الذين استكبروا...كنا كارهين.

بعد أن سمعوا خطاب شعيب المؤكد على وجوب قبولهم ما جاء به، المهدد لهم إن تمادوا على كفرهم، برز رؤساء القوم الكافرين، شامخين مستعلين في الخطاب، مظهرين قوتهم ومعتزين بها، وقالوا لشعيب: أنت بين خيارين لا ثالث لهما :

1) أن لا نبقيك أنت ولا أحدا ممن اتبعك مقيما في أرضنا.

2) أو أن تترك كل ما جئت به وتعود إلى ديننا. خطاب باستعلاء وغلظة.

89←91 : قد افترينا...في دارهم جاثمين.

قال شعيب: أنتم مصممون على هذا وإن كنا تحت الضغط كارهين لما عرضتم. اعلموا : أنّ الخلاف ليس بيننا وبينكم في أمر اخترعناه أو رأي نبع من تفكيرنا. إني مبلغ عن الله فما تدعونني إليه من قبول دينكم يدفع بنا إلى أحط منزلة وأخبثها،

إذ نكون قد حولنا ما أمرنا به ربنا من عبادته والتزام شرعه إلى دينكم وهو كذب عليه، وهو الآخذ بناصيتنا. وقد نجانا، بما أنزل علينا من وحيه، مما أنتم عليه. واعلموا أنه بعد أن شرح الله صدورنا للإيمان فلا يمكن أن نصير أعضاء في ملتكم، إلا أن تتعلق قدرته وإرادته سبحانه بإضلالنا. ذلك أن الله هو وحده الذي وسع علمه كل شيء في الحاضر والمستقبل. على معنى أن محاولتكم إضلالنا محاولة فاشلة فأنتم أضعف من أن تؤثروا في عقيدتنا؛ والضغط علينا لا يحقق لكم ما تريدون، فما كان الدين ولن يكون تحت الإكراه.

واصل شعيب محاجته مدمجا في أثنائها بعض الحقائق الإيمانية، شأن المصلحين أنهم يغتنمون كل مناسبة لتركيز مبادئهم، فقال : إن علم ربنا شمل كل شيء، فلا يغيب عنه أي أمر. لا تظنوا أن تهديدكم أثّر فينا فنحن قد توكلنا على الله في نشر دينه وفي إقامة الحجة عليه، وربنا لا يضيعنا فهو ولينا ووكيلنا. وكلما واصل الرد عليهم زادت حجته وضوحا وإيمانه نصاعة وقوة، فتوجه إلى الله داعيا، ربنا افتح (أي احكم) بيننا وبين قومنا المهددين لنا حكمك الذي لا يفارق الحق، فإنك ربّنا خير الحاكمين، لأن الحكام قد يضللهم الشهود أو قدرة الخصم على المغالطة، أو يفقد الدليل المبين للحق. والله سبحانه عندما يحكم حكما فإن حكمه لا يتأثر بما يمكن أن يتأثر به حكم الحكام. ارتج رؤساء الكافرين بشعيب، من قوة حجته ووضوح بيانه، فأسرعوا بمخاطبة الممالئين لهم على الكفر حتى لا ينفلتوا من دينهم فخاطبوهم قائلين : نقسم لكم أنكم ستصابون بالأضرار إن اتبعتم شعيبا، وستخسرون بغضب الآلهة عليكم. فثبتوا على العناد والكفر.

عجّل الله عقوبتهم، فارتجفت بهم الرجفة فصاروا جثثا هامدة لا حراك بها، صرعى في كل مكان، وإنه لمشهد مرعب في شوارع المدينة التي يسكنونها وفي منازلهم، كل الكافرين وجوههم إلى الأرض على صدورهم، وأرجلهم مقرونة والموت سيد الموقف. وسيأتينا تتبع أوسع لما أصابهم في سورة هود إن شاء الله.

92-93، الذين كذبوا شعيبا...على قوم كافرين.

يعلق القرآن بعد ذلك على الحدث : يبرز الهلْكى بأنهم هم الذين كذبوا شعيبا، كأنهم لم يبقوا يوما في مدينتهم، امحت آثارهم وهلكوا جميعا (**كأن لم يغنوا فيها**) ويبرز أيضا أن ما خوّفوا به وما خافوه من الخسارة، قد حل بهم. يبدو في نهاية القصة سيدنا شعيب بعد ما حل بقومه، يبدو تاركا لهم على وضعهم، ثم يجيش في نفسه ما أبقاه الحدث في نفسه فيخاطبها مستحضرا لهول ما حدث : يا قوم لقد بذلت جهدي

لأنقذكم وبلغتكم ما أوحى به الله إلي، وكشفت لكم عن مصـيركم كشـف مـن يريـد لكـم الخير والنجاة. وفي هذا التعداد ما يثير الإشفاق عليهم فيعـود إلـى نفسـه موقظـا لهـا : كيف يحزن على قوم كافرين ؟ فهم الذين اختاروا مصيرهم.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95)

بيان معاني الألفاظ :

أخذناهم : أصبناهم بالمكروه الذي لا يستطيعون دفعه.

البأساء : المصائب الشديدة في الأمال.

الضراء : المصائب في البدن.

يتضرعون : التضرع التذلل والمسكنة.

التبديل : التعويض.

عفوا: كثروا.

السراء :النعمة ورخاء العيش والضراء ضدها.

أخذناهم : أهلكناهم.

بغتة: فاجأهم الهلاك.

بيان المعنى الإجمالي :

يسلط الله على الذين يرفضون رسالات أنبيائه ضـروبا مـن الشـدة والأسـقام، رجـاء أن يدركوا ضـعفهم وينتفـي غـرورهم فيلتجئـوا إلـى الله بالطاعـة والـدعاء. ولا يـوالي عليهم المحن، بل يمهلهم فينشـر علـيهم رحمتـه وييسـر لهـم معيشـتهم ويبعـد عـنهم الأمراض حتى يكثر عـددهم، ولكـنهم يعـودون إلـى الكفـر بـنعم الله، ويربطـون مـا حصل لهم بأن ذلك من سنن الكون، وقد عـاش آبـاؤهم متقلبـين بـين الرخـاء والشـدة، ويواصلون بهذا التصور تمـردهم علـى هدايـة الله، وعنـدها يأخـذهم عـذاب الله أخـذة يكونون غير مستعدين لها ولا متوقعين قدومها.**(بغتة)**

بيان المعنى العام:

94-95، وما ارسلنا...وهم لا يشعرون.

بعد أن تتابع في القصـص السـابقة إيقـاظ الرسـل لأقـوامهم وهـدايتهم إلـى الطريـق المستقيم، مفصلا الأحداث في كل قوم مع نبـيهم، تـولى القـرآن بيـان سـنن الله العامـة

في إرسال الرسل. فمن سننه سبحانه أنه يبعث الرسول إلى البشر يعرفهم بما يوحى إليه ويبينه ويقنع به، فإذا قابلوا هدايته بالإعراض والتكذيب، سلط عليهم الشدائد التي من شأنها أن تخفف من غلوائهم واعتدادهم بقوتهم، وتعود بهم إلى التأمل في قدراتهم فيقلعوا عما كانوا عليه، ويتقبلوا الهدى الذي جاءهم من ربهم.

وبعد ذلك ييسر عليهم حياتهم فتحسن أحوالهم، حتى يكثروا وتتوافر عندهم الخيرات. وعندها يقولون : إن التقلب بين الضر والسعة، والخصب والجدب، هي تحولات تسير عليها دورات الكون، قد عاش آباؤنا على هذا النحو، ولا دخل للاستقامة ولا تتبع الشهوات في تلكم التحولات، ولا تأثير لما يدعونا إليه الرسل في مجيْ النفع أو الضر. وعندها وقد تمردوا ولم يرعوا حق الله فيما أُغدق عليهم من النعم ولم يشكروا فضله، يهلكهم الله فجأة دون أن يكونوا قد استعدوا لما ينزل بهم من عذاب، وهم غير شاعرين بقرب ما سيحل بهم من مكر الله. فليحذر الغافلون عن سنة الله هذه، فقد ذكّر بها في كتابه لكيلا يغتروا بالظروف المواتية، وما هم عليه من رخاء.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

فتحنا : مكناهم.

بركات : جمع بركة وهي الخير الذي لا تبعة على صاحبه في الآخرة.

ضحى : الزمن التالي لطلوع الشمس صباحا عندما يتبين ضوؤها.

المكر : إضرار بعد إعداد يخفى على من يقع عليه.

يهد: يرشد.

بيان المعنى الإجمالي :

تحريض من الرب الكريم للبشر الذين تتكون منهم مجموعات أن يصلحوا عقيدتهم بالإيمان، وأن يراقبوا الخالق في سلوكهم فيلزموا الاستقامة **(التقوى)** لو حققوا ذلك لجزاهم ربهم بالخيرات الكثيرة والرخاء من السماء والأرض. ولكنهم تمردوا

وخرجوا عن الصراط المستقيم فسلط الله عليهم البلايا بسبب فسادهم. غالطوا أنفسهم فظنوا أنهم آمنون من عذاب الله، الذي سيحل عليهم، وهم لا يدرون متى سيحقق الله وعيده. قد يأتيهم العذاب وهم نائمون، أو في الضحى وهم لا هون يلعبون. ما أشد غفلتهم، كيف يكونون آمنين مما أعد لهم الله القدير من الهلاك. إنه لا يغفل عن بطش الله إلا القوم الذين كتبت عليهم الخسارة

بيان المعنى العام :

96- ولو أن أهل القرى...بما كانوا يكسبون.

تأكيد على حقيقة من العدل الإلهي، فإن أهل القرى الذين تم استئصالهم بعد أن تيسرت أحوالهم ونالهم من فضل الله ما نالهم، ما تسلط عليهم العذاب إلا لأنهم واصلوا حياة الكفر والفساد، ولو أنهم آمنوا فطهروا عقيدتهم من الشرك ومن عبادة الأوثان، ثم طبقوا شرع الله في حياتهم وكونوا لنفسهم بصلاحهم وقاية من عذابه، لو فعلوا ذلك لعمهم من الله الخير الكثير، ولأنزل عليهم النعم من السماء وأخرج لهم الخيرات من الأرض، فالسماء تمطر، والرياح تهب بالخير، والثمار تسلم من الآفات.

ولكنهم كذبوا بآيات الله وواصلوا ما هم عليه من فساد في العقيدة وفساد في السلوك، فأمهلهم الله ثم أهلكهم دون أن يفلت منهم أحد، بسبب ما كسبوا من السيئات باختيارهم.

97←99، أفأمن أهل القرى...إلا القوم الخاسرون.

ثم إن القرآن صرح بالغاية مما عرضه، وهو أن ينتبه البشر إلى أنهم بإعراضهم سينزل عليهم العذاب كما صب على من قبلهم صبا. كيف يأمن البشر نزول العذاب لردعهم؟ إنه لا أمن لهم لا عندما ينامون في الليل ولا عندما يأخذهم اللهو في الضحى. فإذا كانوا غير آمنين في الأوقات التي يخلد فيها الإنسان إلى الراحة واللعب فمن باب أولى أنهم لا يأمنون في غيرها من الأوقات.

وبصفة عامة هل أطمأنوا إلى أنهم يمضون في حياتهم ولا يتعرضون لمكر الله، إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ۚ

وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

يرثون : يحلون بالأرض حلول الوارث في المخلف.

أنبائها : أخبارها.

العهد : الوعد المؤكد، والالتزام.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب كيف لم يتعظ الذين يسكنون الأرض التي أباد الله أهلها بسبب كفرهم، كيف لم يتعظوا، هددهم :إني لو شئت لمحقتكم بسبب ما ترتكبونه من ذنوب كما أبدت من قبلكم. وأن أقفل على قلوبكم فلا تنتفعون بما تسمعون كأنكم صم.

ثم سحب القرآن على القصص السابقة ما يجمع بينها، فحقق القرآن :أن تلكم الأمم قصّ علينا بعض أخبارها، وأن رسلهم قدموا لهم الدلائل على صدقهم واضحة بينة، وأنهم قابلوهم من أول الأمر بالرفض لدعوتهم، فلما واصلوا توضيح ما أتوا به وأقاموا عليه الأدلة ونفوا الشُبه تمادوا على كفرهم عنادا حتى لا يتراجعوا عن تكذيبهم السابق.

وكذلك يطبع الله على عقول الكافرين فلا ينفذ إليها من نور الحق أي شعاع هاد. وكما فقدوا الإيمان فقدوا الخلق المستقيم فالعهد لا يفي به إلا من آمن برسالات الله. والأكثرية كافرة خارجة عن حدود الله.

بيان المعنى العام:

100-أولم يهد.....فهم لا يسمعون.

أقدم بين يدي هذه الآية بمقدمة حاصلها : إن من شأن البشر أن يفتح لهم كتاب الكون ما يوقظهم إلى أن الظواهر لها ما وراءها، وأنهم إذا ما تعمقوا في النظر انكشفت لهم أسرار ينتفعون بها في حياتهم. وإن هذه هي ميزة من ميزات الإنسان التي يتميز بها عن الحيوان الذي يقف عند ما تنقله له حواسه ولا يتجاوز الظاهرة المحسوسة. وبناء على ذلك فإذا مر الإنسان على الظواهر ولم يتأملها ولم تهده إلى

ما ينفعه في حياته ويعدل تبعا لـذلك سـلوكه، يكـون هـذا مثـارا للعجـب. علـى هـذه القاعدة ورد هذا النص القرآني الكريم.

حرك القرآن في صورة تعجبية البشر الـذين يعيشـون فـي الأرض التـي عمرتهـا أمـم قبلهم وتمردوا على سنن الله ولـم يحسـنوا فيمـا اسـتخلفهم الله فيـه، فسـلط الله علـيهم عذابه واستأصلهم ولا ترى لهم من باقية، كيـف يعيشـون فـي مسـاكنهم ولـم يعتبـروا بما وقع للماضين: أن الله قادر علـى أن يلحقهـم بمـن سـبقهم ويـدمرهم كمـا أهلكهـم، عجب! لِمَ لَمْ ينتبهوا إلى أن سلسلة ذنـوبهم ستعرضـهم للتـدمير والاستئصـال. ونجعـل ذنوبهم يتبعها أن تكون قلوبهم مقفلة عـن نفـاذ نـور الهـدى إليهـا، كمـا يخـتم علـى الرسالة بالطابع من الشمع فلا تفتح. رزقوا آذانا ولكن تصـميمهم علـى رفـض كـل مـا يأتيهم تبعه أن أصبحوا صما لا يسمعون.

101-102- تلك القرى...أكثرهم لفاسقين.

حوصل القرآن ما قصه علينا من أخبـار الأمـم الماضـية، وسـحب علـيهم مـا يجمـع بينهم فكان مما اهتم به: أن ما أخبر به عن القرى هـو مـن عنـد الله صـادق لا يختلـف عن الحقيقة في شيء، وأنه تعالى لـم يفصـل أخبـارهم بـل قـص علينـا بعضـها كمـا يشير إليه قوله تعالى: (من أنبائها) ولم يقل: أنباءها.

إنّ الله بعث لهم رسله وكل رسول كان مؤيدا بمـا يـدل علـى صـدقه بكيفيـة واضـحة تنفي كل شبهة. إنّهم سارعوا بتكذيب الرسـل، وصـابر الرسـل وبينـوا ورفعـوا الشُّـبه وأجابوهم عن تساؤلاتهم، وأسقطوا باطل حججهم، ومـع ذلـك لـم يؤمنـوا لأنهـم غيـر مستعدين للتراجع عما صرحوا به قبـل ذلـك مـن الكفـر. إن العنـاد والإصـرار كـان موجبا لمنع الله قلوبهم مـن التفـتح علـى الحـق، وكـذلك يفعـل الله بالمصـرين علـى الكفر.

إنهم جمعوا إلى الكفر والعناد، عدم الوفـاء بـالعهود التـي أخـذت علـيهم؛ سـواء فـي ذلك: الميثاق الذي أخذه الله على بنـي آدم كمـا سـيأتينا فـي هـذه السـورة فـي قولـه تعالى: (وإذ أخذ الله مـن بنـي آدم مـن ظهـورهم ذريـتهم وأشـهدهم علـى أنفسـهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنـا كنـا عـن هـذا غـافلين)[37] – أو ما ركزه في العقل البشري وفطر عليـه الإنسـان مـن الإيمـان بـالله. أو مـا كـانوا عليه في تعاملهم مع الرسل ومع المؤمنين فكلما عاهدوا عهدا حلوه ولم يفوا به.

[37] سورة الأعراف ، آية 172

وهذا شأن معظمهم إلا الذين فتح الله قلوبهم للإيمان ولذلك استثناهم القرآن. وإخلافهم للعهود هو شأن الكافرين الذين فقدوا ميزان القيم فهم لا يرعونها في سلوكهم.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملأ : الجماعة من علية القوم.

فظلموا بها: كذبوا بما تضمنته.

عاقبة : آخر الأمر ونهايته.

حقيق : واجب.

أرسل : ائذن لبني إسرائيل بالخروج.

بيان المعنى الإجمالي:

بعث الله موسى، بعد الأنبياء الذين قص علينا أخبارهم في سورة الأعراف هذه، إلى فرعون وكبار دولته. فظلموا أنفسهم بمعارضتها، ظلموا موسى بعدم تصديقه. ويدعو القرآن كل صاحب عقل وبصيرة أن يتأمل في عاقبتهم حتى لا يحل به ما حل بهم.

أعلم موسى فرعون بأن رب العالمين قد أرسله، وأن الواجب يفرض عليه أن لا ينقل عن الله إلا الحق الذي أوحى به إليه، وأن الله أيده بمعجزة واضحة بينة تثبت صدقه، وأن فرعون مأمور بأن يمكن بني إسرائيل من مغادرة مصر معه.

كان جواب فرعون: إن كنت مؤيدا كما تقول بشيء خارق للعادة فأظهره لنا إن كنت صادقا فيما تدعيه. عندها ألقى موسى عصاه من يده على الأرض، فتحولت إلى ثعبان حقيقي لا يشك الناظر في كونه ثعبانا.

ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها، ففاجأ الحاضرين بأن يده تحول لونها إلى بياض كأشد ما يكون البياض، يخالف لون جلده، في بياضها إشراق يستهوي الناظرين لمتابعة النظر إليه.

بيان المعنى العام:

103- ثم بعثنا من بعدهم موسى....عاقبة المفسدين.

تتابعت في هذه السورة قصص الأنبياء التي ختمت بالتأكيد على أن الذي فصلها هو الله الذي وسع علمه كل شيء. وعطف على القصص السابقة قصة موسى ﷺ، هذه القصة التي عني بها القرآن في سور كثيرة مفصلا بعض المراحل الهامة في حياته ابتداء من صباه الباكر، إلى بلوغه سن الرشد وقيامه بالدفاع عن قومه المستعبدين المظلومين، إلى زواجه وتشريفه بالرسالة، إلى تبليغه رسالته إلى فرعون وحاشيته المتحكمة في بني إسرائيل واستكبار فرعون والنهاية التي آل إليها أمره، إلى ما لاقاه من بني إسرائيل من عصيان والتواء وانحراف. وفي كل مناسبة يذكر ما يلائم الهدف الذي من أجله تم عرض الجانب الخاص.

وقد يأتي التعرض لموسى في شكل إشارة خاطفة كما ورد في قوله تعالى **(إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)**[38].

افتتحت قصة موسى في هذه السورة بلفت النظر إلى العبرة منها، ثم تتابع تفصيل حوادث كثيرة مما عنيت به القصة لتنتهي إلى ربط فوزهم عند ربهم باتّباع رسالة محمد ﷺ. ربط القرآن ب **[ثم]** بين قصة موسى والقصص التي سبقت في هذه السورة إشارة إلى أن رتبة هذه القصة وما تضمنته من مواعظ مرتبة فوق ما سبقها، كما سنعمل على الإشارة إليه.

تفتح القصة بتسجيل:

أن الله بعث سيدنا موسى ﷺ محملا برسالة منه. وأن الله قد أيده بما يثبت للناظرين صدقه، أيده بمؤيدات واضحة لا احتمال فيها. أن تلكم الرسالة كانت موجهة إلى فرعون ملك مصر، وإلى المقربين منه الذين كان لهم دور في تسيير دفة الحكم بما لهم من تأثير على فرعون. فكانوا جميعا مكلفين بالاستجابة لمضمون ما بلغهم. وأفهمُ من هذا أنه حسب النص، لم يدعُ موسى عليه السلام سكان مصر. إنّ فرعون وكبار رجال دولته كانوا ظالمين، ظلموا موسى بتكذيبه، وظلموا أنفسهم بمقابلة الدعوة بالرفض دون نظر في الحق الذي جاء به، وبالمكابرة وعدم الإذعان للمعجزات البينة.

إنّ مآلهم كان أسوأ مآل، دعا الله كل من له عقل أن يتعظ بعاقبة هؤلاء المفسدين، الذين دفعهم فساد تفكيرهم، وفساد عقيدتهم، إلى المصير الذي ستبرزه الآية فيما

---

[38] سورة الأعلى آية 18و19

بعد. وبهذا تكون فاتحة القصة داعية لكل عاقل أن يحمي نفسه من العناد والتكذيب بآيات الله.

104←108-وقال موسى يا فرعون...بيضاء للناظرين.

بعد هذه المقدمة الداعية للاعتبار أخذ القرآن يفصل مراحل القصة فسجل: أولا: عرض موسى، ﷺ، على فرعون أن رب البشر والأكوان جميعها (رب العالمين) أرسله لإبلاغ وحيه. خاطبه في أدب بدعائه ب (فرعون) الذي هو شارة الملك المصري، وأومأ من أول الأمر إلى مقام العبودية النافية لما يدعيه فرعون من الألوهية (من رب العالمين). وطمأن فرعون بأنه مدرك لما يقتضيه مقام الرسالة من وجوب التحري الكامل فيما يخبره عن الله. ثم أردف أنه مؤيد بحجة بينة ظاهرة تنفي عنه الريبة فيما يدعيه من الإخبار عن الله، وأنه أذن له بأن يبلغ فرعون: أن عليه أن يأذن لبني إسرائيل في الخروج معه ومغادرة مصر.

ثانيا: بدا فرعون، بعد سماعه للعرض، شاكا في صدقه : ولذا طلب منه أن يظهر هذه الآية البينة التي تنفي عنه التهمة وتثبت صدقه.

ثالثا: إن شأن موسى من الوثوق بنفسه هو كشأن رسل الله بعد تلقيهم الوحي، فلذلك لم يظهر المعجزة مع دعوته حتى طلبها فرعون. وإذ استراب فرعون في صدقه، وطلب منه إظهار معجزته، عند ذلك رمى على الأرض بعصاه، وإذا المفاجأة لجميع الحاضرين : أن العصا تنقلب ثعبانا حقيقيا لا تخييل فيه ولا خداع بصر. ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها، وتحصل مفاجأة ثانية : أن يده التي كانت في لون بقية جلده تصبح بيضاء كأشد ما يكون البياض، تثير الناظرين للتأمل فيها والتنعم بالنظر إليها، فهو بياض غير معهود، إذ يجتمع في هذه المعجزة شيئان: تحول لون جلد اليد في سرعة لم تتجاوز إدخال اليد في الجيب وإخراجها منه. وأنها تحولت إلى بياض خاص يدعو الناظرين إلى متابعة الرؤية لما فيها من جمال، ومن غرابة التحول السريع، حتى ينتفي كل توهم أو تخييل، ويتم الاطمئنان إلى أن ما شاهدوه حق واقع.

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ

سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

أرجه : أخره.

المدائن : جمع مدينة.

حاشر : الذي ينادي ليجمع الناس.

بيان المعنى الإجمالي:

وقع فرعون في حرج بعد أن قدم موسى ما يطلبه من فرعون، وبعد إظهاره للآيتين العجيبتين المؤيدتين له. وابتدأ التداول بين الحاضرين لاتخاذ الموقف الأفضل. فكان الرأي أن يؤجل النقاش مع موسى وأخيه هارون، وأن يبعث الملك في مدائن مصر من يجمع أعلام السحرة، متوقعين أن ما أتى به موسى هو من السحر وسيتغلب عليه علماء السحرة المجتمعون. ونفذ الأمر، وحضر السحرة في مجلس فرعون مدلين بقدراتهم وعميق علمهم، وسألوه أولا عن الأجر العظيم الذي سيبذله لهم بعد غلبهم لموسى؛ فأكد لهم بأبلغ تأكيد: إني سأمنحكم ما تأملونه وفوق ذلك أن يرقى بهم ليكونوا من حاشيته المقربين له.

بيان المعنى العام:

109-110: قال الملأ...فماذا تأمرون.

باغتت المعجزتان الظاهرتان فرعون ومن كان حاضرا مجلسه ذاك من كبار القوم ومقدميهم. وقد يكون أن فرعون طلب منهم وجهة نظرهم في هذا الإشكالية التي باغتتهم. المعجزتان بينتان ودعوة موسى لا تلائمهم.

قلبوا أوجه الرأي، فأقنعوا أنفسهم بأن ما أتى به موسى سحر عظيم من ساحر متمكن من علم السحر. وأن دعوته خطيرة جدا لأنه يريد أن يكون من بني إسرائيل عصابة حوله، يتملك عليهم ويخضعون له بالطاعة، وقد يقودهم إلى التغلب على أهل مصر كلها، أو أن دعوته إذا ظهرت في العامة فإنهم سينتقضون على حكم فرعون ويخرجون معه. استمع فرعون لمناقشاتهم، وللفروض التي رجحوها في أمر موسى، ولتصورهم للخطر الداهم الذي يمكن أن يصيب الدولة من دعوته. وعرضوا الحلول التي تتكفل بإنقاذ الموقف ؛ ثم توجهوا لفرعون ليأخذ القرار

المناسب. فطلب منهم أن يحددوا المقترح الأفضل في هذا المقام للخروج من المأزق.

111 - 112 - قالوا أرجه...سحار عليم.

كان الرأي المقترح، وهو الذي أخذ به فرعون : أن يؤجل النقاش مع موسى وأخيه هارون وأن لا يعجل بالرد، وطوي ذكر هارون في اللقاء الأول، وذلك بناء على أن القرآن في سرده للقصة قد يستغني عن بعض التفصيلات اعتمادا على ما يذكره في القصة في موضع آخر مراعاة لموقع تلك الجزئية في الموقع الآخر. وأن يبعث في مدائن مصر من يجمع له كل ساحر متمكن من علمه، ثم يحضرونهم إلى فرعون. إذ هداهم مراسُهُمْ السياسي إلى عدم الالتجاء إلى البطش، إذ أن ما وقع بين فرعون وموسى لا بد أن يكون قد شاع في أهل مصر، وأن تحديه بما أظهره من الآيات سيترتب عنه خلخلة نظام الدولة إذا لم يظهر تغلب العلماء السحرة عليه.

113-114: وجاء السحرة...لمن المقربين.

نفّذ القرار، وأقدم السحرة على فرعون مدلين بما عندهم من قدرات فائقة في السحر، فسألوا فرعون: أنفوز بالأجر الذي يتناسب مع قوة علمنا وغلبنا لموسى. كان جواب فرعون بالتأكيد أن أجرهم مضمون، وأن منزلتهم عنده سترتفع إلى مقام الحاشية المقربة منه.

قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

تُلقي : الإلقاء هنا عرض ما عنده مما تحدى به فرعون والملأ.

سحروا أعين الناس : جعلهما متأثرة بالسحر.

استرهبوهم : أدخلوا في نفوسهم الخوف والرهبة.

تلقف : تبتلع.

يأفكون: مضارع أفك من الإفك وهو الصرف من الحق إلى الباطل. وهو ما زوروه فقلبوا الحقائق في أعين الناظرين.

انقلبوا صاغرين : صاروا إلى مذلة.

بيان المعنى الإجمالي:

حضر السحرة معتزين بما أعدوه الذي هو أرقى ما وصلوا إليه من السحر. ولوثوقهم بقدراتهم خيروا موسى بين أن يبدأ بإظهار ما عنده أو يُقدِّمُون عليه. مكنهم موسى من البداية؛ وحسبوا أنهم قد خدعوه، فأسرعوا بعرض ما رتبوه، وإذا الساحة الكبرى تنقلب إلى ثعابين وأفاع تتحرك في اندفاع مخيف، وتمكن السحرة من الاستيلاء على أنظار المشاهدين الذين خُدعوا وظنوا أن ما يتحرك أمامهم حق، فاستولت الرهبة عليهم من هول ما يضطرب أمامهم. عندها أوحى الله إلى موسى يؤذنه بأن يلقي عصاه، ويتحول المشهد إلى صورة ما كان يتوقعها أحد من الحاضرين، تلتهم العصا التي تحولت إلى ثعبان يبتلع في سرعة مذهلة كل ما أعده السحرة فإذا هي أثر بعد عين. وانهزم السحرة انهزاما شنيعا وجللهم الذل بعد العز الذي دخلوا به، وذهبت آمالهم في الأجر الوفير والسمو إلى مرتبة المقربين من فرعون التي وعدهم بها. ولكن هذه الهزيمة فتحت بصيرتهم فخروا ساجدين وأعلنوا عما استقر في عقولهم: إنا آمنا برب العالمين كما عبر عنه موسى، لا بألوهية فرعون، نؤمن برب موسى وهارون الإله الحق.

بيان المعنى العام:

115- قالوا ياموسى...نحن الملقين.

هذا هو المشهد الذي اجتمع فيه موسى وأخوه عليهما السلام من جانب؛ وفرعون والملأ من قومه، وأعلمُ من كان في مصر من السحرة، وخلق كثير تسابقوا ليشهدوا الحدث العظيم الذي سيقوم به السحرة مجتمعين، مقدَّرٌ أن كل واحد منهم يضيف ما عنده من خبرة ومران إلى ما عند الآخرين ليتألف من مجموع ذلك سحر ما سبق للناس أن رأوا مثله.

ابتدأ المشهد بتخيير السحرة موسى بين أن يكون هو السابق في عرض ما عنده أو أن يتأخر عنهم. وذلك لإبراز ثقتهم بقدراتهم أمام الجمع الحاشد، وأنهم لا يخشون ما سيقوم به.

116- قال ألقوا...بسحر عظيم.

كان جواب موسى مختصرا صادرا عن ثقة مستندة إلى التأييد الرباني لا إلى العبث والتخيّل الشيطاني. أجابهم بكلمة واحدة ألقوا. فاسرعوا ظنا منهم أنهم كسبوا الجولة الأولى لأن المقدم هو الذي يبقى أثر فعله في المشاهدين.وكان صنعهم محكما استولى على أنظار الحاضرين فحملقوا فيه بين الإكبار لصنعهم وبين الرهبة من الحركة التي ماج بها المشهد. وكان عملهم بالنظر إلى القيمة التخييلية سحرا عظيما جدا.

117-118، وأوحينا إلى موسى...ما كانوا يعملون.

في هذا الوقت الرهيب، وقد ظن الحاضرون والسحرة أن موسى عاجز عن مقابلة سحرهم بما يبطله، في هذا الوقت يلقي الله في قلب موسى وحيه الفاصل: ألق عصاك. كلمة مختصرة كالكلمة الأولى:(ألقوا)فألقى عصاه في الساحة الكبرى التي خيل للناس أنها انقلبت إلى ثعابين وأفاعي متوترة مستعدة للانقضاض والفتك. وما أعظم المفاجأة للسحرة ولمن حضر ! العصا الواحدة التي كان يمسك بها موسى تنقلب ثعبانا التهم في لحظة جميع ما كانت تموج به الساحة من حبال وعصي أخذتْ صورة الثعابين والحيات. التهمتها فعلا لا تخييلا، ولم يبق لها أثر ولا وجود مادي، لا في أصل خلقتها ولا في الصورة التي تحولت إليها في أعين المشاهدين. فظهر في لحظة الحق النازل من تأييد إلهي، وذهب ما كانوا قدموه من أمور لا حقيقة لها، هي إذن من الباطل.

119-120، فغلبوا هنالك...ساجدين.

كان السحرة عند قدومهم معتزين بقدراتهم، واثقين بما تعاونوا على إعداده معا متكاملين فيما بينهم؛ ما كانوا يتخيلون أن يذهب كل ما أعدوه في لحظة وينهار علمهم وتميزهم في اختصاصهم، وتذوب الآمال العريضة التي كانوا يأملون فيها، من عظيم الأجر وبلوغ مرتبة القرب من فرعون. تحول شموخهم إلى ذلة وصغار.

121-122، قالوا آمنا... وهارون.

ثم اقتحمت عقولهم حجة الحق الذي ساد اللقاء بينهم وبين موسى، وذهبت الغشاوة التي حجبت أرواحهم عن الوصول إلى الحقيقة، فسجدوا لله تعبيرا عن الخضوع لجلاله واليقين بأنه هو المتصرف في الكون حسبما قدره واختاره. ثم صرحوا بما استقر في عقولهم فقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. تبرأوا مما كانوا يعتقدونه، وتبعوا موسى في قوله: رب العالمين، ثم نفوا كل لبس عن عقيدتهم :إن

الذي يؤمنون بألوهيته ليس فرعون المدعي لنفسه أنه ربهم، ولكنهم يؤمنون برب موسى وهارون الواحد الفرد.

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

من خلاف: قطع اليد من جهة والرجل من الجهة الأخرى.

الصلب : الربط على الخشبة وقد يتبعه القتل عليها وقد لا يتبعه.

منقلبون : راجعون.

تنقم : إنكار على الفعل مع حقد على فاعله.

أفرغ علينا صبرا: عمّنا كما يعم الماء من أفرغ عليه .

بيان المعنى الإجمالي:

تغيظ فرعون من موقف السحرة، فزمجر فيهم مؤنبا منكرا، كيف تسمح لكم نفوسكم أن تؤمنوا قبل أن تتلقوا الإذن مني، وهي جريمة لا تغتفر أن يتحرروا فيما يعتقدونه، وجريمة أخرى أنكم تآمرتم مع موسى لتخرجوا قسما من المواطنين من بلدهم. سوف تعلمون ما سأحله بكم من العذاب، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى والعكس، ولأسمرن أيديكم وأرجلكم في جذوع النخل، ولا أستثني أي واحد منكم. أجابوه في تحد وطمأنينة بما رزقهم الله من الإيمان : إنا صائرون إلى ربنا، ما الذي أغاضك فحقدت به علينا ؟ إيماننا بربنا الذي لمست آياته البينة قلوبنا وعقولنا فانقدنا لها. ثم أعرضوا عن فرعون وتوجهوا توجه الواثق المطمئن إلى ربهم داعين أن ينزل عليهم صبره الذي يعمهم كما يعم الماء النازل كل أجزاء الجسم، وأن يختم لهم حياتهم على الإسلام.

بيان المعنى العام:

المشهد التالي الذي سجله القرآن، هو الوضع المختلف بين ما كان عليه الأمر قبل ظهور الآية التي أذعن لها السحرة وبعد انقلاب العصا حية أتت على كل ما قدموه فابتلعته.

123-124، قال فرعون آمنتم...لأصلبنكم أجمعين.

يظهر فرعون وقد تملكه الغضب، وثار في نفسه الاستكبار والقوة التي تجري في عقول الظلمة على مر التاريخ، مما يجعلهم يتصورون أن الناس عبيد لهم يتصرفون في عقولهم وعواطفهم وجميع ملكاتهم، عليهم أن لا يتحركوا إلا بإشارتهم، ولا يؤمنوا إلا بما يرضونه. صدر منه ما يعبر عن كل ذلك بقوله: منكرا إنكارا مبطنا بالتهديد، كيف تؤمنون بإله موسى قبل أن يصدر لكم الإذن مني. على أن تجاوز الانتظار لإذنه هي الجريمة الكبرى الأولى. والجريمة الثانية تتمثل في اتهامهم بأنهم تآمروا مع موسى في الخفاء مؤامرة تقسم الشعب، وتفتح الباب لخروج بعض المواطنين من أرضهم التي ألفوها، إذ هم من أهلها.

ألبس فرعون هاتين الجريمتين للسحرة ليكون وعيده بالانتقام منهم انتقاما لا يتصورونه الآن ولكنه سينزل بهم فيعلمونه (فسوف تعلمون) صدره يغلي بالحقد شأن المستكبرين عندما يُسْقط في أيديهم ويشعرون باهتزاز سلطانهم. المقبول والمعقول عندهم هو الطاعة ولا شيء وراء ذلك، ثم ألقى في قلوبهم الفزع بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فإذا قطع اليد اليمنى أتبعها بالرجل اليسرى، والعكس. وأنه سيصلبهم فيسمر أيديهم وأرجلهم ، ولا يستثني أي واحد منهم من العذاب.

125-126، قالوا إنا إلى ربنا...وتوفنا مسلمين.

وفي مقابل هذا الغضب الهادر يجيب السحرة المؤمنون وقد حلت السكينة قلوبهم فيتحدثونه في هدوء: إنا صائرون إلى ربنا. لماذا تحقد علينا هذا الحقد، ثم أشاروا إشارة تنفي اتهامهم بالمؤامرة بأن إيمانهم كان هو الموقف الذي يتخذه كل عاقل: عقلنا الآيات التي جاءتنا من عند ربنا فآمنا بها.

ثم يسمو موقفهم إلى مرتبة راقية فيتوجهون بالدعاء والابتهال إلى الله أن ينزل عليهم الصبر الذي يعم إحساسهم ومشاعرهم، ثبتنا ربنا على إسلام كل قوانا إليك وحدك. ويتضاءل أمام هذا الدعاء الخاشع فرعون حتى ليبدو وكأنه حفنة من تراب لا قيمة لها في نظرهم.

وفي هذا المشهد ما يدفع المؤمنين في كل عصر ومصر إلى الثبات والصبر والتأسي بما فتحه الله على الذين جاؤوا ليتغلبوا على موسى ويفضحونه، فشرح الله صدورهم واستهانوا بالطاغية وتحدوه.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

قاهرون : غالبون مذلون.

العاقبة : النهاية بما يسر ويلائم.

أوذينا: أصبنا بما يؤلمنا ويُحزننا.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذ اتباع موسى في الانتشار وخشي المقربون من فرعون على مصالحهم المرتبطة به، فأغروه بالانتقام منهم وهولوا الخطر المتوقع على سلطانه وعلى المقدسات في مصر. وتمكنوا من إثارته، فأعلن عن عزمه على قطع دابر الفتنة التي أحدثها موسى، وذلك أنه سيقتل الذكور من بني إسرائيل قوم موسى، ويبقى الإناث للاستمتاع والخدمة، وأنه صمم على إذلالهم وقهرهم حتى لا تكون لهم شوكة.

واشتد الضغط على بني إسرائيل فتولى موسى رفع معنوياتهم، وأن النصر سيكون حليفهم إذا جمعوا بين ثلاثة أركان : قوة الإيمان والاستعانة به في كل كربة تحل بهم أو خطة ينفذونها – خلق قوي متين يحالفون الصبر للمواصلة وللتغلب على الصدمات فلا ينهارون أبدا – أن الأرض لله، وتصرف فرعون فيها هو إلى أمد قليل والذي يتمكن من التصرف في النهاية هم عباد الله الذين يسيرون على سننه في الفكر والعمل.

ومع تواصل الضغط من فرعون وملئه هرعوا إلى موسى معبرين عن شدة تبرمهم من الوضع الذي هم عليه، فقد تواصل التنكيل بهم وتتابعت إذايتهم بالقول والفعل من قبل أن يأتي موسى ومن بعد دعوته لفرعون. كان جوابه تعبيرا عن رجائه

القوي، بناء على ما أوحى الله له به، في إهلاك فرعون، وأن الله سيمكنهم من أرض لهم السيادة عليها ليعمروها حسب ما يرضى عنه الله، وأنه سيرقبهم ويحاسبهم عن عملهم.

بيان المعنى العام :

127 - وقال الملأ...فوقهم قاهرون.

أحاط فرعون نفسه بجماعة من علية القوم يتملقونه، ويدفعونه إلى ما يتناسب مع طبيعة الاستبداد التي يسير بها في حكم مصر. شأنه في هذا هو شأن المتسلطين الظالمين على مر التاريخ، لا يُقرِّبون إلا من يزين لهم القهر، الذين يبررون ويرتبون ما يواصل به الاستبداد. ولذلك بادروا بتقديم رأيهم المبني على التهويل، وإظهار خوفهم على النظام أن يختل فتفسد الأمور بهذه الدعوة التي شاعت في الشعب، وأن يسقط التصور العقدي فيتركون عبادتك وتقديس آلهتك. على معنى أنهم سينتقضون عليك، وأن الدولة ستخرج من النظام إلى الفوضى، ومن الوحدة إلى التشتت والتمزق. وبكلامهم هذا وصلوا إلى النقطة الحساسة التي تثير فرعون وتغريه بالانتقام من موسى وممن اتبعه. ويبطنون من وراء ذلك حماية المزايا التي يتمتعون بها في سلطة فرعون.

واستطاعوا فعلا أن يُغْرُوا فرعون بالانتقام، فأعلن عن الخطة التي سيواجه بها موسى ومن اتبعه: هي خطة تحتوي على ترتيب طرق خبيثة ماكرة للإذلال تتمثل في قتل الذكور حتى ينقطع نسلهم، والإبقاء على النساء للاستمتاع والخدمة، والتسلط القاهر عليهم الذي يقضي على ما بقي فيهم من كرامة فيخضعون لسلطانه أذلاء. والذي يدل عليه تسلسل الأحداث أن فرعون لم يسرع بتسليط العقوبة على السحرة، وأن ما حدث قد شاع أمره، وأن اتّباع موسى من بني إسرائيل ومن القبط قد ازداد عددهم، فأحس بالخطر منهم على سلطانه.

128 - قال موسى لقومه...والعاقبة للمتقين.

ثم ظهر دور القائد الملهم المؤيد في خضم هذه الفتنة وقرارات البطش. إن الأساس الذي يحفظ لأتْباعِهِ وجودهم واستمرارهم، هو شعورهم بقوتهم وأن لا ينهزموا نفسيا باليأس ولا يركعوا للظلم. أمرهم أن يحسنوا التوكل على الله توكلا فاعلا يجعلهم واثقين من أنفسهم في التحدي لفرعون وتهديداته بفضل ما يرقبونه من عون من الله، ولتكن كل مصيبة يصابون بها تزيدهم صمودا لمواصلة الوجود. ثم أعلن لهم حقيقة هي ركيزة البقاء : إن الأرض التي يتصرف فيها فرعون تصرف

التعسف، لا يملكها ولا يبقى له التصرف فيها. إن الأرض لله يمكن منها من يشاء من عباده، حسب سننه سبحانه في الاستخلاف.

والاستبداد نذير خراب ينتهي بصاحبه إلى فقد ما مُكّن منه، وما يتحقق في النهاية هو فوز المتقين الذي يحترمون سنن الله في الفكر والعقيدة والعمل

فدلهم بهدي النبوة على أركان النجاح الثلاثة.

1) القوة النفسية الواثقة من ربها المستعينة به.

2)القوة الخلقية بالصبر على المواصلة وعدم الانهزام.

3) التقوى بصلاح العقيدة والعمل.

128-قالوا أوذينا...كيف تعملون.

كان رد قومه على ما قوّى به عزائمهم وما طمأنهم به وما بينه من خطة النصر، أن عبروا عن تبرمهم من الوضع الذي هم عليه وأعلنوا نفاد صبرهم قائلين : إنه قد تواصل تعذيبنا وإذايتنا بالقول والفعل من قبل مجيئك وإلى الآن.

كان جواب موسى أصرح قليلا مما دل عليه نصحه وعرضه السابق، مما يفهم منه أنه تكلم بناء على وحي من الله فهم منه أنهم على رجاء أن يحقق الله لهم النصر على عدوهم فرعون ، وأن الله سيمكنهم من الأرض التي لا يكونون فيها عبيدا لأحد بل متصرفين فيها تصرف المستخلفين. المهمة التي أوكلت لآدم وذريته. ونبههم إلى أن استخلافهم هو استخلاف المسؤولية ليراقبهم في تصرفهم فيها.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أخذنا : أصبنا.

السنين : الجدب والقحط.

الحسنة : النعم المتنوعة والكثيرة.

يطيروا : يتشاءموا.

آية : العلامة التي تدعي أنها تؤيدك وتثبت صدقك.

الطوفان: الفيضان العظيم.

الجراد: حشرة تتكاثر بسرعة وتهلك كل ما مــرت عليــه مــن النبــات ولحــى الشــجر. يبدأ ضررها في صورة أرجال كاسحة، ثم تتحول إلى طائرة.

القمل : بضم القاف وتشديد الميم غير القمْل بفتح القاف والميم. فالثاني حشرة طفيلية تمتص دم الإنسان وتنقل له بعضا من أنواع الجراثيم. والأول دويبة من جنس القردان، تلتصق بالبعير عند هزاله، وتفتك بالسنبلة وهي غضة قبل أن تخرج.

الضفادع : جمع ضفدع حيوان معروف يعيش في البرك وفوق اليابسة.

الدم : السائل الأحمر اللون الذي يجري في عروق الحيوان والإنسان.

مفصلات: يتبع بعضها بعضا غير مجتمعة.

استكبروا : تعاظموا.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل فرعون وقومه غرورهم، وتحدوا موسى بــأنهم لا يؤمنــون بــه مهمــا قــدم لهــم مما يدعي أنه معجزة. وعندها أخذت الآفات تتــابع علــى فرعــون وقومــه، موقعــة لهــم في أشد الحرج. أرسل الله عليهم الفيضــانات تــدخل البيــوت فتفســد المتــاع والمخــزون من الطعام واللباس بما يصحبها من وحل. ثم بعد ذلــك ابــتلاهم بــالجراد تتــابع أرجالــه تقضم كل أخضر وتأكل لحى الأشــجار فتمــوت. ثــم مكــن القمــل مــن التكــاثر كثــرة عجيبة فلصق بهم وبحيوانــاتهم وبثمــارهم فأفســدها. وهــو غيــر القمْــل الــذي يعلــق بالإنسان في ظروف اجتماع الوسخ والدسومة. ثم سلط علــيهم الضــفادع تَنِقّ في كــل مكان في قدورهم ومخادعهم وعلى أجسامهم، في حياتهــا بــلاء وفــي قتلهــا مــا يوجــب التفسخ والتقزز.

ولكن فرعون وقومه أهلكهــم مــا طبعــوا علــيهم أنفســهم مــن تــوهم أنهــم عظمــاء لا يتبعون موسى. فكان الذي يقودهم في حياتهم الإجرام الذي رسخ في نفوسهم.

بيان المعنى العام :

130-131، ولقد أخذنا آل فرعون...أكثرهم لا يعلمون.

استمر الوضع أمدا، موسى ينشر دعوته، وفرعون يــوالي الضــغط علــى بنــي إســرائيل ومن آمن. وتظهر المصائب الأولى التي من شــأنها أن تــوقظ النــاس لتعــديل ســلوكهم، فأصابهم الله بالجدب والقحط، فلا الأمطار تنزل ولا النيــل يفــيض فينشــر علــى جنباتــه الخير والنماء، ولا المزارع تنبت الحبــوب والبقــول علــى نطــاق واســع، ولا الأشــجار

تزهر فتحمل الثمرات بما يكفي الناس. يقول تعالى : فعلنا بهم ذلك رجاء أن يتذكروا فيثوبوا إلى رشدهم. وصياغة هذه الآية جاءت على ما هو المعروف عند البشر، فإن من شأنهم أنهم إذا توالى عليهم الخصب والسعة اطمأنوا، وأنساهم الإلفُ التفكيرَ في القدرة التي يسرت ما يسرته. وأنهم إذا تحول الخصب إلى جدب يتساءلون ويعودون لأنفسهم قصد إصلاحها. وصياغة الآية على هذا النحو داع للأمة الإسلامية أن تستيقظ عندما ينزل بها عسر، وأن تعود إلى ربها بالاستغفار وعمل الصالحات.

ويلوح سؤال عن التأثير الذي حصل لهم بعد ذلكم التذكير، فبينت الآية أنهم أوغلوا في الكفر والعناد، فإذا يسر الله لهم نعمة من النعم قابلوا الفضل بالكفر عوض الشكر وقالوا: هذه النعمة حق لنا. وإن جاءهم ما يسوؤهم تشاءموا بموسى ومن معه، على معنى أن الآلهة غضبت لما ابتدعوه فانتقمت من الجميع. ويرد القرآن هذا التصور الذي حدث في قصة موسى، والذي يحدث على مر الأزمان بتحقيق : إن الله هو المالك المصرف للأمور فليس ما يحدث مسببا عن الاقتران الظاهري، ولكنه بفعل الله وتقديره. ولكن أكثر الناس لجهلهم بسنن الكون وعموم التدبير الإلهي لمسيرة الحياة في كبيرها وصغيرها يقعون فيما وقع فيه قوم فرعون.

ومن الدقة القرآنية أن عبر القرآن بـ (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فلم يعمم الجهل على كل فرد، ولكن بعضهم يعلمون أن لا رابط بين موسى وبين ما حصل من الجدب ونقص الثمار.

132- وقالوا مهما... فما نحن لك بمؤمنين.

ثم تحدوا موسى قائلين: إن كل ما تأتي به من الأشياء التي تقدمها دليلا على صدقك، فحقيقتها أنك تريد أن تسحرنا بها، فإنا قد عقدنا العزم على الكفر بها. وإذ بلغ بهم العناد هذا الحد سلط الله عليهم من البلايا ما يخضعهم ولا يبقي لهم شبهة.

133- فأرسلنا عليهم الطوفان...وكانوا مجرمين.

أرسل الله عليهم الفيضانات التي تهلك متاعهم ومزارعهم، بما يصحب الطوفان من وحل ومن تخريب للبنية الاقتصادية. وبعد ذلك أرسل عليهم أرجال الجراد التي ما مرت على أرض إلا تركتها جرداء لا تبقي على أخضر ولا على لحاء الأشجار. وبعد ذلك أرسل عليهم القمل وهو نوع من القردان يعلق بالحيوانات فيمتص دماءها ويعلق بالأشجار فيفسد ثمارها. وهو غير القمل بفتحتين الذي يعلق بالإنسان عند

توفر ظـروف تكونـه مـن الأوسـاخ والدسـومة ويمـتص دم الإنسـان وينقـل بعـض الجراثيم نقلا يصل إلى الوباء العام.

ثم أرسل عليهم الضفادع وقد هيأ لها سبحانه ظروف تكـاثر خارجـة عـن العـادة، فـإذا هي تقتحم طرقهم ومساكنهم وتنـزل فـي طعـامهم وفـوق رؤوسـهم وعلـى أجسـامهم. ففي حياتها كرب لهم وبعد قتلها قـذارة وتفسـخ أزعجهـم أشـد الازعـاج. ثـم أصـيبوا بالدم وهل المقصود بالدم وبـاء الرعـاف، أو تحـول النيـل إلـى لـون أحمـر كالـدم يتقزز من شرابه أو استعماله في شؤون الحياة ؟ وفـرض الشـيخ محمـد الطـاهر ابـن عاشور أن المياه حملت دودا أحمر حول لكثرته لـون الميـاه إلـى حمـرة. كانـت هـذه البلايا آيات تحدى بها موسى عليه السلام فرعون وقومه. لـم يجمعهـا علـيهم فـي زمـن واحد، ولكن بعد أن تضيق حياتهم بآفة ويحصل لهم الفرج منها، تعقبها آفة أخرى.

ولكن الآفة العظمى ما كان كامنا في نفوسـهم مـن الاسـتكبار والتعـاظم، وتـوهم أنهـم فوق أن يؤمنوا بموسى. ولتأصل الإجـرام فـي تـركيبهم النفسـي، قـابلوا البلايـا التـي صبت علـيهم صـبا، والتـي كانـت معجـزات واضـحة، قابلوهـا بـالرفض والتعـالي الكاذب.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرجز: العذاب.

عهد عندك : ما أودع عندك من الأسرار.

ينكثون : ينقضون ما عاهدوا عليه.

الانتقام: العقوبة الشديدة.

أغرقه : تسلط عليه بكيفية يجعله واقعا تحت الماء غير قادر على التنفس.
اليم : بحر القلزم، البحر الأحمر.
الغفلة : أصلها ذهول الذهن عن الشيء، والمراد بها هنا الإعراض.
يستضعفون : يُستعبَدون ويُهانون.
الأرض : أرض الشام.
باركنا فيها : أكثرنا خيراتها.
كلمة ربك الحسنى : كلمة ربك البالغة تمام الحسن لأنها لا تقبل الخلف.
التدمير : التخريب الشديد.
ما كان يصنع فرعون وقومه: ما رُتب ونُفذ من المصانع.
يعرشون : يرفعونه فوق الأرض من الأشجار والمباني.

بيان المعنى الإجمالي :

فصل هذا المقطع ما يقابل به فرعون وقومه البلايا النازلة بهم، فذكر أنهم إثر نزول العقاب المخرب لنظام حياتهم يلجؤون إلى موسى يطلبون منه أن يدعو ربه رفع ما نزل بهم من بلاء، وأنهم في المقابل يؤمنون به مبعوثا من إلهه ويخلون بينه وبين بني إسرائيل ليخرج بهم من أرض مصر. ولكنهم كلما رفع عنهم العذاب نقضوا عهودهم فيعاودهم الله بعذاب آخر. ولم يؤخرهم الله إلى ما لانهاية له فبعد الكوارث الخمس أغرقهم في البحر الأحمر وقطع دابرهم، لتكذيبهم بالآيات الواضحة وإهمالها كأنها لم تبلغهم. ومكن الله بني إسرائيل بصبرهم ومغالبتهم للقهر الفرعوني من جميع الأرض التي قدر فيها الخيرات الوافرة، وخرب ما شيده فرعون وقومه من المنشآت الحضارية، وأهلك جناتهم التي رفعوا أشجارها ونظموها بطرق تضاعف الإنتاج.

بيان المعنى العام :

134-135 : ولما وقع عليهم...إذا هم ينكثون.

سجل القرآن الطريقة التي قابل بها فرعون والملأ أنواع العذاب التي سلطت عليهم تباعا. كانوا كلما صب عليهم نوع من العذاب التجأوا إلى موسى طالبين منه أن يدعو ربه كي يرفعه عنهم، وفي المقابل يصدقونه ووعدوه بتمكينه من الخروج ببني إسرائيل من مصر. وفي صياغة ذلك خصائص تدعوني إلى بيانها :

1) نسبوا الرب لموسى ولم يعترفوا بأنه رب العالمين كما عرفه موسى ؛ وذلك لأنهم كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة فغاية ما قبلوا أن يثبتوه لموسى أن الذي فعل بهم

ما فعل، هو ربه الذي يعبده، ومعناه ادع ربك(الخاص) بمـا علمـك واسـتقر فـي قلبـك من الطرق التي يستجيب لك عندها.

2) أن سيدنا موسى كان يأخذ عليهم في كـل مـرة عهـدا مؤكـدا : أنـه بمجـرد مـا يُرفع عنهم العذاب يصدقونه في أنه مرسل ويمكنونـه مـن إخـراج بنـي إسـرائيل مـن أرض مصر، وليس معنى ذلـك أنهـم يؤمنـون بـالله رب العـالمين ولكـن يصـدقونه حسب عرفهم أنه مرسل من ربه.

3) أنه كلما كشف الله عنهم العذاب ينكثون ما أخذه علـيهم مـن مواثيـق ويحولـون بينـه وبين الخروج بقومه. وكشف العذاب كل مرة هـو إلـى أجـل. ذهـب مفسـرون إلـى أن الأجل هو نهاية الحياة إذ كل واحد بعد رفـع العـذاب سـيبلغ الأجـل المقـدر لـه، ورأى آخرون أن الأجل هو الأجل المقـدر لإهلاكهـم. والـذي يتـرجح عنـدي أن الله يكشـف عنهم العذاب الأول استجابة لدعاء موسى، وأن هذا الكشـف يسـتمر إلـى الأجـل الـذي ييأس فيه موسى من وفائهم، وهم سينتهون إلى هـذا الأجـل لأنهـم مصـممون مـن أول الأمر على نقض العهد. وكذلك في العذاب الثاني ثم الثالث والرابع والخامس.

136 - فانتقمنا...عنها غافلين.

إنه بعد هذا التلاعب منهم حق علـيهم الانتقـام الـذي لا مثنويـة فيـه ولا تأجيـل، فـتم إغراقهم في البحر حسبما يـأتي تفصـيله فـي سـورة يـونس. وذلـك جـزاء تكـذيبهم بالآيات البالغة من الوضوح مرتبة عالية، وإعراضهم عنها رغـم ذلـك حتـى كأنهـا لـم تعرض عليهم.

137 -وأورثنا القوم... وما كانوا يعرشون.

ثم سجل القرآن أن تنفيذ ما قدره الله وحسـن عونـه قـد أسـعف بنـي إسـرائيل الـذين تسلط عليهم التعسف والقهر وتم إذلالهم، فأورثهم أرض الشـام كلهـا مـن المشـرق إلـى المغـرب، الأرض التـي بـارك الله فيهـا بخصـب إنتاجهـا وحمايتـه مـن الطفيليـات فتضاعفت محاصيلها. وفي ذلك من تطمين للمـؤمنين فـي مكـة أن سـنة الله فـي الأمـم التي سبقتهم، أنه ولي المستضـعفين الـذين يأخـذون بأسـباب النصـر، التـي تقـوم أولا على الصبر الإيجابي الذي يغالب ولا ينهـار أمـام التعسـف المـادي. ينصـرهم وتكـون لهم العاقبة ويحصل لهم الأمن والسيادة على المواطن التي يحلون فيها.

وبهذا تحققـت الإرادة الإلهيـة والوعـد الربـاني بتمليـك بنـي إسـرائيل الأرض التـي بشرهم موسى بهـا، وذلـك لأخـذهم بسـنن مغالبـة الاضـطهاد، وبصـبرهم وتحـديهم لبطش فرعون وزبانيته. كما تحققت سـنة الله فـي العمـران: أن الظلـم سـائق الخـراب

والدمار. فخرب سبحانه ما كان يعتز به فرعون وقومه من المنشآت الحضارية المتنوعة، وما كانوا يرفعونه من الأشجار في جناتهم فوق الأرض.

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ (138) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (140) وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (141)

بيان معاني الألفاظ:

المجاوزة : البعد عن المكان عقب المرور فيه.

أتوا على قوم : مروا على قوم.

العكوف : الملازمة بقصد العبادة.

تجهلون: جهلة بمقاسد عبادة الأصنام.

متبر : مهلك.

يسومونكم :يحملونكم ويسلطون عليكم.

بلاء: اختبار وامتحان.

بين المعنى الإجمالي:

يسّر الله بفضل منه لبني إسرائيل أن يخرجوا من مصر ويعبروا البحر الأحمر وينتقلوا من إفريقيا إلى آسيا. ومروا في مسيرتهم تلك على قوم مستغرقين في عبادة آلهتهم، فأعجبوا بهم وطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها مجسما قريبا منهم كما هو وضع القوم الذين مروا عليهم. وأنكر موسى عليهم طلبهم ذاك واصفا لهم بأنهم مغرقون في الجهل، وأيضا فإنه من شدة الغباوة ونكران الجميل أن يتقدموا بمثل هذا الطلب والقوم الذين طلبوا أن يكونوا مثلهم، هم إلى دمار في عقيدتهم وفي مقومات مجتمعهم، وهم على باطل.

وذكرهم بأن الله فضلهم على أهل زمانهم ببعث رسول فيهم موحى إليه بشرع يهديهم للتي هي أقوم في حياتهم، كما ذكرهم بأن الله أنجاهم من بطش فرعون وآله الذين كان يستأصلون الذكور منهم قصد إفنائهم ويستبقون نساءهم ليستمتعوا بهن

ويقمن بالخدمة. وفي هذا الهوان المسلط ابـتلاء مـن الله عظـيم، فكيـف تطلبـون اليـوم إلها غيره ؟

بيان المعنى العام:

138←141، وجاوزنا ببني إسرائيل...من ربكم عظيم.

قطع بنو إسرائيل البحر الأحمـر بعـون مـن الله، فـانتقلوا مـن القـارة الإفريقيـة مـن أرض مصر إلى الجهة المقابلة من القـارة الآسـيوية. مـروا فـي رحلـتهم علـى قـوم يعبدون الأصنام. أعجب الإسـرائيليون بطـريقتهم فـي العبـادة، وقـرب إلههـم مـنهم، فطلبوا من رسولهم وزعـيمهم، موسـى عليـه السـلام، أن يجمعهـم علـى إلـه مجسـم وقريب منهم كما هو حال الذين شاهدوهم. طلبوا ذلك لأنهـم نسـوا العهـد الموثـق الـذي أخذه الله على إسـرائيل : أن يفـرد هـو وذريتـه، الله بالعبـادة ولا يشـركوا بـه شـيئا (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصـطفى لكـم الـدين فـلا تمـوتن إلا وأنتم مسلمون)[39].

كان جواب موسى عن مقترحهم ردا قويا عنيفـا يتناسـب مـع غلـظ أكبـادهم وغبـائهم وقساوة مشاعرهم، قال لهم : إنكـم قـوم انغمسـتم فـي الجهالـة، ذهـب مـنكم العلـم وأصـبحت تصـوراتكم ملوثـة بالباطـل مجافيـة للحـق والواقـع. إن هـؤلاء الـذين استهواكم ما هم فيه من عبادة الأصنام هـم قـوم هلكـى منغمسـون فـي الباطـل ؛ ثـم أردف موبخا لهم متعجبا من طلبهم أن يقيم لهم إلهـا غيـر الله، ونعمـه التـي أنعـم بهـا عليكم لا تحصى قائلا لهم: كيف أبحث لكم عـن إلـه، والله فضـلكم علـى العـالمين فـي هذا الزمن، فخصـكم بـإنزال شـريعته علـيكم دون بقيـة النـاس، وأبـان لكـم مـنهج التوحيد، وأنقذكم من فرعون. وذكّرهم بمـا سـلطه علـيهم فرعـون مـن ظلـم وعـذاب وإهانة، إن إنجاء كم من بطـش فرعـون وآلـه الـذين صـمموا علـى إفنـائكم بتقتيـل الذكور وإبقاء النساء للخدمة والاسـتمتاع، إن فـي ذلكـم اختبـارا لكـم لتظهـروا شـكر النعمة أو كفرانها. فكيف تطلبون مني أن أجعل لكم إلها كإله عبدة الأوثان؟

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى

[39] انظر ما قدمناه في سورة البقرة آية132

وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الميقات : الزمن الذي قدر فيه عمل.

اخلفني : كن خلفا عني تسير الأمور حسبما كنت أسيرها.

جاء لميقاتنا: حضر في الموعد بدون تأخير.

تجلى: ظهر بدون حجاب.

دك: تفرق وانهد.

خر : سقط على الأرض.

صعق: مصعوقا، وهو الذي يفقد إدراكه عند صيحة قوية، أو انفجار، أوصدمة، أو نزول صاعقة من السحب.

أفاق : رجع له وعيه وإدراكه.

أول المؤمنين : المبادر بالإيمان.

اصطفيتك : آثرتك وفضلتك.

بيان المعنى الإجمالي :

ضرب الله موعدا لموسى يلقاه فيه مقداره ثلاثون ليلة بأيامها، وأضاف إليها بعد ذلك عشر ليال بأيامها، فتم اللقاء في أربعين ليلة. وقبل أن يتوجه للموعد أناب عنه في تسيير أمور بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بان يعتبر نفسه خليفة له زمن مغيبه يسيّر ببني إسرائيل في جمع كلمتهم وإجابتهم عن أسئلتهم وفض قضاياهم الفردية والاجتماعية على النحو الذي عهده هارون منه، وأن يكون همه نشر الصلاح في جميع شؤون حياة قومه، وأن يكون يقظا من تسرب الداء الذي يصيب كثيرا ممن يتولون حكم الجماعات البشرية، المتمثل في تقريب عصابات السوء منهم، فحذره من الفساد ومن تقريب المفسدين منه أو أن يتبع مسلكهم فإنه لا ينتهون إلا إلى الخراب ؛ وإن كانوا في بادئ الأمر لا يظهرونه.

لما جاء موسى للميقات نال من ربه أعظم تكرمة إذ تلقى في كيانه كلام ربه بدون حرف ولا صوت كما يليق بتنزيهه التنزيه الكامل عن شبه المخلوقات. ثم طلب

موسى من ربه أن يتفضل عليه فيمكنه من رؤية ذاته على ما يليق بها من التنزيه. وأجابه ربه أولا بأنه لن يراه في الحاضر ولا في ما يستقبله من أزمان الحياة الدنيا. وجسم له صورة تعرفه بسبب ذلك قائلا له : انظر إلى الجبل أمامك وسأرفع الحجاب بيني وبينه، فلما رفع المولى سبحانه الحجاب بينه وبين الجبل اندك الجبل وتفتت، وخر موسى على وجهه فاقدا للإدراك. ثم إنه عندما أفاق عاد على نفسه باللائمة وتوجه إلى ربه بالتقديس والتمجيد والتوبة من تقصيره في التفكر عندما سأل الرؤية.

وذكر المولى سبحانه موسى بالمنن التي خصه بها فقال له : إني ميزتك على الناس وفضلتك بتحميلك إبلاغ رسالتي وإقناع الناس بها، وفضلتك بكلامي لك مباشرة. وهذا ما يحتم عليك أن تقوم بالمهمة التي وكلت إليك وأن تكون من حزب الشاكرين لنعم الله عليك.

بيان المعنى العام :

142 -143، وواعدنا موسى ثلاثين ليلة...أول المؤمنين..

كما تقدم في سورة البقرة آية 51 أن الله وقت الله لموسى أربعين ليلة، ودققت آية سورة الأعراف أن المواعدة كانت لمدة ثلاثين ليلة ثم أتمها الله بعشر. فكانت حسب الحاصل في ذهن موسى ﷺ مفصلة ثلاثين أولا، ثم أتمها بعشر فصارت أربعين ، وهي في علم الله سبحانه أربعون ليلة أمر بها موسى ثلاثين فعشرة. وللمفسرين أقوال في تحديد الحكمة من هذا العدد، وما تم فيه. والذي تدل عليه الآية ويقتضي منا الوقوف عنده وعدم مجاوزته، هو أن الله ضرب موعدا لموسى فصله إلى فترتين الأولى بثلاثين والثانية بعشرة والمجموع أربعون ليلة بأيامها. وأن موسى ﷺ قد أتم ما طلب منه في الأجل المحدد، وأنه استخلف على بني إسرائيل، قبل قدومه إلى الميعاد، أخاه هارون ليرقبهم في سلوكهم، ويصلح ما يمكن أن يزعزع وحدتهم أو يحرف مسيرتهم التي يرضى الله عنها، وأوصاه أن يحذر من المفسدين الذين يتسللون للمجتمع فيخربونه. وهذا النهي جماع ما يحقق استقامة الأمة وعدم انحرافها، فإن راعيها يجب أن يكون بعيدا عن الفساد، أو أن يجعل في حاشيته مفسدين، أو أن يسير في طريق المفسدين، فالمفسدون ضالون مخربون لبناء المجتمع، وإن كانت أعمالهم في بداية الأمر لا يلوح عليها فساد، إلا إنهم تبعا لما ألفوه هم مهيؤون للانحراف على نحو ما تعودوا عليه، ولذلك نهى موسى ﷺ أخاه

أن يتبع سبيل المفسدين وإن كان لم يظهر على عملهم فساد في أول الأمر. وسجلت الآية ما تم في ملاقاة موسى لربه. فذكرت أمرين :

أولهما: أن الله كلم موسى، وهذا الكلام ليس بتموج الصوت في الهواء ولا يقرع الأذن بالذبذبات الصوتية، ولا كالكلام الذي يقع به التخاطب بين البشر في الدنيا. هذا مما يجب أن يكون واضحا لا لبس فيه. والذي يجب أن يفهم عليه كلام الباري لموسى : أن موسى حصل له إدراك لما شرفه به ربه من الكلام، بحيث حصل له هذا الإدراك والوعي للخطاب الإلهي، فأكسبه اليقين الأيقن أنه خطاب إلهي، واستقر في وعيه عليه السلام كل المعاني التي أراد الله أن يخاطبه بها استقرارا بالغا الدرجة القصوى من اليقين والوضوح، وأن كل ذلك قد تم بدون صوت يتموج ولا بحرف يقرع القرع المميز له. ووجه بعضهم أن الكلام حل في شجرة وهي الواسطة بين موسى وربه، وآخرون أن الكلام كان يصل إليه من جميع الجهات، وهي توجيهات لا تستند لدليل صحيح ولا تكشف السر. والذي نجزم به أن موسى فاز في هذا اللقاء بمرتبة عظيمة فضلا من الله ونعمة.

ثانيا : أن هذا التفضل والحُظوة التي حصلت له بتلقي مداركه لكلام الله، الذي يسمو عن كل ما يتصور من جمال الإحساس، أطمعه ذلك أن يسأل ربه رفع الحجاب، وأن يمكنه من رؤيته كما أقدره على سماع كلامه، فقال : رب أرني ذاتك أنظر إليك. وجاءه الجواب بالرفض لسؤاله، ونفاه بلن المفيدة استمرار النفي فيما يستقبل من أزمان الدنيا. وأقام له ما يفهمه السبب في عدم استجابة طلبه بصورة مجسدة واضحة بينة. فأمره أن ينظر إلى الجبل القريب منه ويتأمله، فإن الله سيتجلى للجبل تجليا يرفع الحجاب الذي جعله سبحانه بين الخالق والمخلوق، فإن قدر الجبل الصلد على البقاء مع رفع الحجاب عنه، فإنه لا فارق بينك وبين الجبل في الأصل، كلاكما مخلوق في حضرة الخالق. وتم المشهد، وبمجرد ما رُفع الحجاب بين الجبل وبين الله اندك الجبل وانهدّ، وصعق موسى الذي لم يقو على استيعاب المشهد الذي يتجاوز ملكاته. يصور القرآن بعد ذلك موسى وقد أفاق وعادت له مداركه سليمة بعد هول المشهد، وبان له أن ما سبق إلى ظنه أن رؤية الله في الدنيا ممكنة، على ما يقتضيه التنزيه الكامل، قصور في النظر، وأنه لو رفع الحجاب بينه وبين الله لسحق سحقا لا يبقى على شيء منه. واستيقظت أنوار النبوة في نفسه فحركته إلى التوجه إلى الله بالتنزيه والتقديس عما لا يليق بجلاله وكماله. واستشعر تقصيره بسؤاله الرؤية، وكل همه أن لا ينزل عن مكانته التي رفعه إليها رب

العالمين، فعبر عن توبته من التقصير. ونظير هذا ما وقع لنوح ﷺ لما سأل لولده الكافر المغفرة لأنه من أهله، فوعظه ربه بقوله: (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين* قال ربي إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين)[40] فعبر موسى عن توبته التوبة الخالصة التي يزجيها عزم مؤكد على عدم العود، والشعور بالندم على ما فات، وتوجه إلى الله قائلا: إني تبت إليك. وثنى بما يؤكد توبته بأنه يعتبر نفسه أول من سبق إلى الإيمان، فالإيمان صحبه من أول مراحل حياته، على معنى أن بينه وبين خالص الإيمان إلفٌ وصحبة.

144- قال يا موسى إني اصطفيتك...من الشاكرين.

خاطب الله موسى بفضل الرب الذي لا يحد، وبعفوه الذي يليق بكرمه وبجلاله، وقال له : يا موسى إني آثرتك على جميع الناس المعاصرين لك، واخترتك من بينهم فحملتك رسالتي، وكنت أنت المبلّغ لهم عني ما تعلقت إرادتي بتبليغهم إياه، وزدت في تكريمك فخصصتك بكلامي الذي سعدت به . فكن قويا على تلقي تشريعي وهداياتي، وعلى إقناع الناس بذلك ونشره بينهم. وأشْعرْ نفسك المنن التي تتابعت عليك فكن لها ذاكرا شاكرا في موكب المؤمنين الشاكرين فضل ربهم عليهم.

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

[40] هود آية 46 و47.

بيان معاني الألفاظ :

اللوح : قطعة من خشب مصقولة صالحة لإثبات الكتابة عليها.

الموعظة : النصح المشوب بتحذير.

التفصيل : التبيين لما أجمل.

فَخُذْهَا: تلقّ واحفظ.

بقوة: بعزيمة وإرادة صلبة للعمل والإبلاغ.

الرشد: سبيل الصلاح من الإيمان والعمل المرضي.

الغي : سبيل الفساد والضلال، ضد الرشد.

الغفلة : انصراف العقل والذهن عن تذكر شيء.

أصرف : أمنع وأصد.

حبطت : سقطت وفسدت.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكر القرآن ما تم بين موسى وربه في الميقات. فذكر أنه مكنه من الألواح التي جمعت أصول الهداية والتشريع والمنهج الذي على بني إسرائيل أن يتبعوه في حياتهم. وحثه ليتدرع بقوة العزيمة للمضي في سبيل التبليغ والإقناع والرعاية. وأن يأمر قومه بأن يكونوا على أتم الاستعداد للأخذ بها فهي الجامعة للحسن كله. وأخبرهم بأن الله سيمكنهم من رؤية عاقبة الفاسقين فيما أقاموه من حضارة. وأعلم الله أنه سيصد المتكبرين في الدنيا عن اتّباع الحق. بحيث أنهم إذا شاهدوا سبيل الهدى تنكبوا عنه وابتعدوا وإن لاحت لهم طرق الفساد والشر تسابقوا إليها؛ إن وضعهم هذا كان بسبب تكذيبهم بآيات الله، يلهيهم عنها تكبّرهم وإعراضهم، فكلما قامت آية قابلوها بالغفلة وعدم النظر فيها.

إن جزاء المكذبين بآيات الله والمنكرين ليوم القيامة هو جزاء عدل لأنهم ينطلقون من عدم اعتبار أحقيتهم للمثوبة، فيجازون حسب تصورهم.

بيان المعنى العام :

145 -وكتبنا له في الألواح...دار الفاسقين.

واصل القرآن سرد ما تم في اللقاء الخاص بين موسى وربه، فبعد أن ذكر ما ميزه به من الكلام، وما أوقفه عليه من امتناع الرؤية في ذلك الظرف، سجل أنه سبحانه قد مكن موسى من الألواح التي وثّق فيها ما أراد أن يتحمله موسى من الهداية والتشريع للعمل به ولإبلاغه وإقراره في بني إسرائيل.

تـدقيـق :

1) ذكر القرآن أن الهداية التي كلف بها موسى كانت مكتوبة على ألواح. وحسب التوراة كانت الألواح من حجر. واعتمد رواية التوراة بعض المفسرين. ويبعد هذا عندي: أن ألواحا عشرة فصلت العقيدة والشريعة على ألواح من حجر لا يستطيع موسى عليه السلام لثقلها أن يحملها. ولذا فالذي أطمئن إليه أنها ألواح من مادة صنعها الله وأمر بأن تثبت فيها الكتابة وهي مما يستطيع موسى حمله.

2)أن تسجيل ما سجل عليها لم يكن بواسطة، وإنما أذن الله أن تتقبل الألواح التسجيل لما أراد أن يسجله عليها. وما سجل عليها كان مما يفهمه بنو إسرائيل بلغتهم في عهد موسى التي هي اللغة العبرية القديمة، اللغة التي انقرضت وماتت. فما يثبته اليهود من تفصيلات للوصايا العشر، هو مقطوع السند غير موثوق به. ينص القرآن على أن الله كتب لموسى على الألواح كل ما أراد سبحانه أن يكون مرجعا لبني إسرائيل من الهداية، التي تشمل النصح الذي يقربهم للعمل بما يعود عليهم بالصلاح والخير مع صبغة تحذيرية من إغفال ما نصحهم به وهداهم إليه. كما بين لهم فيها ما فيه إجمال من الوحي وطريقة تطبيق المنهج الإلهي في الحياة وبلوغ التفاصيل للعقائد والآداب والتشريع. إن وضع بني إسرائيل بعد طول أمد اضطهادهم، وتسخير الطغاة لهم من فرعون وملئه، قد عمق في مشاعرهم الرضا بالذلة والمسكنة، وهبط بهم إلى مستويات إنسانية سافلة. ولذلك أمر الله موسى أن يتلقى ما آتاه الله من الوحي والألواح بعزم صلب لا يلين ولا يعرف الرخاوة حتى يتمكن من تغيير نفسية بني إسرائيل ويرفعهم بغرس الأساسيات التي يكونون بها أمة صالحة لإحياء شريعة الله. وكلف موسى عليه السلام أن يأمر قومه بأن يتمسكوا بما جاءهم به من التشريع وما هو مثبت في الألواح، أمروا أن يأخذوا ذلك بهيئة من يتمكن من الشيء فيدخله في ملكه ويتمسك به. فهم مأمورون بأن يعملوا بما جاءهم، الذي هو الأحسن والأفضل من كل ما استقر في نفوسهم قبل مجيء موسى وربوا عليه حتى صار عادات لهم. ومجيء التعبير بقوله تعالى : ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ قد يثير في التالي تساؤلا هل إن معناه أن يتخيروا من الألواح أحسن ما فيها ،دون ما هو أقل حسنا؛ تطبيقا للقاعدة أن أحسن أفعل تفضيل يدل حسب النظرة الأولى على شيئين أحدهما حسن والآخر أحسن، وأن بني إسرائيل أمروا على لسان موسى أن يتمسكوا التمسك الكامل بالأحسن. وكون الألواح مشتملة على حسن وأحسن غير مقبول، لأن الجميع منزل من عند الله لإصلاحهم، فلماذا لا يكون كل

ما جاء فيها من الأحسن. ويساعدك على فهم هـذا الاختيـار فـي التعبيـر، التأمـل فـي نظائر هذه الآية في القرآن، كقولـه تعـالى: (فتبـارك الله أحسـن الخـالقين)[41] وقولـه: (أتدعون بعـلا وتـذرون أحسـن الخـالقين)[42] – ومـن اليقينـي أنـه لا خـالق إلا الله. ويقول تعالى :(أفمن يخلق كمن لا يخلق أفـلا تـذكرون)[43] – وقولـه تعـالى : أصـحاب الجنة يومئذ خير مقاما وأحسن مقيلا) [44]– تصـف الآيـة أصـحاب الجنـة فـي مقابـل أصحاب النار من المجرمين المكذبين – وقولـه تعـالى: (أولئـك الـذين نتقبـل عـنهم أحسن ما عملـوا)[45] – والقرآن يتحدث فـي هـذه الآيـة عـن تكـريم الصـالحين فـلا يتصور أن يقصر ثوابهم على أحسن أعمالهم ويلغي مـا هـو دون ذلـك مـن الحسـنات– وأقوى الآيات قربا قوله تعالى:(اتبعـوا أحسـن مـا أنـزل إلـيكم مـن ربكـم)[46] فهـذه الآيات لا تفيد تفضيلا لبعض على بعـض، ولكنهـا تلفـت النظـر إلـى مرتبـة الحسـن الرفيعة في جميع مواردها. فحسن خلـق الله بـالغ الدرجـة العليـا. ومقيـل أهـل الجنـة بالغ درجة من الراحة والنعيم لـيس فوقهـا درجـة، والله يتقبـل مـن المـؤمنين صـالح أعمالهم التي تسمو بفضل توبته وحبه إلى مرتبة عاليـة مـن الرضـا كقولـه تعـالى فـي آية أخرى : أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات [47].

إنه إذا قارنا وضع بني إسرائيل أيام كانوا فـي مصـر تحـت حكـم الفراعنـة مسـلوبي الحرية مسخرين للخدمة منزوعي الحقوق، إذا قارنـا ذلكـم الوضـع ووضـعهم بعـد مـا أكرم الله نبيهم وقائدهم الذي سيكوّن مـنهم أمـة، تبـين لنـا مـن الفـارق العظـيم بـين الوضعين وصف ما أنزل إليهم بالأحسن.

أي البالغ أعلى درجات الحسـن. ثـم أعلمهـم بـأن الله سـيريهم بـأعينهم ديـار القـوم الفاسقين، أي منازلهم التي خربت بسبب فسقهم وخـروجهم عـن حـدود الله. وفـي ذلـك تحذير لهم من الخروج عما نزل عليهم من التشريع ومـا بينـه لهـم فـي أمـور العقيـدة والأخلاق.

---

[41] سورة المؤمنون آية 14

[42] سورة الصافات آية125

[43] سورة النحل آية 17

[44] سورة الفرقان آية24

[45] سورة الأحقاف آية 15

[46] سورة الزمر آية 55

[47] سورة الفرقان آية 70

146-147 : سأصرف عن آياتي...بما كانوا يعملون.

بعد ذلك توجهت عناية القرآن إلى تسجيل سنة من سنن الله في الهداية، حتى ينتبه الموجه إليهم آياته إلى أن تلكم الآيات الهادية للعقيدة الحق، وللتشريع الأصلح، وللسلوك الأفضل، لا ينتفع منها كل الناس بل إن الله سيمنع ويصد عن الانتفاع بما أنزله على لسان رسله من الآيات وما يعمر به الكون من الدلائل، وذلك بحجب ألطافه المساعدة على التدبر واليقظة لما فيها من دلالات تهدي العقول والأرواح إلى الأخذ بها، بحيث تقرع أسماعهم وتقوم أمام أعينهم ولكنهم لا ينتفعون منها بشيء. مَنْ هؤلاء الذين ينزل عليهم حجاب عازل ؟سيصد الذين تكون علاقتهم بالكون علاقة التكبر والاستعلاء الكاذب، فقوله تعالى: (بغير الحق) هو وصف يشرح التكبر ولا يقيده، فالتكبر هو التعالي ولا يكون التعالي إلا مجانبا للحق، هو في حقيقته أوهام تعشش في ذهن المتكبرين فيتخيلون أنفسهم أعلى مرتبة من قبول ما تتلوه عليهم رسل الله، أو أن تحرك مشاهد الكون ضمائرهم لما وراء تلك الآيات من قوة مبدعة.

إن ما ذكره القرآن في قصة خلق آدم من تكبر إبليس وإبائه السجود وما أداه إليه الكبر من الغضب والمقت والشقاء، يكون مع هذه الآية هداية للبشر تحذرهم من عاقبة الكبر. إن الكبر يتولد عن غفلة عما في المتكبر المغرور من نقص وما بنيت عليه خلقته من حاجة يعجز أن يحققها؛ فإذا استحوذ الكبر على التفكير فإنه يدفع صاحبه دفعا إلى إغماض عينيه وحجب تفكيره عن إدراك الحقائق الماثلة أمامه التي تدعوه إلى إخضاع نفسه للحق، فيختار تبعا لذلك الطريق الذي يرفض الآيات البينة، حتى لا يجرح هذا الخضوع كبرياءه.

إن المتكبر يحُول كبره وبين ما أنزله الله على رسله، وما بثه في كتاب الكون من دلائل، فيصل به إلى التعنت إلى درجة أنه لو اجتمعت على بصره وغزا قلبه كل ما يمكن أن يكون دليلا يبلغ بيانه درجة من الوضوح التي ليس فوقها درجة، إنه رغم ذلك يتأصل العناد فيه، فلا ينقاد إلا إلى ما تدعوه إليه شهواته، ولا يتبع سبيل الرشد سبيل الصلاح ولا يميل إلى العمل الطيب، وبالعكس يجد بين كبريائه وبين الفساد وسيء الأعمال إلفا، فيجري وراء إشباع شهواته، سبيل الغي. إن هذا الوضع السيء لتركيبهم النفسي مرتبط بكفرهم بآيات الله، يمرون عليها مرور من لا ينتبه إليها ولا تلفت نظره وإن كانت ماثلة أمامه.

والقاعدة التي تستخلص من هذه الآية: إن الذين كذبوا ورفضوا آيات الله الداعية للخير وصادق العقيدة، لا تكون لأعمالهم أي قيمة يوم القيامة، فهم إن فعلوا ما ظاهره خير من مساعدة للمحتاجين أو نصرة للمظلومين أو كرم وحسن معاملة، فإن ما فيها من قيمة ظاهرية تعتبر باطلة لا جزاء عليها. وذلك هو العدل لأن أعمالهم صدرت عنهم وهم لا يقصدون منها أن تنفعهم يوم القيامة الذي لا يؤمنون به. وهو نظير قوله تعالى:(وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)[48] والآيتان تسلية لرسول الله ﷺ بسبب ما كان يجده في نفسه من رغبة في هداية البشر، وحسرة من صدودهم، وبالمثل بالنسبة للمصلحين والدعاة إلى الخير.

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحلي : جمع حلْي وهو المصوغ.

الجسد : الجسم الذي لا روح فيه.

خوار : صوت البقر.

سقط في أيديهم : تبين لهم خطؤهم وندموا.

أعجلتم أمر ربكم : أتركتم الأمر الذي أمركم به ربكم.

الشماتة :سرور النفس بما يصيب غيرها من الأضرار.

---

[48] سورة الفرقان آية 23

بيان المعنى الإجمالي:

يقص علينا القرآن أنه بعد أن توجه موسى ﷺ للميقات جمع بنو إسرائيل حليّهم وسبكوا من الذهب صورة عجل يصوت كما تصوت البقر، وعبدوه على أنه إله. والعجب من غباوتهم وفساد فطرتهم أن يعبدوا ما لا يستطيع أن يهديهم بالكلام فضلا عن العون الفعلي، عبدوا العجل فظلموا أنفسهم وظلموا عقيدتهم وظلموا سيدنا موسى بالتنكر لما ثبته في عقولهم من التوحيد. ثم إن بني إسرائيل تبينوا خطأهم وفساد ما وقعوا فيه والظاهر أنه بعد رجوع موسى من الميقات ندموا وقالوا: إنا نترقب من الله أن يغفر لنا ما وقعنا فيه وإن لم يغفر لنا نكون قد خسرنا كل شيء.

ويصور القرآن المشهد التالي: سيدنا موسى عائدا من المناجاة بعد أن أوحي إليه أن القوم قد كفروا وعبدوا العجل، وهو غاضب غضبا شديدا وعصه الحزن. زمجر في بني إسرائيل: لقد انقلبتم إلى أسوأ ما يكون بعدي، كيف تركتم ما عاهدتم عليه ربكم؟ ومن شدة غضبه ألقى الألواح التي شرفه ربه بها في الميقات، ومد يده إلى رأس هارون فجذبه جذبة قوية خارت قواه بها، وأخذ في جره إليه.

توسل إليه هارون بصلته به وذكره بأنهما من أم واحدة، وعرفه بأنه ما تخاذل في القيام بمهمة الاستخلاف، ولكن بني إسرائيل عصوه وهددوه بالقتل إذا حال بينهم وبين العجل. وتوسل إليه أن لا يقسو عليه قسوة يفرح بها أعداؤه، وأن لا يحشره مع الظالمين عبدة العجل. وإذ تبين لموسى صدق أخيه دعا ربه أن يغفر لهما وأن يعمهما برحمته وهو راج قبول دعائه، لأن الله أرحم الراحمين.

بيان المعنى العام:

148-149: واتخذ قوم موسى...من الخاسرين.

بعد أن عرض القرآن بعض ما يتعلق بما تم في الميقات وعقبه بأن وضوح الآيات لا يلجئ البشر للاهتداء بها، تابع قصة بني إسرائيل، وما وقع منهم بعد ذهاب موسى للميقات واستخلاف هارون عليهم.

وقع منهم في الأيام الأربعين التي قضاها موسى بعيدا عنهم، أن سبكوا من حليهم جسما على صورة عجل، جوّدوا في صنعه وأحكموا، حتى إن الرائي يخاله عجلا، وهم مهرة في صناعة الذهب؛ فما تزال هذه الصناعة من ثقافة بني إسرائيل إلى اليوم، يجيدون صنع الحلي والتحف، وينتجون من الأشياء الدقيقة ما له قيمة فنية عالية. وأضافوا إلى تصويره على هيئة العجل، أن جعلوه يخور كأنه حي، ثم

اتخذوه إلها. ذكر شهاب الدين القرافي قال: أخبرت عن القاضي الفاضل وزير الملك الناصر صلاح الدين، أنه جاءه رجل فقال له: عندنا صنم يتكلم، فذهب إليه معه، فوجد صنما من رخام أحمر قد أتى عليه الرمل إلا رأسه وهو ساكت. فقال له الفاضل: ماله لا يتكلم ؟فقال له تريد ذلك ؟ فقال : نعم، فوضع الرجل إصبعه على ثقب في وسط رأسه، والريح يخرج منه خروجا شديدا، فمنع الريح من الخروج حتى تغمر باطن الصنم به، ثم فتح ذلك الثقب، فشرع الريح يخرج، وجعل الصنم يقول :: هاتان المدينتان كانتا لشداد وشديد ابني عاد، ماتا وصارا إلى التراب. من ذا الذي يبقى على الحدثان ؟وطول في الحدثان تطويلا شديدا حتى فرغ الريح من جوفه، ثم أعاد سد ذلك الثقب، فأعاد القول بعينه مرارا، ثم افترض القرافي سر ذلك. فلعل بعض الإسرائيليين أخذ هذه التقانة من الحضارة المصرية القديمة[49].

وينكر القرآن عليهم ما وقعوا فيه مبرزا له بصورة التعجب : ألم يروا أن العجل جامد لا حياة فيه ؟ كيف يكون إلها إذا كان لا يقدر على مخاطبتهم ويعجز تبعا لذلك عن إرشادهم أو هدايتهم، وفوق ذلك صورته من جنس البقر داعية لقوة التعجب إذ نوع البقر ليس من أرقى الحيوانات ؟ إن الواقع المحسوس ينادي بأن إسباغ الألوهية عليه تجاوزٌ للحدود، وتعد على الإنسان بجعله يخضع لجسد منحوت لا حياة به. ثم إن القرآن طوى ما بعد انحرافهم وعبادتهم للعجل الذي سيذكره في سورة طه، فعجّل بذكر تيقظهم لسوء صنيعهم وتبينوا الضلال الذي وقعوا فيه، فأقلعوا وتوجهوا إلى الله ربهم تائبين مستحضرين رحمتَه وفضله مبتهلين أن يغفر لهم ما وقعوا فيه، شاعرين أنه إن لم يتفضل عليهم بقبول توبتهم وغفرانه فإن مآلهم أن يكونوا من القوم الخاسرين. وبهذه المناسبة أريد أن أؤكد أن طريقة القرآن في قصصه أنه يوظف المشهد الذي يعرضه لتحقيق الغرض الذي من أجله ساقه، ولا يقصد أبدا لعرض قصصي يتابع الأحداث بتفاصيلها وتتابعها التاريخي.

150-151، ولما رجع موسى...وأنت أرحم الراحمين.

ثم عرض القرآن مشهدا آخر هو في الواقع بينه وبين ما قبله حوادث طواها القرآن في هذه السورة وفصلها في سورة طه. فإن سيدنا موسى وقد أطلعه ربه على ما وقع فيه قومه من عبادة العجل، امتلأ غضبا وحزنا، ورجع مسرعا إلى قومه، وصاح فيهم تنفيسا عما في نفسه من الأسى : بئسما خلفتموني من بعدي :إنكم بعد

[49] نفائس الأصول في شرح المحصول ج1 ص440/442

مغيبي عنكم كنتم على أسوأ ما يكون عليه مستخلف، تقضتم كل ما ربيتكم عليه وأقررته في ضمائركم؛ كأنه يذكرهم بأن العهد ليس ببعيد، وذلك لما طلبوا منه أن ينصب لهم إلها كما للقوم الذين مروا عليهم آلهة. وثنى بالإنكار عليهم كيف تركتم ما أمركم به ربكم من إفراده بالعبادة فلم تواصلوا المسيرة بعد ذهابي للميقات؟ لقد استشاط غضبا وكان رجلا قويا، تخيره الله على هذا المستوى من القوة ليكون قادرا على إصلاح الوضع الذي عليه بنو إسرائيل من التقلب والعناد، ومهارتهم في التأويل حتى لما هو واضح بين، فلا بد لتقويمهم من رجل صلب لا يلين، يقيم اعوجاجهم ولا يلين لما يصدر منهم من فساد يعود بهم إلى ما كانوا عليه قبل خروجهم من مصر. وبلغ به الغضب أن ألقى الألواح التي مكنه الله منها على ما وصف القرآن فيها من هداية وتفصيل، همًّا منه بتعجيل تأديب هارون الذي حمله مسؤولية خلافته عند مغيبه، فأنشب يديه في رأسه. يجره إليه بعنف وقوة، وهي صورة تكشف عن شدة الغضب والحزن. وما كان هارون ﷺ ليستطيع أن ينفلت من قبضته، فاسترحمه وتوسل إليه بالرابطة التي تجمعهما، وبعنصر الحنان في تلك الرابطة، كأنه يثير في نفسه أنهما ولدا من بطن واحد ورضعا من أم واحدة. يرجوه أن لا يبطش به، وأن يستمع إليه، وأن لا يظن به أنه قصر في أمانة الاستخلاف، وأنه قاوم بما عنده من جهد ضلال قومه، وعمل فعلا على صدهم عن عبادة العجل، ولكن إصرارهم وصل بهم إلى حد أنهم هددوه بالقتل إن لم يقلع عن معارضتهم. ورجاه أن لا يبالغ في تعنيفه فإن الذين كانوا هددوه بالقتل يُسرون بما يتعرض إليه من بطش، ومن ناحية أخرى أن لا يسويه بالقوم الظالمين كما جاء في نهاية الآية 148 اتخذوه وكانوا ظالمين. فما عبد العجل ولا رضي به ولا سكت عن الإنكار والمقاومة.

وينتهي المشهد بصورة من التآخي بين موسى وهارون، فقد قبل عذره واستبان له عدم مسؤوليته. فتوجه إلى الله طالبا أن يعمه مع أخيه بالمغفرة عن كل تقصير. ذلك أن عبادة بني إسرائيل للعجل، قد يكون لهارون قسط من المسؤولية وإن كان صغيرا، إذ يتصور أن يكون قد خفي عليه بعض المواقف التي تحول بينهم وبين الشرك. كما أن موسى وقد أسرع بالغضب على أخيه والبطش به مع أنه بذل غاية جهده، كل ذلك هدى موسى ﷺ أن يبتهل إلى الله بالدعاء بالرحمة التي يرجو أن تشمله فإن الله أرحم الراحمين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

سينالهم :سيصيبهم.

غضب من ربهم : إرادة السوء لهم وحرمانهم من الألطاف.

الذلة : يسلبهم العزة فينقادون لكل من يتسلط عليهم.

المفترين: الكاذبين كذبا لا شبهة لهم فيه.

غفور : لا يؤاخذهم بذنوبهم التي تابوا منها في الآخرة.

سكت الغضب : سكن وذهب الغضب.

بيان المعنى الإجمالي:

يخبر القرآن عن سوء عاقبة الذين عبدوا العجل: أنه سيصيبهم غضب من الله فيحرمهم ألطافه وينزل بهم العقاب وينزع من نفوسهم العزة فيضرب عليهم الذل فيخسرون أولا دنياهم، وعلى هذا النحو سيكون جزاء الذين يختلقون الأكاذيب ويروجونها. ويبشر مرغبا الذين عملوا السيئات وأسرعوا إلى التوبة يهديهم إيمانهم لفعل الخير، بأن الله غفور رحيم. وبعد أن هدأ موسى وذهب غضبه، أخذ الألواح التي كان ألقاها، والتي بقيت سليمة يستنسخ منها ما هو هدى ورحمة للذين يخافون أن ينحرفوا عن هداية الله.

بيان المعنى العام:

152-153: إن الذين اتخذوا العجل...نجزي المفترين.

هذا خطاب من الله عقب به ما تقدم من المشاهد. يسجل الله سبحانه :

أولا: إن الذين رفعوا العجل المنحوت إلى مقام الألوهية فعبدوه، سيصيبهم جزاء ما فعلوه، وعين الجزاء بأنه غضب من الله، فلا يقدّر لهم ألطافه وينزل بهم السوء، ويقرن ذلك بتمكن الذلة من نفوسهم، فيرضون بالمهانة ويتقربون لمن يقسو عليهم ويمتهنهم. إن ما نزل بهم هو جزاء اختلاقهم الأكاذيب وترويجها، وعلى هذا النحو

من الغضب والمهانة تستمر سنة الله في عقاب المفترين، فختام الآية تحذير للبشر في جميع الأزمان من اختلاق الأكاذيب وترويجها.

153-وكشأن القرآن أنه يتابع الوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة. يعد الله الذين انحرفوا فعملوا السيئات، ثم تابوا مقلعين راجعين إلى طريق الهدى، وكان بريق الإيمان في قلوبهم ناصعا يضيء لهم مسالك الحياة، إن من صفات ربك يا محمد أنه يغفر للتائبين رحيم بعباده.

154- ولما سكت...لربهم يرهبون.

أبرز القرآن بالتصريح ما دل عليه ابتهالات موسى بالمغفرة له ولأخيه وبالرحمة، أنه رجع له هدوؤه، فقال تعالى: ولما سكت عن موسى الغضب، تعني الآية زوال غضبه وذهاب ثورته. وعندها رجع إلى ما مكنه ربه في الميقات من الألواح التي كان يحملها وألقاها من يده لما اشتد على أخيه وصاح معنفا بني إسرائيل لعبادتهم العجل. أخذ موسى تلك الألواح، وفي نسختها أي ما يستنسخ منها، والذي أرجحه أن الألواح لم يفسد ما كتب فيها، لأن الله أثبت أنها بقيت أصلا يستنسخ منه ما حوته الألواح الأصلية من الهدى والرحمة. فهي تهدي إلى الطريق الذي يُرضي الله ويبين للناس ما يقيم حياتهم الدنيا على خير الوجوه وأكثرها عائدة. ولكن لا ينتفع بها إلا الذين يخافون ربهم خوفا يجعلهم يراقبون دوما ما جاءهم من عنده على لسان رسله.

وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ
أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا
مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ (155)
۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ
أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ (156) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ
ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ

ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

أخذتهم الرجفة : أصابتهم رجفة عظيمة هزتهم هزا شديدا.

لميقاتنا: في الوقت والمكان المعينين من الله.

فتنتك: ما يقع به اضطراب الأحوال.

أنت ولينا: ناصرنا وعمدتنا.

اكتب : أثبت وخلد.

حسنة: حسنة الدنيا العافية والغنى والتوفيق. وحسنة الآخرة الجنة.

هدنا : تبنا.

سأكتبها: أقدرها وأقضيها.

الإصر : التكاليف الشاقة.

الأغلال : جمع غل، وأصله القيد في رقبة الأسير، يجر منه إذلالا.

عزروه: أيدوه.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن أقام موسى عليه السلام مدة في قومه يصلح ما فسد منهم بعبادة العجل، اختار من قومه سبعين رجلا، توجه بهم إلى الميعاد الثاني. استولت عليهم رجة عظيمة امتصت قواهم ومداركهم. توجه موسى إلى ربه ضارعا فقال : رب إن الأمر بيدك ولو شئت أن تهلكهم لما عبدوا العجل ما سلمت ولا سلموا. ثم أضاف متضرعا: أتنزل علينا ربنا غضبك بسبب ما فعل أصحاب العقول الضعيفة السخيفة منا ؟ إن ما تم هو الفتنة التي فتنتنا بها ليتبين الصادقون من المزيفين ؛ فترتب عليها ضلال من هو أهل للضلال، وتهدي بها من هو ثابت على الحق متبصر، ربنا إننا عبيدك وأنت ولينا ولا ناصر لنا غيرك فاغفر لنا ما وقعنا فيه، وأنزل علينا رحمتك التي

يتبعها كل خير، فإنك ربنا خير من غفر. وأعطنا برعايتك لنا في هذه الدنيا كل خير، واجعل الجنة مثوانا، إنا تبنا إليك.

قال الله لموسى معلما له بحقيقة أوصافه القدسية، التي منها أن عذابه سبحانه يسلطه على من يشاء من عباده، وهم الذين كفروا فقطعوا صلتهم به، وأن رحمته تشمل البشر جميعهم في الدنيا، فكل فرد من البشر سواء أكان مؤمنا أم كافرا صالحا أو فاسقا يناله من رحمة الله ما قدره له في الدنيا. كما أعلمه أنه بجانب رحمته العامة قدر رحمة خاصة حقق أنه سيفيضها على المتقين الذين يقومون بأداء زكاة أموالهم واستقر الإيمان الواضح في عقولهم وأرواحهم. هؤلاء الذين يلتزمون بما جاء به محمد النبي الأمي الذي ميزه بروح بلغت من صفائها ومن عقل ينفذ بوضوحه إلى صواب الحكم والتحليل ، ومن الحكمة البالغة، ما صحبه منه في جميع ما قام به التسديد. وبذلك كانت الأمية في حقه كمالا وفي غيره نقصا. وكانت معجزة ذاتية له.

إن هذا النبي يجدون أوصافه المميزة له في التوراة والإنجيل، هذه الأوصاف التي منها : أن دينه دين الفطرة فهو يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقرر لهم أن تناول ما هو طيب غير ضار وغير مستقذر ولا منهي عنه حلال، ويحرم عليهم كل ما هو خبيث ومستقذر، ويخفف عنهم ما كانوا مكلفين به من الأحكام الشاقة، ويسوي بينهم فيرفع كل ميز عنصري سببه اللون أو الجنس أو القومية. إن من آمن بهذا النبي الكريم وأيده ونصره في نشر الدين والتزم في حياته اتّباع الهدى الواضح الذي جاء به هو الفائز الذي تحقق فلاحه. ثم يأمر محمدا ﷺ أن يدعو البشرية جميعا لاتّباع الإسلام مهما اختلفت أجناسهم وأعراقهم وحضاراتهم، لأنه رسول من عند الله رب الكون كله المالك للسماوات والأرض، لا إله غيره ولا رب سواه، يتصرف في الموجودات كلها بالحياة أو الموت.

يأمر الله كل إنسان على وجه البسيطة في عهد الرسالة وفيما يتلوه أن يؤمن بالله وبرسوله (النبي الأمي) وهذا الوصف لا يشاركه فيه أحد ﷺ الذي من أخص خصائصه، الإيمان البالغ درجة اليقين والوضوح الذي ليس فوقه مقام، والإيمان بكل ما أنزله الله على أنبيائه من الهدى، والإيمان بعيسى على أنه كلمة الله. ويأمرهم رب الأرباب أن يقرنوا إيمانهم بمحمد بتطبيق شرعه، فإنه بذلك يرجى أن يكونوا مهتدين.

بيان المعنى العام:

155←157: واختار موسى سبعين....هم المفلحون.

هذا المقطع يترجح أنه يُفصّل بعض ما تم لموسى بعد أن هدأ غضبه وسأل المغفرة والرحمة له ولأخيه من ربه، وأقام مدة في قومه يهديهم ويطهر ما علق بهم بعد عبادتهم للعجل. ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه تبعا لما أُمره به، وقد صحب سبعين رجلا اختارهم من بني إسرائيل. ويقودهم ليحضروا في الزمن والمكان المعينين من الله. فهذا ميقات غير الميقات الأول.

بعد أن بلغوا الميقات أخذتهم هزة شديدة، ملكت كل قواهم، فقدوا التحكم في مداركهم وفي أعصابهم وفي أعضائهم، بما يفيده الأخذ من الاستيلاء الكامل. وفي هذا الوضع، الصعب على موسى مشاهدته، لم يبق له إلا أن يتوجه إلى الله بالابتهالات والدعاء واللجأ إليه. ولما لهذه الابتهالات من صفاء عقبتها الإجابة، سجلها القرآن لتكون سنة للمؤمنين في حالات الكرب والشدة.

أولا: افتتح موسى ﷺ ابتهالاته بتفويض الأمور كلها لله، والاعتراف له بالقدرة التامة، وإظهار العجز والفقر من الداعي إلى مالك الأمر سبحانه، يقول : رب لو شئت أن تهلكهم من قبل عبادة العجل وتهلكني معهم، فإن قدرتك لا يعجزها شيء ولا اعتراض على ما تقدره بحكمتك ربنا.

ثانيا: يتوسل إلى ربه أن لا يهلكهم بتعميم العقاب الذي ينزله على ضعفاء العقل والإدراك من الهمج الذين أسرعوا لعبادة العجل.

ثالثا: اعترف بأن الذنب عظيم وأن ما وقع منهم كان بقضائك ربي وقدرك، وليس في الكلام ما يدل على الاعتذار، ولكن القصد منه تمجيد الله بأنه هو وحده المتصرف، فعبادة العجل فتنة زلزلت العقول والأرواح، ولو شئت أن تمنع حصولها لفعلت ولكن قضاءك يجري على الحكمة التي يعجز العقل البشري عن الإحاطة بها، فتسلب ألطافك وتبصيرك ممن شئت فيهلك بما قدمت يداه، وتمنح ألطافك لمن شئت فينجو بفضلك.

رابعا: عبر عن تقربه إلى الله وأنه يعتقد أن لا ناصر له ولقومه إلا هو، والاستعطاف من أدب الدعاء.(أنت ولينا)

خامسا: سأل بعد تلكم المقدمات من التفويض والتوسل والاعتراف والاستعطاف، الغفران الذي هو بمعنى الستر للذنوب ومحو ما يترتب عليها، والرحمة الشاملة لخيري الدنيا والآخرة. ومغفرة الله لا يدانيها عفو البشر، فالعاصي يكون قد عصا

ربه بما أعطاه ربه من إمكانات، وهو يعلم أنه مطلع عليه، ويعلم أن لا يستطيع أن ينفلت من العقوبة، ومع هذا يغفر له ربه ذنبه فلا يبقى منه أثر. ولو صفح الإنسان عمن تصرف في ملكه بمثل تلكم الأوصاف فإنه وإن عفا عنه تكرما، وقلما يقع ذلك، إلا أن منزلته لا تعود أبدا إلى ما كانت عليه، فلا شك أن مغفرة الله أعلى شأنا وأكرم من مغفرة الغافرين؛ وأنت خير الغافرين. كما سأله أن يقدر له ولقومه ما يمكنه من خيرات الدنيا الشاملة للعافية، والغنى والتوفيق لصالح الأعمال، وأن يجعلهم من أصحاب الجنة يوم القيامة؛ وما قدره الله فنواله محقق.

استجاب الله لابتهالات موسى، وزاده تعريفا بالكمال الإلهي فقال له: إنه الله المالك للعذاب وللرحمة. فأما العذاب فإنه يصيب به من يشاء من المستحقين له باختيارهم موجبات العذاب، فالعذاب لا يشمل البشرية كلها ولكنه خاص. وأما الرحمة الإلهية فهي رحمة واسعة شاملة تنال كل شيء حتى الفسقة والكفار. إن من يتأمل في الخلق يرى أن نعما لا تحصى تفضل الله بها على العباد، فالتنفس، والأكل والشرب واللباس، وما رزقه كل كائن من القوى التي يستطيع بها مواصلة العيش أو عطف غيره عليه إن كان عاجزا، وبصفة عامة فإنه لا يقدر أحد أن يحصي نعم الله ورحمته التي يَتَرَفَّهُ بها الخلق. وبجانب الرحمة العامة رحمة خاصة، عرّف سبحانه من خصه بها، وأكد بأنها مثبتة مقررة كشأن المكتوب وسيوصلها لأصحابها، وهم من جمعوا الصفات المنصوص عليها:

1)التقوى : الحماية التي يحصن بها الإنسان نفسه، فلا ينزلق إلى ما نهى الله عنه، ويفعل الخير.

2) إيتاء الزكاة يُمَكِّنُ منها مستحقيها عن طيب نفس.

3) صفاء الروح والتجرد من العناد لتحل فيها الآيات المنادية بصدق الرسل محل اليقين وتضيف كل آية يقينا إلى يقين، سواء أكانت من المعجزات الحسية التي تأيد بها الرسل أم من الكلام المعجز وهو القرآن. فانسحب هذا الوصف على بني إسرائيل عند مجيء عيسى فكان عليهم أن يؤمنوا بالآيات التي تأيد بها، وانسحب عليهم وعلى النصارى بعد مجيء محمد ﷺ. وأما قبل أن يجهر ﷺ بدعوته، فتَحقُّقُ هذا الوصف يتم بالإيمان به عند قدومه حسب الميثاق الذي أخذه موسى من بني إسرائيل والميثاق الذي أخذه عيسى عليهم.

4) اتّباع شريعة محمد ﷺ الذي وصفته الآية بكونه الرسول النبي الأمي ؛ تتابعت ثلاثة أوصاف :

أما أنه رسول فلأنه بلغ شرع الله، وأن ما أتى به يُوقِف العمل بما جاء من الشرائع قبله، حتى ما كان متفقا معه، فإن الهدى منحصر في اتّباعه والأخذ بما جاء به، إذ تكوّن من مجموع الوحي المنزل عليه المنهج المعبر عنه ب **(الإسلام)**.

وأما أنه نبي؛ فالنبوة مفادها أنه أوحي إليه وأنه تلقى من ربه ما تعلقت الإرادة الإلهية بإبلاغه إليه. فوصفه بالنبوة تأكيد على أنه سما إلى مرتبة قبول الوحي. ووصفه بالرسالة تثبيت لكونه كلف بإبلاغ ما أوحي إليه به. وقد اجتمع في رسول الله ﷺ الوصفان. وأما أنه أمي ؛ فإن وصف الأمية المقرون بالنبوة والرسالة من خصائصه صلى الله عليه وسلم، كانت الأمية له كمالا يسمو به على سائر الخلق أجمعين، وهو في غيره نقص وعيب؛ يوضح ذلك ما جرى على لسانه من الحكمة والصواب، وما وفق فيه من تكوين أمة قادرة على المضي بالدعوة ونشرها في العالمين، وتأليفه بين القبائل التي روّضها على الوحدة بالموعظة الحسنة، والقرآن الذي بقي مع الزمان سليما من التحريف يقدم للبشرية أفرادا وجماعات وأمما السبيل الهادي إلى الأمن والتقدم، وما قارن تصرفاته من الصواب والخير مما لم يصل لمستواه أي فرد من المتعلمين القراء. فكان الكمال البشري مع الأمية في رسول الله ﷺ أمرا ذاتيا لم يتوسط فيه تعليم من بشر ولا دراسة لكتب. وهو المعنى الذي أخرجه ابن السمعاني بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله أدبني فأحسن أدبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[50].

واختلف المفسرون في بيان وصف الرسول محمد ﷺ بالأمي. فبعضهم رأى أن الأمي منسوب إلى الأم، أي بقي على الحالة التي صدر عليها من بطن أمه لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وبعضهم خرجه على الانتساب إلى الأمة، لأن الأمة بجملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع. وعلى التخريجين فالأمي مضمّن عدم القراءة والكتابة. ويرجح أن المقصود به كونه ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، قوله تعالى: **(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون)**[51] وخرجه آخرون على أنه منسوب إلى أم القرى، وهذا غير مضمن لعدم القراءة والكتابة.

---

[50] فيض القدير ج1 ص225

[51] سورة العنكبوت آية 48

ومع تعيين الرسول ﷺ بالأوصاف الثلاثة، أضاف الله في وحيه إلى موسى، خصائص دعوته:

1) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يوضحه أن الدين الذي يدعو إليه دين الفطرة؛ فهو يدعو إلى ما تقتضيه الفطرة السليمة ويشجب ما يخالف مقتضياتها. فهو يعمل على أن يكون المجتمع كله جاريا في سلوكه على أوصاف طبيعية تيسر وحدته وتضامنه.

2) يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث. إنه تبعا لكون دينه دين الفطرة هو لا يُضيّق على أمته في حياتها، فكل ما لا يضر الإنسان في نفسه ولا في خلقه ولا في دينه وهو غير مستقذر حلال، ومع تحقق أحد الأسباب المذكورة يكون حراما. ثم إنه قد يتحاشى أقوام بعض المآكل ويقبل عليها غيرهم بشراهة تبعا لعادات، لكن ذلك لا يصح أن يعطى حكما شرعيا.

3) يبطل ناسخا ما كان مشروعا قبله من الشدة الثقيلة، هذه الشدة التي ساعدت سيدنا موسى ﷺ على إصلاح بني إسرائيل، ليستقيموا بعد أن فسدوا بما سلط عليهم من الذل من فرعون وزبانيته، وإلفهم لمنازل الهوان. ثم يرتقي بمعتنقيه إلى مرتبة إنسانية واحدة لا يشعر فيها أي من متبعيه بالامتهان أو أن بعضهم يتميز بقيمة أعلى من غيره. فمثلا في شريعة موسى خص اللاويون بمزايا رفعتهم إلى رتبة سيادية دائمة. وجرت معاملات الأمم لمن يدخل تحت سيادتهم بالاستنقاص لحقوق المغلوبين على نحو لا يأملون في الخروج منه. فيان مما ذكرناه رفع الإصر بمعنى إبطال كل تشريع فيه مشقة كبيرة، وما جعل عليكم في الدين من حرج.

ومعنى وضع الأغلال: أن من يدخل في الدين الذي يدعو إليه تكون له نفس القيمة التي لأي مؤمن. لا تفاضل بينهم بلون ولا جنس ولا نسب ولا عرق.

بعد أن ذكر في صدر الجواب لموسى أن رحمته الخاصة سبحانه سيكتبها لمن تتبعنا ملامحهم، تختم الآية بما يؤكد تلكم الرحمة، وما يؤكد من ناحية صفاء الاتّباع وصدقه، بأن الذين آمنوا بهذا الرسول النبي الأمي... إيمانا حملهم على تأييده وإظهار صدقه للناس بما وجدوه في كتبهم، ونصروه على من يبغي إطفاء دعوته، وأدركوا النور الذي جاء به فاتخذوه هاديا لهم في مسيرتهم في الحياة، إن هؤلاء هم الذين فازوا في عاقبة أمرهم وهم المختصون بالفلاح، وخسر كل من لم يسر على نهجهم. وبهذا فإن النص القرآني كما يشمل اليهود والنصارى، يشمل أيضا جميع من وُجّهت إليهم الدعوة فاستجابوا، واتبعوا ملازمين للنور الذي جاء به.

158 - قل يا أيها الناس...لعلكم تهتدون.

لقد أوضحت الآيتان السابقتان ما تميز به الإسلام، وصفات رسوله الذي دعا كافة البشر إليه، وفلاح من اتبعه؛ فجريًا على ما يهدف إليه القرآن من صلاح البشرية، أمر رسوله أن ينادي في الكون كله وأن يدعو الناس جميعا ليؤمنوا به على أنه رسول الله إلى كل إنسان، ممن حضر وقت النداء وممن سيأتي في مستقبل الأزمان. ومما يوجب الاستجابة إلى عموم هذه الدعوة الموحّدة، التي تجاوزت طبيعة دعوة موسى وعيسى الخاصة ببني إسرائيل، أنه مبعوث من الله الذي له ملك السماوات والأرض، وهو وحده الحقيق بأن يعبد حسبما يقتضيه مفهوم الألوهية، وأنه سبحانه هو أيضا وحده الذي يحيي، وهو الذي يميت وليس ذلك لأحد غيره. إن هذه المقدمات يتبعها أن تتوحد البشرية على عقيدة واحدة وعلى دين واحد. وخاصة مفهوم الإحياء والإماتة، فإن هذا المفهوم كما يبرز أثره في الأجسام يبرز أثره في الأرواح، كما جاء في قوله تعالى : (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)[52]

وتتأكد دعوة الرسول بالأمر الإلهي لجميع البشر أن يؤمنوا بالله وبرسوله وأن يلتزموا في حياتهم عقيدة وعملا وسلوكا ما جاء به الرسول النبي الأمي، محمد المتفرد بهذه الأوصاف بين الخلائق، المنوه به من قبل ربه: أنه يؤمن أوضح إيمان وأتمه بالله وبكلماته المتمثلة فيما أوحي له به من القرآن، وما أوحي للنبيين من قبله من الحقيقة، وبعيسى الذي هو كلمة من الله كما بيناه في سورة آل عمران : (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم)[53] - وكما أشرنا إليه: إن الإيمان الذي نادى في البشرية أن يؤمنوا به، هو المبين في ختام الآية بأنه الإيمان الذي يصحبه الاتّباع لكل ما جاء به عقيدة وعملا وأخلاقا. وبهذا الإيمان المقرون بالالتزام العملي يرجى لكم تحقق الهداية، والرجاء مناطه أنه مغالبة للنفس في مسيرة الحياة، وهذه لا غنى لها عن موصول الألطاف الإلهية.

---

[52] سورة الأنعام آية122

[53] سورة آل عمران آية45

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

قوم موسى: المتبعون لشريعته قبل البعثة المحمدية.

يعدلون : لا يظلمون في أحكامهم.

قطعناهم : قسمناهم.

الأسباط: أبناء أبناء يعقوب إلى كل واحد منهم تنتسب قبيلة.

انبجست : انشقت.

بيان المعنى الإجمالي :

أنصف القرآن بني إسرائيل فبين أنهم لم يجمعوا على الضلال ولكن فريقا منهم ثبتوا على الحق ويقضون بالعدل. وقسم موسى بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة فرقة كل واحدة تُدْعَى سبطا تنسب إلى الولد الذي تناسلت منه من أبناء يعقوب عليه السلام. وأوحى الله لموسى لما عطشوا وكانوا في الصحراء، وسأله السقيا، أن يضرب الحجر بعصاه، فضربه وتفجرت منه اثنتا عشرة عينا عرف كل سبط العين الذي يرتوي منه. ثم ذكر القرآن ما منَّ به الله على بني إسرائيل وهم في الصحراء من الغمام الذي يظللهم ومن تيسير طعامهم من المن والسلوى، وأباح لهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم من رزق طيب. وإن الذين تجاوزا الحدود أوقعوا أنفسهم فيما يوجب لهم العذاب وظلموا بذلك أنفسهم ولم يضروا الله شيئا. واذكر

مذكرا لهم قصة القرية التي أذن لهم بدخولها والانتفاع بخيراتها، وقد تقدمت مفصلة في سورة البقرة.

بيان المعنى العام :

159- ومن قوم موسى...وبه يعدلون.

هذه الآية تعلمنا التدقيق والضبط. فقوم سيدنا موسى لم يعبدوا كلهم العجل، وإنما عبده سفهاؤهم. وقوم سيدنا موسى هم الملتزمون باتباع شريعته التي بقيت شريعة الله إلى أن نسختها الشريعة الإسلامية، ولذلك فإنه بعد مجيء الإسلام لا يقال لمن يتبع شريعة موسى : إنه من قومه، ولكن هم يهود أو بنو إسرائيل. يبدو هذا التدقيق والإنصاف في أن بعض الذين التزموا بشريعة موسى كانوا على حظ من التقوى ومن دعوة الناس إلى الحق، ومن الحكم بالعدل إذا تولوا الحكم بين الناس.

160-وقطعناهم اثنتي... يظلمون.

كان موسى ﷺ رسولا وقائد أمة ورجل دولة. وساعده الوحي على النجاح في مهمته، فنفذ ما أوحي إليه من تقسيم بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة فرقة، كل فرقة تسمى(**سبطا**) والسبط ما تناسل من أولاد سيدنا يعقوب الاثني عشر. وبهذا التقسيم تيسر تنظيم أمرهم في كل شؤون الحياة المدنية. فمن ذلك أنهم لما عطشوا بعد اجتيازهم البحر سألوا موسى الماء، فطلب السقيا من ربه، وأوحى إليه أن يضرب الحجر بعصاه، فضربه فتفجرت من الحجر اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط، وقد اهتدى كل سبط إلى العين التي تخصه فشربوا وارتووا دون تدافع.

وقد تقدم الكلام على هذه المعجزة في سورة البقرة آية60 وما تبعها من المنن التي تفضل بها عليهم من الإذن للغمام بتظليلهم من وهج الشمس في الصحراء، وإنزال المن عليهم كل صباح يقتاتون منه ما يقيم حياتهم، مع لحم السلوى [**السماني**] التي سخرها لهم يمسكونها دون عناء. وقد تقدم ما يتعلق بهذه المنن في سورة البقرة. وأضاف إلى المنة المادية المنة الاعتبارية بتذكيرهم أن هذا من فضل الله عليهم فليأكلوا منه وليشربوا من الماء المتفجر من الصخرة، وكلها طيبات من رزق الله.

161-162، وإذ قيل لهم اسكنوا...بما كانوا يظلمون.

وختم الآية بأن ما وقع من بني إسرائيل من عدم مقابلة تلكم النعم بالشكر والطاعة كان له أثره على نفسياتهم. وعصيانهم لا يضر الله شيئا ولكن يجمعهم في الجزاء إلى الظالمين. وقد تقدم في سورة البقرة في توبيخ بني إسرائيل قبل تفجير الماء نظير ما ذكر هنا. وما بين الطريقة التي نسجت بها القصة هنا، وبين طريقة التعبير

في سورة البقرة من جزئيات يوضحها أن غرض القصة هنا هو سرد ما تم وفي سورة البقرة التوبيخ. فكان الإعجاز البياني موجبا لشيء من الاختلاف حسبما يلائم كل موقع. والقرية التي أمروا أن يدخلوها لم يعين القرآن اسمها، ورتب لهم طريقة دخولهم وما يقولونه، ولكن عصى فريق منهم متجاوزا الحدود التي حددها لهم موسى بوحي من ربه، فأنزل الله على الذين عصوا وبدلوا عذابا نزل عليهم من السماء لم يستطيعوا منه توقّيا، وكان ذلك بسبب ظلمهم وقد تقدم شرح أوفى في سورة البقرة آية 59/58.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

يعدون : يظلمون ويتجاوزون الحق بمخالفة الشرع.

الحيتان: الأسماك.

شرّعا: متتابعة مصطفة ظاهرة.

نبلوهم : نختبرهم.

حاضرة البحر : قريبة من شاطئه.

معذرة : إقامة عذر.

نسوا: تركوا.

بيس : مؤلم شديد.

عتوا: من العتو وهو الاستعصاء.

خاسئين: مبعدين أذلاء.

بيان المعنى الإجمالي:

أذن القرآن لرسول الله ﷺ أن يسأل اليهود عن أهل القرية التي كانت على شاطئ البحر، والتي يكتمون أمرها ولا يخبرون به، لاحظ أهل القرية أن الأسماك تأتي

بكثرة للشاطئ يوم السبت، وتوغل في داخل البحر في الأيام الأخرى، مما أغراهم بالاحتيال عليها يوم السبت ليمنعوها من العودة إلى لُجّ البحر. فكان هذا اختبارا لهم ليظهر فسقهم وتجاوزهم للحدود التي حددتها التوراة ؛واحتالوا عليها فعلا. وقام فريق من أهل القرية بنهيهم عن ذلك، ولم يفد فأقلعوا عن وعظهم، وواصل فريق آخر نهيهم ووعظهم. دار بين الفريقين الصالحين الحوار التالي: قال الذين اعتزلوا وعظهم للذين يوالونه: لم تتعبون أنفسكم في وعظ هؤلاء الذين حق عليهم المحق أو العذاب الشديد؟ أجاب الفريق المواصل إن نهْينا إظهار لعذرنا أمام ربنا، ولعلهم في النهاية يقلعون عن الإثم. ولكن الكسب المادي أصم آذان الصيادين عن المواعظ. فلما واصلوا تجاوز الحدود سلط الله عليهم عذابا شديدا فمسخهم قردة.

والأقرب أن المسخ كان كفاء ما صنعوا، فهم قد احتالوا وصرفوا ذكاءهم في انتهاك ما أمروا به، فكان العذاب بسلبهم قدراتهم العقلية، فأصبحوا في مستواهم الذهني كالقردة ليس لهم من القوى العقلية إلا التقليد الغبي في الأمور المادية القريبة.

بيان المعنى العام :

163- واسألهم عن القرية...بما كانوا يفسقون.

دعوة موجهة إلى رسول الله ﷺ أن يثير اليهود بسؤالهم عن أهل القرية التي كانت قريبة من شاطئ البحر. وذكر المفسرون في تعيينها أقوالا كثيرة لم يبينوا مستندهم في التعيين. ولا يُقصد من السؤال أن يجيبوه عما حصل لهم. ولكن اليهود كانوا يكتمون قصة هذه القرية، فعرّف القرآن نبيه بها، وسألهم عنها لينبئهم أنه موحى إليه من الله المطلع على ما يخفونه من تاريخهم كعلمه بما يضمرونه في أنفسهم من حقد ومكر بالإسلام، وأنه يكشف له خفاياهم. فما هي قصتها؟

كانت القرية قريبة من شاطئ البحر، وكان أهلها يصطادون الأسماك، ولاحظ سكانها أن يوم السبت تظهر الأسماك بكثرة، واليهود يحرم عليهم العمل يوم السبت. ابتلاهم الله بهذه الظاهرة ليتبين المحافظون على شريعة التوراة والمتهاونون بها. ويذكر المفسرون صورا كثيرة لطريقة انتهاكهم لقداسة السبت، وكلها لا تخرج عن تصوير حيل تمكنوا بها من منع الأسماك من الرجوع إلى داخل البحر، ثم يقبضون عليها يوم الأحد.

فالله لم يقسرهم على الوقوع في الإثم وعدم احترام عطلة يوم السبت، وإنما تعرضوا لامتحان يختارون فيه بأنفسهم بدون ضغط عليهم طريق التقوى أو طريق الفسق. ويصرح القرآن بأن ما تعرضوا له من الامتحان كان بسبب تماديهم على

المعاصي والخروج عن الحدود، فكان ذلك كاشفا لحقيقتهم معدا لتسليط العقوبة عليهم.

164←166-وإذ قالت أمة منهم...قردة خاسئين

دقق القرآن أن انتهاك السبت لم يحصل من جميع أهل القرية. ولكن أهلها كانوا ثلاث فرق: جماعة تحيلوا على الأسماك يوم السبت حتى أوقعوها في قبضتهم في اليوم التالي. وجماعة قامت منددة ناهية للمعتدين حتى أيست من إقلاعهم عن الإثم فاستمرت منكرة في باطنها غير موالية مباشرة النهي. وطائفة والت الإنكار وشجب ما يقوم به الصيادون. ثم إن الفرقة الثانية قالت للفرقة الثالثة: لم تتعبون أنفسكم بوعظ هؤلاء الذين استهانوا بالمقدس استهانة سينالهم بسببها عذاب شديد وهم مصممون على التمادي لا يتأثرون بالمواعظ والتذكير. أجابت الطائفة الثالثة :إننا نوالي وعظهم ليكون قيامنا به عذرا عند ربنا أننا ما فعلنا ولا سكتنا، ومن ناحية أخرى لعلهم بمواصلة وعظنا يرجعون عن غيهم ويتقون ربهم.

أعقب ذلك أن الصيادين لم يلتفتوا إلى المواعظ، وواصلوا التحيل على الأسماك يوم السبت، فهم لرفضهم المواعظ كأنهم نسوا ما توالى على أسماعهم من تذكير الصالحين منهم. فسلط الله عذابا شديدا(بيس) على الظالمين بسبب تصاممهم عن الاتعاظ والتمادي في الإثم وخروجهم عن الحدود الواضحة في التوراة ، وأنجى الذين قاموا بالنهي عن المنكر. ثم أضاف القرآن أنهم تمادوا في عصيانهم، فهل هذا التمادي هو تحقيق وتأكيد لما سجلته الآية السابقة، فأتبعه القرآن بتفصيل العذاب الشديد (بيس) أنه أصدر أمره التكويني بأن يكونوا قردة أذلاء.

ويحتمل أن الله سلط عليهم أولا عذابا شديدا، فلم يقلعوا وواصلوا الاعتداء في السبت فمسخهم الله قردة.

وتقدم في الآية 60 من سورة البقرة ما يحتمله لفظ المسخ.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (167) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا

يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

بيان معاني الألفاظ :

تأذن: أعلم بما سينفذه.

ليبعثن : ليسلطن وليرسلن.

يسومهم : يكلفهم ويحملهم.

سوء العذاب : أشده.

خلف من بعدهم : حدث بعدهم الذين خلفوهم.

العرض : ما يزول ولا يبقى، والمراد به المال.

الأدنى : الأقرب أي الدنيا.

الميثاق : ما أخذه عليهم موسى عليه السلام من إقامة التوراة والعمل بها.

يمسكون: مضارع مسك بمعنى مسك، أي يضبطون أعمالهم.

نتقنا : اقتلعنا ورفعنا.

ظلة : سحابة.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلم الله ملائكته بما قدره ليقوموا على تنفيذه، أعلمهم أنه قدّر أن يسلط على بني إسرائيل من يحملهم أشد العذاب وأسوأه. والله العظيم المقتدر القهار يوقع العقوبة وحاشاه أن يتردد، كما أنه متصف بالمغفرة والصفح عن المذنبين التائبين ويرحم عباده بما يهيء لهم من ألطاف.

وسجل القرآن: أن الله بعد أن جمع بموسى عليه السلام كلمة بني إسرائيل، قسمهم جماعات جماعات، بعضهم صالح وبعضهم غير صالح واختبرهم تارة بالخير، وتارة بالعسر والشدة لعلهم يرجعون إلى الطريق المستقيم. وظهر إثرهم خَلْفُهُم الذين ورثوا عنهم التوراة، فكان من أمرهم أنهم يقبلون على الحياة الدنيا معرضين عما يأمرهم به كتابهم، ويقولون تبريرا لفسقهم: إن الله سيغفر لنا، وتمادوا على ذلك يقبلون الرشاوى ويغيرون نصوص التوراة مؤولين. يسألهم القرآن سؤال تقرير: ألم يؤخذ عليكم الميثاق الذي التزمتم به أن لا تحرفوا ما أنزل عليكم ولا تنسبوا إلى الله إلا

الحق المثبت في الكتاب، ومع الميثاق أنتم غير جاهلين فقد درستم التوراة وعرفتم مضامينها. آثرتم الحياة الدنيا ومتاعها قليل، وأعرضتم عن الدار الآخرة، ونعيمُها خير للذين اتقوا ربهم، ما لكم أفقدتم عقولكم!

أنصف القرآن الخلف بأن منهم من يراعي في أعماله ما جاء في التوراة، وكان على صلة بربه فأدى الصلاة على الوجه السليم، وفضلُ الله لا يهمل المحسنين أجرهم.

وقصة أخرى قد ذكرت في سورة البقرة حاصلها : أن بني إسرائيل ترددوا في التزام ما جاء في التوراة فرفع الله فوقهم الجبل وبلغت بهم الرهبة أنهم ظنوا أنه سيقع عليهم ويسحقهم. وعندها أمروا أن يقبلوا ما في التوراة بعزم ثابت على التطبيق وأن يذكروا ما جاءهم من ربهم حتى لا يستولي عليهم النسيان.

بيان المعنى العام :

167.وإذ تأذن ربك...لغفور رحيم

اذكر يا محمد ما أعلم الله به ملائكته، الموكلين بتنفيذ أمره، أن عليهم أن يسلطوا سوء العذاب على اليهود في جميع مراحل التاريخ إلى يوم القيامة، فكلما خرجوا من كرب يهيئون الظروف لينالهم القدر المحتوم. وليس العذاب الموعود به، المعلم به الملائكة لتنفيذه مسلطا على اليهود لكونهم يهودا، ولكن ذلك تابع لكفرهم بآيات الله وببشارة محمد ﷺ، فإذا آمنوا به كما هو الحق وكما تأمرهم به التوراة، فإن الوعيد سيرتفع عنهم. وتعلن الآية وصفين من صفات الله تعالى :

الصفة الأولى مرتبطة بإنزال العقوبة، فإن عقابه شديد لا يجد من ينزل به منه مخرجا.

والصفة الثانية مرتبطة بالفضل، فالله غفور يغفر لهم ما كانوا عليه قبل إيمانهم، ورحيم بما أقامه على صدق الرسول من شواهد، وما قارنت الدعوة المحمدية من معجزات تذهب بوساوس الشيطان وتضليلات ربّيهم، وتُيسّر لهم الدخول في دين الله.

168 - وقطعناهم في الأرض أمما...لعلهم يرجعون.

ثم ذكرت الآية وضعا من أوضاع يهود وقد نفذ فيهم القدر المحتوم، هو الوضع الذي قطعهم وفرقهم بعد أن كانوا مجتمعين. فإن بني إسرائيل بعد أن قادهم موسى عليه السلام قيادة حكيمة، وحَدّث بينهم بما يمنع حدوث شقاق بين عشائرهم، وذلك لما قسمهم أسباطا كما بيناه سابقا، ولكن مع مرور الزمن وتنكرهم لما جاء في التوراة فرّق القدر الإلهي بينهم، كما يُقطّع الثوب فيتمزق، وتوزعوا في أرض الله.

ويشير القرآن إلى ظاهرة واضحة من تتبع طريقة اليهـود وهـم موزعـون بـين الأمـم، هذه الطريقة هي أنهم لا يندمجون في غيـرهم ويتميـزون برابطـة جامعـة بيـنهم، قـال تعالى : (وقطعناهم في الأرض أمما) فكل مجموعة منهم فـي قطـر أو دولـة تعقـد بـين أفرادها رابطة جامعة تكون بها أمة وسط الأمة.

169- فخلف من بعدهم خلف...أفلا تعقلون.

ومن ناحية أخرى أنصفهم القرآن ولـم يُجـرِ علـيهم حكمـا ثابتـا لا يختلـف بـاختلاف الأشخاص والظروف، فحقق أنهم علـى فـرقتين، بعضـهم شـهد الله بصـلاحه فاسـتقام في سلوكه وآمن بما جاء في التوراة وعمل بـه، ومـن ذلـك الإيمـان بمحمـد صـلى الله عليه وسلم، وبعضهم كان دون هذه المرتبة من الصلاح.

ومراتب انتفاء الصـلاح متفاوتـة. ثـم إن الله اختبـرهم بـالخير والضـر. إن الامتحـان المقدر لهم من الخير أو من الضر لم يكـن اعتباطـا، ولكـن تقويمـا للنفـوس رجـاء أن تعود إلى الإيمان والتزام طريق الصـلاح. ذلـك أن بعـض النـاس إذا جـاءتهم الحسـنة تيقظوا لفضل الله عليهم فأقبلوا عليه بالشـكر والطاعـة، وأن بعضـهم إذا ابتلـي بالسـيئة هزته لمحاسـبة نفسـه والرجـوع إلـى الطريـق الـذي يرضـي رب العـالمين. فلـيس الاستدراج ولا الانتقام هو المقصود، ولكن الإصلاح بالعودة إلى الطريق المستقيم.

170-والذين يمسكون...أجر المصلحين.

تعرض القرآن للحديث عن الذين خلفوا آباءهم وجـاؤوا بعـدهم. فقـد انتقـل إلـيهم مـن آبائهم الكتاب الذي نزل على موسى فعلموا ما فيه بمـا يرفـع عـنهم اعتـذارهم بالجهـل عندما يوقفون على سوء أعمالهم. وهـم مـع علمهـم بأحكـام الكتـاب يسـارعون فـي قبول المال الفاني غير الباقي سواء أكان ذلـك فـي الارتشـاء عنـدما يكونـون حكامـا، أوفي بيان أحكـام التـوراة للاتّبـاع فيؤولونهـا حسـبما يوافـق الأهـواء، أو فـي عـدم الاقتصار على الحلال في المعـاملات، فوصـفهم بشـدة تعلقهـم بالمـال الـذي يقدمونـه على ما استحفظوا عليه مـن كـلام الله وأحكامـه، ويقـدمون مبـررا لفسـادهم بـأن الله سيغفر لهم ذنوبهم. وهذا مـا يروجـه اليهـود والنصـارى، فـاليهود يكـذبون علـى الله زاعمين أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودات هي الأيام التـي عبـدوا فيهـا العجـل ومـا يتلبسون به من المناكر بعد ذلك مغفور لهم لأنهم أبناء الله وأحباؤه.

والنصارى يزعمون أن عيسى ابن الرب وأنه بذل بدنـه للتعـذيب ليغفـر ذنـوب البشـر الذين يؤمنون بذلك. فالصلاح عندهم والخير لـيس فـي الاسـتقامة ولا فـي فعـل الخيـر ولا في تحقيق الاستخلاف؛ ولكن في الإيمـان بـأن عيسـى صـلب ليكفـر عـن ذنـوب

البشر، أو في أنهم من نسل يعقوب الذي رفعه الله على سائر البشر. وهي دعوى تناقض العدل الإلهي. إنهم مع علمهم بحرمة الأموال التي تدخل في مكاسبهم، يواصلون لذلك لا يرعوون، فكلما جاءهم مال حرام أخذوه، ويتعللون بأن الله وعدهم بغفران ذنوبهم.

رد الله عليهم دعواهم، ووجه لهم سؤال تقرير وتوبيخ محصله: ألم يؤخذ عليكم الميثاق الذي جاءت به التوراة من الالتزام بالعمل بما جاء فيها. ومما أخذ عليهم أن لا يكذبوا على الله، وأن لا يغيروا شيئا مما أنزله عليهم. ومع الميثاق هم قد درسوا الكتاب وفهموا مضامينه، فانتسابهم لموسى يوجب عليهم أن لا ينقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم: أن لا يقولوا على الله إلا الحق وأن لا ينسبوا للتوراة شيئا يختلقونه لا أصل له، وكذلك علمهم بما في التوراة التي درسوها وتفهموا نصوصها، فبهما معا قامت عليهم الحجة.

إنهم يختلقون الأكاذيب على الله، ويعملون بخلاف ما درسوه فعلموه، وذلك لتقديمهم متاع الحياة الدنيا وتعلقهم بمتاعها الوقتي الزائل. إنهم واهمون فإن الحياة الآخرة خير للذين اتقوا ربهم، ولكنهم لم يتقوا ربهم وآثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية. ينبههم القرآن محركا لمداركهم، ما الذي أصابكم حتى سرتم في طريق الهلاك، أليس لكم عقول تهديكم للخير ؟

170-والذين يمسكون...أجر المصلحين.

ومن إنصاف القرآن أنه لم يسحب تلكم الأوصاف الذميمة على جميع الخلف، فنوه بالذين يضبطون أعمالهم حسبما جاء في التوراة واستقاموا في سلوكهم، ثم أضاف وصفا آخر مع صلاح العمل : إقامة الصلاة ،وهو كناية عن إيمانهم بمحمد ﷺ، وذلك لأن شارة الإسلام هي إقامة الصلاة. وصرح بما كتبه لهم مسندا له إلى عزته التي تجعل الجزاء متيقنا، (إنا لا نضيع أجر المصلحين) فالذين يمسكون بالكتاب سنجزيهم خير الجزاء وأوفاه لأن عزتنا تقتضي أنا لا نهمل جزاء المصلحين .

171- وإذ نتقنا الجبل...لعلكم تتقون.

ثم انتقل القرآن للتذكير بأمر آخر أدب الله به بني إسرائيل، ذلك أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة وأعلمهم أنهم مكلفون بالعمل بما جاء فيها، لم يسرعوا إلى إجابته والتزام ما أمرهم به ربهم، وتوقفوا حتى يعلموا ما تتضمنه. فأمر الله ملائكته أن تقتلع الجبل الذي كانوا في سفحه، وأن يرفعوه فوق رؤوسهم كأنه سحابة تظللهم، وبدهي أن الجبل الأخشب بصخوره وثقله ليس ظلة يتظلل بها، ولكن هو في

ارتفاعه على رؤوسهم ومساحته الشاملة لجميع القوم، كأنه سحابة وليس سحابة لقوله تعالى بعد ذلك: وظنوا أنه واقع بهم. ونزل الرعب في قلوبهم وتوقعوا توقعا راجحا أنه سيقع عليهم ويسحقهم سحقا. وسمعوا النداء: خذوا ما أنزلناه عليكم من التشريع بعزيمة ثابتة على التطبيق لما جاء فيه، وكونوا ذاكرين لما تضمنه، فإنه بذلك يرجى أن تكونوا من المتقين.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174)

بيان معاني الفاظ:

الذرية : اسم جمع لما يتولد من الإنسان.

أخذ: انتزع.

نفصل : نبين ونرفع الالتباس.

بيان المعنى الإجمالي:

تبين لنا هذه الآية أمرا غيبيا حسب قدرات إدراكنا وحسبما تسمح به اللغة. يثبت القرآن أن الله جمع البشر كلهم بعد أن انتزعهم من ظهور أصولهم، وركز في فطرهم الإيمان بأنه هو ربهم، وأن هذا التركيز تبعه اعترافهم بألوهيته، وبقي كامنا في النفوس. وذلك حتى لا يعتذر من كفر منهم يوم القيامة بقوله: غفلت عن التأمل فلا يفيده ذلك لأنه خالف فطرته. أو يعتذر باتّباعه لمن أشرك من آبائه، وهو عذر لا ينفي المسؤولية.

بيان المعنى العام:

أتمّ القرآن بالآية السابقة ما قصد إليه في هذه السورة من ذكر أحوال بني إسرائيل. وابتداء من هذه الآية إلى ختام السورة عني بالمشركين ليكشف لهم ضلالهم ويبين لهم مسلك الإيمان.

172-173، وإذ أخذ ربك...بما فعل المبطلون.

تفتتح الآية بالتذكير بأمر من أمور الغيب لا سبيل لمعرفته، ولا لتكييفه ولا للاطلاع على الوجه الذي تم به إلا من الوسيلة الوحيدة لذلك، وهي الوحي الإلهي. لقد

أحضر الله في لحظة من لحظات الزمن التي لا يعلمها إلا هو ولا يعلم طريقتها إلا هو، ولا يعلم اللغة التي تم بها الخطاب إلا هو، ولا يعلم اللغة التي أجاب بها المسؤولون إلا هو، ولا يعلم قليل ولا كثير من هذا المشهد الذي أشارت إليه إلا هو سبحانه العليم بما دق وجل.

إنه حدثٌ تم في عمر الكون قرّبه لنا الخلاق العليم بلغة تعطي لعقولنا ولإمكاناتنا تصورا عاما، هو ما سنحاول بيانه، أما التصور الدقيق الذي قد يذهب الخيال لاستحضاره، فإن ما نجزم به أن كل الصور المتخيلة لا رابط بينها وبين الحقيقة والواقع. وصل العلم اليوم إلى حقيقة مفادها: أن كل كائن بشري عُبِّئت خصائصه الخلقية والنفسية والعقلية في الجينوم المحمول في رأس اللقيحة المخصبة. وهذا الذي كَشفَ عنه العلم، ولم يُوجِدْهُ، يقف عند حدود الإمكانات التي تأخذ سبيلها إلى الظهور ما لم يدخل عليها عامل خارجي يحولها عن مسارها، ولا يستطيع أن يتنبأ العلم ولا الباحثون بهذه الطوارئ التي تدخل في خط التطور، لأنها من تقدير التصرف الإلهي. فإذن الاستعدادات كلها كامنة في شفرة الجينوم. ومن ذلك قدراته التناسلية ولكن لا يوجد في الشفرة، ولا يمكن أن يوجد، مع من يتم الاتصال الجنسي والتوالد المتأثر بجينوم الأبوين معا لأن ذلك من القدر الإلهي المحجوب.

إن ما اكتشفه العلم يبعث لنا خيطا من النور يكون ما يرتسم به في أذهاننا من الآية أوضح مما كان الأمر عليه قبل ذلك. فما يتناسل من البشر في المستقبل معلوم عند الله، وقد صرح به مثلا في قوله تعالى :(فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب)[54] وكذلك الأمر بالنسبة لجميع أفراد البشر الذين سيتناسلون من آدم إلى يوم القيامة. والنظام الذي تسير عليه كل خلية في تطورها مسطور في الجينوم. فنفهم من هذا أن الله أودع في كل جينوم ما يجعله إذا تطور حسب قانونه الأصلي يصل إلى الإيمان بالله خالق الكون. وهذا الإيداع تم تنفيذه فعلا وكتب في شفرة الجينوم. فتكون كل نفس بشرية، كما أودع في شفرتها المشي على رجلين عند بلوغها الحد من النمو الذي يمكنها من ذلك، فكذلك كتب فيها الإيمان بالله خالق الكون فتظهر آثار ذلك عندما ينمو وتتمكن قواه العقلية وملكاته من النظر. فعبر القرآن عن ذلكم الإيداع وعن قبول كل ناسلة له واحتفاظها به في مخزونها بهذا التعبير المعجز في دقته وفي طريقة نسجه لتقريبه من عقولنا القاصرة في حدود إمكانات اللغة. وهذا نظير قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا

[54] سورة هود آية 71

طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين)[55] وقوله تعالى: **(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها)**[56] وإذا جرينا على تتبع ألفاظ الآية حسب ظاهرها يكون مؤداها : أن الله في عالم الغيب أخذ من ظهور البشر، والتعبير بالظهور له مزيته، إذ الظهر يعبر به عن القوة التي يتحمل بها الكائن البشري الأثقال، فمما يحمله البشر ما يتناسل منهم، وكل ناسلة تأخذ من أصلها مورّثات خاصة لا تشاركها فيه أي ناسلة أخرى، أخذ الله من ظهور البشر في وقت لا يعلمه إلا هو، وبطريقة لا يعلمها إلا هو. وأودع فيها القدرة على معرفة أنه الخالق، وتم ذلك فعلا فإذا هي جميعها بعد ذلكم الإيداع مقرّةٌ بأن الله هو رب الكائنات، قالوا بلى شهدنا. ثم علقت الآية على هذا الحدث: فعلنا بكم ذلك إسقاطا لأي عذر تعتذرون به: أن تقولوا. لئلا تقولوا. وما يتصور الاعتذار به ممّن لم يؤمن أحد أمرين: إما أن يعتذر فيقول: غفلت عن التأمل في الآيات والشواهد التي تبلغني الوصول إليك ربي. وإما أن يعتذر فيقول: وقعنا تحت ضغط التقليد لأبائنا الذين أشركوا فاتبعناهم. وكلا العذرين ساقط لا ينفع لأنهم حسبما ركز في فطرهم وكتب في خريطة جينومهم **[الجينوم : الخريطة، المسجل فيها الخصائص الذاتية لكل إنسان من اليوم الأول الذي خصبت فيه البييضة]** ممكّنون من التوحيد. إن لم نقل منساقون إليه بيسر. وما قدموه من رجاء لعدم المؤاخذة والتجاوز عنهم فلا يؤاخذون بانجرارهم مع المبطلين الذين هم أحق بأن ينزل عليهم وحدهم العذاب. أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؛ هو كلام لا يتجاوز أن يكون تنصلا من المسؤولية. ولا ينفي المسؤولية الاعتذار عنها.

174 -وكذلك نفصل الآيات...ولعله يرجعون.

وعلى هذا النحو من البيان والتدقيق يتم عرض الأدلة الهادية إلى الحق، ولعل المشركين إذا تأملوا فيما يعرضه عليهم القرآن يرجعون إلى الفطرة التي فطرنا الناس عليها ويدخلون في الإسلام.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ

[55] سورة فصلت آية11

[56] سورة الأحزاب آية 72

كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

النبأ : الخبر المروي.

آتيناه آياتنا : يسرنا له الاطلاع عليها.

انسلخ : من السلخ وهو كشط الجلد، وهو عبارة عن الانفصال والبراءة

أتبعه: لحقه ملازما.

الغاوين : الضالين.

رفعناه : سمونا به في الكمال الإنساني.

أخلد إلى الأرض : مال إلى الأسفل والأخس.

إن تحمل عليه :تطارده وتستثيره.

يهد الله : يقدر له سلوك طريق النجاة.

بيان المعنى الإجمالي:

اقرأ يا محمد عليهم هذه القصة ليتدبروا فيها، حاصلها :أن رجلا آتاه الله عقلا صالحا وملكات تدعوه إلى التأمل في الكون وفي الآيات الناطقة بقدرة الله وتفرده بالخلق والتقدير. وتأمّل فعلا وتفتّحت له أبواب المعرفة، ولكنه لم يواصل فانسلخ وتعرى مما أحاط به نفسه من ثياب الإيمان. وتحول إلى متابعة شهواته وتحكيمها في سلوكه؛ فلزمه الشيطان يغريه، فكان من زمرة الضالين الغاوين. ولوشاء الله أن يحيطه بألطافه وتوفيقه لفعل، ولكنه أبى مقامات السمو ونزل إلى ما تقتضيه الشهوات الهابطة، فمثله كمثل الكلب، الذي يلهث في حال إضراره وتهييجه، ويلهث وهو ساكن.

هذا المثل هو مثل القوم الذين كذبوا بالأدلة التي نصبها الله على التوحيد، فاقصص على الناس القصص التي أنزلها الله عليك، فإنه يرجى أن يتعظوا بها ويتفكروا فيما ترمي إليه من مواعظ.

ما أقبح مثل الذين كذبوا بآيات الله، وما ظلموا إلا أنفسهم. من يسعفه الله بالظروف والتوفيق للهداية ينل الهداية، ومن يخذله فهو في زمرة الخاسرين الذين يقدمون على ربهم يوم القيامة مفلسين.

بيان المعنى العام:

175-176، واتل عليهم...لعلهم يتفكرون.

طلبت الآية من النبي ﷺ أن يقرأ على الناس خبر رجل مكّنه الله من تتبع الأدلة الدالة على التوحيد والخير، وهذا الرجل لم تعينه الآية ، وحمله بعضهم على أنه أمية بن أبي الصلت الثقفي، كان شاعرا ذكيا رفض الشرك وتتبع الكتب الرائجة في عصره بين اليهود والنصارى فلم يرتضها وتزهّد، وهداه عقله إلى أنه لا يقبل أن يترك الله البشر في عمى، وأنه قد اقترب موعد رسول هاد؛ ورجا أن يكون موحى إليه. ثم إنه بعد البعثة حسد النبي ﷺ ومات على الكفر. وقيل هو عامر بن صيفي الراهب الذي حمله حسده للنبي ﷺ على ممالأة المشركين. وأيا ما كان الرجل المُنكّرُ الذي أنزلت فيه الآية سواء أكان رجلا معينا، أو كان غير معين، فالذي تدل عليه الآية أن الله طلب من رسوله أن يتلو عليهم هذه الصورة التي محصلها : أن الله أعطى رجلا من الوضوح الفكري ما جعله يتتبع الأدلة في الكون الهادية إلى الإيمان به، وانشرح صدره لما وصل إليه؛ ولكنه بعد ذلك خرج من الوضع الذي وصل إليه ومن الفيض النوراني الذي فتح بصيرته، فتحولت حالته كحالة الشاة التي كشط جلدها فتعرت من إهابها. تحول إلى اتّباع الهوى ورغبات النفس. وإذ تحول إلى هذا الوضع أسرع الشيطان إليه، وما زال يغريه بالانحراف إلى أن طبع على قلبه فصار من الجماعة الغاوية الضالة.

ولو شاء الله أن يحيطه بألطافه ويحجب عنه موارد الفساد التي وقع فيها لفعل، ولكن هذا الرجل اختار ومال إلى الشهوات الهابطة واتبع ما تدعوه إليه رغباته الجسمية الحسية، معرضا عن مراتب السمو التي كانت لاحت له أول الأمر، فحرم من الهداية التي يمنحها الله لمن سلك مسالكها، يقول الله تعالى: (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) [57].

ومثل القرآن هذا الذي أعرض عن الهدى واتبع هواه وتآلف مع الشيطان مثله بالكلب. تلحظون أنك إذا أغريته بالصيد أو هاجمته تحرك يلهث، وكذلك إن لاعبته أو تركته لحاله لا ينفك عن اللهث. ومثله الذي تعلق بما تدعوه إليه الشهوة تجده

---

[57] سورة مريم 76

فاقدا للطمأنينة يجري وراء شهواته الهابطة لاهثا سواء أكان في حالة استمتاعه بها أوفي حالة عدمها. فإن المرء إذا فتح الباب لتنطلق شهواته بدون تحكم، يكون كلما قضى شهوة من شهواته تضاعفت شراهته. فاقصص عليهم القصص التي أحكمتها في القرآن، لا ليلهوا بها ولكن لأجل أن يتدبروا فيها ويتفكروا في مراميها ليحذروا عواقب السوء والخسران.

177-178: ساء مثلا...هم الخاسرون.

ويدرك كل مستبصر أن وضعهم وضع سيء. وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم فحولوها من طرق الهدى إلى طرق الكفر والفساد. واعلموا أن الله بعث رسله وأقام الأدلة الهادية، ومكن الإنسان من النظر بما آتاه من حواس وعقل، ودعا كل فرد أن يعمل فكره فيما هو معروض عليه من الهدى، ولم يقم موانع تحجب الإنسان عن التأمل والنظر. ثم بعد ذلك قد يقيم الله في عقل الناظر وفي محيطه دواعي تحبب له الخير والهداية، وتشرح صدره للإقبال على ما قدمه له، والجزم به والثبات عليه، إلى أن يوافيه أجله، فيموت على حسن الخاتمة ويكون بذلك مهتديا من المهتدين. كتب الله لي ولكم حسن الخاتمة. وقد يعرض الإنسان على ما مكنه الله منه، ولا يسعده الله بالعون والتوفيق لطريق الهدى ويتركه لنفسه التي تكون منذ البداية منفصلة عن التعلق به، فيكون مع القوم الذين اختاروا الضلالة على الهدى ويكون من زمرة الخاسرين. على أن الحياة الدنيا هي رأس مال، فإما أن يحسن التصرف في رأس المال الذي مكنه منه رب العزة، وإما أن يسيء التصرف فيه فيخسره، ويجد نفسه يوم القيامة بين يدي ربه مفلسا خاسرا مع الخاسرين.

من هذا النص الكريم يتبين الإنسان أن سعادته تابعة لما يحيطه به رب العزة من ألطاف وتوفيق، وأن ما ينعم به من هداية واستقامة نابع وتابع للفضل الإلهي، مما يحتم عليه دوام الشكر والدعاء بأن لا يخذله، وأن يواصل عليه ألطافه حتى يلقاه يوم القيامة في زمرة العباد الصالحين. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ذرأنا : خلقنا.

الغفلة : عدم الشعور بما يحق الشعور به.

الحسنى : مؤنث أحسن، المتصف بالحسن الكامل الذاتي.

يلحدون في أسمائه : يطلقون أسماء الله على أصنامهم.

بيان المعنى الإجمالي:

يحقق القرآن أن الله خلق خلقا كثيرا من الجن والإنس منصرفين إلى ما يفضي بهم إلى جهنم، كلما تحركت داعية الصلاح قتلوها وتحولوا إلى الشر. خلق الله لهم قلوبا أي عقولا من شأنها أن تتبين العواقب، ولكنهم لا يتجاوزون الظواهر الآنيّة، وخلق لهم أعينا وهم كذلك لا يتجاوزون المرئي إلى ما وراءه من تناسق وقدرة مبدعة، ولهم آذان يسمعون بها الوحي ولكنهم لا ينتفعون بما يسمعون. لا فرق بينهم وبين الأنعام، بل هم أضل منها إذ الأنعام حرمت التفكير وتجاوز الواقع إلى ما وراءه، فوقوفها عند ذلك لا عيب فيه بالنسبة لها، أما هؤلاء فهم عملوا على تعطيل ما مكنهم منه ربهم فهم أضل من الأنعام. إنهم يعيشون في غفلة عما ينادي به العقل وعما تثيره الحواس من تجاوز للمدركات الحسية إلى النظام الذي وراءها.

وأرشد القرآن المؤمنين كي يتوجهوا إلى ربهم فيدعونه بأسماء الكمال التي رضيها لنفسه. وأن لا يأبهوا بالشغب الذي يصدر من المشركين الذين يسمون كذبا بعض آلهتهم باسم من أسمائه سبحانه. كونوا واثقين أن الله لا يمهلهم وسوف يجزيهم عن أعمالهم القبيحة التي منها ما سموا به آلهتهم الباطلة.

بيان المعنى العام:

179 -ولقد ذرأنا...هم الغافلون.

يحقق القرآن أن الله جعل قسما من الذين خلقهم من الجن والإنس وعددهم كثير، ليعملوا بما ينتهي بهم إلى جهنم. تجد جانب الخير غير معدوم فيهم؛ ولكن جانب الشر بيده القيادة فيتغلب دافعا المخلوق للضلال، ويعطل الجوانب الخيرة عن التأثير في السلوك. فبالنظر إلى أن سلطان التوجيه بيد قوى الشر يكونون كأنهم خلقوا للعمل بعمل أهل النار.

وتثبت هذه الآية كما ورد في آيات عديدة أخرى، أن الله كما خلق الإنس خلق الجن. ولكن تركيبنا الجسمي وطبيعة خلقتنا، والتركيب الجني وطبيعة خلقته، تجعلنا لا نقدر على تصور الجان ولا التعامل معه. ونجزم بأنه مخلوق ومكلف ومجزي

عما يفعل. والذي أعتقده أن الجن من خلق الله، وأنه مكلف، وأن النبي ﷺ بعث للإنس والجن، وأنه يرانا ولا نراه، لقوله تعالى: (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) كما سبق لنا في هذه السورة آية 27. والشيطان من الجن لقوله تعالى : (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه)[58] وما زاد على ذلك من الروايات الشائعة بين الناس لم أجد له مستندا من الوحي أو من العقل. أتْبِعَ القرآن ملامح هذا الخلق الذي يعمل بعمل أهل جهنم وينساق إليها. فأثبت الله لهم قلوبا، والقلب يطلق ويراد منه في القرآن العقل المفكر المدرك للظواهر وللخفايا بالتأمل وترتيب وسائل الاستنباط. ومزية العقل الإنساني على الإدراك الحيواني هو في تجاوز الظواهر إلى ما وراءها. وذلك هو الفقه الذي هو إدراك الأمر الخفي، إذا لا يقال فقهت السماء، ولا فقهت أن الأربعة ضعف الاثنين. فهؤلاء لهم قلوب **(عقول)** ولكنهم عطلوها فأصبحت لا تدرك ما وراء الظواهر، فلا يدلهم النظام مثلا على وحدة الخالق وعلى وجوده. ولهم أعين لا تتجاوز نقل المحسوس إلى العين، فلا تتعدى ذلك مثلا إلى تتبع المرئيات وما فيها من تناسق وجمال وما يهدي إليه ذلك، وكذلك أسماعهم. فهم كالأنعام التي رزقت حواس من البصر والسمع ووقفت عند حد المنقول إليها لم تتجاوزه. فالحاسة التي لاتتفاعل مع العقل المنظم، ثم المولد هي كحاسة الأنعام، بل هي أسوأ منها.

ذلك أن الأنعام لم تعطل شيئا من إمكاناتها، وهؤلاء عطلوا ما وهبهم ربهم من قدرات فكانوا أشد ضلالا منها. ثم شنعت الآية بهم فأخرجتهم في صورة الذي يمشي في الكون ولا يشعر بما حوله غافل عن جميع المؤثرات.

180- ولله الأسماء الحسنى...ما كانوا يعملون.

من شأن القرآن أن يعنى بالمؤمنين، وبهداية البشر إلى الحق، فبعد أن حرك الكافرين ليقلعوا عن كفرهم، وبصر المؤمنين ليدركوا انحراف الكفرة وسوء مصيرهم، ثنى معتنيا بالمؤمنين ليكونوا دوما على صلة بالله، ينادونه في كل ظرف وحين، ينادونه ويدعونه باسم من أسمائه التي رضي بها تبعا لما فيها من كمالات، ولا يحق أن يسمى بها إلا هو. والأسماء الحسنى البالغة أعلى درجات الكمال، منها ما هو مختص به نحو (الله) ومنها ما يطلق على البشر بمفهوم دال على السمو كالعالم والبصير، ولكن إطلاقه على الذات العلية يفيد الكمال المطلق الذي لا يدانيه

---

[58] سورة الكهف آية50

فيه أحد، ومنها ما يكون عند إطلاقه على الله دالا على الكمـال لأنـه منصـرف إلـى مـا يليق بجلاله، ولا يطلق على البشـر كـالغني والمتكبـر والجبـار. فتسـمية البشـر بهـا تسمية خادعة وغير صادقة فلا أحد من البشـر غنـي ولا يكـون إنسـان كـاملاً إذا كـان جبارا متكبرا بل يكون مفسدا، وهي في الـذات الإلهيـة كمـال لمـا يترتـب عنهـا مـن صلاح.

ولا يقف عدد الأسماء الحسنى على التسعة والتسـعين التـي ورد بهـا حـديث البخـاري: (لله تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحـد مـن حفظهـا دخـل الجنـة وهـو وتـر يحـب الوتر)[59] – وجه كثير من العلمـاء المـدققين عنـايتهم لمتابعـة الأسـماء الحسـنى مـن الكتاب والسنة، وهم بين مقتصر على التسعة والتسـعين، ومـنهم مـن بلـغ بهـا المـائتين وحتى الألف، وألفـوا فيهـا التـآليف تقربـا لله ونشـرا للمعرفـة أحسـن الله مثـوبتهم. وبسط القول في ذلك ابن حجر في الفـتح وعـد الأسـماء حسـب اجتهـاده فقـال وهـذا سردها لتحفظ :

الله –الرحمن –الرحيم –الملك – القدوس – السلام–المؤمن –المهيمن –العزيز – الجبار – المتكبر –الخالق – البارئ – المصور–الغفار – القهار – التواب – الوهاب – الخلاق – الرزاق –الفتاح – العليم – الحليم –العظيم – الواسع –الحكيم – الحي – القيوم – السميع– البصير – اللطيف – الخبير– العلي – الكبير – المحيط –القدير – المولى – النصير–الكريم –الرقيب– القريب– المجيب – الوكيل – الحسيب– الحفيظ – المُقيت– الودود– المجيد – الوارث– الشهيد – الولي– الحميد– الحق – المبين –القوي – المتين – الغني – المالك – الشديد– القادر – المقتدر –القاهر– الكافي – الشاكر – المستعان – الفاطر– البديع– الغافر– الأول– الأخر – الظاهر – الباطن – الكفيل – الغالب– الحكم – العالم – الرفيع – الحافظ – المنتقم – القائم –المحيي–الجامع –المليك– المتعال– النور – الهادي – الغفور– الشكور – العفو – الرؤوف– الأكرم – الأعلى – البر – الحفي – الرب – الإله– الواحد – الأحد– الصمد – الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد.

وإذ ثبت أن أسماء الله الحسنى دالـة علـى ذاتـه العليـة مفهمـة لكمالـه سـبحانه. فـلا تهتموا بالذين، لكفرهم ودناءتهم، يتجرؤون فيسـمون آلهـتم بـبعض الأسـماء الحسـنى. فحال تلك الآلهة يدل على سخفهم بصوغ أسماء التقديس لها مـع كونهـا علـى أشـد مـا يكون من الضعة والنقص. لا تهتموا بهم فسيجدون جزاءهم.

---

[59] فتح الباري ج13ص471/487

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (181) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (184) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (185) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)

بيان معاني الألفاظ :

استدرج: فعل مشتق من الدرج المعد للانتقال من مستو إلى مستوى أرفع أو العكس في البناء أو في السلم. والمقصود تحولهم من حال إلى حال أخرى.

أملي لهم : أمهلهم.

الكيد: ضرب من الاحتيال يتضرر منه المحتال عليه ولا يتفطن له. وهو ما قدره الله في الأزل ثم ينفذه عند أجله دون أن يتفطن المعاقب.

المتين: القوي

الصاحب : الشخص الملازم. وفي الآية ملازمتهم لتتبع أحواله والاهتمام بشأنه.

المجنون : المصاب بالخبال وفقد قوة العقل.

النذير : المحذر من شر.

ملكوت : المُلك العظيم.

اقترب أجلهم : يحتمل أن يكون المعنى قرب وقت استئصالهم ، وأن يكون مرادا به مجيء الساعة.

الطغيان : الإفراط في الكفر.

يعمهون : يتحيرون.

بيان المعنى الإجمالي :

يحقق القرآن أن الله مكن بعض البشر الذين خلقهم من السمو إلى مرتبة هداية الناس إلى الحق الذي أنزله، والحكم بالعدل عندما يحكمون بينهم. وفي المقابل فإن الذين رفضوا الاعتراف بما تدل عليه الأدلة من الكون ومن الوحي المثبتة لتفرد الله سبحانه بالألوهية، فإن الله سيهوي بهم شيئا فشيئا كالنازل من الدرج، وهم غافلون

عن مصيرهم، ولا يعجل لهم بالعقوبة، بل يمهلهم إلى الأجل الذي قدره لإهلاكهم. إن الله قدير لا تحد قدرته في الكيد بهم. العجب من أمرهم: كيف أقفلوا عقولهم عن إدراك سمو الرسول ﷺ، وأن كل ما يصدر عنه ويحيط به يقوم شاهدا على أنه صاحب العقل الراجح، وهو أبعد ما يكون عن الخبال. بل هو نذير لقومه مما ينتظرهم من العاقبة السيئة، مكنه الله من القدرة على البيان.

-والعجب من أمرهم أيضا : أنهم لم ينظروا في الملك العظيم لله الشامل للسماوات والأرض، ولم يتأملوا في عجائب الخلق في كل جزئية من جزئيات الكائنات. ولم يتفكروا أن أجلهم سيبغتهم وليس بعيدا. والعجب من أمرهم أيضا كيف أنهم لم يؤمنوا بالقرآن وأدلة صدقه بالغة أعلى درجات الوضوح، فهل يجدون ما يساوي القرآن في هدايته ووضوحه ليتبعوه. ولكن من يحرمه الله من ألطافه ليهتدي فإنه لا يجد هاديا، وسيبقيهم في مجاوزتهم للحدود متحيرين.

بين المعنى العام :

181 -وممن خلقنا أمة...وبه يعدلون.

هذه الآية هي نظير الآية 159 من هذه السورة – (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وهي حسب نظمها لا تختص بزمن ولا بمكان، بل أفادت سنة من سنن الله في الخلق، أنه لا يعم الفساد والشرك والظلم الكون كله، فمن خلقه سبحانه في كل زمان ومكان من يصرف همه إلى هداية الناس والعدل بينهم.

182-183، والذين كذبوا...كيدي متين.

وحقق أن الذين كذبوا بآيات الله، سيسلط عليهم عقابا فصّله بأنه يهوي بهم في الضلالة والفساد شيئا فشيئا بطريقة لا يدركها المستدرج، ولا يتفطن إلى المكان المتحول منه، النازل به إلى أسفل، ولا يُعجّل لهم بالعقوبة بل يمهلهم إلى الأمد الذي قدره لإهلاكهم. إن كيد الله قوي. فهذه الآية تلفت نظر المؤمنين أن لا يعجبوا من عدم تعجيل العقوبة بالمكذبين، فليس تدبير الله لأمر الكون والبشر كشأن مقايضة التجار يتعجل فيها العوضان، بل إن الله يأخذ بالمكذّب نازلا به دون أن يتفطن إلى المنزلة السفلى ويمهله حتى يبلغ الأجل الذي قدر فيه سبحانه أن يسلط عنده عذابه عليه.

وهكذا يكون المكذبون ينتهون إلى دمارهم. والتدبير الإلهي يمهلهم ولا يوقظهم حتى يتجمع ما يعجل بعقوبتهم ؛ وعندها ينزل عليهم عذابه، دون أن يكونوا شاعرين بما كان يترصدهم. هم عُمْي عن مصيرهم.

إن هذا التدبير شاهد على أن الله عندما يمكر بالمكذبين فإن مكره قوي يتحقق ما أعد إليه في الأزل. ومكر الله محقق لصلاح البشر. به يكون المكذبون لسوء عاقبتهم، عبرة لمن يعتبر.

183-أولم يتفكروا...إلا نذير مبين.

ويثير القرآن العجب من أمر المكذبين، كيف وصلت بهم المكابرة والعناد، وكيف عطلوا عقولهم فاختلطت عليهم الأمور، ورموا النبي ﷺ بالجنون! إن قوة عقله، وإحكام تدبيره للأمور، ووضوح ما أتى به من وحي، وما سطره من تصور للكون ومنهج للحياة، كل ذلك شواهد على أن النبي الذي اهتموا بأمره واشتغلوا بما يصدر عنه وما تتطور إليه دعوته (صاحبكم) إن ذلك مما يؤكد أنه أبعد ما يكون عن الجنون والخبال، الذي من شأنه أن يكون تفكيره وكلامه مضطربا بعيدا عن التناسق. ولكن الحقيقة أنه جمع بين وصفين ليسا لأحد غيره هما :

أولا: النذارة فهو ينبهكم إلى مصيركم وما ينتظركم من خيبة وخسران إن لم تسمعوا ،ولم تعملوا بما ينقذكم مما حذركم منه.

ثانيا: البيان، فهو قد أوتي من الفصاحة والوضوح، ما يمكن كل سامع له من فهم قصده، وعدم اختلاط المنهج الذي يبلغه عن ربه.

185-أولم ينظروا...بعده يؤمنون.

وفوق ذلك، إن من أمرِهمْ العجيب، كيف لم يتأملوا فيما تنقله إليه حواسهم، كيف لم يتأملوا في الملك العظيم لله : ملك السماوات والأرض. ثم كيف لم يتأملوا في قوانين الخلق التي تم بها تنظيم كل شيء. فالقرآن يثيرهم إلى الاعتبار بما في دقيق الأشياء التي هي تحت أنظارهم ينظرون إليها، ويسمعون ما يصدر عنها من أصوات، ويلمسونها، فيدركون من كل ذلك كيفياتها المختلفة. ومع الإدراك الحسي قوانينها المنظمة لوجودها وتحولاتها ومصائرها. إنها كلها تنادي بأن لها ربا خلقها وأعطاها خصائصها التي تسير عليها. وهذا هو أول ما يدعو إليه الإسلام: الإيمان بالله الواحد الأحد. وهذا هو أعظم ما اهتم به محمد ﷺ، فكيف يرمى بالجنون ؟

إنه النذير فمما أنذرهم به قيام الساعة، واستعدادهم لنزول العذاب المستأصل لهم؛ فكيف لم يستيقظوا إلى هذا الأمر ولم يعدوا نفوسهم للأمر الثابت قدومه وهو مؤجل بأجل عند الله لا يستقدم ساعة ولا يتأخر؛ وأنه في حساب الله قريب!

إنه بعد هذا الحديث الصادق البين الموضح للحاضر والمآل، الموقظ للعقل والحواس، الوارد على لسان رسول الله إنذارا، والمؤيد بالقرآن المنزل عليه ؛ إنه بعد ذلك لا يمكن أن يؤثر فيهم حديث آخر يؤمنون به.

186 -ومن يضلل الله... في طغيانهم يعمهون.

وتأتي الخاتمة رافعة لكل تساؤل يمكن أن تتحدث به النفوس: ما الذي منع المكذبين من الاهتداء؟ فيأتي الجواب قاطعا لكل تساؤل :أن من يضلله الله بحرمانه من العون على إدراك الحق، فإنك لا تجد من يساعده على اتباع الطريق المستقيم. ويستمر معهم هذا الوضع من عدم الانتفاع بالآيات فلا يؤثر فيهم بألطافه حتى يخرجهم من إفراطهم في الكفر، ويبقيهم متحيرين. لا التكذيب الذي هم عليه يعطيهم اليقين، ولا الآيات تسكب في عقولهم إدراك الحق، تصحبهم الحيرة إلى آخر حياتهم.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الساعة :بالألف واللام وقت فناء العالم.

أيان : ما هو وقت.

مرساها: وقوعها.

التجلية : الكشف.

ثقلت: شدة الساعة.

بيان المعنى الإجمالي:

إن أقوى ما يتحدى المشركين ويقلقهم هو وعيدهم بالبعث يوم القيامة. ولذا هم يسألون الرسول ﷺ عن الساعة التي تتوقف فيها مسيرة الحياة الدنيا، ظنا منهم أنه يعلم موعدها. فأمر أن يقول لهم كلاما قاطعا لشغبهم: إن علم وقت مجيئها عند ربي لم يُطلعني عليه، ولا ينفذها بما يظهر آثارها في الوقت المحدد، إلا هو. هي أمر ثقيل شاق على السماوات والأرض التي تنفجر. فتنفيذها في وقتها لا يأتيكم إلا فجأة

دون سابق إعلام. يسألونك كأنك عالم بها أو مهتم بها كاهتمامهم. ما ظنوه باطل، فإنه تبعا لما أدبك به ربك لا تولي اهتمامك لما علمت أنه من الغيب الذي لم يطلع الله عليه أحدا. ولكن الإلحاح في السؤال سببه جهلهم بحقيقة الغيب وقل لهم: إن الغيب بالنسبة لي يجري على نسق واحد. فكما أنني لا أعلم وقت الساعة، فكذلك لا أعلم ما سيصلني من خير في المستقبل، ولا أنا ممكن منه، ولا ما يمكن أن يصيبني من ضر. كل ذلك معلق بمشيئة الله يتصرف فيه كما يشاء. وأكبر دليل على ذلك أني لو كنت أعلم مقدما ما هو مخبوء في المستقبل لحصلت على خير كثير، ولتحصنت من كل سوء. اعلموا أني : ما أنا إلا مبين لما يوحي إلي من ربي للمؤمنين، فأبشر من يستقيم بالمآل السعيد عند ربه، وأنبه الغافل والمقصر لكي يثوب إلى الصراط المستقيم.

بيان المعنى العام:

187-يسألونك عن الساعة...لا يعلمون.

افتتحت الآية بسؤال أورده المشركون على النبي ﷺ وتكرر من كثير منهم مضمونه: إنك توعدنا وتتهددنا بيوم القيامة، وتعتبر ذلك جزءا أساسيا في العقيدة التي تدعو إليها، فمتى تأتي الساعة؟ وقد سجل القرآن هذا السؤال بطريقة خاصة ؛ كان السؤال بقوله:(أيان مرساها) فهم في هذا المقام لم يسألوا عن حقيقتها ولا كيفيتها ولكن السؤال كان عن موعد حصولها وثبوتها، والمرسى مأخوذ من رسا الدال على الثبوت كقولك رست السفينة والجبال الراسيات. والسائلون يستبعدون حصولها فكأنهم من سؤالهم يغمزون بنوع من الاستهزاء تبعا للاستبعاد. والسؤال عن الساعة وإن كان يهم المسلمين أيضا تبعا لما فطر عليه الإنسان من حب المعرفة، إلا أن سؤال المشركين غير سؤال المؤمنين الذين تطلعوا لمعرفة الساعة فكان سؤال بقولهم : متى الساعة ؟ بينما سؤال المشركين كان ب (أيان) الموحي بالاستبعاد مقدما.

علّم الله نبيه طريقة جواب المشركين عن سؤالهم، وأظهر الاهتمام بأمره بكلمة (قل) وقتها مستور محجوب في علم الله، هو من الغيب الذي لم يطلع عليه أحدا من خلقه، لا يرفع الحجاب لتظهر قبل أوانها، بل هي تقع في الوقت الذي أثبته في علمه، ولا يرفع ذلك الحجاب إلا الله وحده. ويشير القرآن إلى ضعف إدراك المشركين لأمر الساعة، فيبين أن أمرها عظيم جدا، ثقيل بما يصحبها من مشقة تجعل كل فرد مستشعرا ضغطها عليه كأنه حامل ثقلا ينوء به كاهله، مشقتها تهد

السماوات والأرض. قدر سبحانه أنها تأتي على الكائنات كلها بدون سابق إنذار، فتبغتها جميعا وينفذ قدر الله الذي قدره لانتهاء الحياة في الكون كله.

ومما يدل على تكرار السؤال ما أثبتته الآية بقوله تعالى:(كأنك حفي عنها) والحفي في الآية يحتمل معاني منها: حفي بمعنى عالم، بناء على أنك مبالغ في السؤال عنها، وشأن المبالغ في البحث أن يصل إلى ما يبحث عنه. فنفت الآية أن يكون الرسول ﷺ مهتما بها الاهتمام الذي يتوهمه المشركون-كما يحتمل - حفي- كأنك ملح في السؤال عنها – ويحتمل -حفي –أن يكون مشتقا من حفي به بمعنى بالغ في إكرامه والمعنى على هذا يسألونك عنها، كأنك مكرم للمشركين تجيبهم عن سؤالهم إكراما لهم. وعلى الوجهين الآخرين يتعلق عنها بحفي.

وعلى كل الاحتمالات، فالآية تشير إلى أن الرسول ﷺ لم يُول اهتمامه لمعرفة وقتها لما سبق من علمه أنها من الغيب الذي قدر الله أن يكون مخفيا عن جميع الناس. وهذا مما لا ينافي كرامته على ربه ولكنه يثبت كمال أدبه وسمو نفسه التي لا تطلب ما لا مطمح لها في التحصيل عليه. وأكد القرآن ما قرره في صدر الآية من أن وقت ظهور الساعة لا يعلمه إلا الله ولا يُطلع عليه أحدا. فحصر العلم بوقتها عنده وحده سبحانه. ولكن الجهل الضارب على عقول كثير من الناس يدفعهم للسؤال عنها.

تنبيه يظهر في عصرنا بين الفينة والأخرى بعض الدجالين الذين يوهمون الناس بأن فناء الكون سيكون في تاريخ كذا، وينتظر في خوف بعض ضعاف العقول، ويتحدثون به وتهتم به بعض وسائل الإعلام الرخيصة، ثم يظهر كذبهم والعالم مواصل مسيرته إلى الأجل الذي حدده الخالق، العالم وحده بنهايته.

188-قل لا أملك...لقوم يؤمنون.

إن أنواع الشغب التي يضلل بها المشركون أتْباعَهمْ، ويوهمون بها أنفسهم أنهم أحرجوا النبي ﷺ بما لا يستطيع له دفعا، كانت كثيرة ومتنوعة، والله في عونه يدفع مكرهم. فمن ذلك أنهم قالوا : إذا كنت نبيا فاسأل ربك أن يطلعك على الأماكن التي سيكون فيها الخصب فتذهب إليها، وعن السلع التي سيرتفع أثمانها في المستقبل فتشتريها الآن حتى يتوفر بذلك الربح الكثير. فكان من ضحالة تفكيرهم ظنهم أن النبوة مكاسب مادية تخص صاحبها بالمال الوفير. وهذه الأقوال تروج على الدهماء، ولذلك صدر ت الآية في الرد عليهم بكلمة (قل) الدالة على الاهتمام. قل لهم يا محمد :إني رسول حقا، لكني لا أستطيع أن أجلب لنفسي نفعا، تبعا

لاطلاعي على الغيب، ولا أستطيع أن أدفع عنها ضرا كذلك، إلا إذا تعلقت مشيئة ربي بتمكيني من نفع فإنه يسعفني بتسخير الأسباب لتحقيق ذلك بناء على سننه في الكون. وكذلك إذا تعلقت مشيئة ربي بدفع ما يضرني بما ييسره لي من ألطاف. وحرّكْ عقولهم الذاهلة بالتأمل فيما يشاهدونه، وهي قضية بديهية : إني لو كنت أعلم الغيب وما سيحدث في الكون من نفع أوضر قبل حدوثه، لتجمع عندي من الخيرات الشيء الكثير، ولصحبتني السلامة في جميع فترات حياتي، والمشاهد أني ما جمعت من الخير أكثر مما قدره لي ربي، ولا توقيت من جميع المكاره والأسواء. أفيقوا من غفلتكم فإن دوري في الحياة قاصر على ما كلفني به ربي: أن أدعو الناس إلى اتّباع الصراط المستقيم، وأن أبشر الذين يتبعوني بحسن العاقبة. وأن أنذر الذين يكذبون بآيات الله ويتنكبون الصراط المستقيم بما يترصدهم من عذاب الله وخسران العاقبة.

• هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شِرْكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

ليسكن إليها : ليجد عندها الطمأنينة والود.

تغشاها: جامعها.

أثقلت : أصبح لجنينها في بطنها وزن يثقلها.

فتعالى الله : تنزه الله.

صامتون: ساكتون لا تقومون بدعوتهم.

الكيد : الإضرار الواقع الذي لا يتفطن له المقصود إضراره.

الولي : الناصر الذي يكفي أمور من تولاه.

الهدى : ما فيه نفع وصلاح.

بيان المعنى الإجمالي :

حقيقة ثابتة : الله هو الذي خلق كل كائن من البشر، ورتب ذلك على منهج واحد : كل واحد منهم نشأ من نفس واحدة هي الأب الذي جعل من نوعه نفسا أخرى فتكوّن منهما زوجا، وتبعا لما بينهما من الاتصال كانت العلاقة بينهما علاقة تكامل وطمأنينة، تبلغ إلى التمازج والإشباع الجنسي. الذي بواسطته يتم تلقيح بُيَيْضة الزوج (المرأة) فتحمله في رحمها حملا خفيفا في أول أمره لا تشعر به، ثم ينمو حتى يكون له وزنه الذي يثقلها. ويستعد الأبوان لقبول المولود الجديد عنصرا من عناصر الأسرة. ثم عرض القرآن نموذجا سيئا للأسرة المشركة، التي تكون عند إحساسها بالحمل تبني عليه الآمال وتدعو أن يكون الحمل عنصرا صالحا، وتلتزم بشكر الله. وبعد الولادة ينقلب الأمر وتتنكر الأسرة لما كانت التزمت به، وتجعل لمولودها شركا، ومما تَظهر به ذلك، التسمية فتسميه عبد يغوث وعبد اللات ونحو ذلك من أسماء الأصنام. وتتنزه الله أن يكون له شريك. فتجمع بهذا الخُرق بين نقض ما التزمته، وبين سفه الرأي ؛ إذ يشركون ما هو عاجز عن خلق أي شيء مع أنهم مخلوقون لله. ويشركون عجزة لا يستطيعون نصر من اعتقدوا فيهم الألوهية، بل لا يستطيعون نصر أنفسهم ممن يهينهم ويعتدي عليهم. إنهم لعنادهم لا يسمعون دعوتكم إياهم لما ينفعهم، فسواء في النتيجة أ دعوتموهم أم أعرضتم عنهم. من ضلالكم يا مشركون أنكم تدعون من دون الله كائنات مخلوقة مثلكم عجزة. اطلبوا منهم أن يقبلوا عليكم إن كنتم صادقين في وهمكم أنهم يستحقون أن يعبدوا ويطلب منهم. أفيقوا من هذه الأوهام التي خدرتكم. ألهذه الأصنام أرجل يمشون بها؟ ألهم أيد ينفذون بها ما يهزم أعداءهم؟ ألهم أعين يبصرون بها لمعرفة

أهدافهم ؟ ألهم آذان يسمعون بها دعاءكم لهم ؟ قل لهم: نادوا شركاءكم وأجمعوا أمركم معهم ودبروا للإضرار بي ونفذوا في سرعة ما تكيدون به.
إن هذا التحدي نابع من يقين كأقوى ما يكون اليقين، هو إن الله ناصري ومتولي أمري أكرمني بإنزال كتابه، وهو الذي يتولى الصالحين المسلمين. أفيقوا من غفلتكم، فإن الذين تدعونهم من دون الله عجزة عن نصركم، بل هم عجزة حتى عن حماية أنفسهم. بل إن دعوتموهم لتقديم ما ينفعهم لا يسمعون شيئا مما تقولونه، تراهم وقد جسمتهم الآية كأن النحات صورهم في صورة من ينظر إليك ولكن في الحقيقة هم لا يبصرون.

بيان المعنى العام :

189-190-هو الذي...عما يشركون.

تضمنت هذه الآية عنصرين أساسيين هما: سنة الله في خلق البشر. ونموذج من النماذج التي تمت في الواقع، عرض على طريقة لم تعتن بتعيين الأشخاص ولكن عنيت بعرض الواقع لاستخلاص العبرة منه. العنصر الأول: إقامة الدليل الواضح على نفي الشرك وإثبات الخلق لله وحده. فإنه مما يدعو إلى التدبر في حكمة الخلاق العظيم، السنة التي أجرى عليها التكاثر البشري. فكل البشر خلقوا على نفس الطريقة من نفس واحدة التي جعل الله سبحانه زوجا من نوعها. فكانا معا من نوع واحد. فقوله تعالى: خلقكم من نفس واحدة، خلق كل واحد منكم:
أولا: من نفس واحدة هي الأب بالنسبة لكل واحد.
ثانيا : من نفس عديلتها التي تكون مع الأب زوجا. فكل واحد منهما يطلق عليه زوج في العربية وهما من نوع واحد.
وكون المرأة من نوع الرجل منة أخرى، بها تحقق للإنسان المحضن الصالح لنموه واكتسابه التربية التي تؤهله لمواجهة الحياة والاندماج في المجتمع الكبير، خاصة وامتداد طفولة الإنسان واحتياجه لمن يساعده على بلوغ المدى الذي يتمكن فيه من الاعتماد على نفسه، هو أطول طفولة في الجنس الحيواني. وابتدئ بالأب لأن دوره في الإنجاب دور أساس هو دور التلقيح للبييضة التي تفرزها الأنثى فتخصب ويحصل منهما الخلية الأولى 46 كرموزوما وتمر رويدا دون أن تتفطن الأم إلى مسيرتها لتعلق في جدار الرحم، ومن هناك يبدأ تطورها. ومن الإعجاز القرآني التعبير: حملت حملا خفيفا فمرت به، فالخلية لا توزن إلا بالميزان الإلكتروني لخفتها وتمر عبر قناة فالوب لتعلق في أول طور من أطوار الوجود الإنساني.

وكون الأنثى من نوع الذكر في المقومات الأساسية والخصائص الإنسانية، هو من كمال التقدير الإلهي الذي بنى على ذلك غريزة فيه تدعوه إلى الأنس بها والتكامل معها. هذه الغريزة التي تتحرك في داخلهما لمزيد التواصل والاندماج حتى تصل بهما إلى قضاء الشهوة الجنسية، التي تبلغ درجة من الإحساس المشترك ما يجعل كل واحد منهما كأنه لباس يشتمل على الآخر كما جاء في قوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن)[60] ومن إيداع القرآن أن عبر بقوله تغشاها عوض غشيها ليدل بذلك على عمق الإحساس باللذة وشدة التمازج بينهما. وهذه السنة تتكرر في الوجود، ويحصل بها التكاثر البشري.

العنصر الثاني :عنيت الآية بسرد التفاصيل التابعة للتمازج الجنسي في أسرة، متتبعة المراحل التي تمت فذكرت :

أنه بعد أن جامع الرجل زوجته (**تغشاها**) وتم تلقيح البييضة بالحيوان المنوي، وأصبحت البييضة مخصبة مرت في طريقها عبر قناة فالوب إلى موقعها في الرحم لتعلق به، ومن تلك اللحظة أصبحت المرأة تحمل جنينا سيتطور حسب سنن الله في الخلق .فتمر به خفيفا، لا تشعر بوجوده في أول الأمر، ثم ينمو فيأخذ الإحساس بوجوده يقوى، وتأنس الأم لحركاته وتنتظر مع زوجها يوم الولادة الذي يكون حدثا في الأسرة. كل أملهما أن يكون عضوا صالحا فيها. وصورت الآية الحالة التي تهدف منها التي هي وعظ الأبوين لكيلا يقعا فيما وقعت الأسرة المعروضة في هذا النموذج. إن الآمال العريضة التي بناها الأبوان على ما سيولد لهما، أرشدتهما للتوجه إلى الله أن يجعل من ولدهما المرتقب ما تقر به الأعين استقامة ونجاحا يسعدان به عند وضعه، وتتعلق به آمالهما عند كبرهما بالرعاية والوفاء.

وعقب هذا الابتهال التصريح بعزمهما على شكر النعمة والاعتراف أن ما رزقاه هو من فضله. ووضعت الأم وجاء الولد مكتمل الحواس تام الخلق مؤهلا ليكون عضوا جديدا في الأسرة. وهنا تنعكس الصورة وتذهب في طريق مخالف للعرض الذي مر في هدوء ومعقولية، فإذا هما يجعلان لهذا الولد الذي رزقهما الله، تعلقا بشريك لله. وتحول شكر النعمة إلى كفر، وتمضي الأسرة في ضلالها فتختار لمولودها اسما يربطه بصنم من الأصنام، كعبد العزى، وعبد يغوث، وعبد شمس.

191-192، أيشركون مالا يخلق...ولا أنفسهم ينصرون.

[60] سورة البقرة 187

ويعلق القرآن على هذا النموذج السيء، فيصرح أولا بتنزيه الله عن كل التصورات التي يشرك بها المشركون، ما كان في هذا النموذج وما كان من الصور الأخرى للشرك – ثم يرد عليهم منكرا متعجبا من ضعف تفكيرهم، وتعلقهم بالأوهام : كيف يشركون بالله ما لا يمكن أن يتصور منه قدرة على خلق أي شيء، بل إن ما تُوْهَمَ أنهم شركاء هم مخلوقون، ما استطاعوا أن يوجدوا أنفسهم. فما أعظمها سذاجة وغباوة عندما ينسبون إليها قدرة على الخلق.وأمر آخر أن العابد ينتظر من معبوده أن ينصره في الأزمات وعند الكرب، وهذه الأصنام جامدة لا حراك لها فلا تستطيع تبعا لذلك أن تكون إلى جانبهم مؤيدة ناصرة، بل أكثر من ذلك هي عاجزة عن حماية نفسها ممن يعتدي عليها.

193-وإن تدعوهم...أم أنتم صامتون

وأبرزت الآية إصرارهم على الكفر وعنادهم بما أثبتته، من أنكم إذا بذلتم لدعائهم إلى الهدى جميع إمكاناتكم الفكرية والقولية، وتَقَوَّيْتُمْ بالإرادة الخيرة، فإنهم لا يأخذون بما تدعونهم إليه ولا يتبعون منهجكم. إنه يستوي في التأثير عليهم دعوتكم إياهم، وصمتكم عنهم.

194-195، إن الذين تدعون...فلا تنظرون.

ثم ترقى القرآن في إظهار سفه عقول المشركين بالله فأعلن : إن الذين تدعونهم من دون الله وتعتقدون أن لهم تأثيرا في حياتكم وقدرة على الاستجابة لمطالبكم ونصركم، هم على أقصى تقدير عباد مثلكم، حسب تصوركم، إذ العبد لا يطلق إلا على الإنسان الفاقد لحريته، نظرا لمنزلته من الخالق. فإذا كانوا عبادا حسب تصوركم لا مزية لهم عليكم، فما أسفه عقولكم إذ تخضعون لها وهي لا مزية لها عليكم. جربوا حقيقتها فادعوها لنصرتكم، ليستجب الأصنام لدعائكم إن كنتم صادقين في إثبات الألوهية لها، إن كانت تملك قدرة، وهو أمر يقصد به التعجيز أي إظهار عجزها عن الاستجابة، فانتفى أن تكون آلهة.

ثم أكدت الآية مضمون ما سبق، بتجسيم عجز ما يعبدون من دون الله، ففصلت الآية ما يمكن أن تتحقق به النجدة من الأصنام حسب العرف، فوجهت سؤالا إنكاريا أَلَهُمْ أرجل يسرعون بها لينصروكم إذا دعوتموهم؟ ألهم أيد يُنَفِّذون بها ما يضر الأعداء ضررا لا مخلص له منه؟ ألهم أعين يبصرون مواقع الأعداء ومقاتلهم فيجهزون عليها ليمنعوكم من أذاهم؟ ألهم آذان يسمعون بها الصريخ فيطيرون لنجدتكم ؟ وإذا كانت هذه هي كل أدوات النصرة، وهم فاقدون لأي منها، فمن

السفاهة في الرأي دعاؤكم لها مع عجزها الظاهر كما تشاهدون. ثم أمر الله رسوله أن يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم مع آلهتهم، وأن يدبروا ما يتمكنون به من إيقاع الضرر به، وأن يسرعوا بذلك ولا ينتظرون. مؤدى هذا التحدي أن رسول الله ﷺ يعلن عن عجزهم أن يتمكنوا مع آلهتهم أن يلحقوا به أذى، وإن دبروا ذلك في خفاء وتستر.

196- إن وليي الله..يتولى الصالحين.

ينادي النبي ﷺ معلنا إعلانا يجمع بين الثقة التامة، والتحدي لخصومه المشركين: إنه مستند إلى الله الذي يتولاه بنصره وحمايته وهدايته، هو ربه الذي أيده بكتابه الذي تحدى به المشركين فأعجزهم عن يأتوا بمثله. ويضيف إلى تفضل الله عليه بالنصر والتمكين، يضيف إلى ذلك أنه سبحانه ولي الذين آمنوا به. وأعظم بها بشارة بالنصر للجماعة الإسلامية حوله، وقد أعلمهم ربهم على لسان رسوله في كتابه أنه يتولاهم.

197-198: والذين تدعون من دونه...وهم لا يبصرون.

ثم تعرفهم الآية بضلالهم وفساد تفكيرهم فتقول لهم: أنتم تَدْعُون لنصركم وتأييدكم العجزة عن نصركم، كعجزهم عن نصر أنفسهم. إن هذه الأصنام فاقدون للسمع فإن دعوتموهم إلى ما فيه خير ونفع لا يسمعوا الدعاء، هي غير مدركة لما يصلحها وينفعها، وتراهم وقد نحتوهم على هيئة الأحياء ينظرون إليك ولكنهم لا يبصرون، هم حجارة صماء صور بلا أرواح.

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً

وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

خذ العفو : اجعل الصفح عن المذنب طريقة لك.

العرف : ما يقبله الرأي العام ولا ينكره.

أعرض : لاتؤاخذ.

الجاهلون : السفهاء.

النزغ : النخس كناية عن وسوسة الشيطان.

استعذ بالله : التجئ إلى الله ليحصنك.

اتقوا: تأصلت صلتهم بالله في عقولهم فراعوا ما يرضيه.

المس : أصله اللمس، ومعناه الإصابة غير المتمكنة.

الطائف : الخاطر الذي يجول في النفس.

مبصرون : مهتدون.

إخوانهم : جمع أخ وهو بمعنى الموافق في التصور ومنهج الحياة.

يمدونهم : يقوونهم بالمدد.

الغي : الضلال.

يقصرون : يمسكون عن المواصلة.

بصائر: جمع بصيرة، وهو ما يتضح به الحق.

الاستماع : الإصغاء.

الإنصات : الإصغاء مع ترك الكلام.

التضرع : التذلل.

خيفة : خوف.

دون الجهر : الوسط بين الإسرار والجهر.

الغدو : الشطر الأول من النهار.

الآصال : جمع أصيل، الشطر الثاني من النهار.

بيان المعنى الإجمالي :

عناية الله برسوله منبثة في ثنايا القرآن ، ففي هذه الآية يوجهه:

1) إلى أن يتمسك في معاملاته بخلق العفو والتسامي عن جهل الجاهلين.

2) أن يهتم بالإصلاح فيأمر من حوله بما هو مقبول شرعا.

3) أن يترفع على السفهاء فلا ينزل إلى مستواهم فيقابل فظاظتهم بمثلها بل يعرض عنهم. وأن يواصل التحصن بالله من نزغات الشيطان، ونزغاته بما يعرضه من ملهيات عن ذكر الله، أو أن يستفزه للرد على السفهاء. فإن الله يسمع دعاءك عليم بما انطوى عليه قلبك من كمالات. إن شأن المتقين أنهم إذا عرض لهم الشيطان بما يميلهم مع شهوات النفس يسرعون بتذكرهم مقام العبودية فتزول المغريات التي عمل الشيطان على التأثير بها عليهم. وأما إخوان الشياطين الذين تحالفوا معهم وتآلفوا، يمدهم الشياطين بما يغريهم بمتابعة الشهوات، ولا يمسكون عن مواصلة التأثير فيهم.

ومن سفه المشركين أنهم يطلبون من رسول الله ﷺ :أن يعرض عليهم آية حسب تصورّهم. وإذا لم يأت الوحي بما يطلبونه قالوا: لماذا لم تقترح على ربك الآية التي سألناك فينزلها عليك؟ قل لهم يا محمد: إني أتبع ما يوحيه إلي ربي فأبلغه وهو العليم بما ينزل في الظرف الذي ينزل فيه. إن القرآن يفتح البصائر على الحق، أنزله ربكم الذي خلقكم وهو أعلم بما يصلحكم ويهديكم، هو الرحمة التي تنفذ إلى النفس فتسكب فيها الطمأنينة، وإلى العقول فتسلك بها المسالك المستقيمة، والتي تصل بكم إلى منازل السعادة والرضوان، ينعم بذلك المؤمنون بآياته.

وإذا كان هذا القرآن على هذه المنزلة، فالواجب عليكم إذا سمعتم آياته تتلى عليكم من رسول الله ﷺ، أن تستمعوا لها بتدبر وأن تمسكوا عن الكلام الذي يشوش أفهامكم، فإنه يرجى بذلك أن تتنزل عليكم الرحمات. والقرآن هو أفضل الذكر فداوم على تلاوته وتدبره، واذكر ربك وأنت تجمع في نفسك بين مشاعر التضرع إليه، والتذلل لعلي جلاله سرا وفوق السر ودون الجهر، في جميع أوقات النهار، واحذر أن تغفل عن ذكر ربك. إن الملائكة الذين هم في حضرة ربك خاضعون متذللون لجلاله، ويواظبون على تسبيحه، وهم مظهرون لذلك بسجودهم لعلي ذاته.

بيان المعنى العام:

199 -خذ العفو...عن الجاهلين.

جاء هذا الدين ليسمو بأخلاق المؤمنين، فكان لهم من الأوامر والنواهي منهج يحدد ما يقبلون عليه وما يحذرونه، وكان لهم من الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ مما حفظته السنة والسيرة النبوية الطاهرة ما يقيم لهم مثالا عمليا يحتذونه ويسيرون عليه في علاقاتهم الأسرية والاجتماعية. وهذه الآية على وجيز لفظها تمثل قانونا عاما للسلوك.

أمر الله نبيه ﷺ :

أولا: أن يتمسك بخلق العفو، فجسّمه له في صورة من يمد يده لأخذ العفو والانتفاع به. والعافي هو من يسمو على الظرف الخاص الذي من شأنه أن يثير لصارم الرد. ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة فكل مؤمن موجه له هذا الخطاب أيضا.

ثانيا : أن يعمل على إصلاح المجتمع، فيرشد الناس ويهديهم إلى العمل بما هو مقبول من الرأي العام، وعدم تجاوزه إلى ما هو مرفوض منهم. إن المجتمع يختل ترابطه إذا لم يحترم كل فرد من أفراده الأصول التي تكوّن منها العقد الاجتماعي. وهذا العقد الاجتماعي في البيئة الإسلامية صبغه الدين الإسلامي بصبغته، فغدا الصورة المثلى له. وكل مسلم عليه أن يكون راعيا لاستمراره والحفاظ عليه.

ثالثا: لا تؤاخذ يا محمد السفهاء، ترفّعْ عن أن تنزل إلى دركاتهم، إن السفهاء يتطاولون على ذوي المكانة الاجتماعية وقد يكون منهم ذلك ليظهروا قوتهم ومكانتهم، فالإعراض عنهم قد يكون في بعض الأحوال خيرْ ما يقمعهم.

وهذا التعليم الإلهي باق مستمر لم ينسخ. مناطه غير مناط الجهاد. يقول جعفر الصادق بن محمد الصادق: (في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها. وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضا، فإن الأمر بأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو، وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين ورفق-

200-201، وإما ينزغنك....هم مبصرون،

ثم أمر الله رسوله أن يطلب من الله تحصينه من وسوسة الشيطان، ومن محاولاته الخبيثة لصده عن منهجه الذي يغيض إبليس وأعوانه. وهذه الاستعاذة تعبير عما هو حاصل في نفسه ﷺ من شكر النعمة، فإنه بشر وفضل الله عليه خصه بالعصمة، فعلّمه ربه أن يوالي شكر النعمة التي أنعمها عليه بإحيائها في نفسه وطلبه أن يديمها عليه. والآية مرتبطة بالآية السابقة فإن ما يحدث أمام ناظره من التجاوزات أو من سفه السفهاء مما يحمل النفس حسب طبيعتها إلى الرد ؛ ومن هذا المكمن يحاول الشيطان النزغ. فإما ينزغنك، أفْهِمْ منه إما يحضر من الأسباب ما يترصده الشيطان ليقترب منك، فاطلب من الله أن يواصل تحصينه لك.

إن الله سميع لدعائك لا تغيب عنه ابتهالاتك، عليم بأحوالك يرقبك تبعا لعلي مكانتك عنده (فإنك بأعيننا)[61] -وكما توجه الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ فإنه إرشاد لكل مؤمن ومؤمنة، أن يطلب من الله أن يحميه من وسوسته.

201-202، إن الذين اتقوا...يقصرون.

والاستعاذة بالله من الشيطان هي شأن المؤمنين المتقين، فإنك تجدهم إذا أخذت وساوس الشر تحاول غزو مشاعرهم وتطوف حول نفوسهم، تيقظوا للخطر سريعا، وتذكروا ما جاءهم من الهدى والتوجيه الرباني، فإذا المسلك النقي من غبش الوساوس يَمْثُلُ أمامهم فيبصرون طريق الصلاح الذي يرضى عنه ربهم.
شأن الشيطان أنه ينفث الخواطر السيئة في نفس الإنسان، ثم يعمل على تحريكها من الأطراف إلى الداخل لتستقر، وما يزال يغري بمعاودة التفكير فيها ليبلغ بها درجة الاقتناع والتصميم على الاستجابة، وعندها ينساق الإنسان إلى الإثم وفعل الشر. فإذا تيقظ الإنسان لها من أول الأمر فطردها نقّى نفسه وأزال عنها الغمامة الأولى فلا تحجب عنها الحقيقة والصلاح.
ثم ذكر القرآن أن إخوانهم يمدونهم في الغي. والمقصود، والله أعلم، إخوان الشياطين، كقوله تعالى:(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين)[62] أي الذين لفساد طويتهم تآلفوا مع الشياطين في الفساد، فتابع الشياطين إغواءهم بإمدادهم بما يضاعف إقبالهم على الضلال، ولا يكفون عن إغوائهم وتقريب مسالك الإثم منهم.

203-وإذا لم تأتهم...لقوم يؤمنون.

ثم رد القرآن على المشركين مقترحهم النابع من تصوراتهم الضالة، يقولون لرسول الله ﷺ إذا لم يستجب لهم، بعرض الآية التي يقترحونها، يقولون له: هلا طلبت من ربك أن يعطيك الآية المقترحة منا! هم يتصورون أو يرغبون من إظهار عدم استجابة الرسول لمقترحهم أنه ليس رسولا. تولى القرآن الرد عليهم: قل لهم يا محمد: أنا الرسول الأمين على ما يوحي إلي ربي. وهو الذي ينزل الآيات المحددة مضامينها تبعا لحكمته وعلي تقديره. إن تشغيبكم لا يؤثر علي فأنا أمين، ملتزم باتّباع ما يأتيني من الوحي من ربي. ثم عقب القرآن ببيان طبيعته، التي لا يخرج عنها والتي غفل عنها المشركون فقال: غاية هذا القرآن أنه يقدم للبشرية ما يوضح لها الحق وينفي ما يمكن أن يعلق بنفوس البعض من الضلالات التي

---

[61] سورة الطور آية 48
[62] سورة الإسراء آية27

أشير إليها في الآية السابقة :وإخوانهم يمدونهم في الغي. فسوء فهم المشركين لطبيعة القرآن يتبعه أن يقترحوا آيات لا تحقق غرض الهداية العامة التي هي غاية القرآن. ويعترضون على رسول الله بقولهم له: هلا اخترت الآية التي سألناك فتطلب من ربك أن ينزلها عليك ! ويجيبهم بأني أتلقى الوحي من ربي، هو الذي ينزل بحكمته ما يشاء في الظرف الذي يختاره. إن القرآن هدى يوضح طريق الحق، طريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة. والقرآن رحمة للبشرية تقيم لها معالم الطريق الذي يصل بها إلى قيام البشر بالخلافة على أكمل وجه وأحسنه. والقرآن رحمة لكل مستمسك به يحميه من خسران المصير. وبالطبع لا ينتفع من هداه ورحمته إلا القوم الذين أشرقت عقولهم وقلوبهم بنور الإيمان.

204←206- وإذا قرئ القرآن..وله يسجدون.

إنه بعد أن أشارت الآية لطبيعة القرآن والأهداف التي يعمل على أن يسمو بالناس إليها، إنه بعد ذلك كان من المناسب جدا أن يرشد الناس إلى ما يجب عليهم أن يقوموا به عند تلاوة آياته عليهم، الواجب أن يستمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يتلو عليهم ما أوحي إليه منه. أن يستمعوا إليه، بفتح آذانهم فتحا لا يهمل كلمة منه ولا حرفا، وأن لا يقطعوا انتباههم بأي كلام آخر. فالقران يدعو إلى قبول المتلو عليهم ما يطرق سمعهم بعقول تتفكر في هداه وفي مواعظه وفي أحكامه.

إنه إذا تحتم على الذين سعدوا بصحبة رسول الله ﷺ،أن يستمعوا إليه وأن ينصتوا، فإن الذين سيأتون من بعدهم إلى أبد الآبدين، مأمورون بذلك في المجالس العطرة التي يتلو فيها المؤمن القرآن للتدبر فيه أو لحفظ نصوصه الطاهرة، أو في مجالس الذكر والعلم.

وقد خصّصتْ، تبعا لما فهمته من الآية، من تهيأ لتتبع آياته تلاوة أو تدبرا أو دراسة بوجوب الاستماع والإنصات فقط. أما إذا كان المسلم مشغولا بعمل أو بعلم، وأبلغته مكبرات الصوت تلاوة القرآن فلا يجب عليه أن يترك شغله أو يقطع نظره فيما بين يديه. وإني أدعو كل مسلم يتصل بكتاب الله تلاوة أو استماعا من شريط أو من وسائل البث، أدعوه أن لا يرفع الصوت بما يشوش على المصلي، أو يشغل طالب العلم أو المستغرق في عمله.

وخُتمتْ الآية بأن الاستماع للقرآن مع الإنصات إليه، وفتح القلب لبيناته هو السبيل الذي يتلوه تنزل الرحمات من رب العباد. فلا تجعلوا القرآن مهجورا في بيوتكم أو في قلوبكم. وبهذه الآية ينعطف ختام السورة فيتصل بأولها : كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين. هذه الذكرى التي لا تبلغ

المستوى المصلح للعقول إلا إذا تلقته بآذان مصغية إليه لا تغفل عن مضامينه وعن بديع نسجه ولا يشغلها عنه أي شاغل.

-ثم ثنى القرآن بتوجه الأمر إلى رسول الله ﷺ أن يكون ذاكرا لربه، بمختلف أنواع الذكر ويدخل في الذكر تلاوة القرآن دخولا أوليا. فأمره أن يكون باطنه مستحضرا لمتنوع صيغ الذكر من تسبيح وتحميد وتمجيد وحوقلة وتهليل ونحو ذلك مما يربط ضميره الطاهر النقي، ويجعله أشد اتصالا وأمكن، برب العالمين. وأن يصحب هذا الذكر مشاعره وضميره وعقله، وأن يتوجه لربه ضارعا متذللا. هي حالة الخشوع التي يندمج فيها المتضرع بما يقوله ويحس به أعمق الإحساس، ويرتعش قلبه ويتحرك وجدانه. ومع التضرع المعبر عن الحالة الباطنية يرشده إلى الأدب الظاهري في التوجه، خيفة مستشعرا في كل لحظة من لحظات ذكره أنه العبد الخائف الوجل، المتعلق بكرم ربه كي يتقبل منه ذكره وأن يسعفه بتلكم المرتبة النفيسة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. وأن من الأدب أن لا يصرح بالذكر بل دون الجهر، فهو بين أن يذكره سرا وبين أن يذكره بصوت غير جهير، وذلك تبعا للوضع الذي يكون عليه وهو ذاكر، يراعي المستوى الصوتي الذي يزيده قربا، وأن يصحب الذكر في جميع الأوقات، التي نص منها في هذه الآية على النصف الأول من النهار وعلى النصف الثاني، لأنها الأوقات التي ينهمك فيها البشر في مشاغل الحياة. ولا يدل ذلك على الاقتصار على هذه الأوقات، فقد توجه الخطاب لرسول الله ﷺ مباشرة في سورتي المزمل وفي غيرها بمواصلة التقرب إلى ربه في جميع الأوقات.

وكل ما أمر به النبي ﷺ من أنواع العبادة، فإنه إذا كان بالنسبة له على سبيل الوجوب، فهو بالنسبة إلى الأمة طريقه الندب. وجماع هذا الإرشاد أن لا يكون من الغافلين عن ذكر الله.

وتختم السورة، بالربط بين الملائكة والصالحين من الناس، متصل بما أُمر به من الذكر في الآية السابقة ؛ فإذا هو موكب واحد في حضرة الله رب العالمين، موكب طاهر خاضع له يحقق وُجُودَهُ بهذا الخضوع، وتطويع كل ما أوتوا من ربهم للعمل بما يرضيه، هم لا يستكبرون عن عبادته. يقترن كل نشاط منهم باستحضار دورهم المقصور على تعلق مشاعرهم به، والإحساس بأن كل عمل يقومون به، لبنةُ في عبادته وتحقيق ما يريده منهم. ويبلغ كل لفظ في هذه الخاتمة مزية إعجازية، عبر عن الملائكة بالذين هم عند ربك، فسما بهم إلى أنهم قريبون قربا معنويا من الذات

الإلهية، وأدمج مع حُظْوتهم التي نالوها، أن القرب قرب من ربك يا محمد، بإضافة (الرب إليه) مما يشير إلى أن مكانة الرسول ﷺ مكانة تفوق مكانة الملائكة.

هذا الموكب موكب تسبيح لله وتنزيه له ؛ إذ كلما زاد العابد قربا من ربه واستحضارا لجلاله جاشت نفسه بالاعتراف له بالتسبيح والتنزيه الكامل، وأكمل ما يعبر عمليا عن الخضوع والتسبيح، هو سجود العابد للمعبود. هذا السجود الذي تُصَوِّرُهُ بالنسبة للملائكة على أنه تعبير عملي عن الخضوع لا ندرك كنهه، والذي كلف به المؤمن، هو أن يضاهي الملائكة عندما يبلغ في تلاوته هذه الآية، فيسجد لله رب العالمين. فهي موضع سجود بإجماع.

بلغت ختام هذه السورة يوم السبت- 10- صفر الخير 1432-2011/1/15 بعد صلاة العصر. أعانني الله على إكماله وجعله خالصا لوجهه الكريم، وأسأله أن يتقبله مني، وأن ينفع به المؤمنين.

سورة الأنفـــال

نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بعد الهجرة، في شهر رمضان من السنة الثانية إثر غزوة بدر الكبرى. الغزوة التي سجلت في تاريخ الإسلام أول نصر على المشركين، والتي كانت بداية التحول الكبير في ميزان القوى.

والأصح حسب تاريخ النزول أنها نزلت بعد سورة البقرة. ومما ينبغي التذكير به أن معنى نزول السورة، هو نزول الآيات التي تتابعت منها، وقد تنزل سورة أخرى في أثنائها. وكل ما ينزل على رسول الله ﷺ من الوحي يأمر كتبة الوحي أن يلحقوه بمكانه الذي تلقاه عن جبريل. قد تنزل آيات في أثناء سورة أخرى ، فتقر في موضعها الذي أذن به الوحي. وهي السورة الثامنة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأنفال : الغنائم

ذات بينكم : أصلحوا ما يجعل الروابط الجامعة بينكم قوية سليمة.

ذكر الله : ذكر اسمه أو صفة من صفاته.

وجلت : خافت وفزعت.

التوكل : الاعتماد بعد الأخذ بالأسباب.

حقا : ثابتا ، بالغا درجة الكمال .

بيان المعنى الإجمالي :

سأل أصحاب رسول الله ﷺ عن حكم ما حازوه من أموال المشركين الذين هزموهم بعون من الله في غزوة بدر. واختلف تقديرهم من هو أحرى بذلك. فكان جوابهم على شطرين :

الشطر الأول: أن الغنيمة هي ملك لله، حكم رسوله فيها. إنه لولا عون الله ولطفه ما كان يمكنكم أن تهزموا المشركين تلك الهزيمة التي جعلت الفار ممن لم يقتل ينجو بنفسه غير ملتفت إلى ما كان يصحبه من أموال.

الشطر الثاني: تأديب للمجاهدين من الصحابة، وممن يأتي بعدهم تضمن أصولا بها يضمنون سعادتهم في الدنيا والآخرة، وبها يتداركون ما فرط منهم من تعلق بالأموال، وهي:

1) تقوى الله.
2) الاهتمام بإصلاح العلاقات الجامعة بين أعضاء الأمة.
3) طاعة الله ورسوله بكيفية يكون بها المطيع شاعرا بالغبطة إذ هدي للطاعة.

إن هذه الأسس التربوية يحض عليها الإيمان.

ثم وضحت الآية منْ هُم المؤمنون الذين تنفع فيهم المواعظ. هم من يجمعون الصفات التالية:

1) إذا حرك أسماعهم ذكر اسم الله أو صفة من صفاته ، استحضروا جلاله تفزع قلوبهم.
2) إذا سمعوا آيات القرآن تتلى عليهم تبع سماعهم توهج إيمانهم فتضاعف صالح عملهم.
3) يجدّون في العمل ويصحب جدهم يقينهم بأن نجاحهم لا يتحقق إلا بعون من الله فهم يعتمدون عليه ليرفع عنهم المعوقات ويسعدهم بالتوفيق.
4) يحافظون على الصلاة الركن المقوم للمشاعر والمُنمّي لصفاء الروح
5) وينفقون من أموالهم ما يقوم شاهدا على نبذهم لداء الشح.

إن هؤلاء الذين جمعوا بين هذه الخصال الخمس، وصفهم القرآن بأنهم المؤمنون الذين كمل إيمانهم ، وأنه سيسمو بهم ربهم إلى درجات رفيعة عنده لا يلحقهم فيها نقص ولا خوف ، يزيل آثار ما قصروا فيه ، ويرزقهم من فضله رزقا وافرا لا منة معه.

بيان المعنى العام :

1-يسألونك عن الأنفال...إن كنتم مؤمنين.

هذا هو شأن الصحابة رضوان الله عليهم: كلما عرض أمر جديد، لا يسارعون إلى الحكم عليه والتصرف فيه حسبما يتراءى لهم، لكنهم يعودون إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يبين لهم ما يرضى الله عنه في الحادثة الجديدة ، كما كان النبي ﷺ

يدعو أهل الرأي من أصحابه يستشيرهم في بعـض القضـايا المسـتجدة التـي لـم ينـزل الوحي ببيانها. فقامت على هذه السنة العلاقـة بـين القيـادة وبـين أهـل الحـل والعقـد الذين برزت مواهبهم :تظهر الحقيقة إما مـن الـوحي ، وإمـا مـن الـرأي الـذي يحكـم السداد فيه تقليب وجوهه.

الذي حدث: هو أن الجيش الإسلامي تمكن، بعـون مـن الله، أن يحقـق أول انتصـار لـه في الحرب. وللانتصـار مشـاكله، كمـا للهزيمـة مشـاكلها. ومـن مشـاكل النصـر أن بعض الصحابة البواسل فتكوا بأقرانهم مـن قـادة جـيش المشـركين ونزعـوا مـا كـان معهم من مال وسلاح، وأن فلول المشـركين ولّـوا منهـزمين وخلفـوا وراءهـم الأمـوال التي صحبوها، فمن يستحق تلك الأمـوال ؟ علـى السـنة التـي بيناهـا، رجعـوا إلـى رسول الله ﷺ يسألونه عن الغنائم التي ظفر بها الجيش، من يستحقها ؟

كانت محاورات بين رسول الله ﷺ وبـين الصـحابة، عـرض كـل صـاحب رأي رأيـه كما ورد بذلك أحاديث كثيرة فـي صـحيح مسـلم وجـامع الترمـذي وسـنن أبـي داود وأحمد وابن جرير وابن مردويـه وابـن أبـي شـيبة والبيهقـي وغيـرهم. وكانـت أول تجربة للمسلمين ، وتاقت نفوس بعضهم للنيل من الغنائم التـي كـان مـن أسـبابها قطعـا بطولاتهم وتفانيهم في القتال. وما جـاء الإسـلام ليخـرج البشـر عـن طبـائعهم، ولكـن ليزكيهم ويسمو بهم إلى الآفاق التي تكون بها إنسـانيتهم أكمـل ويوثـق صـلتهم بـربهم، فإذن لا غضاضة في مقاماتهم لتعلقهم بالمال الذي اسـتولوا عليـه مـن الأعـداء، ويبـدو في هذه الحادثة المنزلة التي بلغوها في التعفف؛ فالغنـائم تحـت أيـديهم ،ومـع ذلـك لـم تمتد يد إلى أخذ شيء قبل أن يأذن سيدنا رسول الله ﷺ ، بأخذه.

ونزل الوحي على رسول الله يعيد المؤمنين إلـى المـنهج الواضـح الـذي غفلـوا عنـه، هذا المنهج الذي يجمعه: أن الحكم لله وحده. يسألونك عـن حكـم الأنفـال؟ حكمهـا أنهـا لله ولرسوله. اذكروا أن الله هو مالك كل شـيء، وأنـه لـولا مـا أيّـدكم بـه مـا كنـتم لتنتصروا على صـناديد قـريش وتهزمـوهم تلـك الهزيمـة التـي كانـت أول تخضـيد لشوكة الكفر، وبث الرعب في قلوبهم، واختلاط تقـديراتهم. فالغنـائم هـي ملـك لله الـذي يأذن لرسوله طريقة التصرف فيها.

إنه إذا كانت لله والرسول وانتُزِعَ مـا تحـدثت بـه الأنفـس فـي جهـرة أو خفيـة مـن استحقاق لشيء منها، فإن الآية أتبعت هذا المعنـى بـالمقوم لهـذا المفهـوم المثبـت لـه في النفوس، وهي العودة لتقوى الله، أي اتخاذ وقايـة ذاتيـة تجعـل هـمّ المـؤمن معلقـا بأن يكون مطيعا لربه ذاكرا له واقفا عند حدوده. فعمل الأمـر بـالتقوى مـا حـاك فـي

النفوس من تعلق ببعض ما أسفرت عنه الغزوة من مغـانم. وأردفـت تنبـيههم إلـى أمـر خطير جدا: هـو أن انتصـارهم كانـت لـه مقومـات، وأحـد هـذه المقومـات الوحـدة الصماء والأخوة الصافية بينهم، وقد أخذت هـذه العلاقـة تتصـدع برغبـات فـي أجـزاء من المغنم ، بعلة أنه نزعها ممن أجهز عليـه، أو أنـه هـو الـذي جلبهـا، أو لأنـه هـو الذي كان يحمي ظهر المسلمين مـن مكـر أعـدائهم، إلـى غيـر ذلـك مـن المبـررات الذاتية، والتـي إذا عششـت فـي الـنفس تضـخمت وفرقـت. فأكمـل التأديـب الإلهـي للمجاهدين: أن يسارعوا إلى إصلاح هذا الخلـل الـذي دب إلـى صـلاتهم فينزعـوا مـن أنفسهم كل تعلق بتلك الأعراض التافهة إذا قيسـت بمـا يسـر لهـم الله مـن صـفاء فـي روابطهم الاجتماعيـة. مؤكـدا علـى أن الإصـلاح يجـب أن يبلـغ حقيقـة **(ذات)** مـا **(بينكم)** ما بينكم من متين الصلات. وأن يكون قبـول مـا تضـمنته الآيـة تحـت مظلـة الطاعة لله ورسوله، هذه الطاعـة التـي لا يتحقـق الإيمـان إلا بهـا. فصـرح بتعليقهـا بالإيمان: **(إن كنتم مـؤمنين)** تحريضـا عليهـا، نظيـر قـول القائـل: إن كنـت شـجاعا فاخرج لنصرة الحق، لا تقصد جعل شـجاعته محـل احتمـال ولكـن تريـد حثـه علـى الخروج.

إن ما فسرت به الآيـة هـو المعنـى الـذي تخيرتـه مـن كـلام المفسـرين السـابقين، وسأزيده تحديدا وضبطا في قوله تعالى: **واعلموا أن ما غنمتم من شيء....**[1]

طلبت الآية من أهل بدر ثـم مـن المـؤمنين الـذين يـأتون مـن بعـدهم ثلاثـة أمـور متتابعة: التقوى - وإصـلاح ذات البـين - وطاعـة الله ورسـوله - ثـم ربطـت ذلـك بالإيمان الذي هو محط الحرص عليه مـن كـل مكلـف. وحتـى يكـون مضـمون هـذا الإيمان واضحا، أعقبته الآية بما يحلله تحليلا يحدد مقوماته.

2-4←-إنما المؤمنون....ورزق كريم.

المقوم الأول : القلوب التي تـرف وتخـاف وتوجـل وتتفـتح كلمـا ذكـر اسـم الله ، أو أمر من أوامره ،أو نهي من نواهيه ،أو نعمة من نعمـه ،أو نقمـة مـن نقمـه. فهـم بـين خوف من زوال النعم أو حلول النقم أو التراخـي عـن تطبيـق أوامـره ، أو الغفلـة عـن نواهيه. يغشى جلال الله قلوبهم فينبعثون إلى الاستقامة.

والتعبير عن العقل والمشاعر بالقلـب تعبيـر قرآنـي سـره فـي نظـري: أن القـرآن يخاطب البشر كلهم في وقت نـزول الـوحي وفيمـا يتلـوه مـن الأزمنـة ، ويخـاطبهم

---

[1] سورة الأنفال اية 41

على مختلف مستوياتهم العقلية والمعرفية ، يخاطب عالمهم وجاهلهم. وكون قوة التفكير وما يصحبها، مركزها الدماغ مما بلغ فيه العلم في عصرنا شأوا عظيما في الكشف عن أبعاده ، لا ينافي التعبير عن ذلك بالقلوب؛ لأن كل واحد يحس من نفسه ،عند الخوف أو عند الحماس ،تغيرا في نبضات قلبه يختلف عن وضعه في الحالة العادية. فمن إعجاز القرآن أنه حقق إبلاغ مضامينه في كل زمان ومكان ، ونفذ إلى مدارك البشر فأثر فيها بما يحس به كل إنسان، وما كان كتاب تشريح أو تفصيل لوظائف القلب ؛ فإن ذلك مما أوكل للبشر الكشف عن أسراره ، وربطها بمن أحكم خلقها.

المقوم الثاني: التأثر بآيات القرآن، والناس في مواقفهم من آيات القرآن عندما تتلى عليهم على أقسام: فمنهم الذين يصمون آذانهم فيصدون عقولهم وحواسهم عنها. وقسم عندما تتلى عليهم يكونون لاهين عما تتضمنه من حق ، ينفذ قليل منها إلى عقولهم وينفلت أكثرها عن مداركهم. ومنهم الذين إذا تليت عليهم آيات القرآن نفذت إلى عقولهم ومشاعرهم فرسخت، فإذا بعقولهم يتعمق الإيمان فيها كلما نزلت آية فتلاها عليهم رسول الله ﷺ. وكذلك تكون علاقة من يأتي بعدهم بالقرآن عندما يتلون آياته أو يتدارسونها.

توقف كثير من المفسرين في تحقيق مفهوم زيادة الإيمان، ذلك أن الإيمان هو اليقين، واليقين ليس له مراتب بعضها أقوى من بعض. والذي أفهمه من الآية أن اليقين وإن كان مرتبة واحدة ، هي كما يعبر عنه 100% مائة في المائة، إذا نقص واحد تحول إلى ظن غالب لا يقين؛ لكن مع ذلك تختلف مراتب اليقين من ناحية أخرى، وهي ناحية الاستحضار والتوقد في العقل والمشاعر وبالتالي في التأثير على السلوك. فقد يكون الإنسان موقنا مثلا بأن الصدق خير وسمو، ولكن هذا اليقين قد يكون إشعاعه في المدارك وضاءً قويا وقد يكون خافتا. والفرق بين الطرفين تظهر آثاره في الثبات على الصدق أو التهاون به في بعض الأحوال. وكذلك الآيات عندما يتأمل التالي في مضامينها ويشرح لها صدره يتضاعف شعاع الإيمان، ويسمو به قطعا سلوكه ويصفو ضميره. فزيادة الإيمان ليست قوته في ذاته ،لكن ازدياده في التأثير، ولا شك أن أنوار الإيمان وتأثيرها في نفوس المستقيمين غير تأثيرها في المسرفين.

المقوم الثالث :التوكل على الله. والتوكل مقابل التواكل، فالمتواكل هو المضيع لأمره اعتمادا على غيره والتوكل على الله معناه أن المؤمن يأخذ بالأسباب التي

بنى عليها الله تحقق النتائج ، مــع اعتقــاده أن النجــاح لــيس بواســطة تلــك الأســباب ، ولكن بالمؤثر الحقيقي فــي الأســباب والمســببات ، وهــو الله ســبحانه. فمــن لــم يأخــذ بالأسباب على أنه يبلغ غايته بتوكله علــى الله فقــط، هــو واهــم ومحــرف لســنن الله التي بنى عليها أمر الكون ؛أما المتوكل فهو الذي يعتمــد علــى الله ســبحانه فــي إزالــة المعوقات من طريقه ،ويثق بأنه يسعده بالعون على النجاح ويمكنه من قصده.

هذه المقومات الثلاثة هي القسم الباطني الذي يتحقق بــه الإيمــان المنــوه بــه فــي الآيــة. ومع ذلك فلا يبلغ الفــرد درجــة الإيمــان الكامــل إلا إذا أضــاف إلــى هــذه المقومــات الثلاثة أمرين:

1)أداء الصلاة على الوجه الأتــم بمقوماتهــا الروحيــة والخارجيــة كمــا علمــه وطبقــه النبي ﷺ وهو معنى إقامة الصــلاة، ويــومئ ذلــك إلــى الحــض علــى إقامــة الصــلاة والعناية بشأنها.

2) إنفاق المال في وجوه الخيــر علــى العيــال والأقــارب ،والمواســاة للمجتمــع عــن طواعية وشعور بالراحة لما يقوم به.

إن الذين جمعوا هذه الأركان الخمسة : لين القلوب وبعــدها عــن القســوة – والتــأثر بمــا يسمعونه من القرآن تأثرا يضاعف توهج العقيــدة – والتوكــل علــى الله حــق التوكــل – وإقامة الصلاة – والسماح بالمال – هؤلاء الــذين تميــزوا بهــذه المنزلــة مــن الســمو ، هم المؤمنون الكمل **(حقا)**

جزاؤهم أن الله يرقى بهم مراتب من القــرب والتكــريم والتمييــز بمــا لا يلحقــه نقــص ولا زوال، باعتبار أنهــم عنــد الكــريم المــنعم، بحيــث لا يتصــور مقــام أعلــى ممــا سينالهم. ومن تكريمهم أن يغفر لهم تقصيرهم فتكــون صــفحات أعمــالهم نقيــة لا غــبش فيها ، وبصفة عامة يشملهم ربهم برزق نفيس مــن الكــريم الــذي لا يــنقص مــن ملكــه شيء ، ولا يمتن بما أكرم وأعطى.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

الخروج: مفارقة المكان .

يساقون : يدفعون.

بيان المعنى الإجمالي :

نظر القرآن بـين دعـوة النبـي ﷺ صــحابته ليخرجـوا معترضــين القافلــة التجاريــة لقريش ، وكراهية بعضـــهم الخـــروج مـــن المدينـــة ومجـــادلتهم رســـول الله ﷺ مبــرزين تخوفهم من الإقدام على ذلك ، ومـــا أعقـــب ذلـــك مـــن نصـــر مبـــين، بـــاختلافهم عنـــد تمكنهم من المغانم وتعلق نفوســـهم باقتســـامها وحكـــم الله فيهـــا بأنهـــا ملـــك لله ولرســـوله فزال ما كان يمكن أن يحدث من شقاق ، فكان الجـــامع بـــين القضـــيتين وضـــوح الخيـــر وحسن العاقبة فيهما.

بيان المعنى العام :

6-5، كما أخرجك ربك....وهم ينظرون.

في سؤال المؤمنين عن المستحق للأنفال مـــن المجاهـــدين والجـــواب عـــن ســـؤالهم بـــأن الأنفال لله وللرسول، وإن كان يخالف رغباتهم، وتحقـــق الخيـــر فيـــه. مثـــل هـــذا الأمـــر أمر ربك بالخروج مـــن بيتـــك بالمدينـــة للجهـــاد، وإن كـــان فريـــق مـــنهم كرهـــوا هـــذا الخروج، وكان الخير في خروجك.

وبيان ذلك أن النبي ﷺ ثبت عنـــده أن قافلـــة لقـــريش محملـــة بتجـــارة مـــن الشـــام فـــي طريقها إلى مكة، فدعا النبي ﷺ أصـــحابه للخـــروج إليهـــا، حتـــى يقطـــع عـــن قـــريش الوريد الذي كانت تعاند به وتستكبر. فأجابه بعـــض الصـــحابة وتثاقـــل قســـم آخـــر. ولـــم ينتظر المتثاقلين فخرج معـــه ثلاثمائـــة ودون العشـــرين مـــن المجاهـــدين. وســـاروا فـــي طريقهم فلما كانوا في وادي ذَفِران بلغ النبي ﷺ : أن قائد القافلـــة أبـــا ســـفيان بـــن حـــرب فطن لجيش المسلمين فحول طريق القافلـــة ونجـــا بهـــا، وأرســـل إلـــى قـــريش يخبـــرهم بنجاة أموالهم وخروج النبـــي ﷺ ، ونصـــحهم أن لا يخرجـــوا إليـــه ، ولكـــن أبـــا جهـــل حرض صناديد قريش على الخروج إلى بدر، وهـــو نبـــع مـــاء كـــان تقـــام حولـــه ســـوق في الجاهلية، موجها رأيه بأن في خروجهم وإقامتهم فـــي بـــدر فـــي زهـــو وخـــيلاء مـــا يقنع العرب عندما يتسامعون به، بقوتهم ومضائهم وضعف المسلمين.

بلغ النبي ﷺ مـــا عزمـــت عليـــه قـــريش؛ فاستشـــار أصـــحابه فـــي الأمـــر، وخاصـــة الأنصار الذين ضمنوا له نصره مـــن الـــذين يرومـــون الاعتـــداء عليـــه فـــي المدينـــة، وهو اليوم خارجها. فكان مما حفظه الناس ما أجاب به المقـــداد بـــن الأســـود الـــذي كـــان من الذين هاجروا إلى الحبشة ثـــم إلـــى المدينـــة: يـــا رســـول الله امـــض لمـــا أراك الله فنحن معك والله ؛ لا نقول كما قالت بنو إســـرائيل لموســـى: اذهـــب أنـــت وربـــك فقـــاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنـــت وربـــك فقـــاتلا إنـــا معكمـــا مقـــاتلون، نقاتـــل عـــن

يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك.....فسر بمقالته رسول الله ﷺ.وكان النبي يستطلع رأي الأنصار فقال : أشيروا علي أيها الناس ، وتفطن لذلك سعد بن معاذ الأنصاري سيد الأوس فقال : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ! قال : أجل، فقال سعد: (لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ؛ إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء ، لعل الله أن يريك بنا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله) فتهلل وجه رسول الله ﷺ وقال : سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين. فزال ما كان يجده البعض في قلوبهم من الكراهية للقتال.

وفي سرد الخبر وتنظيره ما يدل على أن بعض الصحابة ترددوا في أول الأمر، وعبروا عن تخوفاتهم من اللقاء (يجادلونك في الحق) هي غفلة من هذا الفريق لأن الله وعد هم النصر ؛ فإذا انفلتت القافلة المحملة بالأموال، فإن المعركة مضمون نصرها. وأبرزت الآية كيف كان هذا البعض كارهين للنزال، كراهية من يدفع إلى الموت، وهو ينظر إليه قريبا منه ماثلا أمامه.

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الود : المحبة.

ذات الشوكة : ذات البأس.

بكلماته : التي قررت في الأزل، المعبرة عن مراده.

يقطع دابر : إزالة الكافرين إزالة تأتي على آخرهم فلا يبقى منهم شيء.

تستغيثون : تطلبون الغوث، وهو العون على رفع الشدة.

الإمداد :الزيادة من الشيء النافع ، أي مكثركم.

مردفين : متتابعين.

يغشيكم النعاس : يغطي النوم الخفيف يقظتكم.

أمنة : الأمن.

ليربط على قلوبكم :ينشطها ويثبتها.

الرجز: أصله : الاضطراب[1]

فوق الأعناق : الرؤوس.

المشاقة : العداوة بعصيان وعناد.

فذوقوه: الذوق بمعنى الإحساس.

بيان المعنى الإجمالي:

وعد الله سبحانه المسلمين النصر على قريش، إما بالاستحواذ على قافلة التجارة بقيادة أبي سفيان، وإما بهزيمة حربية ،يذلونهم بها ويكون لهم نصيبهم من غنائمها. وكانت عاطفة فريق منهم أن يتعرضوا للقافلة دون الجيش. إن هذا الخاطر الذي سبق لهم لا يحقق لهم النصر الحقيقي، إذ لا يعدو تحقق ما أرادوه من أمر بسيط، هو تعرض المسلمين لأموال أعدائهم. أما نصرهم على أعدائهم في ميادين القتل فهو يحق نصرا للإسلام ويكون البادرة الأولى التي سيتبعها ما يقضي على كل جذور الشرك في الجزيرة العربية ويبطل ضلالات الكفر. وإن كان الكافرون يكرهون هذا أشد الكراهية ويستعدون أتم الاستعداد لذلك.

[1] تاج العروس ج15 ص 149

وقد توالت منن الله على المسلمين في غزوة بدر وتتابع تأييده لهم :

1) شعر المسلمون بالوضع الحرج الذي هم فيه، بعد أن انفلت أبو سفيان وأخذ طريق ساحل البحر ونجا بما معه من أموال ، وأيقنوا بأن قريشا قادمة لمحاربتهم. فاستغاثوا من لا يغيث غيره، استغاثوا ربهم ، فحقق لهم الاستجابة لدعائهم وتضرعهم. وأخبر النبي ﷺ المجاهدين بأن الله وعدهم النصر.

2) تمثلت الاستجابة في أن الله أمر ألفا من الملائكة يتتابعون لتأييد المجاهدين.

3) أنه أراد من ذلك تعجيل البشارة لهم بالنصر قبل القتال. إنه مع مثل هذه العناية يعجز المشركون عن بلوغ نقمتهم من المسلمين المدى الذي أعدوه.

4) بعد الحيرة التي كانوا عليها والتصورات المختلفة، أنزل الله عليهم ما يأخذ بيقظتهم إلى نعاس يريح ملكاتهم، فاستفاقوا وهم يحسون أنهم يملكون قلوبا راضية مطمئنة.

5) ساق الله لهم سحابة أمطرتهم فتلبدت رمال الصحراء تحت أرجلهم مما يسر عليهم الحركة والتقدم إلى الموقع الأفضل قبل أن يبلغه الأعداء ،وقام من هذه المنة دليل على أن عناية الله تحوطهم فاطمأنت القلوب، وذهب ما كان يخالطها من وساوس الشيطان. وتوفر من مسيل الأودية المياه للشرب والتطهر.

6) أوحى الله لملائكته أمورا :

أولها أنه لا يتركهم لقدراتهم بل تصحبهم عنايته في جميع مراحل تحقيق ما كلفوا به.

وثانيها أنه سبحانه تكفل بأن يزعــزع ثقــة المشــركين بقــوتهم ، ويــدخل الــوهن فــي عزائمهم.

وثالثها أن يثبتــوا عــزائم المجاهــدين ويبثــوا الطمأنينــة والمضــاء فــي قلــوبهم. و أن عليهم أن يهيئوا الظروف التي تكــون بهــا ضــربات المجاهــدين تبلــغ أهــدافها فتكــون ضرباتهم إما قاطعة للرؤوس قاتلة ، أو قاطعة للأصــابع فــلا يســتطيع المقطــوع مســك سلاح.

ما أصابهم الله به من نكال هو جــزاء اختيــارهم لمــنهج يعــاكس مــا ســنه الله لعبــاده وعنادهم وإصرارهم على ذلك. والله شديد عقابــه لمــن يســير فــي طريــق يعــاكس مــا أمر به.

وفي النهاية تصرح الآيــة بالشــماتة للمــآل الــذي لاقــاه المشــركون: ذوقــوا العــذاب الدنيوي من إهانة وتقتيل، وفي الآخرة لكم عذاب النار.

بيان المعنى العام :

7-8، وإذ يعدكم الله....ولو كره المجرمون.

يسجل القرآن ما تم في غزوة بـدر ، فيقـدم معلنـا وعـد الله للجـيش الإسـلامي بأنـه سيمكنه من الغلبة على طائفة مـن الطـائفتين والاسـتحواذ عليهـا: إمـا قافلـة التجـارة بقيادة أبي سفيان بن حرب، وإما جيش قريش الذي خـرج مـدلا بقوتـه مـدفوعا بتـدبير أبي جهل. ولم يحـدد فـي البشـارة بالنصـر والوعـد بالتملـك أي الطـائفتين سـيظفر المسلمون بها. ومال كثير من الجـيش إلـى أن ييسـر الله لهـم الاسـتحواذ علـى قافلـة التجارة بما تحويه مـن مـال وفيـر مـن ناحيـة، ولأن الاسـتحواذ عليهـا لا يعرضـهم لخطر القتال من ناحية ثانية، ولأنهم لما خرجـوا مـن المدينـة كـان قصـدهم التعـرض للقافلة لا الحرب من ناحيـة ثالثـة. وينسـجم السـياق بـين الآيـات المتتابعـة مـن أول السورة : أن ما مالت إليه النفوس كان الخير فـي خلافـه ، فـرغبتهم فـي قسـم الفـيء، الخيرُ في صرفهم عنه وجعله لله ورسوله كما قـدمناه ، وخـروجهم مـن المدينـة تثاقـل عنه بعضهم ومـا كانـت كلمـتهم مجتمعـة عليـه ، وكـان الخيـر فـي خـروجهم ، وتفضيلهم لكسب المال على مواجهة المشركين كـان الخيـر فـي خلافـه، إذ انتصـارهم في بدر ضعضع المشركين ، وأظهر للعرب بـروز القـوة الجديـدة التـي جمعـت بـين القيم وشدة البأس. وأعلنت الآية عن ذلك بأن الله قـد تعلقـت إرادتـه وثبـت فـي علمـه أنه سيمكن محمدا وأصـحابه مـن كسـر شـوكة قـريش وهـدم كبريائهـا وخيلائهـا. فيمكن الدين الحق دين الإسلام من الظهور على أعدائـه ؛ وبـذلك تكـون معركـة بـدر بداية القضاء على الكفر من جزيـرة العـرب ، تتسـع وتنتشـر إلـى أن تبلـغ الإجهـاز على آخر معقل من معاقل الكفر **(ويقطع دابر الكافرين)**

إنه بسبب ما أنزله الله من كلماته **(الـوحي القرآنـي)** وبسـبب مـا ينزلـه علـى قلـب رسوله من الوحي غير القرآني، وبسـبب مـا تتلقـاه عنـه ملائكتـه الموكلـون بتسـيير العالم الخارجي وفق ما سبق به علمه مما يعرفهم به مـن تأييـد المسـلمين ، بسـبب كـل ذلك يعلي أمر الإسلام ، ويرغم أنـف المجـرمين، ويفسـد كيـدهم ويستأصـل بـاطلهم ويدحرهم مهـزومين. وأن كـراهتهم للـدين الجديـد بمـا يتبعهـا مـن تصـميم علـى محاربته لا تغني عنهم شيئا.

وربما يتوقف الناظر في نظم الآيـة إذ جـاءت علـى هـذا النحـو، ويريـد الله أن يحـق الحق... ليحق الحق ويبطـل الباطـل. فبـالنظرة الأولـى يكـون المعنـى الأول: يحـق الحق، قد أبـرز سـببه ليحـق الحـق ويبطـل والباطـل ، والشـأن أن يكـون السـبب والمسبب متغايرين. وهو ما تطلب له وجه بعض المفسـرين، وأهمـل لفـت النظـر إلـى هذه المعضلة كثير منهم.

والوجه الذي أفضله يتبين بتنظيرها بما صرح به أحد رؤساء الحكومات الغربية، لما سئل عند توليه الحكم: ما هي أهم مشاريعك فقال: ثلاثة أشياء: التربية، ثم التربية، ثم التربية. فالأصل أن يكون الثاني والثالث غير الأول ، ولكنه أراد أن يؤكد حرصه على استقامة التربية في بلده ، وأنه إذا استقامت تستقيم الحياة كلها. فكذلك يبرز نظم هذا النص أن ما هدى الله له المؤمنين من الإقدام على النزال والجهاد هو الذي يحقق لهم كل خير ولا شيء غير ذلك من الاختيارات الأخرى. وهذا الضرب من التأكيد هو من خصائص القرآن التي ما عرف نظيرها في الاستعمال العربي.

وفي هذا النص وما سبقه ما ينبه المؤمنين للتريث وعدم الإسراع لاتخاذ قرارهم بمجرد ما يلوح لهم بادئ الرأي أنه الخير، بل عليهم أن يتعمقوا ويتأملوا، وأن يحصنوا آراءهم من الأهواء التي تسبق إلى الأذهان فتضللها، وتحجب عنها الحقيقة البعيدة الغور والتي فيها الفوز.

9-10، إذ تستغيثون ربكم..إن الله عزيز حكيم.

ثم سجل القرآن مما وقع يوم بدر، وما ذكرهم به هو ذكرى لهم ولمن بعدهم. فقال تعالى: واذكروا وضعكم وأنتم تطلبون من الله أن يحقق إغاثتكم بعون منه، لتنتصروا على صناديد قريش الذين يفوقونكم عددا وعددا، فالتصريح بالاستغاثة يصور الوضع النفسي والوضع الحقيقي وهم يستعدون لخوض المعركة ، يصور شعورهم بالخطر من ناحية ،وقوة اعتمادهم على ربهم وإحساسهم بأنه قريب منهم من ناحية أخرى. إن هذه الاستغاثة من رسول الله ومن المجاهدين، قد حفظت كتب السيرة ما استغاث به رسول الله ﷺ عندما مد يديه وهو مستقبل القبلة يدعو حتى سقط رداؤه عن منكبيه. ومما ابتهل به: اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد.....[1]

أعقب هذه الاستغاثة بتحقق الإجابة لمناشدتهم مبينا : أنه ممدهم بألف من الملائكة يشدون أزرهم، يتتابعون أمدادا وراء أمداد. وهذه البشارة قد علم بها المسلمون قبل ابتداء القتال على الأرجح ،فوثقوا بالنصر وقويت إرادتهم لخوض المعركة ، وأنسوا بأن عناية ربهم تحوطهم واطمأنوا بذلك.

---

[1] الروض الأنف ج5 ص105

ثم إنه هل شاركت الملائكة في القتال؟ ذهب معظم المفسرين إلى أن الملائكة خاضوا المعركة وقاتلوا مع المسلمين. وذهب فريق آخر إلى أن الملائكة لم تشارك في القتال. وأرجح هذا الرأي وذلك لأمور : 1) نص الآية أن ما أخبرهم به رسول الله ﷺ هو بشارة لهم بالتأييد فقط -2) إنه لو شاركت الملائكة في المعركة ما كان لأهل بدر من ميزة إذ النصر للملائكة وليس لهم - 3) إن الملائكة وهم مخلوقات لا ترى ولا يمكن للمحاربين من الأعداء أن يأخذوا حذرهم منهم يتبعه قطعا أن لا يبقى أحد من جيش الشرك، مع أن القتلى معدودون ومعروفون. -4) إن كتب السيرة نصت على من تولى قتل صناديد قريش من الصحابة وكان ذلك شرفا لهم. فما يبقى للملائكة ؟

11- إذ يغشيكم النعاس أمنة....ويثبت به الأقدام.

ثم سجل القرآن ما يذكرهم بنعمة أخرى وعناية أكرمهم الله بها في غزوة بدر، ذلك أنه قبل أن تبدأ المعركة، وهم على ما بينه القرآن، ما كان جميعهم يودون القتال وتعلق غرض هذا البعض بالاستيلاء على تجارة قريش، معتذرين أن ذلك هدفهم حين خرجوا من المدينة. إن بعض الجيش، لما تعين القتال فجأة ، ما كان على استعداد نفسي، ويدور بخلده ما يرهب ، والجهاد لا يأمن فيه أحد من أن يستشهد. في هذا الظرف التي تختلط فيه أحاديث النفس، ينزل الله النعاس على صحابة رسول الله صلى عليه وسلم ، مما يدل على أنه سبحانه سلخ من نفوسهم كل تردد وخوف ، فحل الأمن في قلوبهم إثر تلك الإغفاءة وكان ذلك أمرا على غير المعتاد.

ونعمة أخرى سجلها وذكر بها: أن الله ساق إليهم سحابة أمطرتهم، فلبدت لهم طريقهم، وتمكنوا من الوصول بسرعة إلى ماء بدر قبل أن يصل إليه المشركون. وكان في هذا المطر الذي سالت به الأودية ما مكنهم من الطهارة المائية التي تزيد المتطهر نشاطا ، وزالت آثار ما وجده بعضهم من تردد بما ألقاه الشيطان فيها ،إذ استبانت لهم آية من آيات عناية الله بهم فقويت العزائم للقاء الأعداء ، وتحولت الأرض تحت أقدامهم بعد أن تلبدت بالماء مساعدة على الحركة. فلا تسيخ أقدامهم في الرمال الرخوة.

12-14، إذ يوحي ربك للملائكة.....عذاب النار.

ثم فصل القرآن العناية التي وردت في قوله تعالى : (فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة) مصورا لها : أن الله أوحى لملائكته بطريقة حصل لهم منها علم بمراده، أنهم في تنفيذ ما أوكل إليهم من مساعدة المقاتلين غير متروكين

لأنفسهم بل إن الله معهم يسعدهم بعونـه ويسـدد توجهـاتهم. ثـم واصـل تفصـيل هـذا العون بأنه سيخلخل عزيمة الكفار ويلقـي فـي قلـوبهم الرعـب، فـإن قريشـا خرجـت متحدية كأشد ما يكـون التحـدي لرسـول الله ﷺ جمعـت مـن المقـاتلين أشـدهم بأسـا وأمضى ما يملكونه من السلاح، وبلـغ مـن ثقتهـا بنفسـها أن صـحبهم القيـان، ليقيمـوا الاحتفال بانتصارهم. إنه مما يتبع ذلك أن يكـون المقـاتلون فـي هـذا الوضـع خطـرين لاحتقارهم لمن سيواجهونه في الحرب، فتكفـل الله بـأن يحـول قلـوبهم مـن الثقـة إلـى الخوف ومن الطمأنينة إلى الرعب.، **سألقي في قلـوب الـذين كفـروا الرعـب)** وأوكـل للملائكة تثبيت المؤمنين وغـرس الثقـة فـي قلـوبهم. وأمـرهم أن يوجهـوا ضـرباتهم القاتلة للأعداء بأن يسـددوا سـيوفهم فتضـرب الأعنـاق ولا تحيـد عنهـا وأن يقطعـوا أصابعهم فيعجزون عن حمل السـلاح فـي المسـتقبل، وأن يخـذلوا الكـافرين بصـرف أبصارهم عن وجهة السلاح الفاتك بهم عند النزال.

وتختم الآية بالتصريح بسبب الانتقام منهم، ذلـك لأنهـم عصـوا وعانـدوا، وتخيـروا أن يتبعوا طريقا معاكسا للطريق الذي أمـر الله بـه، وهـو معنـى شـاقوا، وقـررت الآيـة الحكم المسلط على من يعـاكس طريـق الله بأنـه سـيعاقبه أشـد العقـاب. ومـن ذلـك الهزيمة التي حلت بهم في بدر.

ويختم هذا العرض بتوجه إلـى المشـركين إظهـارا للشـماتة بهـم فيمـا أوقعـوا فيـه أنفسهم، ذوقوا العذاب والمهانة وشر الهزيمـة مـن جنـد كنـتم لا تقـرأون لهـم حسـابا.

والقاعدة التي لا مثنوية لها : أن الكافرين سيعذبون أشد العذاب في نار جهنم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللقاء : مناجزة العدو في الحرب.

الزحف : مشي المقاتل لعدوه في ساحة القتال مع حذر.

لا تولوهم الأدبار : أي لا تفروا فتكون أدباركم متجهة إليهم، ووجوهكم منصرفة عنهم.

متحرفا: منحازا ليقاتل.

باء بغضب : استحق الغضب.

الكيد: المكر.

ليبلي: مضارع أبلى، اختبر بالخير.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر الله المؤمنين بالثبات وعدم الفـرار مـن سـاحة القتـال إذا زحفـوا علـى الأعـداء، وشدد النهي عن التولي ببيان عقاب هذا الخـذلان: أن المتـولي يكـون مسـتحقا لغضـب الله ويخسر آخرته ومثواه جهنم، واستثنت الآيـة مـن تـولى كيـدا لعـدوه ليراوغـه ثـم ينقضُ عليه لا هربا، أو ليظهر الفرار ليتقوى بمقاتلين آخرين ثم يكُرون معا.

حقيقة حرص القرآن على أن لا تغيب عن تصور المجاهدين:

أولا: أن المقتولين من المشركين مـا كـان ليتحقـق قـتلهم بضـرباتكم، ولكـن الله كـان معكم فسدد رمايتكم ووقّع سيوفكم، وحرم المقتـولين الألطـاف فـأذهلهم عـن الضـربات النازلة بهم فقتلهم الله. وكذلك الأمر بالنسبة للنبي ﷺ، فإنه لمـا أخـذ قبضـة مـن التـراب فتوزعت في أعين الكفار، ما كان ذلك ليتم برميك يـا محمـد وإنمـا هـو تأييـد مـن الله وقع به ما وقع. وفي ذلك ما يطمئن المؤمنين أن الله معهـم. وليكـون فـي هـذه الواقعـة تكليف مـن الله واختبـار قـدّر أن يكـون حسـنا فـي بدايتـه وعاقبتـه، إن الله سـميع لابتهالاتكم، عليم بصدقكم. فقد تمت الغزوة والله يضعف ويخلخل كيد الكافرين.

إن تطلبوا الفتح أيها المؤمنون فقد جاءكم الفـتح المبـين، بمـا كـان لانتصـار المسـلمين في بدر من تحول لمسيرة التاريخ وتواصل لانتصار الإسلام.

وأنتم أيها المشركون إن تعودوا لمحاربة المسـلمين فسـنمكنهم مـنكم مـرة ثانيـة، ولـن يمنعكم من الهزيمة ما تجمعونـه مـن الأعـداد الكثيـرة. ذلـك أن الله ناصـر المـؤمنين ومن ينصره الله منتصر لا يهزم.

بيان المعنى العام:

15-16: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم...وبئس المصير:

نداء من الله إلى المؤمنين أن يقوّوا عـزائمهم عنـد لقـاء الأعـداء، ممـا يشـير إلـى أن الثبات عند القتال وعدم الفرار مـن مقتضـيات الإيمـان، يقـول القـرآن لهـم: إذا لقيـتم جيوش الكفر فاثبتوا ولا تفروا. وصـوّر الفـرار بجعـل دبـر الإنسـان مواجهـا لعـدوه، وهو منظر بشع شـنيع لا يرضـاه الشـريف. واسـتثنى مـن النهـي، أن يكـون تـولي المقاتل لينحرف عن المواجهة ليعود، خداعا لقرنـه حتـى يـتمكن مـن الإجهـاز عليـه، وفن الحرب عند العرب كر وفر، أو لينضم إلى جماعـة يتقـوى بهـا ثـم يعـود إلـى النزال متقويا بهم وأقدر على النكاية في العدو. ثم أعقـب النهـي بالتحـذير مـن عاقبتـه، وهي غضب الله على الفار. والغضب يراد منه حرمانه من منازل التكريم.

والآية لم تضبط أي حالة يجوز للمقاتـل الفـرار فيهـا، لا مـن ناحيـة القـوة ولا مـن ناحية العدد. وسنفصل الكلام على ذلك في هذه السـورة إن شـاء الله فـي قولـه تعـالى (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين.)[1]

ثم إن الله أنزل في كتابه ما يؤكد مضامين الآيـات السـابقة. فقـد عقبـت بـأن علـيهم أن يثبتوا عند ملاقاة الأعداء وأن لا يفروا، وذلك بناء علـى رعايتـه سـبحانه لهـم وتأييـدهم التأييد الذي جاءهم من الملائكة، ومن الغيث النافع، ومـن تقويـة النبـي ﷺ لقلـوبهم بمـا بشرهم به من نصر. فكان التأكيد بإظهار حقيقـة ربمـا تغيـب عـن التصـور، مفادهـا : أن النصر العظيم الذي تحقق في بدر، وهو الـذي لـو بُنـي علـى المقـاييس المعروفـة في الحروب ما كان لينجر عنه تلك النتائج، فعدد المجاهـدين فـي جـيش المسـلمين كـان ثلث عدد أعدائهم، والأسلحة التي كانت لـديهم أفضـل مـن أسـلحة الجـيش الإسـلامي، والكفاية في القتال كانت بـين جـيش المسـلمين الـذين خرجـوا للاسـتيلاء علـى قافلـة تجارية، فلم يكونوا من خيرة المقاتلين بأسا وقدرة علـى النـزال، وبـين المقـاتلين الـذين خرجوا من مكة قصد الانتقام مـن المسـلمين، وهـم صـناديد المقـاتلين الـذين تمرسـوا بالحرب، والذين ترعب أسماؤهم من يبـارزهم. إن هـذا الواقـع الـذي قـد يُغفَـل عنـه فتغيب الصورة الحقيقية والأسباب التي تـم بهـا النصـر المبـين، أراد القـرآن أن يثبتـه ليبني عليه تعمير قلوب المؤمنين بأن الله معهـم يسـعدهم بـالظروف التـي يكـون بهـا النصر، على نقيض الظروف التي يجعلها مسببة لانهزام أعدائهم.

---

[1] الآية 66 و 67

17-18، فلم تقتلوهم...موهن كيد الكافرين.

إن هذا السر هو ما يشير إليه قوله تعالى : **فلم تقتلـوهم ولكـن الله قـتلهم**، فكشْـفُ هـذا السر يعطي للمؤمنين طاقة قتالية فيمـا سيخوضـونه مـن المعـارك، إذ يحقـق الله لهـم صراحة أن فوزهم في معركة بدر ليسـت بقـتلهم للمشـركين والنكايـة فـيهم بأسـلحتهم، ولكن تم ذلك بتأييد من الله لهـم، وسـلب العـون عـن أعـدائهم. فهـو سـبحانه يسـدد الرمية، ويذهل المشرك عما يصوَّب إليه ليقتله، فيكـون معرضـا لنفـاذ السـلاح المتجـه نحوه. فهذا ما أفهمـه مـن قولـه تعـالى: **فلـم تقتلـوهم ولكـن الله قـتلهم**. ليطمـئن المؤمنون فيما يستقبلهم من المعارك أنهم إذا أخلصـوا لله وسـاروا إلـى سـاحات الـوغى بقلوب مطمئنة إلى النصر كما وقـع فـي غـزو بـدر، فـإن الله سـيوالي علـيهم تأييـده ويمكنهم من الظفر بأعدائهم، وبالتالي نشر ديـن الله فـي العـالمين بتمكـين البشـر مـن التعرف على مزاياه، وتمكينهم من حريتهم في اختيار الدين الذي يطمئنون إليه.

إن التأييد الحاصل للمجاهدين على حسب مـا بينـاه صـاحبه تأييـد آخـر هـو، معجـزة لرسوله : ذلك أن جبريل عليه السلام قال لرسـول الله: خـذ بيـدك الشـريفة قُبْضـة مـن تراب وارمهم بها، فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بهـا المشـركين ثـم قـال : (شـاهت الوجوه) ثم نفحهم بها. ثم أمر أصحابه فقال لهـم : شـدوا فكانـت الهزيمـة. ومـا بقـي واحد من الأعداء إلا أصابه من تلـك القبضـة شـيء فـي عينيـه. فوصـول الحصـباء لعيونهم ما كانت لتحصل بمجرد رمي الرسول لهـا حسـب العـادة والمـألوف، فالرميـة التي أصابت العيون ما كانـت برمـي النبـي ﷺ الـذي تـولى ظـاهرا الرمـي، ولكـن النتيجة كانت بتصويب الله بمعجزة منه لنبيه وعـون لـه. فخاطبـه بقولـه: ومـا رميـت رميا يصل إلى عيون المشركين ولكن الله هو الـذي صـوب ذلـك وحقـق أثـره. وفـي هذا ما يقوّي إرادة المؤمنين على مر الأزمـان بـأن الله معهـم يؤيـدهم ويسـدد تـدبيرهم وفعلهم. وليس ذلك تواكلا ؛ فإن الألطاف التي حفت بالمجاهـدين فـي بـدر قـد صـحبها ثقتهم في النصر، وإقدامهم على القتال برباطة جـأش، واختيـار للمواقـع التـي تسـاعدهم ويجدون فيها ما يمكنهم من الغلبة. فهم قد عملوا كـل مـا هـو فـي مقـدورهم، وتوكلـوا على الله بعد ذلك.

ثم صرح القرآن بعناية أخرى بسبب مـا تـم فـي بـدر. وهـو أنـه سـبحانه أظفـرهم بأعدائهم الذين أنزل الرعب في قلـوبهم، فانكسـروا انكسـارا فظيعـا، ليكـون ذلـك دالا على أنه لما كلفهم بالقتـال فهـو تكليـف ممحّـض للخيـر مـن أولـه. والـبلاء يكـون بالخير والشر. وهو هنا بلاء بالخير إذ ربطـه بوصـفه بالحُسْـن((حسـنا)).وذيـل الآيـة

بما يقوي مضمونها: إن الله سميع، سمع ابتهـــالاتكم فاســتجاب لكـــم، وهـــو علـــيم بنيــاتكم التي كان اتجاهها لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله وإذلال الكفر وأهله.

ذلكم جميع ما تقدم ذكره قد تحقق. وأن الله يثبط ويـــوهن كيـــد الكـــافرين، فيجعـــل كيـــدهم وما قصدوه من إضرار المسلمين، منحلا لا يحقق غاية.

19-إن تستفتحوا فقد جاءكم...مع المؤمنين.

ويختم القرآن تسجيل ما أراد تســجيله عـــن بـــدر، الغـــزوة التـــي كانـــت بدايـــة التحـــول الحربي بين المسلمين والمشركين، بفذلكة توجـــه فيهـــا الخطـــاب للمســـلمين والمشـــركين، ليأخذ كل فريق ما يناسبه:

توجه للمؤمنين فهنأهم بالفتح الـــذي ســـألوه، إن تســـتفتحوا فقـــد جـــاءكم الفـــتح وتحقـــق النصر، وعلت كلمة الدين الذي تدافعون عنه.

وتوجه للمشركين بعد الهزيمة لبث اليأس في قلـــوبهم مـــن أخـــذ الثـــأر مـــن المســـلمين، وأن الخير لهم هو أن يقلعوا عن الكيد للإســـلام. ثـــم هـــددهم بـــأنهم إن عـــادوا للحـــرب والكيد والاستعداد للحرب، فسنة الله تظهر فـــي المســـتقبل كمـــا ظهـــرت فـــي بـــدر مـــن نصر دينه وإذلالكم وخسارتكم للحـــرب، وإن كنـــتم مصـــممين علـــى تجيـــيش الجيـــوش وتكثير عددكم وعقد الأحلاف للنصر. فإن جمـــوعكم مهزومـــة لا شـــك مهمـــا كثـــرت لا تفيدكم، وذلك أن الله كتب على نفسه أن يكون مؤيدا للمـــؤمنين خـــاذلا لكـــم. وهـــي ســـنته ولينصرن الله من ينصره.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (23) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

بيان معاني الألفاظ:

الطاعة : امتثال بفعل الأمر والكفّ عما نهى عنه.

التولي : العصيان.

استجيبوا : أسرعوا بالإجابة بدون تأخير ولا تردد.

الفتنة : اضطراب الأراء.

اذكروا: فعل أمر من الذكر بضم الذال، بمعنى التذكر.

التخطف: الأخذ بسرعة بمعنى سرعة التغلب عليهم.

آواكم: حفظكم ورعاكم.

بيان المعنى الإجمالي :

يدعو القرآن المؤمنين إلى الإسراع بطاعة الله فيما يأمر به، وإلى طاعة رسوله، ويؤكد أمر الطاعة بالنهي عن البعد عما تقتضيه الدعوة، البعد الذي لا مبرر له مع سماعهم لنداء ربهم. ويقوي وجوب الطاعة حتى لا يكونوا كالقوم الخاسرين الذين يصرحون بأنهم سمعوا ما يبلغهم رسولهم ولكنهم لا ينتفعون بما يسمعون فهم لا يسمعون.

ويصور القرآن صورة بشعة، هي صورة الدابة الفاقدة للتفاعل مع المحيط الخارجي لا تبلغها الأصوات ولا صلة لها بغيرها، ولا تستجيب لأي مؤثر خارجي. وفي ذلك تقريب لصورة الكافرين الذين يسمعون الوحي فلا يصل إلى عقولهم، ولا ينطقون مسبحين لله بما يرونه من آياته وحكمته في الكون. علم الله أنهم مصممون على العناد فلذلك لم يسعفهم بألطافه، هم لعنادهم لو قرعت أسماعهم آيات الوحي فإنهم لا ينتفعون بها، ويعرضون عنها.

ينادي الله المؤمنين حاثا لهم على الإسراع للعمل بما جاءهم عن الله وإلى الاستجابة لما يدعوهم إليه رسول الله من الهدى، وإلى الإقبال عليه كلما ناداهم. إنكم تظفرون من الإسراع بالاستجابة إليه، بما يحيي عقولكم وأرواحكم ويفيض عليكم من بركته. وحثهم على الإسراع وعدم التباطؤ، لأن قلوب البشر بين يدي الله يصرفها كما يشاء، وستحشرون إليه.

حصنوا أنفسكم من الفتن التي إن اشتعلت تأتي على الصالح والطالح والظالم وغير الظالم. فقوموا بالأمر بالخير والنهي عن الفساد، فإن الله يعاقب عقابا لا مخلص منه وهو العقاب الشديد.

ثم أمرهم القرآن : كونوا متذكرين لمنن الله عليكم، فقد بدأ الإسلام بأعداد قليلة في وسط كثرة من المشركين ذوي بأس وفظاظة، كنتم تخافون أن يستأصلوكم، وذلك ليس عسيرا عليهم، فيسر لكم ملجأ في رحاية صدر رسول الله وفي الحبشة ثم في المدينة، ومكنكم من الانتصار عليهم فهزمتموهم في بدر على قلة عَددِكُم وعُددكم،

وأفاض عليكم من الرزق الطيب في المدينة التي بارك سبحانه في أقواتها، وفي بدر بما غنمتم من أموال صناديد قريش.

بيان المعنى العام :

20-يا أيها الذين آمنوا....وأنتم تسمعون.

دعاء من الله للمؤمنين أن يعقدوا قلوبهم على طاعة الله ورسوله، وكان ماتقدم من أول السورة في قوله تعالى :(وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) وفيما تلا ذلك من تسجيل لما في طاعة الله ورسوله، وإن كانت على عكس ما تتراءى لهم من الصلاح كخروجكم لمواجهة الكافرين [وإن فريقا من المؤمنين لكارهون] هو الخير. كما حكم به الله في الأنفال، وكما في تحولهم من التعرض للقافلة إلى لقاء العدو في غزوة بدر. جمعا لكل ما سبق في السورة كرر القرآن أمره للمؤمنين بطاعة الله ورسوله. وهذه الطاعة يحتمها الإيمان ولذلك ناداهم به (يا أيها الذين آمنوا) ولتحقيق هذا الأمر الهام الذي هو مبنى الإيمان، صرح بالنهي عن الضد فقال تعالى : ولا تعرضوا عما يطلبه منكم وأنتم تسمعون دعاءه.

21- ولا تكونوا...وهم لا يسمعون.

إن مهمة الرسول ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه، والمقصود من تبليغه لوحي الله أن يؤثر في العقول والقلوب صلاحا، فإن استماع ما يقوله لا يحقق غايته إلا إذا نفذ إلى القلوب فهداها، وإلى الأرواح فزكاها، وإلى العقول فأنارها وأحكم مسارها وإدراكها. ونبههم ليحذروا وضع القوم الخاسرين الذين قالوا: سمعنا ما تقول، ولكن حاسة السمع لما نقلت التموجات إلى الدماغ وجدت أمامها سدا من العناد يرفض أن تتأثر بمضامينه العقول والقلوب. إنه لا خير في كلام يُسمع ورغم صدقه وهدايته لا يتأثر به السامع، فسمعهم كلا سمع.

22-23، إن شر الدواب...وهم معرضون.

ثم أبرز الصورة المشوهة لهؤلاء الذين يعرضون عن الاستفادة من الوحي، مقارنا لهم بشر الدواب، محققا شرهم بأنه ثابت عند الله الذي يعلم كل شيء أتم العلم. الدواب لها وظائف فطرها الله عليها، تؤدي دورها في الكون وتتفاعل مع غيرها، وكل دابة لها حسب الفطرة التي فطرت عليها، بتقدير من العزيز الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه، وظيفةً تقوم بها تستجيب للمؤثر الذي يرد عليها فتقوم بأداء ما فطرت عليه. ولكن بعض الدواب قد تفقد الإحساس بهذا الداعي فتفقد تبعا لذلك

دورها في الوجود، فتكون من أحط أنــواع الــدواب أقــرب مــا يكــون إلــى الجمــادات. وتشير الآية إلى أن الذين أبلغهم الرسول ﷺ ما أوحي بــه إليــه مــن الحكمــة والهــدى، فرفضوا التأمل فيه والاســتجابة لــه، بــأنهم كالــدواب الفاقــدين للإحســاس. ومعلــوم أن الكائنات تتفاضل في قيمتهــا، فأخســها الجمــاد الفاقــد للحيــاة، وفوقهــا النبــات الحــي المتحرك الفاقد للإحساس، وفوقهــا الحيوانــات الجامعــة بــين الحيــاة والإحســاس ولهــا نوع من الإلهام تتفاضل فيه بين أنواعهــا، وفوقهــا الإنســان الــذي يجمــع إلــى الحيــاة والإحساس العقل الذي ينظم بواسطة ما يرد عليــه مــن الحــس، مدخراتــه مــن المعرفــة بالتحليل والتنظيم والتوليد. فمن هــؤلاء مــن إذا طــرق ســمعه وأدرك بصــره آيــات الله من الوحي ومن شواهد الكون، عطل عقلــه عــن الانتفــاع بهــا. هــؤلاء لا فــرق بيــنهم وبين فاقدي السمع والبصر. وكذلك الذين يمرون على مشــاهد الإبــداع فــي الكــون فــلا تنطق ألسنتهم بما يعبر به العاقل عن ذلك الإحســاس، والــذين لا يــدعون إلــى معــروف ولا ينهون عن منكر، فــلا يــؤثرون فــي الحيــاة تــأثيرا يرفــع الشــر أو يقــيم الخيــر والصلاح، صمٌّ بكم ؛ إذ تعطلت ألسنتهم عن القيام بأخص مــا تميــز بــه الإنســان وهــو النطق بالخير. فهم والبكم سواء. وإذا تعطلت الحواس عــن التــأثير فــي تكــوين مــدارك الإنسان، لزم من ذلك أنهم فقدوا العقل فهم لا يعقلون.

23- ولو علم الله فيهم خيرا...وهم معرضون.

ثم انتقل القرآن لبيان تصميم المشركين على عدم الالتفــات لمــا يقــدم إلــيهم مــن هدايــة وبراهين ومواعظ،،فقال الله : ولو علم الله فــيهم قابليــة للاســتماع إلــى الحــق المنــزل، لأعانهم على ذلك ومنع عنهم الصوارف التي تحــول بيــنهم وبــين الانتفــاع بمــا يــبلغهم رسول الله ﷺ. بل إنه سبحانه لو أسمعهم الوحي وأصــاخوا إليــه واهتــزت نفوســهم لــه بعض الاهتزاز لحركوا ما ترسب في عقــولهم مــن الــرفض، فتولــوا معرضــين عنــه. ومن ذلك ما سجله القرآن علــيهم كقــولهم (إن هــذا إلا ســحر يــؤثر)[1] – وكقــولهم : (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هــذا إن هــذا إلا أســاطير الأولــين)[2] بــل كــان بعضــهم يأنس لما في القرآن من بلاغة ويستمع إليه، ثم يرفض هدايتــه. فهــم بــين معــرض عــن السماع ، وبين عازم على رفض ما يستمع إليه.

24- يا أيها الذين آمنوا استجيبوا...وأنه إليه تحشرون.

---

[1] سورة المدثر آية 24

[2] سورة الأنفال 31

ثم أعاد إيقاظ المؤمنين إلى أمر هـام مبينـا سـببه ومـا بنـي عليـه. فـدعاهم بوصـف الإيمان لأن الاستجابة من مقتضياته. إن الإيمان يقتضـي مـنكم أنـه إذا دعـاكم الله إلـى القيام بأمر من الأمـور أن تطيعـوه وتسـرعوا بـذلك، وكـذلك إذا دعـاكم الرسـول أن تسرعوا بإجابته سواء أكان دعـاؤه لكـم للإقبـال عليـه أو لتنفيـذ أمـر مـن الأمـور. فالاستجابة لله معناها الطاعـة، والاسـتجابة للرسـول تشـمل الطاعـة، والإقبـال عليـه، ذلك أن دعاء الرسول لهم يمكن الحيـاة فـيهم. والحيـاة يعبـر بهـا عـن التطـور فـي مراتب الكمال الديني والروحي والخلقـي. فتعـاليم الرسـول التـي يبثهـا فـي صـحابته تقوي دينهم، وتطهر أرواحهـم مـن الحيـرة، وتهـديهم إلـى أحسـن الأخـلاق وأكـرم الأفعال، وأن طاعته تضمن لهم الحيـاة السـعيدة يـوم القيامـة، قـال تعـالى (وإن الـدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)[1] الحيوان الحيـاة الحقيقيـة التـي لا يلحقهـا فنـاء. فهذا هو المقصود بالإحياء بواسطة تعليمـه. كمـا أن الآيـة تفيـد أن علـيهم أن يسـرعوا إلى إجابته إذا هو ناداهم للإقبال عليـه. أخـرج البخـاري بسـنده إلـى أبـي سـعيد بـن المعلى قال: كنت أصلي في المسـجد فـدعاني رسـول الله ﷺ، فلـم أجبـه، فقلـت: يـا رسول الله. إني كنت أصلي. فقال: ألـم يقـل الله : اسـتجيبوا لله وللرسـول إذا دعـاكم [2] وذلك أن الاتصال المباشـر برسـول الله تصـحبه بركـة عظيمـة ظفـر بهـا الصـحابة رضوان الله عليهم، وأحسوا بفقـدانها بعـد انتقالـه إلـى الرفيـق الأعلـى. وقـد فصـل القاضي عياض من ذلك في الشفاء ما يتكون مـن مجمـوع مـا أثبتـه علـم يقينـي بـأن التأثير المباشر لرسول الله ﷺ في عقول وقلوب صحابته هو مـا يحقـق مـا جـاء فـي هذه الآية من الخير لمن يقبل عليه ويستجيب لندائـه[3] وقـال أبـو سـعيد :فيمـا أخرجـه البزار بسند جيد : **(وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)**[4].

ثم أيقظتهم الآية وهزتهم حتى لا يغفلوا عن مضـمونها، وذلـك بافتتاحهـا بقولـه تعـالى: واعلموا. فأمْرُهُمْ بالعلم يقصدمنه: انتبهوا وخذوا مـا يـأتيكم مأخـذ الجـد. ومضـمونها: أن الله يتصرف في الإنسان التصرف الكامـل، حتـى إن تحكـم الفـرد فـي تحقيـق أي أمر من الأمور، لا يـتم إلا إذا حـفّ الإنسـانَ بألطافـه وعطـل المعوقـات، إذ أن إرادة الله تتحكم في جعل ثباته على الإنجاز متصـلا، أو تحـول بينـه وبـين ذلـك. ولا يظفـر

---

[1] سورة العنكبوت آية 64

[2] فتح الباري ج 9 ص224

[3] انظر ج1 من شرح ملا علي القاري على الشفاء ص177/166

[4] فتح الباري ج 9 ص215

الإنسان بالتوفيق وإنجاز ما يريده على الوصف الـذي يرضـي ربـه إلا بعـون مـن الله، هذا العون الذي سبيله سرعة الاستجابة بالطاعـة لله ولرسـوله. ويسـاوي العلـم بقـدرة الله على الحول بين المرء وقلبـه، الحقيقـة الأخـرى أن كـل فـرد سـينتهي إلـى ربـه ويحشر يوم القيامة عنـده. وكلاهمـا يتفقـان فـي أن المجـالين لله وحـده، وأن عليـه أن يسرع إلى الاستجابة.

25-واتقوا فتنة...أن الله شديد العقاب.

نبه المجتمع المسلم إلى مقاومـة الشـر بمجـرد ظهـوره. ذلـك أن المجتمـع إذا تراخـى أعضاؤه عن مقاومة الشر بمجـرد ظهـوره، أو لـم يعنـوا بسـيادة الفضـيلة، استشـرى الانحراف، وذلك مفض لا محالة إلـى اضـطراب العلاقـات الاجتماعيـة، وهـي الفتنـة التي تضطرب بها الأمور، ولا تقتصر على المفسـدين. إن الفـرد يتـأثر بـالمظهر العـام الذي عليه المجتمع، فإذا سادت الفضـيلة تيسـر لـه الخيـر وأمـن، واسـتحثه المظهـر العام على اتّباعه والسير معه، وبـالعكس إذا ظهـرت الرذيلـة فسـواء، أشـارك فيهـا أو لم يشارك، فإنه يتأثر بها في سلوكه وفي أمنه. وأقل المراقـب أنـه يشـعر بـأن المحـيط يضاده، ويتنافر مع ما هو مقتنع به؛ وهي الغربة القاسية فـي الحيـاة. وفـوق هـذا، هـو أن ما توعد الله بـه المجتمعـات المنحلـة مـن عقابهـا بـالظواهر السـائدة فيهـا، يعـم المجتمع كله الفاسد والصالح. وهذا إذا جعلنـا قولـه تعـالى: «لا تصـيبن الـذين ظلمـوا منكم خاصة)، تابعا صفة للفتنة ولا نافية. ولو كان نسـج الآيـة لا تصـيب الـذين ظلمـوا منكم خاصة، لكان المعنى الذي حملنا عليـه الآيـة قريبـا واضـحا. ولكـن الآيـة وردت مؤكدة (لا تصيبن)والتأكيد مع النفي لم يقبلـه كثيـر مـن علمـاء اللغـة، ورأوا أن (لا) في الآية هي للنهي وأن الجملة ختمت عند قوله واتقـوا فتنـة. وتـأولوا الآيـة تـأويلات تخرج بالنص عن المنهج القرآني الواضـح لتسـتجيب للقواعـد التـي قعـدوها. ولا أرى في حملها على النفي مع التأكيد محذورا،

وبالغت الآية في التحذير من التراخـي فـي الاسـتجابة لـدعاء الله والرسـول، بـأن الله يعاقب العقاب الشديد، لأن عقـاب غيـره ترجـي معـه الشـفاعة، أو محاولـة الانفـلات منه، أما عقابه فلا يتمكن المعاقب من التفلت منه.

26- واذكروا إذ أنتم....لعلكم تشكرون.

جرى القرآن على نهجه في التربية والإصـلاح، فبعـد أن أمـرهم وحـذرهم، فسـح لهـم من الذكريات ما يشجعهم على المضي في طريقهم.

ذكرهم بوضعهم يوم كانوا في مكة، قليلٌ عــددُهم يــوم كــانوا أفــرادا معــدودين وســط كثرة كاثرة من المشركين شرسين فــي مقــاومتكم يعــدونكم ضــعفاء ،لا وزن لكــم فــي مجتمعهم الجاهلي، وفي الأرض التي يحكمــون فيهــا بالاســتبداد معتمــدين علــى قــوتهم المادية. آذوكم وآذوا النبــي ﷺ وأنــتم مــأمورون بالصــبر علــى الأذى، وأنــتم خــائفون من أن يعزموا على استئصالكم فيظفــروا بكــم بســرعة ويســر، إذ كــان ميــزان القــوى بعيدا عن التكافؤ.

استحضروا هذا الوضع، واستحضــروا عنايتــه ســبحانه بكــم وحفظــه لكــم. جعلكــم محل رعايته وقربكم إلى مستقر الأمن، وحول ضــعفكم قــوة بتأييــد منــه، ورزقكــم مــن طيبات الرزق، فتمكنتم من الغنائم في بدر، وألان قلــوب الأنصــار لكــم، فشــاركوكم مــا عندهم من الخيرات التي بارك الله فيها. رجــاء أن تعمــر قلــوبكم بهــذه المــنن فتنطلــق بالشكر والاعتراف بفضل الله عليكم.

سجل الله هذا الوضع الذي تحول إليه المســلمون، والــذي نمــا حتــى بلــغ بــه الإســلام مشارق الأرض ومغاربها. وفي التذكير به مــا يبشــر المســلمين فــي جميــع الأعصــار بما ينتظرهم من تأييد وعز ونصــر، إذا هــم اســتجابوا لله وللرســول فــي الــدعاء لمــا يحييهم. وقد قامت شواهد التأييد متكررة مع الزمن كلمــا أســرعوا للتمســك بمــا آتــاهم الرسول ﷺ.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخيانة : نقض لما تم التعاقد عليه بدون إعلام.

الأمانة : ما يحفظه الإنسان عند غيره.

الفرقان: القوة التي يقتدر بها صاحبها على التفريق فلا يختلط عليه أي أمر.

بيان المعنى الإجمالي:

عناية الله بهذه الأمة شملت أوامر، في الالتــزام بهــا صــلاحها. وقــد تتــابع ذلــك فــي الآيات السابقة، كما شملت ما يتحتم عليهم أن يبتعدوا عنــه فنهــاهم عمــا يوجــب اخــتلال

البناء النفسي والبناء الاجتماعي. فنهاهم عن الخيانة بإضمار الإنسان ما يناقض العهد الذي التزم به، ويدخل في هذا الباب جميع المعاصي باعتبار أن المؤمن عاهد ربه على الالتزام بما علمه من شرعه. ونهاهم عن خيانة ما ائتمنوا عليه. وحذرهم من مداخل الشيطان الذي يروّضهم على الخيانة بناء على ما ركز في الطباع من حب المال وحب الأولاد. وتذكروا أن الله عنده أجر عظيم لا يقاس بما تتعجلونه من المال والأولاد. تحصّنوا بالتقوى، فإنها تصقي أرواحكم وعقولكم فلا يختلط عليكم الطيب بالخبيث، وبالتقوى يتم تكفير سيئاتكم، ومحو ذنوبكم. وفضل الله عظيم لا تحده حدوده.

بيان المعنى العام :

27-28، يا أيها الذين آمنوا...عنده أجر عظيم.

دعا الله المؤمنين بوصف الإيمان ليستحثهم على تطبيق ما سيرد عليهم بأنه من مقتضيات الإيمان. وتضمنت الآية تحذير المؤمنين من الخيانة بعد أن بين وشدد عليهم في الاستجابة لله ولرسوله. فقد رباهم القرآن أولا على الاستقامة الظاهرية، ثم ثنى بما يستتر في خفايا النفس فيهلك صاحبه. نهاهم عن الخيانة، والخائن لا يعلن خيانته، فيكون الطرف الآخر مطمئنا غير آخذ حذره منه. ولذا يكون ضرر الخيانة أشد. والخيانة في هذا تكون بين المتعاملين، كما تكون الخيانة فيما يناقض ما أمر به الله، فيظهر الطاعة لما أمر به، وهو يبطن النقض والتهاون. وبما أن المؤمن تبعا لإيمانه يكون قد عاهد الله على اتّباع أوامره واجتناب نواهيه وأن يسير في الكون سيرا ينتظم به أمر خلافة الإنسان في الأرض، فإذا بيّت في نفسه نقض هذا الالتزام يكون قد خان العهد المعقود بينه وبين ربه. ومما يزيد الخيانة فظاعة، أن الخائن يخون وهو يعلم أنه خائن. ونصت الآية على خيانة الأمانة التي يستثيق فيه المؤمن المتعامل معه، وضرر ذلك يتعدى العلاقة بين المتعاملين، إلى التأثير السيء على الجماعة الإسلامية، ولذلك نسب الخيانة في الأمانة إلى نفس الخائن وغيره فقال : وتخونوا أماناتكم – إن الخيانة تفسد الاقتصاد وتكبّله، فيكون ضررها يسري إلى كل فرد من أفراد الأمة، الخائن أولا وبقية المجموعة ثانيا.

ثم أيقظت الآية المؤمنين إلى الأسباب الخفية التي تتبعها الخيانة. فمن الدوافع للخيانة حب المال وحب الأولاد والذرية، وكل واحد منهما يتخذه الشيطان مسلكا للتأثير وفتنة الإنسان في دينه، فتتصادم دواعي الخير والاستقامة مع مغريات حب المال لنفسه وحب جمعها لذريته ؛ وهذا التناقض هو الفتنة التي لا يكون معها

المؤمن مطمئنا، إذا لم يطرد دواعي الخيانة بمجرد مـا تتحـرك. ويقـوي المـؤمن علـى التغلب على الافتتان، أن يتذكر دوما أن الله عنده أجر عظـيم، يفـوق مـا يحصـل عليـه الخائن إن كف نفسه عن الخيانة. يظهر ذلك في بركة مالـه وفـي صـلاح ذريتـه وفـي فوزه برضوان الله، وهو أكبر غنم يغنمه المؤمن.

29-يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا...الفضل العظيم.

أعاد القرآن الدعوة للمؤمنين بوصـف الإيمـان ليضـيف إلـى تحصـنهم بتـذكر: أن الله عنده أجر عظيم. تقرير تحصنهم بالتقوى، التقوى التـي إن حلـت فـي القلـب وتواصـل إشعاعها فإن المتقي يصفو عقله وروحه صفاء يعصـمه مـن اخـتلاط الأمـور، فيتضـح له الحق وضوحا تاما، ويتضح الشر وضوحا كـاملا. ولا يخـتلط عليـه أحـدهما بـالأخر فيزل من الاشتباه. وأعظم بهذه المرتبة منزلـة ورشـدا فـي الحيـاة، بمـا يشـمل أمـور الدنيا والآخرة.

وقرن الفرقان بمزية أخرى للتقوى تتمثل : فـي أن الله يمحـو سـيئات المتقـي، ويسـتر ذنوبه في الدنيا والآخرة، فلا يؤاخذه بها ولا يفضحه بعـد أن سـترها عليـه. وفـي ذلـك حث على التقوى التي قـرر سـبحانه أن يكـون جزاءهـا مـا لايُقـدرُ قـدرُه، فـالله ذو الفضل العظيم الشامل.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ

المكر : التدبير الخفي لإيقاع الضر.

ليثبتوك : ليحبسوك.

أساطير : قصص.

يصدون: يمنعون.

بيان المعنى الإجمالي :

صمم المشركون على الكيد للنبي وللإسلام، فتشاوروا فيما بينهم لتبين أفضل طريقة تمكنهم من القضاء على الرسول. فقال بعضهم : نضيق عليه في سجن منفرد لا يخرج منه ولا يتصل بأحد إلا من خلال كوة نطعمه منها ونسقيه. وقال آخر بل ندعو له من كل بطن من بطون مكة شابا قويا جلْدا، فيضربونه معا ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين البطون؛ فنؤدي لبني هاشم ديته ونستريح منه. وقال آخر نركبه جملا ونمنعه من العودة إلى مكة. والله حافظ نبيه فمكرهم ذهب هباء لا أثر له، وما قدره الله من عذابه لهم سيتحقق.

ومن قوة عنادهم وتضليلهم أنهم زعموا، عندما يتلو عليهم الرسول آيات القرآن، فقالوا: سمعنا ما قلته، ونقدر أن نقول مثل ما تتلوه. فما زدت عن كونك تقص علينا قصص الأمم الماضية. بل واصلوا إظهار صلفهم: أن دعوا الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء تسحقهم، أو ينزل عليهم عذابا أليما إن كان ما يقوله محمد حق. وإذ لم يتحقق ما دعوا به فتصوروا أن ذلك دليل على أن القرآن ليس من عند الله. وقد قدر الله أن لا يعذبهم لأنك يا محمد فيهم، وإكرام الله لك حماهم من نزول العذاب. وإن كان عنادهم وشركهم ومقاومتهم للحق تجعلهم عرضة للعذاب، زيادة على ذلك ظلمهم الشنيع الذي سول لهم أن يمنعوا المؤمنين من المسجد الحرام في حال أنهم ليس لهم أي حق فيه، وإنما الحق هو للمتقين. ولكن أكثر المشركين جهلة لا علم عندهم.

بيان المعنى العام :

30- وإذ يمكر بك...خير الماكرين.

سجل القرآن منة عظيمة على رسوله ﷺ، وعلى المؤمنين تبعا له. ذلك أن قريشا أهمها أمر النبي ﷺ، وضاقت بدعوته، فكانت تعقد اجتماعاتها للنظر في أفضل طريقة تخلصهم منه ومن دعوته، التي أخذت في الانتشار، خاصة وأن من دخل في دينه لا يرتد عنه. فمن آرائهم الخبيثة التي تدارسوها في دار الندوة والتي سجلها العليم الذي لا تخفى عليه خافية قرآنا يتلى : رأي أبي البختري الذي اقترح: أوثقوه بالحبال وسدوا عليه جميع المنافذ، ولا تتركوا له إلا كوة صغيرة تلقون إليه منها طعامه وشرابه (**الحبس الانفرادي**). ورأي أبي جهل : انتدبوا من كل بطن من

بطون قريش فتى قويا، يضربونه ضربة رجل واحد فيتفـرق دمـه فـي جميـع البطـون، ويرضى قومه بنو هاشم بالدية. ورأي هشام بـن عمـرو أن يحسـل علـى بعيـر ويـتم إخراجه قسرا من مكة. كان هـذا تـدبيرهم للإضـرار برسـول الله ﷺ. ويصـحب هـذا المكر إرادة الله الخفية عنهم، إرادته أن ينصر رسـوله ويشـتت آراءهـم فـلا يسـتقرون على قرار، وينجي رسوله إنجـاء يمكنـه مـن نشـر الإسـلام نشـرا يستأصـل الشـرك ويخضع الكافرين. ولا مقارنة بين مكر الله ومكـرهم. فقـد خـذلهم الله وضـاع مكـرهم، وما رتبه الله العظيم القهار لهم أظهره، ونفذ فيهم.

31- وإذا تتلى عليهم آياتنا...إلا أساطير الأولين.

ينتقل القرآن لتسجيل شغب قريش ومحاولاتهم تضليل النـاس عـن الحـق، وتـوهين أمـر القرآن بادعائهم، تبعا لأحد بني عبد الدار الذي كان كثيـر الأسـفار وقـد سـمع القصـص من الفرس والروم ومن نصارى الحيـرة، وروج أن القـرآن لـيس إلا قصصـا انتشـرت في الناس وهو يعلمها، وأنه يسـتطيع أن يـأتي بمثـل مـا أتـى بـه محمـد ﷺ .وأيـده المشركون في دعواه.

لقد تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله وعجزوا، ولـم يقـدموا شـيئا، فيكـون قـولهم هذا مردودا عليهم، فمـا مـنعهم أن يـردوا التحـدي؟ إن ادعـاءهم أن القـرآن قصـص الماضين هو تحريـف وكـذب، فـإن القصـص القرآنـي مـا كـان تلهيـة ولا تسـجيلا للأحداث ولا تاريخا يسرد سردا، ولكنه لفـتٌ للأنظـار لسـنن الله فـي الكـون، وإثـارة للعبر، وطريقة من طرقه في تعميق العقيدة، ودعوة النـاس إلـى الخيـر، وتصـحيح لمـا راج في خيالات الناس من أباطيل. فمنهج القـرآن فـي قصصـه يختلـف اختلافـا كليـا عن طريقة القصاصين الذين لا يهمهم إلا شـد انتبـاه السـامعين إلـى مـا يَرْوُونَـهُ مـن تخيلات لا أساس من الحق لكثير منها.

32-33، وإذ قالوا اللهم...وهم يستغفرون.

ثم سجل القرآن نوعا آخر مـن عنـادهم وأوهـامهم ومغالطـاتهم، ذلـك أنهـم أرادوا أن ينفوا كون القرآن من عند الله بطريقة سخيفة إذ قـالوا: يـا الله إن كـان هـذا القـرآن قـد أنزلته حقا وهو كلامك كما يدعي ذلك محمد، فـأمطر علينـا حجـارة واقـذفنا بهـا مـن السماء قذفا لا نستطيع له ردا، أو سلط علينا عـذابا شـديدا مؤلمـا. ومـن غبـائهم ظـنهم أن الله يتصرف حسبما يرغبون، فإن دعوا بـأن يمطـر علـيهم حجـارة أمطـرهم بهـا، وإن دعوا بالعذاب عجله لهم. إنهـم لا يـدركون، لغلـظ حواسـهم وفسـاد تصـورهم، أن الله يتصرف في الكون تصرفا تابعا لما سبق فـي علمـه حسـب حكمتـه. ولـذلك تـولى

الرد عليهم بإظهار غفلتهم عما يمنع تسليط العقوبة عليهم أو تعجيلها. وذكرت الآية أمرين :

1) أن الله لم يقدر تسليط العذاب عليهم أو تعجيله، لأجل ما خص به النبي ﷺ من التكريم والتقدير، فلا يسلط العذاب على قوم يحل بين أظهرهم حبيبه ورسوله المصطفى. وقد كان ذلك جريا على سنة من سنن الله في إنزال العذاب على الأمم التي كذبت رسلها، إذ لم يتسلط عليهم العذاب إلا بعد إخراج رسوله من بينهم. ولننتبه إلى نسج الآية الذي يشير إلى مزية لسيدنا محمد ﷺ، إذ توجه نسج الآية بالخطاب المستحضر له المقرب له، وهو القريب من ربه دائما **((وأنت فيهم))** ولم يقل والرسول فيهم.

2) أن الله حماهم من إنزال عذابه لكونهم يستغفرون. وفهم الآية مشكل؛ حاول المفسرون محاولات عديدة بعضها أرشق من بعض، ولكن لم يبلغ أي تخريج في نظري مبلغ الوضوح الكامل. فالإشكال أن الله نسب لهم الاستغفار، والاستغفار : طلب المرء من الله أن يغفر له ذنبه بناء على أنه موقوف بين يديه يوم القيامة ؛ ومشركو مكة لا يؤمنون بالبعث، وبانتفاء الإيمان بالبعث ينتفي الاستغفار من أصله فضلا عن كونه مقبولا يرفع عنهم العذاب.

وأولى ما وجه به الإشكال أن الضمير (وهم) بعض المقيمين في مكة من المؤمنين الذين كانوا يستغفرون الله، فإكراما لهم لم ينزل الله العذاب الذي يستأصل. ويفهم الضمير من السياق، لأن الاستغفار لا يكون إلا من المؤمنين، فعاد الضمير على المؤمنين الذين لا يتوقع الاستغفار إلا منهم. ووجّه بعضهم معاد الضمير على ما سيتناسل منهم من المؤمنين المستغفرين، وفيه بعد. ولا أطيل بذكر كل التوجيهات.

34- وما لهم ألا يعذبهم...أكثرهم لا يعلمون.

ثم عقب ما من أجله لم يسرع العذاب إليهم، عقّبه بأن الله لعظيم رحمته لم يستأصلهم، مع أن ما فعلوه يكونون به أحرياء أن ينزل عليهم عذابه. أخرج هذا المعنى على أسلوب الاستفهام الإنكاري: أي شيء ثبت لهم يتبعه نفي العذاب عنهم، أي لاشيء يحصنهم من العذاب. ثم شنع عليهم بالتشهير بسوء أعمالهم وظلمهم، التي من أقبحها، أن قريشا كانت تمنع من الطواف بالبيت وعبادة الله حوله من تريد منعه، مع أنه البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام ما بناه إلا ليكون خالصا لعبادة الله وحده.

إن توهمهم أن لهم حقا في تحديد مواصفات من يدخل المسجد الحرام ومن لا يدخله، هو وهْمٌ ظالم، فسكناهم حوله لا توجب لهم هذا الامتياز وإنما هو تعدٍّ بالظلم

على المؤمنين ؛ إن الذين لهم الحـق فـي أن يكونـوا ولاة للمسـجد الحـرام والقـائمين عليه ومنع من يستحق أن يمنع، هم الـذين تشـبعت أرواحهـم بتقـوى الله فـلا يظلمـون ولا يتعدون على الحقوق، ولا يستولون بالباطل على مـا لا حـق لهـم فيـه، وفـي ذلـك تعريض بالمشركين الذين لم تحل التقوى قلوبهم. وزيـادة علـى ذلـك فـإن أكثـر الـذين يزعمون أن لهم ولاية على المسجد الحرام هم جهلة، ليس لهـم شـيء مـن العلـم.، إنمـا خص الحكم بالأكثرية لأن بعـض المقيمـين فـي مكـة كـانوا يعلمـون حرمـة البيـت وصلتها بإبراهيم عليه السلام.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

المكاء : الصفير.

التصدية : التصفيق.

سبيل الله : الإسلام.

الحسرة: الندامة الشديدة.

الخبيث : الفاسد الرديء.

يركمه : يكثفه فيجعل بعضه فوق بعض.

المولى : المتولي أمر غيره يدفع عنه الأذى وينصره.

بيان المعنى الإجمالي :

كان مشركو مكة يشوشون على من يريـد الصـلاة بالمسـجد الحـرام، وذلـك بالصـفير والتصفيق، وهددهم القرآن بأن جزاءهم العذاب مع إظهار الشماتة بهم.
ومن مكر الكافرين بالإسلام أنهم كانوا يتوسعون في إنفـاق الأمـوال لتأليـب أكثـر عـدد ممكن على مقاومته ومنع الناس من الدخول فيه. ثـم أخبـر الله وهـو العلـيم الخبيـر أن مساعيهم تلك لا تحقق لهم غايتهم؛ إنهم سينفقون أمـوالهم ثـم يجـدون الخيبـة، فيـتملكهم الأسف على ما أنفقوا، ويغلبون في ساحة القتال. وفـوق ذلـك، النهايـة التـي تنتظـرهم: أنهم سيحشرون إلى جهنم، فيقتـرن بحشـرهم تمـايز الفـريقين، فالـذين فسـدوا وخبثـوا يلقى بعضهم فوق بعض في جهنم، وكفـى بهـذا المصـير خسـرانا وضـياعا. وواضـح أن جزاء الطيبين منازل التكريم والرضوان.
ثم أمر الله رسوله والمؤمنين أن يواصـلوا قتـال الكـافرين لخضـد شـوكتهم، فيعجـزوا بالتالي عن فتنة المؤمنين في دينهم، فيكـون الـدين عقيـدة وعبـادة وسـلوكا لله وحـده. ولم نؤمر بالتنقيب عن قلـوبهم، فـالله يتـولى سـرائرهم إن كـانوا صـادقين أو كـاذبين. وثقوا في عون الله لكم، فإن الكافرين إن تمادوا علـى حـربكم فـإنكم منصـورون علـيهم بعون الله الذي يتولاكم، وهنيئا لمن تـولاه الله فـلا ولايـة أفضـل وأكمـل مـن ولايتـه، ولا نصر أعز من نصره

بيان المعنى العام :

35- وما كان صلاتهم...بما كنتم تكفرون.

شنع القرآن على مشركي مكة بتكذيبهم في قولهم : إنهـم أوليـاء المسـجد الحـرام، ذلـك أنهم كانوا إذا رأوا النبي ﷺ وصحابته يصـلون حـول البيـت شـغبوا علـيهم بالصـفير والتصفيق ليلهوهم، فسـمى شـغبهم صـلاة. فـدعواهم أنهـم أوليـاء المسـجد الحـرام يتناقض مع فعلهم وعملهم على التخليط على من يريـد أن يعبـد ربـه. وبـذلك عرضـوا نفسهم للعقاب الأليم يوم القيامـة، مـع إظهـار الشـماتة بهـم وهـم يعـذبون بسـماعهم صوتا مفاده: ذوقوا العذاب جزاء استمراركم على الكفر.

36-37، إن الذين كفروا ينفقون...هم الخاسرون.

ثم فصل القرآن لونا مـن عمـل المشـركين علـى مقاومـة الإسـلام. كـان المشـركون يبذلون الأموال للكيد للإسـلام بالإنفـاق علـى الجيـوش بالعـدد ومـنحهم منحـا ماليـة، وترفيههم عند الحرب بتقديم اللحوم والخمـور والقيـان وآلات اللهـو. يفعلـون كـل ذلـك تصورا منهم أنهم بذلك يغلبون محمدا وجماعته. وفرق بـين مـن يحـارب للترفـه بأكـل

اللحم واللهو، أو للجوائز المالية، وبين من يحارب لأجل حرية البشر في معتقداتهم، وتمكين الحق من الانتشار وكسر القيود المضروبة حوله.
هم يقصدون منع الناس من الدخول في الإسلام. ويؤكد الله سبحانه أن ما ينفقونه لا يحقق من مرادهم قليلا ولا كثيرا، سيشعرون بالحسرة لخيبة آمالهم وعدم غناء ما أنفقوه، وفوق هذا سينهزمون أمام المد الإسلامي وقوته المنطلقة الفاتحة للأرواح والعقول. فيجمعون بين الهزيمة والتحسر على ضياع ما أنفقوه. والعاقبة معلومة أن الكافرين سيُجمعون، لا حول لهم ولا قوة يوم القيامة، فيساقون إلى جهنم. فيترتب على ذلك تميز كل فريق، يجمع الله الكافرين، وعبر عنهم بالخبثاء لكون الخسة وصفا غالبا عليهم، باعتبار أن الكفر يلتصق به الفساد والخساسة والقذارة والحطة في القيم والأخلاق. ويجمع الله المؤمنين تغشاهم أنوار الكرامة، وعبر عنهم بالطيب لكون الإيمان يلزمه الترفع عن كل مادي مستقذر وعن الحطة في الأخلاق وعما يُؤلَفُ منها، فتثبت في النفس ويقتنع بها الإنسان. وجعل القرآن جمع الكافرين شبيها بما لا قيمة له، يطرح بعضه فوق بعض، فيطرحون كما يطرح الزبل في جهنم. إنهم بما يسلط عليهم من عذاب، ومعاملتهم بدفعهم إلى جهنم معاملة الأشياء التي لا قيمة لها تتراكم، ينسحب عليهم وصف الخسران البين.

38- قل للذين كفروا...سنت الأولين.

بعد الوعيد الشديد والتهديد بالمهانة، يتبع القرآن ذلك بفتح الأمل في التدارك، وإمكان النجاة بل الفوز. أمر الرسول أن يقول لهم مقالة واضحة محددة مرغبة : أن الله واسع المغفرة رحيم بعباده، فإنهم إن يقلعوا عن محاربة المسلمين، وعن العناد والتمسك بفاسد عقائدهم، فإن الله غفور رحيم يمحو عنهم ما سبق أن التصق بهم من آثام، وليحذروا من تبييت الخداع للمسلمين، وتأليب الكفار ضد الإسلام، فإن مآلهم سيكون نفس المآل الذي جرت به سنة الله في الذين يقفون حربا على الهدى: أن الله يخذلهم ويغلبون ويأسفون على ما بذلوه من مال وما أعدوه من مخططات خبيثة تنقلب عليهم وبالا. فقوله تعالى: وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) معناه ؛ وإن يعودوا انتقمنا منهم، على الطريقة والسنة التي تكررت في الوجود، في إهلاك المعاندين المناوئين للحق.

39-40، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة...ونعم النصير.

أمر جازم لرسول الله وللمؤمنين بعده أن يقاتلوا الكافرين الذين يتآمرون على المسلمين، ويعملون على الحيلولة بينهم وبين ما هم مطمئنون إليه من التوحيد وباقي

أركان العقيدة وطريقة التعامل والسلوك. الدين كلــه شــيء واحــد لا فــرق بــين العقيــدة وبين الأخلاق والبنـــاء الاجتمــاعي وكــل مــا جــاء عــن الله. وأن لا يســالموهم إلا إذا ارتدع الكافرون وأقلعوا عن فتنة المسلمين. كونــوا أقويــاء معتــزين بمــا آتــاكم الله مــن الهداية وصلاح في الرأي والعقيدة ؛ فإن انتهــوا فرضــخوا وأســلموا فــلا تفتشــوا عــن قلوبهم، فالله لا يخفى عليه شــيء مــن أعمــالهم القلبيــة أو الســلوكية. وإن تولــوا ولــم يستقيموا، فعوّلوا على سندكم الذي لا يهملكم أبــدا بعــد أن تــولاكم بهدايـــته ورعايتــه، الله مولاكم الممدوح بعزة من تولاه، والممدوح بأن من نصره لا يغلبه أحد.

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

أنزلنا : تعلقت قدرتنا بحصولكم عليه بأمر هو فوق العادة.

يوم الفرقان : اليوم الذي فرق الله بين الحق فاعزه، والباطل فأذله يوم السابع عشر من رمضان.

العدوة الدنيا : جانب الوادي القريب من المدينة.

الركب : قافلة التجارة بقيادة أبي سفيان.

أسفل منكم : تسير بساحل البحر المكان الذي هو أسفل من موقع المسلمين وكذلك المشركين.

ليهلك : الموت، والمقصود به الذلة وذهاب الشوكة.

ويحيى: الحياة ضد الموت، والمقصود منها النصر والعزة.

لفشلتم : لجبنتم.

تنازعتم : اختلفتم، ولكن وحد كلمتكم.

في الأمر : الخطة التي ينبغي أن تتبع.

بيان المعنى الإجمالي :

انتبهوا إلى هذا الحكم العادل الذي حكم به الله في الغنائم التي يحصل عليها المسلمون من أموال أعدائهم. فكل الغنائم قلّت أو كثرت تقسم على خمسة. الأخماس الأربعة توزع على المجاهدين بالعدل. والخمس الباقي لله ولرسوله، يتصرف فيه رسول الله ﷺ، يصرف منه في نفقته ولمن يعوله، وكذلك الخلفاء من بعده، وفي مصالح المسلمين، وقرابة رسول الله ﷺ الذين لا يأخذون الصدقات ولا من زكاة أموال الناس، والأيتام الذين لم يترك لهم مورّثهم سعة من المال، والمساكين والمسافرين المنقطعين عن مواطنهم. إن هذا التوزيع العادل هو ما حكم به الله، والالتزام به يوجبه الإيمان الذي غرس في قلوبكم، وما تقتضيه الآيات البينات التي شاهدتموها وترتب عليها نصركم في اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق فأعلاه وبين الباطل فأذله. اليوم الذي التقى فيه جمع المسلمين وجمع المشركين ببدر. والله القدير أيّدكم ونصركم.

كانت ثلاثة مراكز متوازية :المسلمون بجانب الوادي من جهة المدينة المنورة، والمشركون في الجانب الآخر، وقافلة التجارة تسير مع الساحل. التقيتم في الزمن المحدد والمكان المحدد دون أن تضربوا لهذا اللقاء موعدا، جرى كل ذلك برعاية من الله ولو أعددتم لذلك اللقاء لما تم على النحو الذي تم عليه، التقيتم ليتحقق ما قدره الله من إذلال المشركين، وإعزاز المؤمنين ، مع تبين سبب النصر والهزيمة. وإن الله سميع عليم.

يوم الفرقان هذا تم بعد أن رأيت في المنام أن المشركين قليل، وأعلمت صحابتك فاستبشروا ووثقوا من هزيمة أعدائهم، لمّا فهموا من الرؤيا الصادقة قلة عدد أعدائهم، فأخطأوا في التأويل، إذ تأويل الرؤيا ضعفهم واختلال أمرهم المهيء لهزيمتهم، وهذه الرؤيا لطف عظيم من الله، إذْ لو أراك الله إياهم على حقيقة عددهم لحل الخوف وتبعه الاختلاف من الإقدام على المعركة أو البحث عن مخرج منها. ولكن الله قدر لكم السلامة من نقيصتيّ الخوف والاختلاف، إن الله يعلم ما تحويه الصدور ومناشئه. ثم أضاف الله لكم تأييدا آخر أن الصحابة قدروا جيش المشركين بعد أن رأوا رأي العين جمعهم، قدروه قليلا فتضاعف عزمهم على قهرهم. ورأى

المشركون جيش المسلمين فقدروه دون العدد الذي هو عليــه، فاســتخفوا بـــه ولــم يهيئــوا أنفسهم لمعركة شرسة، فكان هذا التخيل من الجانبين فيــه مــن الألطــاف التــي ســاعدت على تحقيق ما أراده الله من النصر.

بيان المعنى العام:

41-42، واعلموا أن ما غنمتم...لسميع عليم.

بدايةً تحرك المؤمنين ليستوعبوا ما يتلى علــيهم فــي هــذه المقطــع ومــا يتضــمنه مــن أحكام وتنظيم ليأخذوه مأخذ الجد ويلتزموا به. وهذه طريقــة قرآنيــة بهــا ينبــه المــؤمنين تنبيها موقظا، فافتتح بقوله: (اعلموا)

إن القضية التي عني بها القرآن في هذه الآية وفيما افتتحت به سورة الأنفال وما سيأتي في سورة المجادلة، هو بيان أحكام أموال الكفار التي يتحصل عليها المسلمون.

قسمت هذه الأموال إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول: حظ المجاهدين من الأموال التي ظفروا بهــا مــن أعــدائهم بعــد المعــارك، والانتصارات التي حققوها.

القسم الثاني: ما يعطى للمجاهدين بعد أن يستوفوا حقوقهم.

القسم الثالث: الأموال التي دخلت في ملــك الدولــة الإســلامية بــدون حــرب ولا جهــاد وهو الفيء.

أما القسم الأول: وهو ما تحصل عليه الجــيش الإســلامي بعــد انتصــاره علــى العــدو، وهو الغنيمة التي تناولت هــذه الآيــة تفصــيل أحكامهــا. فقســمتها إلــى خمســة أقســام. الأخماس الأربعة توزع على المشاركين في القتــال علــى طريقــة تفضــل بــين الفــارس والراجل. وشدد القرآن على منع أي يــد أن تتــرخص بالاســتيلاء علــى أي جــزء منــه ولو كان قليلا، وهو الغلول، الذي توعد عليــه، ونفــاه نفيــا قاطعــا عــن الرسـل. وقــد تكلمنا على ما يتعلق بذلك، في تفسير قولــه تعــالى : **ومــا كــان للنبــي أن يغــل ومــن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)**[1]

أما القسم الثاني: الخمس الباقي، فقد وزعته الآيــة بــين مســتحقيه: لله -لرســوله- لــذوي القربى -لليتامى -للمساكين -لابن السبيل -

أ)ما كان لله: كل ما أضيف لله إن لم يكن عبــادة فإنــه يصــرف فــي مصــالح المســلمين الذين فــوض لرســول الله ﷺ ثــم لخلفائــه التصــرف فيــه. وذلــك كتعبيــد الطــرق،

---

[1] سورة آل عمران161

والمصالح التي تيسّر علـى القـائمين بـالحج والعمـرة أداء مناسـكهم، ومعاهـد التعلـيم، والعناية ببيوت الله، ونظافة البيئة، وتشجيع من يـرى القـائم بـالأمر منفعـة للأمـة مـن تشجيعه، كالعلماء والمتميزين مـن المجاهـدين، وذوي الكفـاءة فـي الاسـتخبارات التـي تضيء لأولياء الأمور ما هو خاف عنهم......

ب) لرسوله: ويدخل في هذا المصرف مـا ذكرنـاه فـي المصـرف السـابق، ومنـه مـا ينفقه رسول الله ﷺ على من يعوله. ورأى بعض الفقهاء أنـه يسـتحقه مـن بعـده خلفـاء رسول الله، الذين محضوا نشاطهم في الحياة لتصـريف أمـور الدولـة وتـدبيرها. وهـم يستحقون رواتبهم من الخمس أو من بيت المال، لقيامهم على مصالح الأمة.

جـ) اليتامى والمساكين وابن السبيل[1]. هم ممـن يمكـن لـولي الأمـر أن يعطـيهم مـن الخمس باجتهاده وبشرط الحاجة وإن لم تصل إلى حد الفقـر. فالأيتـام الـذين تـرك لهـم آباؤهم وفْر غنى لا يأخذون شيئا من الخمس، والمسـاكين لـولي الأمـر أن يمكـنهم مـن مساعدات من الخمس. وابن السبيل كما تقدم بيانه فـي سـورة البقـرة آيـة 215- يمكـن أيضا أن يعطى من الخمس.

فإذا ربطنا بين ما أفادته هذه الآية في أحكام الخُمُس الـذي يتصـرف فيـه ولـي الأمـر، فربطناها بالآية الأولى : يسألونك عن الأنفال قـل الأنفـال لله والرسـول- فإنـه يتـرجح أن المقصود بالأنفال في الآية الأولى هو ما يعطيـه ولـي الأمـر للمجاهـد مـن المغـانم زائدا على حظه من المغنم رعاية لمصلحة تبينـت لـه. فالصـحابة الـذين طلبـوا مـن رسول الله ﷺ أن يمكنهم من شيء مـن المغـانم التـي اسـتولوا عليهـا مـن مشـركي مكة، يستقلون به قبل غيرهم، أرجعهم الله إلى عدلـه، وهـو أن تلكـم المغـانم أمرهـا لله ولرسوله. وبين في هذه الآية الطريقـة العادلـة فـي الاسـتحقاق. تقسـم الغنـائم علـى خمسة أنصباء ، توزع الأخماس الأربعـة علـى المجاهـدين لكـل نصـيبه تبعـا لكونـه فارسا أو راجـلا، والخمـس البـاقي يتصـرف فيـه رسـول الله، أو مـن يتـولى أمـر المسلمين بعده، وجوز له أن ينفّل منه مجاهدا لحسـن بلائـه ومـا نفـع بـه الأمـة مـن مغامرة وإقدام. فأزال ما علق بالنفوس إثر الاسـتيلاء علـى أول غنيمـة مـن المشـركين من حب الاستئثار بشيء منها، وبين لهـم أن حقهـم مضـمون، وأن مـا زاد عليـه هـو من السياسة التي يتصرف فيها قائد الأمة حسب المصلحة.

[1] سورة البقرة آية215

إن الطريقة التي اتبعت في بيان أحكام الغنائم بلغت من الحكمة حدا كبيرا. ذلك أنها نفذت إلى دخائل النفوس، وعملت على تحصين المؤمنين من وسوسة الشيطان الذي يحاول التأثير على الإنسان من ناحية عواطفه، فيضخم له حرمانه مما يحبه ليقوده بعد ذلك إلى تبرير مواقف وقرارات بعيدة عن الحكمة والتقوى. وشأن الإنسان مهما أوتي من نفاذ العقل وحدة البصيرة أن ينحرف عند ما يحكم لنفسه.

فلذلك شدد القرآن في الرضا بما ضبطه من أحكام، وربطها :

أولا : بالإيمان جاعلا قبول أحكامه المعيار الذي يقاس به صلاح روح الإنسان، هل استقر فيها الإيمان، أو تخلخل: إن كنتم آمنتم بالله، هذا الإيمان الذي يقتضي منكم أن لا تتبعوا ما لم تنالوه من المغانم وتسلموا لما حكم به رسول الله ﷺ بوحي من ربه : أن الخمس يتصرف فيه ﷺ بما يحقق مصالح الأمة فلا تتعلق أنفسكم بشيء منه.

ثم يعطف القرآن على الإيمان المستقر في العقول والقلوب، ظاهرة أخرى ضمّت إلى العلم اليقيني، علما حصل بالمشاهدة فكان عين اليقين. هو ما شاهدوه عيانا في وقعة بدر من ظواهر التأييد والعون والرعاية لكم بقيادة هاديكم محمد ﷺ الذي اختصه القرآن في هذه الآية بكونه «عبدنا» المفضل على بقية العباد. ليستحضروا إنزال المطر الذي كان خيرا على المسلمين، شرا على أعدائهم، وما صرفكم به عن قافلة التجارة التي كنتم تودون نيل ما تحمله، إلى مواجهة الكفر المتمرد الطاغي المزهو بقوته، فكسرتم شوكته وقتلتم صناديده وغنمتم أموالهم. ولو قدّرتم الأمر بالمقاييس المادية لكانت النتائج عكس ما حصل. ولذا حق أن يطلق على هذا اليوم يوم بدر اليوم السابع عشر من رمضان ، (**يوم الفرقان**) اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق على ضعف أصحابه ماديا، وبين الباطل على قوة وعنف أصحابه وإدلالهم بعددهم وعدتهم وقوة أبدانهم «فكان يوما ينادي بأن النصر والعزة للحق، وأن الهزيمة والخذلان للباطل. وقدرة الله لا تغلب ويعجز البشر مهما جمعوا أن يعكسوا إرادته سبحانه. وفي هذا دفع كبير لمن هو على حق ليواصل الكفاح، ذلك أن الباطل له صولات تتكسر على صلابة الحق وتنقلب هباء تذروه الرياح.

يوم الفرقان السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة يوم يبقى يوما تاريخيا مذكورا على مر الدهور، وإذا كان اليوم يبقى متميزا براقا في ذاكرة المؤمنين الذين حضروا المعركة، وكذلك بالنسبة لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، فإن موقع المعركة ومكانها، عني بذلك التنزيل «فضبطها قرآنا يتلى؛ وحدد المواقع كأنها مشاهدة : جيش المسلمين قادم من المدينة وصل إلى بدر فنزل على مائها

وغوّر المياه التي خلفها ليحـــرم المشـــركين مـــن المـــاء. وفـــي الجانـــب المنحـــدر علـــى ساحل البحر تمر القافلة التي كان هـــمُّ المســـلمين أن يقطعـــوا عليهـــا الطريـــق ويســـتولوا على ما تحمله. فهي ثلاثة مراكز في خـــط متـــواز : جـــيش المســـلمين ببـــدر ممـــا يلـــي المدينة، وأبو سفيان يستحث السير متخفيـــا ليفلـــت مـــن قبضـــة المســـلمين علـــى ســـاحل البحر، وأبو جهل والمقاتلون المشركون في الناحية المقابلـــة علـــى أتـــم اســـتعداد ليلقنـــوا المسلمين درسا لا ينسى، حتى يأمنوا بعدها علـــى أمـــوالهم التـــي تـــذرع الصـــحراء فـــي رحلتي التجارة (**رحلة الشتاء والصيف**) والتي كانـــت قبـــلُ آمنـــة تبعـــا لمـــا وقـــر فـــي نفوس العرب من تكريم قريش وعدم التعرض لأموالها.

ويدخل القرآن في المشهد ما يؤكد هذا اللقاء الذي تـــم تنفيـــذه بتقـــدير إلهـــي. إنـــه لأمـــر عجيب أن يتم هذا اللقاء، في المكان الـــذي أراده الله، فـــي الوقـــت المحـــدد بـــدون إعـــداد مسبق بين الفريقين. إنه لإعلان هذا التقـــدير تصـــرح الآيـــة: إنـــه لـــو اتفـــق المشـــركون والمسلمون على اللقاء في ذلك المكان وذلـــك الوقـــت لمـــا تحقـــق لقـــاؤهم بـــتلكم الدقـــة ، ولحصل بعـــض المعوقـــات التـــي مـــن شـــأنها أن تحصـــل حســـب مجريـــات العـــادة، واختلفوا في الثبات على الموعد المقدر المتفق عليه بينهم. ولكـــن الأمـــر تـــم علـــى ذلكـــم النحو، ليتحقق قدرٌ سابق في الأزل، هو أمـــر لا يمكـــن أن يتخلـــف، فتمـــت كـــل مرحلـــة من مراحله بعناية من بيده الأمر، وأنجز ما كتبه في سابق تقديره.

كان تقديره سبحانه لغاية : هي قهر المشركين وإذلالهم وهزمهم على قوتهم وكسر خيلائهم، ونصر المسلمين وإعزازهم على ما هم عليه من قلة وضعف، وهم على ما هم عليه من حسن التوكل وعدم الزهو.

وتأكدوا أن الله لا تخفى عليه خافية ممـــا تتكلمـــون بـــه، لا يغيـــب عـــن ســـمعه صـــوت، ويعلم مقاصدكم وسر نواياكم، فكـــان ســـبحانه بـــذلك متصـــفا بالســـمع الكامـــل الـــذي لا يقاس به سمع، فإن الأسماع وإن استطاعت، فـــي أتـــم أحوالهـــا، أن تســـجل كـــل موجـــة صوتية، إلا أنها عاجزة عن التمييز بين الصادق والكـــاذب منهـــا، ولـــذلك قـــرن الســـميع بالعليم.

43-44: إذ يريكهم الله في منامك... وإلى الله ترجع الأمور.

يواصل القرآن عنايته وتدقيقه لما أيد به نبيه ﷺ.فســـجل الرؤيـــا التـــي أظهرهـــا لـــه فـــي منامه : أنه يلتقي بجيش المشركين وهـــم قلـــة، الأمـــر الـــذي طمأنـــه وطمـــأن المـــؤمنين معه، لمّا قص عليهم رؤياه، ورؤيـــا الأنبيـــاء حـــق، أن المشـــركين لا يســـتطيعون لقلـــتهم أن يقفوا أمامهم في المعركة وأنهم سيسحقونهم لقلـــتهم. فـــزال مـــا كـــان يخـــالط نفوســـهم

من تهيب لنزال المشركين. ذلك أنهم فهموا من القلة أنها قلة عددية، فتحول خوفهم إلى تصميم وإرادة لخوض المعركة، واقتحموها بنفوس موقنة بالنصر، إن لم أقل مستسهلة، كأن الغلبة أمر محقق. وإظهارا للعناية صرح بما كان يحصل لو أراه عددهم الحقيقي الذي يفوق عدد جيش المسلمين ثلاث مرات، زيادة على ما هو مستقر في أذهانهم من جودة سلاح المشركين ومضائه تبعا لثرائهم، مع مرانهم على القتال وشدة بأسهم. إنهم لو علموا عددهم الحقيقي مع ما ذكرنا لتسرب الخوف إلى قلوبهم، وهو المقصود بالفشل، ولحصل في صفوف جيش المسلمين اختلاف هل يقدمون على القتال أو يرون رأيا آخر يخرجهم من الورطة. فبهذه الرؤيا قويت عزائمهم وتوحدت كلمتهم. والرؤيا النبوية حق، ولكن تأويل ما رآه في المكاشفة، على أنه الكثرة والقلة العددية، هو اللطف الذي صاحب هذه الرؤيا فحول الرؤيا من موجب للخوف والتردد، إلى موجب لتحريك الإقدام والتصميم. واستدرك تأكيدا لإظهار العناية وإبرازا للمنة وما انبنت عليه، بأن الله سلمكم من الخواطر والأوهام وثبتكم، والله عليم بما هو كامن في الصدور من النوايا والخواطر، وبتأثيرها على القرارات وعلى القدرات القتالية.

ويواصل القرآن ما ثبّت الله به المؤمنين في بدر. ذلك أنه بعد ما أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه رآهم في منامه عددا قليلا، وهو أمر سابق على بدء القتال، كان التثبيت المتواصل ما خيله في أعين الرائين من الفريقين. قدّرَ المسلمون عدد أعدائهم، وهم ينظرون إليهم، قدروا أنهم فعلا قليلو العدد، فهاجت نفوسهم للانقضاض عليهم، إذ قد تهيأت الفرصة للتشفي منهم، بسبب ما سلطوه عليهم قبل الهجرة من تنكيل وتعذيب وصل بهم إلى إخراجهم من موطنهم مرتين، إلى الحبشة ثم إلى المدينة. ويشد في عضدهم إيمانهم بأنهم على حق ينصرون الإسلام. وفي الجهة المقابلة خيل للمشركين أن عدد المسلمين أقل بكثير من الواقع، فاستخفوا بهم وظنوا أنهم فئة قليلة لا تستحق حزم الأمر ولا كمال الاستعداد، وهو رشح غرورهم. فكان تأثير هذا الخطأ في تقدير العدد من الفريقين قد رتب الله عنه نتائج متعاكسة، كان سببا في نصر المسلمين وانهزام عدوهم هزيمة منكرة.

وكون البصر يُخْدَعُ فترى العين ما يرتسم به في الذهن قلة، هي على خلاف الحقيقة، أمر ممكن إذا تصرف مالك العيون (الله ربها) فيها تصرفا يحقق به ما أراده. فما قضاه واقع ولا بد، وكل الأمور تعود إليه.

ومن لطائف الآية أن الله أسند الرؤيا المنامية للنبي ﷺ وهي حق، [إذ يريكهم الله في منامك] باعتبار أن المراد من القلة الضعف عن المقاومة، وأسند الرؤية البصرية التي هي تخييل للناظرين من المسلمين والمشركين لعدد الفريق المقابل [إذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم] وهي تخييل لا واقع.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

فئة: جماعة.

الثبات: المواصلة وعدم التردد.

تفلحون :تظفرون بما قصدتم إليه.

الريح : القوة والنصر.

واصبروا: تحملوا ما يشق عليكم.

البطر : غمط النعمة والاشتغال بالمرح عن شكرها.

رئاء : رياء ومباهاة.

جار لكم : أنتم في ذمتي وحمايتي.

نكص على عقبيه : رجع من حيث أتى.

مرض القلوب : ضعف العقيدة.

بيان المعنى الإجمالي :

من عناية الله بالمؤمنين هـذه النصـيحة المسـاعدة علـى النصـر فـي الحـروب، وقـد تضمنت : 1) الأمر بالثبات وعدم التردد عند لقـاء العـدو 2) ليصـحب ألسـنتكم ذكـر الله 3) لتكن طاعة الله ورسـوله حليفـة قلـوبكم وأعمـالكم 4) لـتكن الرابطـة الجامعـة بينكم أكيدة لا يدخلها الاختلاف والنـزاع؛ فالتصـميم علـى الاخـتلاف يـوهنكم ويخـذلكم ويذهب قوتكم 5) تحلوا بالصبر على مـا يلاقـيكم مـن الشـدائد ولا تجزعـوا، فـإن الله يؤيد الصابرين 6) إيـاكم أن تكونـوا كالمشـركين الـذين خرجـوا مزهـوين بقـوتهم لا يذكرون نعمة الله عليهم، تهمهم المظـاهر ولفـت الأنظـار ولا يحملهـم علـى القتـال إلا منع الناس من اتّباع طريق الهـدى والحـق، والله لا يخفـى عليـه قليـل ولا كثيـر مـن نياتهم وأعمالهم فسينتقم منهم بالهزيمة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

ثم ذكرهم بنعمة من نعمـه علـى رسـوله وعلـى المـؤمنين، ذلـك أن سـراقة الكنـاني وسوس له الشيطان أن ينضم بجيش من كنانة للمشـركين، فجـرأهم ذلـك علـى المضـي للقتال، ثم إن الله ألقى في قلب سراقة الرعب لمّا أحيا فـي نفسـه صـورته يـوم ابتلعـت الأرض قوائم فرسه وأيقن بـالهلاك، ثـم نجـا بفضـل دعـاء الرسـول، وتـولى تثبـيط قريش عن ملاحقة الرسول في الطريق التي سـلكها. كـان تـذكره للرعـب الـذي ألقـي في قلبه حاملا له على انخزاله من جـيش المشـركين وتخـويفهم بـأن الله شـديد عقابـه. فكان ذلك مقدمة وسببا من أسباب النصر في بدر.

ثقوا في عناية الله بكم، ولا يهمكم ما يقولـه المنـافقون والـذين لـم يثبـت الإيمـان فـي قلوبهم وما يعرضون به لتوهينكم: أن هـذا الـدين غـركم وسيصـل بكـم إلـى الهـلاك. إنكم قد توكلتم على الله، ومن يحسن التوكـل عليـه لا يهـزم، فـإن الله عزيـز لا يغلبـه شيء حكيم في أفعاله لا يخذلكم وأنتم حملة الحق.

بيان المعنى العام :

45-46، يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم...مع الصابرين.

من عناية الله بالمؤمنين دعوته لهم بتطبيـق مـا يقدمـه لهـم مـن نصـح، هـو قـانون النجاح عند لقاء العدو، وما يدعوهم إليـه هـو مـن مقتضـيات الإيمـان. وتتضـمن هـذا النصح الأسس التالية.

أولا : إذا جد الأمر واندلعت المعركة ولقيتم جمعـا مـن أعـدائكم وجهـا لوجـه، فلـتكن عزائمكم قوية ماضية لا يوهنها تردد ولا خـوف، وواصـلوا القتـال حتـى النصـر، فمـن

قوة العزيمة يستمد العقل ما يهديه لمواطن الضعف التي يجهز منها على العدو، ومن العزيمة تشتد السواعد والعضلات على النزال.

ثانيا: كونوا دوما ذاكرين لربكم، الذكر الذي يجعلكم تحسون إحساسا أوضح وأتم بصلتكم بالله الذي وعدكم النصر، فتشعرون بالسند المصاحب الذي لا يهملكم ولا يغفل عنكم. وهذا ما يعطي للمقاتل قوة وطمأنينة وطردا لأطياف الخوف في الشدة. وليكن هذا الذكر موصولا متتابعا لا منقطعا.

بذلك يرجى لكم النصر، وتحقيق ما ترغبون فيه من إعلاء كلمة الله، والاعتزاز بالغلبة وقهر العدو المارد.

ثالثا: طاعة الله ورسوله، فإذا استقر في القلوب الميل إلى طاعة الله فيما أمر به وهدى إليه، وأبانه من مسالك النجاة والقوة، وطاعة رسوله فيما بيّنه وشرحه مما أوحى الله له به، فإن الطاعة إذا سادت واستقرت تبعها العون والتأييد.

رابعا: لتكن كلمتكم واحدة، ومن طبع البشر أنهم مختلفون، وهذا الاختلاف قد يكون سببا يقوي المجتمع، وقد يكون سببا يهري الجماعة ويوهنها. إن الاختلاف الذي يفسح لكل فرد أن يقدم رأيه النقي من الهوى كما يقتضيه الأساس الثالث أعلاه، وأن يسمع رأي غيره، وأن تكون الشورى التي تنتهي بقبول رأي الأكثرية، والتنازل عن الرأي الشخصي لما رضيته الجماعة، هو اختلاف يبدي الجوانب التي قد يكون من اختفائها ما يؤثر سلبا في القرارات، وبالتالي يعطي الاختلاف قوة في النظر وسلامة في العاقبة. وأما الاختلاف الذي لا يذهب بسلبياته التشاور، فإنه يكون مولدا لتعصب كل لرأيه، وهو مشرع للتنازع ولابتعاد كل مخالف عن مخالفه، وبالتالي تتمزق الوحدة التي هي العصب الذي يجري فيه دماء القوة. يحذر القرآن من داء التنازع، سبيل الهزيمة ووهن القوة، وضياع الغلبة، وفقدان الأمل في النصر، وهو معنى ذهاب الريح.

خامسا: الصبر الإيجابي الذي يبعث في الصابرين حوافز التغلب على المعوقات، ومقاومة الصعاب، والمواصلة للكفاح. إن من شأن الحياة أن يبتلى فيها الصالحون كما يبتلى المجرمون، هذا الابتلاء هو امتحان يفوز فيه الصابرون الذين يرجون رحمة ربهم. إذ بناؤهم النفسي متين لا يتزعزع بالصدمات، اعتمادا منهم على أن الله معهم يحميهم ويشد أزرهم.

47 - ولا تكونوا كالذين...يعملون محيط.

سادسا : الوصية السادسة حذرهم من صورة شنيعة هي عكس ما هم عليه. هي صورة المشركين الذين هزموهم وانتصروا عليهم في بدر. صورة الذين يُدِلُّون بقوتهم ويستهينون بأعدائهم، لا يعترفون بنعمة الله. يسوقهم الهوى، ويتعلقون بالفخر والمباهاة ولفت الأنظار. إن الاستكبار والانحراف عن الجد إلى اللهو، وعن التواضع إلى الانتفاخ بالافتخار، هو إعلان عن قطع الصلة بالله، يتبعه قطعا منع الناس من الطريق المؤدي إلى طاعة الله والسعي لمرضاته. فمضمون هذه الوصية أن على المؤمنين أن يكونوا شاعرين بارتباطهم بربهم وأن ما جمعوه من قوة ومن تآخ ومن موجبات النصر هي من فضل الله.

وختمت الآية بتهديد المشركين الذين هم على الصورة التي وضحت ملامحها، هددوا بأن الله يرقب كل كبيرة وصغيرة مما انطوت عليه قلوبهم وما يصدر عنهم من سيء الأعمال، فهم في سياج محكم التطويق سيجازيهم الله عن كل ما صدر عنهم.

48-وإذ زين لهم الشيطان...شديد العقاب.

واذكر من عجيب صنع الله، ما حدث للمشركين عند تصميمهم الخروج إلى بدر. كان من إحكامهم لأمرهم أنهم تهيبوا أن تنقضّ عليهم قبيلة كنانة عندما يكونون في مواجهة المسلمين. وبينما هم على هذه الحال في تقليب الأمور، إذ جاءهم سراقة بن جعثم الكناني يقدم جيشا من قومه، وسوس إليه الشيطان أن يؤيد قريشا في حربها، وأقنعه بأنه سيظفر من هذه الحرب بالغنائم والنصر، فشد من عزيمة المشركين واطمأنوا إلى أن كنانة ستكون شريكا لهم في حرب المسلمين ولا تنقضّ عليهم، وأن المسلمين أضعف من أن ينتصروا أو يغلبوا..

سار معهم بجيشه فلما وصل إلى بدر، ورأى كل جيش عدوه المقابل له، رجع بجيشه، ولما أنكروا عليه توليه، أجابهم :أخالفكم في الرأي، إني أخاف أن تحل بي كارثة لا مرد لها من الله ، وعقاب الله شديد لا يقاوم.

وهذا الموقف من سراقة ذهب فيه المفسرون إلى تأويلات بعيدة مستندة إلى روايات غير موثقة، والذي أرجحه هو ما يأتي :

سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي صحابي أسلم عام الفتح. وله مع رسول الله وهو كافر موقفان تم فيهما التحول بألطاف إلهية عجيبة من الإضرار برسول الله إلى تأييده من حيث لا يعلم.

الموقف الأول: رسول الله وصاحبه أبو بكر في طريق هجرتهما إلى المدينة، لحق بهما سراقة. ولما رآهما صمم على تعريف قريش بمكانهما، وساخت أرجل فرسه

في الأرض، وأيقن بـالهلاك، فـأعطى لرسـول الله ﷺ عهـدا أن يعمّـي عليـه قريشـا، ويخبرهم بأنه كفاهم البحث في الطريق الذي رجع منه وأنـه لا أثـر لمحمـد فيـه، ودعـا له رسول الله ﷺ ووفّى سراقة بالعهد.

الموقف الثاني :في غزوة بدر، وقد أقبل يقود جيشـا لينصـر قريشـا وقـال لهـم: إنهـم في جواره فلا يخشون بأسا من كنانة، وسوس إليه الشـيطان ذلـك وحسـنه فـي نظـره، وصور له أنه نصر محقق، ليقضي الله أمرا كان مفعـولا. فيكـون مفـاد قولـه تعـالى : **وإذ زين لهم الشيطان...** تعبير عن الوسوسة التـي ألقاهـا الشـيطان فـي قلـب سـراقة. فكان قدومه حافزا لقريش على الخـروج وعصـيان أبـي سـفيان فـي نصـحه لقومـه بعدم الإقدام على حرب محمد، لما بعث إليهم بـأن القافلـة نجـت بكـل مـا تحملـه مـن أموال، بسلوكه بها الطريق المحاذيـة للبحـر، وأن لا فائـدة فـي الحـرب. فكـان قـدوم سراقة عليهم مشجعا لهم على المضي إلى بدر. ثم إنه لمـا بلـغ معهـم مـاء بـدر تـيقظ وذكر ما جرى لـه فـي طريـق الهجـرة؛ وتمثلـت لـه حالتـه وقـد انفتحـت الأرض لابتلاعه، ونجاته بدعاء الرسول له، فرجـع عـن الغـزو متقهقـرا إلـى الموضـع الـذي انطلق منه. وقال لهم: إن رأيي غيـر رأيكـم فـي حـرب محمـد، إنـي أخـاف الله، إن عقاب الله شديد فوق طاقة البشر.

إن ما جرى لسراقة كان في أوله شحذا لعزيمة قريش في الحرب، وانتهى إلى خذلان لهم، كما هو الأمر لما لحق سراقة بالنبي ﷺ في طريق هجرته حثثا ينكشف به الرسول وصاحبه، وانتهى إلى تحوله معينا ومساعدا دافعا لقريش عن اقتفاء أثره.

49-إذ يقول المنافقون...عزيز حكيم.

ثبت الله المؤمنين بما ذكرهم من منته التي تضافرت مـع بقيـة الألطـاف فكـان النصـر المبين في بدر، ومنهـا مـا لـم يطلعـوا عليـه إلا بإخبـار الله إيـاهم، كتـولي سـراقة وخذلانه لقريش قبيل بداية المعركة. وعطف علـى ذلـك لمـرا آخـر كـان يجـري فـي الخفاء في المجتمع المدني، من المنافقين ومن ضـعفاء الإيمـان ؛إن مـا كـانوا يتحـدثون به مما يطيش منه شيء إلـى أسـماع المـؤمنين، يقصـدون ممـا يهمسـون بـه تـوهين المؤمنين وتشكيكهم في الحق الذي تمكـن مـن قلـوبهم وأخلصـوا لـه إخلاصـا جعـل حياتهم وأرواحهم وتفكيرهم متعلقة به، يقـدمون فـي سـبيله كـل عزيـز. كـان همـس المنافقين والمتشككين أن هذه الجماعة التي حول محمد قـد غـرهم الإسـلام الـذي جـاء به، على أنهم تعلقوا بأوهام سيكشف لهم الواقع عـن خيبـة آمـالهم. ورد القـرآن علـيهم بما يمكن للطمأنينة في قلوب المؤمنين، وأنه ستكون لهـم الغلبـة ويتحقـق لهـم النصـر؛

ذلك أنهم توكلوا على ربهم. والمتوكل هو الذي يجمع في باطنه بين قطبين: قطب الاستعداد حسب سنن الله في الكون، وحسب القوانين التي أجرى عليها ما يُمكن العامل من تحقيق ما سطره، وبين قطب الاعتماد على الله اعتمادا يملأ قلبه قوة وأمنا. بمعنى أنه يأمل أملا قويا في إزاحة المعوقات من طريقه، وأنه ستصحبه الألطاف المساعدة ثم هو يمضي إلى غايته واثقا غير متردد. وما يقطع بنجاح المتوكل على الله : أن الله عزيز يطوع كل شيء لإرادته وقدرته، وأنه حكيم في كل ما يصدر عنه، وإن خفيت الحكمة الإلهية على البشر في بعض الأحوال، تبعا لقصور العلم البشري، وبعده عن معرفة الغيب المستور.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

يتوفى الذين كفروا : ينهي حياة الكافرين.

ذوقوا: أحسوا بألم عذاب الحرق.

قدمت أيديكم : بما فعلتم في حياتكم الأولى من الظلم والكيد للإسلام والكفر.

كدأب : كعادة.

يغير نعمة : يبدلها إلى نقمة.

بيان المعنى الإجمالي :

كل من تمكنه الرؤية، لو رفع عنه الحجاب، يرى ما يسلطه الله على الكافرين عندما تفارق أرواحهم أجسادهم، تتلقاهم ملائكة العذاب بضرب كل جزء من أبدانهم من الأمام ومن الخلف، ويقولون لهم إهانة وشماتة بهم: ذوقوا عذاب الحرق، ويواجهونهم بأن ما سلط عليهم هو كفاء ما قدموه في حياتهم الدنيا، وأنه حكم عادل

لا شطط فيه لأن الله لا يظلم عبيده. إن شأن المشـركين هـو كشـأن آل فرعـون والـذين سبقوهم على الكفر والإعراض عن آيات الله، فأمكن الله مـنهم ولـم يفلـتهم مـن العـذاب بما اقترفوه من آثام ؛ والله شديد العقاب.

إن الله رحيم بعبـاده يمكـنهم مـن نعمـه، ويبقيهـا علـيهم حتـى إذا قابلوهـا بـالكفران وغيروا سلوكهم من الرشاد والشكر إلى الفسـاد والعصـيان، غيّـر الله نعمـه إلـى نقمـة وأمنهم إلى خوف. إن الله لا يخفـى عليـه شـيء فهـو يسـمع خلجـات الصـدور ومـا يجري على الألسنة عليم بكل ما يبطنه الإنسان أو يصرح به.

جرى مشركو مكة على ما سار عليه آل فرعـون والـذين كفـروا مـن قـبلهم، وكـذبوا بآيات الله الدالة على كماله وتفرده بالتصـرف، فكـان جـزاؤهم الإهـلاك بمـا أذنبـوا، والعذاب الذي سلط على فرعون وقومـه مـن إغـراقهم مـا يـزال سـائرا فـي ذاكـرة البشرية. وذلك بسبب ظلمهم.

بيان المعنى العام :

50-51، ولو ترى إذ يتوفى...بظلام للعبيد.

هذا مشهد يعرضه القرآن على كل من يمكنـه الرؤيـة مـن البشـر، تنبيهـا إلـى أنـه لا تختص رؤيته بقوم دون غيرهم، فمـا هـو هـذا المشـهد ؟ هـو مشـهد محجـوب عـن الأنظار في الدنيا، محقـق وقوعـه وتمكـن رؤيتـه وإدراكـه لـو رفـع الحجـاب عـن الأبصار فيما يوقعه الله بالكافرين من العذاب. يتضـمن هـذا المشـهد أن الله يسـلط علـى الكافرين عند موتهم عـذابا يتمثـل فـي أن الملائكـة يلْقـوْنهم بصـفع وجـوههم ومقـدم أجسامهم، كما يضربون قفاهم وظهـورهم، فيكونـون فـي وضـع يلسـعهم العـذاب مـن جميع جهاتهم فلا يجدون رحمة إن هم تـأخروا أو تقـدموا. وهـل هـذا الجـزاء خـاص بمن قتلوا من المشركين في بدر، أو هو عام يشمل جميـع الكفـار فـي جميـع الأزمنـة؟ الراجح عندي هو الثاني وإن كـان مصـير مشـركي بـدر يـدخل فـي الـنص دخـولا أوليا. ويصحب الإذاية بالضرب الشماتة بهم وهم تحت هـذا العـذاب المقـدم فـي الـدنيا بمجرد ما تفارق أرواحهم أجسادهم : يقولون لهم :ذوقـوا عـذاب الحـرق بالنـار، فتفيـد الآية أن الله يشوي الكافرين إثر موتهم بعذاب النار، ويقولـون لهـم نكـالا بهـم : إن مـا سلط عليكم هو جزاء عادل لما قمتم به في حياتكم الـدنيا، مـن الكفـر والكيـد للمسـلمين، والظلم والاستبداد في علاقاتكم، وأن مـا تعـذّبون بـه أوقعـه علـيكم الله الـذي لا يظلـم عبيده ولكنكم أنتم الظالمون. فأنواع العذاب المسلطة عليكم هي كفاء ما قدمتم.

52-53، كدأب آل فرعون...سميع عليم.

سار مشركو مكة على نفس السنن الذي سار عليــه آل فرعــون والمشــركون مــن الأمــم التي عمَّرت الأرض قبلهم، رفضوا الإيمان بالآيات التــي أقامهــا الله فــي كتــاب الكــون وفي الرسالات التي بلغها الرسل؛ اتخذوا موقفهم ذلــك عنــادا وجحــدا للحــق بعــد مــا تبين، فتراكمت ذنوبهم العقديــة والســلوكية، فــأهلكهم الله جــزاء مــا اقترفــوه، وعــاقبهم على ما ارتكبوه من آثام. استأصــلهم الله بعقابــه ؛ إنــه قــوي لا يخــرج عــن ســيطرته وتنفيذ إرادته شيء، وإن عقابه شديد لا ينجو من قدر أن يهلكه.

ثم كشف القرآن عن سنة من سننه في الخليقــة التــي يغفــل عنهــا النــاس. ذلــك أن الله يوالي نعمه على البشر وهم على صــلاح فــي العقيــدة والعمــل، ثــم يتراخــون لإلفهــم للنعم، ويغيرون سلوكهم، ويتهاونون بالمقومات التي بهــا تــم خفــض العــيش والرفاهيــة، فينغمسون في الرذيلة ويغيرون سلوكهم مــن الســلوك الملتــزم الطــاهر المــؤمن، إلــى سلوك منحل فاجر »فيغير الله ما كان يسعفه به من نعــم إلــى نقــم وذلــة. إن الله مطلــع على كل ما يصدر عنهم مــن أقــوال، ومجازفــات، علــيم بــالظواهر والبــواطن، فــإذا تحولوا عن طريق الهدى وآثروا طريــق الضــلالة، فإنــه يسـلب عــنهم نعمــه ويســلط عليهم نقمه، ويبدل عزهم ذلا وأمنهم خوفا.

54- كدأب آل فرعون...كانوا ظالمين.

ثم أبرز القرآن من جديد سننه التي أجراهــا علــى قــوم فرعــون وعلــى الأقــوام الــذين سبقوهم، واجتمعوا معهم على التكذيب بالآيات التي تنــبّهُهُم إلــى خاتمــة أمــرهم، وتعلــن عن وعيدهم بسوء المصير إن هم واصلوا الكفر بما أقامه ربهــم الــذي بــين لهــم الحــق وكشف عن الباطل، أن سنته هي إبادتهم بسبب ما اقترفــوه مــن ذنــوب ؛ وصــرح بمــا أهلك به آل فرعون بإغراقهم، وآل فرعــون ومــن ســبقهم ســواء فــي ســوء المصــير، لأنهم متحدون في الظلم والفساد، ومن الظلم، الشــرك وتجــاوز حــدود الله فــي العلاقــات مع الكون وما يحويه.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الدواب : جمع دابة ما دب من الحيوان.

نقض العهد : إخلافه وعدم وفاء صاحبه بما التزم به.

تثقفنهم : تنتصر عليهم فتتمكن منهم.

فشرد بهم من خلفهم: فرق وبدد الجموع التي تأتي بعدهم.

خيانة : نقضا للعهد.

انبذ إليهم على سواء : اطرح إليهم عهدهم طرحا تستويان فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

حشر القرآن فريقا من سفلة الناس مع الحيوانات الناطقة وغيـر الناطقـة، ثـم أعلـن عـن قيمتهم الوجودية، أنهم جمعوا الشر من أطرافه فـلا يوجـد حيـوان استولى عليـه الشـر كما استولى عليهم. وهؤلاء هم الذين جمعوا أوصـافا ثلاثـة: الكفـر – الإصـرار عليـه إلى الموت – نقض العهود بصفة تمكنـت مـنهم فمـا عاهـدوا عهـدا إلا وهـم يبيتـون نقضه. وانتفى أن يخالط ضمائرهم شيء من الشـهامة التـي تجعـل صـاحبها لا يرضـى لنفسه منازل الهوان. وإن كان الرسـول ﷺ مـأمورا بـأن يعامـل النـاس بالحسـنى، إلا أنه بالنسبة لهذا الفريق الخبيث الذي فسـد وتكـرر ظهـور ذلـك منـه، فعليـه أن يكـون حازما معهم، وأن ينكل بهم النكال الـذي يـدفع مـن كـان علـى شـاكلتهم، ممـن يـأتي بعدهم، من الكيد للإسلام فيكون ما يوقعه بهم رئيس الدولة ذكرى رادعة لهم.

إن علاقة الأمة الإسلامية بمن حولها من الأمـم لا بـد أن تكـون واضـحة بينـة، يتنبـه رئيس الدولة إلى كل ثغرة متوقعة فيسـدها بحزمـه قبـل انفتـاح شـرها. ومـن هنـا إذا كانت الدولة الإسلامية قد وثقت عهدا مع غيرها، فـإذا أصـبحت تلـك العلاقـة مسـترابة يخشى من انتقاض أصحابها، فالحزم يجب أن يسـود، وأن يوقـف الجانـب الآخـر علـى ما هو ملتزم به، وأن يطرح إليه العهد الـذي بيـنهم وبينـه حتـى يكـون كـل فريـق لا يعيش على دَخَلٍ وريبة من نوايا الفريق الآخر. وهذا مـن تمـام العـدل والوضـوح فـي العلاقات الدولية في الإسلام. فالله لا يحب الخائنين لعهـودهم، وهـو مـا ينفـي أن تكـون الدولة الإسلامية ترضى أو تخطط تخطيطا فيه خيانة.

بيان المعنى العام :

55←57، إن شر الدواب...لعلهم يذكرون.

يعد عرض القـرآن مـآل فرعـون وقومـه بسـبب تكـذيبهم، صـرح بقيمـة المكـذبين بالرسالة المحمدية المناوئين لها، فجمعهم في إطـار واحـد مـع مـا يـدب علـى الأرض

من حيوانات عاقلة وغير عاقلة، وأخبر، وهو العليم بما خلق، أنه يتفاوت حظها من الخير أو الشر. ولكن أسوأها وأفسدها، وأبعدها عن الخير، وأشدها انغماسا في الشر من جمع الصفات التالية:

1) الكفر بما أنزله الله من الهدى والبينات، والرفض لما يتلى عليهم من الكتاب والحكمة، والإعراض عن شواهد الكون الداعية إلى التفكر والتأمل.

2) الإصرار على المضي فيما هم عليه من كفر؛ تمكن العناد من مشاعرهم فهم عازمون على عدم التحول عن كفرهم، ولو جاءتهم كل آية.

3) النقض لما عاهدوا عليه. فهم يضمرون الغدر، يعطونكم العهود لتأمنوا جانبهم، ولتطمئنوا إليهم، وهم يبيتون لكم الشر بعون أعدائكم عليكم.

إنهم بهذه الأوصاف الثلاثة جديرون بأن يشهَّر بهم، وأن ينبه الله رسوله للموقف الذي عليه أن يواجههم به. إن شرهم عظيم، وتحديهم للوجود الإسلامي تحد خطير جدا.

إن الرسول وهو المكلف بتثبيت أمر الدعوة، وتحصينها وتحصين المؤمنين في الدولة التي بناها، ليدعو ذلك إلى اليقظة التامة، وأخذ الأمور بما يناسبها من القرارات الحازمة، ولا يترك الأمر يستفحل إلى أن يحل الخطر. إنهم فقدوا التقوى التي يتحلى بها من يحترم نفسه ولا يرضى لها منازل الهوان والحطة، الذين لا يرضون أن يتحدث عنهم الناس بالخيانة ونقض العهود، وعدم الوفاء، مما هو سبة وعار حتى عند المشركين، فهؤلاء الذين تكرر منهم الإخلاف والنقض، هم من السفلة الذين لم تحل التقوى قلوبهم.

إنه مأمور أن يقطع رأس الخيانة والعبث بمجرد ما تظهر أماراتها الأولى ولا ينتظر حلول الخطر الفعلي. فعليه أن يكون على حذر منهم وأن يأخذهم بالشدة والنكال، لأنهم انطووا على الخبث والفساد. فإذا ظفر بهم في الحرب فلا يرحمهم، ولا يروج عليه ما يقدمونه من معاذير. ويكون ما يوقعه بهم درسا يتناقله الناس؛ فيوقع المهابة والخوف في الذين يأتون من بعدهم أن يسلكوا مسلكهم.

58- وإما تخافن من قوم...لا يحب الخائنين.

وصورة أخرى من صور العلاقات الدولية، ينبه فيها القرآن النبي ﷺ ومن يأتي بعده ممن يتولى أمر الجماعة الإسلامية، أنه إذا كان بينهم وبين غيرهم عهد بعدم الاعتداء، فإن عليه أن يكون يقظا لما يجري عند المعاهد، ولا يطمئن لوفاء المعاهد لما وثقته المعاهدة. وهذا الحذر يتبعه أنه إذا ما ظهرت أمارات الخيانة، ونقض العهد، فالواجب أن لا يتريث حتى يظهر للوجود ما يدبر، وعليه أن يسبق

الحوادث، ويعلن لخصمه المعاهد أنه يرد عليه عهده، وأن كل فريق يسير على منهج واضح، ولا يترك الأمر يفسد إلى أن يباغت المعاهد المنطوي على الخيانة المهيئ لأسبابها الانقضاض على المسلمين في غفلة من أمرهم.

إن الله لا يحب الخائنين، فلا عليك إن رددت عليهم عهدهم فهم منبوذون لا يحبهم الله لأنهم خائنون، واتخاذك لهذا الحل يتناسب مع ما أفاضه عليك من حب وتكرمة.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبقوا: فاتوا بأنفسهم ونجوا بها.

لا يعجزون: لا يفلتون من طالبهم.

الإعداد : التهيئة.

ما استطعتم : كل ما هو داخل تحت قدرتكم.

قوة: الوضع الذي يكون به كمال النفاذ في تحقيق الهدف.

يوف إليكم : يؤديكم عوضه كاملا غير منقوص.

جنحوا : مالوا.

يخدعوك: يظهرون لك ما كانوا يخفونه من المكروه.

حسبك الله : الله يكفيك فيحميك من خديعتهم.

أيدك: قواك.

بيان المعنى الإجمالي:

كن واثقا يا محمد، أن الذين نقضوا العهود وانفلتوا من المؤاخذة السريعة، وظنوا أنهم استطاعوا أن يسلموا من توابع نقضهم، كن واثقا من أن الله سيؤاخذهم ويسلط

عليهم عقابه أينما كانوا، إن الله لا يقف أي مانع يمنعــه عــن تنفيــذ مــراده. فهــو القــدير التام القدرة. وعلى المؤمنين قادتهم وأوليــاء الأمــر فــيهم أن يحصــنوا الأمــة الإســلامية بالاستعداد للجهاد استعدادا ينشر الخوف في قلــوب أعدائــه بتطــوير الســلاح والقــدرات القتالية بصفة دائمة؛ هذه الرهبة التي تتعدى من كان مقامه قريبــا مــن الأمــة إلــى مــا وراءهم في الزمان والمكان، تبعــا لمــا يشــيع مــن القــوة الضــاربة للأمــة الإســلامية، فتلجم كل الأعداء من كان معروفا ومن كان غيــر معــروف. والله لا يغيــب عــن علمــه أمر. وحرّضت الآية المؤمنين علــى الإنفــاق فــي ســبيل الله، وأن لا يشــحوا بــأموالهم لتحقيق القوة المخيفة للأعــداء، ووعــدهم أن ســماحتهم بــأموالهم فــي ســبيل الاســتعداد الحربي يوفي به الله أجورهم في الدنيا والآخرة.

وقررت الآية أن الاستعداد ليس القصد منه استئصــال الأعــداء، بــل إنــه إن بــدا مــنهم ما يدل على ركونهم للسلام وإقلاعهم عــن الحــرب، وتبــين أن الخيــر فــي مــوادعتهم، فلرئيس الدولــة أن يعقــد معهــم مــا يــؤمنهم ويــؤمن الجماعــة الإســلامية، وعليــه أن يصحب تقليب النظر في كل المعطيات الحاضــرة والمتوقعــة، أن يصــحب ذلــك بحســن التوكل على الله ليمضي واثقا للسلم الــذي رأى الخيــر فيــه. وليطمــئن فــإن الله يســمع ما يهمسون به وهو العليم الكامل العلم.

وإن كانوا ينطوون علــى غــدر فهــو احتمــال وارد، ولا تعــاجلهم بالاحتمــالات، وكــن واثقا من رعايتك ربك لك. يزيدك اطمئنانا ما أيدك به يــوم كنــت وحيــدا تــدعو إلــى الله وإلى دينه، فنصرك على أعدائك وانطلق الإســلام فــي آفــاق الكــون، وأيــدك بــالمؤمنين الذين عني بهم فألف بــين قلــوبهم حتــى أصــبحوا وحــدة متماســكة متآلفــة. وتوحيــد القلوب رغم ما غرس في الطبيعة البشرية من أنانيــة، وتحويلهــا إلــى إيثــار يجــد فيــه المؤمن سعادته في سعادة أخيــه، مــا كــان ليحصــل لــولا تقــدير إلهــي وعنايــة بــك وتقويتك على نشر دين الله. إن تحويل القلوب وجمعهــا واقــتلاع جميــع أســباب الجفــاء والخلاف، ما كنت لتبلغه، ولو أنفقت في ســبيل ذلــك كــل مــا فــي الأرض. ولكــن الله أراد فنفذ، وهو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم في أفعاله.

بيان المعنى العام:

59- ولا تحسبن الذين كفروا...لا يعجزون.

نَقَضَ العهد من نقض من المشركين الــذين لــم يحترمــوا المواثيــق التــي ارتبطــوا بهــا بالدولة الإسلامية، وخُيِّل إليهم أنهم انفلتوا من المؤاخــذة والحســاب عمــا قــدموا. وقــدر الله أن يثبت نبيه وأعلمه، بأن ما تصــوروه مــن الانفــلات مــن العقوبــة والجــزاء عــن

خبثهم، هو خيال لا حقيقة له، ففـــي أجـل قريــب سـيكونون أسـرى مؤاخــذين بنتـائج خيانتهم، لأن الله لا يعجزه فار، ولا يفلت مــن بطشــه مختـف أو مـراوغ، فهـو لسـعة علمه وعظيم سلطانه لا يعجزه أن يأخذ الظالم بظلمه حيثما كان، وأينما كان.

60-وأعدوا لهم ما استطعتم...وأنتم لا تظلمون.

هدى الله نبيه ومن يخلفه من أولياء الأمور، وكذلك أعضـاء الأمـة الإسـلامية إلـى أخـذ الأمور بالحزم الكامـل المسـبق، وأن لا ينتظـروا حلـول المكـروه وهجـوم الأعـداء عليهم ليدافعوا عن حـوزتهم ويقـاتلوا مـن هـاجمهم، بـل الواجـب أن يتهيـأوا لجميـع الاحتمالات، وأن يبذلوا في زمن السلم كل إمكاناتهم ليكونـوا علـى أتـم الاسـتعداد لكـل طارئ. إن الاستعداد المطلوب من الأمـة الإسـلامية قادتهـا وعلمائهـا ومراكـز البحـث فيها، وكل فرد من أفرادها بصفة عامة، حـدده القـرآن بـأن يبلـغ غايـة مـا يمكـن أن يُبْذَل، مما يمكن المهابة في قلوب الأعداء ويـرهبهم، فقولـه تعـالى :(مـن قـوة) كلمـة جامعة لا تقتصر على تصور عصر من العصور، بـل هـي متطـورة بتطـور المعرفـة البشرية في فنون التسليح والقتال .يجب أن تكون مراكـز البحـث العلمـي تُتَـابع تطـوير الأسلحة لتكون أشـد مضـاء وأبلـغ فتكـا، وأن تـدرُب الجيـوش علـى فنـون القتـال واستعمال الأسلحة ، والتخطـيط المحكـم لتحركهـا وحمايتهـا. يجـب أن يبلـغ مسـتوى القوة هذا إلى الأعداء المتاخمين لحدود الدولـة الإسـلامية فيـدخل الرهبـة فـي قلـوبهم، ولا تحـدثهم نفوسـهم بمحاربـة المسـلمين. فالإسـلام حـريص علـى مناعـة الدولـة الإسلامية ونشر الرعب في قلوب الأعداء، لا على استئصالهم.

وعطفت الآية على التهيؤ بالقوة الشاملة البالغة، عطفت الآيـة ربـاط الخيـل الدالـة علـى طلب كثرة الخيل المعدة للقتال، وقد كانت الخيل أفضل مـا يعـين الجـيش علـى النكايـة في الأعداء لسـرعة حركتهـا وقـدرة صـاحبها علـى المنـاورة، والإبعـاد فـي أرض العدو. فراعت الآية الوضع الخاص الـذي كـان عليـه العـالم والأمـة الإسـلامية عنـد نزول الآية، وأرشدت إلى التطورات التي تتحول إليهـا البشـرية ممـا لـم يكـن معلومـا للحاضرين عند نزول الآية، كل ذلك في دقة عجيبة معجزة.

نصت الآية على أن الرهبة تتناول عـدو الله وعـدوكم، والمعنـى متقـارب، إلا أن نسـج الآية على ما جاء عليـه فيـه تحـريض أكمـل علـى الاسـتعداد، بـأن هـؤلاء الـذين ترهبونهم هم محضوا قواهم لمعاداة الحق الذي جـاء عـن الله، وهـم بـذلك يسـتحقون أن تكونوا مستعدين لهم مانعين لهم من وقف انتشار الحق، وهـم مـن ناحيـة أخـرى أعـداءٌ لكم يتربصون بكم ويبغون القضـاء علـيكم. فمـن النـاحيتين: ناحيـة معـاداتهم للحـق،

وناحية عداوتهم لكم، تكونون مأمورين بالاستعداد الذي يدخل الرعب في قلوبهم، بما يتم لكم به الأمن من مكرهم. وبهذه الاستعداد تأمنون مكر أقوام آخرين بفضل يقظتكم واستعدادكم، وانتشار الأخبار عنكم بما جمعتموه من قوة، وحرستم به ثغوركم. إن هؤلاء الآخرين الذين لم يبلغ علمكم بمعرفتهم بأعيانهم، ولكن الله الذي يتولاكم ويقدر لكم النجاح والغلبة، لا يخفى عليه أمرهم فهو يرصدهم، واستعدادكم يلجمهم عن النيل منكم.

إن الاستعداد الذي حرضت عليه الآية يقتضي من المؤمنين أن ينفقوا من أموالهم ما يحققه، وأن لا يبخلوا بأموالهم عن بذلها في سبيل الله. ووعدهم وعدا لا يخلف، أن كل ما أنفقوه يجدون أجره في الدنيا حفظا وكرامة وعونا وتحصينا من الهزيمة، ويجدون أجره كاملا غير منقوص يوم القيامة، لا يظلمون في أي جزء منه بإهماله وترك حسابه.

61- وإن جنحوا للسلم...هو السميع العليم.

يواصل القرآن إرشاد الرسول ﷺ وقادة الأمة بعده إلى الطريق الأفضل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها. فيذكر القرآن أن الأعداء إذا مالوا إلى السلم حقيقة ووثقت أنهم يريدون فعلا عدم الحرب وأن تكون العلاقة بينكم وبينهم علاقة مسالمة يأمنونكم وتأمنونهم، ووثقت أيضا أن المسالمة فيها خير للأمة الإسلامية، فاتبع السلم ووافقهم على ما مالوا إليه. وليصحب التوكل على الله اختيارك، على معنى أنك مأمور بالاستعداد، ووزن ما يعرض عليك بميزان المصلحة الراجحة في نظرك بتقصي كل الأسباب والظروف المحيطة، واجمع إلى اجتهادك التوكل على الله في تحصينك من كل ما يأتي به الغيب. وبهذا يظهر الفرق بين الاجتهاد والتوكل، وأن التكامل بينهما هو منهج التربية الإسلامية. واعلم أن الله هو السميع لكل ما تتحرك به ألسنتهم في سر أو جهر، وهو العليم بحقيقة ما يبطنون. وفي ذلك تطمين للمؤمنين بأنهم إذا ترجح عندهم السلم فلا يخشوا ما يمكن أن يحصل من غدر، فبحسن توكلهم على الله بعد الأخذ بالأسباب سيتولاهم ربهم.

62-63، وإن يريدوا أن يخدعوك...عزيز حكيم.

ولا يترك القرآن فرضية يمكن أن تظهر في المستقبل، فإذا استبطن المتقدمون بطلب الموادعة والسلام خداع المؤمنين، بعد أن ترجح عندك صدقهم، فإن هذه الفرضية لا تسمح لك بالتعجيل بنقض ما أبرمته، ولا تكن هذه الفروض تقتلع منك بمجرد الاحتمال ما أبرمته، وكن واثقا بربك فإنه كافيك، فقد توالت عليك عنايته

وألطافه. لقد أيدك بنصره العجيب الخارق للعادة يوم كنت تدعو إلى الله وحيدا تواجه العالم كله بما لا يقبله، وأيدك بالمؤمنين الذين باعوا نفوسهم لينتشر دين الله في الآفاق. ثم إنه أكمل عليك المنة إذ تحولت الرابطة بين المؤمنين بك إلى أنقى رابطة وأتمها، يألف كل مؤمن صاحبه، فزالت من قلوبهم الأحقاد، بعد أن كانت التربية التي عليها العرب تهدف إلى تضخيم الأنانية وما يتبعها من سعي كل واحد لنفعه الخاص، فإذا المؤمنون يتحولون بتقدير إلهي عجيب إلى وحدة متكاملة، ينشرح كل واحد منهم لما ينال أخاه من الخير، بل هو يسعى إلى إسعاده. قارن بين ما كان عليه الأمر من الحروب بين الأوس والخزرج، وما كان عليه كل بطن من بطون قريش في علاقته مع غيره من البطون، وبين علاقات القبائل فيما بينها، قارن ذلك وبين ما حصل من الامتزاج بين المهاجرين والأنصار، حتى ليكاد يتحول الأنصاري مع أخيه المهاجر إلى شخص واحد. روي في كتب السيرة صور عجيبة من الإيثار، إن ما حصل من وحدة صماء بين المؤمنين نابعة من عواطف نبيلة من الحب والود، غرستها وغذتها يد القدرة الإلهية وما كانت لتحصل لولا ذلك التقدير الإلهي المؤلف بين القلوب، وهو مما لا يمكن بلوغه ببذل الأموال، فلو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعا لتحول تلكم العواطف عما كانت عليه من أنانية وتنافر القلوب العصية عن التآلف، ما بلغت شيئا يذكر. ولكن الله بحسن تقديره، وإرادته إظهار هذا الدين، هو الذي ألف بينهم. إنه الله الذي من صفاته العزة وكمال القدرة، لا يعجزه شيء في عالم المادة أو عالم الأنفس والعقول والأرواح، يحوّل القلوب كما يشاء ويريد. وهو يتصرف بالحكمة البالغة المحققة للخير.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)

بيان معاني الألفاظ :

صابرون : ثابتون على القتال.

عدم الفقه : عدم قدرتهم على فهم الأمور الخفية، تبعا لكفرهم بالله.

التحريض : المبالغة في الطلب.

الآن: اسم ظرف للزمن الحاضر.

بيان المعنى الإجمالي :

دعا الله نبيه ليؤكد له أنه يكفيه مخاطر نشر الدعوة، وكذلك ما يسره له من قوة الرجال الذين هم حوله. ثم كرر نداءه ليتولى هذا الأمر الهام : مواصلة تحريض المؤمنين وحثهم على القتال ، حتى يكونوا دوما على أتم الاستعداد، وباختلاط قلوبهم بالجهاد يكونون قادرين على أن يثبت الواحد منهم أمام عشرة من الأعداء، لأن كل واحد يحمل بين جنبيه قلبا متفتحا على الدنيا والآخرة وعلى حب هداية البشرية ؛ بينما الكافر لا يعدو همه الحاضر المحدود، فهو لا يتجاوزه إلى ما وراءه.

وبعد زمن من هذا الحكم الشديد، خفف الله على المؤمنين وأوجب عليهم أن يثبتوا إذا كان عدد أعدائهم لا يبلغ أكثر من ضعف عددهم، لأنه قد استبان أن السابقين من المؤمنين لا يدانيهم في قوة شخصيتهم من جاؤوا بعدهم. هذا أمر الله والله يؤيد الصابرين بنصره.

بيان المعنى العام :

64←66، يا أيها النبي حسبك الله....مع الصابرين.

توالت الآيات السابقة مؤذنة بعناية الله برسوله وبالمؤمنين وبالأمة الإسلامية وتبصيرهم بالاختيارات التي تحصنهم من الأعداء.

ثم إن القرآن خصص الرسول بالخطاب خطاب التقريب يُعِدُّه بذلك لما يأتي بعد هذه الآية إلى تمام السورة من التعاليم التي سنفصلها. فكانت هذه الآية معلنة أن الله كافيه من الشرور والأعداء والمكر الذي يمكر به الماكرون.

وتحتمل خاتمتها أن التأييد لرسول الله قد تم بعناية الله به وبالقوة التي حوله من المؤمنين فتجمع من كفاية الله له، ومن المؤمنين حوله ما يقوي في نفسه رضوان ربه عنه وتأييده فيما يستقبل.

ويحتمل أن الله أخبر رسوله بأنه كافيه وكافي المؤمنين، فهو يتولاهم كما تولاه.

وبعد أن طمأن القرآن النبـي بـأن الله كافيـه، رتـب علـى ذلـك أن عليـه أن يحـرض المستعدين للجهاد وللذب عـن حـوزة الإسـلام أن يهيئـوا أنفسـهم لقتـال الأعـداء، وأن يحثهم على خوض غمار الحـرب حتـى يكـون الاسـتعداد ومفهـوم الجهـاد حاضـرا دوما في نفوسهم مصاحبا لتفكيرهم لا يغفلـون عنـه. وبهـذا ينعقـد إلـف بـين المـؤمن وبين هذه الفريضة. ذكّرهم بمهمتهم السامية في الحيـاة، وأنهـم تحملـوا هدايـة البشـرية قاطبة، ذكّرهم بما أعـده الله للمجاهـدين فـي سـبيله مـن منـازل الكرامـة فـي الـدنيا والآخرة. وبهذا الاستعداد النفسي والتذكير المتتـابع تقـوى عزيمـة المجاهـدين. ورتّـب على تلكم التربية أنـه يجـب أن يثبـت الصـابرون أمـام أعـدائهم ولـو بلغـوا عشـرة أضعاف. وليس ذلك بغريـب ولا ببعيـد، لأن الفـرق فـي التركيـب النفسـي والعقـدي بينهما تركيب متفاوت جـدا، فتفكيـر الكـافر مغلـول بحـدود حظوظـه الماديـة ومـا يحققه لجسمه وأحاسيسه من متاع، هو محصور فـي تلكـم الحـدود، بينمـا ينطلـق فكـر المؤمن وتصوره إلى الكون ومبدعه، وإلـى الحيـاة الآخـرة والحيـاة الـدنيا فـي وقـت واحد، ويجد في نشر ما يؤمن به وفي اهتداء الناس به أكبر غـنم يغنمـه، فمـا أبعـد مـا بينهما ! قوم لا يفقهون أي لا يتجـاوزن الظـواهر إلـى الآفـاق البعيـدة مأسـورون فـي حدود ظرفهم المحسوس، وقوم تجتمـع فـي قلـوبهم الـدنيا والآخـرة والأخـوة البشـرية وما تقتضيه من انتشال الغافلين منهم. استمر التكليـف علـى ثبـات المـؤمنين الصـابرين لأعدائهم ولو كان عددهم عشرة أضعافهم. ثـم إن المـؤمنين تزايـد عـددهم ودخـل فـي دين الله من كانت قوة إيمانهم ووثوقهم بأنفسـهم تضـاهي قـوة السـابقين مـن الصـحابة الكرام، ومنهم من لم يبلغ تلك الدرجة، فنسخ حكم الوقـوف للعشـرة إلـى الوقـوف أمـام الأعداء إذا كان عددهم لا يتجاوز ضعف عـدد جـيش المسـلمين. فتقاتـل المائـة مـائتين ويقاتل الألف الألفين. بهذا أذن الله وأمر. والله يؤيد الصابرين ويكتب لهم الغلبة.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى

قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (70) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)

بيان معاني الألفاظ:

يثخن في الأرض : يتمكن سلطانه.

عرض الدنيا : المال.

طيبا: النفيس في نوعه، أي من خير الحلال.

فأمكن منهم : جعلك متصرفا فيهم تصرف الإنسان في مكانه.

بيان المعنى الإجمالي :

غنم المسلمون ما غنموا من أموال المشركين في بدر، وقد بينت السورة أحكام الغنائم، كما أنهم تمكنوا من أسر حوالي سبعين منهم، وبعد تداول الرأي في الموقف الذي يتخذونه فيهم، رجحوا أن يفدي كل أسير نفسه بالمال الذي يعود للمجاهدين. ولكن السنة التي جرى عليها المرسلون أن الذين يتمكنون من أسرهم يقتلونهم ولا يقبلون منهم فداء، حتى تكسر شوكة الكفر وتتم الغلبة عليهم وتعلو راية الدين في أرض الله، لأن كل كافر يعود إلى قومه يكون قوة للكافرين. فكان العَتَبُ على الذين رجحوا هذا الرأي. ولكن الله عذرهم بأنه من عدله ولطفه ومما سنه : أنه لا يؤاخذ المجتهد إذا أعمل رأيه وأخطأ، مع قصده الخير. ولولا هذا الفضل الإلهي للحقكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم. فانتفعوا بالأموال التي قبضتموها من الأسرى، وهي حلال طيب لا شائبة فيه. كلوا منها وأنفقوا وكونوا مستحضرين دوما لما تقتضيه التقوى، والله غفور رحيم.

ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يستل من نفوس الأسرى ما يمكن أن يكون قد استقر فيها من نقمة، أمره أن يعلمهم: أنه إن تحولت قلوبهم من شر الكفر إلى خير الإيمان فإن الله يتوب عليهم، ويعوضهم عما أخذ منهم من الفداء ما هو أوسع وأكثر. والله غفور يعفو عن السيئات ويرحم عباده إن هم أنابوا إليه.

ولا تهتم يا محمد إن انطوت نفوس بعضهم على خيانتك والانتقاض عليك عندما يعودون إلى ديارهم، فإني ناصرك عليهم، كما مكنتك من التحكم فيهم عندما أسرتَهُم. والله عليم بما تنطوي عليه صدورهم، حكيم في تصرفه فيهم.

بيان المعنى العام :

67-68، ما كان لنبي أن يكون له أسرى...عذاب عظيم.

اهتمام القرآن بغزوة بدر كان اهتماما كبيرا، وحق لها ذلك، فهي الغزوة التي تحولت بها كفة المقاييس في جزيرة العرب، وبعد أن كان المسلمون مستضعفين فارقوا ديارهم وأموالهم من شدة ضغط قريش عليهم، ينقلب ميزان القوى في بدر فإذا هم يهزمون قريشا شر هزيمة، ويغنمون أموالهم، ويأسرون من صناديدها عددا غير قليل، ويتحدث العرب بما تم في بدر.

مضمون هذه الآية: أن المسلمين كما غنموا أموال المشركين، وقد فصلت السورة فيما مضى أحكام الغنائم المالية، كذلك تمكنوا من أسر كثير من المشركين. وتمكُنُ الجند الإسلامي من رقاب المشركين وهم أحياء أفرز مشكلة؛ وهي ما يصنع المسلمون بهم؟ كانت هذه أول غزوة يأسر فيها المسلمون رجالا من المحاربين من أعدائهم، ولم ينزل تشريع يبين لهم حلًا لهذه النازلة، وكانت الفروض تحتمل:

1) قتلهم. فهم أعداء الدين كانوا حريصين على الفتك بالمسلمين، ولكن الله أمكن منهم، فلْيُنفَّذ فيهم جزاؤهم حسبما كانوا مصممين عليه، كانوا مصممين على قتل المسلمين فليقتلوا.

2) أن يبقوهم عبيدا مملوكين للمؤمنين.

3) أن يقبل من كل أسير فداء ماليا يتقوى به المؤمنون على ما كانوا عليه من خصاصة، ويعوض شيئا مما استحوذت عليه قريش من أموالهم بعد هجرتهم إلى المدينة.

وهنا تظهر الطريقة التي كان الرسول يأخذ بها في مستجدات الأمور التي لم ينزل فيها وحي، والتي تتطلب حلا. جمع أصحابه وعرض عليهم الأمر.

رأى فريق منهم أن تقطع رقابهم، فهم لا يؤمنون إن عادوا إلى ديارهم أحياء أن يعودوا لقتال المسلمين. فقتلهم فيه إرهاب للمشركين وتقليل لعددهم. وممن كان على هذا الرأي من الصحابة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسعد بن معاذ رضي الله عنهما.

ورأى فريق آخر أن يفدي كل واحد من الأسرى نفسه بمال يكون قوة للمسلمين، وقد تم إذلاله على الوضع الذي هو عليه من الكفر، ومر بتجربة قاسية تزعزع ما كان يثق به من زائف عقائده. ولعله بعد ذلك أن ينشرح قلبه للإسلام. وممن كان على هذا الرأي أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومال إليه عدد غير قليل من المجاهدين.

ولم أجد في السيرة من رأى أن يسترق الأسرى ويفقدون حريتهم بصفة نهائية.

إن عرض الأمر والمشورة، وتقليب أوجه الرأي لم يفض إلى رأي راجح، بل تكافأت الأنظار. ولا بد من الحسم.

أخذ النبي ﷺ يتأمل في المقترحَيْن، ويبحث لكل رأي عن نظير له فيما نزل من القرآن يرجح به أحدهما.

وجد أن الرأي الأول كان أقرب لموقف رسول الله نوح عليه السلام إذ دعا ربه بقوله: (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا)[1]

ووجد أن الرأي الثاني أقرب لمنهج إبراهيم عليه السلام، إذ قال (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم)[2] ولمنهج عيسى عليه السلام لما قال : (رب إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)[3] فمال للرأي الثاني وأخذ الفداء ممن كان له مال في قومه. وذلك لما طبع عليه ﷺ من اللين والميل إلى الأيسر، ورجاء أن يتوب الكافر ويسعد بالإيمان.

وقد بلغ عدد الأسرى حسبما ذكره ابن هشام ستة وستين رجلا، وجاء في بعض الروايات أنهم كانوا سبعين رجلا. وذكر السهيلي أسماء تسعة من الذين فدوا أنفسهم ثم أسلموا.[4]

سن النبي ﷺ المبدأ الذي تُحلُّ به المشاكل إذا لم ينزل الوحي، وهو التشاور. وأنه إذا لم يجمع المستشارون، فإن لولي الأمر أن يرجح ما يرى فيه المصلحة.

وبعد أن قرّ القرار بالإبقاء على الأسرى وأخذ فدية منهم، نزل على رسول الله ﷺ ما فيه عتبٌ. أعلمه بأن سنة من قبله من المرسلين أنه لا يكون لأحدهم تملك الأسرى والاستفادة من فداهم إلا بعد أن يتمكن سلطانه في الأرض ويخضد شوكة الكفر. ذلك أن المهمة التي أوكلت إليهم في الجهاد والتأييد الذي رأوه في بدر ينادي بأن المهمة هي أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن في اختيارهم الفداء، وعدم الإجهاز على رؤوس الكفر ظاهره محبة المال الزائل، والله يريد منكم أن تسمُوا للمهمة العظمى من قيادة البشريّة للخير، وإعلاء كلمة الله، فلا يقع الالتفات إلى متاع الحياة الدنيا إلا بعد أن تنجزوا المهمة التي أوكلت إليكم. والله عزيز لا يحتاج إلى عون، حكيم فيما يربيكم عليه من تعلقكم بمنازل العزة، والنظر إلى ماهو أبقى.

---

[1] نوح الآية26

[2] سورة إبراهيم الآية 36

[3] سورة المائدة الآية 118

[4] الروض الأنف ج5 ص 361/358

وإذ كان الاختيار غير الاختيار الأوفق، وحمل المجاهدين عليه العجلةُ في الحصول على مال الفداء، سجل العتب عليهم، بأنه لولا ما قدره سبحانه وأجرى عليه أمر الثواب والعقاب، من أنه لا يؤاخذ المجتهد إذا أخطأ، لولا ذلك الفضل لمسكم بسبب إيثاركم للمتاع الدنيوي العاجل عذاب عظيم، كتسليط هؤلاء الأسرى عليكم بعد أن يرجعوا إلى أهليهم، ويشنوها حرب انتقام منكم.

69-فكلوا مما غنمتم...غفور رحيم.

هذا وقد عذركم ربكم، فانتفعوا بما أخذتم من مال الفداء، وهو حلال كأتم ما يكون الحلال، لا شائبة فيه. تنعموا به في كل وجوه الانتفاع. ولتكن تقوى الله وحضور حدوده والرقابة الحازمة ملازمة لكم، فإن التقوى شكر للنعمة، والله غفور رحيم بكم، فقد رفع عنكم كل توابع التقصير.

ربط هذا العتب بما تضمنته سورة الأنفال من نظائر

عرضت سورة الأنفال مواقف اجتهادية للصحابة في غزوة بدر، تُبْرِز أنهم رجحوا خلاف ما هو أفضل عائدة عليهم، متأثرين بما طبع عليه الإنسان من حب للمال. قال تعالى: (وإنه لحب الخير لشديد)[1] فلنتتبعها حسب ورودها في السورة.

1) إن النبي ﷺ بعد أن سار في طلب أبي سفيان بما تحمله قافلته من أموال، وتحقق عنده أنه غيَّرَ طريقه، ونجا بأمواله، وعرض على الجيش أن يستعدوا لجهاد قريش التي خرجت تبغي ردع المسلمين، كان هوى كثير من الجيش الإسلامي أن لا يقاتلوا قريشا، إذا كان هواهم أن يغنموا أموال القافلة، وكان الخيرُ في لقاء العدو وكسر شوكته. وقد عتب عليهم القرآن ترددهم هذا.

2) إن كثيرا من المجاهدين تعلقوا بقسم الأموال التي غنموها، وعتبهم القرآن على ذلك، وبين لهم أن الأنفال ليست لهم وإنما هي لله ولرسوله، يضعها في المصالح التي أذن لها فيها ربه.

3) كان المؤمنون في أول أمرهم قلة، فأمروا أن يثبت الواحد لعشرة لأن مبنى الإيمان على تفريغ قلب المؤمن من جميع علاقات الدنيا، وهو ما يضخ في روحه طاقة تمكنه من الاستجابة للأمر وتحقيقه. ولكن الضعف الذي عليه بعض من التحق بجماعة المؤمنين راعاه الله وخفف. ولو كانوا على مستوى وضعهم الأول متجردين من العلاقات المادية لفتحوا الدنيا وفي ذلك الخير الكثير. فعذرهم وخفف عنهم.

---

[1] سورة العاديات آية 8

4) ما تم في قضية الأسرى هذه من رغبــة المجاهــدين فــي الانتفــاع بالفــداء، مــع أن إرهاب المشركين والفتك بهم هو المنهج الذي ســار عليــه المرســلون مــن قبــل، وهــو المحقق لرفع راية الإسلام. فكان العتب عليهم دون تأثيم.

وبهذا يتبين لنا أن القرآن بهذه المواقــف الأربعــة، وإظهــار مــا خفــي بضــبابية تــأثير المال في الاختيار، يرمي إلى تربية المؤمنين علــى التعمــق فيمــا يعــرض علــيهم، وأن تكون الموازنة في الاختيار بين المصلحة العاجلة وبــين تثبيــت ديــن الله، وإعــلاء رايــة الإسلام فى الآفاق.

70- يا أيها النبي قل...غفور رحيم.

ثم التفت القرآن إلى الأسرى فأمر نبيه أن يخــاطبهم خطابــا يقلــع النقمــة مــن قلــوبهم، ويفتحها على فضل الله. إنه لا شك أن الأسرى قد انطــوت نفوســهم علــى عــدم رضــى ومقت لما تم فيهم، وإن كان ما تم هو أهــون مــا يمكــن أن يلقــوه بعــد أســرهم. أمــر النبي أن يخاطبهم بما يلين أرواحهم للدخول فــي الإســلام، فــأعلمهم أن مــا أخــذ مــنهم من مال سيتكفل الله بتعويضهم عنه بما هــو خيــر منــه. إن مــا سيحصــلون عليــه مــن رزق حلال وما يوسع الله به علــيهم، إن هــم راجعــوا عقــولهم وأحســنوا التأمــل فــي آيات الله الموحى بها وآياته في الآفاق، وأسلموا، سيخلفهم أكثــر ممــا أخــذ مــنهم وفــوق ذلك يسمو بنظرتهم إلى الكون، وبأرواحهم إلى عبادة الله وحده.

ومن أسمائه العلية سبحانه أنه غفور، يصــفح عــن ذنــوب التــائبين ولــو كانــت كفــرا، وأنه رحيم بعباده يقبل توبتهم ويساعدهم على سلوك الطريق الأرضى.

71- وإن يريدوا خيانتك...عزيز حكيم.

ثم جمع القرآن بين تحريض النبي الكريم على إبلاغ الأســرى مــا أمــره بــإبلاغهم إيــاه من فتح آمالهم على فضله، وبين تطمينه علــى أن مــا أخــذه المجاهــدون مــن الفــداء لا يعقبه خسارة للدين، فإن هؤلاء الأسرى الذين عاهدوا عنــدما كــانوا فــي أســرك :أنهــم لا يحاربونك، إنهم لو أعطوا مواثيقهم وفي بــاطنهم أنهــم ســينكثون عهــدهم ويخونونــك، فلا تهتم بهذا الاحتمال، وتأمل في وضعهم الآن، تجــد أن الله قــد مكــنهم مــن النظــر وبلغهم آياته البينة، ومع ذلــك فقــد خــانوا الله برفضــهم للحــق عنــادا، وتعطــيلهم لمــا تقتضيه عقولهم وفطرهم، فقادهم ذلك إلى الوقــوع فــي الأســر، وأمكنــك مــنهم فكنــت متحكما فيهم كما يتحكم الإنسان في مكانــه. ولــو خــانوك فــي المســتقبل فهــم إلــى ذل وإلى انهزام. والله عليم بالنوايا ويرتب على علمه تصرفه بالحكمة البالغة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (75)

بيان معاني الألفاظ:

الهجرة : من هجر البلد أي الخروج منها.

الإيواء :هيأ مأوى وهو الملجأ والحرز.

ولي فلانا : نصره وقام بأمره.

في كتاب الله : قضائه وشرعه.

بيان المعنى الإجمالي:

أوضح القرآن في هذه الآيات ضوابط العلاقة المعتبرة والملْغيّة. نوه أولا بالمؤمنين الذين هاجروا من موطنهم إلى المدينة ثم جاهدوا في سبيل نشر دين الله، وجمع بينهم وبين المؤمنين من أهل المدينة الذين قبلوا المهاجرين وقاسموهم أرزاقهم وضمنوا لهم الأمن في مقامهم معهم، يدافعون عنهم بما يحمون به أنفسهم، فبين القرآن أن العلاقة بين المهاجرين والأنصار علاقة امتزاج وحد الله بينهم، هي علاقة التناصر والمؤازرة، بها ارتفعوا إلى أعلى مقام في سلم الإيمان.

أما الذين آمنوا ولم يهاجروا ورضوا بالبقاء مع القوم المشركين، فإنه رغم إيمانهم لا موالاة بينكم وبينهم، حتى يلتحقوا بكم. إلا أنه إن تسلط عليهم الكفار ليفتنوهم عن دينهم فالواجب عليكم أن تسرعوا لنجدتهم، إلا أن يكون بينكم وبين هؤلاء المشركين معاهدة عدم اعتداء فأوفوا بعهودكم. واعلموا أن الله لا يخفى عنه شيء مما تعلنون أو تضمرون

والكافرون تجمعهم علاقات، والمولاة بينهم قائمة، وإياكم أن توالوهم أو أن تتهاونوا في هذا الأمر، فإنه إن واليتموهم وقربتموهم وأطلعتموهم على أسراركم، فإن العاقبة وخيمة جدا يبذرون بينكم الفتنة والشقاق، يشعلون الحروب بينكم. أغناكم الله عنهم.

إن المهاجرون الذين آمنوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ومعهم الأنصار الذين آووهم ونصروهم، أولئك هم الذين سما إيمانهم إلى أعلى درجات السمو، وعدهم الله العفو عن كل تقصير، والأجر الكريم الذي لا تشوبه شائبة نقص، ولا يلحقه ألم ولا يحد من لذته حائل.

ثم إن الذين تخلفوا عن الهجرة ثم التحقوا بكم وتولوا الذود عن الدين والجهاد في سبيله، فإنهم وإن فاتهم ما سبقتم إليه من منازل الكرامة، إلا إنهم بالتحاقهم بكم أصبحوا جزءا من جماعتكم.

ورضي الله في سابق تقديره المحكم المكتوب، ففطر البشر على رعاية علاقة القربى والرحم، وأنها إذا كان الاختلاف في الدين لا ينقضها، فإنها رابطة تتقدم بها الموالاة في النصرة وفي الميراث.

بيان المعنى العام:

72-إن الذين آمنوا وهاجروا.....بما تعملون بصير.

ختم القرآن هذه السورة بضبط العلاقات بين البشر، وإبراز النواحي الجامعة والمفرقة بينهم في نظر الإسلام. يجمع البشر روابط متنوعة: منها الروابط الأسرية، والروابط الوطنية، والروابط اللغوية، والروابط السياسية، والروابط الاجتماعية، وأنواع أخرى شائعة في المجتمع القبلي. فتأتي هذه الأيات لتقيم التواصل على أساس ديني، بمعنى أنها تقيم الوحدة بين البشر على أساس تصور الإنسان للكون ولعلاقته به، على تصور أن الكون كله مخلوق لله، وأن الإنسان مستخلف فيه، شرفه في تحقيق ما أراده الله منه وشعوره بالمسؤولية في نشر الخير واقتلاع الشر.

إن أقوى رابطة وأكملها وأنقاها هي الرابطة التي أحكمها الله، بين المهاجرين الذين فارقوا موطنهم ورضوا بالتنازل عن أموالهم، وتركوها وراءهم فخرجوا إلى المدينة المنورة، وبين الأنصار الذين آووا المهاجرين فيسروا لهم الإقامة بينهم، قاسموهم كل ما رزقهم الله فعوضوهم عن غربتهم حسن القبول وجمال العون.

تصوروا المهاجرين وقد قدموا على المدينة جماعات متتابعة فإذا صدور الأنصار تسعهم، وينعقد بينهم أسمى عواطف الحب والإيثار. وتفصّل الآية ما امتلأت به نفوس المهاجرين فتذكر : الإيمان بكل ما جاء به الإسلام، تلكم هي القيم التي تهديهم في حياتهم الخاصة والعامة، ومن توابع كمال الإيمان أنهم رضوا بالخروج من مراتع الصبا ومألوف الموطن، فهاجروا غير آسفين ولا متحرقين على ما فاتهم. ومن توابع الإيمان والتصور الذي ملأ عقولهم وأرواحهم جهادهم في سبيل نشر تلكم الإيمان بأنفسهم وأموالهم. كما تلمح فضائل الأنصار الذين آووا المهاجرين فقاسموهم ما يملكون، وأفسحوا لهم في المسكن والسوق، وفوق ذلك أنهم ضمنوا لهم النصر على كل من يريدهم بسوء أو يحاول النيل من أمنهم في المدينة. إن المهاجرين والأنصار حسبما يقرره القرآن توثقت بينهم الرابطة فجعلت منهم كتلة واحدة ؛ يعين بعضهم بعضا ويؤازره، وذهب بعضهم إلى أن الرابطة بلغت أن غير المهاجر لا يرث المهاجر وإن كان مسلما، وكان هذا الحكم في الظروف الأولى ثم نسخ فيما بعد لما أنزل الله وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض.

وأما المؤمنون الذين استقروا في بلاد الشرك ولم يهاجروا، فالصلة بينهم وبين المهاجرين والأنصار مقطوعة، لا يعينونهم ولا يؤازرونهم. واستثنت الآية حالة واحدة : وهي إذا تسلط المشركون على المؤمنين الذين لم يهاجروا ليفتنوهم عن دينهم، فإذا طلب المؤمنون المفتونون في دينهم من المشركين، نصرهم، فالواجب أن تسرعوا لنجدتهم، إلا إذا كان المتسلطون بينكم وبينهم عهد فلا يحل لكم أن تنقضوا ما عاهدتموهم عليه. وختمت الآية بالتحذير من نقض الميثاق الذي أعطيتموه فإن الله بصير بما تعلمون لا يغيب عنه شيء.

73- والذين كفروا...وفساد كبير.

وأما الذين كفروا فليس بينكم وبينهم موالاة، وذلك لأن المشركين بعضهم أولياء بعض، فلهم رابطة تجمعهم يتناصرون بها. واحذروا أن لا تقطعوا ولايتهم، أو أن يبقى بينكم وبينهم مودة وتناصر، أو أن تستودعوهم أسراركم، أو أن تعتبروا موالاتهم أمرا هينا. الأمر على العكس فإنه يتبع التراخي في ذلك فتنة، إنه تبعا لمعاداتهم لكم في الدين، هم ينسجون في الخفاء ما يوقع بينكم العداوة والبغضاء، ويخططون ما يشعل الحروب ويعمق الخلاف، وهمهم الأكبر أن يظهر الكفر ويعلو.

74-75 : والذين آمنوا وهاجروا...بكل شيء عليم.

ويقوي القرآن دعوته وتنبيهه على عدم موالاة الكافرين بإعلان الثناء مرة أخرى على المهاجرين والأنصار، معليا من شأنهم بما جمعوه من صادق الإيمان والهجرة للمهاجرين، والنصرة التي كانت مثلا أعلى في تاريخ الإنسانية بالنسبة للأنصار، ويميزهم بأنهم بلغوا القمة في مستوى الإيمان. وختم تنويهه بالمغفرة لكل تقصير منهم. وأنه أعد لهم رزقا لا تخالطه مشقة ولا يتبعه نقص ولا ألم، يبلغ أعلى درجات الصفاء.

ويأتي في منزلة تالية المؤمنون الذين بقوا مدة في بلاد الشرك، ثم التحقوا بالمهاجرين، وقاموا بالجهاد والذب عن الدين، فإنهم وإن فاتهم بعض مواقف الجهاد الأولى، إلا أنهم بالتحاقهم بكم ثبت لهم شرف الهجرة وهم منكم.

وختمت السورة بتقرير ما فطر عليه البشر في علاقاتهم وارتباطهم بأولي أرحامهم، وأن هذه الرابطة رابطة مرعية يؤكدها الإسلام ما لم ينفها الاختلاف في العقيدة.

وبناء على ذلك فإنه إذا تأكدت رابطة الرحم برابطة الدين كانت أقوى رابطة تتجاوز حسن العلاقة والتناصر إلى التوارث وغيره من صلات القربى.وهذا حكم الله الذي حكم به في كتابه الذي سجل فيه سنن الخلق وراعى فطرة الإنسان، كما حكم به في القرآن. واعلموا أن الذي ضبط هذه العلاقات وأوصاكم بها هو الله الذي لا يغيب عن علمه شيء في الحاضر ولا في المستقبل، فما هداكم إليه فيه خيركم.

اللهم لك الحمد على ما أعنت ويسرت، ولك الشكر على ما به تفضلت وتكرمت.

فقد بلغت ختم تفسير سورة الأنفال بعد مرض قطعني شهرا عن متابعة تفهم آياته وتسجيل ما أطمئن إليه من معانيه. وهو اللطيف أدعوه أن يسعدني بمدد منه وتوفيق لمتابعة التأمل في كتابه وتفسير آياته البينة وأن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم.

والله حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

زوال يوم الثلاثاء : 1 جمادى الأولى 1432:2011/4/05-

ســـورة التـــوبة

يتفق المفسرون على أن هذه السورة هي آخر سورة نزلت على رسول الله ﷺ ، نزلت بعد سورة الفتح، فمرتبتها: الرابعة عشرة بعد المائة. ذلك أن النبي ﷺ لما رجع من غزوة تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة ، أمّر أبا بكر الصديق رضي الله عنه على الحج ذلك العام ، وبعث معه بأربعين آية من صدر هذه السورة .إلى قوله تعالى: (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)

واتفقت المصاحف على ترك بداية هذه السورة بالبسملة. واختلفوا في توجيه ذلك روي عن مالك : أن هذه السورة نُسخ كثير من آياتها فسقطت البسملة مع الآيات المنسوخة، كما روي أن نساخ المصاحف لم يجدوا البسملة مثبتة في أولها فاتبعوا ما هو موجود. كما وجه من جانب المعنى بما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أن البسملة أمان وبشارة، وسورة براءة نزلت بنبذ العهود والسيف، فلذلك لم تبدأ بشعار الأمان. ورتبت في المصحف بعد الأنفال لتقارب مضمونيهما .

أشهر أسمائها(سورة براءة) كما سماها بعضهم بالتوبة. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وهذان الاسمان هما الاسمان الموجودان في المصاحف التي رأيناها.

وسماها بعضهم بالمقشقشة لتخليصها من آمن بها من النفاق وكان ابن عباس يدعوها بالفاضحة لفضحها المنافقين بتكرر قوله تعالى :ومنهم – كما رويت لها أسماء أخرى .بلغت أربعة عشر اسما وعدد آياتها 130 آية وهي السورة التاسعة حسب ترتيب المصحف.

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا

وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

براءة : خروج من العهود التي كانت بينكم وبين المشركين ورفع لها.

فسيحوا : السياحة السير في الأرض.

المعجز: ما يوجب العجز عن عمل ما.

الإخزاء : الإذلال.

أذان : إعلام وإشهار.

بشر : أصل البشارة الإعلام بما يسر، أريد بها الإنذار على سبيل التهكم.

ظاهروا : أعانوا.

المدة : الأجل .

انسلخ الأشهر: انقضى الأشهر.

الأخذ: الأسر .

احصروهم :منعهم من دخول أرض الإسلام.

اقعدوا له كل مرصد: الزموا مراقبة الثغور التي يمكن أن يتسربوا منها إلى أرضكم.

بيان المعنى الإجمالي:

كان النبي ﷺ مرتبطا بمعاهدات مسالمة بينه وبين كثير من قبائل العرب. وكان كثير منهم يبيتون الغدر، فأعلن الله على لسان رسوله أن كل تلكم المعاهدات قد تم إلغاؤها، ولهم أن يتحركوا في الأرض مدة أربعة أشهر ، وأنذرهم بأنهم ضعفاء لا يستطيعون أن يعجزوا الله القدير الذي سينزل بهم ما قدره لهم من الخزي والإذلال .وإعلان عام أمر بتبليغه أبو بكر رضي الله عنه ،وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى كافة الناس المجتمعين يوم النحر بمنى أن الله قد أبطل تلكم المعاهدات فلا أمن لهم بعد أربعة أشهر .وأنهم إن تابوا وأقلعوا عن الشرك فقد سلكوا ما هو خير لهم في الحاضر والعاقبة، وأنهم إن ثبتوا على هم ما عليه من

الشرك فليعلموا أنهم لا ينفلتون من تسلط القدرة الإلهية عليهم. وأمر النبي ﷺ أن ينذر الكافرين حلول عذاب أليم.

واستثنى القرآن من إسقاط العهود وإبطالها المعاهدين الذين لم يصدر منهم ما يدل على خبث طويتهم وتربصهم بالمؤمنين، ووفوا بعهودهم فلم يعينوا عدوا بسلاح ولا بتدبير، ولم يحرضوا على المؤمنين أحدا، فهؤلاء الذين وفوا بعهودهم أوفوا لهم بما عاهدتموه عليه حتى يبلغ الأجل الذي تم عليه الميثاق. يؤكد الوفاء أن الله يحب المتقين الذين لا يغدرون .

وعند تمام الأجل المضروب، الأربعة أشهر، للمشركين الذين أعلموا بانتهاء العهد بينهم وبين المسلمين، فأنتم غير ملتزمين بالكف عنهم، ولذا فهم أعداؤكم فاقتلوهم حيثما وجدتموهم، واستولوا عليهم بالأسر، وامنعوهم من دخول أرضكم، وكونوا حارسين لثغوركم وللمواقع والمنافذ التي يمكن أن يتسللوا منها.

واعلموا أن هذه العلاقة مع المشركين لا تعود إلى التغاير في العرق أو الانتساب القبلي أو إلى أي مقوم من مقومات الاختلاف، لكن تعود إلى تمسكهم بالشرك ورفض التوحيد ، ولذا فإنه إذا تابوا من الشرك وآمنوا بالله وأظهروا صدقهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فاتركوا لهم حريتهم، وما فات منهم قبل توبتهم لا يؤاخذون به ، فإن الله غفور يقبل التوبة عن عباده، وهو رحيم بهم.

بيان المعنى العام:

1- براءة من الله من المشركين.

افتتحت السورة بكلمة براءة الدالة على أن ما كان يربط بين المسلمين وبين من عاهدوهم من المشركين قد انتهى. وأن الذي أنهاه هو الله، وأذن رسوله أن يعلنه في الناس. عقد النبي ﷺ معاهدات بينه وبين المشركين سالمهم وسالموه فيها. واستفاد من تلكم الموادعة توفير الظروف لنشر الدعوة ،حتى إنه خرج إلى حرب الروم. ومع اجتهاده في إقناع البشر بهداية الله، وبما فتح الله به قلوب كثير من الناس للدخول في الإسلام، تحققت للمسلمين قوة تفرض عليهم مواقف تتناسب مع أوضاعهم الجديدة. إن دعوة الإسلام تقوم على أساس التوحيد الخالص، وهدم الشرك. والإسلام والشرك متناقضان لا يلتقيان ولا يقبل الإسلام أن يهادن الشرك ويفسح له المجال للحركة والعمل. وقد انضاف إلى ذلك أن معظم المعاهدين من المشركين قد ظهرت منهم بوادر تدل على استعدادهم لنقض عهودهم ، ومباغتة المسلمين في الظروف الحرجة .فلا غنى للإسلام عن الحزم والحسم. فجاء هذا

الإعلان الصارخ الواضح أن العهود التي كنتم وثقتموهــا (إلــى الـذين عاهـدتم) تبعـا لتوثيق الرسول لها، يعلن الله ورسوله بلوغها أمدها.

2- فسيحوا في الأرض ...مخزي الكافرين.

إن نقض تلكم العهود لا يدخل حيز التنفيـذ بمجـرد الإعـلان، بـل أذن لهـم أن يسـيروا في أرض الله أربعة أشهر ينسحب عليهم أمن العهود ولا يتعرض لهم المسلون .

لقد اختلف المفسرون في تعيين الأشهر الأربعة، والظاهر أنهـا مـن يـوم الحـج العاشـر من ذي الحجة إلى اليوم العاشر من ربيـع الثـاني مـن السـنة العاشـرة للهجـرة. ورأى بعضهم أن البداية من شوال تبعا لما ورد أن نزول بـراءة كـان فـي شـوال مـن السـنة التاسعة. ولا أرى لهذا الاختلاف أثرا، لأنّه حكم بلـغ منتهـاه فـي السـنة العاشـرة مـن الهجرة ولا أثر له بعد ذلك.

وذلكم الحسم والجزم قارنه تهديـد المشـركين، أيقظهـم مـن غفلـتهم بقولـه:(اعلمـوا) أنكم عاجزون عن حماية أنفسكم غيـر خـارجين عـن قـدرة الله التـي تلاحقكـم أينمـا كنتم. وأن الله مذلكم بسبب كفركم .

3-4، وأذان من الله ...يحب المتقين.

وإظهارا للجزم بهذا المفهوم الواضـح البـين أضـاف ضـبط الظـرف الـذي يـتم فيـه الإعلان، وهو يوم الحج الأكبر الذي يجتمع فيـه جميـع الحجـاج. وهـم يجتمعـون فـي عرفة، كما يجتمعون يوم العاشر في منى. وقام بهذه المهمـة أبـو بكـر الصـديق، وقـام بها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، واستعان بأبي هريـرة فكـان يطـوف فـي منـازل قبائل العرب من منى.

ثم توجه الخطاب للمعاهدين من المشركين الـذين نقـض عهـدهم ، محرضـا لهـم علـى التوبة والدخول في الإسلام، بأن ذلك خير لهم ممـا كـانوا عليـه مـن أمـان العهـد ، إذ بالإسلام يحققون الأمـان والاهتـداء. وأنـذرهم أنهـم إن واصـلوا مـا هـم عليـه مـن الشرك، فإنهم لا ينفلتون من قبضة الله الذي يتصرف فـي كـل كـائن حسـب مـا قـدره وأراده. ثم التفت الخطاب إلى النبي ﷺ داعيا له أن ينذرهم بمـا تقـرر لهـم مـن عـذاب أليم شامل للقتل والسبي والإذلال، وعبر عن هـذا الإنـذار بالبشـارة تهكمـا، إذ البشـارة لا تكون إلا بما يحبه الإنسان وينتظر حصوله مشتاقا إليه.

واستثنت الآية المشركين الذين عاهدوا النبي ﷺ ، ووفـوا بمـا عاهـدوا عليـه ولـم يبـد منهم أي نكث ولا غدر، ولم يعينوا أحـدا علـى المسـلمين، ولـم يكيـدوا كيـدا يتضـرر منه المسلمون، فكانوا على حياد تـام مـوفين بمـا عاهـدوا. هـؤلاء أمـر المسـلمون أن

يكملوا لهم العهد الذي بينهم إلى الأجل الـذي وثـق بـه ولا يعـاجلوهم بحـرب ولا أذى. وأكد القرآن مراعاة الوفاء لهم بـأن حفـظ العهـد مـن موجبـات التقـوى، والله يحـب المتقين الذين يستحضرون في كل عمل يقومون به رضوان الله.

وفي هذا الاستثناء دليل على أن الذين تبرأ الله ورسـوله مـن عهـودهم، أنهـم مـا وفـوا بما وعدوا، وأن رسول الله قد اطلع على ما يبيتونـه، ومـا كـانوا يعدونـه فـي الخفـاء من الكيد للمسلمين وغدرهم .

5- فإذا انسلخ الأشهر ....غفور رحيم.

ثم تربصوا بالذين أعلن عن نهاية عهـودهم إلـى أن تنتهـي الأشـهر الأربعـة التـي أذن لهم فيها أن يسافروا في الأرض ويسيحوا فيها آمنـين. فبعـد انتهـاء تلـك الأشـهر، فقـد ذهب ما كـان لهـم مـن عهـد، فلكـم إن لقيتمـوهم أن تقتلـوهم، أو تأسـروهم، أو أن تضيقوا عليهم التقلب في الأرض فتمنعـوهم مـن سـلوك مسـالكها. وأمِـرَ المؤمنـون أن يكونوا على حذر منهم يقظين للثغور، وللممرات التي يمكن أن يبغتوكم منها.

إن القوة التي دعيتم لمواجهة المشـركين بهـا، لـيس المـراد منهـا استئصـالهم ، ولكـن عونهم على الدخول في الإسلام . ولذا فإنهم إذا تـابوا مـن كفـرهم وخلعـوا مـا كـانوا يعبدونه من دون الله، وظهر من سلوكهم أنهـم صـادقون، وذلـك بإقامـة الصـلاة أهـم أمر في سلوك المسلم، وبأداء الزكاة المعلنـة عـن الانتسـاب للأمـة الإسـلامية بواسـطة الإسهام ومشاركة ذوي الحاجة والخصاصـة مـا يسـاعدهم علـى تحويـل وضـعهم، إذا تم ذلك فارفعوا عنهم جميع المضايقات ومكنوهم مـن العـيش فـي حريـة وأمـان. يغفـر للمذنب ذنبه إذا تاب وهو رحيم بعباده يساعدهم على التحول من الشر إلى الخير.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

استجارك : استأمنك .

المأمن : لمكان الذي يأمن فيه كدار قومه.

العلم :يطلق العلم في الكلام العربي على العقل وأصالة الرأي .

استقاموا : حسن المعاملة وترك القتال.

يظهروا عليكم : يغلبوكم وينتصروا عليكم.

الإل: النسب ،ويطلق على العهد .

الذمة : كل ما يجب أن يحفظ ويحمى.

الإباية : الامتناع.

نكثوا: نقضوا.

طعنوا : ثلبوا ونسبوه إلى النقص .

أئمة : جمع إمام وهو ما يجعل قدوة.

بيان المعنى الإجمالي:

هذا أمر مفترض بيّن القرآن حكمه، وهو أنــه إن جــاءك مشــرك يطلــب الــدخول فــي جوارك وأمنك، فمكّنه من الأمن واستمع لما يريد أن يبلغــك واعــرض عليــه مــن كتــاب الله ما يبلغ به حد فهمه ، ثم مكنه مــن العــودة آمنــا إلــى قومــه. ولا يضــيرك إن هــو سمع القرآن ولم يؤمن، ذلك أن الشرك يعطل العقول ويحجب عنها الحقيقة .

إنه لا عجب من إعلان القرآن انتهاء عهود المشركين مع الله ومع رسوله، وذلك لما يبيتونه من الغدر، ولا يستثنى من ذلك إلا الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام، فهؤلاء إن وفوا بما عاهدوكم عليه فوفوا لهم بعهودهم ، لأن هذا سلوك المتقين والله يحبهم .

إنه لا عجب من إعلان نقض عهود المشركين، ذلــك أنهــم قــد انطــووا علــى بغضــكم، فلو انتصروا عليكم مرة فإنهم ينتقمون مــنكم ولا يراعــون فــي النكــال بكــم عهــدا ولا ذمة ولا قرابة أو جوارا. ما يحدثونكم به هــو خــلاف مــا تضــمره قلــوبهم ، وأكثــرهم فاسقون لا يترفعون عن منازل النذالة.

ما قرره النبي ﷺ من الحقائق وبينها أتم بيان عـوض أن يثبتـوا عليـه بـاعوه وأخـذوا عوضه ثمنا قليلا من اللذائذ والفساد كشرب الخمـر والزنـا، فلزمـوا ذلـك ومنعـوا مـن يريد أن يتبع سبيل الله، ما أسوأ أعمالهم. لبغضـهم للمسـلمين هـم لا يراعـون فـي كـل مؤمن عهدا ولا ذمة مـن جـوار ولا قرابـة ،همهـم الـذي عقـدوا عليـه أنفسـهم هـو الاعتداء على المؤمنين.

ويسلس القرآن لهم طريق الهدى، فيعلمهم أنهم إن تـابوا مـن الشـرك وأظهـروا تـوبتهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكـاة، فتـوبتهم تمحـو مـا صـدر عـنهم مـن الآثـام وتنقلـب علاقتهم بكم إلى علاقة الأخـوة الجامعـة فـي الـدين الـذي يـذهب أي أثـر للخـلاف، وهكذا يفصل القرآن الآيات الهادية للقوم الذين لهم عقول راشدة.

وعليكم إن نكثوا أيمانهم وتجرأوا فطعنوا فـي ديـنكم ديـن الإسـلام ، فـاحزموا أمـركم وقاتلوهم، إنهم أصبحوا بذلك دعاة للكفر متبوعين، أيمـانهم كالعـدم. لعلـه بأخـذ أمـركم بالحزم أن ينتهي الشرك. وكذلك كان قد انتهى الشـرك مـن جزيـرة العـرب بعـد فـتح مكة وبعد عام الوفود.

بيان المعنى العام :

6←12، وإن أحد من المشركين...لعلهم ينتهون.

يوالي القرآن ضبط أحكام علاقة المسلين بالمشركين فبين :

أولا: أنه إن طلب منك مشرك أن تأمنه ليسمع كـلام الله بمخالطتـه لـك فـي مجالسـك ، وليبلغك ما يريد إبلاغه في سفارة أو غيرهـا ، وليقـيم عنـدك مـدة تـرى فـي إقامتـه عندك خيرا ، وترجح أن ذلك محقق لمصلحة مـن مصـالح المسـلمين، إن تحقـق هـذا الفرض في الواقع ، فأنت مأذون في الإيفاء له بمـا طلـب منـك مـن جـوار، ثـم بعـد اطلاعه على نمط حياة المسلمين، وبعد فهمه للقـرآن، إن هـو أراد أن يعـود إلـى قومـه الذين يأمن عندهم ، فلا تغدر بـه ومكنـه مـن ذلـك. إن عـدم إيمـانهم بعـد اسـتماعهم للقرآن واطلاعهم على نظافة المجتمع الإسـلامي وسـموه، إن عـدم إيمـانهم هـو بسـبب ضعف مداركهم العقلية، وفساد تفكيرهم بما ران عليه من ظلام الشرك .

ثانيا :لا عجب من إعلان الله نقض العهود التي كانـت بيـنكم وبـين المشـركين، إنـه لا وجه لأن يكون للمشركين على فساد عقيـدتهم ومكـرهم بـالمؤمنين وتبييـت الخيانـة أن يكون لهم عهد محترم عند الله وعند رسوله.

ثالثا :يستثنى من المشركين الـذين عاهـدتموهم عنـد المسـجد الحـرام، فتأكـد ميثـاقهم بالمكان المقدس الذي عقد فيه (المسجد الحرام) وبوفائهم لعهـدكم فلـم تبـدر مـنهم خيانـة

صغيرة ولا كبيرة. فهؤلاء الواجب عليكم أن توفوا لهم بعهدهم كما وفوا بعهدكم، وهي الاستقامة وعدم الالتواء .وهذه الاستقامة هي رشح التقوى، وأنتم أمة الإسلام، التقوى عنصر هام في بنائكم الخلقي والسلوكي، والله يحبكم لتلكم التقوى.
وقد اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المعاهدين عند المسجد الحرام، ولا أريد أن أتابع ذلك لأنه حكم مضبوط بمكان وظروف معينة لا تتجدد.
رابعا: إنه لا وجه للتساؤل عن إعلان نقض العهود مع المشركين، فإن قلوبهم قد امتلأت غيظا عليكم ، إنهم لو تمكنوا منكم فإنه لا يشفي غيظهم إلا التنكيل بكم لا يراعون فيكم ما التزموا به من العهود ولا يمنعهم صلة قرابة ولا ما جرت به الأعراف من اعتبار أواصر الصحبة أو الجوار .
خامسا: عرى القرآن ما يسترون به بواطنهم من فساد ، هم يتكلمون معكم بما يطمئنكم كي لا تأخذوا حذركم ،فهم يكيدون لكم، وقلوبهم منطوية على الغدر وعلى الكراهية، تمنعهم من مهادنتكم أو الصدق معكم . وإذا نقَّبتَ عن أخلاقهم وتربيتهم وسلوكهم، تجد أكثرهم فاسقين خارجين عن المروءة والشهامة والحياء.
يوضح فسادهم وفسقهم حتى أصبح الانحراف طبعا فيهم، أنهم بعد أن عرض عليهم النبي ﷺ آيات الكتاب ، ولفت أنظارهم إلى ما في الكون من دلائل التوحيد ،وقد بلّغ وأزال كل شبهة حتى أصبح ما عرضه عليهم، لو لم يعقدوا قلوبهم على الرفض، ملكا لهم لموافقته للفطرة وللحق، ولكنهم باعوا هذا المكسب الذي يهدي عقولهم ويصلح أرواحهم ،باعوا ذلك بثمن قليل هو إقبالهم على شهواتهم وعلى ملذات عاقبتها شر كشرب الخمر والزنا. ما أسوأ ما التزموه من الأعمال !
سادسا: عداوتهم تمكنت لكل مؤمن، لا يختلف عندهم مؤمن عن مؤمن آخر ، تأصل شرهم لكل من حل قلبه الإيمان فلا يراعون عهدا ولا قرابة ولا ذماما. تأصل حب الاعتداء في طباعهم ، وما نقموا منهم إلا إيمانهم .
سابعا: يدعوهم القرآن ليقلعوا عما هم عليه، ويقرن التحذير والإنذار بالبشارة والتيسير . إن خروجهم من الوضع الذي هم عليه، وتمكينهم من كل ما هو حق لكل مؤمن من الأمن، مرتبط بتوبتهم من الشرك وطرح اتخاذ آلهة من دون الله، وإبراز هذه التوبة عمليا بإقامة الصلاة والإسهام في تحمل رفع الحاجة عن المحتاجين وبذل الزكاة في مصارفها. إنهم إن فعلوا ذلك سقط ما فصلهم عنكم، وتعتبر علاقتكم بهم علاقة الأخوة الإيمانية التي يتكامل فيها كل مؤمن مع المؤمن مثله ، هي الأخوة الدينية التي يتحد فيها المؤمنون في المفاهيم الإيمانية والأخلاق

والسلوك. وهكذا يعنى القرآن ببيان الأدلة ويرفع الشبه، ويأخذ بالأنفس في رفق ولين، ولكن لا ينتفع بمنهجه إلا القوم الذين يعملون عقولهم فيصلون بها إلى صفاء الرؤية معرفة الحق .

ثامنا: مد لهم القرآن ما ييسر لهم الدخول في الإسلام ،ووضح لهم ما يجنونه من ذلك في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، معلنا في وضوح أن المشركين إذا هم نقضوا ما عاهدوا عليه، واعتبروا الأيمان التي أكدوا بها مواثيقهم كأنها لم تصدر منهم فألغوها، وجاوزوا ذلك إلى الطعن فيما تضمنه الدين فقلبوا الحقائق إغراقا في التضليل والعداء، فالواجب عليكم أن توقفوهم عن الإذاية، وأن تشنوا عليهم الحرب التي تذلهم وتقطع شرهم، إنهم بوقاحتهم وجراءتهم أصبحوا قادة متبعين فاسدين لا ميثاق لهم ولا عهد ولا أيمان. فاحزموا أمركم ولا تترددوا، لعلهم ينتهون عن فسادهم، أو ينتهي وجودهم من الكون. وهذا ما كان، فإنه بعد سنة الوفود وفتح مكة انتهى الشرك من جزيرة العرب.

أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الهم : العزم على فعل شيء.

الغيظ: الغضب المشوب بإرادة الانتقام.

الخزي :الإذلال .

الوليجة : مأخوذة من الولوج، وهو ما يخفيه صاحبه من مكر فيدخله ويعمي عليه حتى لا يتفطن له .فهو نوع من الخديعة.

يعمروا مساجد الله :العبادة فيها والقيام على ما يمكن العابدين.

بيان المعنى الإجمالي :

حرض القرآن المؤمنين على قتال الناكثين للعهود ،الذين دبروا كل شنيعة للكيد للإسلام حتى إنهم في غزوة أحد وفي غزوة الخندق كانوا يرمون إلى الضغط على رسول الله ليخرج من المدينة لتكون الضربة القاضية على الإسلام .ورد الله كيدهم في نحرهم. وحذر المجاهدين من التردد وأن يحزموا أمرهم، فلا موجب للخوف منهم، فإن الله الذي أمركم بقتالهم أحق بأن تخشوا عصيانه. وهذا ما يقتضيه الإيمان.

ثم صرح بالأمر بقتال الناكثين مرتبا على قتالهم أن الله سيعذبهم نفسيا وجسديا بما يعينكم عليهم ، ويذلهم ، ويحقق لكم النصر عليهم ،ويشفي ما كان في صدور قوم مؤمنين من التحرق عليهم بسبب ما آذوهم من ناحية واحترام العهود التي بينهم وبين رسول الله ﷺ من ناحية أخرى، وينزل السكينة في قلوبهم بعد التحرق .

والله هو العليم بما ستؤول إليه الأمور فيتوب على من يشاء ويدخله في رحمته ، وكل ما يصدر عنه سبحانه هو داخل تحت حكمته التي تضع الأمور في نصابها الحق .

حرض القرآن من كان حول النبي ﷺ على قتال الناكثين، وأيقظهم إلى أن عليهم أن لا يظنوا أن الله حط عنهم الجهاد بفتح مكة .فإن الله يريد أن يظهر منكم ما سبق في علمه، فيبرز في الواقع الصادقين في الجهاد منكم، الذين لم يخدعوا بالتزلف للمشركين والتودد لهم واطلاعهم على أسرار المؤمنين، ذلك أن بعض من تناولهم الخطاب كانوا من المنافقين .والله لا يفوته شيء، لا من ظواهر أعمالكم ولا من بواطنها يعلمها علما مستويا.

إنه لا يوجد وجه يمكن المشركين من عمارة المساجد لا بالعبادة ولا بالقيام عليها، حالة كون ما يعتقدونه وما يقومون به يشهد بكفرهم بالله ،إن جميع أعمالهم باطلة لا أثر خير لها ، فيأتون يوم القيامة وما قدموا خيرا في حياتهم، وجزاؤهم الخلود في النار .ولكن الذي شرفهم الله بعمارة مساجد الله هم الذين جمعوا بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وأظهروا انتسابهم للإسلام بالصلاة والزكاة، وأخلصوا لله فلا يخشون أحدا إلا هو. إنهم الذين يرجى لهم أن يكونوا قد اهتدوا.

بيان المعنى العام :

13-ألا تقاتلون ...إن كنتم مؤمنين.

حرض القرآن المؤمنين علـى قتـال المشـركين النـاكثين، وأزال مـا يمكـن أن يـدخل قلوبهم من تردد أو خوف، إن على المـؤمنين أن يسـتعدوا وأن ينـدفعوا لحـربهم بكـل ثقـة ، مستحضـرين مـا فعلـوه، إنكـم عاهـدتموهم فعملـوا علـى خـداعكم وبيتـوا الانقضاض عليكم وأنتم غافلون، بل أكبـر مـن ذلـك فهـم قـد عزمـوا علـى إخـراج الرسول من المدينة لتكون الضـربة القاصـمة للإسـلام ،هيـأوا فـي أنفسـهم هـذا فـي غزوة أحد وفي غزوة الأحزاب. ولكن الله رد كيـدهم فـي نحـرهم. هـم الـذين بـدؤوكم بنقض المواثيق التي كانت أمانا بينكم.

انهضوا لقتـالهم واحزمـوا أمـركم ولا تتـرددوا، إنـه لا مبـرر للتـردد أو الخـوف ، أتخشون بأس الناقضين، والله الذي شدد عليكم في قتالهم أحـق بـأن تخشـوا عـدم تنفيـذ أمره ،إن الإيمان لا خيرة فيما يوجبه ويحتمـه ، والإنسـان إمـا مـؤمن يقتضـي إيمانـه وجوب الطاعة وتنفيذ الأمر، وإما غير مـؤمن فهـو تـابع لهـواه. فـالتردد فـي الإقـدام على قتالهم يجعل إيمانكم محتملا. وفي ختـام الآيـة بقولـه تعـالى :(إن كنـتم مـؤمنين) أبلغ تحريض ودفع لقتالهم فليس المقصود الشك في إيمـانهم، ولكـن الإثـارة علـى أبلـغ وجه كأن تقول لمتردد أقدم إن كنت رجلا .

14—16، قاتلوهم...والله خبير بما تعملون.

بعد أن حرضهم القرآن على قتـال النـاكثين للعهـود، صـرح بـالأمر الجـازم بمباشـرة قتالهم: قاتلوهم. ثم أفصح عما يترتب على قتالهم مـن فوائـد عظيمـة قـدر الله تكـريم المؤمنين المجاهدين بها وهي خمسة:

أولا : تعذيب الكـافرين بأيـدي المجاهـدين، ولـم يفصـل التعـذيب لشـموله التعـذيب النفسي بحلول الرعب والخوف في قلـوبهم واستحضـارهم للضـعف، والعـذاب البـدني بما يلحقهم من قتل أو جراح .

ثانيـا: أن الله يخزيهم، فيذلهم ويزيل ما كانوا يجدونـه فـي نفوسـهم مـن عـزة وإدلال، وذلك أول مراحل الهزيمة والانكسار .

ثالثا : بعد ضربهم بما يحطم معنوياتهم يحقـق لكـم الله النصـر علـيهم نصـرا واضـحا يشتت جمعهم.

رابعا: يدخل البهجة في صـدور قـوم مـؤمنين، هـؤلاء الـذين آذاهـم النـاكثون للعهـد بمختلف أنواع الإذاية وكانت صرامة الإسلام تمـنعهم مـن الـرد علـيهم، فـاليوم إذ أذن

لكم في القتال ، فإن الله يشفي ما كان في صدورهم بالتنكيل بهم ومشاهدة ما ذكرته الآية حالا بهم .

خامسا: أنهم بعد ما يحل بالناكثين ،ويدخل البهجة على قلوب المؤمنين، لا يبقى في قلوب المؤمنين أي تحرق على ما أوتوا به، كما يذهب كل أثر من الغيظ الذي كان يشتعل في بواطنهم ، بمعنى أن الله ينزل السكينة في قلوبهم.

إن ما وعد الله به المؤمنين المستجيبين لدعوة الله لقتال الناكثين، لا ينافي أن الله يفتح باب التوبة للتائبين منهم. إن فضله سبحانه على عباده لعظيم، ولا ييأس المؤمن من هداية الله حتى لأقسى الكافرين غلظة وفسادا .فإنه سبحانه يتوب على من أسرع تائبا إليه معترفا بذنوبه مطرحا لها. والله عليم بما تنطوي عليه الصدور والمآلات المغيبة التي لا تصل إليها مدارك البشر. وهو يجري كل ذلك بحكمته البالغة.

ثم ثنى القرآن بحض المؤمنين على الجهاد بطريقة أخرى تستحثهم ، وتعرفهم أن الله كتب عليهم الجهاد، وأنه سبحانه يسجل استجابة كل فرد لهذا الأمر المحتم، الذي دل عليه قوله قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم.....الطريقة البديعة في هذا النداء للقتال افتتحه بما معناه: أتظنون أنه بعد فتح مكة أن لا يلحقكم الأمر بالاستعداد والجهاد، وأن يتركَكم الله غير مطالبين بالقيام بهذا الواجب، والحال أن الله لما يطلع على تحقق ما قدره في علمه من قيام المجاهدين بالجهاد. ولمّا هي أخت لمْ، إلا أن الفارق بينهما دقيق، فكلاهما لنفي مضمون الفعل الوارد بعدهما، إلا أن لم تنفي ما بعدها نفيا قاطعا في المستقبل، ولما تفيد توقع حصول الفعل المنفي بها. فإذا قلت لم يأتني محمد فمدلول ذلك نفي قدومه، وإذا قلت لما يأتني فمدلول ذلك عدم قُدومه مع توقع أن يحصل. فتفيد الآية توقع استجابة المؤمنين لما حثهم عليه من القتال، كما يعلم بالفعل الذين صدقوا في القتال، ولم يدخلوا في مواقفهم القتالية مكامن يخفونها يسترون وراءها خداعهم كإغراء الأعداء بالمسلمين، والكشف لهم عما يعلمونه من أسرار المؤمنين. وحتى يكون المعنى واضحا أقول: إن الآية دعت كل من تألف منهم المجتمع حول رسول الله ﷺ، وفيهم المؤمنون والمنافقون، يعلمهم أن عليهم أن يكونوا يقظين مستعدين للقتال. وهذا الحث يتبين به في الواقع الذين علم الله في الأزل أنهم يسرعون إلى القتال صادقين لا يشوب قتالهم أي خديعة ولا مكر، ويظهر المنافقين الذين تنطوي نفوسهم على الكيد للمسلمين فهم متثاقلون عن القتال عيون لأعداء الإسلام، فظهر بهذا الحث الغاية التي من أجلها ورد. وتختم

الآية بما يؤكد مضمونها أن الله خبير بما تعملـون، فـلا يشـتبه عليـه عمـل الصـادقين بعمل المنافقين المخادعين .

17- ما كان للمشركين...هم خالدون.

ثم انتقل القرآن لبيان ما يترتب على الكفر زيـادة علـى قتـال النـاكثين، فصـرح معلنـا أن الكافرين بما هم عليه مـن إنكـار للوحدانيـة، وعبـادتهم للأصـنام وعـدم احتـرامهم للمقدسات بما أدخلوه من خيـالات تنـافي مـا لتلـك المقدسـات مـن احتـرام كطـوافهم بالبيت عراة ، هم بهذا الوضع غيـر مـؤهلين لأن يعمـروا مسـاجد الله التـي خصصـها الله لعبادته ، فلا يحق لهم أن يعبدوا فيها، ولا أن يقومـوا علـى تنظـيم عبـادة العابـدين، وبهذا قطع القرآن بين الكافرين وبين المسـجد الحـرام، وكـذلك بقيـة المسـاجد. وسـجل عليهم أنهم شاهدون على أنفسهم بـالكفر بمـا يقولونـه ومـا يفعلونـه. علـى معنـى أن تمكينهم من العبادة فيها يتناقض مع أقوالهم وأفعـالهم ومـع رفضـهم للتوحيـد. والنتيجـة من تمسكهم بعقائدهم الضالة أن أعمالهم بطلـت فـلا أثـر لهـا لا فـي إصـلاح نفوسـهم ولا في انتفاعهم بها يوم القيامة، فيقدمون بصـحف لـم يسـجل فيهـا أي عمـل صـالح، فيكون الجزاء العدل خلودهم في النار.

18- إنما يعمر مساجد الله من المهتدين.

إذ تبين أن المشركين غيـر مـؤهلين لعمـارة مسـاجد الله وأن الواجـب إقصـاؤهم عـن هذه المهمة الشريفة، كان من تمام البيان ضبط من هو مؤهـل لـذلك .وهـو مـن جمـع الصفات التالية:

1) الإيمان بالله واحدا لا شريك له حقيق بأن يعبد وأن يتقرب إليه.

2) الإيمان باليوم الآخر إيمانا يجعل صـاحبه مقـدرا أن كـل أعمالـه سيحاسـب عليهـا ثم يجزى، حتى تكون الرقابة الذاتية على أقواله وأفعاله رقابة ذاتية مسترسلة.

3) إقامة الصلاة وإيتاء الزكـاة. حتـى يكـون الـذي يعمـرون مسـاجد الله المطبقـون لشريعة الإسلام وحدهم.

4) يجمع هذه الأركـان الأربعـة أن يكـون المـؤمن الـذي لـه أن يعمـر مسـاجد الله شجاعا لا يخشى إلا الله وحده تبعا لإيمانـه أنـه لا نـافع إلا هـو ولا ضـار إلا هـو. إن هؤلاء هم وحدهم الذين يرجى لهم تحقق انتسابهم إلى الأمة المهتدية.

۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝

بيان معاني الألفاظ :

السقاية : سقاية الحاج من زمزم .

عمارة المسجد : القيام على إصلاحه وحراسته.

التبشير : إعلام المبشر بما يسره ولم يكن يتوقعه.

الرضوان : الرضا القوي.

النعيم : ما تلتذ به النفس من الملاذ المحسوسة.

المقيم : المستمر غير المنقطع.

بيان المعنى الإجمالي :

وازن بعضهم بين القيام على السقاية وعمارة المسجد الحرام، وبين السبق إلى الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، فرأوا أنهما في مقام واحد، فرد الله عليهم بأن هذا ميزان مختل وأنه لا مساواة بين الفريقين، فإن بعض الذين قاموا بذلك كانوا ظالمين بكفرهم، والله لا يهدي الظالمين، إذ هم محرمون في وقت كفرهم من هداية الله فكيف يستوون مع من نالوا من الهداية أعظم نصيب ؟

ثم حقق القرآن أن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم في أعظم درجة من الكمال، وهم المتفردون بالفوز. تولى الله بنفسه العناية بهم فبشرهم برحمة خالصة منه، والرضا الكامل عنهم، وبالجنات التي أعدها لعباده الصالحين ينعمون فيها بمختلف ضروب النعيم الذي لا ينقطع، فهم خالدون في درا الكرامة خلودا أبديا. وفضل الله عظيم .

بيان المعنى العام :

19 - أجعلتم سقاية الحاج...القوم الظالمين.

لقد كان للمسجد الحرام قداسته التي توارثتها قريش من عهد إبراهيم عليه السلام، وكانت تبعا لذلك تعتز بمساعدة الحجاج والعمار. ومن الوظائف التي كانوا يقومون بها ويرون فيها شرفا لمن يتولاها، وبقيت بعد فتح مكة، القيام على سقيا المقيمين لأداء المناسك، وكان العباس بن عبد المطلب متولي السقاية من زمزم عند الفتح.

وكذلك حفظ البيت ستائرها ومفتاحها وكان المتـولي لـذلك يـوم فـتح مكـة عثمـان بـن طلحة وابنه شيبة من بني عبد الدار. وقد أقامهما النبـي ﷺ علـى مهامهمـا، ومـا يـزال إلى اليوم مفتاح الكعبة بيد أحفاد شـيبة. هـذه مهـام نـوه الإسـلام بشـرف القيـام بهـا. وجرى بناء على ذلك في المجالس بـين المـؤمنين مفاضـلة بـين القيـام علـى السـقاية وسدنة البيت، وبين ما قام بـه المهـاجرون الأولـون . ولعـل بعضـهم تطـاول إلـى أن قيامه على خدمة بيت الله الحرام أو سقاية الحاج لا تقل قيمـة وأثـرا عـن الهجـرة ومـا صاحبها. وهنا قد اختل الميزان .إن ميزان القـيم هـو بيـد مـدبر الكـون رب العـالمين، فأرجع سبحانه الحق إلى نصـابه، ورد علـى مـن ادعـى التسـوية، وأنكـر علـيهم أن يجعلوا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام في مرتبـة تسـاوي مـن آمـن بـالله واليـوم الآخر فصفى عقيدته من لوثة الشرك ، وتعلق نظـره بفضـل الله وجزائـه يـوم القيامـة، ثم ارتقى فثبت تلكم القيم في الكون بجهاده. إنـه شـتان مـا بـين الصـورتين؛ فحكـم الله بأنه لا مساواة بينهما في الميـزان الحـق عنـد الله. وإذا كـان مـن المعلـوم أن أعظـم الظلم الشرك بالله، فإن الذين لم يؤمنوا هم على غيـر هدايـة مـن الله بسـبب ظلمهـم ولا وزن لما قاموا به من عمارة وسقيا.

20-21، الذين آمنوا ....أجر عظيم .

ثم صرح القرآن بتميزهم فتتبـع أوصـافهم الرفيعـة ، إنهـم آمنـوا بمحمـد ومـا أنـزل عليه، وبلغ حبهم للإيمان وللرسول أن فضـلوا تـرك منـازلهم ومـوطنهم منضـمين إلـى رسول الله حيث كان فهاجروا إلى المدينة المنورة، ولم تكـن هجـرتهم تحـولا مـن بلـد لا أمان لهم فيه إلى بلد يتوفر فيه الأمن علـى أمـوالهم وأعراضـهم ، بـل إنهـم اتخـذوا من مجتمعهم الجديد منطلقا لنشر ديـن الله والـذود عنـه بالجهـاد بـالأموال والأنفـس، إن هذه الصورة الرفيعة التي جلاها القـرآن لتهـيء إلـى النتيجـة: إنهـم أعظـم درجـة عند الله لا يساويهم ولا يدانيهم من لم يجمع ما جمعـوا مـن الكمـالات ، وقـد اختصـوا بالفوز الذي لا تشوبه شائبة .

إن عناية الله بهم فتحت لهم من أبواب الكرامـة الشـيء الكثيـر، فقـد تـولى الله بنفسـه تبشيرهم وإدخال المسرة عليهم فقربهم إليـه معبـرا عـن صـلته بهـم بأنـه ربهـم بمـا تتضمنه كلمة الرب من الرعاية واللطـف والتربيـة، فبمـا ذا يـوالي علـيهم البشـارات ، تتضمن البشارات :

1) نزول رحمته عليهم، رحمة فيها عناية خاصة ومنسوبة إليه للدلالة على كمالها.

2) رضوانه عليهم، والرضوان هو الدرجة العالية من الرضا. وذلك مرتبة فوق الرحمة لأن الرضوان يتضمن شعور المرضي عليه بالقرب وأن منزلته عند ربه منزلة متميزة.

3) تحقق حسن العاقبة بدخولهم في الآخرة الجنات التي أعدها الله للصالحين من عبيده، هذه الجنات التي يجدون فيها ما تستطيبه نفوسهم وتلتذ به حواسهم، بصفة لا يلحقها انقطاع، خالدين في تلكم الكرامات خلودا أبديا. يؤكد ذلك أن الله عنده أجر عظيم يتجاوز الوصف ويسمو عن الخيال .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (23) قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (24) لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ (26) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (27)

بيان معاني الألفاظ :

الولي :الصديق المناصر.

استحبوا : تمكن حبهم.

العشيرة : الأقارب الأدنون .

أموال اقترفتموها: أموال اكتسبتموها.

مواطن كثيرة : مواقع حروب كثيرة .

حنين : اسم واد بين مكة والطائف.

السكينة : الثبات واطمئنان النفس .

بيان المعنى الإجمالي :

نهت الآية المؤمنين عن التقـرب للأبنـاء والإخـوان إن تمكـن الكفـر مـن قلـوبهم فـلا ينصرونهم ولا يخلصون في حبهم ولا يفضـون إلـيهم بالأسـرار. وليحـذر مـن تـولاهم مع تمكن الكفر منهم بأن ذلك يجعله عند الله ظالما.

ثم أمر رسوله ﷺ أن ينبههم بأنه لا خيرة فـي الأمـر، فإمـا أن يقـدم الإنسـان حـب الله ورسوله وجهاد في سبيله، على حـب الأسـرة بمـا تشـمله مـن آبـاء وأبنـاء وإخـوان وعشيرة ، وعلى حب ما جمعـه مـن مـال اكتسـبه بعملـه واجتهـاده، وعلـى التعلـق بالتجارة النافقة التي تدخل البهجـة علـى مـن اسـتولى عليـه المـال، وعلـى التعلـق بالمسكن الجامع لما يـبهج الـنفس فتجـد فيـه الإقامـة الراضـية. فمـن قـدم حـب الله ورسوله والجهاد في سبيله علـى المغريـات الأخـرى سـعد، ومـن تعلـق بالمغريـات وقدمها، فعليه أن ينتظر ما سيحل به من مصائب بسـبب سـخط الله عليـه. وهـو بـذلك فاسق لا يأمل في هداية الله.

ثم ذكر القرآن المؤمنين بعنايته بهم، وأنـه يسـر لهـم أسـباب النصـر فانتصـروا فـي حروبهم مع الكافرين. وفصل ما تم في حربهم مـع هـوازن فـي حنـين بعـد انتصـارهم العظيم وفتح مكة. إذ تقدم الجيش الإسلامي مزهـوا بكثرتـه للقـاء هـوازن ومـن انضـم إليهم من العرب الذين تغيظوا من فتح مكة. وتوزعـوا فـي مكـامن مـن حنـين ،وكـان الجيش الإسلامي يسير في أمنة، فباغته المهاجمون مـن كـل مكـان، فاضـطرب أمـرهم اضطرابا جعلهم يحسون كأنهم محاصرون، ولم يبـق لهـم فـي الأرض فسـحة، ففـروا، وثبت رسول الله ﷺ، ونادى في المؤمنين أن أقبلوا فالتحق بـه عـدد غيـر كثيـر، وأنـزل الله السكينة في قلب رسول الله وفـي قلـوب المـؤمنين بعـد ذلـك وأيـدهم بجنـود مـن الملائكة يقذفون في قلوب الأعـداء الرعـب والخـوف ،فتمكنـوا مـن الانتصـار علـيهم انتصارا مكنهم من سبيهم ومن الاسـتيلاء علـى سـلاحهم ومتـاعهم ومـن قتـل كثيـر منهم، فانهزموا شر هزيمة.

ثم أخبر الله أنه يتوب على من تاب، وأن تسليطه للمـؤمنين علـى الكـافرين الغايـة منـه كسر شوكة الكفر. وأن الله غفور رحيم بعبـاده. وفعـلا فإنـه بعـد أن انتهـت المعركـة وقفل ﷺ ومعه الغنـائم الـوفيرة، قـدمت هـوازن تائبـة ترجـو الصـفح عنهـا وقبـول إسلامها ورد السبايا. وأكرمهم ﷺ ورد عليهم سـباياهم، ثـم التحـق بهـم قائـدهم معلنـا

إسلامه فقبله رسول الله ﷺ وأكرمه بـرد مـا لـه ونفله بمائـة مـن الإبـل وولاه علـى قومه. فأصبح درعا للإسلام وكذلك يتوب الله على من يشاء.

بيان المعنى العام:

23 -24، يا أيها الذين آمون لا تتخذوا...لا يهدي القوم الفاسقين.

اهتمت سورة الأنفال بضبط أسـس العلاقـة التـي يرضـى الله عنهـا ويؤكـد حقوقهـا، والتي لا يعتبرها ويلغيها، وذلك في قوله تعـالى: **إن الـذين آمنـوا وهـاجروا وجاهـدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصـروا أولئـك بعضـهم أوليـاء بعـض ..... والذين كفروا بعضهم أوليـاء بعـض)**[1] وسـورة الأنفـال وسـورة بـراءة بينهمـا ترابط في كثير من الأغـراض والأحكـام. فكانـت هـذه الآيـات تعمـق وجهـة النظـر القرآني في العلاقات البشرية. ومن أهم العلاقات التي فطـر عليهـا البشـر مـا يحصـل منها بسبب النسب، وأقواها ما يحصـل فـي نطـاق الأسـرة القريبـة. إن هـذه العلاقـات تؤثر في ميول الفرد وعواطفه، مما يفضي إلى النصـر والبـوح بالأسـرار والـود .ولمـا كان المجتمع الإسلامي بقرب ولادته وتكونـه، وكـان بعـض المسـلمين ينتسـبون إلـى أسر لم تخلص جميع أفرادها من الشـرك، وكانـت هـذه العواطـف ربمـا يكـون لهـا أثرها في الرابطة الجامعة بيـنهم وبـين المـؤمنين، لـذلك دعـا الله المـؤمنين بوصـف الإيمان ليلحظوا أن علاقتهم بأفراد أسـرهم مـن آبـاء وإخـوة تفقـد قيمتهـا وتهتـز إذا تمكن الكفر منهم تمكنا قويا ، فـلا ينصـرونهم ولا ينتصـرون بهـم ولا يفضـون إلـيهم بأسرارهم ،إنه لا موالاة بينهم وبينهم .واحذروا فإن مـن تراخـى فـي هـذا الأمـر وشـد ارتباطه بالكافرين من أسرته ، فإنـه يعتبـر ظالمـا فـي ميـزان الله .وقـد تـوالى فـي القرآن جزاء الظالمين ومقتهم.

ثم يتوجه الخطاب للنبي ﷺ لينبههم ويوالي التحذير، يأمره أن يقول لهم قولا بينا لا غموض فيه، يقول لهم: هذه موازنة لا تقبل أن يكون أحد طرفيها مختلطا بالطرف الآخر.

الطرف الأول ويشمل :

1)حب الله بما يقتضيه من بغض كل من يطرح أوامره، ولا يخلص إليه، أو يعبد شيئا سواه.

2)حب رسوله باتّباع أوامره واجتناب ما ينهى عنـه ، فيكـون الله ورسـوله أحـب إليـه مما سواهما، وكلما تقابل حب الله ورسوله بداعية حـب تقتضـي تـأخير التعلـق قاومهـا ورفضها وأخلص حبه لله ورسوله .

[1] سورة الأنفال آية 74/73

3) حب الجهاد في سبيل نصرة الإسلام وإعزازه لا يشح بمال ولا يخشى الموت .

الطرف الثاني ويشمل :

1)التعلق بأي عضو من أعضاء الأسرة، تعلقـا يجعلـه مقـدما علـى مقومـات الطـرف الأول، بما تضمه من آباء وأبناء، وإخوان، وأزواج. وعشيرة.

2) التعلق بالمال الذي اكتسبه ، ولا شك أن المال الذي اكتسبه صاحبه بتدبيره وعمله، أعز على النفس من المال الموروث الذي لم ينشئه صاحبه ولم يبنه وحدة وحدة.

3) الحركة الاقتصادية والخوف من الكساد ،بما يدخله النشـاط النـاجح مـن بهجـة علـى النفس ،ويبعث لعريض الآمال.

4) المسكن المريح الذي يجد فيه ساكنه رفاهيته وراحته .

هذه المجموعة الثانية عزيزة على النفس قد يطغى حبهـا فيملـك كـل مشـاعر الإنسـان، ويكون الاختيـار عسـيرا عنـدما يحضـر الاختيـار بينهـا وبـين المجموعـة الأولـى، وبتفضيل الإنسان إحداهما على الأخرى يكون حظ الإنسان من سعادته أو شقائه.

فمنْ تمسك بمغريات المجموعة الثانية يكـون جـزاؤه الإهمـال مـن عـون الله، ثـم هـو مهدد بسوء العاقبة ينتظر تحققها في أي لحظة مـن لحظـات حياتـه. وهـو معنـى قولـه تعالى: فتربصوا حتى يأتي الله بأمره.

ويختم على المتهاونين بحب الله ورسوله والجهاد في سـبيله بـالحكم علـيهم بـأنهم فسـقة والله لا يسعف الفسقة بهدايته.

25←27، لقد نصركم الله....غفور رحيم .

هـزهم القـرآن لاستحضـار منتـه ببيـان المقابلـة بـين وضـعهم والله يمـدهم بعونـه ورعايته، وبين وضعهم حينما يتركهم لأنفسهم.

ذكرهم أولا بمتتابع النصر الذي به عزوا وبفضله تغلبـوا علـى أعـدائهم ونـزل الرعـب في قلوبهم. فالانتصارات التي تمكن بهـا المسـلمون مـن رفـع رايـة الإسـلام عاليـة، هادية البشر لدين الله كانت كثيرة.

كما ذكرهم بوضعهم في غزوة حنين ، فـي هـذا الـوادي بـين الطـائف ومكـة، هـذه الغزوة التي تقلب فيها الجيش الإسلامي بين الانكسـار الـوقتي وبـين النصـر العظـيم الذي هزم فيه الأعداء شـر هزيمـة وتمكـن المسـلمون مـن سـبي رجـالهم ونسـائهم وأموالهم ،تمت هذه الغزوة إثر فتح مكة. تغيظت قبيلـة هـوازن لمـا بلغهـا فـتح النبـي ﷺ لمكة ودخول قريش فـي ديـن الله ،فجـيش زعـيمهم مالـك بـن عـوف النصـري

المقاتلين من قبيلته ،ومن قبيلة ثقيف ، ونصر وجشم ،وسعد بن بكر ، وناس من بني هلال .

وتوجه صلى الله عليه وسلم في جيش يتألف من مقاتلة الفتح (**عشرة آلاف**) وانضم إليهم من مسلمة الفتح ألفان. وكلف النبي ﷺ الصحابي الجليل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، أن يدخل في هوازن ويستطلع أخبارهم ، فلما تيقن من عزمهم على قتال المسلمين رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر . فسار ﷺ لملاقاتهم في اثني عشر ألفا.

دخل المجاهدين زهو، إثر انتصارهم بفتح مكة من جهة، ولكثرة المقاتلين، بل تحدث بعضهم قائلا: لن نغلب اليوم من قلة. غفلوا عما أكده القرآن في تربيتهم على الاستعداد وقرنه بالتوكل، كما بيناه في سورة الأنفال. فأوكلهم الله إلى أنفسهم . فما حدث بعد ذلك ؟

وزع مالك بن عوف من معه في شعاب الوادي ومداخله. وبينما كان الجيش الإسلامي يسير مزهوا بكثرته إذ انقضت عليه هوازن وثقيف ومن معهم من الكفار، وكان للمفاجأة دورها في اضطراب الأمور، وولى المسلمون هاربين بل إن المساحات الشاسعة ضاقت عليهم فهم لا يدرون إلى أين يفرون. وثبت رسول الله ﷺ في قلة من المهاجرين والأنصار، ونادى فيهم بالإقبال على الجهاد والالتحاق به. فأقبل عليه جماعة من المهاجرين والأنصار. هذا وقد أفاق المسلمون بعد هول الصدمة، وإذا قلوبهم تتفتح على ثقتهم بربهم، واستجاب لهم ربهم فأنزل السكينة في قلب رسوله ﷺ ، سكينة طمأنته على المسلمين وتمثل بها أمامه النصر المحقق. كما أنزل سبحانه السكينة في قلوب المؤمنين فثبتوا في القتال، وذهب عنهم الجزع والخوف. وأيد المؤمنين بالملائكة تزرع في قلوب الكفرة اليأس والخوف والرعب. وما هي إلا جولات حتى انهدت قواهم فسهل على المسلمين أسرهم وقتلهم وغنيمة أموالهم . فكان العذاب النازل بالكافرين شاملا لصنوف من الإذلال والقهر، وذلك جزاؤهم.

وبعد منة النصر المبين، ذكر القرآن بمنة إلهية أخرى ، هي كأمثالها تعقب النصر الكبير على الكافرين. تتمثل هذه المنة في كرمه سبحانه، وقبوله توبة من تاب من أولئك الكافرين الذين استفاقوا فدخلوا في دين الله وقطعوا ما بينهم وبين الكفر من صلات. وهكذا فإن هوازن بعد انهزامهم قدموا على رسول الله مبايعين على الإسلام، يرجونه أن يرد عليهم السبايا اللاتي أسرن في المعركة وقبلهم

وأسعفهم بما يطلبون. ثم التحق بهم رئـيس هـوازن مالـك بـن عـوف معلنـا إسـلامه، فأكرمه ﷺ ورد عليه ما سلب منه ونفله بمائــة مــن الإبــل وولاه أمــر قبيلتــه فأصــبح رضي الله درعا للإسلام. وهذا تحقيق ينجز به الله غفرانه ورحمته.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (28) قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ (29) وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (30) ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (31)

بيان معاني الألفاظ:

النجس : ما كانت النجاسة ملازمة له.

العيلة : الفقر .

الجزية : المال الذي عقد عليه الذمي أمنه.

عن يد :طائعين غير ممتنعين.

صاغرون : الصغار فقد العزة والأنفة.

المضاهاة : المشابهة والمحاكاة.

أنى يؤفكون : أنى يصرفون ، إلى أي مكان يصيرون .

الأحبار : جمع حبر وهو عالم اليهود .

الرهبان : جمع راهب وأصله المنقطع لعبادة الله من النصارى.

بيان المعنى الإجمالي:

قطيعة تامة بين المشركين وبين المؤمنين في المسجد الحـرام، فبعـد سـنة تسـع يخـتص المؤمنون بالقيام على شؤون المسـجد الحـرام، ولا يسـمح للمشـركين لا بـأداء العبـادة

فيه ولا بتولي أي خطة فيه ولا بدخولـه. ولا تتعللـوا بـالنواحي الاقتصـادية التـي كـان للمشركين دور في تنشيطها فتخافون الفقـر تبعـا لانقطـاعهم، فـإن الله سيعوضـكم مـا يغنيكم عنهم بمشيئته. إنه لا تخفى عنه حاجتكم ولا يخرج شيء عن حكمته.

ثم حدد العلاقة بين المؤمنين وأهل الكتاب بعد ما حدد العلاقـة فـي الآيـات السـابقة مـع المعاهدين الناكثين والموفين. فـأمر المـؤمنين أن يقـاتلوا أهـل الكتـاب حتـى يرضـوا بالدخول تحت راية الإسلام، ويدفعوا مقابـل ذلـك مـالا مقـدرا هـو الجزيـة. ويحفـظ المسلمون لهم حياتهم وأرزاقهم ويدافعون عنهم ،فيما يدفعونـه كـل سـنة ،مما يحجـبهم عن الاعتزاز بـدينهم والتطـاول والشـغب علـى المسـلمين، يتحصـلون علـى الأمـن الكامل. وذلك لأنهم لا يؤمنـون بـالله ولا بـاليوم الآخـر إيمانـا صـافيا مـن الشـرك ، وبالتالي هم ليسوا على دين الحق .

ولمزيد التأكيد على أنهم ليسوا على ديـن الحـق ،صـرح القـرآن أن اليهـود يزعمـون أن عزير ابن الله ، ويـزعم النصـارى أن المسـيح ابـن الله ؛ ينشـرون هـذه المـزاعم بأفواههم فهم لا ينكرونها، فهم يبتعـدون عـن الـدين الحـق ويقتربـون إلـى المشـركين الذين سبقوهم. قتلهم الله قتلا شديدا ، فإلى مكان ينصرفون ، ولا ملجأ لهم .

وفوق ذلك فقد قدسوا أحبارهم ورهبـانهم تقديسـا لا يكـون إلا لله، وذلـك بطـاعتهم ولـو كان ما يأمرونهم به مناقضا لما في التوراة والإنجيـل. مـع أنهـم أمـروا أن يخصـوا الله وحده بالعبادة والطاعة، وهو المنزه عن شركهم.

بيان المعنى العام :

28. يا أيها الذين آمنوا...إن الله عليم حكيم.

تفتح الآية بنداء للمؤمنين نداء يتضمن تكليفا وعلة لذلك التكليف.

أما التكليف فهو أنهم من بعد انتهـاء موسـم الحـج سـنة تسـع للهجـرة، هـم وحـدهم الموكل إليهم القيام على المسجد الحرام، تأكيدا صـريحا لمـا جـاء قبـل ذلـك فـي هـذه السورة آية 18 إنما يعمر مساجد الله من آمـن بـالله واليـوم الآخـر. وأنهـم مكلفـون بمنع المشركين من الدخول إلى المسجد الحـرام ابتـداء مـن انتهـاء موسـم حـج ذلكـم العام.

وأما التعليل فهو لأنهم نجس، أي إن ما يبطنونـه مـن عقيـدة بلـغ الحـد الأعلـى مـن القذارة. فإن الكعبة أقامها إبـراهيم ﷺ لعبـادة الله وحـده، فدنسـوها بشـركهم، فوصـفهم بـ (نجس) تحقير لهم تحقيرا يقصيهم عـن منـازل الخيـر والفيـوض الإلهيـة. ويـدخل في ذلك منعهم من حضور مواسم الحج دخولا أوليا.

نفذوا ما أمركم الله به، واطردوا احتمال أن يكون منـع المشـركين مـن حضـور مواسم الحج، والقرب من المسجد الحرام، أن يكـون مـنعهم سـيحرمكم ممـا كـان المشـركون ينفقونه في الموسم وانتفاع أهل مكة منه، وما يترتـب عليـه مـن فقـر المحتـاجين ،فـإن الله سيغنيكم ويعوضكم عـن أمـوالهم. وتحقيـق ذلـك مـرتبط بمشـيئته واختيـاره إذ لا موجب عليه سبحانه. إن الله عليم يشمل علمه ما خفـي عـنكم ومـا ظهـر لكـم، وهـو يجري أمر الكون بحكمته. وفعلاً فإنه بعد قطع المسـجد الحـرام عـن المشـركين تـدفقت الخيرات من جميع الجهات على أهل مكة إثر دخـول النـاس فـي ديـن الله أفواجـا مـن مناطق عديدة من جزيرة العرب ومن اليمن.

تتبعنا ما قرره القرآن في ضبط العلاقة بين المـؤمنين وبـين المعاهـدين مـن المشـركين الناكثين، وغير النـاكثين المـوفين بعهـودهم. ومنـع المشـركين مـن قربـان المسـجد الحرام بعد سنة تسع. وتناولت هذه الآيـة العلاقـة بـين المـؤمنين وبـين أهـل الكتـاب، اليهود والنصارى ومن كان له كتاب يزعم أنه يعبد الله على ما هو مسطر فيه.

إنه لا يمكن أن تطمئن الدولة الإسلامية لسلامتها مـا لـم تـتمكن مـن جعـل كلمـة الله هي العليا. فأمر الله المؤمنين أن يقـاتلوا أهـل الكتـاب حتـى يظهـروا علـيهم ويبـذلوا الطاعة للدولة.

29- قاتلوا الذين لا يؤمنون...وهم صاغرون.

قاتلوا الذين جمعوا الأوصاف التالية:

1) الذين لا يؤمنون بالله. ولا يقصـد الإيمـان كيفمـا كـان ، ولكـن المقصـود الـذين لا يؤمنون بالله الإيمان الذي يرتضيه.

نعم إن اليهود والنصارى يدعون أنهم يؤمنون بالله واليـوم الآخـر ،ولكـنهم أدخلـوا فـي إيمانهم ما يجعل إيمانهم مغشوشا بعيدا عـن الصـفاء. فـاليهود مـن أسـس عقيـدتهم أن الله هو إله إسرائيل ، وأنه إله منحاز لهم ، وأنه لا يجري علـيهم مـا يجريـه علـى بقيـة الناس إذ هم أبناؤه وأحباؤه. وفي التوراة تجسـيم منكـر لله، وأن إسـرائيل أخـذ يصـارع الله إلى الصباح؛ إلى آخر ما أضافوه إلى الله مـن خيـالات وأوهـام تتنـافى مـع الكمـال والتوحيد.

والنصارى تقوم عقيدتهم على التثليث فـي الأقـانيم الثلاثـة، إن عيسـى ﷺ جمـع فيـه الجانب الإلهي والجانـب البشـري ، اتصـل اللاهـوت بالناسـوت. ويـدعون أن السـر يكمن في كون هذا المفهوم يسمو عن الإدراك، والحقيقة أنه يناقض قوانين العقل .

2) الذين لا يؤمنون باليوم الآخر على النحو الصحيح الذي يؤثر صلاحا في عقيدة البشر وفي سلوكهم . فاليهود يزعمون أن الله لا يحاسبهم على أعمالهم، وإنما تمسهم النار أياما معدودة بقدر عبادتهم للعجل ، وأن الله لا يؤاخذهم على ظلمهم لغير اليهود، ونحو ذلك مما هو مثبت في التوراة .وهو ما هو واضح من سلوكهم في جميع الأعصار .
والنصارى يختلفون اختلافا كبيرا في تصور مفهوم الحياة الآخرة ؛ ويزعمون أنه يكفي الإنسان أن يؤمن بأن المسيح صلب ليخلص البشرية من آثامها حتى تكتب له النجاة .زيادة على صكوك الغفران مقابل ما يدفعه المسيحي لرجال الكنيسة في المناسبات التي ضبطها القساوسة.

3) لا يحرمون ما حرم الله ورسوله. خذ مثلا لذلك الربا المجمع عليه بين جميع الديانات السماوية، فاليهود يقررون أنه لا يحرم على اليهودي التعامل بالربا إلا مع اليهودي فقط. والكنيسة المسيحية أحلته بعد قرون من تحريمه .وبنص الإنجيل لا يحل اتخاذ التماثيل ، وفي كل كنيسة تماثيل منصوبة يتمسحون عليها ويتبركون بها. وهذه أمثلة قليلة من عدم احترامهم لما جاء في التشريع الإلهي على لسان موسى وعيسى.

4) وكفذلكة جامعة لما بيناه في العناصر الثلاثة هم لا يدينون دين الحق، بل يدينون بدين مشوه، ركب عليه من الخيالات وحذف منه ما حذف تبعا للشهوات، ما أفقده سماته، وباعد بينه وبين كمالاته .

- إنه يرتفع وجوب قتالهم إذا أمن المسلمون من شغبهم ومن تطاولهم ورضوا بأن يعيشوا في دولة الإسلام التي تحفظ لهم حريتهم الدينية، وتدافع عنهم بما يضمن لهم أمنهم ، ويؤدون في المقابل جزية: مقدار مالي يضبط عند دخولهم في ذمة الدولة الإسلامية يؤخذ منهم كل سنة، فيدفعونه منقادين طائعين ولا منازعين في إعطائه. وأداء الجزية يلتصق به مظهر انقيادهم للدولة وعدم قبول أي مظهر ينبئ عن الاعتزاز بدينهم .

30 -وقالت اليهود عزير...أنى يؤفكون.

ثم أبرز القرآن بعض ما أعلنوه من دياناتهم التي يتضح أنه لا صلة له بالدين الحق. فاليهود في المدينة لإسباغ القداسة والتمييز على بعض من سلف من أحبارهم زعموا أن عزير وهو في التوراة (عزرا) وعربه القرآن بتصغيره . والذي أملى التوراة من حفظه وجدد الهيكل، أنه ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ففضحهم بأشنع ما اعتقدوه وصرحوا به مكررا . هذه الأقوال المختلقة يثبتون عليها ويشيعونها بأفواههم، فينعقد الشبه بينهم وبين المشركين، أي إنهم يبتعدون بذلك عن دين الحق ويشابهون المشركين. عجب أمرهم يدعون

أنهم على هدى المرسلين ويعتقدون ما لم ينزل الله به سلطانا. قاتلهم الله وهي صيغة تعجب من فساد القائل أو الفاعل، أي قتلهم الله قتلا شديدا لعظم نكارة ما قالوه ؛إنه لا ملجأ لهم. فإلى أي مكان يريدون أن ينصرفوا ، ولا مكان يأويهم مع مقالتهم المنكرة هذه.

31- اتخذوا أحبارهم ...عما يشركون.

ثم ارتقى القرآن في التشـنيع علـيهم .إذ تجـاوزوا تأليـه عزيـر وعيســى إلــى اتخــاذ اليهود الأحبار واتخاذ النصارى الرهبان أربابــا ، ورفعهــم عــن مرتبــة الإنســانية إلــى مرتبة الألوهية ،ومن أخص خصائص الألوهيــة أنــه وحــده الــذي يشــرع للنــاس مــا يرضيه ، وهؤلاء اليهــود والنصــارى قبلــوا وطبقــوا كــل مــا أمــرهم بــه أحبــارهم ورهبانهم ، وإن كــان مناقضــا لمــا ورد فــي الكتــب المنزلــة علــيهم. فســاووا تبعــا لمغالاتهم بين المسيح وبين الأحبار والرهبان. مــع أن الكتــب الســماوية والرســل الــذين بلغوها عن الله صرفوا كل همهم لتوحيد الله ونفي كــل أثــر مــن الشــرك فــي العقيــدة. فهو الله الواحد الذي لا إله إلا هو، تنزه عن كل ما يزعمون أنه شريك له.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإباية : الامتناع .

ليظهره : ليجعله أعلاها وينصره.

أكل المال بالباطل : الاستحواذ عليه بغير حق وبدون مبرر.

الكنز : ادخار المال .

سبيل الله : الجهاد .

يحمى : من الحمي وهو شدة الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

أعمى التعصب بصائر الأحبار والرهبان، فهم يريـدون أن يوقفـوا امتـداد نـور الإسـلام في الآفـاق، هـم عـاجزون، إذ تصـوروا الإسـلام كسـراج ينطفـئ إذا نفخـوا عليـه بأفواههم. وليبأسـوا فـإن الله قـدر أن ينتشـر نـور الإسـلام فـي الآفـاق ولـو كـره المشركون .ثم نبه القرآن إلى أن كثيرا مـن أحبـار اليهـود ورهبـان النصـارى فسـدوا في تركيبهم النفسي فسادا جعلهم يستبيحون الاستحواذ علـى أمـوال النـاس بغيـر حـق ، ويتناقضون مع ما يظهرون بـه ، فهـم يمنعـون النـاس مـن اتبـاع طريـق الصـلاح. وعطف عليهم الذين يجمعون الذهب والفضـة ليـدخروها، لا يـؤدون زكاتهـا ويشـحون بأموالهم عن تلبية الحاجات الأكيدة للمجتمع ؛ بشرْ هـؤلاء بعـذاب ألـيم يـوم يحضـرها الله فيحميها في نـار جهـنم ، ويكـوى بهـا كـل جـزء مـن أجسـامهم .ثـم يهـانون بمخاطبتهم ، كنتم ترون عزكم في أموالكم فكنزتموها فذوقوا العذاب بما كنزتم .

بيان المعنى العام :

32- يريدون أن يطفئوا...كره الكافرون.

يتواصل بيان القرآن مقررا ما عليه أهـل الكتـاب مـن عـداوة للإسـلام وعمـل علـى إيقاف مده، هم عزموا عزما بالغا أن يجتهدوا فـي إيقـاف انتشـاره فـي العـالم، ومـثلهم بحالة من وجد نورا خارجا من مصـباح فـأراد أن يـنفخ علـى السـراج بفمـه ليطفئـه فينقطع النور. وبهذا التمثيل يظهر القرآن ضعفهم ووهـنهم وعجـزهم عـن تحقيـق مـا أرادوا .فإن الله سبحانه قرر أنه سيتم نـوره .نـور الإسـلام وسـيبلغ أقاصـي الأرض ، ولا يريد القادر الواحد إلا أمـرا واحـدا وهـو أن يبلـغ الإسـلام تمامـه . وإذا تعلقـت الإرادة بذلك حتـى أخرجهـا فـي صـورة حصـر الإرادة فـي إكمالـه، فمـا معاكسـة الكافرين من أهل الكتاب إلا سعي ضائع لا قيمة له ولا تأثير.

33-هو الذي أرسل ...ولو كره المشركون.

واصل القرآن إبراز ما خص الله بـه الإسـلام، ومـا فيـه مـن قـوة ذاتيـة ، ذلـك أن الرسول الذي بلغه هو رسول رب العالمين ، أرسله بدين هـو الهـدى الكامـل ففـي كـل ما جاء به بيان للطريق السوي الـذي لا يضـل سـالكه .وأنـه ديـن لا باطـل فيـه ولا زيغ. وفي ذلك تعريض بأن مـا هـم عليـه لا يحقـق لهـم الهدايـة ولا الاقتـراب مـن الحق، بل يمد لهم في الضـلال والباطـل . وإذ تجمـع فـي ديـن الإسـلام الخصـائص الذاتية المذكورة فهو جـدير بـأن يعلـو فـي ميـدان النظـر ، وفـي ميـدان التطبيـق بصلاح معتنقيه ، على سائر الأديان .كيف لا وهو الـذي طهـر العقـول مـن الخرافـات

والأساطير، وطهر السلوك من الإثم والزيـــغ ، وسـما بـالأرواح إلـى مسـتويات رفيعـة دنت من مستوى الطهر الكامل ، ووالى عنايتـه بهـا بمـا شـرعه مـن صـلاة يسـرها ورفع الحرج في أدائها، وكذلك بقية العبادات .

34-35، يا أيها الذين آمنوا...ما كنتم تكنزون.

من فساد الرؤساء الدينيين زيـادة علـى مـا عرضـته الآيـة السـابقة، أن كثيـرا مـنهم يستولون على أموال النـاس بالباطـل، فهـم يأخـذون الرشـاوى ليعطـوا للظـالم الحـق ويحجبوه عن صاحبه، ويعطون للفساق صـكوك الغفـران، ويغيـرون الأحكـام إرضـاء لأصحاب الجاه والسلطة . وهم يناقضون ما يظهـرون بـه للنـاس ، فهـم يـدعون أنهـم يقودون الناس للخير، وفـي الحقيقـة هـم يمنعـونهم مـن الـدخول فـي الإسـلام بمـا يروجونه مـن أكاذيـب وتحريـف للإسـلام، ويضـللون أتْبَـاعَهُمْ فيجعلـونهم يعملـون بخلاف ما جاء في كتبهم، وما يزال هـذا ديـدنهم، فهـم بـذلك يقفـون سـدا مانعـا مـن الاهتداء خوفا على حظوظهم الدنيوية أن تتبخر. ومن حكمـة القـرآن وإنصـافه أنـه لـم يجعل هذا حكما عامـا، ولكـن نسـبه إلـى الكثـرة الكـاثرة مـنهم ومـا يـزال بعـض المنصفين منهم يعلن الحق ويؤيده.

وقرن القرآن الذين استولى عليهم النهم المالي وسـوء الطويـة، بضـرب آخـر قريـب منه، وهم الذين استولى عليهم حب المال فتعلقـوا بجمعـه ، وادخـاره، تـراهم يجمعـون الذهب والفضة ، يزداد شرَهُهُمْ للجمع ، ولا يـرون وظيفـة للمـال إلا خزنـه وتكديسـه، ولا يشاركون الأمة بالإسهام بالإنفاق في الجهـاد الـذي يحفـظ العـزة ويحمـيهم ويـوفر الأمن للجميع. ولا يخرجون الزكـاة الواجبـة، وبصـفة عامـة يشـحون بـأموالهم كلمـا وقعت المجموعة في حاجة حسبما يقدره ويدعو إليه ولاة العدل.

وأما إذا كان جمع المال وكنزه من الأوجه الحـلال ، وأديـت زكاتـه ، ولـم تقـع الأمـة في ضائقة ظرفية تحتم إسعاف أصحاب الثراء لإخراجهـا مـن الوضـع الحـرج، فكنـز المال ليس مذموما ولا منهيا عنه. وهـذا مـذهب معظـم الصـحابة وأئمـة الفقـه. وقـال أبو ذر رضي الله عنه : ما فضل من مال الرجل عـن نفقتـه فهـو كنـز . وعـن علـي كرم الله وجهه: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة، وما زاد عليها فهو كنز.

إن الذين حددت الآية ملامحهـم إمـا(**الـذين يكنـزون**) وإمـا: الـذين يـأكلون أمـوال الناس بالباطل ويصدون... والذين يكنـزون، فبشـرهم بعـذاب ألـيم. وإذا كانـت أصـل البشارة في الإعلام بما يدخل البهجة ويحبـه المبشـر، فإنـه قـد تسـتعمل فـي الإخبـار بالمكروه تهكما ومنه ما ورد في هذه الآية. فبمـا ذا أمـر الرسـول ﷺ أن يبشـرهم بـه؟

إن ما كنزوه من دنانير ودراهم أو ما تمثلـه كـالأوراق النقديـة، تلقـى فـي أشـد نـار حامية وهي نار جهنم ، يكوى بها كـل جـزء مـن أجسـامهم جبـاههم ،وجنـوبهم مـن اليمين والشمال، وظهورهم، وصرح بتفصيل ما يشـوى بـه كـل عضـو مـن أعضـائهم للتهويل. وليس العذاب واقعا بنفس ما جمعوه فـإنهم يتركونـه وراءهـم ويفـوز بـه مـن يفوز، ولكن القدرة الإلهية تمثله يـوم القيامـة وتعاقـب بـه مـن أنـذرهم القـرآن بهـذا العذاب.

وبجانب العذاب الجسدي عذاب نفسي مضـاعفة فـي النكـال والإيـلام، يخـاطبون مـن حيث لا يشعرون خطابا تتجاوب أصـداؤه فـي جهـنم والعيـاذ بـالله: هـذا مـا كنـزتم لأنفسكم تتقون به تقلب الأزمان، ولتكون لكم متعة وجمالا، فذوقوا عاقبة ما كنزتم.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الشهور : هي الشهور القمرية .

عند الله : في حكمه .

في كتاب الله : في محكم تقديره الأزلي.

الدين : النظام المنسوب إلى الخالق .

ظلم النفس : فعل ما يترتب عنه ألمها باقتحام ما نهى الله عنه.

كافة : تدل على العموم والشمول.

النسيء : كلمة مشتقة من النسأ بمعنى التأخير. ومنه تأخير الشهر حرام عن موعده

المواطأة: الموافقة .

التزيين : التحسين.

بيان المعنى الاجمالي :

أدخل المشركون الفوضى في الزمن، هذا الـزمن الـذي ضـبطه الله ضـبطا دقيقـا مـن اليوم الأول الذي خلق السماوات والأرض، فجعل الأشـهر القمريـة اثنـي عشـر شـهرا، وخص أربعة منها فجعلها أشهرا حرما، هـي ذو القعـدة وذو الحجـة والمحـرم وشـهر رجب. وهي تتميز بأن فعل الخيـرات فيهـا يتضـاعف ثوابهـا ، كمـا تتضـاعف آثـام العصاة. وأن هذا هو الـدين الكامـل، فإيـاكم أن تسـيؤوا إلـى أنفسـكم بحرمانهـا مـن الثواب المضاعف لصالح الأعمال ، أو مضاعفة العقوبة على العصيان.

وذكرهم بوظيفتهم التي هي جهاد جميع المشـركين حتـى تخلـص جزيـرة العـرب مـن المشركين الذين يتساندون لحربكم .واطمئنوا فإن الله مؤيد للمتقين .

ومن عبث المشركين أنهم عمدوا إلى الأشـهر الحـرم فرفعـوا حرمـة بعضـها، بتـأخير شهر من الأشهر الحرم إلى غيـر موقعـه فـي السـنة وسـموه: **(النسـيء)** فاختلطـت المناسبات الدينية التي كان سنها إبراهيم ﷺ ، وعملهم هـذا إغـراق فـي الكفـر وتبـديل ما أحكمه الله، وأصبح الشهر الحرام لا حرمـة لـه والعكـس، وهـم يتـأولون أن عملهـم هذا سينتهي إلى التوافق بين ما بدلوه وبـين مـا حرمـه الله .والعجيـب أنهـم يظنـون أن عملهم السيء هذا حسنا. فكانوا مغرقين فـي الضـلال، والله لا يسـعف القـوم الكـافرين بهدايته .

بيان المعنى العام:

36- إن عدة الشهور ....أن الله مع المتقين .

الزمن من مقومات العقل العملي، وكـل مـا كـان مـن مقومـات العقـل فهـو مـرتبط بالحقائق الواقعية التي لا تحتمل التبديل ولا التغيير، لأنـه بالعقـل يـرتبط البشـر وتسـمو معارفهم، ويتمكنون من تبادل المنافع بينهم.

ومن ضلال المشركين أنهـم تـدخلوا فـي الـزمن فغيـروا أوضـاعه، وربطـوه بهـوى زعيم من زعمائهم.

إنه مما أصلح به القرآن أمر البشرية ضبط الزمن للنـاس، فعـرفهم علـى المبنـى الـذي بني عليه هذا النظام. عرفهم بما يسر لهـم مـن الملاحظـة أن الله لمـا خلـق السـماوات والأرض ربط بين حركاتها بنظام محكم بنـى عليـه نظـام الوقـت ومكـن البشـر مـن معرفته على مرتبة سواء. فالقمر يدور حـول الأرض فـي شـكل حلزونـي يبـدأ هـلالا ثم يكبر ثم يتناقص إلى أن يبلغ المحاق، فيتم الشهر. ثـم بعـد اثنـي عشـر شـهرا يعـود للظهور من المكان الذي طلع في مثله قبلها وهكذا. إنّـه أجـرى أمـر الكـون علـى هـذا

النظام والتحديد فسرى عليه بتقديره المحكم من يوم خلق السماوات والأرض. وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة في كتابه ليبين أنه لا دخل للناس في تحديد مواقع الشهور ولا في عددها في السنة.

وأن من بين الشهور أربعة أشهر خصها الله بمزيد حرمة يتضاعف فيها ثواب المحسنين المتقين، كما يكون إثم المنتهكين لحرماتها أعظم وأشد نكارة .وهي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم وشهر رجب الذي بين جمادى وشعبان وهذا ما عليه أكثر قبائل العرب، وعند ربيعة الشهر الرابع رمضان بدل رجب.

ولحرمتها نبه الله المؤمنين ليكونوا يقظين مستقيمين عاملين على فعل الخير منتهين عن الفساد والشرفي هذه الأشهر الحرم. نبههم إلى أن فعل الصالحات يتضاعف أجرها كما يتضاعف إثم المعاصي. وأن من انتهك حرمات الأشهر الحرم فقد ظلم نفسه بما فوت عليها من الخير، وحملها من الإثم المضاعف. ومن العلماء من حمل المعنى على أنه لا يقوم المسلمون بقتال المشركين إلا إذا بدأوهم بالقتال .

والراجح عندي هو المعنى الأول، وذلك لما لحق بالآية من قوله تعالى: **وقاتلوا المشركين كافة**. فإن تذكيرهم بقيامهم بالجهاد وتتبع المشركين أينما كانوا وحيثما حلوا، يكون أنسب بعدم تخصيص الأشهر الحرم بتوقيف القتال. إذ مؤدى الآية مع التعميم الشامل ينبئ أن مهمة المؤمنين هي اجتهادهم في استئصال الشرك من الجزيرة العربية ، فلا يتقيدون في ذلك بزمن ولا عهد ناكث. ومما يشجعهم على تحقيق صفاء الجزيرة من الشرك، وأن يكونوا يدا واحدة عليهم، هو أن المشركين متضامنون على الوقوف في وجه الإسلام ومحاربته.

وتضخ الآية في قلوب المؤمنين مددا من الثقة بالانتصار على الشرك، بالوعد الكريم أن الله مؤيد للمتقين يعينهم ولا يخذلهم.

37-إنما النسيء زيادة ...لا يهدي القوم الكافرين .

ثم صرح القرآن بما كان من تلاعب المشركين بالزمن فأبطله وبين فساده . كان من أمر المشركين أن زعيم الحج يملك في نهاية الحج أن يعلن تحويل الأشهر الحرم حسب هواه، فكثيرا ما يعلن أن شهر المحرم هو صفر، وينبني على ذلك أن يتحول شهر ربيع الأول إلى المحرم فيحسبون الأشهر هكذا صفر- محرم - صفر- ربيع الأول- وهكذا فتبلغ أشهر العام ثلاثة عشر شهرا. وعلل ذلك بأنهم لا يصبرون على القتال ثلاثة أشهر متوالية ذي القعدة وذي الحجة والمحرم. كما علل بأنه لما كان العام القمري ينقص أحد عشر يوما عن العام الشمسي فإذا أضافوا

شهرا لعامهم يعودون عليه بعد ثلاث سنوات ،فيتم التوافق بين الضبطين الشمسي والقمري . وأيا ما كان ما اتخذوه من مبررات فهي مبررات واهية مناقضة للطبيعة التي خلق الله عليها الكون.

إن تدخل المشركين في ضبط الأشهر، وتأخير شهر المحرم عن مكانه المعبر عنه (**بالنسيء**) إنما هو إغراق في الكفر، باعتبار أن هذا التأخير تشريع ينقض الحقيقة، ويقلب الشهر الحرام إلى شهر غير محرم والعكس ،كما يحول المناسبات التي ربط الله العبادة بها فتقع في غير موقعها. فهي فوضى وتحكم لا أساس له، يقصدون الإضلال .

إن سيدنا أبا بكر ﷺ لما حج بالناس سنة تسع كان شهر الحج هو ذو القعدة. وأن النبي ﷺ سنة عشر أرجع شهر ذي الحجة إلى موقعه الحقيقي من السنة. وقد قال ﷺ في حجة الوداع : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات؛ ذو القعدة ،وذو الحجة، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان)[1]

وحسب جميع المقاييس يكون النسيء ضلالا وإضلالا وعبثا، مع هذا فقد فسد نظامهم العقلي فهم يعتبرون هذا الفساد البين أمرا حسنا. والله يحجب الكافرين عن الاهتداء للحقيقة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

[1] رواه الشيخان وأحمد واللفظ للبخاري. فتح الباري 9 ص394/95

بيان معاني الألفاظ:

النفر : التنقل بسرعة من مكان إلى مكان.

اثاقلتم: تثاقلتم. تباطأتم ولم تسرعوا للإجابة.

متاع : الشيء المتمتع به .

السكينة : اطمئنان النفس ، وخاصة في الظروف الحرجة.

بيان المعنى الإجمالي:

الأيات نزلت في غزو تبوك دعا النبي ﷺ سكان المدينة في شهر رجب من سنة تسع كي يستعدوا للخروج معه لنشر دين الله في الأراضي التابعة لدولة الروم. السفر بعيد والزمن حر شديد ، فتثاقل بعض الناس من المؤمنين وكذلك المنافقون عن الإسراع للاستجابة، فعاتبهم القرآن على تثاقلهم عن القيام بواجبهم في نشر الدعوة وحبهم للراحة .وواصل تأنيبهم عن موقفهم الذي يدل على أنهم فضلوا متاع الحياة الدنيا على الأجر العظيم في الآخرة. إن متاع الدنيا تافه وقليل بالنسبة لما يناله المؤمنون المجاهدون في الآخرة.

إنكم إن لم تنفروا مع رسول الله فإن الله سيعذبكم عذابا أليما على تهاونكم. والله غني عنكم وهو قادر أن يستبدل بكم قوما آخرين ينصرون دينه، ولا يتضرر الرسول بذهابكم. إن الله على كل شيء قدير، قدير على إذهابكم واستبدالكم بمن هم خير منكم.

إن الله تكفل بنصر دينه، فإن تخاذلتم عن نصره فإن ذلك لا يوقف المد الإسلامي، وتذكروا أن الله أيده بنصره يوم لم يكن معه إلا أبوبكر وهما في الغار وقريش تتبع آثارهما في كل مكان. ففي هذا الموقف الصعب أنزل الله سكينته على رسوله فكان يجد في قلبه طمأنينة لا خوف معها، وكان يطمئن صاحبه ويقول له : لا تحزن إن الله يؤيدنا ولا يتركنا لبأس الأعادي. وأيد الله رسوله بجنود من الملائكة فكانوا يصرفون القرشيين عن الوجهة التي تمكنهم من رسول الله إلى وجهات أخرى كلها ضياع حتى بلغ رسول الله ﷺ المدينة المنورة. فذهب أمر الكفار إلى الأسفل مهينا، وعلت كلمة الله. والله عزيز لا يغلبه شيء حكيم في فعله لا تغيب عنه أي ناحية.

بيان المعنى العام:

38- يا أيها الذين آمنوا مالكم ...إلا قليل .

في شهر رجب من سنة تسع دعا النبي ﷺ المؤمنين بالمدينة أن يتجهزوا لقتال الروم. كان الحر شديدا، ونضجت الثمار في الواحة المباركة حول المدينة .إن الحر

الشديد والظل الظليل في حدائق المدينة المنورة ، والثمـــار التـــي آنـــت أكلهـــا ، وهـــوى النفوس أن تخلد للراحة وأن تأخـــذ حظهـــا مـــن مغريـــات الإقامـــة وأن لا تقـــدم علـــى السفر، خاصة إذا كان إلى مسافات بعيدة فـــي الصـــحراء، كـــان ذلـــك امتحانـــا فاضـــحا للمنافقين الذين تباطـــأوا عـــن الاســـتجابة ، واختلقـــوا المعـــاذير الواهيـــة الكاشـــفة عـــن كذبهم، كما تثاقل بعض المؤمنين فلـــم يظهـــر مـــنهم مـــا يـــدل علـــى أنهـــم سيشـــاركون الجيش الإسلامي في المهمة التي انتدبوا إليها.

كان النبي ﷺ لا يصرح بقصـــده للمكـــان الـــذي سيســـير بـــالجيش إليـــه ، حتـــى يُعَمِّـــي الأخبار على الأعداء وإنما يُورّي .أما في غزوة تبـــوك هـــذه، فقـــد أعلـــم المـــؤمنين بأنـــه قاصد الروم في معاقلهم الأولية .

ظهرت حركة كبيـــرة فـــإذا المدينـــة كخليـــة النحـــل بعـــد هـــذه الـــدعوة للجهـــاد ، وإذا المؤمنون بعضهم يعد عدته من الظهر ومن السلاح ، وبعضـــهم يضـــيف إلـــى ذلـــك أنـــه يحمل إلى النبي ﷺ ما عنده من فضل ليجهز به وليساعد به مـــن تقعـــد بـــه قلـــة ذات يـــده عن الإسهام في الغزوة ، وبعضهم يختلق المعاذير ويتـــوارى. لـــم يجبـــر النبـــي ﷺ أحـــدا على الخروج للغزو ، وتركهم لما وقر في نفوسهم من الإيمان .

سار الجيش بقيادة رسول الله ﷺ ، وقد فتح الله عليه فـــدخل صـــاحب أيلـــة يوحنـــة بـــن رؤبة تحت راية الإسلام وصالح بـــدفع الجزيـــة ، وكـــذلك أهـــل جربـــاء وأذرح. وكـــذلك ملك دومة الجندل من قبل الروم أكيدر بن عبد الملك من كنـــدة أســـر ، ثـــم صـــالح علـــى دفع الجزية. وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا في الصلح وثقه ابن هشام[1].

افتتحت الآية بعتاب المتخلفين عن الإســـهام فـــي غـــزوة تبـــوك، وســـئلوا ســـؤال إنكـــار عليهم موقفهم ، إنه لا عـــذر لهـــم فـــي تثـــاقلهم وعـــدم إســـراعهم إلـــى تأييـــد الجـــيش الإسلامي ، وقد دعوا لذلك دعوة عامـــة : أســـرعوا بـــالخروج إلـــى الجهـــاد فـــي ســـبيل نصرة الدين ونشر رايته في العالمين . وقد صـــورهم القـــرآن صـــورة مســـتهجنة كـــأنهم كتل من اللحم ثقيلة تجذبها الأرض ويكلفها القيام عنتا (اثاقلتم إلى الأرض)

ثم وبخهم القرآن على تثاقلهم مخاطبا: هل انشـــرحت صـــدوركم للحيـــاة الـــدنيا ومتاعهـــا، وقدمتموه على الآخرة ؟ أين عقولكم وما يقتضيه إيمـــانكم؟ إن متـــاع الـــدنيا ومـــا تحويـــه من نعيم هو أمر تافه لا قيمة له بالنسبة لما أعده الله للمجاهـــدين فـــي ســـبيله مـــن كرامـــة في الجنة.

[1] سيرة ابن هشام ج 4 ص180/182

39-40، إلا تنفروا يعذبكم ...والله عزيز حكيم.

ثم عمق التوبيخ قارنا له بالوعيد فخاطبهم: إنه إذا سمعتم الدعاء للنفير ولم تسرعوا، فتربصوا أن يسلط عليكم عذاب أليم. وفوق هذا فإن الله قادر على أن يسحقكم ويبدل رسوله قوما خيرا منكم يقومون بالمهمة التي شرفوا بالقيام بها. واستبدالكم بقوم آخرين خير منكم، أمر هين على الله، فهو القادر على كل شيء.

ثم بالغ في التأنيب: إنكم إن تخاذلتم ولم تنصروه وأخلدتم إلى الراحة والظلال، فإن الله ناصره وهذه إرادة الله وقدره كما تقدم في هذه السورة آية 33: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) إنه الله نصره على أعدائه يوم كان يختفي في غار ثور مع صاحبه أبي بكر الصديق ، وقد أخذت قريش على جميع الطرق ووعدت بسخي الجوائز لمن يظفر به ، ونصره الله. هذه الثقة بالنصر التي تركزت في قلبه ﷺ ؛ تبينوها فهو في هذا الظرف الحرج يثبت صاحبه ويقول له: لا تحزن فإن الله معنا ناصرنا فلا تستطيع قريش أن تصل إلينا . فإذا تحقق نصره وهو مع صاحبه فقط فكيف به وهو اليوم ومعه عشرات الآلاف من المؤمنين يفدونه بأرواحهم؟

إن خروج النبي ﷺ من مكة حتى وصل الغار مع أبي بكر ،صاحب ذلك أن الله أنزل السكينة في قلبه ، فهو في كل حالة يشعر بطمأنينة تامة ،واثق من تأييد الله له ، وفعلا فقد أيده ربه بجنود من الملائكة صرفت تصورات المشركين وتدبيرهم عن بلوغ المكان الذي يختفي فيه ،كما صرفتهم عن الطريق الذي سلكه إلى المدينة المنورة. وكان من أثر هذا التدبير الإلهي أن جعل الله شأن الذين كفروا ذاهبا إلى الأسفل حقيرا لا قيمة له سينتهي إلى المحاق. وتظهر كلمة الله متميزة ودينه سامقا إلى العلو ينتشر في عزة .

والله عزيز لا يغلب إرادته وقدرته شيء، حكيم في تصريفه للأمور لا يفوته مقصد.

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ

صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

خفافا: جمع خفيف، أصله الذي يمكنه وضعه الجسمي من سرعة الحركة والنهوض.

عرضا: ما يلفت الاهتمام من متاع الحياة الدنيا.

القريب : قصير المسافة التي تبلغ إليه.

سفرا قاصدا : سفرا متوسطا.

الشقة :المسافة الطويلة.

يهلكون : يوقعون أنفسهم فيما يوجب لها المضرة الشديدة.

الاستئذان : طلب الإذن .

ارتابت : شكت.

التردد : ذهاب ورجوع في مكان واحد لا يتحول صاحبه عن موضعه. والمقصود الحيرة.

عدة :ما يعد للحرب من سلاح وتدبير .

انبعاثهم : نفوذهم لهذه الغزوة.

التثبيط : كسر العزم.

الخبال : اضطراب الجيش واختلال نظامه.

أوضعوا : الإيضاع تحريك البعير ليسرع في سيره.

قلبوا لك الأمور : أحكموا خطط المكر وتحوطوا لكل الاحتمالات.

بيان المعنى الإجمالي:

حــرك القــرآن المــؤمنين ليســارعوا إلــى اســتجابة الــدعوة للجهــاد، علــى مختلــف مستوياتهم في الكفاءة، وأن علــيهم أن يبــذلوا الأمــوال لتجهيــز الجــيش، ثــم علــيهم أن يقوموا بالجهاد فــي ســاحة المعركــة. والجهــاد خيــر لكــم إذا تــأملتم ، فــي العاجــل والآجل. ولام القرآن بعضهم على وهن عــزائمهم مبــرزا أنهــم لــو دعــوا إلــى متــاع قريب من متع الدنيا أو إلى سفر غير بعيد، لاســتجابوا. ولكــن عــزائمهم لا تتحمــل بعــد المسافة، ثم هم يحلفون الأيمــان الكاذبــة أنهــم كــانوا عــازمين علــى الخــروج ولكــن حصلت لهم أعذار منعتهم. أهلكوا أنفســهم بجمعهــم بــين عــدم المشــاركة فــي الجهــاد وبالكذب وبالحلف عليه. وأيمانهم لا تروج على العليم الخبير فهو يعلم كذبهم.

لاطف المولى سبحانه نبيه لما قبل عذر الــذين تخلفــوا عــن الجهــاد ، فبــادره بــأن الله عفا عنه فلا تثريب عليه. ثم أردف ذلــك بســؤال : لمــاذا عــذرتهم قبــل أن يتبــين لــك المعتذرون الصادقون من المعتذرين الكاذبين؟

لا يتقدم إليك المؤمنون الصــادقون يطلبــون الإذن لهــم فــي الجهــاد، فهــم بمجــرد مــا استمعوا الأمر بالنفير أعدوا له عدته ليبــذلوا أمــوالهم وأنفســهم يــدفعهم إلــى ذلــك مــا انطوت عليه نفوسهم من التقوى. وينحصر الاستئذان فــي الــذين فقــدوا الإيمــان وتمكــن الشك من قلوبهم وهم غارقون في التردد.

لماذا هذا التدجيل ودعواهم أنهم تخلفوا لأعذار حصــلت لهــم ، ينبئــك عــن كــذبهم أنهــم لو كانوا فعلا عازمين على الخروج مع المؤمنين لأعــدوا العــدة لــذلك. ولكــن الله الــذي يلطف بالمؤمنين لم يــرد أن ييســر لهــم الاندســاس فــي الجــيش الإســلامي ، فــوهّن عزائمهم ، وناداهم مناد من باطنهم اقعدوا ولا تنفــروا ، اقعــدوا مــع العجــزة والأطفــال والمرضى.

إنهم لو اندسوا في صفوفكم فإنهم لا يضــيفون إلــيكم إلا اضــطرابا ،ولأخــذوا يســرعون متنقلين من مكان إلــى آخــر ومــن جماعــة إلــى جماعــة يروجــون زائــف الأخبــار يقصدون إلى بث الاختلاف والبلبلة في صــفوفكم ، خاصــة وبعــض الجــيش الإســلامي يروج عليه ما ينشرونه من أكاذيب . هم ظلمــة والله علــيم بهــم لا يخفــى عليــه ســيء مقاصدهم .

إن رغبة المنافقين في نشر الفتنة بين المؤمنين صــفة لازمــة لهــم، قــاموا بــذلك قــديما كما في وقعة أحــد، وشــأنهم أنهــم يعــدون الخطــط المــاكرة ويحكمونهــا، فمعهــم الله

فاظهر الله دينه وتم فتح مكة وبلوغ راية الإسلام إلــى تخــوم الــروم. وكُــرْهُهم للإســلام لا يزيدهم إلا نكدا.

بيان المعنى العام :

41-انفروا خفافا وثقالا ...إن كنتم تعلمون.

استنهاض للمــؤمنين أن يســرعوا للاســتجابة لــداعي النفيــر إذا دعــاهم الــداعي إلــى القتال، من أمكنــه الخــروج بســهولة ومــن يتكلــف ذلــك ، الغنــي والفقيــر، والشــاب والشيخ، والنشيط والكاسل، ومن له شغل والعاطــل ،ومــن لــه ضــيعة ومــن لا ضــيعة له، والشجاع والجبان. فجميع من توجــه إليــه الخطــاب عليــه أن يســتجيب، علــيهم أن يجاهدوا في سبيل نصر ديــن الله بــالأموال والأنفــس. هــم فــي أول الأمــر مطلوبــون ببذل الأموال ولذلك قدم في النص القرآني، حتــى إذا اســتعدوا خرجــوا ليبــذلوا نفوســهم نصرا لدينه.

إن مشاركتكم في الجهاد هي خير لكم، إذ يكتب لكم أجــر نصــرة دينــه، يكتــب بــه لكــم العزة، فيهابُكُمْ أعداؤكم، ويمتن العلاقة بينكم، تــأملوا لتــدركوا مــا يترتــب علــى الجهــاد من خيرات.

42- لوكان عرضا قريبا...لكاذبون.

ثم عاد القرآن لتأنيبهم، وأن عزائمهم متراخية لا ترقــى إلــى المســتويات الرفيعــة، إنــك لو دعوتهم لأمر قريب ليست له قيمة كبرى مــن أمــور الــدنيا، أو دعــوتهم لسـفر غيــر بعيد، لاستمعوا إليك واتبعوك ، ولكن الــذي عــوقهم عــن الخــروج مــا صــرُحت لهــم بتدقيق الجهة التي تقصدها ، إلى مشــارف الشــام باعتبــار بعــد المســافة. خــافوا مــن السفر البعيد ، فتعللوا مقسمين بالله بــأنهم غيــر قــادرين علــى الخــروج معكــم ، وهــم كاذبون .فأوقعوا أنفسهم فيما يوجب لهــا الخســارتين، إذ جمعــوا إلــى الكــذب فســقطت منزلتهم عند رســول الله، وإثــم اليمــين الفــاجرة ، تهــاونوا برقابــة الله علــيهم وقــدموا تعلاتهم إرضاء لكم حتى لا تسقط منــزلتهم عنــدكم . والله يعلــم حقيقــة أمــرهم فســجل أنهم كاذبون

43--45- عفا الله عنك ...يترددون.

استأذن بعض المتخلفين عن الجهاد الراضين بالبقــاء النبــي ﷺ أن يتخلفــوا عــن الغــزو، وقدموا له أعذارا قبلها منهم وعــذرهم. وفــي قبولــه أعــذارهم بتصــديقهم دون محاســبة تفضح أمرهم وتكشف عن حقيقتهم ليعلمهــا المؤمنــون تغطيــة علــى المتخــاذلين، ولكــن

الله قبل أن يوجه الملامة إلى رسوله، افتتح الكـلام بمـا يفيـد تقريبـه وأنـه عـذره فـي اختياره ، فبدأ الخطاب بقوله تعالى: عفـا الله عنـك، أنـت غيـر مؤاخـذ علـى قبولـك أعذارهم .ثم بين القرآن الأولى به ﷺ في هـذا المقـام مـع التلطـف بـه ،علـى صـورة سؤال لإظهار علة تقدمه بـالإذن، لـم أذنـت لهـم؟ علـى أن تـرك الإذن كـان أنسـب بوضـعهم، وأن تتـأنى ليظهـر لـك الصـادقين وهـم المؤمنـون الـذين كـانوا حقيقـة معذورين، وتتبين المنافقين الكاذبين.

ثم فصلت الآية الاستئذان، وأنه على نوعين تبعا لعقيـدة المسـتأذن. فأمـا المؤمنـون فهـم إذا استنفروا للجهاد لا يستأذنونك في الخـروج إليـه. لأنـه معلـوم لـديهم أن علـيهم أن يستجيبوا لدعوة الجهاد إذ هـو مقتضـى إيمـانهم بـالله واليـوم الآخـر، فإيمـانهم بـالله يدفعهم لنشر دينه ونصر جنده، وإيمانهم باليوم الآخـر يـدفعهم إلـى السـبق لنيـل ثوابـه العظيم يوم القيامة.

ويتأكد هذا المعنى بأن الله علـيم بمـا تنطـوي عليـه قلـوب المتقـين الـذين يسـارعون لمرضاة ربهم تبعا لصفاء أرواحهم.

وفي المقابل فإن الذين يختصون بالإسـراع إلـى الاسـتئذان للتخلـف عـن الغـزو هـم الذين خلت قلوبهم من نور الإيمان بـالله ، فلـذلك هـم يريـدون الـتخلص مـن الأمـر ، كما أنهم لا يؤمنون بالآخرة فلا يقيمون وزنـا ليـوم القيامـة الـذي يفـتح الـنفس علـى الجهاد ابتغاء ثواب الله. ثم انضاف إلى ذلـك تمكـن الشـك مـن عقـولهم ، فهـم بـين توقع انتصار المسلمين على الروم ، وبين استبعاده لمـا يعلمونـه عـن الـروم مـن قـوة قتالية، فأظهروا الإسلام حتى يكون لهـم حـظ إن انتصـر المسـلمون ، وأبطنـوا الوفـاء لمعتقداتهم السابقة فهم متحيرون ، حيرة تدفعهم للرفض لا للبحث عن الحق .

46-47، ولو أرادوا الخروج ـ والله عليم بالظالمين.

يبكت القرآن المتخلفين وينقض عليهم ما ادعـوه مـن الأعـذار التـي حـولتهم عـن إرادة الخروج إلى القعود والاستئذان، ذلك أنهم لـو أرادوا الخـروج فعـلا لقـاموا بإعـداد مـا يلزم للغزو من سلاح ومركوب، فعدم اسـتعدادهم ينـادي بكـذبهم. ولمـا كـان خـروجهم مع الغزاة لا يفيدهم بل ربمـا يـدخل الضـرر علـيهم، كـان مـن ألطـاف الله أن وهـن عزمهم، وصرفهم عن الخروج. وأقام مناديـا ينـادي فـي بـاطنهم إتمامـا لمـنعهم مـن الخروج: أن اقعدوا ولا تغزوا، وابقوا مـع القاعـدين مـن الأطفـال والعجـزة والعمـى والمرضى.

ثم صرح القرآن بالسبب الذي من أجله وهن الله عـزيمتهم عـن الخـروج، فقـال : إنهـم لو خرجوا فيكم مندسين في صفوفكم لا تـدفعهم عقيـدة بـأنكم علـى حـق ،ولا يحـركهم رغبة في نصركم ، فإن خروجهم لا يزيدكم قـوة ولا تأييـد ، ولكـن يفككـك وحـدتكم ، ويفرق صـفوفكم، ويـدخل الاضـطراب علـيكم .ولَتَحَرّكُـوا جينـة وذهابـا مسـرعين **(لأوضعوا)** يشـيعون الأخبـار الزائفـة ويبـذلون جهـدهم ليوهنـوا عـزائمكم ، وينفثـوا الخوف بزائف ما ينقلونه بين جماعاتكم. همهم أن يـدخلوا الفتنـة لتختـل الأمـور ويفسـد نظام الجيش. وأكد خطرهم بأنهم لو خرجوا مندسين فـي صـفوفكم لأثـروا علـى بعـض أفراد الجيش الإسلامي ، إذ ليس كله علـى مرتبـة واحـدة مـن الفطنـة والتعمـق فيمـا يسمع ليستخرج مقاصد المـروجين، ولكـن بعضـهم سـذج يتـأثرون بمـا يسـمعون ولا يمحصون الأخبار، فيكون خطر خـروجهم فـيكم كبيـرا بالنسـبة للـذين تـروج علـيهم الأراجيف.

كشف القرآن عن الخطـر الـذي يمكـن أن يحـدثوه فـي الجـيش الإسـلامي، لأن الله لا يخفى عن علمه شيء من كيد الظالمين.

48-لقد ابتغوا الفتنة...وهم كارهون.

إن بث الفتنة هو ديـدن المنـافقين ، ومـا هـي أول مـرة عملـوا علـى تحقيـق سـيء آثارها، وتشتيت وحدة المؤمنين ، ونظروا في كل ما يمكـن أن ينفـذوا بـه كيـدهم لـك، فأعدوا لكل احتمال طريقا يمكنهم من مخططهم .

وكانت النهاية أن الله أحـبط مخططـاتهم ونصـر الله دينـه وعلـت رايـة الإسـلام فـي الآفاق ففتحت مكة وانتصر الجيش الإسلامي في غزوه لبلاد الروم.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

تصبك حسنة : تنال غنيمة أو تحقق نصرا.

المصيبة : ما يحل بالإنسان فيحزنه، والمراد بها هنا الهزيمة.

التربص : انتظار حصول شيء مرغوب حصوله.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن بعض معاذير المنافقين المتخلفين ليكون ذلك كشفا لنفاقهم.

فمن ذلك أن بعضهم اعتذر بأنه يخشى أن يفتن إن هو خرج للجهاد، ليعذرهم ويمكنهم من التخلف. وعذرهم الكاذب أسقطهم في قاع الفتنة. وستحيط بهم جهنم يوم القيامة.

ثم عرى القرآن ما كتموه من بغض النبي ﷺ ،إنهم يشعرون بالتعاسة إذا انتصرت ، وفي المقابل إذا هزمت في واقعة يتبجحون بأنهم قد تفطنوا لما سيحدث وحموا أنفسهم ، ثم ينقلبون فرحين بعافيتهم وإصابتكم .

قل لهم يا محمد : نحن واثقون بأن الله يسير الأمور على ما قدره ، ولذا فإنه لن يصيبنا إلا ما قدره وكتبه ، ومآلات الأمور بيده فنحن راضون بما قدر لنا. نتوكل عليه وهو أمره .إن على المؤمنين أن يحسنوا التوكل عليه فهو كافيهم.

أنبئهم أن الفارق بين المؤمنين والكافرين بعيد جدا . فهم في حسرة لأنهم إذ ينتظرون أن تحل بالمؤمنين كارثة هم واهمون. فالمؤمنون يسيرون إلى إحدى غايتين كل واحدة منهما حسنة : إما ثواب أخروي لا يقدر قدره إلا رب العزة ؛ وإما نصر مبين. وأما نحن فننتظر أن يحل عليكم عذاب من عنده يوقعكم في البلاء كالقحط وسوء الحال ، أو بعذاب بأيدينا فننتصر عليكم بالقتل والأسر. فتربصوا وانتظروا ، فإنا منتظرون الخير ، وأنتم لا تنتظرون إلا الشر.

بيان المعنى العام :

49- ومنهم من يقول ائذن لي....بالكافرين .

تولى القرآن في سورة التوبة فضح المنافقين بتسجيل مقالاتهم التي يسترون وراء ظواهرها نفاقهم، فعراهم وكشفهم. ومن ذلك أن بعض المنافقين تقدموا لرسول الله معتذرين طالبين منه أن يعذرهم ، فبعضهم اعتذر بأن خروجهم للغزو يفتنهم، لأن وقت الخروج كان وقت نضج الثمار، يخشون أن يفتنوا بترك أموالهم ، وبعضهم اعتذر بأن خروجه إلى أرض الروم سيجعله مفتونا بجمال الروميات وهو شبق إلى النساء. فخروجه إلى الجهاد يوقعه في الفتنة. كشف الله أمرهم وأعلم رسوله

والمؤمنين أنهم منافقون. ذكـروا أنهـم يخشـون الوقـوع فـي الفتنــة ، وكـذِبُهم علــى رسول الله وتعلاتهم الباطلة أسقطتهم في قعر الفتنة ، فهـووْا فيهـا إلــى الــدرك الأسـفل منها. وافتضح أمرهم فكل من نقل عنه أنه اعتذر بهذه المعـاذير علـم أنــه منـافق. وهـم بمعاذيرهم يرغبون في الخــروج مــن المضــايق بتـرويج الباطـل، فكـان جـزاؤهم أن مآلهم جهنم تحيط بهم لا يفلتون منها.

50-51، إن تصبك حسنة تسؤهم...فليتوكل المؤمنون.

وتابع القرآن فضح دخيلتهم ، بأنهم قد أضـمروا بغـض النبــي ﷺ رفضـا للحـق الـذي جاء به .وبلغ بهم الحقد من ناحية أنهم إن انتصر النبــي وجيشــه حزنــوا ، ومــن ناحيـة أخرى إن أصابته مصيبة فهزم في معركــة مــن المعــارك ، تبجحـوا بـأنهم لفطنـتهم وتقديرهم للأمور وعواقبها بذكاء، تنبهـوا فـأدركوا النتيجـة مقـدما واسـتعدوا لهـا ولـم يصبهم سوء كما أصاب المؤمنين ففي الكـلام إيمـاء إلــى شـماتتهم التـي بلغـت أنهـم امتلأوا فرحا بما أصاب المؤمنين .

ثم لقن القرآن النبي ﷺ ما يكبت المنافقين ليقول لهـم : إنــه لــن يصـيبنا مــن سـوء إلا ونحن واثقون من أن الله سبحانه قد كتبه لنا، فشـماتتكم غبــاء مـنكم ، إن الكـون ينـتظم عندنا على أنه يسيره خالقه وما من أمـر يقـع إلا بإذنــه، وأنــه مولانــا الـذي يرعانــا برعايته ،فما قدره لنا لا نعلم عواقبه البعيدة . وهـو مولانــا الـذي لـم يهملنــا وأكرمنــا بدينه، فنحن نتوكل عليه وحده. وهذا شــأن المـؤمنين الـذين أمـرهم أن يتوكلـوا عليــه توكلا لا تبطرهم النعمة ولا يستولي عليهم اليأس.

51-قل هل تربصون بنا...إنا معكم متربصون.

أمر النبي ﷺ أن يعلن في الناس الفـرق بــين المـؤمنين والكــافرين فيمــا ذكرتــه الآيــة السابقة من تربصهم بالمؤمنين حلول المصائب. فقــال تعــالى: قـل للكــافرين إن وضـعنا ووضعكم متضادان.

أنتم تتربصون أن يحل بنا ما يكرمنا الله به ، فنحن علــى جميــع الأحـوال نشـعر مقـدما بعناية الله بنا وتقديره لنا الخير، هذا الخيـر والعاقبــة الحسـنة تكـون دار الكرامــة فــي الآخرة ، أو النصر والغنيمة والفتح في الدنيا فنحن آملون في عناية ربنا بنا .

ونحن ننتظر أن يصيبكم الله بعذاب يقدره سبحانه ويحققــه إمــا مــا يسـلطه علـيكم مـن الجوع والخوف وذهاب القوة ،وإما بأيدينا فنقتلكم ونأسركم .

فتربصوا، وانتظروا، إنا منتظرون معكم، ولا يكون إلا حلول ما يكبتكم ويعزنا.

قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإعجاب : استحسان مع استغراب .

الزهوق : الخروج بشدة وضيق .

الفرق: الخوف الشديد.

الملجأ : مكان يعتصم فيه الخائف.

المغارة :الغار المتسع .

المدخل : مكان الدخول .

لولوا: انصرفوا.

يجمحون: مسرعين خائفين.

بيان المعنى الإجمالي :

عرض المنافقون على رسول الله ﷺ أن يسهموا بالمال، ويتخلفوا عن الجهاد. فأمر الرسول أن يعلمهم بأن ما ينفقونه سواء أكان عن طوع أم عن إكراه مرفوض غير مقبول، وذلك لما طبعوا عليه من فسق .إن الذي حال بينهم وبين قبول نفقاتهم ما جمعوه من فساد :كفرهم بالله وبرسوله، أنهم يكرهون الصلاة فإذا حضروها مع المؤمنين لا يقومون إليها إلا بتثاقل وكسل، أنهم لشحهم لا يتطوعون بالإنفاق ولا يسهمون إلا عن كره .

إنهم جمعوا الأموال والأولاد .فإياك أن تعجب بما جمعوه، فإنهم لا ينعمون به في الدنيا لأنهم طبعوا على الشح والتحايل والخوف من ذهابه والحيرة، لكونهم يعلنون خلاف ما يظهرون، وهم قد ربوا أولادهم على ما يسيرون عليه. وتكون خاتمة أمرهم في الدنيا أن تخرج أرواحهم بعسر وهم على الكفر. يضاف إلى مساوي

المنافقين أنهم يعملون على مغالطتكم فيقسمون أنهم جـزء مـن جمـاعتكم، وقـد كـذبوا لا صلة بينكم وبينهم، ولكن الذي حملهم علـى ذلـك هـو الخـوف مـنكم. فـالجبن صـفة لازمة لهم والمؤمنون شجعان. ومن تأصّل الجبن فيهم أنهم عنـدما دعـوا إلـى الجهـاد أخذت أعينهم تدور تبحث عن ملجـأ أو مغـارة أو أي شـيء يـدخلون فيـه فيسـترهم ، لينصرفوا إليه مسرعين .

بيان المعنى العام:

52- قل أنفقوا طوعا أوكرها ....إلا وهم كارهون.

الإنفاق يكون تارة عن سماحة في النفس، وحب في المشـروع المنفـق فيـه، ولـذا يجـد المنفق من هذا النوع راحة نفسية، ويجود وهو فـي حالـة مـن الرضـا لا يتبعهـا أسـف على ما أنفق ولا تعلق. وتارة يكون الإنفاق لمـا يعـرض للمنفـق مـن أوضـاع ملزمـة فينفق مرغما لا راضيا ، لأنه لم يجد طريقا للتفصي.

والمقصود من الآية أن كل ما ينفقه المنافقون يضيع هبـاء ولا يجـد ون مـن ذلـك شـيئا في ميـزان حسـناتهم. لأن الله لا يتقبـل أعمـالهم بـل يرفضـها، فسـواء أنفقـوا عـن طواعية كنفقاتهم لعون الفقراء من أهل ملتهم ، أو أنفقـوا كرهـا كإنفـاقهم لعـون جـيش الإسلام للتفصي من الجهـاد ، كمـا روي فـي سـبب نـزول الآيـة أن أحـد المنـافقين عرض على رسول الله أن يسهم بشيء مـن أموالـه فـي الجهـاد ؛ فكانـت هـذه الآيـة قاطعة لكل أمل في الثواب ، خاصة وقـد ذكـر أن بعـض المنـافقين كـان يعلـل نفسـه بأنه إذا أنفق مالا لعون المسلمين فإنه يربح إذا كان ديـن الإسـلام حقـا. وعلـل رفـض إنفاقهم بالفسق وهو الكفر.

إن الذي حال بينهم وبين قبول نفقـاتهم وإثـابتهم عنهـا، وإن كـان يحصـل منهـا النفـع للجيش الإسلامي هو أمر جوهري إذا انتفى سقط كـل مـا يمكـن أن يترتـب عليـه مـن آثار. أولا كفرهم بالله وبرسوله فسدت عقيدتهم ورفضـوا الإيمـان . ثانيـا أنهـم أضـافوا لكفرهم النفاق فهم يحضرون مجامع المسلمين ليظهـروا أنهـم معهـم، ولكـنهم إذا قـاموا إلى أداء الصلاة قاموا متثاقلين يؤدونها ظـاهرا وقلـوبهم منحرفـة عنهـا ، ثالثـا أنهـم لا يساهمون في الإنفاق العام إلا ونفوسهم كارهـة ليسـتروا بمـا ينفقـون بغضـهم للجماعـة وانحرافهم عنها.

55←57- فلا تعجبك أموالهم ...وهم يجمحون.

معظم المنافقين في المدينة من اليهود، وتـربيتهم مـن قـديم الأزمـان وإلـى الآن غـرس في نفوسهم حب المال، والقدرة على استثماره، والشـح بـه. وترغـب النفـوس بفطرتهـا

في المال، وتجد من جمعــوا الأمــوال يحظــون بتقــدير وتميــل إلــيهم الأنظــار. فلــذلك نبهت الآية إلى حقيقة: هي أن ما جمعــه المنــافقون مــن مــال لا يكســبهم قيمــة. ذلــك أنهم، في معظم الأحوال، لم يجمعــوا تلكــم الأمــوال إلا بالشــح والتحايــل. وكــذلك مــا حولهم من ذرية، إنهم ربوا على ما ربي عليه آبــاؤهم مــن جــبن وبخــل وفســاد، فتلــك المظاهر من الأموال والأولاد هي مظاهر مغشوشة وخادعة، فلا تكن معجبا بها.

إنهم يعيشون مع أولادهم في كرب من الخوف من افتضــاح أمــرهم، وفــي تمــزق بــين ما يظهرونه ، وبين مــا يعتقدونــه ،أراد الله أن تكــون خــاتمتهم خــروج أرواحهــم مــن ضيق وبعسر، وهم على حالهم من الكفر.

واصل القرآن الكشف عــن تلــون المنــافقين فقــال : إنهــم يُريــدُون أن تطمئنــوا إلــيهم فيحلفون بما يقنعكم أنهم مثلكم مؤمنون ، يكونــون وحــدة مــن مجــتمعكم . وكــذبوا فــلا صلة بينكم وبينهم وليسوا جزءا من المجتمــع الإســلامي. إن الــذي حملهــم علــى تقــديم هذه الأيمان الفاجرة ،أنهم يخافونكم فيحــاولون التمويــه علــيكم ليــأمنوا جــانبكم . إنهــم جبناء والمؤمن لا يكون جبانا فليسوا منكم ولستم منهم.

جسم القرآن شدة خوفهم وتأصل الجبن فيهم فقــال : إنهــم عنــدما يــدعوْن إلــى الجهــاد تجدهم يبحثون عما يمكنهم من الاستتار ، فلــو وجــدوا ملجــأ يســترهم، أو مغــارة ، أو شيئا يدخلون فيه فيطبق عليهم، لو وجدوا أي ساتر لانصرفوا إليه مسرعين.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يلمزك : يقدح فيك ويعيبك.

آتاهم : أعطاهم.

حسبنا الله : الله كافينا.

راغبون : طالبون.

بيان المعنى الإجمالي :

عرّفت السورة بنمط آخر من المنافقين الـذين عظمـت شـراهتهم للمـال ، فـإذا أعطـاهم الرسول شيئا من الصدقات رضوا ، وإن لم يعطهـم غضـبوا وصـدر مـنهم مـا يـؤذي. ولو كان لهم أي حظ مـن الصـلاح لرضـوا بمـا نـالوه مـن فضـل الله ومـن عدالـة رسوله، ولصرحوا بمـا يفـيض علـى ألسـنة المـؤمنين: إن الله كافينـا نفـرده سـبحانه بالطلب .

ثم بين القرآن أن الصدقات ليست حكرا على الـذين يرغبـون فـي النيـل منهـا ، وإنمـا يُمكّنُ منها النبي ﷺ وأولياء الأمر مـن بعـده أصـنافا مـن المجتمـع ، وذلـك لتـؤدي الصدقات دورها المالي الاجتماعي . يعطى منهـا للأصـناف التاليـة وهـم : - الفقـراء والمساكين الذين لا يكفيهم ما عنـدهم للوفـاء بحاجـاتهم الحياتيـة مـن مسـكن وغـذاء ولبـاس وعـلاج . -العـاملون علـى الزكـاة بجمعهـا مـن أربابهـا وتوزيعهـا علـى مستحقيها- المؤلفـة قلـوبهم مـن المسـلمين الجـدد أو مـن الجواسـيس لفائـدة الدولـة الإسلامية - الرقاب فيعطى الأرقـاء مـا يسـترجعون بـه حـريتهم - الغـارمون وهـم الذين استغرقت ديونهم الحلال كل ما عنـدهم - الجهـاد والاسـتعداد بمـا يرهـب العـدو ويحمي الدولة- للمسافرين المنقطعين عن أوطـانهم فيعطـون مـن الزكـاة مـا يتمكنـون به من بلوغ مواطنهم.

إن الزكاة فريضة فرضها الله وهو العلـيم بمـا يصـلح العبـاد الـذي يجـري تشـريعه على ما تقضيه الحكم البالغة.

بيان المعنى العام :

58-59، ومنهم من يلمزك ...إلى الله راغبون.

مما كشفته هذه السورة دخيلة المنافقين فعرفـت بهـم، إن بعضـهم يتتبـع مـا يقـوم بـه الرسول عند توزيعه للصدقات، فإن أعطي منها ونـال منهـا جماعتـه الـذين هـم علـى شاكلته أظهروا الرضا، وقالوا هذه قسمة عادلة. وإن لـم ينـالوا منهـا أظهـروا سـخطهم وتبرُمُهم وعلقوا على القسمة ما يدل على وقاحتهم. كمـا قـال بعضـهم: هـذه قسـمة مـا أريد بها وجه الله وقول آخر: اعدل يا محمـد. والنبـي ﷺ يعلـم مـن أحـوال أمتـه مـا يهديه إلى القسمة العادلة.

إن موقفهم هذا موقف مرفوض . والموقف الراشـد أن يقبلـوا مـا مكـنهم منـه الله ممـا أوحى به إلى رسوله في قسمة الصدقات، وهو ماقـام بـه فعـلا رسـوله. ولـو رضـوا به لكان خيرا لهم في العاجل والآجـل فقـد نـالتهم عنايـة الرسـول بالتوسـيع علـيهم ،

وسيئالهم في المستقبل حسبما خبروا كـرم الرسـول وعطفـه علـى المحـاويج. وتجنـيهم ولمزهم له سيحبط أعمالهم ويسوقهم إلـى سـوء المصـير فـي الآخـرة . ولـو صـفت قلوبهم لقالوا: إن الله كافينا حاجاتنا، وإننا نعتـرف بعظـيم فضـله وسـيمكننا مـا يسـد به خلتنا ويلبي حاجاتنا ، مع إعلانهم بإفراد الله بالطلب .

وبعد أن شنع القرآن عليهم بما جرهم إليه نفاقهم، وشراهتهم المفرطة على المال، ووقاحتهم، تولى القرآن بيان التنظيم الإسلامي في المساعدة من مال الصدقة. كان المنافقون يظنون أن النبي ﷺ يتصرف في الزكاة بتمكين من تظهر عليه الحاجة بإمداده بما يرفع حاجته. وهذا تصور خطأ. فالمال الذي يجمعه ﷺ من المؤمنين يتولى إنفاقه في المصارف التي حددها الله. فانتقادهم لرسول الله منبئ أيضا عن جهلهم.

60-إنما الصدقات...والله عليم حكيم .

المصارف التي حددها الله في الآية هي المصـارف التـي لا يحـل لمـن يتـولى توزيـع الصدقات أن يتجاوزها، وتشمل:

أولا وثانيا :الفقراء والمساكين .قد يرد علـى لسـان الـوحي لفـظ الفقيـر مفـردا ولفـظ المسكين مفردا، وهما متسـاويان والحالـة تلـك علـى المفهـوم المقصـود منهمـا، ولا فرق بين الفقير والمسكين فهو الذي لا يملـك مـا يسـد حاجتـه مـن المسـكن واللبـاس والقوت والعلاج. ومن ملك دار سكناه وضاقت يـده عـن بقيـة الحاجـات هـو مسـتحق للصدقة. وقد يجتمعان كما في هذه الآية ، والعطف يقتضـي التغـاير . فـإذا اجتمعـا فمـا هو المفهوم من الفقير وما هو المفهوم من المسكين؟ ذهـب كثيـر مـن العلمـاء إلـى أن المسكين أشد حاجة من الفقير ، وعكس آخـرون مقـررين أن الفقيـر أشـد حاجـة مـن المسكين . وقد تتبعت أدلتهم وانتهيت إلى عـدم الاقتنـاع بمـا أوردوه مـن الأدلـة. ذلـك أنهم جعلوا قاعدة البحث هي شدة الحاجة ، أو قلة الإمكانـات الماليـة لكـل نـوع. وقـد اهتديت بالتأمل في الحديث الذي أخرجه البخاري ومالـك والنسـائي ونصـه عنـد مالـك بالسند إلى أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قـال :لـيس المسـكين بهـذا الطـواف الـذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتـان؛ قـالوا :فمـا المسـكين يـا رسول الله؟ قال : الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطـن لـه النـاس فيتصـدق عليـه، ولا يقوم فيسأل الناس[1] .

---

[1] التمهيد ج18 ص52/48

إنه تحديد بين من مشكاة النبوة ؛ لم يجعل المرجع في بيان المفهوم شدة الحاجة، ولكن أرجع ذلك إلى عامل نفسي ؛ هو عزة نفس المسكين الذي لا يسأل الناس، ويعمل على الظهور بمظهر لا يلفت أنظار الناس لخصاصته،

فكلاهما محتاج إلا أن الفقير يظهر حاجته ويطلب العون، ولا يحاول أن يستر فقره. على عكس المسكين .

ثالثا: العاملون عليها. تمثل الزكاة في الدولة الإسلامية جزءا من مهامها، يتمثل في جمعها من أربابها، ثم في توزيعها على مستحقيها. وهو عمل لا غنى عنه لسير نظام الزكاة على الوجه المطلوب .فيستحق هؤلاء الموظفون أجرا مقدرا يقدره لهم ولي الأمر ، يراعى فيه الجهد المبذول ، والوقت المخصص . جزاء لا تقتير فيه على العامل ولا توسعة كبيرة.

رابعا: المؤلفة قلوبهم، وهم حديثو عهد بالإسلام ، ودخولهم في الإسلام يقطع صلاتهم الاقتصادية بقومهم ، والعامل الاقتصادي له أثره فيهم . وفي عونهم من الصدقات صلاح ليثبتوا ويتقوى حزب الإسلام. وكذلك الجواسيس الذين يمكنون الدولة الإسلامية من التعرف على أخبار العدو وثغراته. فهؤلاء إعطاؤهم من الزكاة بمقدار ما يتحقق من المصلحة، فقد رأى سيدنا عمر رضي الله عنه في زمنه أن الداخل في الإسلام يكتسب عزة ومنعة ولا حاجة للأمة الإسلامية أن تعين الداخل الجديد في الإسلام ، إذ ما يستفيده من الإسلام أكثر مما يستفيده الإسلام منه . وهذا ظرف يتغير فيتغير الحكم .

خامسا: في الرقاب . والمراد مساعدة الرقيق على اكتسابه حريته التي فقدها، فيشترى الرقيق ليعتق، ومن عقد مع مالكه عقدا يتم بموجبه عتقه إذا هو بذل لمالكه مالا معلوما، يعطى من الزكاة ما يعجل عتقه، وكذلك الأسرى يتم افتكاكهم من الأسر من مال الزكاة.

سادسا: الغارم. وهو الذي أحاط الدين بماله، ولم يستدن في معصية، فتنتشله الجماعة الإسلامية ليعود إلى نشاطه الاقتصادي الذي لا يقتصر نفعه على نفسه.

سابعا: سبيل الله عند أهل العلم يقصد منه الجهاد، بالبذل في التجهيزات العسكرية وإقامة الجيش المدرب، وبناء الحصون، وكل ما يقوي الأمة الإسلامية فيرهبها أعداؤها ويُغلبون إذا هم حاربوها.

ثامنا : ابن السبيل ـ الغريب المحتاج في بلد غربته يعطى من الزكاة، ولو كان غنيا في بلده.

لقد فرض الله الزكاة وأوجبها، وعلــى المــؤمنين أن يقومــوا بهــا باعتبارهــا ركنــا مــن أركان الدين، وضمانا للاستقرار، واقتلاع داء الحســد مــن المحتــاجين .خــص الله هــذه الأصناف بإعطائهم من الزكاة، وهو العليم بما يصــلح المجموعــة البشــرية ، حكــيم فــي ضبطه ما ضبطه.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

يؤمن للمؤمنين : يصدقهم .

يحادد : المعاداة والمخالفة .

الخزي : الذل والمهانة.

خاض: دخل في حديث لا جد فيه .

مجرمين : كافرين.

بيان المعنى الإجمالي:

أنماط خبيثة من النفاق تولت السورة فضحهم. فمنهم مــن كــان يــؤذي النبــي، تبعــا لمــا امتلأت به نفسه المريضة من الحقد، فيتحدث بأن النبي يفــتح أذنــه لكــل كــلام ويصــدقه ولا يميز بين الحق والزيف .رد القرآن عليهم بأن أذنــه الشــريفة مفتوحــة علــى الخيــر تعيش مع الوحي والإيمــان، يصــدق المــؤمنين فيمــا يخبرونــه بــه لصــفاء أرواحهــم وسعيهم الموصول لاطلاع نبيهم على كل ما يستجد . وهــو رحمــة للــذين آمنــوا مــنكم

أيها المنافقون فلو عجل عليكم بالرفض لقطع عليكم بــاب الهدايــة. وأمــا الــذين يؤذونــه ويواصلون ذلك فجزاؤهم عذاب أليم .

ونمط آخر من المنافقين يؤذونكم ثم يحلفــون بالأيمــان المغلظــة علــى إيمــانهم وودهــم لكم إرضاء لكم ، ولو كانوا مؤمنين لقــدموا إرضــاء الله ورســوله واحترمــوا أيمــانهم . ما أشد جهلهم! فإنه من يعادي الله ورسوله قدر الله له منزلتــه فــي جهــنم بمــا يصــحب ذلك من ذل.

يحاولون أن يظهروا لكم أنهم مؤمنون يخشون لــو كــانوا مخــادعين أن ينــزل الله فــيهم سورة تكشفهم. مــا يقولــون ذلــك إلا اســتهزاء لإنكــارهم أن الله يطلــع رســوله علــى نفاقهم. قل لهم : إن الله سيكشف دخائلكم ويفضحكم .وإنــك إن أوقفــتهم علــى مــا قــالوه لأجابوك بأنهم كانوا في فترة استراحة يــدخلون فــي مختلــف صــنوف الكــلام ليمرحــوا ويضحكوا. قل لهم مهــددا ومؤنبــا أتســتهزئون بــالله وآياتــه ورســوله ، فالمقدســات لا تقبل العبث ولا تكون إلا على منهج الجــد. لا تقــدموا أعــذاركم فهــي مرفوضــة، وقــد سجل عليكم أنكم كفرتم وناقضــتم أنفســكم فيمــا كنــتم تدعونــه مــن إيمــان. إن المــآل بالنسبة إليكم: أن من تاب منكم تقبــل توبتــه ومــن واصــل يعــذب لأنــه كــان مجرمــا كافرا.

بيان المعنى العام :

61- ومنهم الذين يؤذون النبي ...لهم عذاب أليم .

تواصل السورة عرض ما لاقاه النبــي ﷺ مــن أذى المنــافقين ومكــرهم. وكشــفت هــذه الآية عن نوع آخر من إذايتهم لرسول الله . وكانــت إذايــتهم تتخــذ فــي الغالــب صــورة محتملة ، يقصــدون الإذايــة ويعرضــونها علــى وجــه يبتعــد عــن أن يكــون إذايــة . يصفون النبي ﷺ بأنه (أذن) يقصدون أنه يقبل كل ما يســمع ، ولــيس لــه مــن القــدرات التأملية ما يمكنه مــن التفرقــة بــين الحــق والزيــف ، ويرمــون مــن وراء ذلــك أنــه لتصديقه لكل ما يقال له ، فلا حرج عليهم من التعــريض بــه والكــذب عليــه والتشــكيك في رسالته ، لأنه سيقبل كلامهم إذا أوقفهم على ما بلغه عنهم .

وردّ عليهم القرآن أن الرسول يسمع فيثبت في عقله وضــميره مــا يســمعه، فيــه جانــب حق، فإن سمع رسول الله يتصل بصفة متتابعة بالوحي مــن ربــه بمــا يحملــه إليــه مــن خير، ويسمع للمؤمنين الصــادقين ويطــرح معهــم للــدرس مــا يعتــرض الأمــة ومــا يمكنها من التغلب على المصاعب ، ويسمع ما يأتيــه مــن الأخبــار التــي تجعلــه دائمــا مطلعا أتم الاطلاع على ما تضطرب بــه الســاحة مــن خفايــا وظــواهر ، وقــد أشــار

قوله تعالى (يؤمن بالله) إلى ذلك يفهم بالتعمق فـي تلـك الجملـة .وهـو يسـمع فيستقر في سمعه ما يصله من المـؤمنين الـذين لا يكـذبون، وسـمت فطنـتهم بعـد أن فـتح الله قلوبهم للإيمان فكان لهم من نور الإيمان لقانة تميز لهم بين الحق والباطل .

ثم إن سماعه ما تخبرونه به لا يدل على تصديقكم، لكنـه لسـمو خلقـه يتغاضـى عـنكم حتى يهتدي للإيمان من أراد الله له الخير، ولو أسـرع بإيقـافكم علـى زيفكـم لانقطعـتم عنه ، ففي إغضائه ﷺ رحمة للذين يفتح الله قلوبهم للإسـلام. وأمـا الـذين يؤذونـه ثـم يواصلون فسادهم وإذايتهم جزاؤهم اللاحق بهم عذاب أليم .

ومن فساد دخيلة المنـافقين وضـعف شخصـيتهم، أنهـم يكثـرون الأيمـان لتثقـوا بمـا يقولون، فهم لا يتورعون عن جعل الله شاهدا عليهم وهـم يكـذبون، فهـم يعملـون علـى إرضائكم بائتمانكم إياهم بالأيمان كلما كانت الظـواهر تكـذبهم. ولـو كـان لهـم أي حـظ من الإيمان بالله لكانت خشيتهم لله تفرض علـيهم أن يقـدموا مرضـاته علـى مرضـاتكم. معلوم أن معظم المنافقين هم من اليهود.

ما أبلغ جهلهم ! حتى إنهم لا يعلمون أنه من يعـادي الله ورسـوله فلـيس لـه إلا مصـير واحد، هو نار جهنم. معنى ذلـك أن إصـرارهم علـى النفـاق والكفـر نـزل بهـم إلـى درجة فقدهم العلم بما هو ضروري: أن كل مـن بلـغ عنـاده أنـه يعـاكس الله ورسـوله ويعاديهما فلا رجاء له إلا في مصير واحـد، هـو نـار جهـنم خالـدا فيهـا لا يبرحهـا. وهذا المصير هو الذل العظيم الذي ليس وراءه ذل.

62→66-يحلفون بالله...بأنهم كانوا مجرمين.

من خداع المنافقين أنهم يتظـاهرون بـأنهم صـادقون فـي إيمـانهم، ويتحـدثون عنـدكم: بأنهم لو كان في قلـوبهم شـائبة نفـاق أو كفـر فـإنهم يخشـون أن ينـزل الله سـورة تكشفهم وتفضحهم، وهم لا يؤمنون لا بصـدق الرسـول ولا بـأن مـا ينـزل عليـه وارد من الله المطلع على خفايا الأمور ، ولكن يقولون هـذا اسـتهزاء ، وتنفيـرا لمـن يتـبعهم من دين الإسلام . والاستهزاء طريقة من المكر الخبيث الـذي يقـيم حـاجزا بـين القابـل له وبين ما قصد التنفير منه.

أمر الرسول ﷺ أن يكشف دخيلـتهم ويفضـحهم ويتحـداهم : إن الله سـينزل مـا يفضـح كذبكم وقصدكم الاسـتهزاء والإسـاءة ، ينشـر مـا انطـوت عليـه دخـائلكم ، ومعنـى استهزئوا تهديد لهم بسوء عاقبة استهزائهم ، وأن الله سيفضحهم .

ونمط آخر من النفاق، ما يبلغ من مقـالات المنـافقين لرسـول ﷺ ممـا يثيـر الشـك أو يبعث على الاستخفاف، فإذا أوقفهم على ما قـالوه وتحـدثوا بـه وجعلـوا فـي مجالسـهم

ينفثونه في عقول اتّباعهم ليزدادوا نفرة من الإسلام وعــداء واســتهانة بــه، فــإذا أوقفهــم على ما سرى من كلامهم وبلغه وســألهم ســؤال محاســبة ، كــان جــوابهم إنمــا كــان قصدنا الترويح عن أنفسنا ولسنا في مقام الجــد حتــى نؤاخــذ بمــا نقولــه، فإنمــا دخلنــا نتجاذب أطراف الحديث فلا صلة بين ما نعتقده وما بلغكم .

ويأتي الرد صارما، فيه توبيخ وتقريع، ورد لمغالطتهم. أتسمحون لأنفسكم أن تستهزئوا بالله وبرسوله وبآياته . إنهم اعترفوا بصدق ما نقل عنهم، فهم لم ينفوه، إنما ادعوا أنهم ما كانوا جادين. وهذا أمر شنيع إذ كيف يسمح لنفسه من يدعي الإيمان أن يجعل المقدس محل لهو ولعب واستهزاء. ثمّ أمر أن يقول لهم: لاتعتذروا. أي إن عذركم مرفوض لا يترتب عليه ما يترتب على الأعذار من إمكان قبوله ، ثم ألحق به أن ما صدر منهم كان محققا لكفرهم بعد ما ادعوه من إيمانهم .

ثم أنبأهم بمصيرهم ، فهم بين تائب من تجاوزاته ، نادم عمــا صــدر منــه ، ومــنهم مــن هو مصر يصحبه كفره ، وسوء دخيلته إلى آخر يوم مــن حياتــه. فرغــب القــرآن فــي التوبة وإصلاح النفس والإقلاع عن النفــاق بــأن الله يعفــو عــن طائفــة التــائبين، وأنــه يعذب الطائفة الأخرى بسبب تمكن الإجرام منها وهو الكفر.

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

يقبضون أيديهم : تمكن الشح منهم.

الفاسقون : الجامعون بين فساد العقيدة وسوء العمل .

أشد قوة :أعظم قدرة على الأعمال الصعبة .

استمتعتم : انتفعتم مع لذة.

الخلاق : الحظ من الخير.

حبطت أعمالهم: بطلت أعمالهم فلا يجدون لها ثوابا.

ألم يأتهم نبأ : ألم يبلغهم خبر.

مدين : الأرض التي كان يسكنها بنومدين.

المؤتفكة : المنقلبة ، وهي مجموعة قرى خسفت وصار عاليها سافلها.

بيان المعنى الإجمالي :

يمثل المنافقون والمنافقات رجالا ونساء وحـدة وهـم متضـامنون، يجمـع بيـنهم صـفات ذميمة الاستئناس بالشر وكراهيـة الخيـر. ولـذا تجـدهم يـأمرون بفعـل المنكـر مـن الكذب والخيانة ومختلف أنواع الفساد، وينهـون عـن المعـروف الـذي يألفـه أصـحاب الفطر السليمة ، وتمكن الشح منهم .قلـوبهم خاويـة مـن ذكـر الله، فـأهملهم الله إهمـالا جعلهم يهملون مصالحهم القريبة والبعيـدة. إن المنـافقين يمثلـون قمـة الفسـق. ألـزم الله المنافقين رجالا ونساء والكفـار عـذاب نـار جهـنم لا يخرجـون منهـا، وذلـك كفـاء فسادهم ، وأطردهم الله من رحمته، واستحقوا العـذاب الألـيم .يخاطـب المنـافقين فيقـول لهم: شأنكم كشأن أقوام سبقوكم كانوا أقـوى مـنكم وأكثـر أمـوالا وأولادا ، جمعـوا مـن متاع الدنيا الشيء الكثير ، فصرفوا همهم للاسـتمتاع بمـا أوتـوا ، وأنـتم مـثلهم أقبلـتم في شراهة على متاع الحياة، ودخلتم في اللهو فلم تقيمـوا لـه حـدا فـي اللعـب والعبـث وتناول المقدسات بالاستهزاء .وأولئك الأقوام بطلـت أعمـالهم فلـم ينتفعـوا بهـا لا فـي الدنيا ولا في الآخرة ، وأولئك يمثلون قمـة الخسـارة وأنـتم مـثلهم. عجـب كيـف لـم تتعظوا بما حصل للذين من قبلكم، قـوم نـوح وقـوم عـاد وثمـود قـوم صـالح وقـوم إبراهيم، وسكان مدين قوم شعيب ،والقـرى التـي صـار أسـفلها أعلاهـا. كـل أولئـك أتتهم رسلهم بالمعجزات وبالآيـات البينـات، فكفـروا بهـا، فعـاقبهم الله بسـبب كفـرهم وعنادهم، وما ظلمهم الله ، ولكن هم الذين عرضوا أنفسهم للدمار فظلموها.

بيان المعنى العام :

67- المنافقون والمنافقات...هو الفاسقون.

يمثل المنافقون وحدة في المجتمـع المـدني، ذكـورهم وإنـاثهم، الاتصـال بيـنهم قـوي كأشد ما يكون الاتصال، فكل فرد منهم منـدمج فـي المجموعـة. ويتسـاءل السـامع مـا

هو القدر المشترك بينهم ؟ ذكرت الآية أنهم يتفقون على، الأمر بالمنكر من كفر وكذب وغش ونحو ذلك، من مخازيهم المذكورة في الآيات السابقة، وعلى النهي عن المعروف، ينهون عن الإيمان وعن الصدق وعن الأمانة وعن كل ما تقبله فطرة النفس الصافية . إن قلوبهم خالية من ذكر الله. الذكر الذي يوقظ في النفس حب الخير وبغض الشر. أثر الخواء الروحي فيهم، أن فقدوا هداية الله ، بصيرتهم مغلقة فلا يفتح لهم النظر إلى العاقبة ، تأصل الشح فيهم فلا يتقدمون بمساعدة لمحتاج ولا مساهمة في مشاريع النفع العام. إن المنافقين بلغوا أقبح صورة من الفسق. ساءت أعمالهم كما فسدت عقيدتهم بالكفر .

68-وعد الله المنافقين...عذاب مقيم.

ثم يعلن القرآن عاقبة فسادهم: أن الله ألزم رجالهم ونساءهم، كما ألزم الكفار من المشركين الخلود في نار جهنم. لو سأل سائل عن هذا الجزاء هل يوازي فسادهم ؟ أثبت القرآن أن نار جهنم كافية في جزائهم، وأتبع عذاب نار جهنم بأنه عذاب تلحقهم فيه اللعنة، فلا ينتظرون تخفيفا من العذاب ولا رحمة تتداركهم، وعذابهم عذاب لا ينقطع متواصل إلى أبد الآبدين.

69-كالذين من قبلكم ...هم الخاسرون.

ثم يخاطبهم القرآن خطابا يقرب ما أوعدهم به، فيقول لهم أنتم لستم صورة في الكون لا مثيل لها ، بل عرفت البشرية أنماطا من الناس ومن المجتمعات كانوا أشد منكم قوة لسلامة أبدانهم وصلاح أجهزتهم ، ولهم من الأموال والأولاد أكثر مما عندكم ، فأقبلوا على ما رزقوا بشراهة مغرقين في طلب اللذة كما أقبلتم أنتم ، فكنتم وإياهم في الإقبال على اللذة بشراهة متساوين وإن كان الذين سبقوكم قد جمعوا أكثر مما جمعتم. واستولى عليكم التراخي في جنب الله فأغرقتم في اللهو واللعب واستبحتم الاستهزاء بآيات الله وخضتم فيما لا يحل لكم كالجمع الذين سبقوكم. إن أولئك الذين سبقوكم بطل ما قاموا به من أعمال، فلم يبق لها أثر في الدنيا وكذلك كان أمرهم في الآخرة. يقدمون على ربهم وقد ذهب كل ما عملوه في الدنيا أي يقدمون مفلسين، وكذلك ستكون عاقبتكم أيها المنافقون لأنكم ساويتموهم. وأولئك الذين يحشرون على ذلك النحو هم الخاسرون.

70- ألم يأتهم نبأ...كانوا أنفسهم يظلمون.

إن خبر ما أحاط بالقرى الظالمة ونهايتها كان معلوما عند العرب يتناقلونه، يقررهم القرآن بما هو مستقر في علمهم من خبر الذين مضوا قبلهم من الأمم :

قوم نوح عليه السلام ، وقوم هود قبيلة عاد ، وقبيلة ثمـود مـع نبـيهم صـالح، وقـوم إبـراهيم من الكلدانيين ، والقوم الذين كـانوا يسـكنون مـدين ورسـولهم شـعيب، والقـرى التـي خسف الله بها الأرض وقلب عاليها سافلها وهم قوم لـوط، هـؤلاء جميعـا أتـتهم رسـلهم بالآيات البينات المظهرة للحقيقـة الواضـحة ، فظلمـوا بتكـذيب الرسـل وأنكـروا مـا بلغوهم وعاندوا ،فحق عليهم العذاب، إن نهايتهم كانـت جـزاء وفاقـا لمـا قـابلوا بـه رسلهم ، وبذلك انتفى الظلم عن الله بما سلطه علـيهم مـن متنـوع العقوبـات ، ولكـنهم هم الذين تتابعوا في ظلم أنفسهم.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

عدن: الخلد والاستقرار .

رضوان: رضا كامل

بيان المعنى الإجمالي:

كما بين القرآن ملامح المنافقين ونهـايتهم، بـين ملامـح المـؤمنين وجـزاءهم. حقـق أن العلاقة بين المؤمنين علاقة موالاة وتناصر وشـعور كـل فـرد أن سـعادته فـي سـعادة أخيه .يأمرون بالمعروف فيعملون على أن تشيع فـي مجـتمعهم الفضـيلة، وينهـون عـن المنكر فيقتلعون من المجتمع كل نابتة شر. يـؤدون الصـلاة علـى أتـم وجـه ، ويؤتـون الزكاة عن طواعية ، ويخشون ربهم فـلا يتجـاوزون حـدوده ، ويعملـون علـى طاعتـه .جزاؤهم أن الله سينزل عليهم رحماتـه .إن الله ينفـذ مـا أراده ، وحكمتـه ظـاهرة فـي كل ما يصدر عنه .

إن الله وعد وعدا لا مثنوية فيه أنه سـيدخل المـؤمنين والمؤمنـات يـوم القيامـة، جنـات تتخللها الأنهار الجارية ، لا يخشون أن يخرجوا منهـا أو تـنقص خيراتهـا، وقـد أعـدت لهم قصور كأفضل ما يمكن أن ينجز، بلغـت مـن الطيـب فـي المظهـر والمخبـر كـل

غاية في جنات إقامة .وفوق ذلك وعدهم ربهم بأنــه ســيحل فــي قلــوبهم الإحســاس بــأن الله راض عنهم، وذلك الرضا هو الفوز العظيم الذي لا فوز فوقه.

بيان المعنى العام:

71- والمؤمنون والمؤمنات ...إن الله عزيزٌ حكيم.

نمطان من أنماط المجتمع عني القرآن بــإبراز خصــائص كــل منهمــا. نمــط المنــافقين وقد تتبعت الآية السابقة ملامحه ؛ والــنمط الثــاني مقابلــه وهــو نمــط المــؤمنين ولــنقم مقارنة بتتبع القرآن الذي ميز كلا منهما عن الآخر تمييز التضاد.

المنافقون بعضهم من بعض: اندماج لا يقوم على قيم.

المؤمنون بعضهم أوليــاء بعــض :العلاقــة علاقــة تناصــر وود واعتبــار كــل مــنهم مسؤولا عن أخيه بالإسلام الذي جمعهم .

المنافقون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعــروف: ألفــوا الشــر وأبغضــوا الخيــر، فهــم يعملون على نشر الأول، وكبت الثاني.

المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عــن المنكــر: همهــم أن يعلــو الخيــر، وأن يقتلــع الفساد والشر من المجتمع.

المؤمنون يقيمون الصلاة: بهذا الوصف خالفوا المنافقين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

المنافقون : تمكن الشح من نفوسهم ، يقبضون أيديهم .

المؤمنون يؤتون الزكاة : ولفظ الإيتاء يدل على طواعية وسماحة .

المنافقون نسوا الله : ليس بينهم وبين طاعة الله رابطة.

المؤمنون يطيعون الله ورسوله : ألفوا الطاعة واطمأنوا إليها.

المنافقون جزاؤهم :إهمال الله لهم . فأنساهم أنفسهم.

المؤمنون: هم في رعاية الله وهم مؤهلون لنيل رحمة الله .

وتتبع المقارنة بين النمطين بأن الله عزيز ينفذ مــا قــدره ، وهــو حكــيم فــي كــل مــا يصدر عنه سبحانه.

72-وعد الله ... وهو الفوز العظيم .

كما تقارن الآية التالية بين ما ألــزم الله بــه الكفــار ومــا ألــزم بــه وعــدا مــن عنــده للمؤمنين. ففي الآية 68 فصل القرآن مــا ألــزم الله بــه المنــافقين والمنافقــات والكفــار. وفي هذه الآية 73 فصل مــا ســيحققه للمــؤمنين مــن الجــزاء .فوصــف الله منــازلهم بأنها في جنات تتخللها الأنهار الجاريــة ،مــن تمــام النعــيم أنهــم لا يخشــون تحــولهم عنها هم خالدون. وقد أعدت لهم قصور جمعت ما شــئت مــن الجمــال والــذوق الرفيــع

لا يلحقها نقص لا في المظهر ولا في المخبر ، هو الطيب الكامل الطيب .وفوق هذه النعم التي تتجاوز الوصف وتبهج النفس فتملأها راحة لا تتطلع إلى شيء وراءه .ولكن فوق التكريم المادي هذا ، ما يتنزل عليهم فيملأ أرواحهم ، ويشع في قلوبهم : أن الله فوزهم بالرضا الأكمل والأعظم منه .وذلك هو الفوز العظيم الذي لا يطمح المكرمون إلى شيء وراءه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجهاد : القتال لنصر الدين.

المأوى : المكان الذي يرجع إليه الإنسان ويستقر.

الغلظ : خشونة الجانب .

كلمة الكفر : جنس لكل كلام يدل على كفر قائله.

الهــم : نية الفعل والانجاز .
نقموا : من النقم وهو رفض الشيء واستنكاره.
اللمز : الاغتياب وتتبع المعايب بحق أو بباطل .
يتولوا: يعرضوا رافضين التوبة.
يوم يلقونه: يوم الحساب يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي :

يدعو الله نبيه ويأمره أن يتولى جهاد الكافرين والمنافقين على مرتبة سواء، وأن لا يلين لهم، هم أهل لذلك في الدنيا ومآلهم يوم القيامة جهنم. وإنها لأسوأ مصير.
من صفاتهم أنهم يقّولون ما يفضح دخائلهم، ثم يحلفون بالله نافين أن يكون ما بلغك عنهم صادقا .وكذبوا في أيمانهم فهم قد قالوا ما يحقق كفرهم بكلام لا يتكلم به مؤمن . وبذلك يكونون قد تحقق كفرهم بعد ما ادعوه من الإسلام. ومن ناحية أخرى دبروا وأعدوا من المكر ما حال الله بينهم وبين تحقيقه. ولماذا كل هذا العداء؟ إنه إذا حللت وضعهم لا تجد شيئا يوجب العداوة والنقمة على الدين الإسلامي ، إلا أمر واحد، وهو أن حياتهم تحولت من خصاصة إلى غنى بانتشار الإسلام في المدينة وتحرك الاقتصاد حركة إيجابية بفضل الله ،ونالوا من الغنائم ما زادهم يسرا .وهذا يوجب الشكر والولاء لا النقمة والعداوة . ولذا فإنهم إن يتوبوا من نفاقهم يتحولون إلى ما هو خير باندماجهم الاندماج السليم في المجتمع وتطمئن أرواحهم ، وإن تمادوا على نفاقهم فسيكون جزاؤهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة. ولا يجدون وليا ينتسبون إليه ويقربهم، ولا يجدون نصيرا ينصرهم لأن الله ضيق عليه بإسلام سكان الجزيرة العربية.
ومن المنافقين نمط آخر كان فقيرا فأعلن عن معاهدته لله أنه إن رزقه الله مالاً ليتصدقن به ويواسي المحتاجين ،وسيزيده المال صلاحا فلا تجده إلا سائرا مع الصالحين. ولكنه بعد أن أجاب الله طلبه استولى عليه البخل، ونقض عهده معرضا عن الوفاء بالتزامه. فكان إخلافهم مفضيا إلى تمكن النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم ما وعدوا الله عليه، وبسبب استمرارهم على الكذب. ما الذي أعماهم حتى جهلوا أن الله يعلم ما يجري في ضمائرهم وما يتحدثون به بصوت خافت مع المقربين منهم، الذين يتناجون معهم. ولا غرابة في ذلك فالله هو وحده العليم بما يغيب عن البشر مما لا يستطيعون إدراكه.

ومن مخازي المنافقين أنهم يعيبون ساخرين من الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين، ومن الذين لا يملكون مالا فيقدمون جهودهم للمساعدة. ويحرك المنافقون قوى الشر الناقد فيهم ليبرزوهم في صورة توجب السخرية منهم . عاملهم الله بما يقلب أحوالهم إلى صورة توجب السخرية منهم. ومع ذلك فسينالهم عذاب أليم .

أعلم الله نبيه أن المنافقين الذين سيلزمهم النفاق إلى الموت، لن ينالوا المغفرة من الله، سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وذلك لأنهم كفروا بالله وبرسوله. وكانوا فاسقين لا يستحيون من فعل جميع المخازي .

بيان المعنى العام :

73-74، يا أيها النبي جاهد ...ولا نصير.

الجهاد يطلق ويراد منه المحاربة بآلات القتال، ويطلق الجهاد على إلزام الخصم الرضوخ بالحجة إلى الحق. وكلاهما مطلوب من المؤمنين .وطلبت الآية من رسول الله أن يجاهد الكفار والمنافقين. أما جهاد الكفار فهو تأكيد لما سبق في آيات كثيرة وخاصة في هذه السورة من حض المسلمين على الجهاد بكل ما يُمكّن من خضد شوكة الكفر بمختلف أنواع الأسلحة. وأما المنافقون فهم لم يعلنوا كفرهم، بل هم يظهرون للناس أنهم مؤمنون، وينفون عن أنفسهم كل صلة لهم بالكفر. وقد اختلف المفسرون هل إن القتال الحربي خاص بالكافرين أو هو يشمل من تحقق نفاقه أيضا؟ وحذاق المفسرين على الأول. وهو الأظهر لأن المحاربة كإقامة الحدود لا تكون بالظن .

وأمر الرسول أن يعامل المنافقين بغلظة على خلاف ما طبع عليه ﷺ من اللين والرحمة في التعامل والخطاب. وذلك لفسادهم وفقدهم للرجولة والشهامة ، فلا ينفع معهم اللين .

وقرن القرآن ذلك بالإخبار عن جزائهم، وهو ما تأكد في القرآن أنهم يعودن يوم القيامة إلى جهنم، كما يعود ساكن البيت إلى بيته. وما أسوأه من مصير. ثم كشف عن حقيقة المنافقين وتلونهم وفساد دخيلتهم وتهاونهم بالأيمان، فقال تعالى: إنك إن أوقفتهم على ما صدر منهم من تجن على الإسلام وطعن فيه ،كان موقفهم أنهم يحلفون الأيمان المغلظة أنهم ما صدر منهم ذلك وأن الناقلين يكذبون ، لقد قالوا ما سجله القرآن: أنهم إن عادوا إلى المدينة ليخرجن الأعز(**يعنون جماعة المنافقين**) الأذل (يعنون المؤمنين) وأنكروا. وكما قال الجُلاس بن سويد: لئن كان ما يقوله محمد حقا فنحن أشر من حميرنا . ولما بلغ كلامه النبي ﷺ ودعاه وأوقفه حلف

الأيمان على نفي ذلك. وتحقق كفرهم بعد مـا ادعـوه مـن الإيمـان بمقـالاتهم المناقضـة للإيمان. وهَمّ بعض المنافقين فـدبر مـؤامرة يقضـي بهـا علـى رسـول الله ﷺ بنصـب كمين له مرجعه من غزوة تبوك ، وأطلع الله نبيـه فلـم يتحقـق لهـم مـن مكـرهم مـا أرادوا أن يصلوا إليه.

ما هو الأمر الذي جعلهم ناقمين على الرسول وعلى الدين الإسلامي يضمرون لهما كل هذا العداء ؟ لو بحثت لم تجد إلا شيئا واحدا، هو أن الله أغناهم ورسوله من فضله. تحولت حالتهم من فقر وخصاصة إلى غنى، تبعا للحركة الاقتصادية النشيطة التي أدخلها المهاجرون في المدينة، وتبعا لما وزعه الرسول ﷺ من أموال الغنائم والصدقات. ومعنى ذلك أنهم قابلوا الفضل والإكرام بالجحود والنكران، مما يثبت سوء طويتهم وفساد أخلاقهم.

ويعلن القرآن أنه لا يهدف من متابعة المنافقين وفضح نواياهم وأعمالهم ومكرهم، طردهم طردا نهائيا، ولكن يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عن النفاق، والدخول في دين الله. إنهم إن يتوبوا يتحولون من وضع سيء إلى وضع صالح ومن الشر إلى الخير . وأما إن رفضوا التوبة وأصروا على النفاق يحذرهم القرآن بأنهم لا يجنون إلا عذابا أليما ، أولا في الدنيا بعيشهم في خوف من النكال بهم إن تبين أمرهم ، وثانيا يوم القيامة فلا مطمع لهم في نيل ثواب ولا كرامة .ولا يجدون في الأرض من ينفعهم ولا من يؤيدهم ولا من ينصرهم ، لأن جزيرة العرب قد دخلت في الإسلام وتوحدت كلمتها على الحق .

75←77، ومنهم من عاهد الله ـــ بما كانوا يكذبون.

ثم تولى القرآن فضح نمط آخر من المنافقين، هو نمـط ذكـر القـرآن أنـه كـان محتاجـا فقيرا ، فعاهد الله في قلبه وأمام رسوله أنه إن وسـع الله عليـه ، وآتـاه مـن فضـله مما يشير إلى أنه يطلب رزقا واسعا ، أنـه يكـون بمالـه عضـوا صـالحا فـي المجتمـع ، يتصدق ويسعف المحتاجين ، وينفق فيما يقـيم مصـالح الأمـة. وآتـاه الله مـا طلبـه ، ونما ماله نموا هو من فضل الله الواسع. ولمـا بلـغ ثـراؤه حـدا كبيـرا اسـتولى عليـه الشح، وحجبه عن المعروف، بخل تمكـن منـه أصـبح تفكيـره يـدور حـول محـوره. وتولى معرضا عن كل ما التزم به وعاهد عليه. ومـن سـنن الله فـي الخليقـة، أن الشـر يُضعفُ تأثير دواعي الصلاح والاستقامة، ويقـود إلـى شـر آخـر، علـى عكـس فعـل الصالحات الذي يفتح للمتقي المضي في مـنهج الهـدى والرشـد. قـال تعـالى:(ويزيـد الله الذين اهتدوا هدى)[1] .

---

[1] سورة مريم آية 76

فكان نقضه للعهد وبخلــه مفضـيا إلـى أن ثبـت الله فـي قلـوب هـذا الـنمط نفاقـا، لا يفارقهم إلى يوم القيامة الذي يحشر فيه البشر جميعهم إلـى ربهـم فيقـدمون علـى ربهـم شارة النفاق واضحة عليهم. وذلك بجمعهـم بـين إخلافهـم الوعـد الصـريح لله وبسـبب كذبهم. ولا يظن هذا الفريق أنه خدع الله حتى صدقه فيما عاهـد بـه، ومكنـه مـن المـال الوفير الذي هو كل همه وغايته. فـالله لا يخـدع وهـو العلـيم بمـا غـاب عـن النـاس علْمُهُ، فضلا عما علموه.

78- ألم يعلموا ....علام الغيوب.

ما لهم مضوا في هذا السبيل ؟ ألا يعلمـون أن الله لا يخفـى عليـه شـيء مـن أمـرهم ؟ فالله يعلم علما دقيقا ما يجري في سر الإنسان. وما يتحدث بـه حـديثا مخفيـا مـع أقـرب الناس إليه من الأسرار.

وما وجدته في معظم كتب التفسير أن الآية نزلت فـي ثعلبـة بـن حاطـب ،رغـب إلـى رسول الله أن يسأل الله له سعة في الـرزق ، وأنـه بعـد أن كثـر مالـه فـارق مجـالس الرسول ﷺ .ولما أوجب الله الزكاة بعث الرسـول إليـه السـاعي فـرده ردا قبيحـا، ثـم إنه جاء إلى النبي ﷺ تائبا فلم يقبل توبته، وتابع العرض مـع أبـي بكـر وعمـر إلـى أن توفي في عهد عثمان. وهذه الرواية ضعيفة منكرة سندا .كمـا أنهـا هاويـة متنـا .فـالله لم يعين الفاعل ، والتائب تقبل توبته وإن كانـت بعـد كفـر ، ومـن تـأخر عـن تقـديم صدقته فالحكم أنها تقبل منه متى قـدم بهـا، وحسـابه علـى الله عـن التـأخير ، ومـن ناحية أخرى فإن ثعلبة ممن شهد بدرا. ومقام البـدريين المقـام الـذي لا يـدانى بشـهادة رسول ﷺ . حشرنا الله معهم وكتب لنا جوارهم في الجنة.

ثم إن هذا النمط لم ينقطع من المجتمع الإسلامي ، فكثيرا مـا يتقـدم بعـض مـن لا مـال لهم بالنكير على أرباب الثراء يستنقصهم ، ويظهرون أنهـم لـو كـان لهـم مـال لأنفقـوا بسخاء وأسهموا في القيام بالمصالح العامة للأمـة ،وقـد يتفضـل الله علـيهم بمـا كـانوا يتمنونه، وتجد بعضهم ينقلب أشد شحا وحبا للمال من الذين كان يعترض عليهم.

79-80، الذين يلمزون ... لا يهدي القوم الفاسقين.

ومـن مسـاوئ المنـافقين مـع شـحهم وبخلهـم بالمـال أنهـم يطعنـون ويستنقصـون المساهمين المؤمنين عندما يقـدمون إسـهاماتهم وصـدقاتهم، فيرمـونهم بالريـاء، أو بـأن ما قدموه تافه بالنسبة لسعة رزقهـم. وكـذلك يطعنـون فـي الفقـراء الـذين لا يملكـون سوى قوتهم البدنية ويتقدمون إلى رسول الله بما عنـدهم مـن جهـد ليبـذلوه فيمـا يعـود على الجماعة بالخير. ثم يسخرون منهم بما يستنقصونهم به عند من يسمعهم .

جزاؤهم أن الله يسخر منهم. ومعنى سخرية الله أن يبلوهم بنقائص تلفت الأنظار حتى يكونوا سخرية حقيقية عند الناس، بما يبتليهم به من بلايا. وجزاؤهم في الآخرة عذاب أليم .

(استغفر لهم الآية) ذكر كثير من المفسرين أسبابا نزلت عندها هذه الآية ترتبط بحالات معينة، معظمها لا يتجاوز حالة فردية. وطبيعة النص(لهم) تدل على الجمع لا على حالة خاصة. ولذلك فالذي ترجح عندي أن النبي ﷺ ، كما هو معلوم، كان حريصا أشد الحرص على اهتداء الناس، وعبر القرآن أبلغ تعبير عن هذا الحرص، بقوله : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)[1] – وقال تعالى : (فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين)[2] – والبخع قتل النفس غمّا. وقوله تعالى : (فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل)[3] –فكان حريصا على غشيان مجالسهم ، يقظا لما يوردون عليه من إشكالات فيتولى إرشادهم بما عرف عنه من اللين ووضوح الحجة، لا ييأس فيكرر عرض الحق ، كل همه أن ينحدر الكفر ويشرق الإيمان في قلوب البشر .فكان يدعو ربه أن يغفر لهؤلاء المنافقين **بهدايتهم للإسلام** ، وحاشاه أن يطلب المغفرة للكفار والمنافقين الذين ينهون حياتهم على النفاق. أعلمه الله أن بعض المنافقين لا يدخلون أبدا إلى الإسلام. فبالنسبة لهؤلاء الذين علم الله أنهم يموتون على الكفر، خاطبه بقوله: استغفر لهم الآية...فتكون هذه الآية في مساق قوله تعالى:(ان الله لا يغفر أن يشرك به)[4] – إن الآيات السابقة كشفت ما ينطوي عليه كثير من المنافقين من الخبث والفساد ، وأن بعضهم قد تأصل فيه هذا إلى درجة أنه سيلازمه إلى فراقه للدنيا ويكون معه يوم القيامة كما قدمنا. وأن بعضهم سيهديه الله ويكون عنصرا صالحا يجاهد لإعلاء كلمة الله. والاحتجاج بأن الله أطلع نبيه على المنافقين لم يرد فيه أنه أطلعه على من سيموت على النفاق وعلى من ستحل في قلبه الهداية.

وبناء على ذلك يكون معنى الآية والله أعلم: استغفر لهم تبعا لما طبعت عليه من الرحمة، أو لا تستغفر لهم تبعا لما سبق في علم الله من موافاتهم على الكفر

---

[1] سورة الكهف آية 6

[2] سورة الشعراء آية 3

[3] سورة الزمر آية41

[4] سورة النساء آية 48

والنفاق، الحالتان سواء في النتيجة والغاية ، إن الله لا يغفر لهم أبدا ولو بالغت في الاستغفار ولفظ السبعين لا يراد منه حقيقته العددية ولكن يرمز إلى الكثرة الكاثرة. فإن قيل لماذا كان الحكم حاسما بهذه الدرجة؟ أجابت الآية مبينة عدل الله في هذا :ذلك الحكم البات سببه أنهم كفروا بالله ورسوله كفرا صمموا عليه وأغلقوا عقولهم عن التردد فيه أو التساؤل ، إنه لا صلة بينهم وبينكم لا في الحاضر ولا في المستقبل . ثم أضافوا إلى كفرهم الفسق، الذي كان أيضا سببا في نفي أن تحصل لهم الهداية. والفسق مرتبة زائدة في الفساد على الكفر ، فالفاسق يضيف إلى فساد عقيدته هبوطا في سلوكه وإقبالا على المخازي وحركية في مواقع الشر.

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

المخلفون : الذين لم يشاركوا في غزوة تبوك.

مقعدهم : قعودهم.

خلاف: خلف.

يفقهون : يدركون ما وراء الظاهر.

الضحك : مقصود به الفرح.

البكاء : مقصود به الحزن.

طائفة : جماعة.

الخالفون : الذين يتركهم المجاهدون وراءهم في الديار، من العجزة والنساء والصبيان ومن لا غناء له في الحرب .

بيان المعنى الإجمالي :

ظن المنافقون أن النبي ﷺ صدقهم فيما قدموا له من معاذير، ولذلك أذن لهم في التخلف عن الغزو. فرحوا بذلك لأنهم كانوا يكرهون أن يسهموا في الجهاد بأموالهم

وأنفسهم، وأضافوا إلى ذلك عملهم على تثبيط المجاهدين قائلين: إن الحر شديد فلا تخرجوا في وقت الحر. قل لهم: إنكم فررتم من حر الصيف وعرضتم أنفسكم لعذاب جهنم التي هي أشد حرا. ولكنهم لا يفقهون أي لا يتجاوزون الظواهر إلى ما وراءها. إن فرحهم هو لفترة قصيرة ، وسيعقبه حزن مقيم . بسبب ما قدموا وعملوا.

إنك إن دعوت المؤمنين للجهاد مرة أخرى وحضرت طائفة من رؤوس أولئك المنافقين، و طلبوا منك أن تأذن لهم في الخروج مع جيش المسلمين ، فاطردهم وقل لهم :لا أسمح لكم أن تخرجوا معي ،لا في هذه المرة ولا فيما يستقبل من الأزمان. ولن أمكنكمْ من شرف القتال للأعداء . إنكم رضيتم وفضلتم القعود في المرة الأولى وقدمتم المعاذير الكاذبة ، فكونوا دائما مع الخالفين : من النساء والصبيان وغير القادرين على حمل السلاح.

بيان المعنى العام :

81-82، فرح المخلفون بمقعدهم ...بما كانوا يكسبون.

أبلغ النبي ﷺ المؤمنين دعوة ربهم للجهاد بأموالهم وأنفسهم كما سبق ذلك في هذه السورة" من الآية 37 إلى الآية 43" في غزوة تبوك. وخرج مع رسول الله اثنا عشر ألفا، وتخلف عنه من تخلف وخاصة المنافقون وقد قدمنا أن استئذانهم في البقاء كان شارة نفاق. ثم عادت هذه الآية بتفصيل أوضاعهم وما كتب لهم من الجزاء على نفاقهم.

عمّتْ المنافقين الفرحة لمّا استأذنوا الرسول في البقاء في المدينة وأذن لهم في عدم الخروج للجهاد. وحقق القرآن أن بقاءهم وفرحهم كان بسبب كراهتهم الإسهام في نصر الإسلام لا بأموالهم ولا بأنفسهم فمعاذيرهم كانت كاذبة والحقيقة أن نفوسهم انطوت على كُرْهٍ للإسلام ولما يعود عليه بالخير، وكره للجهاد وبذل المال أو النفس في سبيله، وثبطوا الناس عن المشاركة في الجهاد وخوفوهم بأن الوقت وقت شديد الحر، يتعرضون فيه إلى مشاق خطيرة . قل لهم يا محمد: إنكم عرضتم أنفسكم لنار جهنم تصلونها، واستهزاء بهم صرح بأنها أشد حرا. وختمت الآية بإثبات أنهم أغبياء لا يدركون إلا الظواهر، ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك، فهم لا يفقهون.

82- فليضحكوا قليلا ...بما كانوا يكسبون.

بنى على وضعهم العاجل الذي ابتهجوا فيه بالتخلف قوله: إن فرحهم بما ظنوا أنهم استطاعوا أن يروجوه على النبي ﷺ من معاذير التخلف الكاذبة ، هو فرح تعقبه

عن قريب حسرة ،فليضحكوا قليلا ،على معنى ليفرحوا زمنا قليلا يعقبه أسف بما يظهر الله رسوله على أعدائه وبانكشاف أمركم.

إن بكاءهم بما يرمز إليه لفظ البكاء من حزن وأسى هو حزن مقيم دائم. وذلك جزاء وفاق، استحقوه باجتهادهم في التضليل والكذب.

83-84، فإن رجعك الله...مع الخالفين.

ثم اعلم الله نبيه أن عليه أن يطبق عليهم عقوبة أخرى تنزل بهم عن مقامات الريادة والسيادة ،وتبين هوانهم وعدم الاكترات بهم في المستقبل ، فيقول الله لنبيه : إنك إن أعلنت الجهاد في المستقبل ودعوت المؤمنين للاستعداد ، على النحو الذي تم في غزوة تبوك ،وتعرضت لك تلك الطائفة من رؤوس النفاق تستأذنك في الخروج مع الجيش ، فسجل عليهم هوانهم وامنعهم من الخروج معك، وقل لهم : لن أسمح لكم بشرف الخروج معي أبدا، فجيش المسلمين غني عنكم ، ولن أقبل أن أراكم تقاتلون معي عدوا. ذلك أنكم رضيتم واطمأننتم للقعود في المرة الأولى، وقدمتم المعاذير الكاذبة ، فاقعدوا مع الخالفين من النساء والضعفة من الأطفال والشيوخ.

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطول : السعة في المال.

القاعدون : من لا يستطيع الخروج للجهاد، ومـن أبقـاه النبـي صـلى الله عليـه وسـلم لضبط الأمور عند مغيبه.

الخوالف : النساء . والرجل الذي لا خير فيه .

طبع : ختم بما يبقي على المطبوع مغلقا لا يفتح.

الخيرات : جمع خيرة وهو المستحسن من كل شيء.

الأعراب : سكان البادية.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد غزوة تبوك حرم الله تحريما دائما على نبيـه أن يكـرم منافقـا بالصـلاة عليـه .كمـا حرم عليه أن يقف على قبره عنـد الـدفن ، فـأخزاهم بحرمـانهم مـن بركـة صـلاته ، وبالإهانة لعدم القيام على قبره. ما حكم بـه علـيهم هـو جـزاء كفـرهم بـالله وبرسـوله كفرا التزموه إلى الموت .

كما أيقظ القرآن المؤمنين حتى لا يعطوا قيمة لمـا رُزقـه بعـض المنـافقين مـن أمـوال وأولاد وأن لا يعجبوا بها ، فإنه في الحقيقة عذاب لهم فـي الـدنيا إذ هـم يعيشـون علـى خوف على ما كسبوا ، وزاد الشح تمكنا منهم فحلت النذالـة فـي سـلوكهم وابتعـدوا عـن منازل العزة والشهامة .وفوق ذلك أن تخرج أرواحهم من أبدانهم وهم كافرون .

ومظهر آخر من مظاهر المنافقين: أنهم إذا أنـزل الله علـى رسـوله سـورة تـدعو إلـى الإيمان، رأيت التجهم يعلو وجوههم، وإذا أنزلـت سـورة تـدعو إلـى الجهـاد طلبـوا أن يبقيهم الرسول في المدينة. لم يجدوا ما يشـجعهم علـى الجهـاد فرضـوا أن يبقـوا مـع النساء ومع من لا حظ له من الشـجاعة والرجولـة. فقلـوبهم مغلقـة لا يمكـن أن يـدخل إليها نور الحكمة ولا النظر البعيد ،كمـا يطبـع علـى الرسـالة التـي لا يـراد أن تفـتح. فهم قوم تفكيرهم سطحي لا ينفذ إلى ما وراء الظواهر والحظ العاجل.

وفي مقابل المنافقين تعرض السورة صورة المؤمنين وهم مع نبـيهم فـي كـل أمـر فـي الإيمان وفي الجهاد بأموالهم وأنفسهم، إنهم بذلك حـق علـيهم أن يحصـلوا علـى النجـاح التام ، فقد هيأ الله لهم جنات تتخللها الأنهار.إن مشهدهم ينادي بأنه الفوز العظيم .

وكما كان النفاق في المدينة وظهـر فـي غـزوة تبـوك ، فكـذلك انكشـف النفـاق فـي أعراب البادية . تخلف الأعراب عن الغـزو بعـد أن أمـروا بـه، وبعضـهم جـاء بعـد الغزو، قدم عذره الصادق فعذره النبي ﷺ ، وبعضـهم قعـد عـن الجهـاد لتكذيبـه وعـدم

إيمانه بالله ورسوله. وهـؤلاء سـيحل علـى الكـافرين مـنهم عـذاب أليم فـي الـدنيا والآخرة .

بيان المعنى العام :

84- ولا تصل على أحد منهم ... و ماتوا و هم فاسقون.

كان النبي ﷺ يصلي على من مات مـن المسـلمين ، وتظـاهرُ المنـافقين بالإسـلام لـم يحرمهم من صلاته عليهم. وبعد أن تمرد النفـاق فـي غـزو تبـوك وثبطـوا المـؤمنين على القتال ولم يشاركوا لا بالمال ولا بـالنفس فيهـا ، وعـاقبهم الله بمـا عـاقبهم وشـدد النكير عليهم ، ومنعهم من المشـاركة فيمـا يسـتقبل مـن الغـزوات ، فكانـت القطيعـة واضحة بين المؤمنين والمنافقين ، أضاف الله إلـى ذلـك تسـليط خـزي آخـر علـيهم ، فمنع رسوله من الصلاة على موتى المنافقين. وفـي عـدم صـلاته زيـادة علـى حرمـان الميت من بركة دعائه، إظهار لنفاقه وكشـف لحقيقتـه . وإهانـةً لموتـاهم منعـه مـن أن يقوم على قبر الميت المنافق، إذ كان مـن كمـال خلـق النبـي ﷺ أن مـن مـات يكرمـه بالوقوف حتى يتم دفنه. إن هذا الحرمان وتلك المهانـة هـي بسـبب كفـر المنـافق بـالله وبرسوله كفرا تواصل إلى آخر لحظة من حياته، ومات فاسـقا علـى حسـب مـا قـدمناه أن الفسق يدل على ظهور فساد الكافر في أخلاقه وسلوكه.

85- ولا تعجبك أموالهم ...وهم كافرون.

ويريد القرآن أن يهون شأنهم فتعرض إلى مـا مكـنهم الله مـن مـال وأولاد مـن متـاع الحياة الدنيا التي تلفت الأنظار، وربما تدفع إلـى الإعجـاب بهـا، شـأن البريـق اللافـت للأنظار من كثرة الأولاد التـي تحـيط بـرئيس العائلـة فتكسـبه عـزة فـي المحافـل، وكذلك فاخر اللبـاس والخيْـل والـنعم والـذهب والفضـة ومـا يصـحبها مـن رفاهيـة المنازل . هوّنَ القرآن من هذه المظـاهر، والخطـاب للنبـي والمقصـود أمتـه، فـأيقظهم إلى أن كل ما يشاهدونه من أنواع النعم التي حظـي بهـا كثيـر مـن المنـافقين، والتـي ربما يود بعض الناس أن يكون لهـم مـثلهم، أن تلـك الـنعم هـي فـي حقيقتهـا عـذاب باطن يكتمونه في أنفسـهم ، أراد الله أن تكـون مسـالك لإنـزال العـذاب علـيهم فـي الدنيا . ذلك أن المنافقين غير مطمئنين فـي حيـاتهم ،يتضـاعف خـوفهم علـى مكاسـبهم بافتضاح أمرهم وما يتبعه من نزول النكال بهـم ، كمـا كانـت سـببا لـتمكن الشـح مـن قلوبهم فصحبتهم نذالة البخل، وحرموا مـن الشـهامة .ومـع العـذاب الـدنيوي صـحبهم النفاق إلى خروج أرواحهم فيموتون على الكفر . والعياذ بالله.

86-87، وإذا أنزلت سورة...فهم لا يفقهون.

وإذا أنزلت سورة :تسجيل آخر مفصل لـبعض أحـوال المنـافقين يشـنع بهـم. ذلـك أن شأن المـؤمنين، كلمـا نـزل علـى رسـول سـورة جديـدة استبشـروا بهـا، ووعوهـا وأسرعوا للعمل بما فيها. وعقد الصحابة بينهم صـلات تمكـن مـن غـاب عـن مجلـس رسول الله ﷺ ، ونزل عنـد مغيبـه وحـي، أن يأتيـه رفيقـه بمـا جـد. هـذه الصـورة الوضيئة المشرقة يقابلها صـورة المنـافقين التـي كشـفتها الآيـة ، فـإذا أنزلـت علـى رسول الله سورة تدعو إلى الإيمان وتحث عليه وتَعِـدُ بـالفوز لمـن آمـن والشـقاء لمـن تولى وأعرض ، ظهر على المنافقين امتعاض وتبـرم .وإذا أنزلـت سـورة ضـمت إلـى ذلك الأمر بالجهاد كما وقع في هذه السـورة، ولـذلك خـص بعـض المفسـرين سـورة بسورة براءة، وتنكير سورة لا يعينها في سورة بـراءة، بـل شـأن المنـافقين لا يختلـف أمرهم بين سورة براءة وبين غيرها من السـور الداعيـة إلـى الإيمـان والجهـاد. فـإذا أمرت السورة بالجهاد، طلبوا أن يتركهم مع الباقين في المدينـة. مـا معنـى تـركهم فـي المدينة؟

معناه أنهم تأملوا فلم يعتبروا حظا لأيـة داعيـة لخـروجهم إلـى الجهـاد، فرضـوا تبعـا لذلك بأن يبقوا في المدينة مـع النسـاء والعجـزة والمرضـى .ومـا ذلـك إلا لهـوانهم النفسي وبعدهم عن منازل الشرف والرجولـة. إن قلـوبهم قلـوب مغلقـة لا ينفـذ إليهـا شعاع من نور الحكمة ولا القدرة على اتخاذ المواقف الصـائبة. كمـا يطبـع علـى مـا لا يراد فتحه طبعا يبقي عليه لا يُتجرأ علـى فتحـه. ومـا ذلـك إلا لأنهـم قـوم عجـزت عقولهم عن النفاذ إلى فهم بواطن الأمور.

88-89، لكن الرسول والذين ــ ذلك الفوز العظيم.

وإذا كان المنافقون تقاعسوا عن الجهاد ، فإنه في المقابـل تجـد الرسـول والـذين آمنـوا التابعون له في الإيمان وفي الجهاد وفي جميـع الأمـور، أسـرعوا إلـى الخـروج إلـى الجهاد وجاهدوا فعلا بـأموالهم وأنفسـهم .إنهـم لإخلاصـهم فـي الاسـتجابة لكـل مـا يدعوهم إليه رسول الله ﷺ كتب الله لهم مـن كـل أنـواع الجـزاء أحسـنه وأكملـه فـي الدنيا والآخرة. واختصوا بالنجاح الذي لا يصحبه نقـص المحقـق لجميـع الآمـال. ومـن فلاحهم ما أعده الله لهم يوم القيامة وخصهم بـه، مـن مـآلهم إلـى الإقامـة فيـه: جنـات تتخللها الأنهار، لا ينكد عليهم نعيمهم خوف التحول عمـا هـم فيـه، فهـم مقيمـون فيهـا إلى أبد الآبدين. والمشهد قد اكتمل بصلاح في الـدنيا وطاعـة راضـية لرسـوله وعنايـة تحققت من رب العزة بما أعده لهم من مقام فـي جنـات تتخللهـا الأنهـار. هـذا المشـهد لا تجد ما ينطلق عليه إلا أنه الفوز والنجاح العظيم الذي ليس فوقه نجاح.

90- وجاء المعذرون...عذاب أليم .

وكما سجل القرآن الموقــف المتخــاذل بالنسـبة للمنــافقين الــذين اعتــذروا عــن القتــال واستأذنوا في البقاء، وسجل الموقف المشرف للرســول ﷺ والمــؤمنين معــه، ســجل فــي هذه الآية موقف الأعــراب ســكان البادية الــذين دعــاهم الرسـول للالتحــاق بجــيش الإسلام في غزوة تبوك وكانوا على نوعين :

النوع الأول: من حال بينهم وبين الجهــاد موانــع حقيقيــة، حــرمتهم مــن الإســهام فــي الغزو، فقدموا علــى رســول الله عارضــين بحــق أعــذارهم، اســتمع إليــه وعــذرهم، وتحقق الهدف من قدومهم أنهم يرغبــون أن يكــون النبــي ﷺ مطمئنــا إلــى إخلاصــهم ، وأن يكون تخلفهم بعذر صــادق تخلفــا بــإذن منــه فــلا يقصــيهم فــي المســتقبل عــن المشاركة في الغزو.

النوع الثــاني: الأعــراب الــذين كــان وضــعهم يســمح بالجهــاد، ومســاعدة الرســول والمؤمنين في غزوهم بالمال والــنفس، ولكــنهم فضــلوا أن يقعــدوا فــي ديــارهم وأن لا يلتحقوا بالجيش الإسلامي. كذبوا فيما أعلنوه مــن إيمــان بــالله وبرســوله، وأطلــع النبــي ﷺ على نفــاقهم وأن معــاذيرهم كاذبــة وليــدة كفــر ونفــاق. وتحقــق أنّ الله سيصــيبهم بسبب كفرهم عذابا أليما، يتسلط الصــالحون المؤمنــون علــيهم بالأســر والقتــل، ويحــل عليهم غضب الله يوم القيامة فيدخلون جهنم خزايا.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

بيان معاني الألفاظ

الضعيف : واهن القوة من غير مرض.

الحرج: أصل الحرج الضيق، وإذا تعلق التكليف كــان المكلــف فــي ضــيق. إذ التكليــف لا يكون إلا بما فيه كلفة ومشقة تضعف أو تقوى.

ما عليهم من سبيل: ليس عليهم لوم ولا عقاب.

لن نؤمن لكم : لن نصدقكم.

تردون : ترجعون.

الغيب. ما غاب عن علم الناس.

والشهادة : ما علموه من الحاضر.

بيان المعنى الإجمالي:

الله رؤوف بعباده، يعـذرهم إذا أُمـروا فلـم ينفـذوا لعجـزهم ، ولا يلحقهـم لـوم ولا عقاب، كضعاف البنية من المؤمنين ، والمرضى ، والفقـراء الـذين لامـال لهـم يعينـون به في تسليح الجيش. المُهمّ أنهم يحملون نفوسـا تحـب الله ورسـوله ، ولا تـدخر جهـدا في العون بما يمكنها. إنهم بما انطـوت عليـه قلـوبهم مـن تعلـق بمـا يصـلح وبعـين المؤمنين هو محسنون عند الله، والمحسنون لا لوم عليهم ولا عقاب.

ويلتحق بالأنواع الثلاثة جماعة قدمُوا على رسول الله ﷺ ، لهـم حـظ عظـيم مـن القـوة والشجاعة والإخلاص، ولكن فقرهم ألجأهم إلـى أن يطلبـوا منـه مـا يركبونـه ليكونـوا مع المجاهدين. ولم يكن عنـد الرسـول مـا يحملهـم عليـه ،فـانقلبوا والحـزن الشـديد يعصف بهم باكين لعجزهم عن الالتحاق بالجيش لفقرهم.

إنه إذا كان الله قد عفا عن أصحاب الأعذار فـإن المنـافقين مؤاخـذون بـتخلفهم وكـذبهم وحلفهم الأيمان الفاجرة، لأنهم استأذنوك في التخلف وهـم قـادرون علـى المشـاركة فـي الغزو لسلامة أبدانهم وثرائهم. ولكنهم اختـاروا أن يبقـوا مـع النسـاء والعجـزة. وبـذلك أغلق الله منافذ عقولهم فاستولى عليهم الجهل وعدم التدبر.

بيان المعنى العام:

91-92، ليس على الضعفاء ...ألا يجدوا ما ينفقون.

من شارك في الغزو لرفع راية الإسـلام كـان جـزاؤه مـا وصـفته الآيتـان -90/89- من التكريم الفائق للوصف. وتحدثت آيـات كثيـرة عـن المنـافقين المعتـذرين بالمعـاذير الكاذبة وعما سيلقونه من نكال وإهانة في الدنيا والآخـرة. وفصـلت هـذا الآيـات الـذين لم يشاركوا لعذر مقبول. وهم :

أولا الضعفاء : من كانت قوتهم هزيلة لا يتحملـون مشـاق السـفر ، ولا يتمكنـون مـن الضرب بالسلاح ، ولا يقدرون على إعانة المجاهـدين ، فيكـون حضـورهم فـي القتـال ثقلا على الجماعة يعوقهم أكثر مما ينفعهم .

ثانيا المرضى : بما يشـمل المـرض المـزمن كـالعمى والزمانـة ،والمـرض الـوقتي الذي يضعف البدن عن النشاط ، ويلزمـه الراحـة والعـلاج . فهـؤلاء لا دور لهـم فـي القتال . فهم معذورون .

ثالثا الفقراء :الذين لا يشـــاركون بالمـــال، بنـــاء علـــى أن المطلـــوب مـــن المـــؤمنين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وهؤلاء لا مال لهم. فهم معذورون .

هؤلاء غير مكلفين بالإسهام في الجهاد، إذا تحقـق مـــنهم النصـــح. إذا قـــاموا بمـــا يعبـــر عن إخلاصهم في الدين، وسعيهم بالنصح مما يكشف عـــن كـــونهم حقـــا مـــع المجاهـــدين لايدخرون جهدا. وكم من ضعيف أو مريض يُمَكّنهُ القدرُ مـــن معلومـــات لهـــا أثـــر تفيـــد المقاتلين فيطير بها فرحا، ويدبر الطريقة المثلى لتبليغها.

إنه إذا تأصل الإخلاص لله ورسوله، بعقد القلب علـــى تقـــديم كـــل مـــا يـــتمكن منـــه مـــن مساعدة، فإن هذا النمط هو نمط محســـن لا صـــلة بينـــه وبـــين الإســـاءة. والمحســـنون لا لوم عليهم ولا عقاب. وقد صيغت هذه الخاتمـــة فـــي قالـــب قاعـــدة عامـــة تطبـــق فـــي جميع الظروف والأحوال . وهـــو الله الغفـــار لـــذنوب عبـــاده ولتقصـــيرهم ولقصـــورهم ، وهو الرحيم بهم فلا يؤاخذهم مع حسن نياتهم وأفعالهم.

رابعا نوع آخر من الفقراء: لهم قوة وخبرة بالقتال، جـــاؤوك يـــا محمـــد طـــالبين منـــك أن تساعدهم بما يركبون عليه ليخرجوا مع الجـــيش، إذ المســـافة بـــين المدينـــة وبـــين تبـــوك طويلة وبعيدة ،لا غنى للمجاهد عن دابـــة تحمـــل متاعـــه وســـلاحه وتنقلـــه فـــي المفـــاوز الفاصلة .واعتذرتَ لهم بأنك لا تملك رواحل تســـاعدهم بهـــا .فانكســـروا لـــذلك وعمهـــم الحزن وفاضت عيونهم بالدمع ، كان طمـــوحهم للإســـهام فـــي الجهـــاد كبيـــرا ، وكانـــت آمالهم أن يجدوا عندك طلبتهم ، فانفجروا باكين رغم قوتهم وشجاعتهم .

الفهـــــرس